الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المجلد الأول

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المتوفى — ٦٧١ هـ

الجزء الأول

عطیہ

برائے دار العلوم مجددیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد امین صاحب وزیرآبادی ضلع گوجرانوالہ

محرم ۱۴۰۳ ہجری

قصر مقام

العین

ابوظبی

أعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

لعلّنا فى غير حاجة إلى تعريف القرّاء بهـذا التفسير العظيم ، بعـد أن عرفوه فى طبعتـه الأولى؛ فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير . إذ لم يكد يخرج منه جزء حتى تهافت عليه الجمهور، ممن عرفوا فضلَ القرطبي وعلمَه وأدبَه ، ودقّته فى تأويل كتاب الله تعالى ، وعَرْض أقوال الأئمة من جهابذة المحققين، وأُولى البصر بكتاب الله من أعلام المجتهدين .

ولقد رأى القرّاء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلّفه فيـه من جهد كبير ، وعناية فائقة ؛ يدلّان على عُمقه فى البحث ، ومقدرته على فهم كتاب الله، وإلمـامه بأصول علوم الشريعـة وفروعها ، من لغـة وأدب وبلاغة . يتجلّى كل أولئك فى استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة، حتى ليكاد يستغنى به القارئ عن دراسة كتب الفقه، ثم فى استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها ؛ مما يشهد له بطول الباع وسَعة الأفق .

وإن أُخذ عليـه شيء فليس إلا هَنَاتٍ يسيرةٌ ، لا تنقص من مقـداره ، ولا تغضّ من قيمته؛ فقد ينبو الحسام ، وقد يكبو الجواد .

فمن ذلك أنه خالف أحيانا ما اشترطه على نفسه فى مقدّمة كتابه إذ يقول : « ... وأضرب عن كثير من قَصص المفسرين ، وأخبار المؤرّخين ؛ إلا ما لا بُدّ منـه ، ولا غنى عنه للتبيين ... » .

Marfat.com

فليس مما لا بُدّ منه أو لا غنى عنه ماينقله عن كعب الأحبار : « أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألقى فى قلبه فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا[1] من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت ... »[2] .

وليس مما لا بُدّ منه : « أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أُهبطوا تأكّدت العداوة وجعل رزقها التراب »[3] .

وليس مما لا بُدّ منه ما يرويه عن ابن عباس قال : «سألت اليهودُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : مَلَك من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله »[4] .

وليس مما لا بُدّ منه ما ذكره عن كلب أصحاب الكهف والاختلاف فى لونه وفى اسمه[5] . ولا ما يرويه عن الزهرى فى قوله تعالى « جاعِلِ الملائكةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : أن جبريل عليه السلام قال له : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإنّ العرش لعلى كاهله، وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصَع[6] ... » .

ولا ما ذكره فى قوله تعالى : « ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقهم يومئذ ثمانيةٌ » : أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال[7] بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، وفوق ظهورهن العرش[8] » .

---

(١) اسم الحوت .		(٢) راجع ج ١ ص ٢٥٧ .		(٣) ج ١ ص ٣١٣ .
(٤) ج ١ ص ٢٤٧		(٥) راجع ج ١٠ ص ٣٧٠ .		(٦) ج ١٤ ص ٣٢٠ والوصع : عصفور صغير .
(٧) الأوعال : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى		(٨) ج ١٨ ص ٢٦٧

Marfat.com

إلى غير ذلك من الأمثلة التى ترد فى مناسبات مختلفة ، جارَى فيها من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليّات ولا يتحرّون الدقة فى المعلومات الكونية ، خصوصا فى الكلام على خلق السموات والأرض ، وتأويل الآيات التى تتعرض للظواهر الطبيعية ، أو تشير إلى المسائل العلمية .

وللمؤلف فى ذلك كثير من العذر ؛ لأنه — رحمه الله — تابع فيه ثقافة عصره ، وما تجرى به ألسنة العلماء فى ذلك الزمان .

وقد رأت الدار — بعد أن تحقّقت حاجة الناس إلى هذا الكتاب ، ورغبة الكثير من العلماء فى الأقطار الإسلامية فى ذيوعه — أن تقرر إعادة طبعه تعميما للفائدة .

هذا ، وسيرى القارئ أننا حرصنا على أن تكون هذه الطبعة موافقة لسابقتها فى أجزائها وصفحاتها وأرقامها ؛ إلا فى تفاوت يسير ، يستطيع القارئ أن يدركه فى الصفحة التالية أو السابقة .

كما أننا نبهنا فى هذه الطبعة إلى أمر لم يكن فى سابقتها ؛ فعندما يذكر المؤلف عبارة : « على ما يأتى بيانه » نوضّح ذلك فى الهامش ، مبيّنين موضعه من الكتاب ؛ حتى يسهل على القارئ متابعة الدراسة ، وربط الكلام بعضه ببعض ، دون جهد أو عناء .

ولا يفوتنى أن أنوّه بفضل حضرات الزملاء الذين اشتركوا معى فى تصحيح هذا الكتاب فى طبعته الأولى بعد جزئه الرابع ، وهم السادة : الشيخ إبراهيم اطفيش ، والشيخ بشندى خلف الله ، والشيخ محمد محمد حسنين .

والله المسئول أن ينفع بهذا التفسير الجليل ، وأن يجزى مؤلّفه خير الجزاء ، وأن يمين القائمين بنشر التراث الإسلامى من أمثال هذا الكتاب العظيم . وأن يوفّق « الدار » فى تأدية رسالتها حتى تنهض بهذا العبء الكبير ، وتقدّم للعالم أجمع خير تراث تركه الأقدمون .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحابته أجمعين ؟

مصححه

١٦ من المحرم سنة ١٣٧٢ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٢) — أحمد عبد العليم البردونى

Marfat.com

ترجمـــة

أبي عبـــد الله القرطبي

مؤلف هذا التفسير (١)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح (بإسكان الراء و بالحاء المهملة)، الأنصاريّ الخزرجيّ الأندلسيّ القرطبي المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيـا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة . أوقاتُه معمورة ما بين تَوجُّه وعبادةٍ وتصنيف .

مؤلّفاته — جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في اثنى عشر مجلدا، سمّاه كتاب " الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لمـا تضمّن من السنة وآى الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ (وهو هذا التفسير) . وله كتاب "الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى " . وكتاب " التذكار، في أفضل الأذكار " . وضعه على طريقة التبيان للنوويّ، لكن هذا أتمّ منه وأكثر علما . وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة" . وكتاب "شرح التقصى " . وكتاب " قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة ". قال ابن فرحون : لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه . وله " أرجوزة جمع فيها أسمـاء النبيّ صلى الله عليه وسلم " . وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هـذا . وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثـوب واحد وعلى رأسـه طاقية . قال صاحب نفح الطّيب : إنه من الراحلين من الأندلس .

---

(١) من الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون ، ونفح الطيب للمقرى .

Marfat.com

شيوخه – سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه "المُفهِم، لما أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم" .

وحدّث عن الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبي الحسن عليّ بن محمد بن على بن حفص اليَحْصِبيّ وغيرهما .

وكان مستقرّا بمنية ابن خَصيب، وتُوُفّيَ ودُفن بها فى ليلة الاثنين التاسع من شوّال سنة ٦٧١، رحمه الله ورضى عنه .

Marfat.com

فهـــرس الجـــزء الأول

صفحة

ترجمة أبي عبد الله القرطبي ... ... (و)

خطبة الكتاب، وفيها الكلام على علو شأن المفسرين ١

ذكر سبيل القرطبي في التفسير ٣

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه
والعامل به... ... ... ٤

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس
في ذلك، وفيه الكلام على تأثير القرآن في رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره، وما ورد في ذلك من الآثار والوعيد ١٧

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه علما وعملا،
والمراتب التي ينبغي لحامل القرآن أن يبلغها ٢٠

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربا ٢٣

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله ٢٦

باب ما جاء في حامل القرآن، ومن هو، وفيمن عاداه ٢٦

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته، وما يستحب أن يفعله
عند ختمه ٢٧

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب
المفسرين، وفيه شيء من وجوه التفسير ٣١

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك ٣٧

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء
أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه ٣٩

Marfat.com

صفحة

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منـه » ٤١

فصل فى قول كثير من العلمـاء أن القراءات السبع ليست هى الاحرف السـبعة ... ٤٦

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام بن حكيم فى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ... ٤٧

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف و إحراقه ما سـواها ، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسـلم ٤٩

فصل فى الرّد على الحلولية والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات ٥٥

فصل فى طعن الرافضة فى القرآن ٥٦

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ، ونقطه وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه ٥٩

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف... ... ... ٦٥

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ٦٨

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها ٦٩

فصـل فى أن المعجزات على ضربين ٧٢

باب فى التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره ٧٨

باب فيما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن ، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ٨٠

القول فى الاستعاذة، وفيها آثنتا عشرة مسألة ٨٦

الكلام على البسملة ، وفيها سبع وعشرون مسألة ٩١

تفســـير ســـورة الفـاتحة

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها ومعانيها، وفيه سبع مسائل ١٠٨

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة ١١٤

Marfat.com

صفحة

الباب الثالث — فى التأمين، وفيه ثمان مسائل ١٢٧

الباب الرابع — فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة ١٣١

ســـــورة البقــــرة

الكلام فى نزولها وفضلها، وما جاء فيها ١٥٢

تفسير قوله تعالى: « الم . ذلك الكتاب ... » وبيان الأقوال الواردة في أوائل السور المفتتحة بالحروف ١٥٤

الكلام على هداية القرآن، وفيه ست مسائل ١٥٩

تفسير قوله تعالى: « الذين يؤمنون بالغيب ... » الآية . وفيه ست وعشرون مسألة: الكلام على الإيمان بالغيب، وعن الصلاة و إقامتها وشرائطها ١٦٢

بحث فى الرزق و إنفاقه ١٧٧

تفسير قوله تعالى: « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ... » الآية بيان حال الكافرين ومآلهم، ومعنى الكفر ١٨٣

تفسير قوله تعالى: « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » الآية . وفيه عشر مسائل: بيان الختم على القلوب وعلى السمع وعلى البصر... ... ... ١٨٥

ذكر أقوال العلماء فى إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم... ... ... ١٩٨

ذكر ما قيل فى خلق السموات والأرض، وما ورد فى ذلك من الآيات، والاختلاف فيها ٢٥٤

بحث فى تنصيب الخليفة، والكلام على الإمامة العظمى ٢٦٤

بحث فى تسبيح الملائكة ٢٧٦

بحث فى كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاق آسمه ٢٧٩

ذكر اختلاف العلماء في معني الأسماء التي علمها آدم... ... ... ٢٨٢

Marfat.com

صفحة

بحث فى أيما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟ ٢٨٩

بحث فى السجود، ومعنى سجود الملائكة ٢٩٢

بحث فى إبليس لعنه الله ٢٩٤

الكلام على الجنة وسكنى آدم وحواء فيها، وفيه ثلاث عشرة مسألة ٢٩٨

ذكر الخلاف فى الشجرة، وكيف أكلا منها ٣٠٥

مطلب فى الأنبياء ، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤاخذون بها، و يعاتبون عليها أم لا ؟ ٣٠٨

بحث فى الأمر بقتل الحيات، والكلام فى تشكيل الجن بها ، و إسلام الجن والتبليغ إليهم، وفيه بعض أحوالهم وشيء من أخبارهم... ... ... ٣١٥

بحث فى الكلمات التى تلقاها آدم ٣٢٣

بحث فى أخذ الأجرة على تعلم القرآن والعلم ، واختلاف العلماء فى هذا، وفى أخذ الأجرة على الصلاة ٣٣٥

بحث فى الزكاة ٣٤٣

بحث فى معنى قوله : « واركعوا مع الراكعين » وجملة من أحكام الصلاة... ... ... ٣٤٤

بحث فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل... ... ... ٣٨٩

بحث فى يوم عاشوراء ، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر؟ ٣٩١

الكلام على الأربعين يوما، وما وقع فيها من بنى إسرائيل ٣٩٥

بحث فى معنى الشكر ٣٩٧

الكلام على المنّ والسّلْوَى ٤٠٦

بحث فى الاستسقاء ٤١٧

طلب اليهود استبدال المنّ والسلوى بالبقل ، وذكر الأصناف التى طلبوها ، ونزولهم مصر... ... ... ٤٢٢

بحث فى أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه... ... ... ٤٢٦

Marfat.com

صفحة

الكلام على الملل، وفيه ثمان مسائل ٤٣٢

القول فى سبب رفع الطُّور ٤٣٦

اعتداء اليهود فى السبت ومسخ الله إياهم ٤٣٩

ذكر آختلاف العلماء فى الممسوخ هل ينسل أم لا؟ ٤٤٠

القول فى أمر الله اليهود بذبح البقرة، والبحث فى شأنها، وما ورد فى ذلك ٤٤٤

بحث فى معنى قوله : «وإذ قتلتم نفسا» وسبب القتل ٤٥٥

بحث فى القسامة وأحكامها ٤٥٧

موجب القسامة ٤٥٩

بحث فى شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟... ... ... ٤٦٢

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي، رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ الإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما اختلف المَلَوان[1]، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين؛ الذى أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعيت الألباءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرا . جعل أمثاله عِبَراً لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»[2] . خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا. فقَرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله أهلين منّا"[3] قالوا : يارسول الله ، مَن هم ؟ قال: "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه ابن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مُسنده . فما أحقّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر

(١) الملوان : الليل والنهار. (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) فى سنن ابن ماجه : "من الناس" .

Marfat.com

ما شُرِح له فيه، ويخشى الله و يتقيه، و يراقبه و يستحييه . فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »(١) . ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله ، أوكد منهـا على من قصر عنـه وجَهِله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيـه فلم يرتدع ؛ وآرتكب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجةً عليـه ، وخَصْماً لديه ، قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسـلم . فالواجب على من خَصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، و يتـدبّر حقائق عبارته ، و يتفهّم عجائبـه ، و يتبيّن غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ »(٢) . وقال الله تعـالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣) . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، و يتدبّره حق تدبّره، و يقوم بقسطه ، و يوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهُدَى فى غيره؛ وهـدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهـل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشكِلا، وتحقيقَ ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٤) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيـه ، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعـالى : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »(٥) . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوْعِيَــةَ كتابه، وآذاننا مواردَ سننِ نبيّه ؛ وهِمَمنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رِضا رب العالمين ، ومتدرّجين به إلى علم المِلّة والدِّين .

(وبعد) فلمـا كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذى آستقل بالسُّنة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمرى، وأستفرغَ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٢) آية ٢٩ سورة ص . (٣) آية ٢٤ سورة القتال .
(٤) آية ٤٤ سورة النحل . (٥) آية ١١ سورة المجادلة .

Marfat.com

فيه مُنّتي[1]؛ بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا، يتضمّن نُكتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات؛ والرّد على أهل الزّيغ والضلالات، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعًا بين معانيهما، ومُبيّنًا ما أشكل منهما؛ بأقاويل السلف. ومَن تبعهم من الخلَف. وعملته تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسِي، وعملًا صالحًا بعد موتي. قال الله تعالى: « يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2]. وقال تعالى: « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له".

وشرطي فى هذا الكتاب: إضافة الأقوال الى قائليها، والأحاديث الى مصنّفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مُبهمًا، لا يعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نُشير الى جُمَل من ذلك فى هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قَصَص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين؛ واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام، بمسائلَ تُسفر عن معناها، وتُرشد الطالب الى مقتضاها؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكما أو حكمين فما زاد، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم؛ فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا الى آخر الكتاب.

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السُّنّة وآى الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه؛ إنه سميع الدعاء، قريب مجيب؛ آمين.

(١) المنة (بالضم): القوّة. (٢) آية ١٣ سورة القيامة. (٣) آية ٥ سورة الانفطار.

Marfat.com

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شئ، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ، وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجاباً في بعض العبادات، وندْبًا في كثير من الأوقات، ويُزْجرون عنها إذا أجْنَبُوا[1]، ويثابون عليها و يعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار، ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله، ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضــه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنَّى تطيقه، وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»[2] . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هــذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمــذيّ عن أبي سعيد قال قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : " يقول الربّ تبارك وتعـالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " . قال : هــذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمــد الدّارميّ السَّـمَرْقَنْديّ في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة، والمِئون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزّبور، وسائر القرآن بعدُ فضــلٌ . وأسند عن الحارث

---

(١) في نسخة : ويؤجرون عنها إذا أجيبوا . (٢) آية ٢١ سورة الحشر .

Marfat.com

عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى قال : سمعت[1] رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستكون فِتَن كقطع الليل المظلم . قلت يارسـول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نَبأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْل مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن ٱبتغى الهُدَى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلَق على كثرة الرّدّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا مَن علِم علمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أُجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعْوَر[2]" .

« الحارث » رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبىّ ؛ لأن الشعبىّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسـلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهَمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار بن محمد الأنبارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب « الرّدّ على من خالف مصحف عثمان » عن عبـد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن هـذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما ٱستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةُ مَن تمسـك به ونجاةُ مَن ٱتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يَخلَق عن كثرة الرّدّ فٱتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول آلم حَرْف ولا أُلفِيَنّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيـه سورة البقرة وإن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصِّفر من كتاب الله" . وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

(١) ورد هـذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبـع بولاق) مع اختـلاف فى بعض كلماته وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

Marfat.com

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ، شبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليـه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ، أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليـه الناس . ومن قال : مأدَبة ؛ فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هـذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتـه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمـع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأول أعجب إلىّ .

وروى البخارىّ عن عثمان بن عفّان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " مَثَلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة رِيحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر " . وفى رواية : " مثـل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخارىّ : " مثـل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانىّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح (1) . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب : أن أبا عبد الرحمن

(1) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصـلوا إليها : الحديث . ثم هـذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم) .

Marfat.com

السُّلَمِي كان إذا ختم عليه الخاتمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هـذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عَمِلتَ بالذى عَلِمت . وروى الدارمي عن وهب الذماري قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد[(١)]: السَّفَرة الملائكة ، والأحكامُ[(٢)] الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة والذى يقرأ القرآن و يَتَتَعْتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التتعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ و إنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله ، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شُبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هـذا الوجه ، وقد رُوِىَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفّة ؛ فقال : " أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحان أو إلى العَقِيق فيأتِىَ منه بناقتين كَوْماوَيْن[(٣)] فى غير إثم ولا قطع رَحِم " فقلنا : يا رسول الله ، كلنا نحب ذلك ؛ قال : "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم[(٤)] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ وأربعٌ خيرٌ له من أربع ومن أعدادهن من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نَفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيي التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف .

(٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الغرض وذوو الأحكام ، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال .

(٣) «كوماوين» تثنية كوماء ؛ أى مشرفة السنام عاليته .

(٤) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه و بتشديد اللام من التعلم ، و بتخفيفها من العلم .

Marfat.com

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما آجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهـم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكّرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه " .

وروى أبو داود والنّسائى والدارمى والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة". قال الترمذى : حديث حسن غريب. وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " يجىء القــرآن يوم القيامة فيقول يارَبّ حَلّهِ[1] فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقـول يارب آرض عنه فيرضى عنـه فيقال له آقرأ وآرق و يزاد بكل آية حسنة " . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها ". وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنـة آقرأ وآصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه " .

وأسـند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحى إليه و يقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصـعد درجة حتى ينجز ما معه من القـرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم " .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

Marfat.com

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقد أخذ النبوّة كلها". قال: وحدّثنا محمد بن يحيي المَرْوَزِيّ أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النـار". وقالت أم الدَّرْدَاء: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: إن عدد آي القرآن على عدد دَرَج الجنـة، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن. ذكره أبو محمد مكيّ. وقال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: « فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ »[1]. قال ابن عباس: فضمِن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ذكره مكيّ أيضا. وقال الليث: يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جل ذكره: « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[2]. و « لعلّ » من الله واجبة.

وفي مُسْنَد أبي داود الطَّيَالِسيّ — وهو أوّل مُسْنَد أُلِّف في الإسلام[3] — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنطِرين". والآثار في معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه. (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف.

(٣) قوله: « وهو أوّل مسند ... » الخ. قال صاحب كشف الظنون: « والذى حمل قائل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المسانيد، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك، فانه ليس من تصنيف أبي داود، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبي داود. ولأبي داود من الأحاديث التي لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر؛ كما ذكره البقاعي في حاشية الألفية ». وقد توفي الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ.

Marfat.com

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، واختلاف النـاس فى ذلك

روى البُخارِىّ عن قتادة قال: سألت أنسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع قراءته يقول: «الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين» ثم يقف «الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف، وكان يقرؤها «مَلِكِ يَوْمِ الدِّين». قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن النـاس صَوْتًا مَن إذا قرأ رأيته[1] يخشى الله تعالى". وروى عن زياد النُّمَيْرِىّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسَيِّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سِيرِين والنَّخَعِىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتَّطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التَّطريب بعـدُ. وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»[2] الآية.

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى ابن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفى بعض النسخ: «رُئيته» بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن. (٢) آية ٤١، ٤٢ سورة فصلت.

Marfat.com

فقال : لا يعجبنى ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب ، وآحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائى . وبقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم . وبقول أبى موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا . وبما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفتح فى مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع فى قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وآبن المبارك والنَّضر بن شُمَيْل ، وهو آختيار أبى جعفر الطبريّ وأبى الحسن بن بطّال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتى . وأما ما آحتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ؛ أى زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطّابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب؛ كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ؛ فقدّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم" . أى الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن" . وروى عن عمر أنه قال : "حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوله عبد الله بن أبى مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت آبن أبى مليكة يقول : قال عبد الله بن أبى يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فآتبعناه

Marfat.com

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبى مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما آستطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبى موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسّنت صوتى بالقرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يَهُذّ[1] فى قراءته مع حُسْن الصوت الذى جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ فى قراءته ورتّلها ؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ فيكون ذلك زيادة فى حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزَيَّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأوّل هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته وآستنار بضيائه . وقد قيل : إن الأمر بالتزيين آكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك ، أى زينوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ »[2] أى قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »[3] أى قراءته . وكما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا ؛ أى قراءة . وقال الشاعر[4] فى عثمان رضى عنه :

ضَحَّوا بأشمطَ[5] عُنوانُ السجودِ به * يقطّع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

أى قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التى هى التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به ، يستغنى به من الاستغناء الذى هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى آستغنيت . وفى الصحاح : تغنى

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .
(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .
(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط فى الرجل شيب اللحية .

Marfat.com

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التَّميمىّ :

كلانا غَنِىٌّ عن أخيه حياتَه * ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبى وَقّاص . وقد رُوى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهْوَيْه، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . وإلى هذا التأويل ذهب البخارىّ محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»(١) . والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنّى به، يتحزّن به؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِىّ، وآحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأزيز المِرْجَل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ علىّ" فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(٢) فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابىّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال: كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم(٣) مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأويل الخامس — ما تأوله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل آبن عُيَيْنة فى قوله : "يتغنّ" يستغنى؛ فقال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

Marfat.com

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا . وسُئل الشافعيّ عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم الآستغناء لقال : من لم يستغن ؛ ولكن لما قال " يتغنّ " علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبريّ : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغنّي إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغَنَّ بالشِّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِنـاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنَّيت بمعنى آستغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُنـاخ طَويلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الآستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى في هـذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غَنِيَ فلان بمكان كذا أي أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيها »(١) وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيَا *

فإنه إغفال منه ، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبـه . ومن قال هذا في فعل الآثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمـرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبري من أنه لم يَرِد في كلام العرب تغنى بمعنى آســتغنى ، فقد ذكره الجوهريّ كما ذكرنا ، وذكره الهَرَوِيّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة ؛ منها قول آبن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت الآحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصَّ وداوَيْت العَليل ، وهو كثير ؛ فيكون تغانى منها . وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : " يتغنّ " الغناء والآستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر ، بل حمله على الآستغناء أوْلَى لو لم يكن لنـا تأويل غيره ، لأنه مرويّ عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

Marfat.com

صحابيّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ٱبن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أذِن الله لشيء ما أذن لنبيّ[1] حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به " . قال الطبريّ : ولو كان كما قال ٱبن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس آربعوا[2] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد آختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّي كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد آحتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه آبن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغنّوا به وآكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصِّيًا[3] من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ ، جيلًا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوى : يعني ما رضي الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أى يجهر به و يحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة

(٢) قوله : « آربعوا » أى كفّوا وارفقوا .

(٣) التفصي : التفلّت والخروج .

Marfat.com

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيــة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة الواحدة شبهات[1]، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير له سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته، وذكره البخارىّ وقال فى صــفة الترجيع : آءآءآء، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة؛ كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من آنضغاط صوته وتقطيعه لأجل هزّ المركوب؛ وإذا آحتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع. وروى آبن جُرَيج عن عطاء عن آبن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن" . أخرجه الدّارَقُطْنىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[3] .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعيهم، وخاب

(١) سيذكر المؤلف فى باب (ذكر معنى السورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .

(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٤٢ سورة فصلت .

Marfat.com

عملهم ، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ، جهلا بدينهم ، ومُرُوقًا عن سُنّة نبيّهم ، ورفضًا لسيَر الصالحين فيه من سَلَفهم ، ونزوعًا إلى ما يُزيّن لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا ؛ فهم في غَيّهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزين وأبو عبد الله الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » من حديث حُذَيفة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "اقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها وإياكم ولُحُونَ أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم". اللحون : جمع لَحْن ، وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قرّاء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . والترجيع في القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل في القراءة هو التأنّي فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهًا بالثغر المرتّل ، وهو المشبّه بنَوْر الأقحوان ، وهو المطلوب في قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَرَتِّلِ القرآن ترتيلا »(١) . وسُئلت أمّ سَلَمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : مالكم وصلاته ! [كان يصلّي ثم ينام قدر ما صلّى ، ثم يصلّي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح ،](٢) ثم نعتت قراءته ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفًا حرفا . أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »(٣) . وقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »(٤) . روى مسلم عن أبي هريرة

(١) آية ٤ سورة المزمل . (٢) الزيادة عن سنن الترمذي وأبي داود .
(٣) آية ٣٦ سورة النساء . (٤) آية ١١٠ سورة الكهف .

١ - ٢

Marfat.com

قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ آستُشْهِد فأُتِيَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلتُ فيك حتى آستشهدت قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمتُه وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلمتَ العـلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار ورجلٌ وسّع الله عليــه وأعطاه من أصناف المــال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فمــا عمِلتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار ".وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رُكْبَتِىّ فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النــار يوم القيامة " . أبو هريرة آسمه عبــد الله، وقيل: عبــد الرحمن . وقال : كُنّيتُ أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رســول الله صلى الله عليه وســلم فقال : " ما هذه "؟ قلت : هرّة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهــذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى . وروى عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج آبن المبــارك فى رقائقه عن العباس بن عبــد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هــذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى يخاض البحار بالخيــل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم علما ممــا يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجــد عَرْفَ الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

Marfat.com

حسن . وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوّذوا بالله من جُبّ الحَزَن " قالوا : يارسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : " وادٍ فى جهنم تتعوّذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة " قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هـذا حديث غريب . وفى كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى جهنم لواديًا إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرّات و إن فى ذلك الوادى لجُبًّا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوّذان بآلله من شرّ ذلك الجُبّ و إن فى الجُبّ لحيّــةً و إن جهنم والوادى والجبّ ليتعوّذون بآلله من شر تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله" . فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتق الله فى نفسه ويُخلص العمل لله ؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى الطلب وعمله . فآلذى يلزم حامل القرآن من التّحفظ أكثر ممـا يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدَّرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله فى بعض الكتب — أو أَوْحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدِّين ويتعلمون لغير العمل و يطلبون الدنيـا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك(1) الكِبَاش وقلوبهم كقـلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهـم أمَرّ من الصـبر إياى يخادعون و بى يستهزئون لأُتيحنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان " .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُريب محمد بن العلاء حدّثنا المُحاربىّ عن عمرو بن عامر البَجَلىّ عن آبن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو مَن حدّثه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يَشْعُر" . قالوا : يارسول الله ، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بمـا أمرك الله به وتطلب به غيره وآتقوا الرياء فإنه الشرك و إن المُرائى يُدعَى يوم القيـامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك و بَطَل

(1) المسوك (جمع مسك ، بفتح ثم سكون) : الجلد .

Marfat.com

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع". وروى عَلْقَمة عن عبد الله بن مسعود قال: كيف أنتم! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتَّخذ سُنّة مُبْتَدعة يجرى عليها النـاس فإذا غُيِّر منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُّنة. قيل: متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن؟ قال: إذا كَثُر قرّاؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكَثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَيْنة: بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال: لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس. ورُوى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى: «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ»(1) قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره. وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنما مَثَلُ صاحِبِ القرآن كَمَثَل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذَكَره وإذا لم يقم به نَسِيَه". وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا. وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجيًا عَفْوَ ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن". أى أنه يرحمه ويغفر له. وينبغى له أن يكون عالمـا بأهل زمانه، متحفّظًا من سلطانه، ساعيًا فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجته، مقدما بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما ٱستطاع. وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الوَرَع فى دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

(1) آية ٩٤ سورة الشعراء.

Marfat.com

وقال ابن مسعود : ينبغى لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون، و بصمته إذا النـاس يخوضـون، و بخضوعه إذا الناس يختالون، و بحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن؛ لأن فى جوفه كلام الله تعـالى . و ينبغى له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طُرق الشُّبهات ، و يقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، و يأخذ نفسه بالحلم والوقار. و ينبغى له أن يتواضع للفقراء، و يتجنّب التكبّر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، و يترك الجدال والمِراء، و يأخذ نفسه بالرفق والأدب . و ينبغى له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، و يُرْجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنـده؛ و يصاحب مَن يعاونه على الخير و يدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، و يَزينه ولا يَشينه، و ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتـلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتـلو، فكيف يعمل بمـا لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فمـا مَثَل من هذه حالته إلا كمَثَل الحمـار يحمل أسفارا . و ينبغى له أن يعرف المكىّ من المَدَنىّ ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عبـاده فى أوّل الإسـلام ، وما ندبهم إليه فى آخر الإسـلام . وما افترض الله فى أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض فى آخره. فالمدنىّ هو الناسخ للمكىّ فى أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكىُّ المَـدَنىَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم فى النزول قبل النـاسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشـك فيما يتلو . وقـد قال أبو جعفر الطبرىّ سمعت الجَرْمىّ يقول : أنا منذ ثلاثين سـنة أُفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْمىّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

Marfat.com

فبها يصــل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعـالى : « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ »(١) . قال : حقّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر آبن أبى الحوارى قال : أتينا فُضيل بن عِياض ســنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة. فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقــال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فاَطّلع علينا من كُوّة؛ فقلنا : الســلام عليك ورحمة الله؛ فقــال : وعليكم السلام؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذًى ، و إن ما أنتم فيــه حَدَثٌ فى الإســلام ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العــلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهــلا للجلوس معهم ،فنجلس دونهم ونسترق السمع ،فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه،وأنتم تطلبون العــلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون ؛ قال : قلنـا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحكمه من مُتشابهه، وناسخه من منسوخه؛ إذا عرفتم ذلك آستغنيتم عن كلام فُضيل وآبن عُيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم «يٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»(٢) .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن ، وعالمـًا بالفُرْقان ؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه ، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا، فلايزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى آعتقاده فيتوب من ذلك و يخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك و يحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورى . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران .   (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

Marfat.com

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه . وثواب من قرأ القرآن مُعْرباً

قال أبو بكر بن الأنبارى : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته — ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبى قال حدّثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرى عن أبيه عن جدّه عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " . حدّثنى أبى قال حدّثنا إبراهيم ابن الهَيْثَم قال حدّثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزِى قال حدّثنا عبد العزيز بن أبى روّاد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة " . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربى ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبى قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبّوا العرب لثلاث لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى " . وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلّمون لغة نبيّهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يلحن ، قال : أخّروه .

Marfat.com

وعن آبن أبى مليكة قال : قدم أعرابىّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : مَن يُقرئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسولِه» . بالجر، فقال الأعرابىّ : أوَقد برئ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منــه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابىّ فدعاه فقــال : يا أعرابىّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليــه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يُقرئنى ، فأقرأنى هذا سورة «براءة» ، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسولِه» ؛ فقلت : أوَ قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابىّ ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : «إن الله برىء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابىّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر آبن الخطاب رضى الله عنه ألّا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود فوضع النحو (١) .

وعن علىّ بن الجَعْد قال سمعت شُعبة يقول : مَثَــلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعلَّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير . قال آبن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ؛ لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال آبن الأنبارىّ : وجاء عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا آبن أبى مريم قال : أنبأنا آبن فَرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن آبن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فآلتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا آبن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن علىّ .

Marfat.com

عن آبن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »(١) قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر؛ وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ * لبستُ ولا من سَوْءةٍ أتقنع(٢)

وسأل رجل عكرمة عن الزَّنيم قال : هو ولد الزِّنَى؛ وتمثّل ببيت شعر :

زَنيم ليس يُعرف من أبوه * بَغِيّ الأمّ ذو حسَبٍ لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنيم تداعاه الرجال زيادةً * كما زِيد فى عَرْض الأديم الأكارعُ(٣)

وعنه فى قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ »(٤) قال : ذواتا ظِلّ وأغصان ؛ ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ * تدعو على فَنَن الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف طائرا * ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن آبن عباس فى قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »(٥) قال : الأرض ؛ قاله آبن عباس . وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة »(٦) . قال آبن الأنبارىّ : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهرةٍ وبحرٍ * وما فاهوا به لهم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لآبن عباس : أخبرنى عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنَة ؟ قال : النُّعاس؛ قال زُهير بن أبى سُلْمَى :

لا سِنَةٌ فى طَوال الليل تأخذه * ولا ينام ولا فى أمره فَنَدُ(٧)

---

(١) آية ٤ سورة المدّثر. (٢) أورد المؤلف فى تفسير سورة المدّثر ج ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا فى اللسان والكامل للبرد . وفى الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا فى الأصول ، ولعل آبن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى ، وسيأتى للصنف فى تفسير سورة النازعات ج ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر، وقد يستعمل فى غير الكبر.

Marfat.com

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ذكر جابر بن عبـد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ »(١) . وقال مجاهد : أحبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رحل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشأم، فتجهز ورحل إلى الشأم حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ »(٢) طلبتُ اسم هذا الرجل [الذى خرج من بيتـه مهاجرا إلى الله ورسوله](٣) أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب ، وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم ، ما يمنعنى إلا مهابته ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كَمَثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روْعة ولا يدرون ما فى الكتاب ؛ ومَثل الذى يعرف التفسير كمَثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لين عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المُقسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغـالى فيه ولا الجافى عنه " . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن أفضل من كل شىء فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمـة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخفّ بحق الله تعالى " .

(١) آية ٨٥ سورة القصص . (٢) آية ١٠٠ سورة النساء . (٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى .

Marfat.com

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمته أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن، فطهّروها ونظّفوها ما آستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبّس كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج.[1] ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وآرتدى وآستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع.[2] روى شعبة عن أبي حمزة عن آبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[3] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن — ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند آبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، و يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان آبتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمته إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الآستعاذة الذي آستعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى و يسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه.[4] ومن حرمته أن يؤدّي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، و يشهد بالبلاغ

---

(١) يقال: تلبس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى. (٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في نوادر الأصول: «إعرابه». وكلاهما مروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" رواه الحاكم والبيهقي.

Marfat.com

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم آجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، علمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء. ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النجاساتِ من المواضع، والمواقع التى تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه. فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد آشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد آبن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئتَ على قَدَرٍ

Marfat.com

يا موسى ، ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا ، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ، ولكن يقال : السورة التي يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه" خرّجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمته ألا يُتلى منكوسًا كفعل معلمي الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرى الحذق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يُقعِّر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفًا ، فإن ذلك محدث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمته أن يُجلَّل تخطيطه إذا خطه . وعن أبي حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمر عليٌّ رضي الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له : أجلّ قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطًّا ، ثم كتبت وعليٌّ رضي الله عنه قائم ينظر إلى كتابتي ، فقال : هكذا ، نوِّره كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألّا يُماري ولا يجادل فيه في القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألّا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم عن عليّ رضي الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدِّرّة ، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

(١) آية ٢٤ سورة الحاقة .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجِد أو مُصَيْحِف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا ؛ وروى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدّبار عليكم"(1). وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق و زينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هُذَيل : " ما هذا " قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : " لعن الله من فعل هـذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه " . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيًا من سَقَم ألا يصبّه على كُنَاسة ، ولا فى موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بُقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات ؛ لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول الله، أىّ العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حلّ ارتحل " . —

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(1) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

Marfat.com

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبي لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التَّيمىّ قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء ، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضــة أو غيره ؛ فيكون كأنه فى صــدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سَمّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيــه فإن الله يؤتيه على قدر نيّتــه . روى لَيْث عن مجاهــد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوةً فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه .

قلت : ومن حرمته ألّا يقال : سورة صغيرة . وكره أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصــغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ؛ ذكره مكىّ رحمه الله .

قلت : وقــد روى أبو داود ما يعارض هــذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيــه عن جدّه أنه قال : ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين

روى عن عائشــة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وســلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعــدد ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هــذا الحديث فى مُغيّبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، ممــا لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

Marfat.com

النَّفَخات فى الصُّور ، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "آتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النــار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النــار" . وروى أيضــا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته[(١)] . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقــد كفر . قال أبو بكر محمد بن القــاسم بن بشار بن محمــد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الرّد: فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين: أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بمــا لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتــابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل؛ قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَمِيم مَعْشَرِها * فــتَمّ فى قومِها مُبَــوَّؤُها[(٢)]

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى؛ من قال فى القرآنــ قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمــة السلف فأصاب فقــد أخطأ ، لحكمه على القرآن بمــا لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال آبن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجلَ عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر[(٣)] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، وآقتضته قوانين العــلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هــذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد بآجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرّد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم وآسمه مهران، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتســوّر عليه . تسوّر الحائط . هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

Marfat.com

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وَهْمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ »(١) . وهذا فاسد ؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الآقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : "اللّهُمّ فقّهه فى الدِّين وعلّمه التأويل" . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشىء رأى ، و إليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك . ولكن مقصوده أن يُلبِّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ؛ أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لمـا كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعـالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٢) ويشير إلى قلبـه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغـة ، وذلك غير جائز . وقـد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء. (٢) آية ٢٤ سورة طه .

Marfat.com

الباطنيــة فى المقاصد الفاســدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فيتزّلون القرآن على وَفْق رأيهــم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنهــا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[1] ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكِم ظاهر التفسير و بادر إلى آستنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منــه فى ظاهر التفسير أولا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآســتنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصــول إلى الباطن قبــل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعــالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا »[2] معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكــان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبيّ وغيرهمــا يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنــه تورّعا وآحتياطا لأنفسهم مــع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمــة من السلف المــاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن؛ فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول . و بعضٌ يُشْفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه و يقتفى طريقه . فلعلّ متأخرا أن يفسر حرفاً برأيه و يخطئ فيــه و يقول : إمامى فى تفسير القــرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : ســئل أبو بكر الصــديق رضى الله عنــه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

Marfat.com

قال ابن عطية «وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليّ». وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب. وكان عليّ رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحضّ على الأخذ عنه، وكان ابن عباس يقول: نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه عليّ رضي الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق. ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال: شهدت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلتْ أم بنهار، أم في سهل نزلتْ أم في جبل؛ فقام إليه ابن الكوّاء[2] فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلُغه المَطِيُّ لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت عليّ بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[3]. ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباريّ في كتاب الرّد، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذي يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

(١) من قولهم: أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أو في اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

Marfat.com

زيد العَمّى[1] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ آبن جبَل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ" .

قال آبن عطية : «ومن المبرِّزين فى التابعين الحسن البصرى ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة . قرأ مجاهد على آبن عباس قراءة تَفَهّم ووقوف عند كل آية ؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق آبن عباس ، وإنمـا أخذ عن آبن جبير؛ وأما السُّدّى فكان عامر الشَّعْبِىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح؛ لأنه كان يراهما مقصِّرين فى النظر » .

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتـك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدَّرَوْغ زَنْ[2] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعـالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العـلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وآنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهـذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمـة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للبـاطل ، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم ، رضى الله عنهم .

---

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه ياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على آسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى .   (٢) آسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين الفين . يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ ؛ كما فى تهذيب التهذيب .

Marfat.com

قال ابن عطية : « وألف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعلي بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد منها وشفى في الإسناد . ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سننهما مكي بن أبي طالب رضي الله عنه . وأبو العباس المهدوي متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونضر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٣) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٤) . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى محرمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : ايتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهي عنهما أن تتخذا سنة؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٥) . وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه

(١) آية ٤٤ سورة النحل . (٢) آية ٦٣ سورة النور . (٣) آية ٥٢ سورة الشورى .
(٤) آية ٧ سورة الحشر . (٥) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

Marfat.com

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى: قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْيًا يُتْلَى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلّوا؛ قال والأريكة : السرير، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة[1]، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها آستغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ[2] » معناه تركهم الله آستغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قِراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرّموه من قِراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة، ومنه قوله تعالى : « وإن عاقبتم[3] » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيانٌ لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة . (٢) آية ٦ سورة التغابن . (٣) آية ١٢٦ سورة النحل .

Marfat.com

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : "خذوا عني مناسككم". وقال : "صلوا كما رأيتموني أصلي". أخرجه البخاري. وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة! ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا.

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك. وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعي قال قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة. قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكني أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه.

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وتحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا. وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفي موطإ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

Marfat.com

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[(١)] « أسماء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، وسَهُل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ، و يصعب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورُزقوا العمل بالقرآن ، و إن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا ، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جزورا شكرًا لله ، و إن الغلام فى دهرنا هــذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل ، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومَعْمر ، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول : من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة ، و إنما يدرك العلم حديثا وحديثين ، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

Marfat.com

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك علمٌ فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
واقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلَنْ * مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تَيَسّر منه"

روى مسلم عن أُبَىّ بن كعب : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان عند أَضاة[1] بنى غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) : غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير ، وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

Marfat.com

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيّ عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إني بُعثت إلى أمة أُمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قطّ فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطإ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد ٱختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتيّ ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأوّل ــ وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقْبِل وتعالَ وهَلُمّ . قال الطحاويّ : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال ٱقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل : ٱستزده؛ فقال : ٱقرأ على حرفين ؛ فقال ميكائيل : ٱستزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف؛ فقال : ٱقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ؛ على نحو هَلُمّ وتعالَ وأقبِل وٱذهب وأسرع وعَجِّل . وروى ورقاء عن ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد عن ٱبن عباس عن أُبَيّ بن كعب أنه كان يقرأ « لِلّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونا »(1) : للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخّرونا، للذين آمنوا ٱرقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَيّ أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ »(2) : مَرّوا فيه، سَعَوْا فيه . وفي البخاريّ ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السّعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أُمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحوّل إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسّع لهم

(1) آية ١٣ سورة الحديد . (2) آية ٢٠ سورة البقرة .

Marfat.com

فى آختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفُّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال آبن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم آرتفعت تلك الضرورة فآرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبَىّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أُبَىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام آبن مسعود نحوه . قال القاضى آبن الطَّيِّب(١) : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَىّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا آسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها؛ يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هُذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »(٢) . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ »(٣) وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وآختاره آبن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم القاضى أبو بكر الباقلانى .
(٢) آية ٦٠ سورة المائدة . (٣) آية ١٢ سورة يوسف .

Marfat.com

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض. وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهـم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغـة الكَعْبَيْن ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنـه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »(1) ولم يقل قرشيًّا ؛ وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغـة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل بلغـة جملتها نزل القرآن ، فيعبّر عن المعنى فيـه مرّة بعبارة قريش ، ومرة بعبـارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : ابتدأ [خلق الشىء وعمله](2) فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتها، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّمٰوات والأرض» . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى « رَبَّنَـا افْتَح بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنا بالْحَقِّ »(3) حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعالَ أفاتحك، أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(4) أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبـة بن مالك إذ

(1) آية ٣ سورة الزخرف . (2) زيادة عن ابن عطية . (3) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(4) آية ٤٧ سورة النحل .

Marfat.com

سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »[١] ذكره مسلم في باب (القراءة في صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مُضَر، قاله قوم، وآحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مُضَر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكِنانة ، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيْم، ومنها لضَبّة، ومنها لقَيْس ؛ قالوا : هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان آبن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كَشْكَشة قَيْس وتَمْتَمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون في « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً »[٢] : جعل ربُّش تحتش سريا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون في الناس : النات، وفي أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجِلّة ، وآحتجوا بقراءة آبن مسعود : لَيَسْجُنُنَّه عتى حين ؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذي الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنّها غيرُ طائلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الآختلاف في القراءة فوجدتها سبعاً : منها ما تتغيّر حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطهرَ، « وَيَضِيقُ صَدْرِى » ويضيق . ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل : « رَبَّنا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعَدَ . ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف ش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

Marfat.com

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعـالى ، وهى أمْرٌ ونَهْىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية . وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ »(1) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام "أنزل القرآن على سبعة أحرف" القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما روى وعلِم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه، وعُرف به ونُسب إليه، فقيل : حرف نافع، وحرف ابن كثير؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(1) آية ١١ سورة الحج .

Marfat.com

فى ذلك مصنفات، فآستمر الإجماع على الصواب، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما. قال آبن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه، وأما مايؤثر عن أبى السمّال[(١)] ومن قارنه فإنه لا يوثق به. قال غيره: أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يُعمل بها على أنها منه، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة آبن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. فأما لو صرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين: النفى والإثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت. والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد.

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام. قال آبن عطية: أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام: "فاقرءوا ما تيسّر منه" بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مرّة لأبىّ بما عارضه به جبريل، ومرّة لآبن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة «الفرقان»، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام): هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة. وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا، والتصويب عن طبقات القراء.

Marfat.com

هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منهما وقد اختلفا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشئة الليل هى أشد وطأً وأصوب قيلًا » فقيل له : إنما نقرأ « وأقوم قيلا » . فقال أنس : وأصوب قيلًا، وأقوم قيلًا وأهيأ، واحد، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون »(١) . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته(٢) بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرسله(٣) اقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " اقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هذا ، مارواه مسلم عن أُبَىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرآ، فحسّن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما؛ فسُقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ماقد غشينى ، ضرب فى صدرى ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقًا، فقال لى : "يا أُبَىّ أُرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمتى فردّ إلىّ الثانية اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمتى

(١) آية ٩ سورة الحجر . (٢) قوله : لببه بردائه . أى جمع ثيابه عند صدره ونحره ثم جره .
(٣) أرسل الشيء : أطلقه .

Marfat.com

فردّ إلىّ الثالثة أقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أُبيّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حيْرة ودهشة؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ وإلا فأىّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النّسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولمّا رأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه "؟ قالوا : نعم ، قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقًا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللِّخاف : حجارة بيض رِقاق ، واحدتها لَخْفة . والظُّرَر : حجر له حدّ كحدّ السكين ، والجمع ظِرار ، مثل رُطَب ورِطاب ، ورُبَع ورِباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما استحرّ[1] القتلُ

(١) قوله : استحر ، أى اشتد وكثر .

Marfat.com

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء ، كأبىّ وآبن مسعود وزيد؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، فجمعه غير مرتب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتــل قد آستحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهبَ كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صــلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صــدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف(١) والعُسُب(٢) وصــدور الرجال، حتى وجدت من ســورة « التوبة » آيتين مع خُزيمــة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيهــا القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن آبن غالب عن آبن شهاب وقال : مع أبى خزيمــة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمــة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُــلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْــهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . (٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

Marfat.com

وقال الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصّحف فى المصاحف فقدتُ آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى(١) — الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين — « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذى عنه : فقدتُ آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمع الأول ، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبرى : أن آية « براءة » سقطت فى الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جَمْعَ الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك ؛ على ما يأتى . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس آختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان وآشتد الأمر فى ذلك وعظم آختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه . وذلك أنهم آجتمعوا فى غَزْوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بما رُوِى لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حُذيفة المدينة — فيما ذكر البخارىّ والترمذىّ — دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تَهلِك ! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبى خزيمة بالكنية (القسطلانى) .

Marfat.com

هذه الغزوة، وجَمَعتْ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدم وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما آختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة،لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن النـاس قد آختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك. وهـذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد آختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشـيين : إذا آختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسـان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سـوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، وآستصوبوا رأيه وكان رأيا سـديدا موفّقا؛ رحمة الله عليـه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إمامًا فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال آبن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولّاه رجل ،

Marfat.com

والله لقد أسلمت وإنه لفى صُلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله آبن مسعود: يأهل العراق، آكتموا المصاحف التى عندكم وغُلُّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فالقوا الله بالمصاحف ، خرّجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة « آل عمران »(1) إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارىّ : ولم يكن الآختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله آبن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام ، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حىّ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والآختيار . ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نَتَجه الغضب ، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يُشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن آختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت : هذا فيه نظر، وسيأتى . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد ـ أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) فى آية ١٦١ راجع جـ ٤ ص ٢٥٦

Marfat.com

فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَـل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال آبن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التـابوت ، فقال زيد : التـابوه . وقال آبن الزبير وسعيد بن العاصى : التـابوت ؛ فرُفع آختلافهم إلى عثمان فقال : آكتبوه بالتـاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارى والترمذى . قال آبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليـه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيـل سبعة . وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجّه بها إلى الآفاق ، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فآتخذها قرّاء الأمصار معتمد آختياراتهم ، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الآختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم آعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال آبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرَق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملإ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا آجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة ابن الزبير كتب فقـه كانت عنـده يوم الحَرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

Marfat.com

ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان . وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أداه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحُلولية[(١)] والحَشْوِيّة القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كلّ ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما، وأن القديم ما لا أول لوجوده ، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا : نعم، فارقوا الدين، وإن قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عزّ وجلّ : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوّفة تقول : إن الله حالٌّ في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوّزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

Marfat.com

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضــة — قبحهم الله تعالى — فى القــرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحــرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكّرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أولا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينــة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية « الأحزاب » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ؛ والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه ، وهو مشهور بكنيته ؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصــار ، أحدهما أوسىّ والآخر خَزْرَجىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

Marfat.com

وزيد، وأبو زيد، [قال] (١) : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً ، وكان بَدْرِيًّا، وآسم أبى زيد سعد بن عُبيد . قال آبن الطَّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعليّ وتميم الدارى وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضَه عنه و بعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى ، عبدَ الله بن مسعود وسالما مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذى يقرأ القرآن " . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد ، فقال : " إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل " الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة آبن أمّ عَبْد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة ، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين ، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

Marfat.com

ذلك وما بُدّل . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبدٍ — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب وسالم مَوْلى أبي حُذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرّد : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(١) . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصاري .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذي ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه في حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنباري : حدّثني إبراهيم بن موسى الخُوزى(٢) حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ؛ فلهذه العلة لم توجدا في مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتي بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوّذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذي حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراساني عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ؛ فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

(١) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة . (٢) كذا في الأصول . والذي في التهذيب وغيره : ابن يزيد .

Marfat.com

قلت : قوله عليه السلام " خذوا القرآن من أربعة من آبن أُمّ عَبْد " يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كلٌّ منهم عَزَا قراءته التى آختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى علىّ وآبن مسعود ، وأسند آبن كَثير قراءته إلى أُبَىّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَىّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابى .

باب ما جاء فى ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال آبن الطّيب : إن قال قائل قد آختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكىّ على المدنىّ ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل فى أوّله : « اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » ، وهذا أوّل مصحف علىّ رضى الله عنه . وأما مصحف آبن مسعود فإن أوّله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء، على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَىّ كان أوّله : الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة؛ ثم كذلك على آختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الآجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات فى السوَر ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا لم يأمر بذلك فى أوّل سورة « براءة » تُركت بلا بسملة؛ هذا أصح ما قيل فى ذلك ، وسيأتى (١) .

وذكر آبن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

Marfat.com

ربيعة : قد قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلّفه ، وقد آجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا ممـا نَنتهى إليه ، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال آبن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صـلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلُّفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالا ؛ آختارهم الله لصحبة نبيّه صـلّى الله عليه وسلّم وإقامة دينـه ، فآعرفوا لهم فضلهم ، وآتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من آختلاف مصحف أُبَىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن آبن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سـنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فآتساق السور كآتساق الآيات والحروف ، فكلُّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العـالمين ؛ فمن أخر سـورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسـد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَخذ عنه هـذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ »(١) . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن آبن عبـاس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

(١) آخر سورة « النساء » .

Marfat.com

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما الســلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقـــرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهـذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة، ثم يقـرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن آبن مسعود وآبن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عَنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة، و يبتدئ من آخرها إلى أوّلها لأن ذلك حرام محظور؛ ومن الناس من يتعاطى هـذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك و يقدر على الحفظ، وهذا حظّره الله تعـالى ومنعه فى القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لمـا قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت ســورة البقرة والنساء إلا وأنا عنـده — تعنى بالمدينـة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السُّـــوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا حجاج بن مِنهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمـائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

Marfat.com

و يأيها النبيّ لم تُحَرّم إلى رأس العشر، و إذا زلزلت، و إذا جاء نصر الله . هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّــوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفســد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسـلّم ما حكاه عن ربه تعـالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقـدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هـذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدِلتْ منهــمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَهـا الخطـوبُ
عينـاكَ دَمْعُهــما سَرُوبُ * كأنّ شأنَيْهما شَـعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا، فقـدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سَروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشـاعر(١) :

* أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهى مَوَاصِـلُ قبائل الرأس وملتقاه منها يجيء الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برّى : رواه ابن دريد « سَرِبتِ » بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه « تسريت » بالياء باثنتين فمعناه : كيف سريت ليلا ، وأنت لا تسرين نهارا » .

Marfat.com

(فصل) — وأما شَكْل المصحف ونَقْطه فرُوِى أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله ، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه ، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزَّبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك ، وقيل : إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير فى المصحف ، وأنه كان يَحُكّه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر فى كل سورة ما فيها من آية ، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجَدّه ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر ، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجرّدا فى المصاحف ، فأوّل ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النَّخَعِىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا ، فقال لى : امحه فإن عبد الله بن مسعود قال : لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا ؟ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

Marfat.com

قال الدانى رضى الله عنه : وهـذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشـير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمـرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك وآستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحـرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحِمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب. فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا . قال: فأخبرونى إلى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال: فأخبرونى بأسباعه على الحروف؛ فإذا أوّل سبع فى النساء «فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ» فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ » فى التـاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا » فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ » فى الهـاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو ، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر ، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل سـتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العـدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

Marfat.com

وأما المدنيّ الأخير فهو في قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آي القرآن في قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذي رواه سليم[1] والكسائي عن حمزة ، وأسنده الكسائي إلى عليّ رضي الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذّمَاري : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون . في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون؛ نقص آية . قال ٱبن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفا ، ويعدّون بها في سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — في قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحماني قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحماني من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة في كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها ، وسُمّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتَذبذَبُ

أي منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُمّيت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) في الأصول : «مسلم» والراوي عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفي وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القرّاء) .

Marfat.com

عنده كُسُور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُمّيت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هــذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لأنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر[1] :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لأنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وأنفصاله ، أى هى بائنــة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ[2] » . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُهـا * لستة أعوام وذا العـامُ سابعُ

وقيل : سُمّيت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرج بن مُسْهِر الطائى :

خرجنا من النَّقْبَيْن لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقــاحَ المَطافلا

وقيل : سُمّيت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وأختلف النحويون فى أصــل آية ؛ فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكَمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وأنفتح ما قبلها أنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعــدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثــل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وأنفتاح ما قبلها، ثم حذفت لألتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء[3] .

وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهر من آيائه * غيرَ أثافيــهِ وأرْمِــدائه

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هنّ الحرائر لا ربات أخمرة *

(٢) آية ٢٤٨ سورة « البقرة » . (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : آياء جمع الجمع نادر .

Marfat.com

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشُّبهات[1] أي الحروف، وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ »[2] . و « أَنُلْزِمُكُمُوهَا »[3] وشبههما؛ فأما قوله : « فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ »[4] فهو عشرة أحرف[5] في الرسم وأحد عشر في اللفظ . وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك . ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ » . « وَالضُّحَى » . « وَالْعَصْرِ » . وكذلك «الم» . و«المص» . و«طه» . و«يس» . و«حم» في قول الكوفيين، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهن فلا . قال أبو عمرو الداني : ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرحمن : « مُدْهَامَّتَانِ»[6] لا غير . وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك في قوله : « حم عسق» على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة في غير هذا : الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا »[7] قيل: إنما يعني بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ»[8] إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ[9] كَلِمَةَ التَّقْوَى » . قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" . وقد تسمّي العرب القصيدة بأسرها ، والقصة كلها ؛ كلمة فيقولون : قال قُسّ في كلمته كذا ، أي في خطبته؛ وقال زُهير في كلمته كذا، أي في قصيدته؛ وقال فلان في كلمته يعني في رسالته ؛ فتسمي جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قارَبه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز . قال أبو عمرو الداني : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف ، وقد سبق التعبير به في ص ١٦ من هذا الجزء . (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط .
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

Marfat.com

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة ؟ قلت: كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليــه ، ولا ينفرد وحده فى الصــورة ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهــذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصــلة كانفراد الكلم وآنفصالها، فلذلك سُمِّيت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا : المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليــه وسلم : " أنزل القرآن على ســبعة أحرف " أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

وآختلفوا هل وقع فيــه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القــاضى أبو بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيــه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنمـا آتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بهـا العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتهـا لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّـا مبينًا، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوَّة . ونشأ : قام من الليل؛ ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ» و«يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة . والغَسَاق: البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان؛ بلغة الروم . والسِّجيل : الحجـارة والطين بلسان الفرس. والطُّور الجبل . واليَمّ: البحر بالسريانية . والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية.

قال آبن عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن آستعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهــذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

Marfat.com

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة . وكسفر الأعشى إلى الحِيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ؛ فعَلِقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربيّ الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن . فإن جهلها عربيٌّ مّا فكجهله الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف آبن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال آبن عطية : « وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين آتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر؛[(1)] لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دَخِيلة في كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا ، فإن كان الأول فهي من كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها آستحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسُمّيت معجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن آختل منها شرط لا تكون معجزة .

---

(١) في الأصول : « والأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن آبن عطية .

Marfat.com

فالشرط الأوّل من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . و إنمـا وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجيء الرسل وآدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك و يسكن و يقوم و يقعد لم يكن هذا الذى آدّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، و إنمـا يجب أن تكون المعجزات كفلْق البحر، وآنشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . و إنمـا وجب آشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها؛ لم يكن فيما آدّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال و إن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول : الدليل على صدق أن يخرق الله تعـالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، و يشق الحجر و يخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقـام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منـه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما آستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقـام قوله لو قال : صـدق فيما آدّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

Marfat.com

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدَّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبيّ ، فإن هـذا الكلام الذى خلقه الله تعـالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه. وكذلك ما يروى أن مُسَـيْلِمة الكذاب لعنه الله تفـل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعـالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسـلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور ، فإنا نقول : ذلك يدّعى الرسالة ، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

Marfat.com

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملّة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال ، وثبت أن هذه الصفات لاتليق إلا بالمحدَثات ، تعالى ربّ البريّات عن أنه يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هــذا فآعلم أن المعجزات على ضربين : الأوّل — ما آشتهر نقله وآنقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، وآستفاضت بثبوته ووجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ، ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقا كثيرا و جَمًّا غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بمـا نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أوّلهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العــدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ، وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفا عن سَلَف والسّلفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ ، فنقَل القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله إلينا بعــدهم أهل التواتر الذين لا يجــوز عليهم الكذب فيما ينقلونه و يسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضرورىّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ظهور القــرآن على يديه وتحدّيه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بمـا نقل اليه من وجــود البلدان ، كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة ، وأشـباه ذلك من الأخبــار الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نبيّنا صـلّى الله عليه وسـلّم الباقية بعده إلى يوم القيامة ، ومُعجزة كلّ نبيّ آنقرضت بآنقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

Marfat.com

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء، وكذلك قال رب العزة الذى تولّى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذرّ قال لأبى ذرّ : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن، ساحر ؛ وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْراء[1] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون. وكذلك أقرّ عُتْبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لمّا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حم » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[2] ؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قطّ كان فى هذا القول مُقرًا بإعجاز القرآن له ولضُربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمّل ذلك فى سورة «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[3] إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»[5] إلى آخر السورة. قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[6]، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ »[7] .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية ؛ و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر؛ وبها وقع التحدى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه و بحوره وأنحاؤه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٩٦

Marfat.com

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغيّبين : أحدهما — الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا »(١) ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمّىّ ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخُطّه بيمينه ؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجاءهم — وهو أمّىّ من أمة أُمّيّة ، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلّم؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيّد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »(٢) « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(٣) «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»(٤) و «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ»(٥) ، وشبه ذلك

ومنها : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى؛ فمن ذلك :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

Marfat.com

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ » (١) الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » (٢) وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » (٣) . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » (٤) وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » (٥) . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا ربّ العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمّنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (٦) .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصّرفة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١ . (٦) راجع جـ ٥ ص ٢٩٠

Marfat.com

على قولين : أحدهما — أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ٱبن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنمـا هو بنظمه وصحةِ معانيه ، وتوالى فصاحةِ ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطتـه أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعـد المعنى ، ثم كذلك من أوّل القـرآن إلى آخره . والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بشرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهـذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتهـا أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسـلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قَطّ فى قدرة أحد من المخلوقين ، و يظهر لك قصـور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيهـا جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، و بشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » (١) الآية . وكذلك فاتحة سورة المـائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليـلا عاما ، ثم ٱستثنى ٱستثناء بعـد ٱستثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك ممـا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرةِ الفوت ، والدارِ الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذيرِ من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعـالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(١) آية ٧ سورة القصص . (٢) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

Marfat.com

مَنْ أَغْرَقْنَا » (١) . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة ، وآستقرار السفينة وآستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ؛ أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » (٢) . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » (٣) . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القصار، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » (٤) . فأُفحموا عن الجواب . وتقطّعت بهم الأسباب . وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهْوَنَ كثيرا، وأبلغ في الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللَّحَن (٥)، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللَّسَن (٦) .

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتي من جوامع الكلم، وآختص به من غرائب الحكم؛ إذا تأمّلتَ قولَه صلّى الله عليه وسلّم في صفة الجنان ، وإن كان في نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك في قوله عليه السلام : "فيها ما لا عَيْنٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا ؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال آتسع فيـه مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ؛ وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظِنـة المعارضة ؛ كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك) : الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك) : الفصاحة .

Marfat.com

عليه السلام على السحرة ، فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره ، فكان السحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا آلتفات لما وضعه الواضعون ، وآختلقه المختلقون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ، فى فضل سُوَر القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ، قد آرتكبها جماعة كثيرة ، آختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى آرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثل : المغيرة بن سعيد الكوفى ، ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعدى إلا ما شاء الله" ، فزاد هذا الآستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره آبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ، بل تأول الاستثناء على الرؤيا ، فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه ، قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دِين ، فآنظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمرًا صَيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا ، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال ، كما رُوى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزِىّ ، ومحمد بن عكاشة الكِرمانى ، وأحمد بن عبد الله الجُوَيبارى ، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن آبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن وآشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

Marfat.com

الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أُبَيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى ٱنتهى إلى من ٱعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحدىّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤّال والمُكْدِين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد. قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين، فى مسجد الرُّصَافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إلٰه إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ فى قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة، قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال أنا ٱبن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا، فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة، فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق ؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبَة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمَام واللّهو به، فأُهْدى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِىّ [1]

(١) أبو البخترى : هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . ٱنتقل من المدينة إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفى سنة مائتين .

Marfat.com

القاضي فقال : روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمَام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا ، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّـنّة، أن القرآن آسم لكلام الله تعـالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليـه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور، مقـروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ فى المصاحف ، معلومةٌ على الأضطرار سُـوَرُه وآياته، مُبرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبَهَت الناس، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليـه، وردّ قوله تعالى : «قُلْ لَئِنِ آجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (١)، وأبطل آية رسوله

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٦

Marfat.com

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت في الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمي فرعها، ويحرسها من معايب أُولِي الحَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف ، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » . فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعي حروفا كثيرة .

وادّعى أن عثمان والصحابة رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه ، فقرأ في صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

Marfat.com

« أحد » وآدعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وآدعى أن المصحف الذى فى أيدينا آشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(1) ؛ فآدعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « و إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى آدعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط علىّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهــم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للنـــاس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتـــاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها .

وآدعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ” أقرأ أمتى أُبَىّ بن كعب “ ولقوله عليه السلام : ” مَن سرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة آبن أمّ عَبْد “ . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذين »(2) ، « فأصدق وأكون » ، « وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما آتانىَ الله » بفتح الياء. والذى فى المصحف : « إِنَّ هَــذَانِ »(2) بالألف ،

(1) آية ١١٨ سورة المائدة . (2) بتشديد النون، قراءة نافع .

Marfat.com

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ »، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضعين .
وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم و يسكنها بعضهم، وفى المصحف نون واحدة[1]؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتُمِدُّونِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودًا كفروا ربهم » بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين؛ وكل هذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العدّ فيما تقدّم ممـا اختلفت فيه المصاحف، وسيأتى بيان هذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أُبَىّ بن كعب «حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ» ، فى رواية وقرأ أُبَىّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصّيانة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أُبَىّ بن كعب، وقرأ أُبَىّ على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبىٌّ نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُرْوَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَىّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها »؛ وعن ابن عباس « ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

Marfat.com

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحل ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا، والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب وإلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بحُمْقهم — جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَب وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقَوّله مالم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، ويَنْسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجْرًا ، وذكر عليًّا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

Marfat.com

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . و إسقاط ما أسقطه نَفْىٌ له وكُفر ، ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا ربّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففى «هو» دلالة على موضع الرّد ومكان الجواب ؛ فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . و يقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأىّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفترٍ ومُبْطل من أن يلحق به مثلها ، و إذا تُؤُمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخالط به، ولا توافق معناه. وذلك أن بعدها « لا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون . فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب : أكلت الماء؛ لكنهم يقولون . شربته وذقته وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون. والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البَليّة والنِّقمة ، والشرب محال أن

Marfat.com

يؤ كل . فإن آدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها « لا يأكله إلا الخاطئون » ونفى هذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لمـا جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يتلى،وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ »(١) إن شاء الله تعالى .

القول فى الآســـتعاذة

وفيها آثنتا عشرة مسألة :

الأولى — أمر الله تعالى بالآستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ » أى إذا أردت أن تقـرأ؛ فأوقع المـاضى موقع المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ وآستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد ؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت ؛ كما قال تعالى : «ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ومثله : « اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ » وهو كثير .

الثانيـــة — هـذا الأمر على النّدْب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصـلاة . وآختلفوا فيه فى الصلاة . حكى النّقاش عن عطاء : أن الآستعاذة واجبة . وكان آبن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله فى الآستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة ؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(١) راجع جـ ٢ ص ٦١

Marfat.com

لفظ كتاب الله تعالى . وروى عن آبن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " يآبن أُمِّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم " .

الرابعة — روى أبو داود وآبن ماجه في سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو(١) : لا أدري أى صلاة هي؟ فقال : " الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه " . قال عمرو: هَمْزه المُؤْتة، ونَفْثه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْر . وقال آبن ماجه ، المُؤْتة يعني الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل مِن فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْري قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : " سبحانك اللّهُمّ و بحمدك تبارك آسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه "؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن آبن القاسم(٢) رحمه الله أن الآستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال آبن عطية : « وأما المقرئون فأكبروا في هذا من تبديل الصفة في آسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامسة — قال المَهْدوِيّ : أجمع القرّاء على إظهار الآستعاذة في أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السُّدّيّ(٣) عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْديّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور في سند هذا الحديث (انظر سنن آبن ماجه جـ ١ ص ١٣٩ وسنن أبي داود جـ ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) في بعض النسخ : « أبي القاسم » . (٣) في بعض النسخ : « المسيبي » .

Marfat.com

القارئ وذَكَره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ٱبتـدأ من أوّله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســة — حكى الزَّهراوىّ قال: نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الآستعاذة فى غير الصلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأسّينا به .

السابعــة — رُوِى عن أبى هريرة أن الآستعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ : «ٱنتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الآستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها ٱمتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى ٱمتثالها أمرًا أو ٱجتنابها نهيًا ؛ وقد قيل : فائدتها ٱمتثال الأمر بالآستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ » [(1)] . قال ٱبن العربى: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [(2)] قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يَعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الآستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثامنــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : ٱستَبّ رجلان عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(1) آية ٥٢ سورة الحج . (2) آية ٩٨ سورة النحل .

Marfat.com

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى و بين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فإذا أحسستَه فتعوّذ بالله منـه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليـه الليل قال : " يا أرضُ ربى و ربّك الله أعوذ بالله من شرك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر مايَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . وروت خَوْلة بنت حَكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليـه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمـات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شىء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذىّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاســعة — معنى الآستعاذة فى كلام العرب : الآستجارة والتحيّز إلى الشىء، على معنى الآمتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان وآستعذت به؛ أى لجأت إليه . وهو عياذى؛ أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . و يقال : عَوْذٌ بالله منك؛ أى أعوذ بالله منك؛ قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر * عَـوْذٌ بربّى منكُم وحُجْر

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعًا، وهو آسـتعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لآستثقالها على الواو فسكنت .

(١) قوله : يقـال له خنزب . فى نهاية آبن الأثير : «قال أبو عمرو : وهو لقب له، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة و يروى بالكسر والضم» . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

Marfat.com

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين؛ على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير . وشطنت داره أى بعدت؛ قال الشاعر[(١)]:

نأتْ بسعادَ عنك نَوًى شَـطُونُ * فبانتْ والفـؤادُ بهـا رهـينُ

و بئر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ؛ سُمّى به لبعد طرفيه وآمتداده . ووصف أعرابى فرسا [لايُحَفَى][(٢)] فقال : كأنه شيطان فى أشطان . وسُمّىَ الشـيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده؛ وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان؛ قال جرير :

أيامَ يدعونَنى الشيطانَ من غَزَلِى * وهُنّ يَهْـوَيْنَنى إذ كنتُ شـيطانَا

وقيل : إن شـيطانا مأخوذ من شاط يَشيط إذا هلك[(٣)]، فالنون زائدة . وشاط إذا آحترق. وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه. وآشتاط الرجل إذا آحتدّ غضبا. وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن . وآشتاط إذا هلك؛ قال الأعشى :

قد نَخِضب العَيْر من مكنون فائله[(٤)] * وقـد يَشيط على أرماحنا البَـطَلُ

أى يهلك . و يردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيّط ، ويردّ عليهم أيضا بيت أُميّة بن أبى الصَّلْت :

أيُّمـا شاطنٍ عَصَـاه عَكَاه[(٥)] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه .

الحادية عشره — الرجيم أى المبعـد من الخير المهان . وأصـل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه ، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم ، وقـد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » . وقول أبى إبراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ »[(٦)] . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو النابغة الذبيانى؛ كما فى لسان العرب مادة (شطن) (٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن) .
(٣) فى الأصول : « إذا بطل » والتصويب عن اللسان . (٤) القائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك يحدر فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق اذا شدّه . (٦) راجع جـ ١١ ص ١١١ وجـ ١٢ ص ١٢١

Marfat.com

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك، قال : ما هذا جزائي منك، قلت : وما جزاؤك مني يا عدوّ الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِم أمّه .

البسـملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبرّي . و « بسم الله الرحمن الرحيم » ممـا أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات؛ وهـذا صحيح .

الثانيـة — قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقـال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيـه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هـذا المعنى قصة بِشر الحافي، فإنه لمـا رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طُيِّب اسمه (١)، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسـول الله

(١) نص القصـة كما في وفيات الأعيان والرسالة القشـيرية : « ... وسبب توبتـه أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر، طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخرة . فلما انتبه من نومه تاب .

Marfat.com

صلى الله عليـه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصـير مثل البيت ويقول بقوّته صـنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علىّ بن الحسين فى تفسير قوله تعـالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »(١) قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبـد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ليجعل الله تعـالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النـار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هى قوّتهـم ، وببسم الله آستضلعوا . قال آبن عطية : ونظير هذا قولهم فى ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين ، مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين آبتدروا قول القائل : ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : "لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل" . قال آبن عطية : وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثـــة — روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بآسمك اللّهمّ » حتى أُمر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمـا نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبي داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعـــة — رُوى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السُّوَر . قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٧١

Marfat.com

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها؛ وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة؛ وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعى : هى آية فى الفاتحة؛ وتردّد قوله فى سائر السُّور؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

واحتج الشافعى بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث أبى بكر الحنفى عن عبد الحميد بن جعفر[1] عن نوح بن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِيّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق؛ وكان سفيان الثورىّ يضعّفه و يحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولى الشافعى ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت علىّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » . وذكر الحديث، وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال ابن العربى : « ويكفيك أنها

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا فى الأصول والتصويب عن سنن الدارقطنى وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا، يكنى أبا الفضل، ويقال : أبو حفص، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفى . راجع تهذيب التهذيب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

Marfat.com

ليست من القرآن آختــلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا فى النمل وحدها. روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين» قال الله تعالى حَمِدنى عبدى و إذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أثنى علىّ عبدى و إذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال مجّدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلى عبدى — فإذا قال «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» قال هذا بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال «آهدنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين أنعمت عليهم غير آلمغضوب عليهم ولا آلضالين » قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل" . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها؛ فجعل الثلاث الآيات الأوَل لنفسه، وآختص بها تبارك آسمه، ولم يختلف المسلمون فيها ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الآستعانة منـه، وذلك يتضمن تعظيم الله تعـالى، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله :"هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك؛ ولم يقل : هاتان؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهـذه القسمة التى قسمها الله تعالى و بقوله عليـه السلام لأُبَىّ : "كيف تقرأ إذا آفتتحت الصـلاة " قال : فقرأت « الحمـد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها — أنّ البسملة ليست بآية منها، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية، وكذا روى قتادة عن أبى نَضْرة عن أبى هريرة قال: الآية السادسـة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهـم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل: فإنها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت فى النمل، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح؛ ولكن لكونها قرآنا، أولكونها فاصلة بين السور

Marfat.com

– كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف ٱنقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود – أو تبرُّكًا بها، كما قد ٱتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى[1] : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن إلا فى «طسٓ» «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والٱستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد ٱضطرب قول الشافعى فيها فى أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولّى الدّارَقُطْنِىّ جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبىّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة ٱنقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » ٱتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا ٱستحبّوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السّعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) ؛ وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

Marfat.com

وجمـلة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عنـد أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أوّل السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أوّل أم القرآن . وروى عنـه ٱبن نافع ٱبتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ٱبن عمر ، وٱبن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمـد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة ٱجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الٱختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة؛ منهم : أبو حنيفة والثّورى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وٱبن مسعود وعمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد ٱبن حنبل وأبو عبيـد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الٱستذكار) . وٱحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق[(1)] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن ، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقـد رُوى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مُسَيْلمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هـذا على

(١) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

Marfat.com

ذلك الرسم وإن زالت العلة ، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العـلة ، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادســـة ــ آتفقت الأمة على جواز كَتْبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل ؛ فإن كان الكتاب ديوان شـعر فروى مُجالد عن الشَّعْبي قال : أجمعـوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحـيم » . وقال الزهري : مضت السُّنّة ألا يكتبوا في الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جُبير ، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستحبه .

السابعـــة ــ قال المـاوردي ويقال لمن قال بسم الله : مُبَسْمِل ، وهي لغـة مُوَلَّدة ، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقـد بَسْملتْ ليـلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغـة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَـرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسـملة ؛ أي من قول بسم الله . ومثله حَوْقَلَ الرجل، إذا قال : لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله . وهَلَّلَ ، إذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل ، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جُعلت فداك . وطَبْقَل، إذ قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عِزّك . وحَيْفَل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المُطَرِّز : الحَيْصَلة ، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جُعلت فداك . وطبقل ، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك .

الثامنـــة ــ ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل ؛ كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

(٧ــ١)

Marfat.com

عليه وسلم : "أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر[1] إناءك وآذكر آسم الله وأوك سقاءك وآذكر آسم الله" . وقال : "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سمّ الله وكُل بيمينك وكلْ مما يَليك" وقال : "إن الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر آسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح بآسم الله" . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمّى الله تعالى، ثم يُفرغ الماء على يديه .

التاســعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَرِيّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله »، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهـذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشــرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن «آسم» صلة زائدة، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم السـلام عليكما * ومَن يبْك حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

---

(١) التخمير : التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشدّ به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدّوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

Marfat.com

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هـذا على أن الأسم هو المسمّى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلِف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر ؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأوّل للفرّاء، والثانى للزجاج . ف « باسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ ف « بسم الله » فى موضع رفع خبر الأبتداء . وقيل : الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان « بسم الله » فى موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » ف « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هـذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، ف « بآسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الأستعمال؛ بخلاف قوله : « آقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الأستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الأستعمال إنما كَثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

Marfat.com

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسماً ؛ نحو الكاف فى قول الشاعر (١) :

* ورُحْنا بِكَابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وسْطَنا *

أى بمثل آبن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه اِفْعٌ ، والذاهب منه الواو ؛ لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَىّ . وآختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : اِسم بالكسر ، وأُسم بالضم . قال أحمد بن يحيي : من ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

واللهُ أسمـاكَ سُمًـا مباركـا * آثـركَ الله بـه إيثارَكـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقـدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْحِ وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكاً لكل عظمٍ يَلْحَمُهْ (٢) *

قرصب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سِمُه » بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورةٍ سِمُه *

وسكنت السين من « بآسم » آعتلالاً (٣) على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ؛ كقول الأَحْوَص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذْمِ مالكٍ * ولا مَنْ تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا (٤)

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء . مُلِحّ . ويلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل آسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولمـا وصلت البـاء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

Marfat.com

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الآسم : سُمِوِىّ، وإن شئت آسْمِىّ . تركته على حاله، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — آختلفوا فى آشتقاق الآسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلو والرفعة، فقيل : آسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الآسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سُمِّىَ الآسم آسمًا لأنه علا بقوّته على قسمى الكلام : الحرف والفعل؛ والآسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلِعُلُوّه عليهما سمى آسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهى العلامة؛ لأن الآسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل آسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح؛ لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة — فإن من قال الآسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته ؛ وهذا قول أهل السُّنة . ومن قال الآسم مشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا آسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فإذا أفناهم بقى بلا آسم ولا صفة ؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم فى الخطإ من قولهم: إنّ كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام فى الآسم والمُسَمَّى وهى :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضى أبو بكر بن الطيّب — إلى أن الآسم هو المسمى ، وآرتضاه آبن فُورك؛ وهو قول أبى عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالما، فالآسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق؛ فالخالق هو الرب، وهو بعينه الآسم . فالآسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

Marfat.com

قال ابن الحصار : من ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمّى ، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم . وسيأتي لهذه مزيد بيان في « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أي من تسمّى باسمه الذي هو « الله » . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهيّة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذي يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال ؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا في هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم ؟ . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا في اشتقاقه وأصله ؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فِعَال ؛ فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مِثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضلتَ في حسَبٍ * عنّي ولا أنت دياني فتخزوني

كذا الرواية : فتخزوني ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسني .

وقال الكسائي والفرّاء : معنى « بسم الله » بسم الإله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية فصارتا لامًا مشدّدة ؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» ومعناه : لكن أنا ؛ كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وامرأة والهة ووَالِهٌ ، وماء موله (١) : أرسل في الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد وتفتح الواو .

Marfat.com

الألباب.وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، و إسادة ووسادة؛ ورُوى عن الخليل. ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمّيَ « الله » إلهاً، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يأْلَهُون إليه (بنصب اللام) ويأْلِهون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الآرتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاهًا، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة، فإن آبن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فآسم الله مشتق من هـذا، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة، ومنـه قول الموحدين : لا إله إلا الله، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعى غير، لا بمعنى الآستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعيّ وأبو المعالى والخطابي والغزالى والمفضّـل وغيرهم، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هـذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه؛ كقولك : يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا آلرحمن ولا يا آلرحيم، كما تقـول : يا الله، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — وآختلفوا أيضا فى آشتقاق آسمه الرحمن؛ فقال بعضهم: لا آشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رَحْمٰن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

Marfat.com

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ» الآية . ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحديبية بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال سُهيل بن عمرو : أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم» !ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم ، الحديث . قال ابن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ قال ابن الحصّار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . وذهب الجمهور من الناس إلى أن «الرحمن» مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثنَّى ولا يجمع كما يُثنَّى « الرحيم » ويُجمع .

قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذى وصحّحه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمى فمن وَصلها وَصلته ومَن قَطَعها قطعته" . وهذا نص فى الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله و بما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له : أن « الرحمن » اسم عبرانىّ فجاء معه بـ « الرحيم » . وأنشد :[1]

لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكم * بالخزّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون إلى القَسَّين هجرتكم * ومسحكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا[2]

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : « الرحيم » عربىّ و « الرحمان » عبرانىّ ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح ، كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مُطرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : «بسم الله الرحمن الرحيم» قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق:

---

(١) قائله جرير . واليَنبوت : ضرب من الشجر . (٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة « رحم » .

Marfat.com

وهذا قولُ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضّلٌ بعد تفضّل ، وإنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ؛ كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلّس (١) :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطـوفٌ عليـك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصّ الاسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الاسم خاصّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو عليّ الفارسيّ : «الرحمن» اسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ، كما قال تعالى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال العرزميّ (٢) : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة ، و«الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و«الرحيم» إذا لم يُسأل غَضب . وروى ابن ماجه فى سُنَنه والترمذيّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذيّ . وقال ابن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسيّ وهو خُوزِيّ (٣) ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقيل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة . (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

Marfat.com

الله يَغضب إن تركتَ ســؤاله * وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال آبن عباس : هما آسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شيء من صفات الله تعالى .

وقال الحسين بن الفضل البَجَلى : هذا وَهم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شيء ، و إنما هما آسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عزّ وجلّ ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يُحب الرفق و يُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنُف " .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ آدْعُوا اللهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمٰنَ »(١) فعادل الآسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَآسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ »(٢) فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قَرع مسامعَه نَعتُ الكذاب فألزمه الله تعـالى نَعت الكذاب لذلك ، و إن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلمة علمـا يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى آسمه الرحمن : إنه آسم الله الأعظم ؛ ذكره آبن العربيّ .

السادسة والعشرون — «الرحيم» صفة مطلقة للمخلوقين، ولمـا فى «الرحمن» من العموم قدم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله و إلى الرحمن، فـ«ـالرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن و بالرحيم ؛ أى و بمحمد صلى الله عليه وسـلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه و بمـا جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء ج ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف ج ١٦ ص ٩٥

Marfat.com

السابعة والعشرون — رُوى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البَرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة" . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير ، والسين مفتاح آسمه سميع ، والميم مفتاح آسمه مليك ، والألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمه لطيف ، والهاء مفتاح آسمه هادى ، والراء مفتاح آسمه رازق ، والحاء مفتاح آسمه حليم ، والنون مفتاح آسمه نور ؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله» ؛ فرُوِىَ عن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . الحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة . وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ الحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض وبوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية : ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى : « الم آلله » .

Marfat.com

تفسير سورة الفاتحة

" بحول الله وكرمه "

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأول — فى فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذىّ عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة(١) بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلّى؛ فذكر الحديث . قال ٱبن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على ٱسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على ٱسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد: «لا يوقف له على ٱسم» . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى ٱسمه . والحديث خرّجه البخارى عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال : " ألم يقل الله « ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ(٢) » " — ثم قال : — " إنّى لأعلمنّك سورة هى أعظم السُّوَر فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : " الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه". قال ٱبن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أى وقال الله هى مقسومة . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٨٩

Marfat.com

من جلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، وآسمه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المعلى، ويقال: أوس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ تُوفّى سنة أربع وسبعين وهو آبن أربع وستين [سنة](١)، وهو أوّل من صلّى إلى القبلة حين حُوّلت، وسيأتى(٢). وقد أسند حديث أُبىّ يزيدُ بن زُرَيع قال: حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبىّ وهو يصلى؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر آبن الأنبارى فى كتاب الرّد له: حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيبان عن منصور عن مجاهد قال: إن إبليس — لعنه الله — رنّ أربع رنات: حين لُعن، وحين أُهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أُنزلت فاتحة الكتاب، وأُنزلت بالمدينة.

الثانيــة — آختلف العلماء فى تفضيل بعض السُّوَر والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتىّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوى معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك فى قول الله تعالى: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» قال: محكمة مكان منسوخة. وروى آبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. وآحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتىّ: ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يُعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال آبن حجر فى الإصابة: «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك». (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٩

Marfat.com

ما يُعطى لقــارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم ســورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضــل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجودا مثلًا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفصيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة؛ وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهْوَيْه[1] وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العربى وابن الحصار؛ لحديث أبى سـعيد بن المُعَلّى وحديث أُبَيّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يا أُبَيّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبي ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هـذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك : زيد أفضل العلمـاء، فهو أفضل النـاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُربة إلا بها، ولا يلحق عمـل بثوابها، وبهـذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه ابن خلكان فقال: « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعـدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا : راهويه، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

Marfat.com

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبىّ . " أىّ آية فى القرآن أعظم " قال : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . و إنما كانت أعظمَ آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلتـه أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضلَ الذكر؛ لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن و بين الله حجاب " . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها، وهى آثنا عشر آسما :

(الأول) الصلاة(١)، قال الله تعالى(٢) : " قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين " الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد، لأن فيها ذكر الحمد؛ كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء؛ وسُمّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطّا، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفى هـذا الآسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وآبن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وآبن سيرين : أم الكتاب آسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ» .

(١) فى تفسير الألوسى وغيره : سورة الصلاة .	(٢) أى فى الحديث القدسى .

Marfat.com

(الخامس) أم القرآن، وآختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وآبن سيرين؛ والأحاديث الثابتــة ترد هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي البخاري قال : وسُمِّيت أم الكتاب لأنه يُبتــدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمر : أُمّ القُرَى : مكة ، وأُمّ خُراسان : مَرْوُ ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمِّيت أم القرآن لأنهــا أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمِّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت،ومنه سُمِّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النَّسل، والأرض أمّا، في قول أُميّة بن أبي الصَّلْت :

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أمّنا * فيهــا مقــابرنا وفيهــا نولد

ويقال لراية الحــرب : أمّ، لتقدمها وآتباع الجيش لهــا . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : «وَأُمَّهَاتُكُمْ» . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بأُمّاتِكا *

وقيل : إن أمّهات في الناس، وأُمّات في البهائم؛ حكاه آبن فارس في المجمل .

(السادس) المثاني ، سميت بذلك لأنهــا تُثَنَّى في كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها آستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنهــا تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والآعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الآبتهال إليــه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارميّ عن أبي سعيد الخُدْرِي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سُمّ"[1] .

(١) الذي في مسند الدارمي عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء".

Marfat.com

(التاسع) الرُّقْيَة، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رَقَى سيّد الحيّ : "ما أدراك أنها رُقْية" فقال : يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي؛ الحديث . خرّجه الأئمة، وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل إلى الشعبيّ وجع الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ٱبن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا(1)، وهي السماء السابعة؛ وأساس الأرض عَجِيبا، وهي الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهي سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح . وأساس بني إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا ٱعتللت أو ٱشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى(2) .

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الٱختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز .

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندراني قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا" .

الخامسة — قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» . وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدم والله أعلم .

(1) وفي بعض الأصول : غربيا (بالغين المعجمة) .
(2) كذا في نسخ الأصل . ولو كان جوابا للأمر لكان «تشف» مجزوما .

Marfat.com

السادســـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال آبن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من « البقرة » إلى «الأعراف» ست، وآختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجُّوا المسجدَ وآدعـوا ربَّكم ⁕ وآدرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الحجر »[1] إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتهـا على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل « إياك نعبد » آية، وهى على عدّه ثمانى آيات؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبـارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان آبن الأشعث حدّثنا آبن أبى قُدامة حدّثنا جَرِير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

Marfat.com

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: آختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — آختلفوا أهى مَكيّة أم مَدَنيّــة ؟ . فقال آبن عباس وقتــادة وأبو العالية الرياحى — وآسمــه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيــة . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينــة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْرُ مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكْم ، لا عن الآبتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدّثر ، وقيل : آقرأ ، وقيل: الفاتحة . وذكر البَيْهَقِى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتَصِل الرّحِم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : ياعَتِيق، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال: آنطلق بنا إلى وَرَقة، فقال: "ومن أخبرك". قال: خديجة، فآنطلقا إليه فقصا عليه، فقال: "إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل، إذا أتاك فآثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى. فلما خلا ناداه: يا محمد، قل «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين —

Marfat.com

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له ؛ فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر. فأنا أشهد أنك الذى بَشَّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبيّ مرسل. وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركني ذلك لأجاهدن معك . فلما تُوُفِّيَ ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسَّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِيّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هـذا الحديث ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولهـا بعد ما نزل عليـه «آقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و «يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» .

الثالثــة — قال ٱبن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد؛ لمـا رواه مسلم عن ٱبن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم سمع نَقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ٱبن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هـذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها؛ والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشيء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بهـا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين؛ حكاه الثعلبي . وما ذكرناه أولى . فإنه جمع بين القرآن والسُّنة، ولله الحمد والمِنّــة .

(١) النقيض : الصوت .

Marfat.com

الرابعة — قد تقدّم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، وإذا ثبت ذلك فحكم المصلّى إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت ، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً ؛ لحديث عائشة وأنس المتقدّمَيْن وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا افتتحا الصلاة : سبحانك اللّهُمّ وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جَدّك ، ولا إله غيرك . وبه قال سفيان وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وَجّهت وجهِى " الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله (١) .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول : " اللّهُمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نَقّنِى من خطاياى كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدَّنَس اللّهمّ اغسلنى من خطاياى بالماء والثّلج والبَرَد " واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله فيمن تركها ناسياً فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ابن خُويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلاً منها ، كمن

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٣ .

Marfat.com

أســقط سجدةً سهوًا . وهو آختيار آبن القــاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبـد الرحمن المخزومى المــدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصــلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صــلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليــه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صــلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعــة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إنـــ تركها عامدا فى صَــلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه؛ على آختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أُسوِّغ الآجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصـلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجىء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجىء بها ويعود إليها، كسائر المفروضات المتعيَّنات فى العبادات.

السادســـــة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعًا أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ، وهى المسألة:

السابعـــــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صــلاة السِّر؛ فإن فعل فقد أساء؛ ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسألة :

الثامنـــــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالى أنازع القرآن" ، وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" ، وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

Marfat.com

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموما ، جَهَر إمامُه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أسَرّ ولا يقرأ إذا جَهَر ؛ كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جَهَر إمامه أو أسَرّ ؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عام، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله : "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختياني وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْري وعثمان ابن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُنَنه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال فقال: حدّثنا أبو كُرَيب حدّثنا محمد بن فضيل،ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

Marfat.com

حدثنا علىّ بن مُسْهِر جميعاً عن أبى سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا صــلاة لمن لم يقرأ فى كلّ ركعة بالحمد لله وســورة فى فريضــة أو غيرها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليـه السلام قال للذى علمـه الصلاة : "وٱفعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى. ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبـادة بن الصامت عن صــلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصــلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلمـا ٱنصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليــه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فٱلتبستْ عليــه ؛ فلما ٱنصرف أقبــل علينا بوجهه فقال : " هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة" ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : " فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأمّ القرآن " . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وٱبن المبارك والشافعى وأحمد و إسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِىّ وقال : هــذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثِقات؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليـاء[1]، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن فى بيت المَقْـدس . وقال أبو محمد عبـد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخـه ولا ٱبن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومسـلم شيئا . وقال فيـه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام، فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرتُ . قال الدار قطنىّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبـد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

Marfat.com

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإمام ضامن فما صنع فآصنعوا " . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم آستدل بقوله تعالى(١) : " قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين " الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأولون بقوله عليه السلام : " و إذا قرأ فأنصتوا " أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعريّ ؛ وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة " و إذا قرأ فأنصتوا " قال الدارقطنيّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِيّ بن أبي عمارة . قال الدّارَقُطْنِيّ : فإجماعهم يدل على وَهْمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ؛ ولكن ليس هو بالقويّ ، تركه القَطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال : هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صَحّح حديثَ أبي هريرة وقال : هو عندي صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيّب . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : " مالي أنازع القرآن " فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثي ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

(١) أي في الحديث القدسي .

Marfat.com

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّيَ سنة إحدى ومائة وهو ٱبن تسع وسبعين سنة ؛ لم يَرْوِ عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره . والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، ٱقرءوا فى أنفسكم . يُبَيِّنه حديثُ عبادةَ وفُتْيَا الفـاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : " مالى أنازع القرآن " لمـا أفتى بخلافه ، وقول الزهرى فى حديث ٱبن أُكَيمة : فٱنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بينا ؛ وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف ؛ كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر . أخرجه الدارقطنيّ وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة و إسرائيل ٱبن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة و جَرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأمّ القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه . قال ٱبن عبد البر : ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّأ . وفيـه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب إليـه ٱبن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتـدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قـد ترجمه ٱبن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ٱبن سـعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

Marfat.com

الحادية عشرة — قال ابن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك في صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعيّن ، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء . وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده في قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : " اقرأ ما تيسّر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد في رواية — فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هي خِداج — ثلاثا — غير تمام " أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ؛ إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

Marfat.com

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ، وقد ذكره مالك فى الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بأَخَرة (١) ، وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعيّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّام من عمر ؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال مالك : وسنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأوليَيْن بأم القرآن وسورة ، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعيّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزاه ، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثّورِيّ : يقرأ فى الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبّح فى الأخريين إن شاء ، وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أى بتأخر وبعد من الخير

Marfat.com

صلاته ، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأُولَيَيْن وسبح في الأخريين، وبه قال النَّخَعِيّ . قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة ، كقول الشافعي المصري ، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكي ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطوّل في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونصٌّ في تعيُّن الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك، والحُجّة في السُّنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منّا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأمّ القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاري : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْري وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شيء من القرآن معها؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عُبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما . وفي المُدَوّنة : وكيع عن الأعمش عن خَيْثَمة قال: حدّثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

Marfat.com

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علِق معه بشيء ، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أسَرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا ، فعلمنى ما يجزئنى منه؛ قال : " قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله " ؛ قال : يا رسول الله، هذا لله ، فمالى ؟ قال : " قل اللّهُمّ ارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى " .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجميين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يجزئه ذلك؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من افتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة ، ويتصور ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمِر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ابن سحنون .

Marfat.com

البـاب الثالث – فى التأمين، وفيه ثمـان مسائل

الأولى – و يسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعـد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن ممـا ليس بقرآن .

الثانيـــة – ثبت فى الأمّهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيـل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه" .

الثالثـــة – روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المَقْرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرى وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبيّ صلى الله عليه وسلم يسمع منـه، فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أوجب إن ختم " فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : " بآمين فإنه إن ختم بآمين فقـد أوجب " فانصرف الرجل الذى سأل النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم ". وقال وهب بن مُنَبّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر " لقّننى جبريل آمين عنـد

Marfat.com

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين ". قال الهَرَوِىّ قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](1) الآفات والبـلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده وإظهار ما فيـه . وفى حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهمّ آستجب لنا؛ وُضع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله؛ رُوى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح؛قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا .

الخامســـة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين. قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّهـا أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفين آمينـا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعـدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ من أمّ إذا قصد، أى نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله :« وَلَا آمِّينَ

(1) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

Marfat.com

البَيْتَ الحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرى . قال الجوهرى : وهو مبنىّ على الفتح مثل أين وكيف؛ لآجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — آختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يَجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون و بعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى؛ و به قال آبن حبيب من علمائنا . وقال آبن بكير : هو مخيّر . و روى آبن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين و إنما يقول ذلك مَن خلفه؛ وهو قول آبن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم لْيَؤُمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا و إذا قال غير آلمغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىّ عن أبى هريرة؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأوّل لحديث وائل بن حُجْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِىّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : «آمين» دعاء، أمّن آبنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة(١). قال الترمذى : و به يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم . يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعى وأحمد و إسحاق . وفى المُوَطّأ والصحيحين قال آبن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ آلمغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَىّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا، ولا يتقدّموه بقول : آمين؛

(١) اللجة : الصوت .

Marfat.com

لمـا ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليـه السلام : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا " . وقال ٱبن نافع فى كتاب ٱبن الحارث : لا يقولهـا المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ٱبن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين.

السابعـــة — قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوى فى تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعِيَيْن .

الجـواب : أن إخفاء الدعاء إنمـا كان أفضـل لمـا يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعارٍ ظاهر ، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحـة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه ؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السـلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رَزِين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله أعطى أمتى ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك ٱسمه عنـدما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قد أجيبت دعوتكما » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربّنـا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دعوة . وقد قيـل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

Marfat.com

حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين". قال علماؤنا(١) رحمة الله عليهم: إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع – فيما تضمّنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما مِن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أَخذ". وفي (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطي الدنيا، ثم أعطي على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هي من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى: «وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ] (٢) خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا». وقيل في بعض الروايات: لكان ما أُعطي أكثر مما أَخذ. فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله؛ فهذا

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين في آخرها.
(٢) زيادة عن نوادر الأصول.

Marfat.com

فى التدبير[١] . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيـا منه والكلمة منـه ؛ أعطاه الدنيـا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بهـا فى الآخرة . وروى آبن ماجه عن آبن عمـر أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حدّثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارَبِّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعَضَلَتْ بالمَلَكَيْن فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبَّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارَبّ إنه قد قال يارَبِّ لك الحمـد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما آكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : آشتد وآستغلق ؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد) : الشدائد . وعضَّلت المرأة والشاة : إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هـذا يكون : أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلَت الملكين بغير باء . والله أعلم . ورُوى عن مسـلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيـــة ـــ آختلف العلماء أيُّمـا أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ؛ أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العـالمين أفضل ؛ لأن فى ضمنـه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمـد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيـد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضـل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . وآختار هذا القول آبن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون مِن قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «فى التذكير» .

Marfat.com

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمودِ الثّناءِ خَصَصْتُه * بأفضلِ أقوالى وأفضلِ أَحْمُدِى

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أَحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد . والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ *

وبذلك سُمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر (١) :

فَشَقّ له مِن اسمه لِيُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة : خلاف المذمّة . وأَحْمَدَ الرجلُ : صار أمره إلى الحمد . وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أى صادفته محمودا موافقًا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه . ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمىّ فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله؛ إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

Marfat.com

والقلب؛ والحمد إنمـا يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعمّ ؛ لأن فيـه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضـع الشكر موضع الحمد . ورُوى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، وإن آدم عليـه السلام قال حين عَطَس : الحمـد لله . وقال الله لنوح عليـه السلام : « فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ (١) » وقال إبراهيم عليـه السلام : « الحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحٰقَ (٢) » . وقال فى قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُـؤْمِنِينَ (٣) » . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا (٤) » . وقال أهل الجنة : « الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ (٥) » . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (٦) » . فهى كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمدْ ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بمـا أولى من الإحسان (٧) . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنمـا يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمـد أعمّ فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويُذكر الحمـد بمعنى الرضا؛ يقال : بلوته فحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا (٨) » . وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمـد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الدّيمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته فى جسدك ألا تعصيه ؛ فهذه شرائط الحمد .

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف . (٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

Marfat.com

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»(١). وقال عليه السلام: "احثوا في وجوه المدّاحين التراب" رواه المقداد. وسيأتي القول فيه في «النساء»(٢) إن شاء الله تعالى.

فمعنى «الحمد لله رب العالمين»: أي سبق الحمد منّي لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلّة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أُحصي ثناء عليك". وأنشدوا:

إذا نحنُ أثنينا عليك بصالحٍ ＊ فأنتَ كما نُثني وفوقَ الذي نُثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنّة.

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». وروى عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج: «الحمدَ لله» بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل. ويقال: «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرّضًا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: «الحمد لله»

(١) آية ٣٢ سورة النجم. (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

Marfat.com

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجىء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلَمُ أنّنى سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النّواعِجُ (١) لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ٱبن أبى عَبْلَة : « الحمدُ لُله » بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأوّل ؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو: أُجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل ، بضم الدال والجيم . قال :

* ... ٱضرب الساقينُ أُمُك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءةٍ لأهل مكة « مُرُدِفين » بضم الراء إتباعا للميم ، وعلى ذلك « مُقُتلين » بضم القاف . وقالوا : لإمِّك ، فكسروا الهمزة ٱتباعا للآم ؛ وأنشد للنعمان بن بشير :

ويلِ آمِّها فى هَــواءِ الجَوّ طالبةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مَطْلوبُ (٢)

الأصل : ويلٌ لأمها ؛ فحذفت اللام الأولى وٱستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ . وروى عن الحسن بن أبى الحسن وز. . بن علىّ : « الحمدِ لِله» بكسر الدال على إتباع الأوّل الثانى .

الثامنـــة ـــ قوله تعـالى : رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أى مالكهم ، وكل من ملك شيئا فهو رَبّه ؛ فالربُّ : المـالك . وفى الصحاح : والرب ٱسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملك، قال الحارث .ن حلِّزة :

وهُوَ الربّ والشّهيدُ على يوْ * مِ الحِيَـارَيْنِ (٣) والبَـلاءُ بلاءُ

---

(١) النواعج من الإبل : السراع . (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده . وهذا البيت نسبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (جـ ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لأمرئ القيس (جـ ١ ص ٣٥٣) . ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لأمرئ القيس أيضا . وقد ورد فى ديوانه : * لا كالذى فى هواء الجوّ... * وعلى هذا لا شاهد فيه . (٣) الحياران : موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء .

Marfat.com

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»(١) . وفي الحديث : "أن تلد الأمة ربتها" أي سيدتها؛ وقد بيناه في كتاب (التذكرة) . والربّ : المصلح والمدبّر والجابر والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربّه يربّه فهو ربّ له وراب؛ ومنه سمي الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربّها عليه" أي تقوم بها وتصلحها . والربّ : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه ... لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ

ويقال على التكثير(٢) : ربّاه وربّبه وربّته؛ حكاه النحاس . وفي الصحاح : وربّ فلان ولده يربّه ربًّا، وربّبه وترببه بمعنًى؛ أي ربّاه . والمربوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر «آل عمران»(٣) وسورة «إبراهيم»(٤) وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمربوب، مع ما يتضمّنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال .

واختلف في اشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»(٥) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل؛ وعلى أن الربّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده . فيقال : الله ربّ العباد، وزيد ربّ الدار؛ فالله سبحانه ربّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل ربّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمملّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

(١) آية ٤٢ سورة يوسف . (٢) في النحاس : «على التكبير» . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٥) آية ٢٣ سورة النساء .

Marfat.com

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهـذه المعانى ، فهذا الفرق بين صـفة الخالق والمخلوقيـن .

الحادية عشرة — قوله تعـالى :﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ آختلف أهل التأويل فى «العالمين» آختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالَم؛ قاله الحسين بن الفضل؛ لقوله تعالى : «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ»(1) أى من الناس . وقال العَجّاج :

* خِنْدِفُ هامةُ هذا العألَمِ(2) *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»(3) ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم؛ لأن هذا الجمع إنما هو جمع مَن يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمِينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون . وهو معنى قول آبن عباس أيضـا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُدْرِى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيـا من شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم فى البر، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ؛ وسـوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم، خلقهم لعبادته .

---

(1) سورة الشعراء آية ١٦٥ (2) خندف آسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العألم؛ بالهمز والإسكان . (3) سورة الفرقان آية ١

Marfat.com

قلت: والقول الأول أصح هذه الأقوال؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»[1]. ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلامة؛ لأنه يدل على مُوجده. كذا قال الزجاج قال: العالَم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العَلَم والعَلامة والمَعْلَم: ما دلّ على الشيء؛ فالعالَم دالٌّ على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح. وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد: الحمد لله؛ فقال له: أتمها كما قال الله، قل: ربّ العالمين؛ فقال الرجل: ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخى؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر.

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أى هو رب العالمين.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (٣) وصف نفسه تعالى بعد «ربّ العالمين»، بأنه «الرحمن الرحيم»؛ لأنه لما كان فى آتصافه بـ«رب العالمين» ترهيبٌ قَرَنه بـ«الرحمن الرحيم»، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»[2]. وقال: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»[3]. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنَط من جنّته أحد". وقد تقدّم ما فى هذين الآسمين من المعانى، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (٤) قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك؛ وفيه أربع لغات: مالك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَليك؛ قال الشاعر[4]:

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ * عصينا المَلْك فيها أن نَدينا

---

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء. (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر. (٣) آية ٣ سورة غافر.
(٤) هو عمرو بن كلثوم.

Marfat.com

وقال آخـــر[1] :

فاْقنعْ بمـا قَسَم المليكُ فإنّمـا * قَسَم الخـــلائقَ بيننا علّامُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى «مَلِك» فيقرأ «مَلِكى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — آختلف العلماء أيّما أبلغ : مَلِك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى؛ فقيل: «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا؛ ولأن أمر الملِك نافذ على المـالك فى مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل: «مالك» أبلغ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم؛ فالمـالك أبلغ تصرُّفًا وأعظم؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التّملك .

وقال أبو علىّ : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن آختار القراءة بـ«ملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شيء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولا حجة فى هذا؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» فالخالق يعمّ . وذكر المصوِّر لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة؛ وكما قال تعـالى : «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» بعد قوله : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب آعتقادها، والردّ على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» . وقال أبو حاتم : إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «مَلِك»، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا، وآختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

Marfat.com

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثاني : أنه يطلق على مالك القليل والكثير؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك؛ ولا تقول : ملك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «مَلِك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة . ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك آستحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»(١) ، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة في قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العَجَم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار، وذلك أمر ضروري في المَلِك، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوه وغلبه غيره وآزدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»(٢) إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعاني الشريفة التي لا توجد في المالك .

قلت : وقد آحتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة ـ لا يجوز أن يتسمّى أحد بهذا الآسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أَخْنَع آسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك ـ زاد مسلم ـ لا مالك إلا الله عزّ وجلّ " قال سفيان(٣) : «مثل : شاهانْ شاهْ . وقال

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) سورة النمل آية ٢٠ ، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانى عن أخنع ؛ فقال : أوْضع » . وعنــه قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه" . قال ابن الحصار : وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغى أن يُختلف فى أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمـالك وملك وهى :

السـابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظـيم : «إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمّتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ(٢) هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة" .

الثامنــــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليــه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمـا أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : «مالك يوم الدين» على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدِّين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى إنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين و إحداثه ؛ لأن المـالك للشيء هو المتصرف فى الشيء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأوّل أمَسّ بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ »[1] فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فٱستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت ٱستقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[2] . وجَمْعُ يومٍ أيام ؛ وأصله أَيْوَام فادغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أَيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز[3] :

* نِعْمَ أخو الهيجاء في اليوم ٱليمِى *

وهو مقلوب منه[4] ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال ٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ »[5] أي حسابهم . وقال : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[6] وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »[7] أي مجزيّون محاسبون . وقال لَبيد :

---

(١) سورة غافر آية ١٦ . (٢) سورة المائدة آية ٣ . (٣) هو أبو الأخزر الحمانى كما في اللسان مادة « يوم » . (٤) قوله : « وهو » أي اليمى . (٥) سورة النور آية ٢٥ . (٦) سورة الجاثية آية ٢٨ . (٧) سورة الصافات آية ٥٣

Marfat.com

حصَادُك يومًا ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يومًا كما هو دائن

آخـــر :

إذا ما رمـــونا رميناهـــمُ * ودِنّاهُم مثـــل ما يُقرِضـــونا

آخـــر :

واعلم يقينـا أن مُلكك زائلٌ[1] * واعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته؛ ومنه الدَّيّان في صفة الرب تعالى أى المجازى؛ وفى الحديث : "الكيِّس من دان نفسه" أى حاسب. وقيل : القضاء. روى عن ابن عباس أيضا؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولةُ[2] مَعْبَدٍ * على جُدِّها[3] حَرْبًا لدِينِكَ من مُضَرْ

معانى هذه الثلاثة متقاربة. والدِّين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـــرٍّ طِـــوالٍ * عَصينا المَـلْكَ فيها أن نَدِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيـــة والعشرون — قال ثَعْلَب : دانـ الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد. ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينِك من أمّ الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي[4] * أهـذا دينُـــه أبدًا ودِينى

---

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها. (٣) الجُدّ (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ. والخطاب لعمرو بن هند وقد أغار على إبل معبد أخى طرفة. (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به. والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير.

Marfat.com

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللتَ بجـوّ فى بنى أسـد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ[1]

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدَّاء ؛ عن اللحيانى . وأنشد :

* يادِينَ قلبِك من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أوّل السـورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعـالى وثناء عليـه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً[2] » . ثم قال : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً » . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِـمْ[3] » على ما يأتى . و﴿ نَعْبُـدُ ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّـد إذا كان مذللا للسالكين؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ « إياك نعبد و إياك نستعين » فقـد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم آهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه ؛ فقال له الساب : إياك أعْنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرِض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، و إنما يتبع لفظ القرآن . وقال العَجّاج :

إيّاك أدْعُـو فتقبّـل مَلَقِى * وآغفِر خطاياى وكثّر ورِقى

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «انه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا . وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو ــ بالخاء المعجمة ــ : «و يوم خو لبنى أسد ، قال زهير ــ وذكر البيت ــ قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع .. » . وفدك : موضع بخيبر . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

ويروى : وتَمَّر . وأمّا قول الشاعر(١) :

* إليكَ حتى بلَغَتْ إيّاكا *

فشاذٌ لا يقاس عليه . والوِرِق بكسر الرّاء من الدراهم ، و بفتحها المـال . وكرر الآسم لئلا يتوهّم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إيّاك» فى الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد : «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها، وقد تُفتح . وقال(٢) :

سَقَتْهُ إيَاةُ الشّمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليـه بإثمد

فإن أسقطت الهـاء مددت . و يقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشىّ : «أياك» (بفتح الهمزة) وهى لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوى : «هياك» فى الموضعين، وهى لغة؛ قال :

فهِيّاكَ والأمر الذى إن توسّعتْ * موارده ضاقت عليـك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

عطف جملة على جمـلة . وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش : «نِستعين» بكسر النون، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة؛ ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف سل . وأصـل «نستعين» نستعْوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

Marfat.com

ٱستعانة ، والأصـل ٱستعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفـا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عِوَضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُرْبك . قال بعض العلماء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هـذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به ؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»(١) أى مِلْنا ؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين ٱثنين ، أى يتمايل . ومنه الهدية ؛ لأنها تمال من مِلك إلى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق إلى الحَرَم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : «الصراط المستقيم» طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية فى قوله عزّ وجل « ٱهدِنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذى لا يقبل من العبـاد غيره . وقال عاصم الأَحْوَل عن أبى العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسـلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العاليـة يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفَيل :

شحنّا أرضَهم بالخَيْل حتى * تركناهم أذلّ مِن الصّراط

وقال جَرير :

أمير المؤمنين على صِراط * إذا ٱعْوَجّ الموارِدُ مُسْتقِيم

وقال آخـــر :

* فَصَـدّ عنْ نَهْج الصِّراطِ الواضِح *

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

Marfat.com

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهـذا ضعيف جدًا .
وقرئ : السراط (بالسين) من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه .
وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سلمة عن الفراء قال :
الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى القَيْن ، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] :
أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد ، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول
الثانى ؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : « فَٱهْدُوهُمْ(1)
إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ » . و بغير حرف كما فى هـذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « الصراط » .
وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا(2)
فَٱتَّبِعُوهُ » وأصله مُستقوِم ، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأول بدل الشىء من الشىء ؛ كقولك : جاءنى زيد أبوك(3) . ومعناه :
أدم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيل : هو صراط آخر ،
ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « الَّذِينَ » فى الرفع
والنصب والجر ؛ وهُذَيل تقول : اللَّذُون(4) فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو ، ومنهم
من يقول : الذى(5) ؛ وسيأتى .

وفى « عليهم » عشر لغات ؛ قرئ بعامتها : « عليهُمْ » بضم الهاء و إسكان الميم . « وعليهِمْ »
بكسر الهاء و إسكان الميم . و « عليهِمِى » بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة .
و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهاء والميم
كلتيهما و إدخال واو بعد الميم . و « عليهُمُ » بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه
الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القراء :

(1) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (2) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (3) أى قوله تعالى : « اهدنا »
وما بعده . (4) قال أبو حيان فى البحر : واستعماله بحذف النون جائز ، كذا فى اللسان .
(5) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر ؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

Marfat.com

« عليهِمِى » بضم الهاء وكسر الميم و إدخال ياء بعد الميم؛ حكاها الحسن البصرى(١) عن العرب . و « عليهُمِ » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و «عليهِمُ» بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و «عليهِمِ» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب؛ قاله ٱبن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضى الله عنهما « صراط مَن أنعمت عليهم » . وٱختلف الناس فى المُنْعَم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا(٢) » . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا(٣) » الآية .

الثانية والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴿٧﴾

ٱختلف فى «المغضوب عليهم» و «الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى، وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ . (٣) راجع جـ ٤ ص ١٩

Marfat.com

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم »[1] وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو مَن أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِيّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره ، وليس بشىء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود ؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وآنتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» بآتباع البدع ؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض ؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، و إرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

ألم تسأل فتخبرك الديارُ * عن الحىّ المُضَلَّل أين ساروا

والضُّلَضِلَة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه ، قال :

* أو غَضْبَة فى هَضْبَة ما أمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأُبَىّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

Marfat.com

أو من الهـاء والميم فى «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول: الحىّ غير الميت ، والساكن غير المتحرّك ، والقـائم غير القاعد، قولان . الأوّل للفـارسىّ، والثانى الزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الآستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسـة والثلاثون — «لا» فى قوله «ولا الضالين» آختلف فيها، فقيل هى زائدة ؛ قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعـالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[1] .وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكىّ والمهدوىّ .وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير، وهى قراءة عمر وأُبَىّ؛ وقد تقدّم .

السادسـة والثلاثون — الأصل فى «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فآجتمع ساكنان مَدّة الألف واللام المدغمة. وقرأ أيوب السختيانىّ : «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة. حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ »[2] . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوَالى بالعبيط احمأرّت[3]

نُجز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمِنّة .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبى حيان والبيت كما فى ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا * اذا ما آحمأرّت بالعبيط العوامِلُ

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنتها؛ واحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . وآحمرّ الشىء واحمأرّ بمعنى .

Marfat.com

تفسير سورة البقرة

" بحول الله وكرمه ، لارب سواه "

وأوّل مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

سـورة البقرة مَدَنيّـة ، نزلت فى مُدَد شتّى . وقيل : هى أوّل سـورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ »(١) فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحر فى حَجّة الوَدَاع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهـذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لهـا : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد ابن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة ، وابنُه عبدُ الله فى ثمـانى سنين كما تقدّم .

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمْر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعث رسول الله صلى الله عليه وسـلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له : "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة "، قال معاوية(٢) : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " لا تجعلوا بيوتكم مقابرَ إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيـه سورة البقرة " . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيـه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال: إن لكل شىء سَناما و إن سَنام القرآن سورةُ البقرة، وإن لكل شىء لُبابا و إن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِيّ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ (٢) معاوية هذا، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتـه ثلاثة أيام " . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صلى الله عليه وسلم : " لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام " أراد : مردة الشياطين . وروى الدّارميّ في مسنده عن الشَّعْبِيّ قال قال عبدالله : مَن قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ؛ أربعا من أوّلها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ؛ أوّلها : « لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبي عنـه : لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقْرأن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حَفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر] (١) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده ، فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتني أجـــلي　＊　حتى اكتسيْتُ من الإسلام سِرْبالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولي ، وهو أصح عندي . وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه　＊　والمرءُ يصلحه القَرينُ الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة (٢) ، و يأتي في أوّل سورة آل عمران (٣) زيادة بيان لفضل هذه السورة ، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (جـ ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .　(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢

Marfat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" رب يَسّر وأعِن "

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبيّ وسفيان الثَّوْرِيّ وجماعةٌ من المحدّثين : هي سِرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب مِن كُتُبه سِرٌّ . فهي من المتشابه الذي آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها[1] ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت . ورُوى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِيّ عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذي لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة في القرآن إلا في أوائل السُّوَر ، ولا ندري ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبي طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم[2] قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به[3] ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختبارا من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ؛ فمن آمن بها أُثيب وسعد ، ومَن كفر وشكّ أثِم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدّثنا محمد بن أبي بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب ؛ ثم قرأ : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » .

(١) في نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... ونمرّ كما » الخ . وفي نسخة : « ونقرّ كما جاءت » .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « في التقريب الربيع بن خثيم » بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن في الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) في نسخة من الأصل : « تجزون به » .

Marfat.com

قلت : هــذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعــالى (١) . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهــا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهــا ؛ وآختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن آبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن آسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفراء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العــرب حين تحــدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنــه أبلغ فى الحجــة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند آستماع القرآن ، فلما سمعوا : « الۤمۤ » و « الۤمۤصۤ » آستنكروا هذا اللفظ ، فلما أنْصتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم و يقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمــا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : « لا تَسْمَعُوا لِهَذَا ٱلْقُرْآنِ وٱلْغَوْا فِيهِ » (٢) نزلت ليستغربوها فيفتحون لهــا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالّة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول آبن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمــه لطيف ، والميم مفتاح آسمه مجيــد . وروى أبو الضُّحَى عن آبن عباس فى قوله : « الۤمۤ » قال : أنا الله أعلم ، « الۤرٰ » أنا الله أرى ، « الۤمۤصۤ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن آسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . وآختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لهــا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهــا قِفِى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخــير خيراتٍ وإن شــرًّا فَا * ولا أريــد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

(١) راجع جـ ٤ ص ٩ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

Marfat.com

وقال آخر:

نادوهـم أَلَا ٱلْجِمُـو أَلَا تَا * قالـوا جميعا كلهـم أَلَا فَا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فآركبوا. وفى الحـديث: "مَن أعان على قتـل مسلم بشـطر كلمة" قال شقيق: هو أن يقول فى آقتـل: أقْ؛ كما قال عليه السـلام "كفى بالسيف شا" معناه: شافيًا.

وقال زيد بن أسلم: هى أسماء للسُّوَر. وقال الكلبى: هى أقسام أقسم الله تعـالى بها لشرفها وفضلها، وهى من أسمائه؛ عن آبن عباس أيضا. وردّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل: إنّ وقـد ولقد وما؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا. والجواب أن يقال: موضع القَسَم قوله تعـالى: «لا رَيْبَ فِيهِ» فلو أن إنسانا حلف فقال: والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه؛ لكان الكلام سديدا، وتكون «لا» جواب القَسَم. فثبت أن قول الكلبى وما رُوى عن آبن عباس سديد صحيح.

فإن قيل: ما الحكمة فى القَسَم من الله تعـالى، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين: مصدّق، ومكذّب؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم، والمكذب لا يصدق مع القَسَم؟. قيل له: القرآن نزل بلغـة العرب؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه؛ والله تعـالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنـده. وقال بعضهم: «الٓمٓ» أى أنزلت عليك هـذا الكتاب من اللوح المحفوظ. وقال قتادة فى قوله: «الٓمٓ» قال آسم من أسماء القرآن. وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال: إن الله تعالى أَوْدع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولىّ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقّه الناس. وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم.

والوقف على هـذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها. وآختلف: هل لها محل من الإعراب؟ فقيل: لا؛ لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجّى فهى مَحْكِيّة. هذا مذهب الخليل وسيبويه.

Marfat.com

ومن قال : إنها أسماء السُّوَر فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر ؛ أى هــذه « الٓمٓ » ؛ كما تقول : هذه سورة البقرة . أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ٱبن كَيْسان النحوى : « الٓمٓ » فى موضع نصب ؛ كما تقول : ٱقرأ « الٓمٓ » أو عليك « الٓمٓ » . وقيل : فى موضع خفض بالقسم ؛ لقول ٱبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب . و«ذلك» قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، و إن كان موضوعا للإشارة إلى غائب ؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ »(١) ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرّمحُ يأطِرُ(٢) مَتْنَه * تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا . فـ«ذلك» إشارة إلى القرآن ، موضوع موضع هذا ، تلخيصه : الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه . وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ »(٣) « تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ »(٤) أى هذه ؛ لكنها لمـا ٱنقضت صارت كأنها بَعُدت فقيــل تلك . وفى البخارىّ « وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن » . ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة ؛ كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ »(٥) هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك» ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَجَ(٦) هذا البحر " أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

وٱختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ فقيل : «ذلك الكتاب» أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه ؛ أى لا مبدّل له . وقيل : ذلك الكتاب ؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى " فى رواية : " سبقت " . وقيل :

(١) سورة السجدة آية ٦		(٢) يأطر : يثنى .		(٣) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢		(٥) سورة الممتحنة آية ١٠		(٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ " الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » (١) لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنيرًا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » اسم للقـرآن، والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل، يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ماليس فيهما . وقيل : إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما، والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أومثل ذَيْنِك الكتابين، أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذَيْنك الكتابين، فعبّر بـ«ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن، قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَـا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » (٢) أى عَوان بين تَيْنك : الفارض والبكر، وسيأتى . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى اللَّوح المحفوظ . وقال الكسائى : «ذلك» إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كَتَب يَكْتُب إذا جمع، ومنه قيـل : كَتيبة، لاجتماعها . وتكتّبت الخيل صارت كتائب ، وكتبتُ البغلةَ : إذاجمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمها بحلقة أو سَيْر، قال :

لا تأمنَنّ فَزاريًّا خلَوْتَ به • على قَلوصك وٱكتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَب. والكَتْب : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْراءَ غَرْفِيّةٍ أثْأَى خوارزُها * مُشَلْشِلٌ ضيّعته بينها الكُتَبُ (١)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أومتفرقة؛ وسُمّى كتابا وإن كان مكتوبا، كما قال الشاعر :

تُؤمّل رجعــةً منّى وفيهــا * كتابٌ مثلَ ما لِصق الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدِىّ :

يا ٱبنةَ عمّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرَّيْب ثلاثة معان :

أحدها — الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمَةُ ريْبٌ * إنمــا الرَّيبُ مايقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة؛ قال جميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِي * فقلت كلانا يا بثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة؛ قال (٢) :

قضينا من تِهامةَ كلَّ ريْب * وخَيْـبَرَ ثم أجْمَعْنا السـيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيــه ولا ٱرتياب؛والمعنى: أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا. وتقول: رابنى هذا الأمرُ إذا أدخل عليــك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة . و«غرفية» : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . والثأى والثأى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بفى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها: فيهِ هُـدى. ويليه فيهُ هُدى (بضم الهاء بغير واو)(١) وهى قراءة الزُّهْرِى وسلّام أبى المنذر. ويليه فيهِى هُدى (بإثبات الياء) وهى قراءة ابن كثير. ويجوز فيهُو هُدى (بالواو). ويجوز فيه هدى (مدغما) وارتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى فى كلام العرب معناه الرّشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى.

الثانيـــة — الهُدَى هُديان: هُـدَى دلالة، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»(٢). وقال: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(٣) فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييـد والتوفيـق، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ»(٤) فالهدى على هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى: «أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله: «وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ». والهُدَى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت. قال أبو المعالى: وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين: «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ»(٥) ومنه قوله تعالى: «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»(٦) معناه فاسلكوهم إليها.

الثالثـــة — الهدى لفظ مؤنّث. قال الفرّاء: بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول: هذه هُدَى حسـنة. وقال اللّحيانى: هو مذكّر؛ ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»(٧)، تقول: هديْتُه الطريق وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار؛ أى عرّفته. الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش. وفى التنزيل: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»(٧) و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا»(٨). وقيل: إن الهُدَى اسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول ابن مُقْبِل:

(١) أى بعد الهاء من «فيه». (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء. (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

Marfat.com

[حتى (١) ٱستبَنْتُ الهُدَى والبِيـدُ هاجمَةٌ * يَخشعْـنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصـلِّينا]

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهـم آمنوا وصدّقوا بما فيـه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم . وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لٱلتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى ٱجتماع الواو والتاء وأدغمت التـاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســـة ــ التقوى يقال أصلها فى اللغـة قلّة الكلام؛ حكاه ٱبن فارس . قلت : ومنه الحديث : "التّقِيُّ مُلْجَم والمتّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من ٱتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ (٢) ولم ترد إسقاطه * فتناولتـــه وٱتّقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وٱتّقت * بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعصمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبيش عن ٱبن مسـعود قال قال يوما لٱبن أخيـه : يٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعـم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقِى من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى ٱتقى الشرك و برئ من النفاق . قال ٱبن عطية : وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضوع .

(٢) النصيف : ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

Marfat.com

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هـذا المعنى آبن المُعْتزّ فنظمه :

خَلِّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التـقى
وآصنع كماشٍ فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادسة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأوّلين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شىء ؛ فقال :

يريد المـرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المـرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وروى آبن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يقول : " ما آستفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرّته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله " .

والأصل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تقِىّ أى خائف ، أصله وقى ؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت «للمتقين»، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا »[1] أى بمصدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ »[2] « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى »[3] . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

Marfat.com

الأحول — ويلقب بزِقّ العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فإن نفسك مائلة إلى السّأْمة والفَتْرَة والمَلّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المُتقوّى ، والمؤمن هو المتشدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] إلى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانيـة حتى آستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منــه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — وآختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه آبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيــه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرســول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال آبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبيّ صـلّى الله عليه وسـلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ[3] » وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ[4] » . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والآستدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .	(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ .	(٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

Marfat.com

فهم يؤمنون أن لهم رَبًّا قادرا يجازى على الأعمال، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم بآطلاعه عليهم؛ وعلى هـذا تتفق الآى ولا تتعارض؛ والحمد لله.

وقيل: «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين؛ وهذا قول حسن. وقال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقـد كان قومُنا * يصلّون للأوثانـ قبل محمّد

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّـلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها؛ على ما يأتى بيانه. يقال: قام الشىء أى دام وثبت؛ وليس من القيام على الرِّجْل؛ وإنمـا هو من قولك: قام الحق أى ظهـر وثبت؛ قال الشاعر:

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتُم لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل: «يقيمون» يديمون، وأقامه أى أدامه؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضَيّعها فهو لمـا سواها أضيع.

الخامســـة — إقامة الصلاة معروفة؛ وهى سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها. وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وآبن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة؛ وبه قال أهل الظـاهر، وروى عن مالك، وآختـاره آبن العربى قال: لأن فى حديث الأعرابى "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والآستقبال والوضوء.

قال: فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض. قال آبن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم: "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم، فمـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك. وقال بعض علمائنا: مَن تركها عمدا أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لآستوى سهوها وعمدها، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن، والله أعلم.

Marfat.com

السادســـة — وٱختلاف العلمــاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتِمّوا". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ثُوّب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن لِيَمْشِ وعليه السَّكِينة والوقار صَـلِّ ما أدركت وٱقضِ ما سبقك " . وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع ٱنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتهـا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ٱبن عمر وٱبن مسعود على ٱختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين المـاشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشى .

قلت : وٱستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسـلم على خلاف ما أخبر؛فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المـاشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمـد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة " . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعـله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعـالى : «فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ»[2] وأنه ليس المراد به الآشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .	(٢) سورة الجمعة آية ٩

Marfat.com

السابعـــة — وٱختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتمّوا" وقوله: "وٱقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أوْ لا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمـام ، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(١) وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٢) . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأوّل جماعة من أصحاب مالك — منهم ٱبن القاسم — ولكنه يقضى ما فاته بالحمـد وسورة ، فيكون بانيـا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال ٱبن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهو الذى عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود ٱبن علىّ . وروى أشهب وهو الذى ذكره ٱبن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن ٱبن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ٱبن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّلَ صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمـام هو الآخر .

وٱحتج الآخرون بقوله : "فٱقضوا" والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى « فأتموا » أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ، وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء ٱطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنـــة — الإقامة تمنع من ٱبتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة

(١) سورة الجمعة آية ١٠ . (٢) سورة البقرة آية ٢٠٠

Marfat.com

فلا يقطعها ؛ لقوله تعـالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ »(١) وخاصة إذا صـلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاســعة ــ وآختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما؛ و إن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد ــ التى تصلّى فيها الجمعة ــ اللاصقة بالمسجد؛ و إن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأنْ يصـلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه، و إن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعى؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـة دخل معهم ولم يصلهما و إلا صلاهما و إن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حىّ و يقال آبن حيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد . وكذلك قال الطبرى و به قال أحمـد بن حنبل وحكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليـه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إمّا سـنة ، و إمّا فضيلة ، و إمّا رَغيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن آبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجـة الثّورى والأوزاعى ما روى عن عبـد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقـد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوانة(٢) فى المسجد ركعتى الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : و إذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١) سورة محمد آية ٣٣		(٢) الأسطوانة : العامود .

Marfat.com

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ٱبن بُحَيْنَة(١) قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صحّت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العاشرة – الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليُصَلِّ " أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف ؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ(٢) » أى ٱدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقد قَرُبتُ مرتحلًا * يا ربّ جنّب أبِى الأوْصاب والوجَعَا
عليكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضِى * نومًا فإن لجَنْبِ المرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرِّيحُ فى دَنِّها * وصلّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

ٱرتسم الرجل : كبّر ودعا؛ قاله فى الصحاح. وقال قوم: هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخذ المُصَلِّى فى سبق الخيل؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق ؛ فٱشتقت الصلاة منه، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّى من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه. والصَّلا: مَغْرِز الذَّنَب من الفرس،

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

Marfat.com

والأثنان صلوان . والمُصَلِّي : تالي السابق؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال عليّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صَلِيَ بالنار إذا لزمها؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »(١) . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِهـا علم اللّٰ ‍ * ‍ ـهُ وإنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرّها؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلى يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع؛ قال الخارزنجى(٢) :

فلا تعْجل بأمرك وٱستدمْهُ * فمـا صَلَّى عصاكَ(٣) كمستديمِ

والصلاة: الدعاء، والصلاة: الرحمة؛ ومنه: "اللّهمّ صلّ على محمد" الحديث . والصلاة: العبادة؛ ومنه قوله تعالى : «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ»(٤) الآية؛ أى عبادتهم . والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ »(٥) . والصلاة التسبيح؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ »(٦) أى من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل فى تأويل «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ»(٧) : نصلّى . والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ»(٨) فهى لفظ مشترك . والصلاة: بيت يصلّى فيه؛ قاله ٱبن فارس . وقد قيل: إن الصلاة ٱسم علَم وضع لهذه العبادة؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع، ولم يُخلّ شرع من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا ٱشتقاق لهـا ؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — ٱختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الأبتدائى، وكذلك الإيمـان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنمـا تصرف بالشروط والأحكام ، أو هل

---

(١) سورة الغاشـية آية ٤ . (٢) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان والتاج مادة (صـلا) : « ... قيس بن زهـــير » . (٣) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان : « عصاه » . (٤) سورة الأنفال آية ٣٥ . (٥) سورة طـــه آية ١٣٢ . (٦) سورة الصافات آية ١٤٣ . (٧) سورة البقـــرة آية ٣٠ . (٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

Marfat.com

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هذا اختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكّم فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدبّ ؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّم فى الأسماء . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معا ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتّقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية ؛ على ما يأتى بيانه فى « طه »(١) إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال: هجّر(٢) النبيّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكمت دَرْدَه " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء " . فى رواية : " أشكمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه(٣) أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛فمن شروطها: الطهارة،وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء(٤) والمائدة(٥). وستر العورة، يأتى فى الأعراف(٦) القول فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فروضها : فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه ؛ وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

Marfat.com

حتى تعتـدل قائما ثم آسجد حتى تطمئن ساجدا ثم آرفع حتى تطمئن جالسا ثم آفعـل ذلك في صلاتك كلهـا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وغيره . قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما(1) . وأما رفع اليـدين فليس بواجب عند جماعة العلمـاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عنـد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنـد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدى ، ورواية عن الأوزاعى . وآحتجوا بقوله عليه السلام : "صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى" أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان آبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبـل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ؛ وإن نسى تكبيرة واحدة أو آثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليـه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهـا . وهـذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأنّ اليسير منه متجاوز عنـه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليـه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح، وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهـل الحديث والمـالكيين غيرَ من ذهب مذهب آبن القاسم . وقد ترجم البخارى

---

(1) راجع ص ١١٧ ، ١٦٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، و إذا رفع رأسه كبّر، و إذا نهض من الركعتين كبّر ؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هـذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أو قال : لقـد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع، فأخبرت آبن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك[1] ! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا علىّ يومَ الجَمَل صلاة أذكرنا بهـا صلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيـام وقعود ؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشىء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه ؛ وبالله التوفيق .

الخـامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور ؛ وأوجبـه إسحاق بن رَاهْوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليـه السلام : "أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فآجتهدوا فى الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم".

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمـاء الجلوس الأوّل وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[2] من المُزَابنة[3]، والقِراض[4] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. وآحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله : لا أمّ لك . فى نهاية آبن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعرَف لك أم . وقيـل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعْدٌ » . (٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمـر . (٣) المزابنة : بيـع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا، و بيع الزبيب بالكرم . (٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال بجزء من ربحه .

Marfat.com

العامد لتركه تبطل صـلاته كما لا تبطل بترك سنن الصـلاة . ٱحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصـلاة لرجع الساهي عنه إليه حتى يأتى به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، و يراعى فيه مايراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمـا فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم .

وٱختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس والتشهد فرض والسـلام فرض . وممن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية ، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، و به قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . و إذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وٱحتجوا بأن بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض ؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتمونى أصلى " .

القول الثانى : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، و إنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، و إليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، نخالف الجمهور وشذّ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس (١) . وهذا اللفظ إنمـا يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) فى بعض الأصول : « المقتبس » .

Marfat.com

القول الثالث: إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا. قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . وآحتجوا بحديث آبن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال آبن العربي : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا في الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطة * أين الضُّراطُ من السلامِ عليكُمُ

قال آبن العربي : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ؛ أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه. وأما الثاني : فوقع في الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية . وآحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، وآحتج إسحاق بحديث آبن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدّارَقُطْنِيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام آبن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابة ثقة . وقد تابعه غسّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام آبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

الثامنة عشرة — وٱختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بٱتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو ٱفتتح رجل صلاته بسبعين ٱسما من أسماء الله عزّ وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدى لحديث علىّ ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد ٱختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الٱفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال ٱبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وٱختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن ٱبن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدثنا أبو أسامة قال حدثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

Marfat.com

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة ٱستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير ؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم ، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم ، فكان أبلغ فى المعنى ؛ والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن ٱفتتح بلا إله إلا الله يجزيه ، وإن قال : اللهم ٱغفر لى لم يجزه ، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ٱبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة ، فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره ، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال ٱبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته ، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون — وٱتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ٱبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا ، أو قبل ذلك بشرط ٱستصحابها ، فإن تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى ٱقترانها بأوله . قال ٱبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة ، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل ، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة ، لأن

(١) أوحى : أسرع .

Marfat.com

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»(١) والأوقات فى «هود(٢) وسبحان(٣) والروم(٤)» وصلاة الليل فى «المزمل(٥)» وسجود التلاوة فى «الأعراف(٦)» وسجود الشكر فى «ص(٧)» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطينـاهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كانـ أو حراما ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم ،لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعد . (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣ .

Marfat.com

وأن الله تعـالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ»(١) وقال : «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ»(٢) وقال: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا»(٣) وهذا قاطع ؛ فالله تعـالى رازق حقيقة وٱبن آدم رازق تجوّزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة(٤)؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»(٥) فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصـدر رزق يرزق رَزقا ورِزقا، فالرَّزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق : العطاء . والرازقية: ثياب كتان [بيض](٦) . وٱرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغـة . وقال ٱبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدِشَنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »(٧) أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المـال من اليد؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشـترى . ونَفَقت الدابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافِقاء لجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم؛ ومنه قوله تعالى: « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ »(٨) .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد.
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

Marfat.com

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينارٌ أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رَقَبة ودينار تصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله" قال أبو قلابة (١) وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة : وأيّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صــدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقرّبون بهــا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات (٢) في «براءة» . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة في الأموال ما عدا الزكاة . لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصــلاة كان فرضا، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أي يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممــا يعنّ في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . و إقام الصــلاة حظ البــدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المــال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين في تأويل قوله تعالى: « ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أي مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشــيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال ابن العربي إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب. وقيل: الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أى وهم الذين . ومن جعلها فى صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا[1] نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» الآية. ويقال: لما نزلت هذه الآية: «الَّذِينَ يؤمنون بالغيب » قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك .
وفى حديث أبى ذرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ[2] ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجرّى وأبو حاتم البُسْتِىّ .

وهنا مسئلة — إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى؛

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

Marfat.com

وأنا على يقين منه . وإنما صارت الياء واوا فى قولك : مُوقِن ، للضمة قبلها ، وإذا صغرته رددته إلى الأصل فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع . وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا فى اليمين اللَّغْو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شىء عليه ؛ قال الشاعر[1] :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأَيْقَنَ أَنَّنِي * بها مُفْتَدٍ من واحدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمّم الأسد ناقتى ، يظنّ أنى مُفْتَدٍ بها منه ، وأستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير ؛ وسيأتى . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها ، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو ؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون : أُلَاكَ ، وبعضهم يقول : أُلَالِكَ ؛ والكاف للخطاب . قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك ، ومن قال أُلَاك فواحده ذاك . وأُلَالِك مثل أولئك ؛ وأنشد ابن السكيت :

أُلَالِكَ قومى لم يكونوا أُشَابَةً[2] * وهل يَعِظُ الضِّلِّيلَ إلا أُلَالِكَا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وقال تعالى : « إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[3] وقال علماؤنا : إن فى قوله تعالى : « مِّن رَّبِّهِمْ » ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم[4] ، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم » ، وقد تقدّم الكلام فيه وفى الهدى[5] فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره «المفلحون» ، والثانى وخبره خبر الأول ، ويجوز أن تكون «هم» زائدة - يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا - و « المفلحون » خبر « أولئك » .

(١) هو أبو سدرة الأسدى ، ويقال : الهجيمى .

(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة فى الكسب : ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩

(٤) راجع المسألة الحادية والثلاثين ص ١٤٩ .

(٥) راجع المسألة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنمـا هو شقّها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّىَ الأَكَّارُ(١) فلاحا . و يقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بَيِّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة؛ ومنه قول الرجل لامرأته : آستفلِحِى بأمْرِك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىٌّ مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلّ هَمٍّ من الهموم سَـعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لافلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّهـا حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَرِ

أى البقاء . وقال عبيد :

أفلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضّـ * ـعْف وقـد يُخَـدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق و يحرم العاقل. فمعنى «وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال آبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد آستعمل الفلاح فى السَّحور؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت : وما الفلاح؟ قال : السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكارِى فى قول القائل(٢) :

لهـا رِطلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفَلاحٌ يسـوق لها حِمـارًا

ثم الفلاح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

Marfat.com

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُـم ولا فيهُم ولا جنّتيهُم؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنّتيهُم، ووافقه الكسائى فى « عليهم الذِّلة » و « إليهم آثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية . وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : ”ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء“ قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : ”بكفرهن“ ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : ”يكفرن العَشير ويكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط“ أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكُفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجُومَ غَمَامُها *

أى سترها . ومنه سُمِّيَ الليل كافرًا؛ لأنه يغطى كل شيء بسواده؛ قال الشاعر[1] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلاً رَثِيـدًا بَعْدَمَا * ألقتْ ذُكاءُ يَمينَها فى كافر

ذُكاء (بضم الذال والمدّ) : اسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل آنبلاج الفجرِ * وآبْنُ ذُكاءٍ كامِنٌ فى كَفْر

أى فى ليل . والكافر أيضا : البحر والنهر العظيم . والكافر : الزارع ؛ والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ »[2] . يعنى الزّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر : أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

Marfat.com

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجىء بالاستفهام من أجل التسوية ؛ ومثله قوله تعالى : « سَـوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ »[1] . وقال الشاعر[2] :

ولـيـلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز ، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمْرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خوّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل: هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ» أى إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر « إنّ» «سواء» وما بعده يقوم مقام الصلة ؛ قاله ابن كيسان. وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، « أأنذرتهم أم لم تنذرهم »الخبر، والجملة خبر « إنّ» . قال النحاس: أى إنهم تَبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «أأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ .
(٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

Marfat.com

والأعمش وعبد الله بن أبى إسحاق : « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وآختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر ، وعليها قول الشاعر (١) :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلَاجِلٍ * وبين النَّقا آنْتِ أمْ أُمُّ سالِمِ

هجاء « آنت » ألِفٌ واحدة . وقال آخر :

تطاللْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُه * فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن آبن مُحَيْصِن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لالتقاء الهمزتين ، أو لأن أم تدل على الاستفهام ، كما قال الشاعر :

تَرُوحُ مِنَ الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ * وماذا يَضِيرُك لو تَنْتَظِرْ

أراد : أتروح ، فاكتفى بأم من الألف . وروى عن آبن أبى إسحاق أنه قرأ : « أاأنذرتهم » فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية ، وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا . وقرأ حمزة وعاصم والكسائى بتحقيق الهمزتين : « أأنذرتهم » وهو آختيار أبى عبيد ، وذلك بعيد عند الخليل . وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء ، لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن ، لأنه مخالف للسواد (٢) . قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : هأنذرتهم ، كما يقال هيّاك وإياك ، وقال الأخفش فى قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ بيّن سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : « ختم الله » . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم ، شدّد للمبالغة . ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما فى كتاب سيبويه ، والمفصل للزمخشرى . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

Marfat.com

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه: ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه.

وقال أهل المعانى: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرّين والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار. فقال فى الإنكار: «قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ»(١). وقال فى الحمية: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ»(٢). وقال فى الانصراف: «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ»(٣). وقال فى القساوة: «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ»(٤). وقال: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ»(٥). وقال فى الموت: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ»(٦). وقال: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ»(٧). وقال فى الرّين: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ»(٨). وقال فى المرض: «فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ». وقال فى الضيق: «وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا»(٩). وقال فى الطبع: «فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ»(١٠). وقال: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»(١١). وقال فى الختم: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ». وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

الثانيــة — الختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنًى كما فى هذه الآية. فالختم على القلوب: عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دُعُوا إلى وحدانيته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم.

الثالثــة — فى هذه الآية أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جَهَدوا؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٥) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (٦) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (٩) راجع جـ ٧ ص ٨١
(١٠) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (١١) راجع جـ ٦ ص ٧

Marfat.com

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلِلِ الله فما له من هادٍ »[1] ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هـذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ »[2] . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ »[2] . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعـة — قوله : ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء : رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا مِنْ تقلُّبِه * فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

Marfat.com

ثم لمـا نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقًا بينه و بين أصله . روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلّبها الرياح بفلاة" . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللّهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك" . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » . وسيأتى (١)

الخامســـة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدُقُ فتُنكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه" وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ (٢) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن فى الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" — دليل على أن الختم يكون حقيقيا؛ والله أعلم. وقد قيل: إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة، وهو يَعْضُد قول مجاهد؛ والله أعلم.

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنا "أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنة" . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النَّومةَ فتُقبَض الأمانةُ من قلبه فيظَلّ أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شىء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٠ (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٥٧ .

Marfat.com

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه[1] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله: "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله: "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "كجمرٍ دحرجته" أى دوّرته على رجلك فنفط. "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا - ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم. وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبادًّا[2] كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكر منكرا إلّا ما أُشْرِب من هواه ..." وذكر الحديث. "مُجَخِّيًا": يعنى مائلا.

السادســة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[3]. وقال: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»[4] يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ»[5] أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ آستدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ»[6]. وقال: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ»[7]. قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

---

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه (النهاية). (٢) ويروى: «مربدّ» أى اختلط سواده بكدرة. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨ (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

Marfat.com

بتفضيل البصر على السمع؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضـل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعًا وسماعا،فالسّمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضا آسم للجارحة المسموع بهـا سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر(١) :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيـضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها فوحّد؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر في مثله(٢) :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد في حلوقكم؛ ومثله قول الآخر :

كأنه وجهُ تُرْكِيَّيْن قد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين، لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثي — أي آستماعك إلى حديثي — يعجبني؛ ومنه قول ذي الرُّمة يصف ثورا تَسمَّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمعه كَذِبُ

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهي المعيبة من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أي أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فنحرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ؛ أي يحرم يابس لأنه ملق بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ؛ أي قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمري) . (٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوي ؛ كما في كتاب سيبويه .

Marfat.com

أى ما فى آستماعه كذب؛ أى هو صادق الآستماع. والنَّدُس : الحاذق . والنَّبْأَة: الصوت الخفى، وكذلك الركز . والسِّمع (بكسر السين و إسكان الميم) : ذِكر الإنسانِ بالجميل؛ يقال : ذهب سِمْعه فى النـاس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : «وعلى سمعهم» . و «غِشَاوَةٌ» رفع على الآبتداء وما قبله خبر . والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاســعة — ومنه غاشية السَّرج؛ وغشيت الشيء أغشيه . قال النابغة :

هلّا سالت بنى ذُبْيان ما حسبِى * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأَشْمطَ البَرَمَا[1]

وقال آخر[2] :

صحبتُـكَ إذ عينى عليهـا غشاوةٌ * فلما آنجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال آبن كَيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفرّاء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله :

* علفتُها تبْنًـا وماء باردا *

وقول الآخر[3] :

يا ليت زوجَك قــد غدا * متقــلّدا ســيفًا ورُمْحَـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسى : ولا تكاد تجد هذا الآستعمال فى حال سَعة وآختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على «قلوبهم» . وقال آخرون : الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة» . وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ بفتحها؛ وروى عن

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر و يأكل معهم من لحمه .
(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى؛ كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبعرى؛ كما فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوربا .

Marfat.com

أبي عمرو: غشوة، ردّه إلى أصل المصدر. قال ابن كيسان: ويجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة، كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك.

العاشرة — قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته. والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد، إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان. وفي التنزيل: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[(١)] وهو مشتق من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أَعْذِبه عن كذا أي احبسه وامنعه، ومنه سمي عذوبة الماء، لأنها قد أعذبت. واستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه، ومنه قول عليّ رضي الله عنه: أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج، أي احبسوهن. وعنه رضي الله عنه وقد شيّع سَرِيّةً فقال: أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو، وكل من منعته شيئا فقد أعذبته، وفي المثل: «لأُلجمنّك لجاما مُعذِبا» أي مانعا عن ركوب الناس. ويقال: أَعْذَبَ أي امتنع. وأَعْذَب غيره، فهو لازم ومتعدّ، فسمي العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى — روى ابن جُريج عن مجاهد قال: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين. وروى أسباط عن السدي في قوله: «وَمِنَ النَّاسِ» قال: هم المنافقون. وقال علماء الصوفية: الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء.

الثانيـــة — واختلف النحاة في لفظ الناس، فقيل: هو اسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيس. فالناس من النَّوْس وهو الحركة، يقال: ناس ينوس أي تحرك، ومنه حديث أم زرع: «أناس من حُليّ أذنيّ». وقيل: أصله من نسي، فأصل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦١

Marfat.com

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فآنفتح ماقبلها فآنقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال آبن عباس : نسي آدم عهـد الله فسُمِّيَ إنسانا . وقال عليـه السلام : "نسي آدم فنسِيَتْ ذريّتُه" . وفى التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ»(١) وسيأتى. وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنّما * سُمِّيتَ إنسـانًا لأنـك ناسِي

وقال آخـــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فآغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمى إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا القلبُ إلّا أنّه يَتَقَلَّبُ

الثالثـــة ـــ لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين فى مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» . ففى هذا ردّ على الكَرّامِيّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ وآحتجوا بقوله تعالى : « فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا »(٢) . ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وترْكُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والآعتقاد ؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان". أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه. فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستانى وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الآعتقاد .

الرابعـــة ـــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله و يواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

علام الله

Marfat.com

عليـه، معادٍ له، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة، وكافر لايُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لايعاقب هو الموافى بالإيمـان، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له، بل محبّ له موالٍ؛ لا لكفره لكن لإيمـانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســـة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة؛ لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرِيةُ فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد؛ لمـا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر . ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبـد قولا وفعلا؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسل الله المَلَك فيَنْفُخ فيه الرُّوح ويُؤْمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم لَيَعْمَل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . فإن قيل وهى : —

Marfat.com

السادســـة ـ فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد المصري من حديث محمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، وهو محمد بن أبي قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلي قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لأشرب أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغيّر طعمه" قال قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : "أما مررتَ بأرض لك مُجْدِبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت : بلى . قال : "كذلك النشور" قال قلت : كيف لي أن أعلم أني مؤمن ؟ قال : "ليس أحد من هذه الأمة ـ قال ابن أبي قيس : أو قال من أمتي ـ عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن" .

قلت : وهـذا الحديث وإن كان سـنده ليس بالقوي فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : "وإنمـا الأعمال بالخواتيم" . وهذا إنمـا يدل على أنه مؤمن في الحال؛ والله أعلم .

السابعـــة ـ قال علماء اللغة : إنمـا سُمِّيَ المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر، تشبيها باليربوع، له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعـالى : ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُـواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

قال علماؤنا : معنى « يخادعون الله » أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيـل : في الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسـوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان

Marfat.com

خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهم قد نجَوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى . وأنشد :

أبيَضُ اللونِ لذيذٌ طعمُه * طيِّبُ الرّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ (١)

قلت : فـ «يخادعون الله» على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسَّرا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : «يُرَاءُونَ النَّاسَ» (٢) . وقيل : أصله الإخفاء ؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء ؛ حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : انخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفى و إيجاب ؛ أى ما تحلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : مَن خَدَع من لا يُخْدع فإنما يَخدع نفسه . وهذا صحيح ؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله ، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين ؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وابن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة ؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّق العجليّ : «يُخَدِّعون الله» (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخاء وفتح الدال ، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر ؛ كما قال تعالى : «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ» أى من قومه .

---

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخـدعهم وفازوا ؛ وإنمـا ذلك فى الدنيـا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا » على ما يأتى (١) . قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشىء أى فطنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لمـا لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، وإما جَحْداً وتكذيباً . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء .

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِـلَ الرِّيحِ جنوباً وصَبَا * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه . وعلى هـذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شَرّ خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعـالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ » (٢) . وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : « فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً » أى وَكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى . وقال الجُنَيْد : عِللُ القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المُسْمِع ؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

ونرفعُ من صُـدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُـكّ وجوهَهـا وَهَجٌ أليـمُ (١)

وآلم إذا أوجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقـد ألِم يألَم ألَمـًا . والتألُّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كريم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلمـاء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأوّل — قال بعض العلماء : إنمـا لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلمـاء على بَكْرة أبيهم (٢) على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنمـا اختلفوا فى سائر الأحكام . قال ابن العربى : وهذا منتقض ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأن المُجَذَّر قتـل أباه سُوَيدا يوم بُعاث (٣) ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتـله ؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة (٤) ، وقتل الغيلة حدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيةً فى عَيْنٍ بوَحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

Marfat.com

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان يُستتاب ولا يُقتل . قال ابن العربي : وهذا وَهْمٌ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة[1] وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابة الزنديق جائزة[2] قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : " معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي " أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يُعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألّفًا ، وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضي إسماعيل والأبهري وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » إلى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا »[3] . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم ؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليه بها دون استتابة ؛ وهو أحد قولي الشافعي . قال مالك : وإنما كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضي إسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَيّ[4] إلا زيد بن أَرْقَم وحده ، ولا على الجُلَاس[5] بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه ؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعيّ رحمه الله محتجًّا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهِد عليه بالزندقة فجحد

---

(١) الذي في كتاب الأحكام لابن العربي : « ... أن استتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا في الأصول وكتاب الأحكام لابن العربي . ولعل صواب العبارة : « إن استتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥　　(٤) سيذكر الإمام القرطبي قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية . وستأتي قصته عند تفسير هذه الآية في سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها ابن هشام في سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وابن عبد البر في الاستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند.

Marfat.com

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسـلام مع العـلم بنفاقهم ؛ لأن مايظهرونه يَجُبُّ ماقبـله . وقال الطبرى : جعل الله تعـالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» . قال ابن عطية : ينفصل المـالكيون عما لزموه من هـذه الآية بأنهـا لم تُعَيِّن أشخاصهم فيها وإنمـا جاء فيها توبيخ لكل مغموص(١) عليـه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهـم أن يقول : لم أُرَد بهـا وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيِّن أحد لمـا جَبَّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبىّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعـالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبّتهم أن يفسِدهم المنافقون أو يفســدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقِيَتِهم ضرر ، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» اسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

(١) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه، متهم بالنفاق .

Marfat.com

جملة؛ تقول : أجيئك إذا احمرّ البُسْر، و إذا قدِم فلان . والذى يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقدَم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . و جزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أُحسن إليك . و إذا كقوله تعالى : « و إن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »(١) . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ(٢)

فعطف « فنضارب » بالجزم على « كان » لأنه مجزوم ؛ ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ؛ بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه ابنُ ظالمٍ * وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهَير :

و إذا ما تشاءُ تبعثُ منها * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورا(٣)

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ؛ كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمْرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قُوِل؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فانقلبت الواو ياء . ويجوز : «قيل لهم» بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين؛ لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : ويجوز «قُيْل» بضم القاف والياء . وقال الكسائى : و يجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله، وهى لغة قيس . وكذلك جِيءَ وغِيضَ وحِيل وسِيق وسِيء

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٤   (٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم .   (٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

Marfat.com

وسيئت . وكذلك روى هشام عن ٱبن عباس(١)، ورُوَيس(٢) عن يعقوب . وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصـة . وزاد ٱبن ذكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هُـذيل وبنو دُبَير من أسد و بنى فَقْعَس فيقولون : « قَوْل » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَاتُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته العدول عن الٱستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسيد . والمعنى فى الآية : لا تُفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيـل : كانت الأرض قبـل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيها الفساد ، و يفعـل فيها بالمعاصى ؛ فلمـا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱرتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»(٣) .

قوله : ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة ، وهى ٱسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة ، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أرَضات ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات . ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون ؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها ، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أَرْض وآراض ، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس ؛ كأنهم جمعوا آرُضًـا . وكل ما سـفل فهـو أرض . وأَرْض أريضة ؛ أى زكـيّة بيّنة الأراضة . وقد أَرِضت بالضم ، أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة ؛ أى معجبة للعين ؛ و يقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة ؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقَلِّب أَرْضَهـا البَيْطارُ * ولا لحَبْلَيْـــه بهـا حَبَـارُ

---

(١) فى نسخة : « ابن عامر » . (٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

Marfat.com

أى أثر . والأرض : النَّفْضة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبــد الله بن الحارث قال : زُلزِلَت الأرض بالبصرة ؛ فقال آبن عباس : والله ما أدرى ! أزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ؛ وقال ذو الرُّمة يصف صائدا :

إذا توجّس رِكْزًا من سَنابكهــا * أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ[(١)]

والأرض : الزُّكام . وقد آرضه الله إيراضا ؛ أى أزكمه فهو مأروض . وفسيل مستأرِض ، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ؛ فأما إذا نبت على جــذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ؛ أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك ؛ أى أخلقهم . وشىء عريض أرِيض إتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أرِيض ؛ أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحْنُ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما آضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : « نحن » مثل قَبْلُ وبعدُ ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن آثنين وأكثر ، فـ« أنا » للواحد و« نحن » للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا ؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ »[(٢)] . والمؤنث فى هــذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ؛ تقول المــرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ آسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلُح الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ؛ قاله آبن السِّكِّيت . والصُّــلوح (بضم الصاد) مصــدر صَلُح (بضم اللام) ؛ قال الشاعر :

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل . وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذهِبُ نَفَسَه إلى السماء ويَفْغَر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٣

Marfat.com

فكيف بإطراق إذا ما شَتَمْتَنِي * وما بعـد شَتْمِ الوالدين صُلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصِّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهـم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح . و كُسرت « إنّ » لأنها مبتدأة ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها ؛ كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا[1] . و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر « إنّ » . ويجوز أن تكون « هم » توكيدا للهاء والميم فى « إنهم » . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و « المفسدون » خبر « إنّ » ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال آبن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق وآتباعه . « وَلَكِنْ » حرف تأكيد وآستدراك ولا بدّ فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاقتصار بعده على آسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعـدهما كانتا بمعـنى حقا أنك ... و إذا كسرت كانتا أداتى آستفتاح . راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

Marfat.com

مضادة لمـا قبلها كما فى هذه الآية ، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت ؛ لأنهم قد آستغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن ، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ماجاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون (١) من أهل يَثْرِب . وألف « آمنوا » ألف قطع ؛ لأنك تقول : يؤمن ، والكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن آبن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء وآستهزاء فأطلع الله نبيّـه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُـلُوم وفساد البصائر إنمـا هى فى حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود ؛ أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبـد الله بن سَلَام وأصحابُه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة ؛ يقال : ثوب سـفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ، أو كان باليًا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما آهتزّت رماحٌ تسفَّهتْ * أعالِيَهـا مَرُّ الرياح النَّواسِـمِ (٢)

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين آهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

Marfat.com

وتسفهت الشيء : آستحقرته . والسّفه : ضـد الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعـة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل « وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ؛ وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عَرَفْته ، وعالمتُ الرجل فَعلَمْتُـه أَعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : وَإِذَا لَقُـوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـوا قَالُوٓا ءَامَنَّـا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَـكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لآلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : « لاقوا الذين آمنوا » . والأصل لاقيوا، تحرّكت الياء وقبلها فتحة آنقلبت ألفا، آجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لآلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم . وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل: لم وُصلت «خَلَوْا» بـ «إلى» وعُرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : «خلوْا» هنا بمعنى ذهبوا وآنصرفوا؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تَرانى قالبـا مِجَــنّى * [أضربُ أمرِى ظهرَه لبطْنِ[2]]

* قد قتـل الله زِيادًا عَنّى *

(١) أى مع كلمة الا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

Marfat.com

لما أنزله منزلة صَرَف . وقال قوم : «إلى» بمعنى مع ؛ وفيه ضعف . وقال قوم : « إلى » بمعنى الباء ؛ وهذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ؛ فـ«إلى» على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير ؛ وقد تقدم القول فى ٱشتقاقه ومعناه فى الٱستعاذة.[1] وٱختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا ؛ فقال ٱبن عباس والسُّدّى : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه . وقيل : ساخرون. والهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هَزِئَ به وٱستهزأ ؛ قال الراجز :[2]

قد هَزِئت مِنّى أمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مالَ لَهْ

وقيل : أصل الٱستهزاء : الٱنتقام ؛ كما قال الآخر :

قد ٱستهزءوا منهم بألفَى مُدَجّجِ * سَرَاتُهُمُ وسْطَ الصَّحَاصِحِ جُثَّمُ[3]

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على ٱستهزائهم ؛ فسمى العقوبة بٱسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم :

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى ٱنتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليَزدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة . وقال

---

(١) راجع ص ٩٠ (٢) هو صخر الغى الهلالى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية : تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

Marfat.com

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لايكون سيئة . والقصاص لا يكون آعتداء؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مكرٌ ولا هزء ولا كَيد ، إنما هو جزاء لمكرهم وآستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لايَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا " . قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[(1)] فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر آستهزاءهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إنما نحن مستهزئون » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحِجال ينظرون إليهم ، فإذا آنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ »[(2)] إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والآستهزاء هو آستدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٦٦

Marfat.com

قد حتّم عذابهم . فهذا على تأمل البشر كأنه آستهزاء ومكر وخداع ؛ ودلّ على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسـلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه آستدراج " . ثم نزع بهذه الآية : «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء فى قوله تعـالى « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ[2] مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » : كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُملِي لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي[3] لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصـله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر ، وأمدّ فى الخير ؛ قال الله تعالى : «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ[4] وَبَنِينَ» . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ[5] وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفرّاء واللِّحيانى : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النَّهْرُ[6] [النهر] ، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ[7] مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمَدَد ، ومنه : « يُمْدِدْكُمْ[8] رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمدّ الجُرْحُ ؛ لأن المِدّة من غيره ، أى صارت فيه مِدّة .

قوله تعـالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ[9] » أى آرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزّان . وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى[10] » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية : يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار ، ويقال رجل عامه

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ ، وفيه : ثم تلا « فلما نسوا » الآية بدل نزع . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادّة (مد) . (٧) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع جـ ١٩ ص ١٩٩

Marfat.com

وعَمِه : حائر متردِّد ، وجمعه عُمْــه . وذهبت إبلُه العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمَى فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وفى التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[1] » .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُـدَىٰ ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو فى «آشتروا» فرقًا بينها و بين الواو الأصلية ؛ نحو: «وَأَنْ لَوِ آسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» . وقال آبن كَيْسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل فى «نحن» . وقرأ آبن أبى إسحاق و يحيى بن يعمر[2] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن قَعْنَب أبى السَّمّال العدوى أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة و إن كان[3] ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . وآشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمـان ؛ كما قال : « فَآسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فعبّر عنه بالشراء ؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال آبن عبـاس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه آستبدلوا وآختاروا الكفر على الإيمان . و إنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعًا ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الآستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من آستبدل شيئا بشىء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُمِينى كنتُ أجهلُ فيكم * فإنى شَرَيتُ[4] الحِـلْمَ بعدكِ بالجهـل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧ (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « فى التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفى المغنى بفتح الميم وضمها » . (٣) فى بعض الأصول : « و إن ما قبلها مفتوحا » ، وفى البعض الآخر : « و إن كان قبلها مفتوحا » . (٤) و يروى : « اشتريت » كما فى ديوان أبى ذؤيب . يقول : إن كنت تزعمين أنى كنت أجهل فى هواى لكم وصبوتى إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد)

Marfat.com

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جلّ وعزّ : « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »[1] أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بَيْعُك ، وخَسِرتْ صفقتك ؛ وقولهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم ؛ والمعنى : رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك ، وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك ؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نهـارُكَ هائمٌ وليـلُكَ نائمُ ✱ كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

آبن كَيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى آشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والآهتداء ضد الضلال ؛ وقد تقدّم[3] .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف ، فهى آسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهَى ذوى شَـطَطٍ ✱ كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ[4]

وقول آمرئ القيس :

ورُحْنَا بِكَابْنِ المـاءِ يُجنَبُ وسطَنا ✱ تَصوَّبُ فيـه العينُ طَـوْرًا وتَرتَقِى[5]

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٩٥ (٢) راجع ج ١٤ ص ٩١ (٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (عن خزانة الأدب) .

(٥) يقول رجعنا بفرس كأنه آبن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

Marfat.com

أراد مثل الطعن، و بمثل آبن المـاء . و يجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه . والمتماثلان : المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله ﴿ الَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع . قال آبن الشَّجَرى هبةُ الله بن علىّ : ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد؛ كما قال :

وإنَّ الذى حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ (١)

وقيل فى قول الله تعالى «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (٢) : إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى» قيل : المعنى كمثل الذين آستوقدوا، ولذلك قال : « ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ » ؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع . فأما قوله تعالى : «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» (٣) فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنما وحّد «الذى» و«آستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم» . وآستوقد بمعنى أوقد؛ مثل آستجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر (٤) :

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فـلم يَستجبْه عنــد ذاك مُجيبُ

أى يجبه . وآختلف النحاة فى جواب لمّـا، وفى عود الضمير من «نورهم»؛ فقيل : جواب لمّا محذوف وهو طَفِئت، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى : «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (٥) . وقيل : جوابه «ذهب»، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى»؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردُّده . والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوّله وسكون ثانيه) : موضع بين البصرة وضَرِيّة . وقيل هو واد بطريق البصرة إلى مكة، ببطنه منازل للحاج . قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١

(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

Marfat.com

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى و بقى متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمـا آمنوا ٱغترّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ »(١) — ويذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٢) . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وٱنصرافهم عن مودتهم وٱرتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غيرهذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق . وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نويرة، وفى الجمـع نور وأنوار ونيران؛ ٱنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتـان ؛ يقال : ضاء القمـرُ يَضُوء ضَـوْءًا وأضاء يُضىء ؛ يكون لازما ومتعدّيا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجى الليل حتى نَظّم الجَزْعَ(٣) ثاقبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . و«حَوْله» ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها . و ﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب ، وهو زوال الشىء . ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم . ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى : «ظلمات» جمع الجمع ، جمع ظُلَم . ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال ؛ كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها) : ضرب من الخرز . وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ «صُمٌّ» أى هم صمّ ، فهو خبر ابتداء مضمر . وفى قراءة عبدالله ابن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا »[1] ، وكما قال : « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ »[2] ، وكما قال الشاعر[3] :

سَقَوْنِى الخمرَ ثم تكنَّفُونِى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُداةَ الله» على الذم . فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ» ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال : رجل أبكم وبَكِيم ؛ أى أخرس بيّن الخرس والبكم ؛ قال :

فليتَ لِسانِى كان نِصفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر ؛ وقد عَمِىَ فهو أَعْمَى ، وقوم عُمْىٌ ، وأعماه الله . وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ »[4] . وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة مّا ؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عمّا ساءَه سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وعوراءِ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنى أشاء بها سَمِيعُ

وقال الدارمىّ :

أَعمَى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارِى جارتى الخِـدْرُ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعــل قوم امرأته حين احتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

Marfat.com

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُـلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وآخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن آستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "و إذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوك الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعه غيره؛ وهُذيل تقول: أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم ؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى سـورة « سبأ » (١) .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ج وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء . وأنشـــد :

وقد زَعَمتْ لَيْـلَى بأنّىَ فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورها (٢)

وقال آخـــر (٣) :

نَالَ الخلافةَ أَوْ (٤) كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيــل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الآقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صَيّب . والصَّيِّبُ : المطر . وآشـتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِي وبيـــن مُغَمَّرٍ * سَقَتكِ رَوايا المُـزْنِ حيث تَصُوبُ (٥)

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٠٢　　(٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .
(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز .　　(٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .
(٥) المغمـــر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ؛ كأن الجهل غمـره وآستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

Marfat.com

وأصـله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثَل الذى آستوقد نارا أو كمثل صيب »(١).

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث ، وتجمع على أسميـة وسموات وسُمِىّ ، على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرياحُ والسُّـــمِىُّ(٢) *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر، سُمّى به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

دِيارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخــر(٣) :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

ويسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛(٤) :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فرَيّا وأمّا أرضُـــه فمُحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن ، وهو الغيم ؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات(٥) فلا معنى للإعادة ، وكذا كلّ ماتقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما)
(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

وآختلف العلمــاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن آبن عباس قال : سألتِ اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : " مَلَك من الملائكة [موكل بالسحاب](١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " . فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : آسم الصوت المسموع؛ وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجّعَنِي الرعدُ والصــواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهــةِ النَّجِــدِ

وروى عن آبن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت . وآختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وآبن مسعود وآبن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن آبن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صــوت آصطكاك أجرام الســحاب . والبرق ماينقــدح من آصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وآرتعد : آضطرب؛ ومنــه الحديث : " فجِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصــله من البريق والضوء؛ ومنــه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الــبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال آبن أحمر :

ياجُلّ ما بَعُدَتْ عليــك بِلادُنا * وطِلابُنا فآبرُقْ بأرضِك وآرعُدِ

(١) زيادة عن الترمذى .

Marfat.com

وأَرعد القوم وأبرقوا: أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو: أرعدت السماء وأبرقت، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد؛ وأنكره الأصمعي. وآحتج عليه بقول الكُمَيْت:

أبرِق وأرعِـــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال: ليس الكُمَيت بحجة .

فائدة — روى آبن عباس قال: كنّا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينـة والشام ومعنا كعب الأحبار، قال: فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد، وفَرِق الناس. قال فقال لى كعب: إنه من قال حين يسـمع الرعد: سبحان مَن يسبِّح الرعد بحمـده والملائكة من خيفته؛ عُوفى ممـا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال: فقلتها أنا وكعبٌ؛ فلما أصبحنا وآجتمع الناس قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس. قال: وما ذاك؟ قال: فحدّثته حديث كعب . قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم! فى رواية فإذا بَرَدة (١) قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة «الرعد» (٢) إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن آبن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: "اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك" .

قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسـمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات: إِصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء، وأَصْبِـع بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعا، وضمهما جميعا، وبكسرهما جميعا؛ وهى مؤنثة. وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر، فيقال: أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت: أُذَيْن؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم: أذينة فى الآسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا، والجمع آذان . وتقول: أَذَنتـه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ: إذا كان يسمع كلام كل أحد، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك): حب الغمام . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٥

Marfat.com

والجمع . وأذانيّ : عظيم الأذنين . ونعجة أذْناء، وكَبْش آذَن . وأذّنت النعل وغيرها تأذينا : إذا جعلت لها أذُناً . وأذّنت الصبيّ : عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصّواعق جمع صاعقة . قال آبن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا آشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعــة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة (بالسين) . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد . وقرأ الحسن : من «الصواقع» (بتقديم القاف)؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ * تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغة تميم و بعض بنى ربيعــة . و يقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ »[1] . ويقال : صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً ؛ أى غُشِىَ عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا »[2] فأصعقه غيره . قال آبن مُقْبِل :

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَــواهِلُهْ[3]

وقوله تعــالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[4] أى مات . وشــبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مَثَلٌ لمــا يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مَثَلٌ لمــا يُخَوَّفون به . وقيل : مَثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لمــا فيه من الإشكال عليهم ، والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق . والصواعق

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩ (٣) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر ، وقيــل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله : أى قتلها صهيله . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

Marfat.com

مَثَلٌ لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ حَذَر وحِذار بمعنًى ؛ وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب ؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغفِرُ عَـوْراءَ الكريمِ ٱدّخارَه * وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللئيمِ تكرُّما (١)

وقال الفراء: هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت ؛ ويَمات أيضا ؛ قال الراجز :

بُنَيّـــتِى سَــيّدَةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤْمَن أن تَماتِى

فهو ميِّت وميْت ، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون . والمُوات (بالضم) : الموت . والمَوات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد . والمَوَتان (بالتحريك) : خلاف الحيوان ؛ يقال : ٱشترِ المَوَتانَ ، ولا تشترِ الحيوان ؛ أى ٱشترِ الأرضين والدور ، ولا تشترِ الرقيق والدواب . والمُوْتان (بالضم) : مَوْتٌ يقع فى الماشية ؛ يقال : وقع فى المـال مُوتان . وأماته الله وموّته ؛ شُدّد للمبالغة . وقال :

فَعُـرْوةُ مات مَوْتًا مستريحًا * فهأنذا أُمَـوَّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها ، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة ، وجمعها مَماويت . قال ٱبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائى . وموت مائتٌ ، كقولك : ليلٌ لائلٌ ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به . والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْتَرسِلُ له ؛ قال رُؤْبة :

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم ٱحتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخارا له ؛ و إن سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

Marfat.com

وزَبَدُ البحـــرِ له كَتِيت * والليـــل فـــوق المـــاءِ مُسْتَميت[1]

المستميت أيضا : المستقتل الذى لا يبالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحديث : "أرى القوم مُسْتَمِيتين" وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض قُتل بها[2] جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ ٱبتداء وخبر؛ أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تَيَقّنُوا * بما قد رأوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ »[3] . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكّنت . فالله سبحانه محيط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره؛ كما قال : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] . وقيل : «مُحِيطٌ بِالكافرين» أى عالم بهم . دليله : «وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»[5] . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ»[6] أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبد البحر له كتيت * تراه والحوت له نثيت
كلاهما مغتمس مغتوت * وكلكل الماء له مبيت
والليل فوق الماء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنثيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لايشبع .

(٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة «مأت» .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٤٠٩

(٤) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع ج ١٨ ص ١٧٦ (٦) راجع ج ٩ ص ٢٢٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤبة :

* قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحَا (١) *

مشتق من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال، و«أن» تَصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٢) » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحال . وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : « وَمَا كِدْتُ آئِبا (٣) » . ويجرى مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق ، فى كون خبرها بغير « أن » ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ (٤) » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ؛ والحال لا يكون معها « أن » ، فاعلم .

قوله تعالى : ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمِّىَ الطير خُطَّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلًا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مثَـلًا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفًا ، وهى اللغة الجيدة ، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم » . وقال النحاس: فى «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَف . وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب: يَخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رجاء العُطارِدى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . ورُوِى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يِخِطِّف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

---

(١) يمصح : يذهب ويدرس. (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠ (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فأبت إلى فهم وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصـفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

Marfat.com

والسابعــة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أبى بن كعب « يتخطف »، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ « يخِطف » بكسر الخاء والطاء فالأصــل عنده يختطف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فآلتق سا كنان فكسرت الخاء لألتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخــاء ألق حركة التاء عليهــا . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فــلأن الألف فى آختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء « يَخِطِّف » . قال آبن مجــاهد : وأظنــه غلطا ؛ وآستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الخَطْفَةَ »(١) لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهى حاسة الرؤية. والمعنى: تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تَبْهَرهم. ومن جعل «البَرْق» مَثَلًا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم.

قوله تعــالى : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ «كلما» منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا» فهى موصولة والعامل فيه « مَشَــوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيــه « أضاء » ؛ لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرد محذوف ، التقــدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَــل بمعنًى ، كَسَكَت وأسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء ســواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفــراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقــدم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القــرآن وظهرت لهم الحجج أَنِسُوا ومشَــوْا معه ، فإذا نزل من القرآن مايَعْمَوْنَ فيه ويَضِلون به أو يكلَّفونه «قاموا» ، أى ثبتوا على نفاقهم؛ عن آبن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دِين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا فى نفاقهم ؛ عن آبن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهــذا قول حسن ، و يدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ »(٢) . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتقى من

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ .	(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

Marfat.com

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر ، كأن تضىء عليـه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمـات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروِى عن آبن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ صلى عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا : هذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية ؛ فلما نُكِب بأُحُد آرتدّوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف . والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن آبن عباس، والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تمنّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا ، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان . وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا.(١)

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعـالى بالقدير، فهو سبحانه قـدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ فى الوصف من القادر، قاله الزجاجيّ . وقال الهرويّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد ؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقـدِر قَدْراً وقَدَراً ومقـدَرة ومَقْدُرة وقُدْرَانًا ؛ أى قُدْرة . والاقتدار على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قـدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فعَل ويفعَل ما يشاء على وَفق علمه وآختياره . ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجـرى العادة ، وأنه غير مستبدّ بقدرته . وإنما خص هنـا تعالى صفته التى هى القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فعْلٍ مُضَمَّنُهُ الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبًا لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين . وقد تقدّمت الرواية فيها عن آبن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا .

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يأيها الناس » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يأيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهــذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النــاس . وأما قولها في « يَأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » في قوله : « يأيهــا » حرف نداء . « أيُّ » منادَى مفرد مبنيّ على الضم؛ لأنه منادى في اللفظ، و « ها » للتنبيه . « النّاسُ » مرفوع صفة لأى عنـد جماعة النحويين ؛ ما عدا المــازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه في : يا هــذا الرجل . وقيــل : ضُمّت « أى » كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الأسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا . وقيل : لمــا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوا في الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريـف ، وأجروْا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، وآلتزموا رفعــه ؛ لأنه المقصود بالنــداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى؛ فآعلمه .

وآخْتُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما ــ الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليــه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ » . الثانى ــ أنه عام في جميع النــاس؛ فيكون خطابه للؤمنين بآستدامة العبادة، وللكافرين بآبتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ آعْبُدُوا ﴾ أمْرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

Marfat.com

قال طرفـــة :

* وظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنَسُّك . وعبَّدت فلانا : ٱتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعـالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان : أحدهما — التقدير؛ يقال : خَلَقتُ الأدِيم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر (٢) :

ولَأنتَ تَفْـرِى ما خَلَقتَ وبعـ * ـضُ القـوم يَخْلُق ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقتُ إلا فَرَيتُ ، ولا وَعَدْتُ إلّا وَفَيْتُ . الثـانى : الإنشاء والآختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : « وتَخْلُقُونَ إفكًا » (٣) .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عنـدهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقهم يميتهـم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ٱبتلُوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » متصلة بٱعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثـله فيما ورد فى كلام الله تعـالى من قوله : « لعلّكم تعْقِلون ، لعلّكم تَشكُرون ، لعلّكم تذَكّرُون ، لعلّكم تَهْتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

---

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *
تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان فى السير ، إذا فعل هـذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هـذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من النـاقة أن تجعـل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمـور : الطريق (عن شرح المعلقات) .
(٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

Marfat.com

الأوّل — أن « لعَـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقع إنما هو فى حيّز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : آفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عز وجل : « آذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » (١) قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . وآختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب آستعملت « لعَـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا　*　نَكُفُّ ووثقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم　*　كَلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتَأَلِّقِ

المعنى : كفُّوا الحروبَ لنكُفَّ ، ولو كانت «لعل» هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث — أن تكون « لعل » بمعنى التعرّض للشيء ؛ كأنه قيل : آفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا ، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم و بين النار . وهـذا من قول العرب : آتقاه بحقه إذا آستقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا آحمرّ البأس آتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم ؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه　*　حتى آتّقتنِى الخيلُ بآبنى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعديه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ » (١) وقوله : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى؛ ومنه قوله تعالى : « حمٓ . وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا » (٢) . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا » (٢) . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا » (٢) أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ؛ كما قال الشاعر (٣) :

وقد جَعلتْ نَفسِى تَطيبُ لِضَغمةٍ * لِضَغْمِهِما هَا يَقـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الآثنين أربعةً * والواحد آثنين لمـا هدّنى ٱلكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل وآجتعل بمعنًى واحد؛ قال الشاعر (٤) :

ناطَ أَمرَ الضِّعافِ وآجتعل الليـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّةِ المـمـدُودِ

﴿ فِرَٰشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرون عليهـا . وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا » (٥) . والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ » (٦) .

الثانيـــة ــ قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفاً .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(٣) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ؛ فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . لجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٤) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيا كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

Marfat.com

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقـوله الحق : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا »(١) . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقـد تقدّم القول فيه(٢) . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، و بنى على أهله — بِناء فيهما — أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأن الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّةً ليلة دخوله بها؛فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ . و بنّى(مقصورا) شدّد للكثرة، وٱبتنى دارا وبَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ . فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛لأنها أجلد،وهى بٱلألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، و إن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمَال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . و يقال ثُمُر مثل خُشُب . و يقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام»(٣) إن شاء الله . وثمار السّياط : عُقَدُ أطرافها.

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات.﴿رِزْقًا﴾ طعاماً لكم، وعَلَفًا لدوابّكم ؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَـاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَـا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْـلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًـا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »(٤) . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى(٥) والحمد لله .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨ (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فإن قيل : كيف أطلق آسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملّك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك و يصح بها الآنتفاع ، فهى رزق .

الخامســـة ــ قلت: ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هـذا المعنى : " واللهِ لَأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه". أخرجه مسلم. و يدخل فى معنى الآحتطاب جميـع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقـد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والمـاء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[1] لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيـه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت عليّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم آتخذوا الأرض بساطًا، وتُرابها فِراشا، وماءها طِيبا، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ »[2] إن شاء الله تعالى.

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَـلُوا ﴾ نَهْيٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ؛ واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

نَحْمَـــدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيركما الفِـداء

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣٠٨

Marfat.com

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لبيد :

لكيلا يكونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي ＊ وأجعلَ أقواما عُموماً عَماعِمَا[1]

وقال أبو عبيدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعول أوّل . و « لله » في موضع الثاني . الجوهري : والنَّـدّ (بفتح النون) : التَّلّ المرتفع في السماء . والنَّـدّ من الطيب ليس بعربيّ . ونَدّ البعير يَنِدّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يومَ التَّنَادّ[2] » . ونَدَّد به أي شهّره وسمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة في موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المـاء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهـم دون الأنداد . الثـاني — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوّة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفي هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد علمكم الذي هو نفيُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي في شـك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعني القـرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُـدُّوا ، فإنهم لمـا سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هـذا كلام الله ،

(١) السندرى : ابن يزيد الكلابي ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيـل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعـنى الشطر الثاني : وأجعل أقـواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .　　(٢) راجع ج ١٥ ص ٣١١ .

Marfat.com

وإنا لفي شك منه ؛ فنزلت الآية . ووجه آتصالها بمـا قبلها أن الله سبحانه لمـا ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّـه ، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعـني محمدا صلى الله عليه وسـلم . والعبد مأخوذ من التعبُّـد وهو التذلّل ؛ فسُمِّيَ المملوكُ — من جنس ما يفعله — عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تحامتني العشيرة كلها * وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّدِ

أي المذلّل . قال بعضهـم : لمـا كانت العبادة أشرف الخصال والتسمي بهـا أشرف الخطط ، سَمَّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلـبي عند زهراءَ * يعـرفه السـامعُ والرائي

لاتَدْعُـني إلا بيَا عبدَها * فإنه أشـرف أسمـائي

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجيء ؛ قاله آبن كَيْسان . وهو أمرٌ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها(١) وفي إعجاز القرآن(٢)، فلا معنى للإعادة . و«مِن» — في قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ — زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير في « مثله » عائد على القرآن عند الجمهـور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيـل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعـنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيـل : يعود على النبيّ صلى الله عليه وسـلم . المعنى: من بَشَرٍ أُمِّيّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمِن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتام ؛ لأن « وآدعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَآدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفَـرّاء : آلهتكم . وقال آبن كَيْسان : فإن قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهـدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهـدوه ، وإنما قيـل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْـلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٦٩ — ٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

المعـنى ٱستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهـدوا ما تأتون به ؛ فيكون الرّدّ على الجميع أوكدَ فى الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى «وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» أى ٱدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ، و يكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس ؛ قال :

إذا ما علا المـرء رام العـــلاء * ويقنـع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منـه فعل ؛ و بعضهم يقول منـه : دان يَدُون دَوْنًا . و يقال : هـذا دُون ذاك ؛ أى أقرب منه . و يقال فى الإغراء بالشيء : دُونَكَهُ . قالت تميم للحجاج : أقْبِرنا (١) صالحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ؛ لقولهم فى آية أخرى : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا (٢) مِثْلَ هَذَا» . والصدق : خلاف الكذب ، وقد صَدَق فى الحديث . والصِّدْق : الصُّلب من الرماح . و يقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق . و يقال : رجل صِدْقٍ ؛ كما يقال : نِعْمَ الرجل . والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والودّ .

قوله تعـالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تامّ . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وٱدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا ، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، و يرى رأى الخوارج . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

Marfat.com

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ ، فدخلت على « لم » كما تدخل على المـاضى؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى المـاضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ(١) أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ *

وفى حديث ٱبن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه : فقيل لى «لن تُرَعْ» . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ٱبن كَيْسان : «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب ، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر ، وأنه أساطير الأوّلين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ؛ أى ٱتقوا النار بتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى(٢) فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى ، مثل قضَى يقضى . «النارَ» مفعولة . «التى» من نعتها . وفيها ثلاث لغات : التى واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها) . وهى ٱسم مُبْهَم للؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتَا (بحذف النون) واللّتانِّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات:

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هـذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحيـة كانوا يحيون بهـا الملوك . والصفد : العطاء ؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى ؛ فلم أمدحك متعرضا لعطائك ، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

Marfat.com

اللّاتِي ، وهي لغة القرآن . واللّاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللّواتِي . واللّواتِ (بلا ياء) ؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللّواتِي والّتِي واللّاتِي * زعمن أن قد كَبِرتُ لِداتِي

واللّـوا (بإسقاط التاء) ؛ هـذا ما حكاه الجوهري . وزاد ٱبن الشّجري : اللّائي (بالهمز وإثبات الياء) . واللّاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمـع قلت في اللّاتي : اللّواتي . وفي اللّائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير التي اللّتَيّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز [(1)] :

بعد اللُّتَيّا واللّتَيّا والّتِي * إذا عَلَتْها أنفسٌ تَرَدَّتِ

و بعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النـداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من أجلكِ يا الّتي تَيَّمْتِ قلبي * وأنت بخيـــلةٌ بالـوُدّ عنّي

ويقال : وقع فلان في اللّتَيّا والّتِي ؛ وهما ٱسمان من أسماء الدّاهية . والوقود (بالفتح) : الحطب . و بالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود — عن ٱبن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الٱتقاد ، نتن الرائحة ، كثرة الدخان ، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرّها إذا حَمِيَت . وليس في قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة ؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام ؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ [(2)] » أي حطب جهنم . وعليـه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار ؛ وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

(1) هو العجاج . وصف دواهي شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمشرف الذي أشرفت عليه . ومعنى تردت : سقطت هاوية وهلكت .　　(2) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣

Marfat.com

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقـد جاء الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذّبه الله فى الآخرة بالنار . الثانى — أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَـدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصّةً . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح (١) — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ. «النّاسُ» خبره . «والحجارةُ» عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : «وُقُودها» (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها النّاسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقَدًا وَقِدَةً [ووَقِيدًا ووَقْدًا] (٢) ووَقَدانًا ، أى تَوَقّدت . وأوْقدتها أنا وآستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثلُ التَّوَقُّد ، والموضـع مَوْقِد ؛ مثلُ مجلِس ، والنـار مُوقَدة . والوَقْدة : شـدّة الحرّ ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» (٣) [بفتح الواو] لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأوّل أكثر ، قال : كما أن الوَضُوء الماءُ ، والوُضُوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة ؛ على ما يأتى . وفيه دليل على ما يقوله أهـل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافًا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى . روى مسلم عن عبد الله بن مسعود (٤) قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمِـع وَجْبَةً (٥) ؛

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، وآستعير للنار .

(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .

(٤) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشئ يسقط فيسمع له ، كالهدّة .

Marfat.com

فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " تدرون ما هذا " قال قلنا : الله ورسـوله أعلم ؛ قال : " هذا حَجَر رُمِىَ به فى النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِى فى النار الآن حتى آنتهى إلى قعرها " . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " آحتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هـذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهـذه أنتِ عذابى أعذّب بكِ من أشاء وقال لهـذه أنتِ رَحْمَتِى أرْحَمُ بكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ". وأخرجه مسلم[(١)] بمعناه . يقال : آحتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقـدم حديث آبن مسعود[(٢)] ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قد أُرِيَهما فى صـلاة الكسوف ، ورآهمـا أيضا فى إسرائه ودخل الجنـة ؛ فلا معنى لمـا خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجـوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَـدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ[(٣)] » فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن المـاضى لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة » . ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ[(٤)] » . وقال السِّجِسْتَانى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صـلة « الّتِى » ؛ كما قال فى آل عمـران : « وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ[(٥)] » . آبن الأنبارىّ : وهذا غَلَط ؛ لأن التى فى سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدَّتْ » .

قوله تعـالى : وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

(١) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخارى بمعناه .
(٢) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشـير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهي ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل في السرور مقيَّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيَّد أيضا . ولا يُستعمل في الغمّ والشّر إلّا مُقَيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته و بَشَّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر واستبشر . و بَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : ما يُعطاه المُبَشِّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشَّرني من عبيدي بكذا فهو حُرّ ، فبَشَّره واحد من عبيــده فأ كثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثاني . واختلفــوا إذا قال : مَن أخبرني من عبيدي بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثاني مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعي : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلَّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد ابن الحسن بين قــوله : أخبرني ، أو حدّثني ؛ فقــال : إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نيّة له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . و إن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أيّ غلام أخبرني فهــو حُرّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتقوا ؛ و إن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : و إذا قال أيّ غلام لي حدّثني ، فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ رَدّ على من يقول : إن الإيمان بمجرّده يقتضي الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصـالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ؛ والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

Marfat.com

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشّر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقال الكسائى و جماعة من البصريين : « أنّ » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب آسم « أنّ » ، « وأنّ » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين؛ و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنين والجنة .

﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع النعت لجنات، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر؛ لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار؛ فنُسب الجرى إلى الأنهار تَوَسُّعًا ، و إنما يجرى الماء وحده فحذف آختصارا؛ كما قال تعالى : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»[1] أى أهلها . وقال الشاعر[2] :

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت ✽ وآستبّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس؛ فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس آبن الخَطِيم :

مَلَكْتُ[3] بها كَفّى فأنهرت فَتْقَها ✽ يرى قائم من دونها ما وراءَها

أى وسّعتها؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنهر الدّمَ وذُكِر آسم الله عليه فَكُلُوه" . معناه : ما وَسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُرٌ وأنهار . ونَهَرٌ نَهِر : كثير الماء؛ قال أبو ذُؤيب :

أقامت به فآبتنت خَيْمَةً ✽ على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِـرْ[4]

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٢) هو مهلهل أخو كليب . (٣) ملكت : أى شددت وقوّيت .

(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

Marfat.com

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره، وقد تقدّم القول فى الرزق[1] . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا، وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنهـا يشبه لون ثمـار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيـل : « مِن قبـلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمـار فى أوّل النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزقنا مِن قبل؛ يعنى أُطعِمْنا فى أوّل النهار ؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة، وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهـًا ﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمـرَ الدنيا و يباينه فى جُلّ الصفات . ٱبن عباس : هذا على وجه التعجُّب، وليس فى الدنيا شىء ممـا فى الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لمـا رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ اِبتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج . والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال : زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق :

و إن الذى يَسْعَى لِيُفسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُها[2]

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

Marfat.com

وقال عمّار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخاري ، واختاره الكسائي .

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهَّرةٌ في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات . ذكر عبد الرزاق قال أخبرني الثَّوْريّ عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يَبُلْنَ ولا يتغوّطْنَ ولا يَلِدْنَ ولا يَحِضْنَ ولا يُمنين ولا يبصُقْنَ . وقد أتينا على هـذا كلّه في وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ « هم » مبتدأ . « خالدون » خبره ، والظرف مُلْغًى . ويجـوز في غير القرآن نصب خالدين على الحـال . والخلود : البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد . وقد تستعمل مجازًا فيما يطول ؛ ومنه قولهم في الدعاء : خَلّد الله مُلْكه ، أي طوّله . قال زُهير :

ألَا لا أرى على الحوادث باقيًا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيَا

وأمّا الذي في الآية فهو أبديّ حقيقةً .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ابن عبـاس في رواية أبي صـالح : لمّـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنافقين : يعني « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال ؛ فأنزل الله هذه الآية . وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ »(١) وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع ج ١٢ ص ٩٧

Marfat.com

بجعـله كبَيْت العنكبوت ، قالوا : أرأيتَ حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القـرآن على محمد ، أىّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لمـا ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضربَ للشركين به المَثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ، عينه ولامه حرَفَا علة؛ أُعِلّت اللام منه بأن آستثقلت الضمة على الياء فسكنت . وآسم الفاعل على هــذا : مستحيٍ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يستحِى» بكسر الحاء و ياء واحدة ساكنة؛ ورُوِى عن آبن كَثِير، وهى لغة تميم و بكر آبن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم آستثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ وآسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمـع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . وآختلف المتأولون فى معنى «يستحيي» فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى؛ ورجّحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »(1) بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الآستحياء الآنقباض عن الشيء والآمتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت: جاءت أمّ سُلَيم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ «يضرب» معناه يبيّن، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . « مثلًا » منصوب بيضرب . «بَعُوضَةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مَثَلًا » .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مثلًا».و «بعوضةً» نعت لمـا ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليـل ؛ قاله الفرّاء والزّجاج وثعلب .

---

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

Marfat.com

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجارّ ، المعنى أن يضرب مثلًا ما بين بعوضـة ؛ فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهـذا قول الكسائى والفرّاء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحْسَنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصــلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن ، فلما أسقط « بين » نصب .

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل ، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى . وقرأ الضحاك و إبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغـة تميم . قال أبو الفتـح : ووجه ذلك أن « ما » آسم بمنزلة الذى ، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهـم : « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى » ؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والأسم معه أطول . و يقال : إن معنى ضربت له مثـلا ، مَثَّلت له مَثَلًا . وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد ، وعلى مثـال واحد ونوع واحد ؛ والضَّرْبُ النَّوْع . والبَعُوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَعَ و بَعَضَ بمعنًى ، وقد بَعّضته تبعيضًا ، أى جَزّأته فتبعّض . والبَعُوض : البَـقّ[(١)] ، الواحدة بعوضة ؛ سُمّيت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَـا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ « ما » الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما . معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها ؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهـذا كقولك فى الكلام : أتراه قصـيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ؛ أى هو أقصر ممـا ترى . وقال قتادة وآبن جُريج : المعنى فى الكِبَر . والضمير فى «أنه» عائد على المَثَل ؛ أى إن المَثَل حق .

(١) قال الدميرى : « هو وهم » . وذكر البعوض بأوصافها . و يدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنـه صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ... " الحديث .

Marfat.com

والحق خلاف الباطل . والحــق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتي ، أي حَقّي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم و بنى عامر فى « أمّا » أَيْمَـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أَيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيْمَـا بالعشِيّ فيَخْصَـــرُ(١)

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ آختلف النحويون فى « ماذا » ، فقيل : هى بمنزلة آسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«أراد» . قال آبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » آسم تام فى موضع رفع بالآبتداء ، و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الآبتـداء ، و يكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الآستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثعلب . وقال آبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة و إلى هُدًى . وقيــل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُــدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا و يهدى به كثيرا ؛ أى يوفّق و يَخْذل ؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلَّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضَـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

Marfat.com

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قول الله تعالى. و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم، والتقـدير: وما يُضـل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق فى علمه أنه لا يهديهـم. ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام. وقال نَوْف البِكالِيّ: قال عزير فيما ينـاجى ربّه عزّ وجلّ: إلهى تخلق خلقًا فتُضل من تشاء وتهـدى من تشاء. قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا! لتُعْرِضَنّ[(١)] عن هذا أو لأمْحُوَنّك من النبوّة، إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون. والضلال أصله الهلاك؛ يقال منـه: ضلّ الماءُ فى اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى: «أئذا ضَلَلْنَا فى الْأَرْضِ[(٢)]» وقـد تقدّم فى الفاتحة[(٣)]. والفِسْق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشىء؛ يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها. والفُوَيْسقة: الفارة؛ وفى الحديث: "خمسٌ فواسـقُ يُقْتَلْنَ فى الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُور والحُدَيّا". روته عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم. وفى رواية "العقرب" مكان "الحية". فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا، أى فَجَرَ. فأما قوله تعالى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج. وزعم ٱبن الأعرابىّ أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم فاسق[(٤)]. قال: وهـذا عجب، وهو كلام عربىّ حكاه عنـه ٱبن فارس والجوهرى.

قلت: قـد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له لمـا تكلم على معنى الفسـق قول الشاعر:

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا[(٥)] غائرا ✽ فواسـقًا عن قَصْـدها جوائرا

(١) فى نسخة من الأصل: أعرض عن هذا و إلا محوتك من النبوّة. (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١

(٣) راجع ص ١٥٠ (٤) أى بمعنى الخارج من طاعة الله، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية.

(٥) غورا، منصوب بفعل محذوف؛ أى و يسلكن. (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق).

Marfat.com

والفِسّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ و ياخُبَثُ، يريد : يأيها الفاسق، ويأيها الخبيث . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ « الَّذين » فى موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم[(١)] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النَّقض : إفساد ما أبرمته من بنـاء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة . ما نُقض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقِيضة فى الشِّعر: ما يُنقَض به . والنِّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين آستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسـنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيـل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيـل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبّيين ومن آتبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صـلى الله عليـه وسلم . ودليـل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ »[(٢)] إلى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعـدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

Marfat.com

الثالثـــة ـ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكّد باليمين؛ مِفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقـد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها ـ والمياثق والمياثيق أيضا؛ وأنشد ٱبن الأعرابى :

حِمًى لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ المياثِق[1]

والمَوْثِق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقُهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعـــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف ، والمصدر ـ فى الرَّحِم ـ القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقطعت الحبـل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ : إذا قَلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ : أى ٱنبهار[2] .

الخامســـة ـ قوله تعـالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ « يَقْطَعُون » . و « أَنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » وإن شئت من الهاء فى « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أى كراهة أن يوصـل . وٱختلف ما الشيء الذى أُمِر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة ـ قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يعبـدون غير الله تعـالى ويجورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

---

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء . وقيل انقطاعه .

Marfat.com

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان، كان فى ميزان أو غيره؛ قال جرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أقِنّهْ[2]

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسَرت الشىء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعـــة — فى هـــذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهـــد جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده . وقـــد قال : « أَوْفُـوا بِالْعُقُودِ »[3] وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى اسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأنّ فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لهـا الفتح لخفته ؛ أى هـؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيـل : كيف يجوز أن يكون هـذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمـا لم يثبتوا أمر محمد عليـه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقـد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط : أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

Marfat.com

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطيّ : وبّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحيا كم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحيا كم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم ؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

Marfat.com

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فحمًا أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائرَ ضبائرَ فبُثّوا على أنهار الجنة ثم قيل يأهل الجنة أفيضوا عليهم فينبُتون نبات الحِبّة تكون في حَميل السَّيل". فقال رجل من القوم: كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية[1] . أخرجه مسلم .

قلت : فقوله "فأماتهم الله" حقيقة في الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريمًا لهم. وقيل : يجوز أنْ يكون " أماتهم " عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتًا على الحقيقة؛ والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا »[2] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذى جاءكم ، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ »[3] فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع. و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمر وابن أبي إسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصِن وسلام ابن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(١) الذى فى صحيح مسلم : « ... قد كان بالبادية » . والضبائر : هم الجماعات فى تفرقة ، واحدتها ضبارة ، مثل عمارة وعمائر ، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجيء به السيل من الغثاء .

(٢) راجع ج ٦ ص ١٨ (٣) راجع ج ١١ ص ٣٤٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه ٱخترع وأوْجَد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو * ل فحِيلَتِى فيــه قليلَهْ

وقد تقدّم هذا المعنى[(١)] . وقال ٱبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهــذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة — ٱستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها — كقوله : «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ»[(٢)] الآية — حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلق عبثًا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعــة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتهــا ، أو فى ٱجتنابهــا لنُختبَر بذلك ، أو فى ٱعتبارنا بهــا . ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين . ثم هو معارَض بمــا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضــون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما مِن فِعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفسه ؛ ولا مُعيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المــالكية والصَّيرفىُّ فى هــذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .	(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

Marfat.com

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكمَ بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، و إنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هى عليـه . قال ٱبن عطية : وحكى ٱبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أوْ لها تعلّق به ، أو لهـا حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغى أن يُعتمد على هذا ، ويغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـــة — الصحيح فى معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار. يدلّ عليه ما قبـله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والاستـواء إلى السماء وتسويتها؛ أى الذى قَدَر على إحيائكم وخَلْقكم وخلقِ السّموات والأرض،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الانتفاع؛ أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لمَـا ذكرنا . فإن قيل : وأى اعتبار فى العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النـار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ٱبن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾لتتقوّوْا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد ، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك ؛ فقد ٱبتدأك بعظيم النِّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسأله أن يُعطِيَه ؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "ما عندى شىء ولكن ٱبتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

Marfat.com

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرِف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ، وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» . فهذه الأشياء كلها مسخرة للآدمى قطعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ»[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سبقت رحمتى غضبى يا ابن آدم أنفق أُنْفِق عليك يَمينُ الله ملأَى سَحًّا[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُمّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفًا و يقول الآخر اللّهُمَّ أَعْطِ مُمسكًا تَلَفًا". وكذا فى المساء عند الغروب ينادبان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن آستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وآجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وآنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "آنْفَحِى أو آنْضَحِى[4] أو أنفق ولا تُحصِى فيُحصِىَ الله عليك ولا تُوعِى فيُوعِىَ[5] عليك" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٠٧　(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٠٦　(٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء .

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

Marfat.com

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : " مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليكِ " .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والأستواء فى اللغة : الارتفاع والعلوّ على الشىء ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ» ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفْــرة * وقد حلّق النجم اليمانىّ فآستوى

أى آرتفع وعلا ، وآستوت الشمس على رأسى وآستوت الطير على قِمّة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : « الرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ »[1] قال مالك : الاسـتواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ قال : الأستواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : ان يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شبابه وقوّته ، أو يستوى عن آعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان[2] فلان مقبلا على فلان ثم آستوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ» والله أعلم . قال وقد قال آبن عباس : ثم آستوى إلى السماء صعِد . وهذا كقولك : كان قاعدا فآستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـرب جائز . وقال البيهق أبو بكر أحمـد بن علىّ بن الحسين : قوله :

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ سـواء ، على معنى ... الخ » وبها لا يستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

Marfat.com

«استوى» بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى. ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة. وأما ما حكي عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبي، والكلبي ضعيف. وقال سفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ»: قصد إليها، أي بخلقه واختراعه؛ فهذا قول. وقيل: على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبري. ويذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال: استوى بمعنى أنه ارتفع. قال البيهقي: ومراده من ذلك — والله أعلم — ارتفاع أمره، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السماء. وقيل: إن المستوى الدخان. وقال ابن عطية: وهذا يأباه وصف الكلام. وقيل: المعنى استولى؛ كما قال الشاعر[1]:

قد استوى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْراق

قال ابن عطية: وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: «ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ».

قلت: قد تقدم في قول الفراء علي وإلي بمعنى. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة «الأعراف»[2] إن شاء الله تعالى. والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة.

السادســة — يظهر من هــذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبــل السماء؛ وكذلك في «حم السجدة»[3]. وقال في النازعات: «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا»[4] فوصف خلقها؛ ثم قال: «وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ». فكأن السماء على هــذا خلقت قبل الأرض؛ وقال تعــالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ»[5] وهذا قول قتادة: إن السماء خلقت أولا؛ حكاه عنه الطبري. وقال مجاهد وغيره من المفسرين: إنه تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضا وثار منه دخان فارتفع؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا[6] الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مدحوة.

(١) هو الأخطل كما في شرح القاموس.
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩.
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣.
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١.
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤.
(٦) دحا الشيء: بسطه.

Marfat.com

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم آستوى إلى السماء وهى دخان فسوّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السُّدّى(١) عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن آبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانى عن آبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فآرتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والآثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ »(٢) — والحوت فى الماء و[الماء](٣) على صفاة(٤)، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرك الحوت فآضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى : « وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ »(٥) وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ »(٦) يقول : من سأل فهكذا الأمر. « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدّمة هذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى ؛ وقل من له العصمة.

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢٢٣.

(٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه.

(٤) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس.

(٥) راجع ج ١٠ ص ٩٠.

(٦) راجع ج ١٥ ص ٣٤٢.

Marfat.com

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زَيَّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحِفْظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا[1] » وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ؛ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء «القلم» فقال له آكتب . فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل آرتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أَوْلَى ؛ لقوله تعالى: « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[2] » والله أعلم بما فعل؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعــة — أصل خلق الأشياء كلّها من الماء لما رواه آبن ماجه فى سننه، وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسى وقرّت عينى ، أنبئْنى عن كل شيء . قال: "كل شيء خُلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٢　　(٢) راجع ج ١٩ ص ٢٠٢

Marfat.com

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السَّـلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام". قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة : « أنبئْني عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خُلق من المـاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المـاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا. قال البيهقي : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدري . قال : ثم أتى الرجل عبـدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبـد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ »(1) فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أي من خلقه وإبداعه وٱختراعه . خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ.

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع . ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »(2) وقد ٱختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهن » أي في غلظهن

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (2) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

Marfat.com

وما بينهنّ . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الدّاوُدِيّ . والصحيح الأوّل ؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شبرا من الأرض ظُلْمًا طُوِّقَه إلى سبع أرضين". وعن عائشة رضي الله عنها مثـله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبي هريرة : " لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة](١) " . وروى النّسائي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إلٰه إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إلٰه إلا الله قال لا إلٰه إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّني به قال يا موسى لو أنّ السموات السّبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كِفّة ولا إلٰه إلا الله في كِفّة مالت بهنّ لا إلٰه إلا الله " . وروى الترمـذيّ عن أبي هريرة قال : بيـنما نبيّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هذا" فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هـذا العَنان هذه روايا الأرض يسـوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع(٢) سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة](٣) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق(٣) ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة](٣) خمسمائة سـنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه و بين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسـوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

Marfat.com

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة ســنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على عِلْم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه][1] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وآسمه مسلم — عن آبن عباس أنه قال : « اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن آبن عباس صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضُّحَا عليه دليلا[2] ؛ والله أعلم .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ آبتداء وخبر . « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ ﴾ أهل نجد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى فسوّى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهن سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : آنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان آستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل عَنان ، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإمّا على أنها مفرد آسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

---

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

Marfat.com

العـاشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالمـا بكل شيء ؛ وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العامية . وقالت الجَهْمِيّة : عالم بعـلم قائم لا في محل ، تعالى الله عن قول أهل الزَّيْغ والضلالات؛ والردّ على هؤلاء في كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »(٢) ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »(٣) الآية . وسيأتي الكلام على ثبوت علمه وسائر صفاته في هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(٤) إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائي وقالُون عن نافع بإسكان الهاء من : هو وهي، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمّ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمّ . وزاد أبو عَوْن عن الحُلْواني عن قالُون إسكان الهاء من « أَنْ يُمِلَّ هُوَ » ، والباقون بالتحريك .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مسـألة :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت ؛ فإذ للمـاضي ، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المُبَرِّد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا، وإذ قلت . وإذا جاء « إذا » مع المـاضي كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٩ (٣) راجع جـ ٧ ص ١ (٤) راجع جـ ٢ ص ٣٠١

Marfat.com

أى يجىء . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيـدة : « إذ » زائدة ؛ والتقـدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقول الأسْوَد بن يَعْفُر :

فإذ[1] وذلك لا مَهـاةَ لذكـره * والدهر يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس: وهذا خطأ؛ لأن «إذ» اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا آجترام من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عز وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وآبتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّـــة مَن يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وآذكر إذ قال . وقيـل : هو مردود إلى قوله تعالى: « آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعـالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى آرتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم بيانه[2] .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك. قال آبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَـل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لَأَكَ إذا أرسـل . والأَلُوكة والمَـأْلُكة والمَـأْلَكة : الرسالة ؛ قال لَبيد :

وغلامٍ أرســـلتْهُ أمّه * بأَلُوكٍ فبذلْنا ما سأَلْ

وقال آخر[3] :

أبلـــغ النعمانَ عنّى مَأْلُـكاً * إننى قد طال حبسى وآنتظارى

---

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدى بن زيد؛ كما فى اللسان مادة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إننى»

Marfat.com

ويقال : أَلِكْني أي أرسلني ؛ فأصله على هـذا مَأْلَك، الهمزة فاء الفعل فإنهـم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصـله مَلأَك من مَلَك يملِك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن آبن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشعر على الأصل؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيّ ولكن لمَـلأَكٍ　*　تنزّل من جوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل . لا آشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصّلادمة . والصّلادم : الخيل الشّداد، واحدها صِلْدِم. وقيل : هى للمبالغة، كعلاّمة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لآستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبـادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهـم ؛ فقال عز وجل : « آسْجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى آبن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمِّيت أمّ القرى، قال : وقبر نوح وهود وصـالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . و« خليفة » يكون بمعنى فاعل؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِيَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلَف؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين؛ هذا هو المعروف، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»[(1)] إن شاء الله. و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة؛ إلا ما رُوِيَ عن زيد بن علىّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف. والمعنىّ بالخليفة هنا — فى قول آبن مسعود وآبن عباس وجميع أهل التأويل — آدم عليه السلام، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض؛ كما فى حديث أبى ذرّ، قال قلت: يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٠

Marfat.com

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان وسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »(١) . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبِّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعـــة — هذه الآية أصـلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصم(٢) حيث كان عن الشريعة أصمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولى ذلك . ودليلنا قولُ الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى: « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصـار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لما ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لمـا حضرته الوفاة عهـد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) راجع جـ ٤ ص ٢ (٢) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

Marfat.com

واجب علينا ولا عليك ، فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدِّين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنمـا ورد على جهة التأكيد لقضيـة العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن ، و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســـة — إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبِّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة آختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : آختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للآختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الآجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأى والآجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم آختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكاليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ و إذا وجب العلم به لم يَخْلُ ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو آستدلالا ، أو يكون من أخبـار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

Marfat.com

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحج البيت ونحوها، ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة، فبطلت هـذه الدعوى، و بطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به. وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأي وجه كان، وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النّص صريحا في إمامته ؛ و إذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد — على ما يأتي بيانه — كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنص من الآخر. و إذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الآختيار والآجتهاد . فإن تعسّف متعسّف وآدّعى التواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر و بأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضا في جملتها مقام النص؛ ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميّة على نفي النّص؛ وهم الخلق الكثير والجم الغفير. والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفي الإماميـة ؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادسـة — في ردّ الأحاديث التي آحتجّ بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وآرتدّت، وخالفت أمر الرسول عنادا؛ منها قوله عليه السلام: "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه" . قالوا : والمَوْلى في اللغة بمعنى أَوْلَى ؛ فلما قال : " فعليّ مولاه " بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله « مولى» أنه أحق وأَوْلى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعليّ: " أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي " . قالوا : ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ، وكان أخاً له ولم يكن ذلك لعلي ، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة، إلى غير ذلك مما آحتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر، وقد ٱختلف فى صحته، وقد طعن فيه أبو داود السِّجستانى وأبو حاتم الرازى، وٱستدلا على بطلانه بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالىّ دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : " مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه " لكان أحد الخبرين كذبًا .

جواب ثان — وهو أن الخبر و إن كان صحيحًا رواه ثِقَةٌ عن ثِقَة فليس فيه ما يدل على إمامته ، و إنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولىّ ، فيكون معنى الخبر : مَن كنت وَلِيَّه فعلىّ وَلِيّه؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وَلِيّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علىّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلىّ .

جواب ثالث — وهو أن هـذا الخبر ورَدَ على سبب، وذلك أن أسامة وعليًّا ٱختصما ، فقال علىّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لستُ مولاك، بل أنا مَوْلَى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذكر للنبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال : " مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه " .

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمـا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى قصة الإفك فى عائشة رضى الله عنها : النساء سواها كثير . شقّ ذلك عليها، فوجد أهـل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردًّا لقولهم ، وتكذيبًا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلا ببغضهم لعلىّ عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتى من بيان وفاتيهما فى سورة « المـائدة »(1) — وما كان خليفةً بعده و إنما كان الخليفة يوشع بن نون ؛ فلو أراد بقوله : " أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى " الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هـذا دلّ على أنه لم يُرِد هذا ، و إنمـا أراد أنى ٱستخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لمـا خرج إلى مناجاة

(1) راجع جـ ٦ ص ١٣١

Marfat.com

ربّه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا خرج إلى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه؛فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى". وإذا ثبت أنه أراد الآستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاة غزاها رجلًا من أصحابه ، منهـم : آبن أمّ مَكْتُوم ، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحـابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء ، وخبر علىّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أَوْلى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعـة ــ وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدّم الخلاف فيه ، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وبكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثانى ؛ ويكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهـم [فى تعيين عثمان بن عفان رضى الله عنه](١) . الطريق الثالث : إجماع أهل الحَلّ والعَقْد ؛ وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليـه ورَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد ؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبى .

Marfat.com

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لمـا فى إقامة إمامين من آختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يُغِل[1] عليهن قلبُ مؤمن إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضي الله عنه عقد البَيعة لأبي بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من آنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَعٌ عليه .

التاسـعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، وإذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشِـه . وقال آبنُ خُوَيْزِمَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العـاشرة — وآختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا آحتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّع[2] أنه عُقد له سرًّا ، ويؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى فى ستة[3] دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يغل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق .　　(٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للمسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

Marfat.com

و بينه أن شهادة الاثنين معتــبرة ، وما زاد مختلَف فيــه ولم يدل عليه الدليــل فيجب ألا يعتــبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأوّل — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش" . وقد آختلف فى هذا .

الثـانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيـاً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث ؛ وهذا مُتّفَق عليه .

الثـالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثُّغور وحماية البَيضة(١) ورَدْع الأمة والآنتقام من الظالم والأخذ للظلوم .

الرابــع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحـدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هـذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهـم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه؛ ولأنه هو الذى يولى القضـاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحّص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالمـا بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن آختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لايجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : "أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

Marfat.com

بمن تستشفعون ". وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »(١) فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه آختاره؛ وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد آنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل وآستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وآجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصب ثم فَسَق بعد آنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم ؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وآستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الآبتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا ينخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شىء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : " وألا نُنازع الأمر أهله [قال(٢)] إلا أن تروا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان " .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٦　　(٢) الزيادة من صحيح مسلم (ج٦ ص١٧) طبع الآستانة . و«بواحا» أى جهارا ؛ من باح بالشىء يبوح به إذا أعلنه .

Marfat.com

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئ ومَن أنكرفقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا : يا رسول الله ألاّ نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ آختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه آنعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب(١) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما آتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا آنعقدت الإمامة بآتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البيعة لعُذْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأوّل وقُتل الآخر؛ وآختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه وموْته . والأوّل أظهر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخُدْرىّ أخرجه مسلم .

(١) فى بعض الأصول : « للغير » .

Marfat.com

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليُطعه إن آستطاع فإن جاء آخر ينازعه فآضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا، ومن حديث عَرْفجة : " فآضربوه بالسيف كائنا من كان " . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل ، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالَم؛ ثم قالوا : لو آتفق عقد الإمامة لشخصين نُزّل ذلك منزلة تزويج وليّين آمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف(١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا آثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه؛ ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

Marfat.com

لمـا جاز بعثة نبيّين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولَى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منـع الشرع منه ؛ لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما ادّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما، ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالِفى إمام . فإن قالوا : العقـل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمْع الإجماعُ ، وقد وُجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ فقيل : المعنى أنهم لمـا سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : « إِنِّى أَعْلَمُ » وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزّة. فجاء قولهم : «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الاستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عِصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الاستخلاف والعصيان. وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

Marfat.com

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة فى قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفى الكلام حذف على مذهبـه؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا و يفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا؛ لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله: "كيف تركتم عبادى" — على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، و إظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيها ﴾ «مَن » فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه «فيها» . «يُفسد» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى . وفى التنزيل: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « وَيَسْفِكَ الدِّماءَ» بالنصب ، يجعله جواب الآستفهام بالواو ، كما قال (١) :

أَلَم أَكُ جارَكم وتكونَ بينى ✻ وبينكُم المــودّةُ والإخاءُ

والسَّـفْكُ : الصّب . سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكًا : صببتـه ، وكذلك الدمع ؛ حكاه آبن فارس والجوهرى . والسـفّاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقـد يستعمل فى نثر الكلام ؛ يقال سـفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْىٌ . وقيـل : دَمَىٌ ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منـه ، والمحذوف منـه ياء وقد نُطق به على الأصـل ؛ قال الشاعر :

فــلو أنّا على حجـر ذُبِحنـا ✻ جَرَى الدَّميـان بالخبر اليقين

(١) القائل هو الحطيئة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزّهك عمّا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمـةَ الفاخرِ

أى براءة من علْقمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء " . وهو مشتق من السّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »(١) فالمسـبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»(٢)،ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى سا كنان .

مسـألة : وآختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال آبن مسعود وآبن عباس : تسبيحهم صلاتهم ؛ ومنه قول الله تعالى : «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»(٣) أى المُصلّين . وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، قاله المفضّل ، وآستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا * سبح(٤) الحجيج وكَبّرُوا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله ؛ على عُرفه فى اللغة ، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذَرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما آصطفى الله لملائكته [أو لعباده](٥) سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهق .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٤١ (٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ (٤) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(٥) زيادة عن صحيح مسلم (جـ ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم(١) . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» آعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم آعترضوا على جهة التسليم؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفسنا لك آبتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصلّى . والتقديس : الصلاة . قال آبن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح؛ فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : "سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والرُّوح". روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : « آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ(٢) » أى المطهّرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ(٣)» يعنى الطاهر؛ ومثله : «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ(٤) طُوًى» وبيت المَقْدِس سُمِّىَ به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس . وفى الحديث : "لا قُدِّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويّها" . يريد لا طهّرها الله؛ أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه . فالقُدْس : الطُّهر من غير خلاف؛ وقال الشاعر(٥) :

فأدركْنَه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَدّس

أى المطهّر . فالصلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٦ ص ١٢٥
(٣) راجع ج ١٨ ص ٤٥ (٤) راجع ج ١١ ص ١٧٥ (٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان ؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه آسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير؛ وكما قال (١) :

لعَمْرُكَ ما أدرى و إنّى لأَوْجَلُ * على أيّنــا تعـــدُو المنيّــة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . و إن جعلته آسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . قال آبن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، و إنمــا الخلاف فى « أفعل » إذا سُمِّىَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه ، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدَوِىّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به؛ فيكون مثل حَواجٌّ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونِسوةٌ حَواجُّ بيتِ الله ، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن ، و إن لم يكنّ حججن قلت : حواجٌّ بيتَ الله ، فتنصب البيت ؛ لأنك تريد التنوين فى حواجّ .

قوله تعــالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ آختلف علمــاء التأويل فى المــراد بقوله تعــالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال آبن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمــا جعله خازن السماء وشرفه ، فآعتقد أن ذلك لمزيّة له ؛ فآستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعــلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك ؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لمــا قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون ممــا كان وممــا يكون وممــا هو كائن ؛ فهو عام .

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوّجا بأخته ، فآتفق أنه طلقها وتزوّج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترضه له . (عن أشعار الحماسة) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عَرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّم» غير مسمّى الفاعل . والأول أظهر؛ على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١) . وقال ٱبن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر . وقيل : أبا محمد؛ كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِىّ . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية ، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادِم فى الجمع؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش .

وٱختلف فى ٱشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمّى بما خلق منه ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . وٱختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمرة؛ وزعم النَّضر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدماءُ ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الٱشتقاق جمعه أُدْم وأوادم؛ كحُمْر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير : إنما سُمّىَ آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سُمّىَ إنسانا لأنه نَسِى؛ ذكره ٱبن سعد فى الطبقات . وروى

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

Marfat.com

السُّدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن آبن عباس وعن مُرّة الهَمْدانيّ عن آبن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منـك أن تنقص منى أو تَشِينني[1]؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنهـا عاذت بك فأعذتهـا . فبعث مكائيـل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمـراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنـو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعِد به ، فقال الله تعـالى له : " أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك " فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ؛ اللازب : هو الذى يلتصق بعضه ببعض، ثم تُرِك حتى أنتن؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : مُنتن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »[2] . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه. يقول: أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سـنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لمـا رأوْه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخّار تكون له صَلْصلة؛ فذلك حين يقول: « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »[3] . ويقول لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّـه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هـذا الذى لم تروْا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) فى نسـخة . « أن تقبض منى أو تسيئنى » . وفى تاريخ الطـبرى (ص ٨٧ قسم أوّل طبـع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشينني » . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠

Marfat.com

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه آشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »(١) « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »(٢) وذكر القصة . وروى الترمذىّ عن أبى موسى الأشعرىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسَّهل والحَزْن والخبيث والطيّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ(٣) وشتّى فى الشِّيَمْ * وكلُّهم يجمعهـم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »(٤) وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين؛ لأنه على أفعَل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرَفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفترق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الآسم قد يطلق و يراد به المسمَّى ، كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأوّل يقال : الآسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى آسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥ (٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وجـ ٧ ص ١٦٨

Marfat.com

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعة وتسعين آسمًا". ويجرى مجرى الذات، يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وآسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ آسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »(١) « تَبَارَكَ آسْمُ رَبِّكَ » « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » .

الثالثــة — وآختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علّمها لآدم عليه السلام؛ فقال آبن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وآبن جُبير: علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند آبن عباس فذكروا آسم الآنية وآسم السَّوْط ؛ قال آبن عباس : « وعلّم آدم الأسماء كلها » .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى؛ وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها » إذ هو آسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو آستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شىء" الحديث . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال آبن عباس : علّمه أسماء كلّ شىء حتى الجَفْنة والمِحْلَب . وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شىء بآسمه وأنحى(٢) منفعة كل شىء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته، وآختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وقال آبن زيد : علّمه أسماء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثَيْم(٣) : أسماء الملائكة خاصة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأول أصح، لما ذكرناه آنفًا ولما نبيّنه إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفى الطبرى : « ألجأ » .
(٣) فى التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفى الخلاصة « خثيم » بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

Marfat.com

الرابعـــة — وآختلف المتأوّلون أيضا هـل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال آبن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أى أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفى الحديث "إنه عَرَضهم أمثال الذَّرّ". وقال آبن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفى حرف آبن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفى حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال فى الأسماء إنها التسميات فآستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول فى قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال فى «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن و إن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها. قال آبن عطية: والذى يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التى قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا آسمه كذا، وهذا آسمه كذا. وقال المـاوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم فى زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثانى — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســـة — وآختلف فى أوّل من تكلم باللسان العربيّ؛ فرُوِيَ عن كَعب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليـه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أوّل مَن تكلّم بالعربيـة جبريل عليه السلام وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه الســلام وألقاها نوح على لسان آبنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو آبن عشر سنين". وقد رُوى أيضا: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

Marfat.com

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» واللغات كلّها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أول من تكلم بالعربيّـة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه الســلام. وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَميم وبعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى:

هَؤُلَا ثم هَؤُلَا كلّا أعطيـ * ـتَ نعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول: هولاء؛ فيحذف الألف والهمزة.[1]

السادســـة — قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى؛ قاله المبرّد. ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: «سبحانك»! حكاه النقاش قال: ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له: «كَمْ لَبِثْتَ» فلم يشترط عليـه الإصابة، فقـال ولم يُصب ولم يُعنّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيـه. وحكى الطبرى وأبو عبيد: أن بعض المفسرين قال إن معنى «إن كنتم»: إذ كنتم، وقالا: هـذا خطأ. و «أَنْبِئُونِي» معناه أخبرونى. والنبأ: الخبر؛ ومنه النبيء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.[2]

السابعـــة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون. وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) فى البحر لأبى حيان «بحذف ألف ها وهمزة أولاء وإقرار الواو التى بعد تلك الهمزة».
(٢) فى قوله تعالى: «ويقتلون النبيين بغير الحق ...» راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء.

Marfat.com

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة[1]، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٢)

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهـذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنـا » بمعنى الذى ؛ أى إلا الذى علّمتنا ؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـــة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى . اقتداء بالملائكة والأنبيـاء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلمـاء يقبض العلم؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهـم فيَضلّون و يُضلّون . وأما ماورد من الأخبـار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروَى البُسْتِيّ[2] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ البقاع شرّ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرّها الأسواق . وقال الصّديق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلُ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمَ ماقال ابن عمر، سُئل عما لا يعـلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدّارمِيّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨ ؛	(٢) فى نسخة « النسائى » .

Marfat.com

يحيي بن المتوكل صاحب بهية[(١)] قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيي بن سعيد، فقال يحيي للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدِّين فلا يوجد عندك منه عِلمٌ ولا فَرَج، أو عِلمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعَمَّ ذاك ؟ قال : لأنك ٱبن إمامَىْ هُدًى : ٱبنُ أبي بكر وعمر[(٢)]. قال يقول له القاسم : أقبحُ من ذاك عند مَن عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ٱبن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُوَرِّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهَيْثَم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في ٱثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف في العلم . قال ٱبن عبد البَرّ : مِن بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ٱبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذى عم فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يُقسِّى القلب ويُورث الضِّغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أُوقِيَّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت ٱمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس[(٣)] فقالت : ماذلك لك !

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبى بكر رضى الله عنه ؛ تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو ٱبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جده الأعلى لأبيه ، وٱبن عمر جده الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) فطس (بالتحريك) : ٱنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وٱنتشارها .

Marfat.com

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عزوجل يقول: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : آمرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القُرَظى قال : سأل رجل عليًّا رضى الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر آبن حماد حديثَ مُسَدّد ، ثم رحلتُ إلى بغداد ولقيت الناس ، فلما آنصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ من مُجْتابِى النِّمَار"[(١)] فقال : إنما هو مُجْتابى الثّمار ؛ فقلت إنما هو مُجتابى النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فإن له بمثل هذا عِلْمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابى النِّمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة ، جيوبُهم أمامَهم . والنِّمار جمع نَمِرة[(٢)][(٣)] . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنفِى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وآنصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدّثتُ فى مجلس ❊ تناهَى حديثى إلى ما عَلمتُ
ولم أَعْدُ علمى إلى غيره ❊ وكان إذا ما تناهَى سَكَتُّ

الثانية — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّى عن معنى نُسَبِّحك تسبيحًا . وقال الكسائى : هو منصوب على أنه نداء مضاف . و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ و بينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكِم ويجىء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرِف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ، كما صُرِف عن مُسْمِع إلى سَمِيع ومُؤلِم إلى أليم ؛ قاله آبن

(١) مشققة مخططة . (٢) مجتابى النمار ؛ أى لا بسيها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر .

Marfat.com

الأنبارى . وقال قوم: «الحكيم» المانع من الفساد، ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد . قال جرير :

أَبَنِى حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم * إنّى أخافُ عليكمُ أن أَغْضَبَا

أى آمنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائدُ الخيلَ مَنْكُوبًا دوابرُها[1] * قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

القِدّ : الجلد . والأَبَق: القِنَّب[2] . والعرب تقول : أَحْكِمِ اليتيمَ عن كذا وكذا ؛ يريدون منعه . والسورة المُحْكَمَة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها ؛ والحِكمة من هـذا ؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أَحْكَمَ الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلو شأنه ؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصًّا بالعلم .

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ؛ وفى الحديث : "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل[3] العلم خاصّة

---

(١) النكب : أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا . والدوابر . أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيـل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها ؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها .

(٢) القنب (بكسر القاف وضمها) : ضرب من الكتان .

(٣) فى نسخة من الأصل : « لأجل » .

Marfat.com

من بين سائر عيال الله[1]؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظامًا للعلم وأهله، ورضًى منهم[2] بالطلب له والشغل به. هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثـــة — آختلف العلماء من هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. آحتجّ من فضّل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ». «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». وقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ[3]» وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ[4]». وفى البخارىّ: «يقول الله عز وجل: "مَن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم"». وهـذا نص. آحتجّ من فضل بنى آدم بقوله تعـالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ[5]» بالهمز، من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: "وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رِضًى لطالب العلم" الحديث. اخرجه أبو داود، و بمـا جاء فى أحاديثَ من أن الله تعالى يُباهِى بأهل عَرفات الملائكة، ولا يُباهى إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبيـاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهـم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسـوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شىء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشّيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعـالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضـل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهـا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة بآتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) فى نسخ من الأصل: «عمال الله». (٢) فى نسخة: «ورضى الله عنهم ... الخ».
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦ (٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٩ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥

Marfat.com

لا يكون إلا لله تعالى؛ لأن السجود عبادة؛ والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد؛ وهذا واضح . وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحدا لا يعـلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعـالى ؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »[1] إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» حكاه مَكّى والمـاوَرْدِى. وقال الزَّهراوى : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال ٱبن عباس وٱبن مسعود وسعيد بن جُبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفســه من الكبر والمعصية . قال ٱبن عطية : وجاء « تكتمون » للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب وٱتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»[2] و إنما ناداه منهم عُيَيْنَة ، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : إن الله عز وجل لمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا ، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء ، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم ، [فقالوا[3] : و] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه . و «ما» فى قوله : «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ«أعلم» على أنه فعل ، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنتصب به «ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله[4] ، وقد تقدّم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة عن تفسير الطبرى .
(٤) راجع ص ٢٧٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أى وآذكر . وأما قول أبى عبيدة : إنّ «إذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم[1] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعـل الجماعة تفخيمًا و إشادةً بذكره . والملائكة جمع مَلَك؛ وقد تقـدّم[2] . وتقدّم القول أيضا فى آدم وآشتقاقه[3] فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « آسجدوا » . ونظيره « الحمدُ لله » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ٱسْجُدُوا﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُـلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْمَ فيهـا سُجَّدًا للحوافِرِ

الأُكْمُ : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعَيْنٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال آبن فارس : سَجَد إذ تطامن، وكلّ ما سجد فقد ذَلّ . والإسجاد: إدامة النّظر . قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال[4]:

فُضُـولَ أزِمّتِهـا أسجدتْ * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أَسْجِدْ لِلَيْـلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال:

* وافَى بهـا كدراهم الإسجاد *

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢

(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩ (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما آرتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

Marfat.com

الثالثـــة ــ ٱستدلّ مَن فضّل آدم وبَنِيه بقوله تعـالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى «ٱسجدوا لآدم» ٱسجدوا لى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عنـد إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أنـ المسجود له لا يكون أفضـلَ من الساجد بدليل القِبْـلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لمـا ٱستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرَهم بالسجود لغيره ليريهم ٱستغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم وٱستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّـنع به فأمِروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم: « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » لمـا قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً » وكان علم منهـم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هـذا، فقال لهم : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفختُ فيه من روحى فقَعُوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد ٱستدلّ ٱبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »(١) . وأمنه من العـذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(٢) . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ »(٣) . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لَعَمْرِي . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة، والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٢ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢

Marfat.com

الرابعــة — وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادةٍ؛ فقال الجمهور : كان هـذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدم كالقِبْلة لنا. ومعنى «لآدم» : إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقِبْلة؛ أى إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقًى على أصل اللغـة؛ فهو من التذلّل والآنقياد؛ أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل. ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام؛ لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً »[1] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين" . روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِىّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمـا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما هذا" فقال : يا رسول الله، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال : "فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شـيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّى حقّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهى على قَتَب لم تمنعه" . لفظ البُسْتِىّ . ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[2] عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونَهى عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤

(٢) القتب : رحل صغير على قدر السنام .

Marfat.com

قلت : وهذا السجود المنهيّ عنه قد اتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام(١) لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم .

الخامســـة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : ابن عباس وابن مسعود وابن جُريج وابن المسيّب وقَتادة وغيرهم ؛ وهو اختيار الشيخ أبى الحسن، ورجّحه الطبرى؛ وهو ظاهر الآية. قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِس بعـد. روى سِمَاك ابن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا. وحكى الماوَرْدِىّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ؛ وخلق سائر(٢) الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا؛ وروى نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شَهْر ابن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا فى الأرض وقاتلهـم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب؛ وحكاه الطبرى عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ»، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنوعْ

واحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال: «لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق فى علم الله بشقائه عدلاً منه، لا يُسئل عما يَفعل؛ وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جنّ الأرض فسُبِىَ؛

(١) فى نسخ من الأصل : « للأقدم » . (٢) فى نسخ : « معاشر » .

Marfat.com

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدوىّ وغيره . وحكى الثعلبي عن ابن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان اسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارْجُه؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبْراً . والملائكة قد تُسَمّى جِنًّا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً »(1) ؛ وقال الشاعر(2) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخّر مِن جِنّ الملائِكِ تِسعةً * قِياماً لَدَيْهِ يعملون بلا أَجْرِ

وأيضا لما كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فاشتق اسمه من اسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتقّ من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبّه بالأعجمية؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه امتنع من فعل ما أُمِر به؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد](3) اعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه — وفى رواية : ياوَيْلِي — أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ فلِيَ النار" . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحلْق؛ وقد قيل : إن الألف مضارِعة لحروف الحلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(1) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤ (2) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان .
(3) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

عندى أن الألف مضارعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحواً غير هذا الحرف .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الآستكبار : الآستعظام؛ فكأنه كره السجود فى حقه وآستعظمه فى حق آدم ؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكِبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة مَن [كان][(١)] فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبْر" . فى رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسَناً ونعله حسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه و إبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة ، والمعنى واحد ؛ يقال : غَمَصه يَغْمَصه غَمْصاً وآغتمصه ؛ أى آستصغره ولم يره شيئاً . وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولاً قاله ؛ أى عبته عليه . وقد صرّح اللعين بهذا المعنى فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »[(٢)] . « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » . « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فكفّره الله بذلك . فكلّ من سفّه شيئاً من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى آبن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسَد إبليسُ آدم ، وشح آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَد إبليسُ آدم ، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهـذا طِينىّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر ، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد آبن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار ؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » . وقال الشاعر[(٣)] :

بتَيْهاءَ قَفْـرٍ والمَطِىُّ كأنها * قطا الحَزْن قد كانت فِراخاً بُيوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٠

(٣) هو آبن أحمر ، كما فى اللسان مادة « كون » .

أى صارت . وقال آبن فُورَك . « كان » هنا بمعنى صار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأوّلين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : " وإنما الأعمال بالخواتيم " . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأُعْطى الرياسة والخِزانة فى الجنة على الآستدراج ؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعْطى بَلْعام[(١)] الآسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكِبر فى نفسه متمكن . قال آبن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ[(٢)] » أى آستكبرت ولا كِبْر لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكِبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقته من نار العِزّة؛ ولذلك حَلَف بالعِزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » فالعِزّة أورثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاسعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايته ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولِىّ ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنا أن العلم بأن الواحد منّا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنًا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنّا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولما آتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

---

(١) فى تاريخ آبن الأثير والطبرى إنه بلعم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ آبن الأثير ج ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٥٠٨ طبع أوربا .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٢٨

Marfat.com

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعَرِىّ وغيره . وذهب الطَّبَرِى إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا ، و إن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهـل السُّنة ، ولا خلاف أنه كان عالمـا بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا](1) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعـالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، و بعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونًا . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكّين معروف ، سُمّى به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته . وسُكّانُ(2) السفينة عربىّ ؛ لأنه يُسَكّنها عن الآضطراب .

(1) زيادة عن تفسير آبن عطية . (2) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدّل .

Marfat.com

الثانيـــة — فى قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون مِلكًا؛ ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة.(١)

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدّة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل دارى لك سُكْنَى حتى تموت فهى له حياتَه وموتَه، وإذا قال: دارى هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف فى العُمْرَى أقوى منه فى السُّكْنَى. وسيأتى الكلام فى العُمْرَى فى «هود»(٢) إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ابن الإعرابى يقول: لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ وإن متُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وَصِيّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سُننه؛ الأوّل رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها" ففى هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى فى الحكم. الثانى رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئا فهو له حياتَه ومماتَه". قال: والرُّقْبَى أن

---

(١) فى بعض الأصول: «لا دخول ثواب».		(٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

Marfat.com

يقول هو للآخر : مِنّى ومنك موتا . فقوله : "لا رُقْبى" نهىٌ يدلّ على المنع ؛ وقوله : "مَن أَرْقِب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز ؛ وأخرجهما أيضا النَّسائى . وذكر عن ٱبن عباس قال : العُمْرَى والرُّقْبَى سواء . وقال ٱبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العُمْرَى جائزة لمن أُعمِرها والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقِبها" . فقد صحّح الحديث ٱبن المنذر ؛ وهو حجة لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواء . ورُوى عن علىّ و به قال الثَّوْرِىّ وأحمد ، وأنها لا ترجع إلى الأوّل أبدا ؛ و به قال إسحاق . وقال طاوس : مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث .

والإفقار مأخوذ من فَقَار الظَّهر . أفقرتك ناقتى : أعَرْتُك فَقَارها لتركبها . وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه . ومثله الإخبـال ، يقال : أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه ؛ قال زهير :

هنـالك إن يُسْتَخْبَلُوا المـالَ يُخْبِلوا * و إن يُسْئَلُوا يُعْطُوا و إن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة : العطيّة . والمِنْحة : منحة اللّبن . والمَنِيحة : الناقةُ أو الشاةُ يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "العاريَةُ مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضِىّ والزَّعيم غارم" . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذىّ والدَّارَقُطْنِىّ وغيرهما ، وهو صحيح .

والإطراق : إعارة الفحل ؛ استطرق فلان فلانا فَحْلَه : إذا طلبه ليضرب في إبله ؛ فأطرقه إياه ؛ ويقال : أطرِقنى فحلك أى أعِرْنى فَحْلَك ليضرب فى إبلى . وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقا ؛ أى قَعَا عليها . وطَرُوقة الفحل : أُنثاه ؛ يقال : ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل .

الثـالثـة — قوله تعـالى : ﴿ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ « أنت » تأكيد للضمير الذى فى الفعل ؛ ومثله « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ » . ولا يجوز ٱسكن وزوجك ، ولا ٱذهب وربك ، إلا فى ضرورة الشعر ؛ كما قال :

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهَادَى * كنِعاجِ المَلَا تَعَسَّفْنَ رَمْلا (١)

(١) قائله عمر بن أبي ربيعة . و«زهر» جمع زهراء ، وهي البيضاء المشرقة . والتهادى : المشى الرويد الساكن . والنعاج : بقر الوحش . « تعسفن » : ركبن .

Marfat.com

ف. « زُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء ، وقد تقدّم القول فيه[(١)] . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة » ، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمَة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة " : فقال يارسول الله ، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم " . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام ، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه[(٢)] من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك ؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم ؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا ؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لما أُسكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلما نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها ؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟ ! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلىّ ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[(٣)] » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء ؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : و إنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .	(٢) الضلع ، كعنب وجذع .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧

Marfat.com

لك على طريقة واحدة فإن ٱستمتعت بها ٱستمتعت [بها](١) وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها " . وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألَا إنّ تقـويم الضلوع ٱنكسارها
أتجمـع ضَعفاً وٱقتـداراً على الفـتى * أليس عجيبا ضَـعفُها وٱقتـدارها

ومن هـذا الباب ٱستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللِّحية والثَّدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعْطى نصيب رجل — روى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى(٢) .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول فيها(٣) . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وٱستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لمـا وصل إليه إبليس، فإن الله يقول: « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(٤) » وقال: « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً(٥) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً . إِلَّا قِيلاً سَـلَاماً سَـلَاماً(٦) » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(٧) » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدْس ، قُدِّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال: أسأل الله الجنة؛ لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد. ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِىَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٣٤

Marfat.com

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لردّ على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التى أخرجهم الله عز وجلّ منهـا بخلاف الدار التى أُخرجوا إليها . وأما ما آحتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم آنتزعت منـه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هى جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعـالى من الخطايا بجهلٌ منهم؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُـوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصى؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخُـلْد وهو فى دار الخلد؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعِىّ وآبن وَثّاب بسكونها . والرَّغَد : العيش الدّارّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رَغَد (١)

ويقال : رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغـين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث، كلّها لغات، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو آمرؤ القيس؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

Marfat.com

السابعــــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه وقعت . قال ابن العربى : سمعت الشّاشىّ[1] فى مجلس النَّضْر [بن شُمَيل][2] يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَتَلَبَّس بالفعل، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشيءُ يقرُب قُرْبًا أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أَقْرَبه قِرْبانا أى دنَوْت منه . وقَرَبت أَقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لوِرْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمّا أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثالٌ بيّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تَقْرَبَا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة، وأن سكناه فيها لا يدوم؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا يُنْهَى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهَم يُنعت بمـا فيه الألف واللام لا غير، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهــذه الشجرة . وقـرأ ابن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(١) أى من غير تلك الشجرة .

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن ابن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » . والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .

وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ ؛ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

Marfat.com

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة، ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشَّجَرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار، وواد شَجير، ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعى يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة، بكسر اللام مخالفة لأخواتها. وقال سيبويه: الشَّجراء واحد وجمع، وكذلك القَصْباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهرى .

التاسعة — وٱختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهى عنها فأكل منها ؛ فقال ٱبن مسعود وٱبن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال ٱبن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة، والحبّة منها ككُلَى البقر، أحلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال ٱبن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التين(١)، وكذا روى سعيد عن قتادة؛ ولذلك تُعَبَّر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلى . قال ٱبن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبر، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها. وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العاشرة — وٱختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليها، فلم يتأوّلا النهى واقعا على جميع جنسها، كأن إبليس غرّه [بالأخذ](٢) بالظاهر . قال ٱبن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لاحنث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة . (٢) الزيادة من ٱبن العربى .

Marfat.com

مالك وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنث بأكل جنسه ، وإن اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد اختلف علماؤنا فى فرع من هذا ؛ وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال ابن المواز : لا شىء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة وإنما أكل خبزا فراعى الاسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما اشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأولا النهى على الندب . قال ابن العربى : وهذا وإن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ »(١) . وقال ابن المسيب : إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ابن العربى : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها ناسيا ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتما وجزما فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١) . ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضييعا صار به عاصيا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٣

Marfat.com

قلت : قولُ أبى أُمامة هذا عمومٌ فى جميعِ بنى آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان أوفر الناس حلمًا وعقلاً . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بنى آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَيْن وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبًا وحريرًا فقال : " هذان حرامان على ذكور أمتى " . وقال فى خبر آخر : "هذان مهلكان أمتى" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقــال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حــوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتى بيانه — وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهى أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشيء يُعمِى ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد؛ فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شىء سَلِمْتَ أنت ؛ فأكلتْ فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى ؛ فأكل فبــدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » فجمعهما فى النهى ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهىّ عنه منهما جميعًا ، وخَفِيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقــد آختلف علمــاؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال آبن القــاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بآجتماعهما فى الدخول ؛ حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحْنون . وقال آبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التى دخلت وحدها ؛ لأن دخول

Marfat.com

كل واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها . قال ابن العربى : وهذا بعيد؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا .

قلت : الصحيح الأول ، وإن النّهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار؛ فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّـٰلِمِينَ» جوابه؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا؛ فلما أكلت لم يصبها شىء؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملًا . وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ» . وقيل: نسى قوله : « إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ » . والله أعلم .

الثـانية عشرة — واختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رزيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر(١) وعند الأستاذ أبى إسحاق(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم . خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهـم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجّوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهـم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أُمرنا باتباعهم فى أفعـالهم وآثارهم وسِيَرِهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بامتثال أمرٍ لعلّه معصية، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى . وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر » وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

Marfat.com

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : وآختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بهـا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا؛ وكل ذلك وَرَد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها و إن قَبِل ذلك آحادها؛ وكل ذلك ممـا لا يُزْرِى بمناصبهم، و إنمـا تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهـة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلو أقدارهم ؛ إذ قـد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — و إن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبهم، بل قد تلافاهم وآجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصـله وضع الشيء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أُصَـيْلالًا أسائلها * عَيّتْ جواباً وما بالرَّبع مِن أحدِ
إلا الأَوَارِيّ(١) لَأْيًا ما أُبَيِّنهـا * والنُّؤْىُ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَدِ

ويُسمّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصـبح فى غبراءَ بعـد إشاحةٍ(٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشد به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه المـاء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

Marfat.com

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : * ... ظَلّامون لِلجُزُر[(١)] *

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة ؛ إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم وَطْبَه[(٢)] ؛ إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوب ويُخرج زُبْده . واللّبنُ مظلوم وظَلِيم . قال :

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سِقائى * وهل يَخْفَى على العَكِدِ الظَّلِيم[(٣)]

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك؛ قال الله تعالى : « إنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[(٤)] » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أمر، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وحذفها شاذّ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكُل؛ فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعام أَكْلًا ومأْكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تَشْبع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة؛ تقول : أكلت أُكْلَةً واحدة ؛ أى لُقْمة، وهى القُرْصة أيضا . وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك ؛ أى طُعْمَةٌ لك . والأُكُلُ أيضا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكْل ؛ إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف ؛ أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرّغد فى اللغة : الكثير الذى لا يُعَنِّيك؛ ويقال : أرغد القوم؛ إذا وقعوا فى خِصْب وسَعة . وقد تقدّم هذا المعنى[(٥)] . و﴿ حَيْثُ ﴾ مبنيّة على الضّم ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغة قيس وكِنانة الضّم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[(٦)] » وتُضمّ وتُفتح . ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من « هـٰذه » بدل من ياء الأصل؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل ؛ وهو بتمامه :

عاد الأذلّة فى دار وكان بها * هُرْتُ الشّقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢ (٥) راجع المسألة السادسة ص ٢٠٣ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

Marfat.com

إلا هاء « هـذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنـد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عبّاد قال : كان ٱبن كَثير وٱبن مُحَيْصن لا يُثْبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن ٱبن وَثّاب والنَّخَعِىّ أنهما سَكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفَرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهـذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحـاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَىَّ لَوْلَا ساكنُ الدّارِ لم أُقِمْ * بِتَا الدّارِ إلّا عابرَ ٱبن سـبيل

قال ٱبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزله ذى بإسقاط ها من هذى، و بمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء: مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛ لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على «تقربا» فلذلك حُذفت النون . وزعم الجَرْمِىّ(١) أن الفاء هى الناصبة ؛ وكلاهما جائز .

قوله تعـالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلّهما » بغير ألف ، من الزَّلة وهى الخطيئة ؛ أى ٱستزلّهما وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التَّنحية ؛ أى نَحّاهما . يقال: أزلته فزال . قال ٱبن كَيْسان : فأزالهما من الزوال؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى ؛ إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزَلّ . ودلّ على هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا(٢) » ، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم ؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

Marfat.com

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هي إدخالها في الزّلل بالمعصية ؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان ، إنما قدرته [على] إدخاله في الزلل ؛ فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه . وقد قيل : إن معنى أزلها من زلّ عن المكان إذا تنحّى ؛ فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال آمرؤ القيس :

يُزِلّ الغــلامَ الخِفَّ عن صَهَواته * ويُلْوِى بأثواب العَنِيف المثقّــلِ (١)

وقال أيضا :

كُمَيْتٍ يُزِلّ اللِّبْدَ عن حال مَتْنِه * كما زلّت الصّــفْواء بالمتــنزِّلِ (٢)

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال ؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة ، وليس كذلك ، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض ؛ لأنهما خلقامنها ، وليكون آدم خليفة في الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو ؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده ، بل آزداد سُخْنة عَين (٣) وغيظ نفس وخَيبة ظنّ . قال الله جلّ ثناؤه : «ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» (٤) فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جارًا له في داره ؛ فكم بين الخليفة والجار ! صلّى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس ؛ لأنه كان بسببه وإغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم ؛ وآختلف في الكيفية ، فقال آبن مسعود وآبن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة ؛ ودليل ذلك قوله تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم ، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه ، : دخل الجنة في فم الحيّة وهي ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر) : الخفيف . والصهوة : موضع اللبد من ظهر الفرس . ويلوى بها : يذهب بها من شدّة عدوه . والعنيف : الذى لا يحسن الركوب ، وليس له رفق بركوب الخيل . والمثقل : الثقيل .

(٢) الكميت : لون ليس بأشقر ولا أدهم . والحال : موضع اللبد من ظهر الفرس . والصفواء (جمع صفاة) : الصخرة الملساء . والمتنزل : الذى ينزل عليها فيزلق عنها .

(٣) سخنت عينه : نقيض قرّت . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٥٧

Marfat.com

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بهـا إلى حوّاء فقال: آنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها. ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء: كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا ياربّ؛ قال: ألا تخرج؟ قال أستحى منك يارب؛ قال: آهبط إلى الأرض التى خُلقت منها. ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أُمرنا بقتلها؛ على ما يأتى بيانه. وقيل لحوّاء: كما أدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا. زاد الطبرى والنقاش: وتكونى سَفِيهة وقد كنت حَليمة. وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان يجرى من آبن آدم مجرى الدم ". والله أعلم. وسيأتى فى الأعراف[1] أنه لما أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فآستتر به، فبُلِىَ بالعُرْى دون الشجر. والله أعلم. وقيل: إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا.

الثالثــة — يُذكر أن الحيـة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكّدت العداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها: أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَكَ منهم أحدٌ يَشْدَخ رأسك. روى آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن. وروى أن إبليس قال لها: أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى؛ فكان آبن عباس يقول: أَخْفِرُوا[2] ذِمّة إبليس. وروت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت: سمعت

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١.　(٢) أى آنقضوا عهده وذمامه.　(٣) فى التقريب: «بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المدّ». وفى أسد الغابة: «بفتح السين وإمالة الراء المشدّدة، وآخره ياء ساكنة».

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيدا " . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه في النار أبدًا " . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـــة — روى ٱبن جُريج عن عمرو بن دِينار عن أبي عبيدة[(1)] بن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ٱقتلوها " فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا " . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يبق[(2)] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيل : قد رُوى عن إبراهيم النَّخَعِي أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مُثْلَة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأثر الذي جاء : " لا تعذِّبوا بعذاب الله " فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » فنحن نأخذها من فيه رَطْبَة ، إذ خرجت علينا حيّة ، فقال : " ٱقتلوها " ؛ فٱبتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها " . فلم يُضرم نارا ولا ٱحتال في قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها ، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاها الله شركم " أي قتلكم إيّاها " كما وقاكم شرها " أي لسعها .

(1) كذا في جميع نسخ الأصل . وفي غيرها من التفاسير : « عن عبد الله بن مسعود » . ويبدو أن الأصل : « عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله » الخ .
(2) الضمير للحديث ؛ أي لم يبق هذا الحديث الخ .

Marfat.com

الخامســـة — الأمرُ بقتل الحيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المَخُوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله: "آقتلوا الحيّات وآقتلوا ذا الطُّفْيَتَين[1] والأبْتَر فإنهما يَخْطفان البصر ويُسقطان الحَبَل". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيــه، ولأنه كله مروِّع بصورته وبمـا في النفوس من النّفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الشّــجاعة ولو على قتــل حيّة". فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا: "آقتلوا الحيات [كلهنّ][2] فمن خاف ثأرهنّ فليس منّي". والله أعلم.

السادســـة — ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذَن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام: "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شــيئا فآذنوه ثلاثة أيام". وقد حمل بعض العلماء هــذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا: ولا نعلم هل أســلم مِن جنّ غير المدينــة أحدٌ أولا؛ قاله ٱبن نافع. وقال مالك: نهى عن قتــل جِنّان[3] البيوت في جميع البــلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ»[4] الآية. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه: وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتي بكماله في سورة «الجنّ»[5] إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرَّج[6] عليه ويُنذر؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين: حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين. (٢) الزيادة عن سنن أبي داود.

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان): ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير في بيوت الناس. (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ (٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد.

(٦) في هامش نسخة من الأصل: «التحريج هو أن يقول لها: أنت في حرج — أي في ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل». وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان.

Marfat.com

السابعـــة — روى الأئمة عن أبي السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبي سعيد الخُدْرِيّ في بيته، قال : فوجدته يصلّي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكا في عَراجين ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها، فأشار إليّ أن اجلس فجلست؛ فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم؛ فقال : كان فيه فتًى منا حديثُ عهد بعُرْس، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خُذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قُرَيْظَة ". فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع؛ فإذا امرأتُه بين البابين قائمة فأهْوَى إليها بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غَيْرَة؛ فقالت له : اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتاً، الحيّةُ أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : ادع الله يحييه [لنا](1)؛ فقال : " استغفروا لأخيكم(2) — ثم قال : — إنّ بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان ". وفي طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لهذه البيوت عوامر(3) فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم : — اذهبوا فادفنوا صاحبكم ". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذي قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا؛ لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون في العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى

(1) الزيادة عن صحيح مسلم . (2) في صحيح مسلم : « لصاحبكم » .
(3) العوامر : الحيات التي تكون في البيوت، واحدها عامر وعامرة .

Marfat.com

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وٱنتقاما . وقد قتلت سعد ٱبن عُبادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد ٱخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قـد قتلنا سـيّد الخزْ * رَج سعدَ بن عُباده
ورمينـاه بسهميـ * ـن فلم نُخْط فؤاده

و إنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرّز من قتل المسلم منهم و يتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ؛ فقالت : لوكان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بٱثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة؛ فتصدّقت وأعتقت رِقابًا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّـات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنـــة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنْذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار، وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام". وهو نص صحيح مقيِّد لتلك المطلقات، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنَانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

Marfat.com

عليه السلام ، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت : وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة؛ والحديث يردّه. والله أعلم. وقد حكى ٱبن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذيننا وألّا تظهرنّ علينا .

التاسعـــة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ — وٱسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يحـلّون ويَظعَنون ". وروى أبو الدَّرداء — وٱسمه عُوَيْمِر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم : " خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قـلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه " .

العــاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل ٱبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف؛ كالحيّة والعَقرب والفأر والوَزَغ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " خمسٌ فواسقُ يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم ... " . وذكر الحديث .

فالحيّة أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " ٱقتلوها ولو كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة[1] نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت. وهذا من نوع ما يُروَى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال :" مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

Marfat.com

قتل كافرا ". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " مَن قتل وَزَغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك " وفى راوية أنه قال : " فى أوّل ضربة سبعون حسنة " .

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبدالرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يَقتل المُحْرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُعَ العادىَ والكلبَ العقور والفُوَيْسقة ". وآستيقظ رسول الله صلى الله عليـه وسلم وقد أخذت فَتِيلةَ لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهـا .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبىّ الله نوح عليـه السلام من السفينة ليأتيـه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المـائدة »(١) وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ حُذفت الألف من « آهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهـاء بعدها . وروى محمد بن مصَفَّى عن أبى حَيْوَةَ ضمّ الباء فى « آهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان؛ فى قول آبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهـد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(٢) ومعه ريح الجنـة فعلِق بشجرها وأوديتها فآمتلأ ما هناك طِيباً؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليـه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع، فأورث ولده الصلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله آدم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٠٣	(٢) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

Marfat.com

وطوله ستون ذراعا " الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلّة[١]، والحيّة بِبَيْسان[٢]، وقيل : بسِجِسْتان[٣] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ[٤] الذى يأكلها ويفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ «بعضكم» مبتدأ ، «عدو» خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدو : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخـوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هـذا الأمر؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوا لمجاوزة الحـد فى مكروه صاحبه؛ ومنه العَـدْوُ بالقدَم لمجاوزة الشيء، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ وإن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليـه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه آتق الله فينا فإنك إذا آستقمت آستقمنا وإن آعوججت آعوججنا " . فإن قيل : كيف قال « عدو » ولم يقـل أعداء؛ ففيه جوابان أحدهما : أن بعضًا وكُلًّا يُخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »[٥] على اللفظ، وقال تعـالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ »[٦] على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »[٧] بمعنى أعداء، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَـدُوُّ »[٨] . وقال آبن فارس : العدو آسم جامع للواحد والآثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .
(٢) بيسان : بلدة بمرو وبالشام وموضع باليمامة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : آسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربد (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠ (٨) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥

Marfat.com

الثالثـــة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبِل توبته ، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمِحْنة . والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قـد ظهر من الحكمة الأزليّة في ذلك ، وهي نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِيّ ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقـد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا ٱهْبِطُوا »(١) وسيأتي .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ٱبتـداء وخبر ؛ أي موضع ٱستقرار . قاله أبو العالية وٱبن زيد . وقال السُّدِّيّ : « مُسْتَقَرّ » يعني القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً »(٢) يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبْس وحيـاة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتَّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ٱبنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ ٱختلف المتأولون في الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقَرّ هو المقام في الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقَرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِي الرَّماد(٣) عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه * حِينَ الشتاءِ كحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفًا ؛ أي تهوّر من أسفله وٱتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٨ (٣) كابي الرماد : أي عظيم الرماد .

Marfat.com

والحين أيضـا : المدّة ؛ ومنه قوله تعـالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(١) . والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ »(٢) . قال آبن عَرَفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ»(٣) أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »(٤) أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرى : الحين آسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البَتَّةَ . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغُدْوَة والعَشِيّة ؛ قال الله تعـالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »(٥) . ويقال : عاملته مُحَايَنَةً ؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حِينًا . وحان حِينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَة :

وإنّ سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولاحان حينُها

السابعـــة — لمـا آختلف أهل اللسان فى الحين آختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفَـرّاء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا »(٥) ستة أشهر . قال آبن العربى : الحين المجهول لا يتعلّق به حُكم ، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام و يرتبط به التكليف ؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمـان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيـه نص عن صاحب الشريعة ، وإنمـا المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نَذَر أن يصلّى حِينًا فيُحمل على ركعة عنـد الشافعى ؛ لأنه أقل النافلة ، قياساً على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان ؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر آبن خُوَيْز مَنْداد فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حِينًا أو لا يفعل كذا حينًا ، أن الحين سنة . قال : وآتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع ج ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع ج ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع ج ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع ج ١٤ ص ١٤

Marfat.com

قلت : هذا الاتفاق إنمـا هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : مَن حلف ألا يفعل شيئا إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عبـاس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشّعْبىّ وعَبِيـدة فى قوله تعالى . « تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » أنه سـتة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيـد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا . وقال: لا نُحَنّثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعىّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغـة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلمـاء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمـان مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تلقّى قيـل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ، وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْى؛ أى يستقبله و يأخذه و يتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّى مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنمـا يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص . ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشـبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تَقَبّى مِن تقبّل ، ولا تلقّى مِن تلقّن؛ فاعلم . وحَكَى مكىّ أنه أُلهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلّمه لها وعمله بها .

Marfat.com

الثانيـــة — وٱختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال ٱبن عباس والحسن وسـعيد ٱبن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ »(١) . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إلٰه إلا أنت ربّى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوبا على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل: الندم والآستغفار والحزن . قال ٱبن عطية : وهذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الآستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى »(٢) . وقال يونس : « لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »(٣) . وعن ٱبن عباس ووهب بن مُنَبِّه : أن الكلمات « سبحانك اللّهمّ وبحمدك، لا إلٰه إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فٱغفر لى إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك، لا إلٰه إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم » . وقال محمد بن كعب هى قوله : « لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فٱرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فٱرحمنى إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم(٤) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أى قَبِل توبته ، أو وفّقه للتّوبة . وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع ج ٧ ص ١٨١ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٦١ (٣) راجع ج ١١ ص ٣٣٣

(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

الرابعــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» و «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» . فالجواب : أن آدم عليه السلام لما خوطب في أوّل القصة بقوله : « ٱسْكُنْ» خصّه بالذكر في التلقّي؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر، كما لم يذكر فَتَى موسى مع موسى في قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا » (١) أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ؛ والمعنى متقارب . وقال الشاعر (٢) :

رماني بأمر كنتُ منه ووالدي * بريئًا ومن فوق الطَّوِيّ (٣) رماني

وفي التنزيل : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٤) » فحذف إيجازا وٱختصارا .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب، وتكرر في القرآن معرّفا ومنكرا وٱسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا توّاب؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٥) » . قال ٱبن العربي : ولعلمائنا في وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز في حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعَى به كما في الكتاب والسّنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقيّ لله سبحانه وتعالى؛ وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ . (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلي . (٣) الذي في شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمري : « وصف في البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة في بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما » . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

Marfat.com

السادســـة — لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى : تائب، ٱسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليـه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليـه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان في اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيّناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ »(١) . وقال : « وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »(٢) . وإنما قيل لله عزّ وجل : توّاب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعــة — اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة ؛ لأنّ الله سبحانه وتعـالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهـذا الأصل العظيم في الدّين « ٱتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ ٱللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنوبه « ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٣) .

الثامنــة — قرأ ٱبن كثير : « فتلقّى آدمَ مِنْ رَبِّهِ كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى ؛ لأنّ آدم إذا تلقّى الكلمات فقـد تلقته . وقيـل : لمـا كانت الكلمات هي المنقـذة لآدم بتوفيق الله تعـالى له لقبوله إياها ودعائه بهـا كانت الكلمات فاعلة ، وكأن الأصل على هـذه القراءة « فتلقّت آدمَ مِن ربه كلماتٌ » ؛ لكن لمّـا بعـد ما بين المؤنث وفعـله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهـذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعـل المؤنث بغير علامة ؛ ومنـه قولهم : حضر القـاضي اليوم ٱمرأة . وقيـل : إن الكلمات لمّـا لم يكن تأنيثـه حقيقياً حُمِـل على معنى الكَلِم ، فذُكِّر . وقـرأ الأعمش : « آدمْ مِّن ربه » مدغمـا . وقرأ أبو نوفل بن أبي عقرب : « أنه » بفتح الهمـزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر البـاقون على الاستئناف . وأدغم الهـاء في الهـاء أبو عمـرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهـم . وقيـل : لا يجوز ؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

Marfat.com

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو ، وأنشـد :

له زَجَلٌ كأنّهُ صَـوْتُ حادٍ * إذا طَلَب الوَسِـيقةَ أو زَميرُ (١)

فعلى هـذا يجوز الإدغام ، وهو رفع بالأبتداء . « التوّاب » خبره ، والجمـلة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ؛ على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جبير : لمـا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النَّسر فى البر ، والحوت فى البحر ؛ فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد أُهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه و يبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى ، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعـالى : قُلْنَـا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قلنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قمْ قمْ . وقيـل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهمـا حُكمًا غيرَ حُكم الآخر ؛ فعلّق بالأوّل العداوة ، و بالثانى إتيـان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيـه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دلّ عليـه حديث الإسراء ؛ على ما يأتى (٢) .

﴿ جَمِيعًـا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبّه : لمـا هبط آدم عليـه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لمـا فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى و يطرب بها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

Marfat.com

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر في ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرّقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقي معه ومع أولاده . وقال الترمذيّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لـمّا أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم(١) على آدم ليؤذوه، وكان أشدّهم عليه الكلب، فأُميت فؤاده؛ فروى في الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمي بمَدَرٍ ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهِرّ ويعدو على الآدميّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه(٢) على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب، على ما يأتي بيانه في « الأعراف »(٣) إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التي جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ اختلف في معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله؛ قاله السُّدّي . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر ؛ كما جاء في حديث أبي ذرّ ، وخرّجه الآجُرّي . وفي قوله : « مِنِّي » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى ؛ خلافًا للقدرية وغيرهم ؛ كما تقدّم(٤) وقرأ الجَحْدَريّ « هُـدَيّ » وهو لغـة هذيل، يقولون : هُـدَيّ وعَصَيّ ومَحْيَيّ . وأنشد النحويون لأبي ذُؤَيب يرثي بنيه :

سَـبَقُوا هَوَيّ وأعنقوا لهواهمُ * فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ(٥)

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٢ (٤) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .

(٥) « هويّ » : يريد هواي ؛ أي ماتوا قبلي وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » بجعلهم كأنهم هووا الذهاب الى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أي أخذوا واحدا واحدا .

Marfat.com

قال النحاس : وعلّة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تُحرّك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » فى قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التى للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : « فَمَنْ تَبِـعَ » . و « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . و « تبع » فى موضع جزم بالشرط . « فَلاَ خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثـانى وجوابه همـا جواب الأوّل . وقال الكسائىّ : فلا خَوْفٌ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعـالى : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر، ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فخُفْتُه؛ أى كنت أشدّ خوفًا منه . والتخوّف : التنقّص؛ ومنه قوله تعـالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »[(١)] . وقرأ الزُّهْرِىّ والحسن وعيسى بن عمر وٱبن أبى إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن « لا » لا تعمل فى معرفة، فٱختاروا فى الأوّل الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» فى قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِىَ عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . وٱحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى فى الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لمـا وصفه الله تعالى ورسوله من شـدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، و إذا صاروا إلى رحمته فكأنهـم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَـآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ هُمْ فِيهَـا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أشركوا؛ لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء فى حالة مّا، فى زمان مّا ؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهى كمال الصحبة؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لهـا . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على مانبيّنه فى « براءة »(١) إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدم معناها والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ٱبن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ ؛ فمن قال : المحذوف منه واو ٱحتج بقولهم : البنوة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوة، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ٱبن بيّن البنوة، والتصغير بُنَيّ . قال الفراء : يقال : يابُنَيِّ ويابُنَيَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزى : وليس فى الأنبيـاء من له ٱسمان غيره، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه ٱسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه الله رُوحًا وكَلِمة، وكانوا يسمّونه أبيل الأبيلين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى «دلائل النبوة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو ٱسمين ، محمد وأحمـد نبينا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

Marfat.com

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسمـاء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها في مواضعها .

وإسرائيل : اسم أعجمى ، ولذلك لم ينصرف ؛ وهو في موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . وإسرائيل ، بمدّة مهموزة مختلسة ، حكاها شنبوذ عن وَرْش . وإسراييل ، بمدّة بعد اليـاء من غير همز ، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ؛ وقرأ الحسن والزهرىّ بغير همز ولا مدّ . وإسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . وإسراءَل ، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين ، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه ؛ ذكره المهدوى . وقال السُّهيلى : سمى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى ؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا ؛ فيكون بعض الاسم عبرانياً وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان ، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء بلسانى وقلبى ذِكرا . واجعله منـك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنسـه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهـو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف ؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) . قال ابن الأنبارى : والمعنى في الآية اذكروا شكر نعمتى ؛ فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب ؛ أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها ؛ وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس ، فهى مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) أى نعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوى ، وفجّر لهم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣	(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

Marfat.com

من الحجر الماء ، إلى ما آستودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته . والنعم على الآباء نعم على الأبناء ، لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيــه — قال أرباب المعانى : ربط سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره ، فقال : « آذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ »(١) ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابه . وقرأ الزهرىّ : « أُوَفِّ » (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير . وآختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ »(٢) ، وقوله : « وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا »(٣) . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(٤) . وقال الزجاج : « أوْفُوا بعهدى » الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، « أوف بعهدكم » بما ضمنت لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : « أوْفُوا بعهدى » فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، « أوف » بقبولها منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : « أَوْفُوا بعهدى » فى العبادات ، « أوف بعهدكم » أى أوصلكم إلى منازل الرعايات . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى حفظ آداب الظواهر ، « اوف بعهدكم » بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ » ، « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضّل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرَّهْبُ والرَّهَبُ والرَّهْبَة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية . وقرأ آبن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٠٢ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

Marfat.com

أبي إسحاق: « فٱرْهَبونِى » بالياء، وكذا « فٱتّقونِى »؛ على الأصل . « وإيّاىَ » منصوب بإضمار فعـل ، وكذا الآختيـار فى الأمر والنهى والآستفهام ؛ التقـدير : وإياى آرهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فٱرهبون؛ على الآبتداء والخبر . وكون « فٱرهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فٱرهبون .

قوله تعـالى : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَـآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَـا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدِّقوا ؛ يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى « أنزلت »؛ التقدير بما أنزلته مصدقا ؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزال . ﴿ لِمَـا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم ؛ قاله أبو العالية . وقال آبن جُريج : هو عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : « بِمَـا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة، إذ تضمنها قوله : « لِمـا معكم » .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين ؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أوّل فريق كافر به . وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أوّل من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتًى وأجمله . وقال : « أوّلَ كافرٍ به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هـذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم عِلم . و « أوّل » عنـد سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل ؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين : العين والفـاء ؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو مِن وَأَلَ إذا نجا ؛ فأصـله أوْأَل ، ثم خُفّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

Marfat.com

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهري : « والجمع الأوائل والأوالي أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوّل على فَوْعَل، فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أأْوَل ، قلب بجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مسألة — لا حُجّة في هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهي عن الكفر أوّلا وآخرا ؛ وخصّ الأوّل بالذكر لأن التقدّم فيه أغلظ[1]، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا؛ أي على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفي كتبهم : يابن آدم عَلّم مجانا كما عُلّمت مجانا ؛ أي باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامري ونواهيّ وآياتي ثمنا قليلا ، يعني الدنيا ومدّتها والعيش الذي هو نزر لا خطر له ؛ فسُمّي ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا ؛ لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليه آسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنباً أو ظفِرتَ به * فما أصبتَ بترك الحج من ثمن

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو آمتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه

---

(١) في نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

Marfat.com

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تعلّم علماً ممـا يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجـد عَرْف الجنة يوم القيامة" يعنى ريحها .

الثانيــة — وقد آختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهرِىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نيّة التقرب والإخلاص؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا» . وروى آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين" . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين ؟ قال : "درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء" . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علّمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسًا؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فقال : "إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فأقبلها" . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء؛ لقوله عليه السلام فى حديث آبن عباس — حديثِ الرُّقْيَة — : "إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله" . أخرجه البخارى ؛ وهو نصّ يرفـع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه فى مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، وهو أن الصـلاة والصوم عبادات مختصّة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة؛ ويجوِّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شِعرا أو غناء معلوما بأجرٍ معلوم؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

Marfat.com

وأما الجواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته ، و إلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لما ولى الخلافة وعُيّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق؛ فقيل له فى ذلك، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، و إنما رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند أهل العلم (١) ولكنه له مناكير، هذا منها ، قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أَعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للعلم و براءة لأبويه من النار" .

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

Marfat.com

الثالثــة ــ وآختلف العلماء فى حكم المصلى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك انه سئل عن الصلاة خلف من آستُؤْجِر فى رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ على ما تقدّم . قال آبن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهـذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعـالى . وكره آبن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال آبن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللَّخْمِىّ : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبـه . وأما الغناء والنَّـوح فممنوع على كل حال .

الرابعــة ــ روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد آبن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانىّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة ــ وهو يريد مكة ــ فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرَفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد آبن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم، مالنا نكره المـوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده؟ قال :

Marfat.com

«إنّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» (١) . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبوحازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع آجتناب المحارم . قال سليمان: فأى الدعاء أسمع؟ قال: دعاء المحسَن إليه للمحسِن. فقال: أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ (٢) ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل آنحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أوَ تُعفيني؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عَنْوَة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقـد آرتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتمسَّكُون بالمروّة وتقسمون بالسّويّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه مِن حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك . قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فآدع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، و إن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قَطْ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٤٧ (٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

Marfat.com

إن كنت من أهـله ، و إن لم تكن من أهله فمـا ينبغي أن أرمى عن قوس ليس لهـا وَتَر . قال له سليمان : أوْصني، قال : سأُوصيك وأُوجِز : عظِّم ربك، ونَزِّهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك . فلمـا خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار، وكتب [إليه][1] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سـؤالك إيّاى هَزْلًا أو ردّى عليك بَذْلا[2] ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها][1] لنفسى ! إن موسى بن عِمران لمـا وَرَد ماءَ مَدْيَن وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نَسق حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير][1] ؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظّل فقال : رَبِّ إنى لمَـا أنزلتَ إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة و بقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هـذا رجلٌ جائع . فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك لِيَجزِيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوْحشًا . فلمـا تبعها هبّت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرض مَرّة و يغض أخرى؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كونى خلفى، وأرِينى السّمت بقولك . فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيَّأ؛ فقـال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليه السـلام : أعوذ بالله ! فقـال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضًا لمَـا سقيتُ لهما ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضًا لمـا حدّثتُ فالميتة والدّمُ ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هذه ، و إن كان لحق فى بيت المـال فلى فيها نظراء؛ فإن ساوَيْت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

(١) الزيادة عن مسند الدارمى . (٢) بذلا : أى راجيا بذلك وعطاءك .

Marfat.com

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضًا ، ولا على وصيّته بَدَلًا ، ولا على نصيحته صَفَدًا[(1)] ؛ بل بيّن الحق وصَدَع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فَزَع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يمنعنّ أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ[(2)] » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقدّم معنى التقوى[(3)] . وقرئ « فاتقونى » بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله « وإيّاىَ فاتقونِ » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وإيّاىَ فارهبونِ » قال : موضع المكر والاستدراج[(4)] ؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[(5)] » ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ[(5)] » . فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر أَلْبِسه ، إذا مزجتَ بيِّنه بمشكله وحقَّه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ[(6)] » . وفى الأمر لُبْسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعْرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صَدِّق مقالته واحذَر عداوته * والبس عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

(1) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (2) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (3) راجع ص ١٦١ وما بعدها .
(4) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : « وقال سهل : « وإياى فارهبون » موضع اليقين بمعرفته ، « وإياى فاتقون » موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .
(5) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٥٤ . (6) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

Marfat.com

وقال العَجّاج :

لمـا لَبَسْنَ الحــقَّ بالتّجَنّي * غَنِينَ واستبدَلْن زيدًا منّي

روى سعيد عن قتـادة فى قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ »، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسـلام، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجـزى إلا به — الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتيبةٍ لَبّستها بكتيبة *

أنه من هـذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية؛ أى لا تُغَطّوا . ومنـه لبس الثوب ؛ يقال : لبست الثوب ألْبَسه . ولبـاس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدى :

إذا ما الضّجيع ثَنَى جِيـدَها * تَثَنّتْ عليـه فكانت لبـاسَا

وقال الأخْطل :

وقـد لَبِستُ لهـذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[(١)] . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس؛ أى مستمتع . قال :

ألَا إن بعـد العُـدْم للمـرء قِنْـوة[(٢)] * وبعـد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل. قال لبيد:

* ألَا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشيء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضـياعا وخسرا][(٣)]، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلاً ؛ أى هَـدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمّى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهـم لـواء بأيـدى ماجدٍ بطـلٍ * لا يقطع الخـرق إلا طرفُـه سامى

(١) راجع ج ١١ ص ٣٢٠ (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .
(٣) الزيادة عن اللسان .

Marfat.com

والمرأةُ بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة (١) ؛ أى صار شجاعا . و بطَل الأجير (بالفتح) بَطَالة؛ أى تعطّل، فهو بطّال. وٱختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فرُوى عن ٱبن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقّ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال ٱبن زيد : المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليــه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول ٱبن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن، التقــدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال ٱبن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سِيرِين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليــه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنــون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وســلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، و إنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ (٣) النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقــله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمْرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيــه ؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة وٱشتقاقها وفى جملة من أحكامها[(١)] ، والحمد لله .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمْرٌ أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيتــه : أعطيته؛ قال الله تعـالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته — بالقصر من غير مَدّ — جئته ؛ فإذا كان المجىء بمعنى الآستقبال مُدّ ؛ ومنــه الحديث : ” ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه “ . وسيأتى .

الثالثــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نمـا وزاد؛ يقال : زكا الزرعُ والمـال يزكو ؛ إذا كثر وزاد . ورجل زكى ؛ أى زائد الخير . وسُمّىَ الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منــه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكِّى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت النـاقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة ❊ لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعْتَلِجُ

جمع جَدّ؛ وهو الحظّ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . فخسًا : الفردُ، وزكًا : الزّوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثنـاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أى طهر من دنس الجَرْحة والإغفال[(٢)] . فكأن الخارج من المـال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ الناس ؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا[(٣)] » .

الرابعـــة — وٱختلف فى المـراد بالزكاة هنـا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتهـا بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك فى سماع ٱبن القاسم .

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء . (٢) فى نسخة : «أو الإغفال» وكذا فى تفسير ٱبن عطية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .

Marfat.com

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق(1) ولا فيما دون خمس ذَوْدٍ(2) صدقة ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الورق " . وروى البخارىّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا(3) العُشْرُ وما سُقِى بالنَّضح(4) نصفُ العُشر " . وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام »(5) إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »(6) . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوله مالك هنا ، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »(7) . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث . وسيأتى ، فأضافها إلى رمضان .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَارْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الانحناء بالشخص ؛ وكل منحنٍ راكع . قال لَبِيد .

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ابن دُرَيد : الركعة الهُوَّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

---

(1) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (2) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (3) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سيحا ، والأول أشهر » . (4) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار . (5) راجع جـ ٧ ص ٩٩ . (6) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ . (7) راجع جـ ٢٠ ص ٢١ .

Marfat.com

السادســة — وآختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر، فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده، فقد جعل الشرع القراءة [عبارة](١) عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها، فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أي صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة". وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران بن حُصين — للنبيّ صلى الله عليه وسلم : على ألّا أخِرّ إلا قائمًا . فمن تأويله على ألّا أركع ؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه آطمأنت بذلك نفسه وآمتثل ما أمر به من الركوع.

السابعــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه و يمدّ ظهره وعنقه و يفتح أصابع يديه و يقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا، وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشخص(٢) رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه ، و إذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر(٣) ظهره ؛ الحديث .

الثامنــة — الركوع فرض ، قرآنا وسُنّة، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا(٤)» . وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الإشخاص : الرفع والتصويب : الخفض .
(٣) هصر ظهره : أى ثناه إلى الأرض . (٤) راجع ج ١٢ ص ٩٨

Marfat.com

آنبساط الكلب "، وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضَع كفيك وآرفع مرفقيك "، وعن ميمونةَ زوج النبيّ صلى الله عليــه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه — يعني جنح حتى يرى وَضَحُ إبطيه من ورائه — و إذا قعد آطمأن على فخذه اليسرى .

التاســعة — وآختلف العلماء فيمن وضــع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوريّ وأحمد، وهو قول النَّخَعِيّ . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر، وبه قال أبو خَيْثَمة[1] وآبن أبي شيبة . قال إسحاق : إن سجــد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، ورُوِي عن آبن عباس وســعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وآبن سِيرين والحسن البصري؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال آبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال آبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حُميد ، وقد تقدّم . وروى البخاري عن آبن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر " . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبي . وفي نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

Marfat.com

العـاشرة ــ ويكره السجود على كَوْر العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضـل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليـه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبـل دخوله في الصلاة، فإن لم يفعـل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقِيب أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال في الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم في شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يسـتطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحـادية عشرة ــ لمـا قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهـا ما يُسمَّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتـة في إلغاء الصـلاة . قال ٱبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتـدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح في الأثر، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر؛ وهى رواية ٱبن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القـاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن ٱبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لٱبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فمـا لكم أنتم وقد ٱنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدَّارَقُطْنِيّ وعليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى ، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلمـا جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك ٱرجع فصلّ فإنك لم تصلّ " . قال همام (١) : فلا ندرى، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

Marfat.com

ما أَلَوْتُ ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسِل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال: — لا تتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبيّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتى بيانه هناك(1) إن شاء الله تعالى . روى البخاريّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعِيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد آختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال آبن عبد البر: وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ(2) بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث آبن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(1) راجع جـ ١١ ص ١٢١ . (2) الفذ : المنفرد .

Marfat.com

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا في المسجد" خرّجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنـذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبيّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلي في بيته ؛ فرخص له ؛ فلما ولّى دعاه فقال : "[هل] (١) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال: "فأجب" . وقال أبو داود في هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرجه من حديث ابن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منـه الصلاة التي صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدي . والصحيح موقوف على ابن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أَصْبَغ ذكره في كتابه فقال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدي روى عنه أبو إسحاق. وقال ابن مسعود: ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام: "بيننا و بين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال ابن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعريّ . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

الله صلى الله عليـه وسلم : "لقد همَمت أن آمر فِتْيتى فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم عِلّة فأحرقها عليهـم" . هذا ما احتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة؛ بدليل حديث ابن عمر وأبى هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم: "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . بيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم،ولو تركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضلَلتم؛وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة،ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى[(١)] بين الرجلين حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الاجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِياض : اُختلِف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بضعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزه[(٢)] إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخط خُطوة إلا رُفع له بهـا درجةً

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

Marfat.com

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهمّ ٱرحمه اللّهمّ ٱغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه". قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — وٱختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنمـا يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد؛ لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث؛ قولان . والأول أظهر؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وٱختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال ٱبن حبيب : نعم؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله" . رواه أُبَىّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنمـا يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيتـه؛ وأمّا من صلّى فى جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيد فى جمـاعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل وإسحاق بن راهُوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمَان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبِي والنَّخَعِي؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

ٱحتج مالك بقوله صلى الله عليــه وسلم : "لا تُصلّى صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلّوا . رواه سليمان بن يَسار عن ٱبن عمر . وٱتفق أحمـد وإسحاق على أن معنى

Marfat.com

هـذا الحديث أن يصلي الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُـنّة أو تطوع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة في جماعة : "إنها لكم نافلة" . من حديث أبي ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبي مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلَمُهم بالسُّنة فإن كانوا في السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا في الهجرة سـواءً فأقدَمُهم سِلْماً ولا يؤمَّنّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه ولا يقعد في بيتـه على تَكرِمتِه إلا بإذنه" وفي رواية "سِـنّاً" مكانَ "سِلْماً" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذي وقال : حديث أبي مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّي به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّي صاحب البيت . قال ٱبن المنذر : رَوَينا عن الأشعث ٱبن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم ٱبن سِيرين والثوريُّ و إسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال ٱبن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، و إن للسنّ حقاً . وقال الأوزاعي : يؤمهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعي وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث في الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ، لأنهم كانوا يتفقهون في القرآن، وقد كان مِن عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ وٱستدلّوا بتقديم النبيّ صلى الله عليـه وسلم في مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر في التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبي هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم وإن كان أصغركم وإذا أمكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت في صحيح البخاريّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء مَمَرِّ(١) الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحَى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقَرّ(٢) في صدري ؛ وكانت العرب تَلَوَّم(٣) بإسلامها فيقولون : آتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا لِمَا كنت أتلقّى من الركبان ، فقدّموني بين أيديهم وأنا آبن ست أو سبع سنين ، وكانت عليّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصت عني ، فقالت آمرأة من الحيّ : ألا تغطُّون(٤) عنا آسْتَ قارئكم ! فآشتروْا فقطعوا لي قميصا ، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبيّ غير البالغ الحسنُ البصري وإسحاقُ بن راهَوَيْه ، وآختاره آبن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو آبن سَلِمة . وقال الشافعي في أحد قوليه : يؤم في سائر الصلوات ولا يؤم في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته في المكتوبة أجزأت إمامته في الأعياد ، غير أني أكره فيها إمامة غير الوالي . وقال الأوزاعيّ : لا يؤم الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهري : إن آضطروا إليه أمَّهم . ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثوريُّ وأصحابُ الرأي .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على آستقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أمّ القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، ويجوز فتحها ؛ أي موضع مرورهم . (٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفي رواية « يقرا » بألف مقصورة أي يجمع ، أو بهمزة من القراءة . وفي رواية « يغرى » أي يلصق .
(٣) تلوّم : تنتظر . (٤) في الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له .

Marfat.com

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ويضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ وإن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته ؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثلَه . ولا يجوز الأئتمام بآمرأة ولا خُنْثَى مُشْكِل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أُمّيّ ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتى ذكره ، إلا الأُمّيّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأُمّيّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أُمّياً مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأُمّيّ بقوم يقرءون وبقوم أُمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كُلًّا مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا ؛ لأن كُلًّا مؤدٍّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلّى][(١)] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت آمرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشلّ والأقطع والخصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال آبن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم آستخلف آبن أم مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونظرا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان آبن عباس وعتْبان آبن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى ؛ وعليه عامّة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

التاسعة عشرة — وآختلفوا في إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبي رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصري والزُّهري والنَّخَعيّ وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد و إسحاق. وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأي، وغيره أحبّ إليهم. وقال الشافعي: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك في إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شيء. ونحوه قال آبن عبد الحكم إذا كان في نفسه أهلاً للإمامة. قال آبن المنذر: يؤم لدخوله في جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤم القومَ أقرؤهم". وقال أبو عمر: ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ و إنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح في الدِّين.

الموفية عشرين — وأما العبد فروى البخاريّ عن آبن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُباء — قبل مقدم النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبي حُذيفة وكان أكثرهم قرآنا. وعنه قال: كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في مسجد قُبَاء، فهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف. قال آبن المنذر: وأَمّ أبو سعيد مولى أبي أسيد — وهو عبد — نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص في إمامة العبد النَّخَعِيُّ والشعبيُّ والحسنُ البصريّ والحكمُ والثوريُّ والشافعيّ وأحمد و إسحاق وأصحابُ الرأي؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون في عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعي إن صلوا وراءه. قال آبن المنذر: العبد داخل في جملة قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يؤم القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخاريّ عن أبي بكرة قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

Marfat.com

آمرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لهـا مؤذّنا يؤذّن لهـا وأمرها أن تؤم أهـل دارها . قال عبـد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال آبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم. وهذا قياس قول المُزَنِى .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى آبن أَيْمَن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنْثَى المشكل فقـال الشافعى : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيـة والعشرون — الكافر المخـالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمـد يقولان : لا يجزئهم ويعيدون . وقاله مالك وأصحابه ؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمُزَنِى : لا إعادة على مَن صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلمًا عنـد الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ ، وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجَور ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال آبن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعـة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال آبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

---

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

Marfat.com

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمّنّ آمرأة رجلا ولا يؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّنّ فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدْعان عن سعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكُّوا صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدّارَقُطْنِي . وقال فيه أبو أحمد بن عَدِىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدُكم فيما بينكم و بين الله " . قال الدّارقطني : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام لِيُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فآركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فآسجدوا و إذا صلى جالسا فصلّوا جلوسًا أجمعون " .

وقد آختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِىَ عن آبن عمر . ذكر سُنَيد قال حدّثنا آبن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صلّيت إلى جنب آبن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ آبن عمر بيدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان ؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

Marfat.com

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعـل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها و إن أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا: ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد اقتدى و إن كان يرفع قبله و يخفض قبله؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسيء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام؛ لأن الإتبـاع الحسيّ والشرعى مفقود، وليس الأمر هكذا عنـد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأوّل؛ فإن الإمام إنمـا جُعل ليؤتم به و يُقتدَى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا »(١) أى يأتمّون بك؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : " إذا كبّر فكبّروا " الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب، وهو المبيِّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : " أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار" . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنمـا ناصيته بيد شيطان . وقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " كلُّ عملٍ ليس عليـه أمْرُنا فهو ردٌّ" . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالمـا بأنه مأمور باتباعه منهيّ عن مخالفته فقـد استخف بصلاته وخالف ما أُمر به؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهيًا قبل الإمام فقال مالك رحمـه الله : السُّنّة فيمن سهـا ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعـله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إنمـا جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٧

Marfat.com

فلا تختلفوا عليه" . قال ٱبن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله »؛ لأن الساهي الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِيَ عن الشافعيّ في أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر ٱنصرف وأومأ إليهم — أي كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال : "إني كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا » في «النساء»(١) إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : "ٱستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ ٱختلافا . زاد من حديث عبد الله : "وإيّاكم وهَيْشات(٢) الأسواق" . وقوله : "ٱستوُوا" أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذي يلي الإمام، على ما يأتي بيانه في سورة « الحجر »(٣) إن شاء الله تعالى . وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — وٱختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لٱختلاف الآثار في ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفضي المصلّي بأَلْيَتَيْه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويَثْني رجله اليسرى؛ لما رواه في مُوَطّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أراني هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثني أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ (٢) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وٱرتفاع الأصوات .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

Marfat.com

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسـلم عن عائشة قالت · كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمـد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّبه، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائمـا ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرُش رجـله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينْهَى عن عُقْبـة الشيطان[1] ، ويَنْهَى أن يفترش الرجل ذراعيه آفتراش السَّبُع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحـديث — والله أعلم — قال آبن عمر : إنمـا سُنّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثّورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صـالح بن حَىّ : ينصب اليمنى و يقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر ؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمـد وإسحـاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميـد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكبَيه ، و إذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره ، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصـابع رجليه القبـلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجـله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة ؛ فلما آنصرف نهانى فقال : آصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال آبن الأثير : « هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ؛ وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

Marfat.com

كلها وأشار بأصبعه التى تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال آبن عبـد البر : وما وصـفه آبن عمر من وضـع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهـا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة فى الجلوس فى الصلاة مُجْمَعٌ عليه ، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها ، وحسبك بهذا . إلا أنهم آختلفوا فى تحريك أصبعه السبابة ، فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهـم من لم يره . وكل ذلك مروِىّ فى الآثار الصحاح المسندة عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمـد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبى مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسـلم ثم لقيته فسمعته منه وزادنى فيـه : قال : " هى مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود فى حديث آبن الزبير أنه عليـه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . وإلى هذا ذهب بعض العراقيين، فمنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها، إلا أنهم آختلفوا فى الموالاة بالتحريك على قولين؛ تأوّل مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور فى الصلاة ؛ وبأنهـا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنـد التلفظ بكلمتى الشهادة، وتأوّل فى الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد؛ والله أعلم .

الحادية والثلاثون ــ وآختلفوا فى جلوس المرأة فى الصلاة؛ فقال مالك : هى كالرجل، ولاّ تخالفه فيما بعـد الإحرام إلا فى اللباس والجهر . وقال الثورىّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِى . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهـا . وهو قول الشَّعْبى : تقعد كيف تيسر لهـا . وقال الشافعىّ : تجلس بأستر ما يكون لهـا .

Marfat.com

الثانيـة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنـا لآبن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال: هى السُّنّة ؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال آبن عباس : [بل](١) هى سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد آختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال آبن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمَع عليه لا يختلف العلماء فيـه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضي عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه آبن عباس إنه من السُّنّة، الذى فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّرا عن آبن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضي : وقد رُوى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوْه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن آبن طاوس عن أبيه أنه رأى آبن عمر وآبن عباس وابن الزبير يُقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلمـاء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حَىّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال آبن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسـلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها آسم تسليم .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[(١)] السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمي وحديث عمّار وحديث البَراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبي وقّاص أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدّراوَرْدي كلُّهم عن عمرو بن يحيي المازني عن محمد بن يحيي بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهذا إسناد مدني صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه في كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف في المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبي وقّاص وعائشة وأنس ؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدّارَقُطْني عن ابن مسعود أنه قال : من السُّنة أن يخفى التشهّد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو . التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعي وأصحابه والليث بن سعد تشهّد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) في نسخة : « توارثت » .

Marfat.com

لله ، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسـول الله " . واختار الثـوْري والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله ، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله](١) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء " . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهذا كله اختلاف فى مباح ليس شىء منـه على الوجوب ، والحمد لله وحده . فهـذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »(٢) . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتى فى « آل عمران »(٣) حكم صـلاة المريض غير الامام ، ويأتى فى « النساء »(٤) فى صـلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتى فى سـورة « مريم »(٥) حكم الامام يصـلى أرفع من المأموم ، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد تقدّم فى أول السورة جملة من أحكامها ، والحمد لله على ذلك .

قوله تعـالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

---

(١) الزيادة عن مسلم . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١١
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع جـ ١١ ص ٨٥

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا آستفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال آبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : آثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن آبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بآتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيــة — في شدّة عذاب من هذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسري بي مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا[(1)] يأمرون الناس بالبر وينسوْن أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسوْن أنفسهم يجرّون قُصْبهم[(2)] في نار جهنم فيقال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن في سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك آبن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان الباهلي ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوّر القرشي مولى خالد بن عبد الله آبن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمي ، كان يختلف إلى

(1) كذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل (جـ ٣ ص ١٢٠) وتفسير الفخر الرازي (جـ ١ ص ٤٩٦) . وفي الأصول : « من أمتك » .		(2) سيأتي معنى « القصب » .

Marfat.com

الشام فى تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقــد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقَى فى النــار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](١) فيجتمع إليــه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن](١) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعــه أقصاب . والأقتاب : الأمعــاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمــا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيــام بوظيفة كل واحد منهما أشــدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنمــا ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ النــاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمــه " . أخرجه ابن ماجه فى سُننه .

الثالثـــة ـــ اعلم وفّقك الله تعــالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعــالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بهــا ؛ وبّخهم به توبيخًا يُتْــلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّـاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إنّ قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعـــلونا
لمجانين وإن هــم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

وقال أبو الأسْود الدُّؤَلِيّ :

لاتَنْـهَ عن خُلقٍ وتأتىَ مثــلَه * عارٌ عليـك إذا فعلتَ عظـيمُ
وٱبدأ بنفســك فٱنهها عن غيّها * فإن ٱنتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى * بالقول منـك وينفع التعلـيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحِيرى الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبى العباس : ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تَقِيٍّ يأمر النـاس بالتُّــقَ * طبيبٌ يداوى وَالطبيبُ مريضُ

قال : فٱرتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعــة — قال إبراهيم النَّخَعِيّ : إنى لأكره القَصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »[1] ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »[2] . وقال سَلْم بن عمرو[3] :

ما أقبحَ التّزهيـدَ من واعظٍ * يُزَهِّــد الناسَ ولا يَزْهَــدُ
لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيتُه المسـجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه * يَستمنح النـاس ويسـترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من ترى * ينـالُه[4] الأبيضُ والأسـودُ

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله : عِظ أصحابك؛ فقال إنى أخاف أن أقول مالا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالك عن ربيعـة بن أبى عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شيء ، ما أمر

(١) راجع جـ ١٨ ص ٧٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٩ (٣) كذا فى الأصول . والصحيح أن الأبيات للحماز، وهو ٱبن أخت سلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « يسعى له » .

Marfat.com

أحد بمعروف ولا نَهي عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه شيء (١) ! .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . والبِرّ : الصدق . والبِرّ : ولد الثعلب . والبِرّ : سَوق الغنم؛ ومنه قولهم : « لا يعرف هِرًّا من بِر» أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هُمّ رَبّ إن بكرا (٢) دونكا * يَبَرُّك الناسُ ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرّك الناس » : أى يطيعونك . ويقال : إن البِرّ الفؤادُ فى قوله :

أكون مكان البِرّ (٣) منه ودونه * وأجعل مالى دونه وأوامِرُه

والبُرّ (بضم الباء) معروف، و (بفتحها) الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد بَرٌّ وبارّ؛ أى يُعظّم والديه ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنِّسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك؛ وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (٤) »، وقوله : « فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به (٥) »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (٦) » . ويكون خلاف الذِّكر والحفظ؛ ومنه الحديث : " نَسِيَ آدمُ فنسيتْ ذريّتُه " . وسيأتى . يقال : رجل نَسْيان (بفتح النون) : كثير النِّسيان للشيء . وقد نَسِيت الشيء نِسْيانًا، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرق . وأنفس : جمع نَفْس، جمع قِلّة . والنَّفْس : الروح؛ يقال : خرجت نَفْسُه، قال أبو خراش :

نجا سالم والنَّفْس منه بِشِدْقِهِ * ولم يَنْجُ إلا جَفْن سَيف ومئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٧) » يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : « عليه » . (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : « بكرا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » . (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة « برر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع ج ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع ج ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع ج ٣ ص ٢٠٨
(٧) راجع ج ١٥ ص ٢٦٠

Marfat.com

بين فى قول بلال للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن شهاب : أخذ بنفسي يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك، وهو أولى ما يقال به . والنّفس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر[(١)] :

تسـيل على حدّ السّـيوف نفوسُنا[(٢)] * وليست عـلى غير الظُّبات تسـيل

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس المـاء إذا مات فيـه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر[(٣)] :

نُبِّئتُ أن بنى سُحَيم أدخـلوا * أبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنذرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُون» : تقرءون . «الكتاب» : التـوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الاتباع؛ ولذلك استعمل فى القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّـة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حقى تُلاوة وتَلِية، أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتلّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلِّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمق .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هـذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتـل الجانى . ومنه اعتقال البطن واللّسان . ومنـه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغشّى به الهوادج؛ قال عَلْقمة :

عَقْلًا ورَقْـا تكاد الطـير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : «حد الظبات» . (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

Marfat.com

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا، وما كان نقشه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لما اختصّ بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم اختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محله القلب ، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول فى العقل بأنه جوهر فاسد ، من حيث إن الجواهر متماثلة؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحىّ ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم ، بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو اختيار أبى المعالى فى الإرشاد ؛ واختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بها درك العلوم . واعترض على مذهب القاضى واستدل على فساد مذهبه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

Marfat.com

أبو بكر عن الشافعى وأبى عبد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التمييز . وحكى عن أبى العباس القلانسى أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبى أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعى ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل فى الآلة المثبتة(١) واستعمالها فى الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة ، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة ، والقلانسى أطلق ما أطلقه توسعاً فى العبارات ، وكذلك المحاسبى . والعقل ليس بصورة ولا نور ، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية(٢) التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ الصبر : الحبس فى اللغة . وقتل فلان صبراً ، أى أمسك وحبس حتى أتلف . وصبرت نفسى على الشىء : حبستها . والمصبورة التى نهى عنها فى الحديث هى المحبوسة على الموت ، وهى المجثمة . وقال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة * ترسو إذا نفس الجبان تطلع

الثانيــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة فى كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصى . وإذا صبر عن المعاصى فقد صبر على الطاعة ؛ هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »(٣) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها . وكان عليه السلام إذا حزبه(٤) أمر فزع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى الآلة المبنية » . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ . (٤) حزبه : أى نزل به مهم أو أصابه غم .

Marfat.com

ابن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله . ثم تنحَّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم: هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ »؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد فى الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم.

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبيـاء والصالحين . قال يحيي بن اليَمَان : الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله، والرضا بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال عليّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبرى: وصدق عليّ رضى الله عنه؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »(١) . وجعـل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »(٢) الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(٣) . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ » أى الصائمون؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الصيام لى وأنا أجزى به " فلم يذكر ثوابا مقدرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

Marfat.com

السادســـة — من فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفســه به؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شيء أصــبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهـم و يرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصــفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله ٱبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : « و إنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصـلّى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشــدّ ، فلذلك قال : « و إنّها لَكَبِيرَةٌ » . وقيــل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ »(١) ، وقوله : «وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا»(٢) . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم ، و إلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـّا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »(٣) . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

إنّ شَرْخَ الشّبابِ والشَّعَرَ الأسـ * ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧
(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣
(٤) هو حسان بن ثابت .

Marfat.com

ولم يقل بماصيا ، ردّ إلى الشـباب لأن الشَّعر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف آختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »(١) ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر(٢) :

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقيّارٌ بهـا لغـــريبُ

وقال آخر(٣) :

لكلّ همٍّ من الهمـوم سَـعَةْ * والصُّبحُ والمُسْىُ لا فلاح مَعَهْ

أراد لغريبان، لافلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر، وهى الآستعانة التى يقتضيها قوله : «وَٱسْتَعِينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . و « كبيرة » معناه ثقيلة شاقة ، خبر « إنّ » . ويجوز فى غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أيّد فى الأزل بخصائص الآجتباء والهدى .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ ككُحْل العين لَأْيًا أُبِينه * ونُؤْىٌ كجِذْم الحوض أَثْلَمُ خاشِعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدَى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِيُّ صدره إذا ألقى بُصاقًا لزِجًا . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْـعة : قطعة من الأرض رِخْـوة؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على المـاء ثم دُحيت بعدُ"(٤) . وبلدة خاشعة : مغبرّة لا منزل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ (٢) هو ضابئ البرجمى ؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (جـ ١ ص ١٨١ طبع أوربا) .
(٣) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .
(٤) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض » .

Marfat.com

بها . قال سفيان الثوري : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ؛ فقال : أعيمش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال علي بن أبي طالب : الخشوع في القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألا تلتفت في صلاتك . وسيأتي هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»(١) . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »(٢) .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقًّا . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» في موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »(٣) وقوله : «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا »(٤) . قال دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنّوا بألفيْ مدجّج * سَراتُهم في الفارسيّ المسرّد

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨　(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠　(٤) راجع جـ ١١ ص ٣

Marfat.com

وقال أبو دُواد :

رُبَّ هَمٍّ فرّجتـه بغـريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه، ويضمر فى الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقعون لقـاءه مذنبين ؛ ذكر المهدوِىّ والمـاوَرْدِى . قال ابن عطية : وهـذا تعسُّف . وزعم الفرّاء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ؛ لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحسّ ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هـذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحسّ بعـد ؛ كهذه الآية والشـعر، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجىء اليقين بمعنى الظن، وقد تقدم بيـانه أول السورة . وتقول : سُـؤت به ظنًّا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُـمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأول، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى إلى ربهم ، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى .

قوله تعـالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم[1] . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمى زمانهم، وأهل كل زمان عالَم . وقيل: على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعـالى : وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أمْرٌ معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام في التقوى[(١)] . « يوماً » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وٱنتصب على المفعول بـ«ٱتقوا» . ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزى، على الإضافة . وفي الكلام حذف بين النحويين فيه ٱختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيـه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه؛ كما قال :

* ويوماً شهدناه سُلَيماً وعامراً[(٢)] *

أي شهدنا فيه . وقال الكسائي : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وٱتقوا يوما لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذي تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفَرّاء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوي أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » : أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنّي هـذا الأمر يَجْزِي؛ كما تقول : قَضَى عني . وٱجتزأت بالشيء ٱجتزاء إذا ٱكتفيت به؛ قال الشاعر :

فإنّ الغـدر في الأقوام عارٌ * وأنّ الحرّ يجزأ بالكُرَاع

أي يكتفي بهـا . وفي حديث عمر : " إذا أجريت المـاء على المـاء جَزَى عنـك " . يريد إذا صببت المـاء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفي صحيح الحـديث عن أبي بُردة بن نِيَار في الأُضْحِيّة : " لن تَجزِيَ عن أحد بعدك " أي لن تغني . فمعنى لا تجزى : لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليهـا شيء؛ فإن كان فإنهـا تجزى وتقضي وتغني ،

---

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .　　(٢) سليم وعامر : قبيلتان من قيس عيلان

Marfat.com

بغير آختيـارها من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنـده مَظلِمة لأخيـه من عِرْضه أو شئٍ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته و إن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه " . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم.(١) وقرئ « تُجزِئ » بضم التاء والهمز . و يقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمرَ العالمين ولم يكن * ليجزئَ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثـــة(٢) — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الآثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشفَعته شَـفْعًا؛ والشُّفْعة منـه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعاً . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يَشفع لى إليه . وتشفّعت إليـه فى فلان فَشفّعنى فيـه؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعـــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعيـــن من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقـد تمسّك القاضى عليهـم فى الرّد بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّى هذه الأخبار بالقبول؛ ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (جـ ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .
(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

Marfat.com

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار ؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »(١) ، « ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم . والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ؛ وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(٢) وقال : « ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ٱرْتَضَى »(٣) وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ »(٤) . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلّدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها . وبدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »(٥) ، وقوله : « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى « ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضَى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، وإنما قال : « لِمَنِ ٱرْتَضَى » ومن ٱرتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون؛ بدليل قوله : « لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »(٦) . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا" . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتَضَى هو التائب الذى ٱتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة ٱستغفروا لهم؛ وقال : « فَٱغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر. قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

Marfat.com

فإذا قبـل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشـفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميـع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليـه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنمـا يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما ٱفترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعـالى — فقيل : ولا أنت يا رسـول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسُن التذكير؛ لأنك قد فرّقت ، كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »(1) .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فداء. والعدل (بفتح العين) : الفِداء، و(بكسرها): المِثْل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . ويقال : عَدْلُ الشيء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا وإن لم يكن من جنسه . والعِدل(بالكسر) : هو الذى يساوى الشيء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبريّ : أن من العـرب من يكسر العين من معنى الفِدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصْر : العَوْن . والأنصار: الأعوان؛ ومنـه قوله : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ »(2) أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وٱنتصر الرجل : ٱنتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر(3) :

(1) راجع ص ٣٢٦ (2) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (3) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

Marfat.com

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعى * بلادَ تميم وٱنْصُرى أرضَ عامِرِ

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء؛ قال :

إنى وأَسْطارٍ سُطِرن سطرًا * لقـائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعانى التى آعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فإن الواقع فى الشدّة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للموجودين والمراد مَن سلف من الآباء؛ كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »(1) أى حملنا آباءكم . وقيل : إنما قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْوَة من الأرض ، وهى ما آرتفع منها . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمِّىَ كل فائز ناجيًا . فالنّاجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نَجَّيْتُكم » على التوحيد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ .

Marfat.com

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (١) أى آل دينه ؛ إذ لم يكن له ٱبن ولا بنت ولا أب ولا عمّ ولا أَخٌ ولا عَصَبة . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا مُوَحّد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ٱبن نوح : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (٢) . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً غيرَ سِرّ يقول : " [ألا] (٣) إنّ آلَ أبى — يعنى فلانا (٤) — ليسوا [لى] (٣) بأولياء إنما وَلِيِّىَ اللهُ وصالحُ المؤمنين " . وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذريّتُه خاصة ؛ لحديث أبى حُميد السّاعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلّى عليك ؟ قال : " قولوا اللّهُمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد " . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأول أصح لمـا ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبى أَوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهُمّ صلّ عليهم " فأتاه أبى بصدقته فقال : " اللّهُمّ صلّ على آل أبى أَوْفَى " .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال فى البـلدان هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعنى فلانا ، وروى "ألا إن آل أبى فلان" . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة ، خشى أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . راجع سيرة ٱبن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

Marfat.com

الرابعــة ـــ وٱختلف النحاة أيضا هـل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائىّ ؛ فلا يقال إلا اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم ٱبن السِّيد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إنّ العبــد يمـ * ـنـع رَحْلَه فٱمنـع حِلالك (١)
وٱنصـر على آل الصّـلـيـ * ـب وعابديه اليـومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقـةَ آلِكَا

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامســة ـــ وٱختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدوىّ : أصله أول وقيل : أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا ، وجمعه آلون . وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل . وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان : إذا جمعت آلاً قلت آلون، فإن جمعت آلاً الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادســة ـــ قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ « فرعون » قيل : إنه ٱسم ذلك المَلِك بعينه . وقيــل إنه ٱسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة ، و إن ٱسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : ٱسمه الوليد ٱبن مصعب بن الريّان ، و يكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلىّ : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيــة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

Marfat.com

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : "أخذنا فرعون هذه الامة" . « وفرعونَ » فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يَسُـومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو ابن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا ✱ أَبَينـا أن نُقِرّ الخسف فينـا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سـائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[(١)] ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ« يسومونكم » ومعناه أشـدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتًا؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون و يزرعون، وصنف يتخدّمون ـــ وكان قومه جندا ملوكا ـــ ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية؛ فذلك سوء العذاب .

التاســعة ـــ قوله تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ «يذبّحون» بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال ـــ أنشده سيبو يه ـــ :

مَتَى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا ✱ تجـد حطبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجـا

قال الفرّاء وغيره : «يذبحون» بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونَكم سُـوءَ العذابِ » كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ »[(٢)] ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال؛ أى سائميكم » .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

Marfat.com

يعــذّبونكم بالذّبح و بغير الذّبح . فقوله : « وَيُذَبِّحون أبناءكم » جنس آخر من العذاب ، لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقـرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمّـا أجزنا ساحة الحيّ وآنتحى *

أى قد آنتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وآبن الهمام * وليثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم آبن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ آبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بفتح الباء . والذَّبح : الشّق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح ، وهو إذا جاء السيل نخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقى البنات ، وعبّر عنهم بآسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبّحون أبناءكم » يعنى الرجال ، وسُمّوا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وآستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : و يقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد آختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النّخَعىّ ؛ وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَيْن معًا ، و إن أ كرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

Marfat.com

قولان : أحدهما ــ أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه آبن المنذر. وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر و يخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتَلِمًا ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية . وقال آبن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده ــ و إن كان أعجميًّا ــ بقتل إنسان . قال آبن حبيب : و بقول آبن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتَل المأمــور دون الآمر ، و يُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد فى السيّد يأمر عبــده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هــذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : و يُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد و يُضرب و يؤدّب . وقال الثورىّ : يُعزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبــد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبــد فصيحا يَعقِل قُتل العبد وعُوقب الســيد ؛ و إن كان العبــد أعجميًّا فعلى السيّد القَود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتــل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس ــ وهو القول الثانى ــ و يقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحمــد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجلَ بقتــل الرجل ؛ وذكره آبن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما ــ وهو القول الثالث ــ حكاه أبو المعــالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانيــة عشرة ــ قرأ الجمهور « يذبّحون » بالتشديد على المبالغــة . وقرأ آبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذّبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِىَ قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤ ياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

Marfat.com

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وفى ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى آمتحان وآختبار. و﴿ بَلَاءٌ ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنًا ويكون سيئا، وأصله المحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسيّئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِىّ. وقال قوم : الإشارة بـ«ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم. وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا فى الشر؛ والمعنى : وفى الذبح مكروه وآمتحان. وقال آبن كَيْسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه؛ وأنشد :

جزى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[1]

فجمع بين اللغتين. والأكثر فى الخير أبليته، وفى الشر بلوته، وفى الآختبار آبتليته وبلوته؛ قاله النحاس.

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب. و « فَرَقْنَا » فلقنا؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، أى الجبل العظيم. وأصل الفَرْق الفصل؛ ومنه فَرْق الشّعر؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل؛ ومنه : « فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[2] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ »[3] يعنى يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[4] أى فصّلناه وأحكمناه. وقرأ الزُّهْرِىّ : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أى جعلناه فرقا. ومعنى «بكم» أى لكم، فالباء بمعنى اللام. وقيل : الباء فى مكانها؛ أى فرقنا البحر بدخولكم إياه. أى صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أوْلَى، يبينه « فآنفلق ».

(١) قائله زهير. (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٥٣ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ البحر معروف، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى مَنْدُوبٍ فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : المـاء الملح . ويقال : أبحر المـاء : مَلُحَ؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْــرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبحَرَ المَشْربُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأموىّ . والبَحَر : السُّلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةً بَحْرَةً ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء، ممـدود، ونجاة، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعـالى : ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يقال : غَرِق فى المـاء غَرَقًا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ[2] *

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَّق وغريق . ولجـام مغرَّق بالفضة ؛ أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْساً غَرّقته القوابلُ[3] *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .
(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى المـاء والخنادق *
(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

Marfat.com

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْىَ بَكْرَةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَلُوبُهَا

والأرباض : الحبال . والبَكْرَة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثانى؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول فى آختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِىَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيَكة ، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ [(1)] » . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى آنتهى إلى البحر؛ فقال له : آنْفَرِقْ؛ فقال له البحر : لقد آستكبرت ياموسى ! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمرتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : فاقتحم فرسه فسَبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ ثم آقتحم الثانية فسَبَح به حتى خرج؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقال : ما أُمرتُ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٥ .

Marfat.com

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ» فضربه موسى بعصاه؛ «فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ». فكان فيه ٱثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد المـاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن ٱنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه[1] أبا خالد. ذكره ٱبن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سورة «يونس، والشعراء»[2] زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن ٱبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "ما هذا اليوم الذى تصومونه" فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيـه موسى وقومه وغَرّق فرعونَ وقومه، فصـامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن ٱبن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم فصوموا".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه ٱقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لمـا روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخارىّ ومسلم.

(١) أى كنى موسى البحر. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٧ و جـ ١٣ ص ١٠٥.

Marfat.com

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمــا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة؛ فلمــا قدم المدينــة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم" فصــامه آتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أى أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هــذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وســلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى« الأنعام»(١) عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة — اختلف فى يوم عاشــوراء ؛ هل هو التاســع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع؛ لحــديث الحكم بن الأعرج قال : آنتهيت إلى آبن عباس رضى الله عنهما وهو متوسّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فآعدُد وأصْبِحْ يوم التاسع صائمــا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك و جماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحَــكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن آبن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث آبن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذيّ : وروى عن آبن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهــذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل و إسحــاق . قال غيره : وقول آبن عباس للسائل : « فآعدُد وأصبح يوم التاسع صائمــا » ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاســع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جمع بين الأحاديث . وقول آبن عباس للحَكَم لمــا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش؛ و إلا فمــا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيّنه ما خرّجه آبن ماجه فى سُننه ومسلم فى صحيحه عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

Marfat.com

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السّنة التى قبله". أخرجه مسلم والترمذيّ ، وقال : لا نعلم فى شيء من الروايات أنه قال : " صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة " إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، وإلى أنفسهم ينجون ؛ ففى هذا أعظم المِنّة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع ؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غَرِق ! حتى أمر الله البحر فلفَظه فنظروا إليه .

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن(١) سمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا فى النعمة ، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم ؛ قالوا ياموسى آجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلٰهًا وهو فضّلكم على العالمين ؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدسة فى أيدى الجبارين قد غُلبوا عليها فآحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لُحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين . فبقوا فى التِّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمَنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْناء

(١) فى نسخة : « فلم يَعْدُ أن سمع الله ... » الخ .

Marfat.com

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه[(١)] — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فآدخلوا البـاب سُجَّدًا وقولوا حِطّة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستِّيرا ؛ فقالوا : إنه آدر[(٢)] . فلما آغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجـالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبى! فذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه[(٣)] — ، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة[(٤)] — ، ثم سألوه أن يعلَموا آية فى قبول قربانهم؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم؛ ثم سألوه أنْ بيِّن لنـا كفارات ذنوبنا فى الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : «عملت كذا، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضـه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وآفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وآشتروا به عَرَضًا؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هـذه الفصول مستوفًى فى موضـعه إن شاء الله تعـالى . وقال الطبرى : وفى أخبـار القرآن على لسان محمد عليـه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العـرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْـدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

فيـــه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣
(٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠
(٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

Marfat.com

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألِف ، وآختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هـذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ »[(1)] وقوله : «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»[(2)]، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكّي : وأيضـا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمـله على الواحد، لظـاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ و به قرأ قتادة وآبن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِـد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضـع . قال مكّي : المواعدة أصلها من آثنين،وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛قالوا: طارقت النّعل، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والآختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. قال النحاس: وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن،وهي قراءة مجاهد والأعرج وآبن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا في شيء؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، و إنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيّـد؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول وآتباع يجري مجرى المواعدة . قال آبن عطية . ورجّح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وآرتقابه يشبه المواعدة .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى ٱسم أعجمى لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — مايروى — يقولون للماء : مو، وللشجر : شا[1] . فلما وُجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمّىَ موسى . قال السُّدّى : لما خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليمّ بين أشجار عند بيت فرعون؛ فخرج جوارى آسية ٱمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمِّىَ باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن ٱسم الذى ٱلتقطته صابوث . قال ٱبن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ٱبن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله[2] بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثـانى ، وفى الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فٱتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ : هذا إلهكم وإله موسى، فاطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[3] » . فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا ٱثنـا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقى الألواح فرفع من جملتهـا ستة أجزاء و بقى جزء واحد وهو الحلال والحـرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّـا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال ٱبن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول، وٱسم الجلالة زائد، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

Marfat.com

وورمت بطونهم ، فتـابوا ولم تُقبـل توبتهم دون أن يَقتـلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعـالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى آرتفاع الضّحى؛ فقتل بعضهم بعضا ، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجّ موسى إلى الله صارخا : يار بّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبة مَن بقى وجعل مَن قُتل فى الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعـــة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ؛ فالليالى أول الشهور والأيام تَبَع لهـا .

الخامســـة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقـد أنه كان يفطر بالليـل ، فلما نصّ على الليـالى آقتضت قـوّة الكلام أنه عليـه السلام واصـل أربعين يوما بلياليها . قال آبن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضـل الجوهرىّ رحمـه الله يعظ النـاس فى الخلوة بالله والدنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يَشغل عن كل طعام وشراب ، ويقـول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَـا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا آستدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام(1) من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف(2) » زيادة أحكام لهـذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه(3) » إن شاء الله تعالى .

السادسـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى آتخذتموه إلهـًا من بعد موسى . وأصل آتخذتم ائتخذتم ، من الأخذ، ووزنه آفتعلتم ، سهلت الهمزة الثـانية لآمتناع همزتين فجاء إيتخذتم، فآضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ،

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (2) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (3) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

Marfat.com

فبُدلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم آجتُلِبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير، كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدًا » فآستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير؛ قال الشاعر (١) :

أَسْتحدَثَ الرَّكبُ عن أشياعهم خَبَرًا　＊　أم راجـع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القـرآن : « أَطَّلَعَ الغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبي علىّ الفارسىّ أن« آتخذتم »، من تخذ لا من أخذ. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم (٢) . والحمد لله .

قوله تعـالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ أَلْبَتّةَ . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقـد عُفِيَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب؛ أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر؛ أى أذهبته . وعفا الشيءُ : كثر . فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّيَ العجل عِجْـلًا لآستعجالهم عبـادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجّوْل مثـله ، والجمع العجاجيل؛ والأنثى عِجْلة . عن أبي الجراح .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٣) . وأما الشكر فهو فى اللغـة الظهور، من قوله : دابة شَكور؛ إذا ظهر عليهـا من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . وحقيقته الثنـاء على الإنسان بمعروف يُولِيكه . كما تقدّم

(١) هو ذو الرمة .　(٢) راجع ص ٣٠٩　(٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

فى الفاتحة (١) . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بمـا أولاه من المعروف؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكُفران . وتشكّرت له مثل شكَرت له . وروى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابى : هذا الكلام يتأول على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم؛ لاتّصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — فى عبارات العلمـاء فى معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً (٢) » . فقال داود : كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى؛ إذ قد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا ربّ فأرنى أخْفَى نعمك علىّ . قال : يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه الســلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السَّرِىّ السَّقَطِىّ ألعب وأنا ٱبن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالهـا السرىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحســنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصرىّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

« إذا » آسم للوقت المـاضى . و « إذا » آسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[١] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأولين . وآختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشىء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحـاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء؛ ومنه قول الشاعر :

وَقَدَّمتِ الأديمَ[٢] لراهِشَيْهِ * وأَلْفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[٣] :

ألَا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدُ * وهندٌ أتى من دونها النَّأْىُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأى، والمَيْنُ على الكذب؛ لآختلاف اللفظين تأكيدا؛ ومنه قول عنترة :

حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تقادمَ عهدُهُ * أَقْوَى وأقفرَ بعـد أمّ الهيْـثَمِ

قال النحاس : وهذا إنمـا يجىء فى الشعر، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال آبن زيد : الفرقان آنفراق البحـر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله آبن بحـر . وقيل : الواو صـلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وآبن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

---

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : « فقددت الأديم » وهو لعدى بن زيد . والقد: القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

Marfat.com

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ »(١) أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم وبين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بَدْر، نصر الله فيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابَه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبيّ مرسَل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادَى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قَوْمِ» لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها ؛ وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى ؛ لأنها آسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قوميَهْ . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ ؛ فقلت : يا قوما ، وإن شئت قلت : يا قوم ؛ بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونونت . وواحد القوم آمرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام ؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل ، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ آستغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قروءٍ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عِجْلُ كلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لمـا قال لهم : فتـوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلِّلوها بالطاعات وكُفُّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتـل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالمـاء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِيّ : لمـا قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ ؛ على ما تقـدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتَلوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهـم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو آتقاه بيد أو رِجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعني من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ وإنما آعتزلوا ، وكان الواجب عليهـم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغيَّر عوقب الجميع . روى جَرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

Marfat.com

بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب". أخرجه ابن ماجه في سُننه. وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله تعالى. فلما آستحرّ(١) فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم. قاله آبن عباس وعليّ رضي الله عنهما. وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم. فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة. وقرأ قتادة: فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة —؛ أي آستقبلوها من العثرة بالقتل.

قوله تعالى: ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ: الخالق؛ وبينهما فرق؛ وذلك أن البارئ هو المبدع المحدِث. والخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال. والبَرِيّة: الخلق؛ وهي فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز. وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» — بسكون الهمزة — ويشعرْكم وينصرْكم ويأمرْكم. وآختلف النحاة في هذا؛ فمنهم من يُسكّن الضمة والكسرة في الوصل؛ وذلك في الشعر. وقال أبو العباس المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شعر. وقراءة أبي عمرو لحن. قال النحاس وغيره: وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ(٢)

وقال آمرؤ القيس:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثمًا من الله ولا واغِلِ(٣)

وقال آخر:

* قالتْ سُلَيمى آشترْ لنا سَوِيقا *

وقال الآخر:

رُحتِ وفي رجليكِ ما فيهما * وقد بدا هَنْكِ من المئزرِ

---

(١) استحرّ: اشتدّ وكثر. (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو): الصحراء. وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر. (٣) المستحقب: المتكسب. والواغل: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه. يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها، إذ وفى بنذره فيها.

Marfat.com

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو علىّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشيء من الشيء وهو انفصاله منه . فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود؛ ومنه برأت من المرض برءا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز. وغيرهم يقول: برئت من المرض بُرءا (بالضم)؛ و برئت منـك ومن الديون والعيوب براءة؛ ومنه المبـارأة للمرأة . وقد بارأ شريكه وآمرأته .

قوله تعـالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فى الكلام حذف، تقـديره ففعلتم «فتاب عليكم»؛ أى فتجاوز عنكم، أى على الباقين منكم . ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١) تقدّم معناه، والحمد لله.

قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وإذ قلتم﴾ معطوف . ﴿يا موسى﴾ نداء مفرد . ﴿لن نؤمن لك﴾ أى نصدقك . ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ قيل : هم السبعون الذين آختارهم موسى؛ وذلك أنهم لمـا أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : «لن نؤمن لك» . والإيمـان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم؛ كما قال تعالى : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف (٢) إن شاء الله تعـالى . قال آبن فورك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : «أرنا الله جهرة» وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد آختُلف فى جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيـا والآخرة . وأهل السُّـنّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة؛ فعلى هـذا لم يطلبوا من الرؤية

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥	(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

Marfat.com

محالا، وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و «الأعراف»(١) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عيانا؛ قاله آبن عباس . وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة؛ أى غير مستتر بشىء . وقرأ آبن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعِيانا؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قد تقدّم فى أوّل السورة معنى الصاعقة(٢) . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة آبن مُحَيْصن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تراءى؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لآستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا آحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، وآحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا مَوْتَ هُمودٍ يعتبر به الغير، ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصله إثارة الشىء من محله؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها، أى حركتها؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفتيان صدْق قد بعثتُ بسُحْرة (١) * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنـــترة :

وصحـابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهـــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها (٢)

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأوّل أصح ؛ لأن الأصـل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» . على ما يأتى (٣) .

الخامســـة ــ قال المـاوَرْدىّ : وٱختُلِف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما ــ بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالٱستدلال دون الٱضطرار .

قلت : والأوّل أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك ممـا ٱضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطًّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

---

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .　　(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

Marfat.com

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليـه السلام : " إنه ليُغان على قلبي " . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليـه . والغَيْن : شجر ملتف . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعـل هـذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، ويجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لما آمتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » (1) . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص (2) أربعين سـنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو سـتة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهـار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حَرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسـط محلّتهم . وذكر مكّى : عمود من نار . قالوا : من لنا بالمـاء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبـلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرَن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيـل : التَّرَنْجَبِين (3) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطَّرَنْجَبِين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل . وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنَبِّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنمـا شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى من جنس منّ

(1) راجع ج ٦ ص ١٢٨ (2) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن إلى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (3) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

Marfat.com

بني إسرائيل في أنه كان دون تكلّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن ٱدّخر منــه شيئا فسد عليه ، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثــة — لمــا نصّ عليــه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضي الله عنه إلى ٱستعمالها بحتًا في جميع مرض العين . وهذا كما ٱستعمل أبو وَجْزَة العسلَ في جميع الأمراض كلّها حتى في الكحل ، على ما يأتي بيانه في سورة « النحل »[1] إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن ٱثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة — بالتاء — على عكس شجرة وشجر . والمنّ ٱسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف في السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال ٱبن عطية : السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلِيّ[2] فقال :

وقاسمهــا بالله جَهْــدًا لَأَنتمُ ✽ ألذّ من السّلوى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما ٱدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرِّج[3] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ وٱستدلّ ببيت الهذلي ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّيَ به لأنه يسلي به ؛ ومنه عين السُّلوان[4] ؛ وأنشد :

لو أشرب السُّــلوان ما سَلِيتُ ✽ ما بي غَنًى عنــك وإن غَنِيتُ[5]

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ (٢) هو خالد بن زهير . (٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسي ، ويكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمــد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة . (٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) . (٥) البيت لرؤبة .

Marfat.com

وقال الجوهري : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَلي :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديد العيش يا مَيّ ما أسْلُو

وآسم ذلك الماء السُّلوان . وقال بعضهم : السلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطباء يسمونه المُفَرّح . يقال : سَليت وسلوْت؛ لغتان . وهو في سُلوة من العيش، أي في رغد؛ عن أبي زيد .

الخامسة — وآختُلِف في السَّلْوَى هل هو جمع أو مفرد؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته؛ كما قالوا : دِفْلَى (١) للواحد والجماعة، وسُمَانَى وشُكَاعَى (٢) في الواحد والجميع . وقال الخليل : واحده سَلواة، وأنشد :

وإني لتعروني لذكراك هِزّةٌ (٣) * كما آنتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائي : السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادسة — «السَّلْوَى» عطفٌ على «المنّ»، ولم يظهر فيه الإعراب، لأنه مقصور، ووجب هذا في المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائي لا مستقرّ له؛ فأشبه الحركة فآستحالت حركته . وقال الفرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السابعة — قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «كلوا» فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

---

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون في الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات، وهي دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها . (٣) في الأصول : «سلوة» وهو تحريف .

Marfat.com

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أى المدينة؛ سُمِّيت بذلك لأنها تقرت أى آجتمعت؛ ومنه قَرَيت المـاء فى الحوض، أى جمعته؛ وآسم ذلك المـاء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل المـاء . والقَرَا للظهر؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِـــقُ بطنٍ بِقَـــرًا سمينِ *

والمقارِى : الجفان الكبار؛ قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّعُ *

رواحد المقارى مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . وآختُلف فى تعيينها؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أرِيحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شَـبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . آبن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البـلدة وأزال عنهم التِّيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واسـعًا؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أى أكلًا رَغَدًا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال؛ على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَـابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أَبْوِبَة للازدواج؛ قال الشاعر[1] :

هتّـاك أَخْبِيةٍ ولّاج أبوِبَة * يَخلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجـز . ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم ــ أو بالوفد ــ غيرَخَزَايا ولا نَدامَى" . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شيء من بابَتِك ؛ أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود[2] فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أُمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة»؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . و « سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ ، أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت «حِطّةً» بالنصب ، على معنى احطط عنـا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديث[3] عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفى حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة ــ تفسير للنصب ؛ أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى فى اللغة ؛ لمـا حكى عن العرب فى معنى بدّل، قال أحمـد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أى غيرته ولم أزل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال[4] :

* عَزْلَ الأمير للأمير المُبْدَل *

(١) هو القلاخ بن حناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (٢) راجع ص ٣٤٥ .
(٣) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و«الحديث» مبتدأ ، وخبره « تفسير » . (٤) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

Marfat.com

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث[(١)] آبن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنــا ؛ أُمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بهــا ذنوبهم . وقال آبن جبير : معناه الآستغفار . أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعــل اللّــ * ــه بهــا ذنب عبده مغفورا

وقال آبن فارس فى المُجْمَل : «حِطّة» كلمة أمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " قيـل لبنى إسرائيل آدخلوا البــاب سُجّدًا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبــدّلوا][(٢)] فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَــعَرة " . وأخرجه البخارىّ وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ فى شعَرة ". فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَــعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهى لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها آبن قتيبة ، وحكاه الهروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا وآستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال آبن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . ورُوِىَ أن الباب جُعِـل قصيرا ليدخلوه ركّعًا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعــة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبّــد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله . وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى الى ذلك المعنى ؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

(١) فى الأصل : « وحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعيّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سِيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : انْقُصْ من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . و روى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدِّين والأتق والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأَسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النَّخَعِىّ والحسن والشعبيّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثوريّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلمـاء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهـم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قصصًا ذكر بعضها فى مواضـع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربيّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

Marfat.com

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . ٱحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نَضّر الله ٱمرأً سمع مقالتي فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ونبيّك الذى أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فرُبّ حاملِ فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ، لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن ٱسم الرسول يقع على الكافة ، وٱسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : "ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة . ومستقبح في الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل . وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو في وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

Marfat.com

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأوّل، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عُدمت لم يجز . قال آبن العربى : الخلاف فى هذه المسألة إنمـا يُتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغـيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد آختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم آبن العربى رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وآبن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهى أبينها؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا» فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا آدخلوا الباب سُجّدًا نغفر، ولأن بعده « وَسَنَزِيدُ » بالنون. و «خطاياكم» آتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لمـا حال بين المؤنث و بين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ » . وحَسُن الياء والتاء و إن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « و إذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فآستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايِئْ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلمـا آجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطايِئْ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

Marfat.com

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ؛ فأبدلت من الثانيــة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دواب .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وســنزيد فى إحسان من لم يرفع للغــد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد فى إحسان من هو محسن؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو آسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده، وأحسن ســياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فية أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع؛ أى فبدّل الظالمون منهــم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البــلاء مالقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والآبتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ، وقرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْـدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . و بدّله الله من الخوف

Marfat.com

أمْنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدَل. وآستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر. قال آبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . و بدَل الشيء : غيره؛ يقال: بَدَلٌ وبِدْلٌ، لغتان؛ مثل: شَبَه وشِبْه، ومَثَل ومِثْل، ونَكَل ونِكْل. قال أبو عبيد[(١)] : لم يُسمع فى فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وَجَع يكون فى اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمـام الكلام؛ كما فى هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تعـرّقنى الدهرُ نَهْسًـا[(٢)] وحَزّا * وأوجعنى الدهرُ قَرْعًا وغَمْزَا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثانى: مجيء تكرير الظاهر فى موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعـالى : «ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ» و « ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم: الحاقة ما هى، والقارعة ما هى؛ ومثله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ» . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيمًا لمـا ينيلهم من جزيل الثواب؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبًـا * كان الغـرابُ مقطّع الأوداج

وقد جمع عَدِىّ بن زيد المعنيين فقال :

(١) فى الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهرى .

(٢) فى بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشىء بفمه لبعضه فيؤثر فيـه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره، أى جذبه .

Marfat.com

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهندٌ أتى من دونها النأيُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وابن مُحَيْصِن بضم الراء . والرجز : العذاب (بالزاى)، و(بالسين) : النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ»؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكِسائى . وقال الفرّاء : الرِّجْز هو الرِّجْس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى . قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ»[1] . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعرا . وهو مشتق من الرَّجَز، وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2] . وقرأ ابن وَثّاب والنَّخَعِىّ : «يَفْسِقُون» بكسر السين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال؛ مثل : استعلم واستخبر واستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السَّقْى لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال[3] :

(١) راجع ج ١٩ ص ٦٥ (٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٣) هو لبيد (كما فى اللسان) .

Marfat.com

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْقَى * نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

وقيل : سقيتُه مِن سقى الشَّفَة ، وأسقيته دَلَلْته على الماء .

الثانيـة — الآستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح . وقد آستسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلَّى متواضعًا متذلّلًا متخشعًا مترسِّلًا متضرّعًا ، وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد ، فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم في حديث آبن عمر : "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـة — سُنّة الآستسقاء الخروج إلى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة ؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صلاة ولا خروج ، وإنما هو دعاء لا غير . وآحتج بحديث أنس الصحيح ، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه ؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فآكتفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سُنّة ؛ ولما قصد البيان بيّن بفعله ، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الآستسقاء زيادة فى سورة « هود »(١) إن شاء الله .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو آسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو ؛ قال(٢) :

* على عَصَوَيْها(٣) سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى سورة « هود » ، وإنما هو مذكور فى سورة « نوح » ج ١٨ ص ٣٠٢ .

(٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * فجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو ، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

Marfat.com

والجمع عُصِيٌّ وعِصِيٌّ، وهو فعول، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة؛ وأعْصٍ أيضا مثله؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ. وفي المثل: «العَصَا من العُصَيّة» أي بعض الأمر من بعض. وقولهم: «أَلْقَى عصاه» أي أقام وترك الأسفار؛ وهو مَثَل. قال:

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النّوى * كما قـرّ عَيْنًـا بالإياب المسافِرُ

وفي التنزيل: «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا»[1]. وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى. قال الفرّاء: أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتي. وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق؛ ومنه يقال في الخوارج: قد شقّوا عصا المسلمين؛ أي اجتماعهم وائتلافهم. وانشقّت العصا؛ أي وقع الخلاف؛ قال الشاعر:

إذا كانت الهَيْجاءُ وانشقّتِ العصا * فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

أي يكفيك ويكفي الضحاك. وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلك؛ يراد به الأدب. والله أعلم.

والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار. وفي الكثير حِجار وحِجارة؛ والحجارة نادر. وهو كقولنا: جَمَل وجِمَالة، وذَكَر وذِكَارة؛ كذا قال ابن فارس والجوهري.

قلت: وفي القرآن «فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ». «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ». «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً». «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ». «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً» فكيف يكون نادرا، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ في الكلام حذف؛ تقديره فضرب فانفجرت. وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد. والانفجار: الانشقاق؛ ومنه انشق الفجر. وانفجر الماء انفجارا: انفتح. والفُجْرة: موضع تفجّر الماء. والانبجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا. وقيل: انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق، بمعنًى واحد؛ حكاه الهَرَوِيّ وغيره.

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٦.

Marfat.com

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « انفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبدا لصحة معناها . « عَيْنًا » نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ؛ وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز «عشْرة» وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عَيْنُ الماء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة (١) ، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمسًا أو ستًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن : أى قليــل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء (٢) . والعين : الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من الماء مُشبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين الماء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عنــد استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربّعًا طُوريًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجرُ لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهــذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له آسم الحجــر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال آبن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعًا ، تَطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، و إذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الرُّكبة (براء مضمومة و باء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : «عين الرَّكِيّة» (براء مفتوحة و ياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها . (٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرّك وتسكّن فى العين بهذا المعنى .

Marfat.com

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسـلم من نبع المـاء وآنفجاره من يده و بين أصابعه أعظم فى المعجزة؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار؛ ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم، يخرج المـاء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتِيَ بتَـوْر(١) فأدخل يده فيه؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّـر من بين أصابعه و يقول : " حيّ على الطّهور" . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عينًا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيـل كالقبائل فى العـرب ، وهم ذُرّية الآثنى عشر أولاد يعقوب عليـه السلام؛ وكان لكل سِـبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحَجَر أر بعـة أوجه، يخرج من كل وجه ثلاث أعين؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . و بلغنا أنه كان فى كل سبط خمسـون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضـع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، وآشربوا المـاء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يَعْثُو عُثُوًّا ، وعاث يَعِيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَاثًا؛ والأوّل لغة القرآن . و يقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد؛ ومنه العُثّة ، وهى السّوسة التى تلحَس الصّوف . و ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لآختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهـم فى التِّيـه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرِهم عِكْرِ السّوء[1]، وآشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقـالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكَنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما آثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء؛ كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الآستعانة ببعض؛ لآستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا؛ فهم أوّل من آتخذ العبيـد والخـدَم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » وقـال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا »[2] أى ما شربوه من الخمر ، على ما يأتى بيانه . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرُّ والتمر، كما فى حديث أبى سعيد الخُدْرىّ قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصـل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِىّ كل شىء .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ .

Marfat.com

شعير؛ الحديث . والعرف جار بأن القائل : ذهبت إلى ســوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال : طعمه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام؛ قال أبو خراش :

أُرُدّ شُجـاعَ البطن لو تعلمينـه[(1)] * وأُوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ

وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فأنتهى * إذا الزادُ أمسى لِلمُزَلَّجِ[(2)] ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : "إنها طَعام طُعْمٍ وشِفاءُ سُـقْمٍ[(3)]" . وآستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : "إذا آستطعمكم الإمامُ فأطعموه" . يقول : إذا آستفتح فآفتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نَعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَمُ النومَ إلا صِياما[(4)]

قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّـا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ لغة بنى عامر «فآدعِ» بكسر العين لآلتقاء الساكنين؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و« يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخرِجْ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(1) فى ديوان الهذليين واللسان مادّة (طعم) : « قد تعلمينه » . (2) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (3) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(4) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخـدو * د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنــو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء، ولا تطعمه » .

Marfat.com

اللام، وضعّفه الزجاج. و «مِن» في قوله «ممّا» زائدة في قول الأخفش، وغير زائدة في قول سيبويه؛ لأن الكلام موجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ «يُخرِج» فأراد أن يجعل «ما» مفعولا. والأولى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام؛ التقدير: يخرج لنا مما تُنبت الأرض مأكولا. فـ«مِن» الأولى على هذا للتبعيض، والثانية للتخصيص. و﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ بدل من «ما» بإعادة الحرف. ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ عطف عليه، وكذا ما بعده؛ فاعلمه. والبَقْل معروف، وهو كل نبات ليس له ساق. والشجر: ما له ساق. والقِثّاء أيضا معروف، وقد تُضمّ قافه، وهي قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة ابن مُصَرِّف، لغتان والكسر أكثر. وقيل في جمع قِثّاء: قَثَائِيّ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِيّ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو؛ تقول: أقثأتُ القومَ؛ أي أطعمتهم ذلك.

[وقَثَأَتِ[1] القِدْرَ سكّنت غليانها بالماء؛ قال الجَعْدِيّ:

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه. وعدا حتى أفثأ؛ أي أعيا وانبهر. وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتر. ومن أمثالهم في اليسير من البِرّ قولهم: «إنّ الرَّثِيئَة تفثأ الغضب». وأصله أن رجلا كان غَضِب على قومه وكان مع غضبه جائعا، فسقَوْه رَثِيئَة فسكن غضبه وكفّ عنهم. الرثيئة: اللبن المحلوب على الحامض ليَخثُر. رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخثُر؛ والاسم الرَّثِيئَة. وأرثأ اللبن خثر].

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كانت أمّي تعالجني للسِّمْنة، تريد أن تُدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة. وهذا إسناد صحيح.

---

(1) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة «قثأ» بالقاف؛ والواقع أنه من مادة «فثأ» بالفاء.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف فى الفُوم ، فقيل : هو الثُّوم ؛ لأنه المشاكل للبصل . رواه جُوَيْبر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء ، كما قالوا : مغافير ومغاثير[(١)] . وجَدَثٌ وجَدَفٌ ؛ للقبر . وقرأ آبن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة ؛ وروى ذلك عن آبن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً　＊　فيها الفَرَاديسُ والفُومانُ والبَصَلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس ؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لِئامُ الأصول　＊　طعامُكُمُ الفُومُ والحَوْقَلُ

يعنى الثّوم والبصل ؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطة ؛ روى عن آبن عباس أيضا وأكثر المفسرين ؛ وآختاره النحاس ، قال : وهو أوْلى ، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيْبر بنظير لرُوايته ؛ و إن كان الكسائى والفراء قد آختارا القول الأوّل ، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليه ؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد آبن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة ، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصًا واحدًا　＊　ورَدَ المدينــةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرّ فيه ، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد　＊　نزل المدينة عن زراعة فُوم[(٢)]

وقال آبن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبِيئُهم[(٣)] لمّا أتانا　＊　بِكَفّه فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقــد نظرت إلى الشموس ودونها　＊　حرج من الرحمن غــير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصول : « وقال رئيسهم » . الربئ . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

Marfat.com

والهـاء فى « كَفّه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمَّص؛ لغةٌ شاميّة . وبائعه فاميّ ، مغيَّر عن فُوميّ؛ لأنهم قد يغيّرون فى النسب؛ كما قالوا : سُهْلِيّ ودُهْرِيّ . ويقال : فَوِّموا لنا ؛ أى آختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُخْتَـبز .

مسئلة — آختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضًا — إلى المنع، وقالوا : كل مامَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيّـه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجـة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ بِبَدْر[(1)] فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ؛ قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول؛ فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها، قال : "كُلْ فإنّى أُناجِى مَن لا تُناجِى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّن فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ولكنى أكْرَهُه" . قال: فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال: وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحـريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجـرة أكره ريحها" . فهـذه الأحاديث تُشـعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم فى حديث جابر بمـا يقتضى التسوية بينه و بين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هـذه البقلة الثـوم — وقال مرة : من أكل البصل والثـوم

(1) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

Marfat.com

والكُرّاث ـ فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم ". وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسـجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيـع ، فمن أكلهما فليُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرةٌ تخرج بالإنسان ، وربمـا قتلت . وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليـك إمارةٌ * نَجوْتِ وهـذا تحملين طَليق (١)

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ إليه المنيّة أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكلّفها هَوْلَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا الليـلِ مَعْدوسًا إلىّ وعادِسَا

أى يسار إلىّ بالليل . وعَدَسْ : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثَر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم من حديث علىّ أنه قال : " عليكم بالعـدس فإنه مبارَك مقـدّس وإنه يرِقّ القلب ويكثر الدّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم " ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم (٢) ، ويوما بعدس . قال الحَليمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضـيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهى الفُوم على الصحيح ، والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ .   (٢) فى بعض نسخ الأصل : « بملح » .

Marfat.com

عليــه وسلم لم يَشبع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الآستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أَدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُوّ أي القُرْب في القيمة ؛ من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ؛ أي قليل الثمن . وقال عليّ بن سليمان : هو مهموز من الدنيء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط ؛ فأصله أَدْوَن ، أفعَل ، قُلِب فجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرِئ في الشّـواذّ « أدنَى »(١) . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذي هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذي هو خير .

وآختُلِف في الوجوه التي توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذي طلبوه وهي خمسة :

الأوّل — أن البقول لمـا كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثـاني — لمّـا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في آستدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْر في الآخرة ، والذي طلبوه عارٍ من هـذه الخصائل ، كان أدنى في هذا الوجه .

الثـالث — لمّـا كان ما منّ الله به عليهـم أطيب وألذّ من الذي سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابـع — لمّـا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفةَ فيه ولا تعب ، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمّـا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ في حِلّه وخُلوصــه لنزوله من عند الله ، والحبـوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

(١) كذا في نسخ الأصل . والذي في كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز » وهي قراءة زهير الفرقبي » .

Marfat.com

مسئلة — فى هـذه الآية دليلٌ على جـواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسـلّم يحبّ الحلْوى والعَسَـل ، ويشرب المـاء البارد العَذْب ؛ وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة »[1] و « النحل »[2] إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْراً ﴾ تقدّم معنى الهبوط[3] ؛ وهذا أمر معناه التعجيز ؛ كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التِّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعطوا ما طلبوه . و « مِصْراً » بالتنوين منـكَّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيَّن . وروى عكرمة عن ٱبن عباس فى قوله : « ٱهْبِطُوا مِصْراً » قال : مِصْراً من هـذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفهـا أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما ٱقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبمـا تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعـد التِّيه . وٱستدلّ الآخرون بمـا فى القـرآن من أن الله أَوْرث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـــل مِئزرها ＊ دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ[4]

فجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هـذا ؛ لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تَصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرَف . وقرأ الحسن وأَبَان بن تغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَىّ بن كعب وقراءة ٱبن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ؛ ذكره ٱبن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومصر الدّار : حدودها . قال ٱبن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم «ٱشترى فلان الدار بمُصُورها» أى حدودها ؛ قال عَدِىّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به ＊ بين النهار وبين الليـل قد فَصَـلَا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٣ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ .　　(٣) راجع ص ٣١٩ .

(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيهـا اللبن ويشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ آبن وثّاب والنَّخَعِى «سِألتم» بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو؛ بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى أُلزِموهما وقُضِىَ عليهم بهما ؛ مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق فى جرير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أى حمل وألزم . والذِّلة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ وإن كان غَنِيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع، وهى مأخوذة من السكون؛ أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذِّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن آبن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ » قال : هم أصحاب القَبَلات[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وبَاءُوا ﴾ أى آنقلبوا ورجعوا؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أَبُوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وأُلزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبَواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء؛ أى سواء، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر[(٢)] :

ألا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتَتَّقِى * محارِمَنا لا يَبُوُؤُ الدمُ بالدمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا[(٣)]

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة[(٤)] .

(١) فى تفسير آبن كثير : « ... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى، ولا شاهد فيه؛ إذ الرواية فيه : «فآبوا...وأبنا» ومادة « آب » غير مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه، كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على « يكفرون » . وروِىَ عن الحسن « يُقَتِّلون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النَّبِيئِين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ »[1] ، و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا » فإنه قرأ بلا مَدّ ولا همز . وإنما ترك همز هذين لآجتماع همزتين مكسورتين . وتَرَكَ الهمزَ فى جميـع ذلك البـاقون . فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر، وآسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبىء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبىّ نُبآء، قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمىّ يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبآءِ إنك مُرْسَـلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز . وآختلف القائلون بترك الهمز، فمنهم من آشتق من همز، ثم سهّل الهمز . ومنهـم من قال : هو مشتق من نَبَـا يَنْبُـو إذا ظهر . فالنبىّ من النبوّة وهو الآرتفاع، فمنزلة النبىّ رفيعة . والنبىّ بترك الهمز أيضا الطريق ، فسُمِّىَ الرسول نَبِيًّا لآهتداء الخلق به كالطريق، قال الشاعر[2] :

لأصبح رَتْمًـا دُقاقَ الحَصَى * مكانَ النَّبِىّ من الكاثِبِ

رَتَمْتُ الشىء : كسرته، يقال : رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثـاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب آسم جبل . فالأنبياء لنـا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يانبىء الله، وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستُ بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعِّفَ سند هذا الحديث، ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح : * ياخاتَمَ النُّبآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

---

(١) جـ ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣

(٢) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذّنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيما للشُّنْعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ٱبن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بما » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . وٱعتصتِ النّواةُ إذا ٱشتدّت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شىء ؛ وعُرف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سُفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانية — قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَادُوا) معناه صاروا يهودا ؛ نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت

Marfat.com

عن لفظها . وقيل : سُمُّــوا بذلك لتوبتهــم عن عبــادة العجل . هاد : تاب . والهــائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى آمرؤ من حُبّه هائِدُ *

أى تائب . وفى التزيل : « إنّا هُــدْنَا إلَيْكَ » أى تُبْنَا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيــادة إذا تابوا . وقال آبن عرفة : « هُدْنَا إليــك » أى ســكنّا إلى أمرك . والهــوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبوالسَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثـــة ــ قوله تعــالى : (وَالنَّصَارَى) جمــع ، واحده نَصْرانِىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء؛ وهذا قول ســيبويه . والأنثى نصرانة؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[(١)] :

صدّتْ كما صــدّ عمــا لا يَحِلّ له　*　ساقِى نَصارَى قُبيل الفِصْحِ[(٢)] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ؛ كَمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد ســيبويه شاهدًا على قوله :

تـــراه إذا دار العِشَـــا مُتَحَنِّفًـــا　*　ويُضْحِى لديه وهو نَصْرانُ شامِسُ

وأنشـــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجَــد رأسُها　*　كما أسجَــدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنّفِ[(٣)]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءَى النسب؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوّدانه أو يُنَصّرانه " . وقال عليه السلام : " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودِىّ ولا نَصرانىّ

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها المـاء فعافته .　(٢) فى نسخ الأصــل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيد لهم .　(٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى ، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

Marfat.com

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النــار » . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها، وقياســه النصرانيون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصِرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل : عيسى الناصرى؛ فلما نُسب أصحابه إليــه قيــل النصارى؛ قاله آبن عباس وقتادة . وقال الجــوهرى : ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر :

لمــا رأيتُ نَبَطًا أنصــارَا * شَمَّــرت عن رُكبتىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعــة — قوله تعــالى : (والصَّابِئِيــنَ) جمــع صابئ، وقيل : صابٍ؛ ولذلك آختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأتِ النّجوم إذا طلعت، وصَبَأتْ ثَنِيّةُ الغلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعــله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســـة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم — على مايأتى بيانه فى المــائدة(1) — وضَرْبُ الجزية عليهم؛ على مايأتى فى سورة « براءة »(2) إن شــاء الله . وآختُلف فى الصابئين؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه . قال آبن المنذر وقال إسحاق : لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجيح : هم قوم تَركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة، لا تؤكل ذبائحهم . آبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القِبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس؛ رآهم زياد

(1) راجع ج ٦ ص ٧٦ . (2) راجع ج ٨ ص ١١٠ .

Marfat.com

ابن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم — فيما ذكره بعض علمائنا — أنهم مُوَحّدون معتقِدون تأثير النجوم وأنها فعالة ؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإِصْطَخْرِيّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أى صدّق . و « مَن » فى قوله : « مَنْ آمَنَ » فى موضع نصب بدل من « الذين » . والفاء فى قوله « فَلَهُمْ » داخلة بسبب الإبهام الذى فى « مَن » . و « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » ابتـداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون «من» فى موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط . و « آمن» فى موضع جزم بالشرط ، والفاء الجواب . و « لهم أجرهم » خبر « من » ، والجملة كلها خبر « إنّ » ؛ والعائد على « الذين » محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمـان بالله واليوم الآخر آندارج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعـــة — إن قال قائل : لِمَ جُمِـع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» و « آمن » لفظ مفرد ليس بجمع، و إنمـا كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أنّ « مَن » يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنًّى ومجموعاً ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : « وِمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ . وقال الشاعر :

ألِمّـا بسَلْمَى عنكما إنْ عَرضْتُمَا * وقُولَا لهـا عُوجى على مَن تخلّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإنْ عاهـدتَنى لا تخـونُنى * نكن مثـلَ مَن ياذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب ، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِـعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيهـا . و إذا جرى ما بعد « مَن » على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هـذه الآية . و إذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعـدُ على اللفظ ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقـد مضى الكلام فى قوله تعـالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثامنـــة — رُوِىَ عن ٱبن عباس أن قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » الآية .
منسوخ بقوله تعـالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره :
ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمـانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّـورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ هذه الآية تفسّر معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »[1] . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فٱستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعته فرميْتَ به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ٱبن الأعرابىّ : الناتقُ الرافعُ، والناتقُ الباسـطُ، والناتقُ الفاتقُ . وٱمرأة ناتق ومِنتاق : كثيرة الولد . وقال القُتَبِىّ : أخذ ذلك من نَتْق السِّقاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزُّبْدة منـه . قال وقوله : « وإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » قال : قُلِع من أصله .

وٱختلف فى الطور؛ فقيل : الطور ٱسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره؛ رواه ٱبن جريج عن ٱبن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبت . وقال مجاهـد وقتاده : أى جبل كان . إلا أن مجاهدا قال : هو ٱسم لكل جبل بالسريانية؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب[2] . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمِّىَ بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لمـا جاء بنى إسرائيل من عنـد الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصعقوا ثم أُحْيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فٱقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٢ (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فرسخ في مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلّة ، وأُتُوا ببحر من خلفهم ، ونار من قِبَل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بها عباده ، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان [في قلوبهم](١) لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا ، فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِد واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بما فيه . وقيل : بقوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أى تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ »(٢) . وقد روى النسائي عن أبى سعيد الخُدْرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ من شرّ الناس رجلًا فاسقًا يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شيء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فما لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »(٣) . فأُمرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا ؛ لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتّباع الأهواء . روى الترمذي عن جُبَيْر بن نُفَير عن أبى الدرداء قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هذا أوانٌ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية . (٢) راجع ج ٢ ص ٤١ (٣) راجع ج ١٥ ص ٢٧٠

Marfat.com

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء ". فقال زياد بن لَبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لَنقرأنه ولَنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: "ثَكِلَتْكَ أمُّك يا زياد أن كنتُ لأَعُدُّك من فقهاء المدينة هـذه التوارة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغني عنهم" وذكر الحديث، وسيأتي. وخرّجه النسائي من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد: "ثَكِلَتْك أُمُّـك يا زياد هـذه التوارة والإنجيل عند اليهـود والنصارى". وفي المُوَطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان: « إنك في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه، قليلٍ قُرّاؤه، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضيّع حروفه، قليلٍ مَن يسأل، كثيرٍ مَن يُعطي، يطيلون الصلاة ويُقصرون فيـه الخطبـة، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم. وسيأتي على النـاس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قرّاؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن، وتُضيّع حدوده؛ كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، و يقصرون الصلاة، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم ». وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا. وقـد قال يحيي: سألت آبن نافع عن قوله: يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم؟ قال يقول: يتبعون أهواءهم و يتركون العمل بالذى آفترض عليهم. وتقـدّم القول في معنى قوله: « لعلكم تتقون »(١). فلا معنى لإعادته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ تولّى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم؛ ثم آستعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات إتساعا ومجازا. وقـوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعـد البرهان؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل. وقـوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ « فضلُ » مرفوع بالأبتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره؛ لأن العرب آستغنت عن إظهاره؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر. والتقدير فلولا فضل الله تدارككم. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عطف على « فضل » أي

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء.

Marfat.com

لطفه و إمهاله . ﴿لَكُنتُم﴾ جواب «لولا» . ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان؛ وقد تقدّم[(١)] . وقيل : فضله قبول التوبة، و « رحمته » العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ٱبن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ « علمتم » معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى . فإذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه : « علمتم » بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هذا بمعنى المعرفة؛ فٱعلم . «ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ» صلة « الذين » . والاعتداء . التجاوز، وقد تقدّم[(٢)] .

الثانيــة — روى النَّسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهوديّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبيّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين[(٣)] . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات؛ فقال لهم : ”لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّة يهودُ ألّا تعدوا فى السّبت“ . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبيّ . قال : ”فما

(١) راجع ص ٢٤٨ (٢) راجع ص ٤٣٢ (٣) الذى فى نسخة النسائى : « لو سمعك كان له أربعة أعين » مع تأنيث العدد أيضا .

Marfat.com

يمنعكم أن تتبعونى " ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرّيته نبيّ ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان »(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت. والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة(٢) وألقاها فى ذَنَب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِىَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف »(٣) قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . واختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص ٣٠٦
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

Marfat.com

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال آبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال آبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما آحتج به آبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألَا ترونها إذا وُضِع لهـا ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِىَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسختْ" فمتأوّل على ما يأتى . قال آبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال آبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلف إلى زمان عمرو؟ قلنـا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم[(1)] حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبـارهم ومسوخهم[(1)] ، حتى يعلموا أن الله يعـلم ما يُسِرّون وما يُعلنـون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّـه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هـذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمـرو بن ميمون الأَوْدى فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة آجتمع عليها قردة

(1) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

Marfat.com

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسـعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارى من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمى عن الفَرَبْرِى أصلاً شىء من هذا الخبر فى القردة ؛ ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارى فى التاريخ الكبير : قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم. وليس فيه «قد زنت». فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارى دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب عمرو بن ميمون وأن كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأن رواته مجهولون . وقد ذكره البخارى عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدى مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ؛ وليسا ممن يُحتجّ بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف ، وإقامة الحدود فى البهـائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفأر" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسخت" وما كان مثله ، فإنمـا كان ظناً وخوفاً لأن يكون الضب والفار وغيرهما ممـا مُسخ ، وكان هذا حَدْساً منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفار ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى ممـا مسخ ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلكْ قوماً أو يعذّب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك"[١]. وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

[١] رقم الحديث ٢٦٦٣ - ٢/٤ - ٢٠٥١ -

Marfat.com

فدلّ على صحة ما ذكرنا . و بالله توفيقنا . ورُوِى عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنمـا مُسِخت قلوبُهم فقط، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ « قردة » خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، و إن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأته خَسأ وخَسِئ وٱنخسأ ، أى أبعدته فبعُد . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا »[1] أى مبعَدًا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَا »[2] أى تباعدوا تبـاعد سخط . قال الكسائى : خسأ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤ الرجل قماء وقماءة صار قميئًا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعـالى : فَجَعَلْنَـٰهَا نَـكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَـا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمة التى مُسِخت . وقيـل : الحيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنّكال : الزجروالعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيـود . وسُمِّيت القيـود أنكالا لأنها يُنْكل بهـا؛ أى يمنع . و يقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل[3]؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل، ونَكِل يَنْكَل إذا ٱمتنع . والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَـكِّل مَن وراءهم ؛ أى تُجبِّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ٱبن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكّل بالإنسان؛ قال[4] :

* فارمِ على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لاغير . (٤) القائل رباح المؤملى . وقبله :

* يارب أشقانى بنـو مؤمل * وبعده : * بصخرة أوعرض جيش جحفل *

(عن شرح القاموس) .

Marfat.com

قوله : ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ٱبن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثـل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ؛ ولما يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ٱبن عطية : وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ٱبن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . وٱختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن ٱبن عباس أيضا : « لما بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : « لما بين يديها » من ذنوبهم، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعـالى : ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال ، ووزنهـا مَفْعِـلة من الاتعاظ والازدجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الاسم . قال الخليل : الوَعْظ التذكير بالخير فيما يَرِقّ له القلب . قال المـاوَرْدِىّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعـاندين . قال ٱبن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة . وقال الزجاج : « وموعظة للتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ ٱنتهكوا حُرَم الله فى سَبْتهم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حُكى عن أبى عمـرو أنه قرأ « يَأْمُرْكُمْ » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هـذا لأن الراء حرف الإعراب، وإنمـا الصحيح عن أبى عمـرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾ فى موضع نصب بـ« يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿بَقَـرَةً﴾ نصب بـ« تذبحوا » . وقـد تقدّم معنى الذبح[1]، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم فى التلاوة ، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدّم فى المعنى على جميع ما ٱبتدأ به من شأن البقرة . و يجوز أن يكون قوله : « قتلتم » فى النزول مقدّما ، والأمر بالذبح مؤخرا . و يجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون « و إذ قتلتم » مقدّما فى المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وٱنقضائه فى قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ـ إلى قوله ـ إِلَّا قَلِيلٌ »[1] . فذكر إهلاك مَن هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرًا فى الخطاب ؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا »[2] ، وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثـالثـــة ـــ لاخلاف بين العلماء أن الذّبح أوْلى فى الغنم ، والنحر أوْلى فى الإبل ، والتخيّر فى البقر . وقيل : الذبح أوْلى ؛ لأنه الذى ذكره الله ، ولقُرب المنحَر من المذبح . قال ٱبن المنذر : لا أعلم أحدا حَرّم أكل ما نُحر ممـا يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك ، وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه . وسيأتى فى سورة « المـائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ »[3] مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال المـاوردى : و إنما أمروا ـــ والله أعلم ـــ بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علّة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة ٱسم للأنثى ، والثّور ٱسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وٱمرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ (٣) راجع جـ ٦ ص ٥٤

Marfat.com

بَقَر بطنه ؛ أى شقه ؛ فالبقرة تَشُقّ الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أى شقه . والبَقِيرة : ثوب يُشَقّ فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث ٱبن عبـاس فى شأن الهُـدهد " فبقر الأرض " . قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع المـاء، فرأى المـاء تحت الأرض . قال الأزهرى : البقر ٱسم للجنس وجمعه باقر . ٱبن عرفة : يقال بقير وباقر و بيْقور . وقرأ عكرمة وٱبن يَعمر « إن الباقر »[1] . والثَّور : واحد الثيران . والثّور : السيّد من الرجال . والثّور القطعة من الأَقِط . والثّور : الطُّحْلُب . وثَوْر : جبل . وثَوْر : قبيلة من العرب . وفى الحديث : "ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشّـفق " يعنى ٱنتشاره ؛ يقـال : ثار يثـور ثوراً وثورانا إذا ٱنتشر فى الأفق . وفى الحديث : " من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن " . قال شَمِر : تثـوير القرآن قراءته ومفاتشة العلمـاء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لمـا قال لهم : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنهـم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : ٱسمـه عاميل — وٱشـتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسـول الله بين أظهرنا؛ فأتَوْه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسَامة[2] فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمـعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عمـا سألوه عنه وٱحتكموا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهـزء : اللّعب والسُّخرية؛ وقد تقدّم[3] . وقرأ الجَحْدَرى « أيتخذنا » بالياء؛ أى قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاسـتعاذ منه عليه السلام؛ لأنهـا صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فٱسـتعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا ؛

(١) فى لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجميع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها » راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٠٧ .

Marfat.com

لمن يخبرهم عن الله تعالى ، وظاهر هذا القول يدلّ على فساد ٱعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته ، ـ وقال : إن الله يأمرك بكذا ـ : أتتخذنا هُزُؤا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل ، وأنه مفسد للدين .

قوله تعالى : ﴿هُزُوًا﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل ٱسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُل ورُسْل ، وعُون وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »(١) فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

مسـألة ـ فى الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل ؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلًا ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء ، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

(١) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

Marfat.com

قوله تعالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو آمتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله آبن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ولغـة بنى عامر «آدعِ» وقد تقدّم[(١)] . و﴿يُبَيِّن﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وماهِيّة الشيء : حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لمـا أمر ببقرة آقتضى أيّ بقرة كانت ، فلمـا زاد فى الصفة نسـخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بآبنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المُسِنّة . وقد فَرَضَت تَفْرِض فروضًا ؛ أى أسَنّت . ويقال للشيء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِي فرأسِي أبيضُ * مَحَامِـلٌ[(٢)] فيهـا رجال فُـــرّضُ

يعنى هَرْمَى؛ قال آخر :

لعَمْرُك[(٣)] قـد أعطيتَ جارك فارضًا * تُسَاق إليــه ما تقـوم على رِجْلِ

أى قديمـا؛ وقال آخر :

يا رُبّ ذى ضِغْنٍ علىّ فارضِ * له قُـروء كقُروء الحـائض

---

(١) راجع ص ٤٢٢ (٢) فى الصحاح للجوهرى : « محاول » بالفاء ، وفيـه رواية أخرى رواها آبن الأعرابى هى :
* محامل بيض وقـوم فرض *
يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة «فرض» .
(٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنى بقرة هَرِمَة .

Marfat.com

أى قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارضٌ» خبر مبتـدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض وكذا «لا ذلول» ، وكذلك «لَا تَسْقِى الحَـرْثَ» وكذلك «مُسَلَّمَةٌ» فاْعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِـدْ * أصبحتَ مِنّى كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضـا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِله الفحل؛ وهى مكسورة الباء . و بفتحها الفَتِيّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قد ولدت بطنـاً أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه ؛ بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْت بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارض * ولا بِعَـوان ذاتِ لَوْن مُخَصّف

فرس أَخْصَف : إذا ٱرتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهـد : العَوَان من البقر هى التى قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغـة . ويقال : إن العَوَان النّخلةُ الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصُلُ (١)

أى لا هى صغيرة ولا هى مُسِنّة ؛ أى هى عَوان ، وجمعها « عُوْنٌ » بضم العين وسكون الواو ؛ وسُمع « عُوُن » بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنَت تَعوِيناً .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجـديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فمـا تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفَوْر ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحـة ذلك أنه تعـالى ٱستقصرهم حين لم يبادروا إلى فعـل ما أُمروا به فقال :

---

(١) فى الأصول : « تهز » بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى « تهرّ الناس » أى تصيّرهم يهرّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : ٱشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

Marfat.com

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيـل : لا ، بل على التراخى؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله آبن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَـا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَـا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِـعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ «ما» آستفهام مبتدأ ، و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمـرة . واللَّوْن : النَّوع . وفلان مُتَلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يـوم تتلوّن * غير هـذا بك أجمـل

ولوّن البُسْر تلوينًـا : إذا بدا فيه أثر النُّضج . واللَّوْن : الدَّقَل، وهـو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة، واحدها لِينة .

قوله : ﴿صَـفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنهـا صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكىّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وآبن جُبير : كانت صـفراء القرن والظِّلْف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء؛ قال الشاعر (1) :

تلك خَيْلِى منـه وتلك رِكَابِى * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيب

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ، وهـذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا فى الإبل؛ قال الله تعالى : « كأنّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لمـا أكّده بالفُقُوع ، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة ، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب : أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ، ودَجُوجِىّ وغِرْبِيب ، وأحمرُ قانِئ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهَقٌ ولِهَـاق ويَقَق ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقـعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلَة اللغـة عن العرب . قال

---

(1) القائل هو الأعشى ؛ كما فى اللسان .

Marfat.com

الكسائى : يقال فَقَع لَوْنُهَا يَفْقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفَقَّع بأصابعه إذا صوّت ؛ ومنه حديث ٱبن عباس : نهى عن التفقيع فى الصلاة ؛ وهى الفرقعة، وهى غمز الأصابع حتى تَنْقِض[(١)] . ولم ينصرف «صفراء» فى معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيها ألفَ التأنيث وهى ملازمة لخالفت الهـاء ؛ لأن ما فيه الهـاء ينصرف فى النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ٱبن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر ؛ حكاه عنـه النقاش . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : من لبس نعلى جلد أصفرَ قلّ همّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونَهى ٱبن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود ؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ » تُعجب . وقال أبو العالية : معناه فى سَمْتها ومنظرها فهى ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَـا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذَكَّر البقر لأنه بمعنى الجمـع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَـا » فذكّره للفظ تذكير البقر. قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر و باقور و بقر . وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة ؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبى « إن البقر تَّشابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبه» كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

Marfat.com

إلا أنه بغير ألف. وفى مصحف أُبَيّ «تَشّابهت» بتشديد الشين. قال أبو حاتم: وهو غلط؛ لأن التـاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة. وقرأ يحيى بن يَعمر «إن الباقر يشّابه» جعله فعلا مستقبلا، وذكّر البقر وأدغم. ويجوز «إن البقر تَشَـابَهُ» بتخفيف الشـين وضم الهـاء، وحكاها الثّعلبي عن الحسن. النحاس: ولا يجوز «يَشَابه» بتخفيف الشين والياء، وإنمـا جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين. والبقر والباقر والبَيْقور والبَقير لغاتٌ بمعنًى، والعرب تذكّره وتؤنّثه، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشابه». وقيل: إنمـا قالوا: «إنّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليمـان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر "فِتَنًا كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر". يريد أنها يشبه بعضها بعضا. ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ مّا وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو ما استثنوا(1) ما اهتدَوْا إليها أبدا". وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله. فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماماً به. و«شـاء» فى موضع جزم بالشرط، وجوابه عنـد سيبويه الجملة «إن» وما عملت فيه. وعند أبى العباس المبرّد محذوف.

قوله تعـالى: قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ قرأ الجمهور «لا ذلولٌ» بالرفع على الصفة لبقرة. قال الأخفش: «لا ذلول» نعته ولا يجوز نصبه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي «لا ذلولَ» بالنصب على النفى والخبر مضمر. ويجوز لا هى ذلول، لا هى تسقى الحرث، هى مُسَلّمة. ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل؛ يقال: بقرةٌ مذلَّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال). ورجل ذليل بيّن الذُّل (بضم الذال). أى هى بقرة صعبة غير رَيِّضة لم تذلّل بالعمل.

(1) فى نسخة من الأصل: «لولا» وروى الحديث من طرق بلفظ: «لو لم يستثنوا».

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ « تُثير » فى موضع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحْشِيّة ، ولهـذا وصفها الله تعـالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسق الحرث، أى لا يُسْنَى بهـا لسَقْى الزرع ولا يُسقى عليهـا . والوقف هاهنا حســن . وقال قوم : « تثير » فعـل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لهـا ، وأنها كانت تحـرث ولا تسق . والوقف على هـذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مسـتأنفا ؛ لأن بعـده « ولا تسق الحرث » ، فلو كان مستأنفًا لمـا جمع بين الواو و « لا » . الثـانى — أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون «تثير الْأَرْضَ» فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ؛ كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيل ويُذرِى تُرْبَه ويُثيره ٭ إثارةَ نَبّـاث(1) الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسق » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن فإنه(2) علم الأوّلين والآخرين" وفى رواية أخرى : " من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر(3) القرآن" وقد تقدّم . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلّبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مســـئلة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّـلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والّليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصّفة تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(1) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشـتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا . (2) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » . (3) راجع ص ٤٤٦

Marfat.com

الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان . ورُوِى عن ابن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقه صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد فى ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه فى آخر السورة فى آية الدَّيْن[1] ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هى مُسَلَّمة . ويجـوز أن يكون وصفًا ؛ أى أنها بقرة مُسَلَّمة من العَرَج وسـائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمـل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعـالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِـعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وَشْى ، حُذفت الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّـيَة مأخوذة من وَشْى الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثور مُوَشًّى : فى وجهه وقوائمه سـواد . قال ابن عرفة : الشِّيَة اللَّون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغيِّر الكلام ويُلَوِّنه فيجعله ضروبا ويزيِّن منه ماشاء . والوَشْى : الكثرة . ووَشَى بنـو فلان : كثروا . ويقال : فَرَسٌ أبلَقُ ، وكَبْشٌ أَخرَجُ ، وتَيس أَبرَقُ ، وغرابٌ أَبقَعُ ، وثور أَشْـيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقَـة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ؛ نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل وُلد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غَيْضَة وقال : اللّهُمّ إنى أستودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل ، فلما كبر الصبى قالت له أمّه ـــ وكان بَرًّا بها ـــ : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيهـا ـــ وكانت مسـتوحشة ـــ فجعل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيـه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أُمِروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا آشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرْضُوه فى ملكه ، فاشتروْها منه بوزنها مَرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدّى : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكها دنانير . وذكر مكّىّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألْآن » قطع ألف الوصل؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهاً آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عاداً لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الْآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الْآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنِيت كما بُنِىَ هذا ، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل؛ تشبيهاً بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة (١) . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفاً من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنبِّه .

قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدم على أوّل القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً ؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أوّل القصة .

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ٱبنُ عمّها فمنعه عَمّه ؛ فقتله وحمله من قريتــه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيــل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وٱدّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرِمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له ٱثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وٱدّعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآية . ومعنى « ادّارَأْتُمْ » : ٱختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الآبتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فى موضع نصب بـ « مُخْرِج » ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿تَكْتُمُونَ﴾ جملة فى موضــع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمــدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانِىّ . قال ٱبن عباس : قَتل هــذا الرجلُ عمّه ليرثه . قال ٱبن عطية : و بمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلَاح فى عَمّه هى كانت سبب ألا يَرِث قاتل ؛ ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المــال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . و يرث قاتل الخطأ من المــال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ؛ لأنه لا يُتَّهم على أنه قتــله ليرثه و يأخذ ماله . وقال سـفيان الثَّوْرىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المــال ولا من الدِّية . وهو قول شُرَيح وطاوس والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ . ورواه الشَّعْبِىّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المــال جميعا ؛ حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث(١) إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ وما بعدها .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب، إذ فيه يُركَّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها، فلما ضُرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ٱبن وهب وٱبن القاسم على صحة القول بالقَسَامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل ٱعتبار قول المقتول دمى عنـد فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله ٱحتمال ؛ فافترقا . قال ٱبن العربي : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلمـا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه . وٱستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدّم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحُكْم بالقَسامة ؛ فرُوِىَ عن سالم وأبى قِلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة[1] التّوقف فى الحُكم بهـا . وإليـه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱختلفوا فى كيفيّة الحُكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلفوا ٱستحقُّوا ، وإن نَكَلُوا حلف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِءوا . هذا قول أهل المدينة واللّيث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

Marfat.com

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشَّعْبِي والنَّخَعِي ، و به قال الثَّوْرِى والكوفيّون ؛ واحتجّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير ابن يسار ، وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعى عليهم وهم اليهود . و بما رواه أبو داود عن الزُّهْرِى عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : " أيحلف منكم خمسون رجلا " . فأبوا ؛ فقال للأنصار : " استحقّوا " فقالوا : نحلف على الغيب يا رسـول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسـلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجِد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيّنـوا[1] . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : " لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمـين على المدّعى عليه "[2] . رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يتابع سعيد فى هذه الرواية فيما أعلم ؛ وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وابنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفيّ وعيسى بنُ حماد و بِشْرُ بن المفضَّل ؛ فهؤلاء سبعة . و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث سـعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال فى حديثه : فَوَداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى فى الدّيات ولا يُصالَح بها عن غير أهلها ، وحديث أبى داود مرسـل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هـذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِى واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكْم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليـه وسلم حكماً فى شيء من الأشـياء فيُستثنى من جملة هـذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القـاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى بعض النسخ . (٢) كذا ورد هذا الحديث فى بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هى الحجة فى الدعوى آخرا ، و إلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

Marfat.com

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . وممـا خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسامة . وقد روى آبن جُريج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " البيّنةُ على مَن آدّعى واليمـينُ على مَن أنكر إلّا فى القَسامة " . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقد آحتج مالك لهذه المسئلة فى مُوَطّئه بمـا فيه كفاية ؛ فتأمله هناك .

مســـئلة — وآختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها ؛ وهو قول مالك واللّيث وأحمد وأبى ثَوْر ؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم " . وروى أبو داود عن عمـرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسامة من بنى نضر بن مالك . قال الدّارَقُطْنى : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت عليّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحُمَيْدى وإسحاق بن رَاهُوَيْه يحتجّون به ؛ قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنمـا توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وآبن عباس ؛ وهو قول النَّخَعى والحسن ، وإليه ذهب الثَّورى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، وآحتجوا بمـا رواه مالك عن آبن أبى ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبى حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دِية دمِ قتيلكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن آستحق دِية صاحبه فقد آستحق دمه ؛ لأن الدّية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك آستحقاقا للدم .

مســـئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صـدق مدّعى القتل ؛ كشهادة العـدل الواحد على رؤية القتـل ، أو يرى المقتول يتَشَحّط[(1)] فى دمه ، والمتّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل . وقد آختلف فى اللّوْث والقول به ؛ فقـال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية آبن القاسم عنه .

(١) يتشحط فى دمه : أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ .

Marfat.com

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى آبن وهب أن شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن آبن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضى أبو بكر بن العربى: آختلف فى اللّوث آختلافا كثيرا؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به آبن القاسم وآبن عبد الحكم . ورُوِى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسَامة . وبه قال مالك واللّيث بن سعد . وآحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللَّوْث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة وإن لم يكونوا عدولا . وأوْجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، وآستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل فى مَحلّة قومٍ وبه أثَرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيلَ إذا وُجد فى مَحلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســئلة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللَّوْث ، فلِم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال آبن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان؛ وبأن العداوة لَوْث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثًا ؛ كما تقدّم . قال الشافعى :

Marfat.com

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مسـألة — وآختلفوا في القتيـل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأي : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شيء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيـل فالدّية على المشتري وليس على السكان شيء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّبًا وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذي وُجد القتيل بين أظهرهم شيء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان في الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبي ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَر كانوا عُمّالًا سُكّانًا يعملون فوُجد القتيل فيهم . قال الثوري ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعني أهل الدور . وقال أحمد : القول قول آبن أبي ليلى في القسامة لا في الدية . وقال الشافعي : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مسـألة — ولا يحلف في القسامة أقلّ من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام في حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من آثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك واللّيث والثّوْري والأوزاعيّ وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفسُهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعي . قال الشافعي : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له المِلك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة ؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

Marfat.com

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدَّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مســـئلة — فى قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخى ونصّ عليه ابن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » على ما يأتى(1) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم(2) . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (2) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

Marfat.com

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا، ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقَسَاء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو، كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »[2] المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِيّ :

أحبّ محمدا حبًّا شديدا * وعبّاسا وحمزة أو عليّا

فإن يك حبّهم رشدا أُصِبْه * ولستُ بمخطئ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر، وإنما قصد الإبهام. وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا؛ ثم استشهد بقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[4] وقال : أوَكان شاكّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

---

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر، مثل القسوة والقساوة .

(٢) راجع ١٥ ص ١٣٠

(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥

(٤) راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

Marfat.com

تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ٱبن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله «كَالْحِجَارَةِ»؛ لأن المعنى فهى مثل الحجـارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشـدَّ » بالفتح عطف على الحجـارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَة « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار (١) . ويشّقق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهـارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ٱبن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لمـا» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجِر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذر شقىّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمـا تتفجر بالتـاء، ولا يجـوز لمـا تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجـوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشّق واحد الشُّقوق؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليـه شقوق، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ٱرتفع إلى وظيفها (٢) ؛ عن يعقوب . والشّق: الصبح . و«ما» فى قوله :

---

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

Marfat.com

«لَمَا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها آسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ» . وقرأ قتادة «وإنْ» فى الموضعين ، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج المـاء منها وتردّيها . قال مجاهد: ماتردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن آبن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قـوله : «وإن منهـا لمـا يَهْبِط مِن خشـيةِ اللهِ» : البَرَد الهـابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجـارة لمـا كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب: ناقة تاجرة؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة؛ كما آستعيرت الإرادة للجدار فى قوله : «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» ، وكما قال زيد الخيل[1] :

لمـا أتى خبر الزبير تواضعت ＊ ســورُ المدينة والجبالُ الخُشّــعُ

وذكر آبن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : «وإنّ مِنها» راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة؛ أى من القلوب لمـا يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح؛ فإنه لايمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

---

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير. ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين آنصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

Marfat.com

إني لأعرفه الآن ". وكما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثَبِير[(١)] اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله ". فناداه حراء : إلىّ يارسول الله . وفى التنزيل: « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ »[(٢)] الآية . وقال: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »[(٣)] يعنى تذللاً وخضوعا ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان »[(٤)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى :﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «بغافل» فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[(٥)] . ولا تحتاج «ما» إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم؛ أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام .

---

(١) ثبير : جبل معروف عند مكة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

تم الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى، وأوله قوله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية .

Marfat.com

الجزء الثاني

الجامع لأحكام القرآن

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثاني

أعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

فهــرس الجــزء الثــانى

ســـورة البقـــرة

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ... » الآية . فيــه أربع مسائل . ١

تفسير قوله تعالى : « وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ... » الآية ٣

تفسير قوله تعالى : « ومنهــم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أَمَانِىّ ... » الآية . فيه أربع مسائل : ٥

تفسير قوله تعالى : « فَوَيْلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ... » الآية . فيه خمس مسائل : معنى الويل وٱختلاف العلماء فيه . أوّل من كتب بالقلم . التحذير من التبديل والزيادة فى الشرع ٧

تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن تمسّنا النــارُ إلا أيامًا معدودةً ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الآختلاف فى سبب نزولها ١٠

تفسير قوله تعالى : « بَلَى مَن كسب سيئة ... » . الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام على « بــلى ونعم » . معنى السيئة . بيان أن المعلَّق على شرطين لا يتم بأقلهما . ١١

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ... » الاية . فيــه عشر مسائل : الآختلاف فى الميثــاق . الحض على بِرّ الوالدين واليتامى وذى القربى والمساكين . الأمر بالإحسان إلى جميع الناس ١٢

تفسير قوله تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . الكلام على الأســارى وفَكّ الأسرى ١٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنَا ... » الآية . معنى التَّقْفِيَة . بيان ما أوتيه عيسى عليه السلام من البينات ، ومعنى روح القدس ٢٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « بئسما اشتروا به أنفسهم ... » الآية . الكلام فى «بئسما» . ٢٧

تفسير قوله تعالى : «ولقد جاءكم موسى بالبينات ...» الآية . الكلام على البينات. ٣٠

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ... » الآية ٣١

تفسير قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ... » الآية . الكلام على حرص اليهود على الحياة ٣٤

تفسير قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل ... » الآية . الكلام على سبب نزولها . بيان ما فى جبريل وميكائيل من اللغات ٣٦

تفسير قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ... » الآية . فيه أربع وعشرون مسألة : الكلام على السحر وأصله . الاختلاف فى هل له حقيقة أولا . من السحر ما يكون كفرا من فاعله . الفرق بين السحر والمعجزة . اختلاف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى . الكلام على هاروت وماروت ٤١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ... » الاية . فيه خمس مسائل : بيان أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها . الكلام على سد الذرائع وحمايتها ٥٧

تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ... » الآية . فيه خمس عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان النسخ فى كلام العرب وحكمه . اختلاف العلماء فى الأخبار هل يدخلها النسخ . بيان الطرق لمعرفة الناسخ ٦١

تفسير قوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم ... » الآية . فيه مسألتان : الكلام على الحسد وأن فيه مذموما ومحمودا ٧٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ومَن أظلم ممن مَنع مساجد الله ... » الآية . فيه سبع مسائل
آختلف فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت . خراب المساجد يكون حقيقيًّا
ويكون مجازا . لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه . فى الآية دليل على أن الكافر
ليس له دخول المسجد بحال ٧٦

تفسير قوله تعالى : « ولله المشرقُ والمغربُ ... » الآية . فيه خمس مسائل :
اختلاف العلماء فى معنى « فأينما تُوَلُّوا » . الكلام على استقبال القبلة
فى الصلاة . التنفّل على الدابة . صلاة الجنازة على الغائب . آختلف فى تأويل
الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسُّنة ٧٩

تفسير قوله تعالى : « بَديعُ السموات والأرض ... » الآية . فيه ست مسائل :
الكلام على البدعة وبيان معانيها . بيان أن الأمر فى قوله : « وإذا قَضَى
أمرا » ينصرف على أربعة عشر وجهًا ٨٦

تفسير قوله تعالى : « ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى ... » الآية . فيه
مسألتان : الكلام على الدِّين والمِلّة والشريعة ، بيان أن الكفر كله مِلّةٌ واحدة. ٩٣

تفسير قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يَتْلُونَهُ ... » الآية . الكلام على هذه
الآية وفيمن نزلت ٩٥

تفسير قوله تعالى : « وإذ آبتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ فأتمهن ... » الآية . فيه
عشرون مسألة : الكلام على نَسَب إبراهيم . اختلاف العلماء فى المراد
بالكلمات . الكلام على الختان وآختلاف العلماء فيه . الكلام على الآستحداد .
الكلام على تقليم الأظفار . تنظيف اللّثة وتَنْقِيَة البَراجم . الكلام على قصّ
الشارب . الكلام على الشيب . معنى الذّرية وما فيها من اللغات . المراد بالعهد
فى قوله تعالى « لا ينال عَهْدِى الظالمين » . الكلام على الإمامة ومن يكون
إماما . القول فى أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أَوْلَى من الخروج عليه ٩٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيتَ مَثابةً للناس ... » الاية . الكلام على إقامة الحدّ فى الحَرَم . قول عمر رضى الله عنه : «وافقتُ ربى فى ثلاث» . الكلام على مقـام إبراهيم . الكلام على الصلاة داخل الكعبة وعلى ظهرها . آختلاف العلماء أيـا أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ١١٠

تفسير قوله تعالى : «وإذ قال إبراهيم رَبِّ آجعل هذا بلدًا آمِنًا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام فى مكة ، وهل صارت حَرَمًا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك . ١١٧

تفسير قوله تعالى : « وإذ يَرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ... » الآية . آختلاف العلماء فيمن بنى البيت أوّلا وأسّسه ١٢٠

تفسير قوله تعالى : « رَبّنَا وآجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ... » الآية . معنى الأمّة . بيـان المراد بالمناسك ، وأصل النسك فى اللغة ١٢٦

تفسير قوله تعالى : « رَبّنَـا وآبعث فيهم رسـولًا منهم ... » الآية . المعنى المراد من الحكمة ١٣١

تفسير قوله تعالى : « إذ قال له رَبُّه أَسْلِمْ ... » الآية . معنى الإسلام فى كلام العرب . ١٣٤

تفسير قوله تعالى : « ووَصّى بها إبراهيمُ بَنِيـه ويعقوبُ ... » الآية . الكلام على أولاد إبراهـيم ١٣٥

تفسير قوله تعالى : « تلك أُمّةٌ قد خَلَتْ ... » الآية . مذهب أهل السُّنة والجبرية والمعتزلة فى أفعال العباد ١٣٩

تفسير قوله تعالى : « صِبغَةَ الله ومَن أحسنُ مِن الله صِـبْغَةً ... » الآيات . بيان المراد بالصبغة . الكلام على الإخلاص ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : المراد بالسفهاء هنا . الكلام على سبب نزول هذه الآية . الآختلاف

Marfat.com

صفحة

فى وقت تحويل القبلة . الاختلاف فى كيفية استقبال الرسول عليه السلام لبيت المقدس . الكلام على أن فى هـذه الآية دليلا على جواز نسخ السنة بالقرآن، وعلى جواز القطع بخبر الواحد، وعلى أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبد بالحكم الأول. ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوسط . الكلام على قوله « وما كان الله لِيُضِيعَ إيمانكم » ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهـك فى السماء ... » الآية . الكلام على الشطر . بيان أن الكعبة قبلة فى كل أفق . آختلف هل فرض الغائب آستقبال عينها أو جهتها ١٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولكلٍّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيهَا ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوجهة . الحث على المبادرة بالصلاة أول وقتها ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم .. » الآية . بيان أصل الذكر ومعناه . الكلام على الشكر ١٧١

تفسير قوله تعالى : « ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشىء من الخوف والجوع ... » الآية . معنى البلاء . الكلام على الصبر وما جاء فيه ١٧٣

تفسير قوله تعالى : « الذين إذا أصابتهم مُصِيبَةٌ ... » الاية . فيه ست مسائل : معنى المصيبة واشتقاقها . من أعظم المصائب المصيبةُ فى الدِّين ١٧٥

تفسير قوله تعالى : « إن الصَّفَا والمَرْوَةَ من شعائر الله ... » الآية . فيـه تسع مسائل : الكلام على الصفا والمروة وما هما . أصل الصفا فى اللغـة . معنى الشعائر . طوافه صلى الله عليـه وسلم بالصفا والمروة حين قدم مكة . اختلاف العلماء فى وجوب السعى بين الصفا والمـروة . لا يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ١٧٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات ... » الآية . فيه سبع مسائل : اختلف في هذه الآية هل هي عامة في كل من كتم حقًّا ، أم خاصة باليهود . لا يجوز تعليم المبتدع الجدال ، ولا نشر الرخص في السفهاء . في الآية دليل على وجوب العمل بقول الواحد ١٨٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّار ... » الآيات . القول في أن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه . الخلاف في لعن العاصي المعيّن ١٨٨

تفسير قوله تعالى : « وإلٰهكم إلٰه واحد ... » الآية . فيه مسألتان : سبب نزول هذه الآية ١٩٠

تفسير قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ... » الآية . فيه أربع عشرة مسألة : بيان ما في السموات والأرض من آيات . القول في اختلاف الليل والنهار ، واشتقاقهما . الكلام على الفلك وركوب البحر . الكلام على الرياح وتصريفها وأسمائها . الكلام على السحاب . دليل الوحدانية ١٩١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيبًا ... » الآية . فيه أربع مسائل : سبب نزول هذه الآية . معنى الطيّب والحلال . النهى عن اتباع خطوات الشيطان ، وما هي خطواته ٢٠٧

تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ... » الآية . فيه سبع مسائل : أقوال العلماء في التقليد ٢١٠

تفسير قوله تعالى : « إنما حرّم عليكم الميتة والدّم ... » الآية . فيه أربع وثلاثون مسألة : الكلام في تحريم الميتة واستثناء السمك منها . اختلاف العلماء في جواز الانتفاع بالميتة أو بشيء من النجاسات . القول في جلد الميتة وشعرها وأنفحتها ولبنها . إذا وقع في القدر حيوان طائر أو غيره فمات . اتفاق العلماء على أن الدم حرام نجس . بيان تحريم لحم الخنزير وشحمه وشعره واشتقاق لفظه . الكلام

Marfat.com

صفحة

فيما أهِلّ به لغير الله . الترخيص للمضطر فى الأكل من الميتة بقدر ما يَسُدُّ رَمَقه ، وبيان الاضطرار . حكم المضطر إلى شرب الخمر والتداوى بها ٢١٦

تفسير قوله تعالى : « ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم ... » الآية . فيه ثمانى مسائل : بيان أن البر هو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر . الردّ على اليهود والنصارى فى ادعائهم حصر البِرّ على قبلتهم . الكلام فى المال هل فيه حَقٌّ سوى الزكاة . ٢٣٧

تفسير قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم القصاصُ فى القتلى .. » الآية . فيه سبع عشرة مسألة : سبب مشروعية القصاص وكيفيته . بيان الخلاف فى أخذ الدِّية من قاتل العمد . اختلافهم فيمن قَتَل بعد أخذ الدية ٢٤٤

تفسير قوله تعالى : ولكم فى القصاص حياةٌ ... » الآية . فيه أربع مسائل : اتفاق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد حقّه دون السلطان ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « كُتب عليكم إذا حَضَر أحدَكم الموتُ ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : الكلام فى مشروعية الوصية . اختلاف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالا . القول فى أنه لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث . إجماع العلماء على أن للإنسان أن يغيّر وصيته و يرجع فيما شاء منها . اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو مُحْكَمة . الكلام فى الوصية للأقربين وغيرهم . الاختلاف فى وصية البالغ الضعيف فى عقله والسفيه... ... ٢٥٧

تفسير قوله تعالى : « فمن بدّله بعد ما سمعه ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على الدَّين الذى أوصى به الميت . ما يجوز تبديله من الوصية ، وما لا يجوز إمضاؤه ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : « فمن خاف من مُوص جَنَفًا أو إثمًا ... » الآية . فيه ست مسائل : فى الآية دليل على الحكم بالظن . الكلام على أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عند الموت ٢٦٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيامُ ... » الآية . فيه ست مسائل : الكلام على الصوم لغة وشرعاً . فضل الصوم . اختلاف أهل التأويل فى موضع التشبيه ، هل يرجع إلى وقت الصوم وقدره ، أو هو راجع إلى أصل وجوبه ، أو على صفته ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : «فمن كان منكم مريضا أو على سفر» . فيه ست عشرة مسألة : الكلام على المرض الذى يجب معه الفطر . اختلاف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر . اتفاق العلماء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيِّت الفطر . اختلافهم فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر . الكلام على قضاء ما أفطره الصائم . الاختلاف فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه . القول فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ٢٧٦

تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين يُطيقونه فِدْيَة ... » فيه خمس مسائل : هل الآية منسوخة أو محكمة . الاختلاف فى مقدار الفدية ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « شَهْرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآنُ ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : الكلام على رمضان وآشتقاقه . هل يقال رمضان دون أن يضاف إلى شهر . الآختلاف فى ثبوت هلال رمضان . القول فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوّال . الكلام فى اختلاف المطالع . القول فى أن القرآن نزل فى أوقات مختلفة . ماذا يجب على الكافر إذا أسلم، أو على الصبي إذا بلغ فى رمضان . الكلام فى رؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهارًا . القول فيما إذا اختلف الناس فى آخر يوم من رمضان . التكبير فى آخر رمضان و بيان لفظه ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « و إذا سألك عبادى عنى ... » الآية . فيه أربع مسائل : الآختلاف فى سبب نزول هذه الآية . الكلام على الدعاء، وما يمنع من إجابته. ٣٠٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أُحِلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ... » الآية . فيه ست وثلاثون مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الرفث فى كلام العرب . الاختلاف فى الحد الذى يجب به الإمساك . الكلام على النية فى الصيام . ماذكر فى قوله : «الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» . القول فيمن أفطر فى رمضان عامدا . اختلافهم فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى رمضان . من جامع ناسياً لصومه او أكل . الكلام فيمن قَبّل أو باشر وهو صائم . القول فى صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنُب . الحائض تطهر قبل الفجر فى رمضان . إن ظنّ أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر . النَّهىُ عن الوصال فى الصوم . يستحبّ للصائم أن يصوم ستة أيام من شوّال . الكلام على الاعتكاف لغة وشرعًا . إجماع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد . ما يلزم المعتكف ٣١٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... » الآية . فيه ثمانى مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية . مايقع عليه اسم الباطل . الأقوال فى أن حكم الحاكم على الظاهر لايغيِّر حكم الباطن . النّهىُ عن الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة . اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مالٍ قلّ أو كثر أنه يُفَسَّق بذلك ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الأهِلّة ... » الآية . فيه اثنتا عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الهلال . جعلت الأهلة مواقيت لزوال الإشكال فى الآجال والمعاملات وغيرها . كان الأنصار إذا حجّوا وعادُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فنُهُوا عن ذلك . الكلام على الحُمْس... ... ... ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ... الآية » . فيه ثلاث مسائل : بيان أن هذه أول آية نزلت فى الأمر بالقتال . الكلام على صُلح الحديبية . النهى عن الاعتداء فى قتل الصبيان وما أشبههم إلا أن يكون لهم إذاية ٣٤٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى: « وأقتلوهم حيث ثقفتموهم ... » الآية. فيه خمس مسائل:

الكلام على القتال عند المسجد الحرام ٣٥٠

تفسير قوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ...» الآية. فيه مسألتان: ٣٥٣

تفسير قوله تعالى: «الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحُرُماتُ قِصاصٌ ...» الآية. فيه عشر مسائل: القول فى سبب نزول هذه الآية. هل لمن تعدّى عليه فى مال أو جرح أن يتعدّى بمثل ما تُعُدِّى به عليه؟ أن أمور القصاص وَقْفٌ على الحكام. آختلاف العلماء فى المكافأة فى أخذ الحقوق هل تُسمّى عدواناً. آختلافهم فيمن آستهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العروض التى لا تُكال ولا تُوزَن. القول فى أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص ٣٥٤

تفسير قوله تعالى: « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَة ... » الآية. فيه ثلاث مسائل: أقوال العلماء فى الإلقاء باليد إلى التهلكة. آختلف العلماء فى آقتحام الرجل فى الحرب وحمله على العدوّ وحده ٣٦١

تفسير قوله تعالى: « وأتِمّوا الحجَّ والعُمْرةَ لله ». فيه سبع مسائل: آختلاف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله. الكلام على مواقيت الحج. الدليل على وجوب العمرة. القول فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوِى حَجّاً ولا عمرة. آختلاف العلماء فى المراهق والعبد يُحرمان بالحج ثم يَحتلم هذا ويَعتق هذا قبل الوقوف بعرفة ٣٦٥

تفسير قوله تعالى: « فإن أُحصرتم فما آستَيْسر من الهَدْى ». فيه آثنتا عشرة مسألة: أقوال العلماء فى الإحصار فى الحج. ماذا يجب على المُحْصَر. القول فى الحاصر. الكلام فى الحلق والهدى. بيان الخلاف فى الإطعام فى فدية الأذى، وبيان مكانها. الكلام على التمتع والإفراد والقِران. الترخيص فى الصوم لمن لم يجد الهَدْى ٣٧١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ ... » الاية . فيه أربع عشرة مسألة :
الاختلاف فى الأشهر المعلومات . الاختلاف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر
الحج . معنى الرفث والفسوق والجدال فى الحج ٤٠٥

تفسير قوله تعالى : « ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلًا من ربكم » فيه مسألتان :
جواز التجارة فى الحج للحاج ٤١٣

تفسير قوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات ... » الآية . فيه ست عشرة مسألة :
الكلام على عرفات والوقوف بها . بيان فضل يوم عرفة . اختلاف العلماء
فى هيئة الصلاة بالمزدلفة . الكلام على المبيت بالمزدلفة ٤١٤

تفسير قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيثُ أفاض الناس ... » الآية . فيه أربع
مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية ٤٢٧

تفسير قوله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ... » الآية . فيه مسألتان :
معنى المناسك ٤٣١

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ... » الآية . فيه
ثلاث مسائل : الاختلاف فى تأويل الحسنتين . القول فى أن هذه الآية من
جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة ٤٣٢

تفسير قوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
بيان أن الرجل يأخذ مالًا يحج به عن غيره فيكون له ثواب ٤٣٤

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بعون الله وتوفيقه ، قد فرغنا من إعادة طبع الجزء الثانى من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي ، بعد مقابلته على عدة نسخ مخطوطة ، وقد أشرنا إلى كل نسخة بحرف ؛ ليسهل على الباحث الرجوع إليها عند الحاجة ، وهى :

١ — نسخة المكتبة الأزهرية رقم ٢٥٨ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ز » .

٢ — نسخة مكتبة حليم رقم ١ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ح » .

٣ — نسخة الدار رقم ٩٥ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « أ » .

٤ — نسخة الدار رقم ٢٦٨ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ب » .

٥ — نسخة الدار رقم ٢٨٣ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ج » .

هذا ، وإنا نسأل الله تعالى التوفيق والسداد . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحابته وسلم .

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

وكيل القسم الأدبى

فى ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣

٢٧ من يناير سنة ١٩٥٤

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ هذا آستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أى إن كفروا فلهم سابقة فى ذلك . والخطاب لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحِلف والجِوار الذى كان بينهم . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة؛ عن آبن عباس . أى لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا . و « أنْ » فى موضع نصب، أى فى أن يؤمنوا؛ نصب بأن، ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طَمَعًا وطَماعِيَة — مخفف — فهو طَمِعٌ؛ على وزن فَعِل . وأطمعه فيه غيره . ويقال فى التعجب : طَمُع الرجل — بضم الميم — أى صار كثير الطمع . والطمع : رزق الجُنْد؛ يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم؛ أى بأرزاقهم . وآمرأة مِطاع : تُطمِع ولا تُمكِّن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ الفريق آسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه فى أدنى العدد أفرقة، وفى الكثير أفرقاء . ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ فى موضع نصب خبر « كان » . ويجوز أن يكون الخبر « مِنْهم »، ويكون « يَسمعون » نعتًا لفريق؛ وفيه بُعْدٌ . ﴿ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قراءة الجماعة . وقرأ الأعمش « كَلِمَ الله » على جمع كلمة . قال سيبويه : وأعلم أن ناسا من ربيعة يقولون « مِنْهِم » بكسر الهاء إتباعا لكسرة الميم؛ ولم يكن المسكّن حاجزا حصينا عنده . « كلامَ الله » مفعول بـ « يسمعون » . والمراد السبعون الذين آختارهم موسى عليه

Marfat.com

السلام، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول فى إخبارهم لقومهم . هذا قول الربيع وآبن إسحاق ؛ وفى هـذا القول ضعف . ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ ، وأذهب بفضيلة موسى وآختصاصه بالتكليم . وقد قال السُّدّى وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع و يعيده لهم ؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ »(1) .

فإن قيل : فقد روى الكلبيّ عن أبى صالح عن آبن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه ، فسمعوا صوتا كصوت الشَّبُّور(2) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحيّ القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة » .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه آبن مَرْوان عن الكلبيّ وكلاهما ضعيف لا يحتج به ؛ وإنما الكلام شىء خُصّ به موسى من بين جميع ولد آدم ؛ فإن كان كلّم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فما فَضْلُ موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي »(3) . وهذا واضح .

الثالثـة ــ وآختلف الناس بماذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه ؛ فمنهم من قال : إنه سمع كلاما ليس بحروف وأصوات ، وليس فيه تقطيع ولا نفس ؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر و إنما هو كلام رب العالمين . وقال آخرون : إنه لما سمع كلامًا لا من جهة ، وكلامُ البشر يُسمع من جهة من الجهات الستّ ، علم أنه ليس من كلام البشر . وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام ؛ فعلم أنه كلام الله . وقيل فيه : إن المعجزة دلّت على أن ما سمعه هو كلام الله ؛ وذلك أنه قيل له : ألق عصاك ، فألقاها فصارت ثعبانا ؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال ، وأن الذى يقول له : « إِنِّي أَنَا رَبُّكَ »(4) هو الله جلّ وعزّ . وقيل : إنه قد كان أضمر فى نفسه شيئا لا يقف عليه

(1) راجع جـ ٨ ص ٧٥ . (2) الشبور (على وزن التنور) : البوق .
(3) راجع جـ ٧ ص ٢٨٠ . (4) راجع جـ ١١ ص ١٧٢

Marfat.com

إلا علام الغيوب، فأخبره الله تعالى فى خطابه بذلك الضمير، فعلم أن الذى يخاطبه هو الله جل وعز. وسيأتى فى سورة «القصص» بيان معنى قوله تعالى: «نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ»(١) إن شاء الله تعالى.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال مجاهد والسُّدّى: هم علماء اليهود الذين يحرّفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم. ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أى عرفوه وعلموه. وهذا توبيخ لهم؛ أى إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السَّنن، فكيف تطمعون فى إيمانهم !.

ودلّ هـذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده.

قوله تعالى: وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هذا فى المنافقين. وأصل «لقوا» لَقِيُوا وقـد تقدّم(٢). ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ الآية فى اليهود، وذلك أن ناسا منهم أسلموا ثم نافقوا؛ فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بمـا عُذّب به آباؤهم؛ فقالت لهم اليهود: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى حكم الله عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم؛ عن ابن عباس والسُّدّى. وقيل: إن عليًّا لمـا نازل قُرَيظة يوم خَيْبر سمع سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إليه وقال: يا رسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرَّض له؛ فقال: "أظنك سمعت شتى منهم لو رأونى لكفّوا عن ذلك" ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا، فقال لهم: "أنقضتم العهـد يا إخوة القردة والخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا:

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨١　　(٢) يراجع جـ ١ ص ٢٠٦ طبعة ثانية.

Marfat.com

ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدّثك بهذا؟ ما خرج هـذا الخبر إلا من عندنا! روى هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وإِذَا خَلَا ﴾ الأصل فى «خلا» خَلَوَ، قُلبت الواو ألفـا لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ وتقدّم معنى «خلا» فى أول السورة[1] . ومعنى « فَتَح » حَكَمَ . والفتح عند العرب : القضاء والحُكم؛ ومنه قوله تعالى : «رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ[2]» أى الحاكمين. والفتّاح : القاضى بلغة اليمن؛ يقال : بينى وبينك الفتّاح؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم . والفتـح : النصر؛ ومنـه قوله : « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا[3] » ، وقوله : « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ[4] » . ويكون بمعنى الفرق بين الشيئين .

قوله تعـالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُمْ ﴾ نصب بلام كَىْ، وإن شئت بإضمار أنْ، وعلامة النصب حذف النون . قال يونس : وناس من العرب يفتحون لام كى . قال الأخفش : لأن الفتح الأصل. قال خلف الأحمر: هى لغة بنى العنبر. ومعنى«لِيُحَاجُّوكُمْ»ليعيّروكم، ويقولوا نحن أكرم على الله منكم . وقيل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعـد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسّك بدين محمد فإنه نبىّ حقًّا . ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ قيل فى الآخرة، كما قال : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[5] ». وقيل: عند ذكر ربكم . وقيل : «عند» بمعنى «فى» أى ليحاجّوكم به فى ربكم؛ فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم؛ روى عن الحسن. والحجة: الكلام المستقيم على الإطلاق؛ ومن ذلك مَحَجّةُ الطريق . وحاججتُ فلانا فحججته، أى غلبته بالحجة؛ ومنه الحديث : "فحجّ آدمُ موسى" . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قيـل : هو من قول الأحبار للأتباع . وقيل : هو خطاب من الله تعالى للؤمنين؛ أى أفلا تعقلون أن بنى إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؛ ثم وبّخهم توبيخًا يُتْلَى فقال : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية . فهو ٱستفهام معناه التوبيخ والتقريع . وقرأ الجمهور «يعلمون» بالياء، وٱبن مُحَيْصِن بالتاء؛ خطاباً للؤمنين . والذى أسرّوه كفرهم، والذى أعلنوه الجَحْدُ به .

(١) يراجع جـ ١ ص ٢٠٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥١ (٣) راجع ص ٢٦ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

Marfat.com

قوله تعـالى . ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أى من اليهود . وقيل : من اليهود والمنافقين أمّيون، أى من لا يكتب ولا يقرأ، واحدهم أمّىّ، منسوب إلى الأمّة الأمّية التى هى على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنّا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب " الحديث . وقد قيل لهم إنهم أمّيّون لأنهم لم يصدّقوا بأمّ الكتاب ؛ عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : إنما قيل لهم أمّيّون لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نُسبوا إلى أمّ الكتاب ؛ فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب . عكرمة والضحاك : هم نصارى العرب . وقيل : هم قوم من أهل الكتاب، رُفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أمّيين . علىّ رضى الله عنه : هم المجوس .

قلت : والقول الأوّل أظهر ، والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ « إلّا » هاهنا بمعنى لكن ، فهو استثناء منقطع ؛ كقوله تعالى : « وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ »(١) . وقال النابغة :

حلفتُ يمينا غيرَ ذى مَثْنَوِيّةٍ(٢) * ولا عِلمَ إلّا حُسْنَ ظنٍّ بصاحبِ

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « إلّا أمانِىَ » خفيفة الياء؛ حذفوا إحدى الياءين استخفافا . قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدّد، فلك فيه التشديد والتخفيف؛ مثل أثافى وأغانى وأمانى، ونحوه . وقال الأخفش : هـذا كما يقـال فى جمـع مفتاح : مفاتيح ومفاتح، وهى ياء الجمع . قال النحاس : الحذف فى المعتل أكثر؛ كما قال الشاعر(٣) :

وهل يَرجِع التسليمَ أو يكشفُ العَمَى * ثلاثُ الأثافِى(٤) والرسـومُ البـلاقع

(١) راجع جـ ٦ ص ٩　　(٢) المثنوية : الاستثناء فى اليمين　　(٣) هو ذو الرمة ؛ كما فى ديوانه .

(٤) الأثافى (جمع أثفية ، بضم الهمزة وكسرها وسكون الثاء وتشديد الياء) : الحجر الذى توضع عليه القدر . والرسوم : بقايا الأبنية . والبلاقع (جمع بلقع) : الخراب .

Marfat.com

والأمانى جمع أُمنِيّــة وهى التلاوة؛ وأصلها أُمْنُويَة على وزن أُفعولة ، فأدغمت الواو فى اليـاء فانكسرت النون من أجل اليـاء فصارت أُمنيـة؛ ومنه قوله تعـالى : « إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِه » (١) أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته . وقال كعب بن مالك :

تمنّى كتابَ الله أوّلَ ليلِه * وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر :

تمنّى كتابَ الله آخِرَ ليلِه * تَمَنِّىَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

والأمانى أيضا الأكاذيب؛ ومنـه قول عثمان رضى الله عنه : ما تَمَنَّيْتُ منـذ أسلمت ، أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دَأْب وهو يحدّث : أهذا شىء رَوَيْتَه أم شىء تَمَنَّيْتَه ؟ أى آفتعلتَه . وبهذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد « أمانىّ » فى الآية . والأمانىّ أيضا ما يتمنّاه الإنسان ويشتهيه . قال قتادة : « إلا أمانىّ » يعنى أنهم يَتَمَنَّوْن على الله ما ليس لهم . وقيل : الأمانى التقدير؛ يقال : مَنَى له أى قدّر؛ قاله الجوهرى ، وحكاه ابن بحر ، وأنشد قول الشاعر:(٢)

لا تأمنَنّ وإن أمسيتَ فى حَرَمٍ * حتى تُلاقِىَ ما يَمْنِى لك المـانِى

أى يقدّر لك المقدّر .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ « إنْ » بمعنى ما النـافية ، كما قال تعالى : « إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ » . و « يَظُنُّون » يكذبون ويحدثون؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون ، وإنما هم مقلّدون لأحبارهم فيما يقرءون به .

قال أبو بكر الأنبـارى : وقد حدّثنا أحمد بن يحيى النحوى أن العرب تجعل الظنّ عِلْماً وشكًّا وكذباً ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين ، وإذا آعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظنّ شك ، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظنّ كذب؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أراد إلا يكذبون .

الرابعـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نَعتَ الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدّلون ويحرّفون فقال وقوله الحق : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » الآية . وذلك أنه لمـا درس

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ . (٢) نسب شارح القاموس هذا البيت لسويد بن عامر المصطلق

Marfat.com

الأمر فيهم، وساءت رعيّة علمائهم، وأقبلوا على الدنيا حِرْصًا وطمعًا، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم، فأحدثوا في شريعتهم و بدّلوها، وألحقوا ذلك بالتوراة، وقالوا لسفهائهم: هذا من عند الله؛ ليقبلوها عنهم فتتأكّد رياستهم و ينالوا به حطام الدنيا وأوساخها . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : ليس علينا في الأُمِّيين سبيل؛ وهم العرب، أي ما أخذنا من أموالهم فهو حِلّ لنا . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرّنا ذنب، فنحن أحبّاؤه وأبناؤه ؛ تعالى الله عن ذلك ! و إنما كان في التوراة « يا أحباري و يا أبناء رسلي » فغيّروه وكتبوا « يا أحبّائي و يا أبنائي » فأنزل الله تكذيبهم : « وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ (١) » . فقالت : لن يعذّبنا الله، و إن عذّبنا فأربعين يوما مقدار أيام العجل؛ فأنزل الله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا (٢) » . قال ابن مِقْسم : يعني توحيدًا، بدليل قوله تعالى : « إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٣) » يعني لا إله إلا الله « فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . ثم أكذبهم فقال : « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤) » . فبيّن تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان؛ لا بما قالوه .

قوله تعالى : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ اختُلِف في الوَيْل (٥) ما هو؛ فروى عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار . وروى أبو سعيد الخُدْريّ أن الويل وادٍ في جهنم بين

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠　(٢) راجع ص ١٠ من هذا الجزء .　(٣) راجع ج ١١ ص ١٥٣

(٤) راجع ص ١١ من هذا الجزء .　(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط بعد أن ذكر الأقوال التي وردت في معنى الويل : « لو صح في تفسير الويل شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب المصير إليه ، وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظ الويل قبل أن يجيء القرآن ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير ، و إنما مدلوله ما فسره به أهل اللغة » .

Marfat.com

جبلين يهوى فيه الهاوى أربعين خريفًا . وروى سفيان وعطاء بن يَسار : أن الوَيل فى هذه الآية وادٍ يجرى بفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل: صهريج فى جهنم . وحكى الزّهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم . وعن ابن عباس : الويل المشقة من العـذاب . وقال الخليل : الويل شدّة الشر[1] . الأصمعى : الويلُ تفجّعٌ، والوَيْحُ تَرحُّمٌ . سيبويه : وَيْلٌ لمن وقع فى الهَلَكة، ووَيْحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهَلَكة . ابن عرفة : الويل الحزن؛ يقال : تَوَيّل الرجل إذا دعا بالويل؛ وإنمـا يقال ذلك عند الحزن والمكروه؛ ومنه قوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » . وقيل : أصله الهَلَكة، وكل من وقع فى هَلَكة دعا بالويل؛ ومنه قوله تعـالى : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ[2] » . وهى الوَيْل والوَيْلَة، وهما الهَلَكة، والجمع الويلات؛ قال :

* له الوَيْلُ إن أمسى ولا أمّ هاشم *

وقال أيضـا :

* فقالت لك الوَيْلات إنك مُرْجِلِي *

وارتفع « وَيْلٌ » بالابتداء، وجاز الابتـداء به وإن كان نكرة لأن فيـه معنى الدعاء . قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمـار فعل؛ أى ألزمهم الله وَيْلًا . وقال الفرّاء : الأصل فى الويل « وَىْ » أى حُزْن؛ كما تقول : وَىْ لفلان؛ أى حُزْن له، فوصلته العـرب باللام وقدّروها منه فأعربوها . والأحسن فيه إذا فُصل عن الإضافة الرفع؛ لأنه يقتضى الوقوع . ويصحّ النصب على معنى الدعاء؛ كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يُسمع على بنـائه إلا وَيْح ووَيْس ووَيْه ووَيْك ووَيْل ووَيْب؛ وكله يتقارب فى المعنى . وقد فرّق بينهـا قوم؛ وهى مصادر لم تنطق العرب منهـا بفعل . قال الجَرْمِىّ : وممـا ينتصب انتصاب المصادر وَيْلَه وعَوْلَه ووَيْحَه ووَيْسَه؛ فإذا أدخلت اللام رفعت فقلت : وَيْلٌ له، ووَيْحٌ له .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ الكتابة معروفة . وأوّل من كتب بالقلم وخطّ به إدريس عليه السلام؛ وجاء ذلك فى حديث أبى ذَرّ، خرّجه الآجُرّى وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطى الخط فصار وراثة فى ولده .

(١) كذا فى نسخ الأصل، وكتاب البحر لأبى حيان . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد ، فإنه قـد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليـد ؛ فهو مثل قوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْـهِ » ، وقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم » . وقيل : فائدة « بأيديهم » بيان لجُرْمهم و إثبات لمجاهرتهم ، فإن مَن تولّى الفعل أشدّ مواقعة ممن لم يتولّه و إن كان رأيا له . وقال آبن السّراج : « بأيديهم » كناية عن أنهم من تلقائهم دون أن ينزل عليهم ، و إن لم تكن حقيقة فى كَتْبِ أيديهم .

الرابعـــة — فى هذه الآية والتى قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة فى الشرع ؛ فكل من بدّل وغيّر أو آبتدع فى دين الله ما ليس منـه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هـذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم؛ وقد حذّر رسـول الله صلى الله عليه وسلم أمّته لـما قد علم ما يكون فى آخر الزمان فقال : " ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب آفترقوا على آثنتين وسبعين مِلّة و إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النـار إلا واحدة " الحديث ، وسيأتى . فحذّرهم أن يُحدِثوا من تلقاء أنفسهم فى الدّين خلاف كتاب الله أو سنته أو سـنة أصحابه فيُضِلّوا به الناس ؛ وقـد وقع ماحذّره وشاع ، وكثر وذاع ؛ فإنا لله وإنّا إليـه راجعون .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقِلة ؛ إمّا لفنائه وعدم ثباته ، وإمّا لكونه حراما ؛ لأن الحرام لا بركة فيـه ولا يربو عند الله . قال آبن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابهم رَبْعة أسمر ؛ فجعلوه آدم سَبِطًا طويلا ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبيّ — صلى الله عليه وسلم — الذى يُبعث فى آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا . وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب ؛ فخافوا إن بيّنوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم ؛ فمن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعـالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ قيـل من المآكل . وقيل من المعاصى . وكرّر الويل تغليظًا لفعلهم .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى اليهود . ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ آختلف فى سبب نزولها؛ فقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود : "مَن أهل النار". قالوا : نحن ، ثم تخلُفونا أنتم . فقال : "كذبتم لقد علمتم أنّا لا نخلفكم" فنزلت هذه الآية ؛ قاله آبن زيد . وقال عكرمة عن آبن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف ، و إنما يعذّب الناس فى النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد فى النار من أيام الآخرة ، و إنما هى سبعة أيام ؛ فأنزل الله الآية ؛ وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن فى التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة ، وأنهم يقطعون فى كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن آبن عباس . وعن آبن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين ســنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم . وقالوا : إنما نعذَّب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . وعن آبن عباس أيضا وقتــادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل ؛ فأكذبهم الله ، كما تقدّم .

الثانيــــة — فى هذه الآية ردٌّ على أبى حنيفة وأصحابه حيث آستدلّوا بقوله عليه السلام : "دَعِى الصلاة أيامَ أقرائك" فى أن مدة الحيض ما يُسمَّى أيام الحيض ، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة ؛ قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمَّى يوما و يومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام ، و إنمــا يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ؛ قال الله تعــالى : « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ »(١) ، « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ »(٢) ، « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »(٣) .

(١) راجع ص ٣٩٩ من هذا الجزء (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٩

Marfat.com

فيقال لهم : فقد قال الله تعالى فى الصوم : « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » يعنى جميع الشهر ؛ وقال : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ »(١) يعنى اربعين يوما . وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد ؛ بل يقال : أيامُ مَشْيِك وسَفرِك و إقامتك ، و إن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها ، والعادة ستّ أو سبع ؛ فخرّج الكلام عليه ، والله أعلم .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ تقدّم القول فى « اتخذ »(٢) فلا معنى لإعادته . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أى أسلفتم عملا صالحا فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوَحْيِه الذى عهده إليكم ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس «بلى» و « نعم » اسمين . وإنما هما حرفان مثل « بل » وغيره؛ وهى ردٌّ لقولهم : لن تمسّنا النار. وقال الكوفيون : أصلها بل التى للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف ، وضُمّنت الياء معنى الإيجاب والإنعام . فـ «بَلْ» تدلّ على رَدّ الجَحْد ، والياء تدلّ على الإيجاب لما بعدُ . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم؛ لكان المعنى لا ، لم آخذ؛ لأنك حقّقت النفى وما بعده . فإذا قلت : بلى ؛ صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك علىّ شىء ؛ فقال الآخر : نعم؛ كان ذلك تصديقا؛ لأن لا شىء

(١) راجع جـ ٤ ص ٥١ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

له عليه، ولو قال : بلى، كان ردًا لقوله ؛ وتقديره : بلى لى عليك . وفى التنزيل «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى(١)» ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿سَيِّئَةً﴾ السيئة الشرك . قال ٱبن جُريج قلت لعطاء : «مَن كَسب سيئة» ؟ قال : الشرك؛ وتلا «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ(٢)» . وكذا قال الحسن وقتادة ، قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثــة — لمـا قال تعـالى : ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ دلّ على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما؛ ومثـله قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا(٣)» ، وقوله عليـه السلام لسُفيان بن عبد الله الثقفى وقد قال له : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولًا لا أسأل عنـه أحدًا بعدك . قال : " قل آمنت بالله ثم ٱستقم " . رواه مسلم . وقد مضى القول فى هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعـالى لآدم وحواء : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٤)» . وقرأ نافع «خطيئاته» بالجمع، الباقون بالإفراد؛ والمعنى الكثرة ، مثل قوله تعالى : «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا(٥)» .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تقدّم الكلام فى بيان هذه الألفاظ(٦) . وٱختلف فى الميثاق هنـا ؛ فقال مَكّى : هو الميثاق الذى أُخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على ألسنة أنبيائهم

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٦ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٥ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ (٦) راجع جـ ١ ص ٢٤٦ ، ٣٣٠ .

Marfat.com

وهو قوله : « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » وعبادةُ الله إثبات توحيده، وتصديقُ رُسُلِه، والعملُ بما أنزل فى كتبه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال سيبويه : « لا تعبدون » متعلق بقَسَم؛ والمعنى وإذ استحلفناهم والله لا تعبدون؛ وأجازه المبرّد والكسائى والفرّاء . وقرأ أُبَىٌّ وآبن مسعود « لا تعبدوا » على النّهى؛ ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : « وقوموا، وقولوا، وأقيموا، وآتوا » . وقيل : هو فى موضع الحال؛ أى أخذنا ميثاقهم موحّدين، أو غير معاندين؛ قاله قُطْرب والمبرّد أيضا . وهذا إنما يتّجه على قراءة آبن كثير وحمزة والكسائى « يعبدون » بالياء من أسفل . وقال الفرّاء والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يَسفكوا الدماء؛ ثم حذفت أنْ والباء فآرتفع الفعل لزوالها؛ كقوله تعالى : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى »(١) . قال المبرّد : هذا خطأ؛ لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا؛ تقول : وبلدٍ قطعت؛ أى رُبَّ بلد .

قلت : ليس هذا بخطإ، بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد سيبويه :

أَلَا أَيُّها ذا الزّاجِرِى أَحْضُرُ الوَغَى * وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى(٢)

بالنصب والرفع؛ فالنصب على إضمار أن، والرفع على حذفها .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا . وقَرَن الله عز وجل فى هـذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النَّشأة الأُولى من عند الله، والنَّشء الثانى — وهو التربية — من جهة الوالدين؛ ولهذا قَرَن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : « أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ »(٣) . والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف، والتواضعُ لهما، وآمتثال أمرهما، والدعاءُ بالمغفرة بعد مماتهما، وصلةُ أهل ودّهما؛ على ما يأتى بيانه مفصّلا فى « الإسراء »(٤) إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦   (٢) البيت لطرفة بن العبد فى معلقته .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٥   (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٨

Marfat.com

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ عطف ذى القربى على الوالدين . والقُرْبَى : بمعنى القرابة ، وهو مصدر كالرُّجْعَى والعُقْبَى ؛ أى وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم . وسيأتى بيان هذا مفصّلا فى سورة « القتال »(١) إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْيَتَامَىٰ ﴾ اليتامى عطف أيضا، وهو جمع يتيم؛ مثل نَدَامَى جمع نَدِيم . واليُتْم فى بنى آدم بفقـد الأب ، وفى البهائم بفقد الأم . وحكى المـاوردىّ أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقد الأم؛ والأول المعروف . وأصله الانفراد؛ يقال : صبىٌّ يتيم؛ أى منفرد من أبيه . و بيت يتيم : أى ليس قبله ولا بعده شىء من الشِّعْر . ودُرّة يتيمة : ليس لها نظير . وقيل : أصله الإبطاء؛ فسُمّىَ به اليتيم؛ لأن البرّ يبطئ عنه . و يقال : يَتُم يَيْتُم يُتْمًا؛ مثل عَظُم يَعْظُم . و يَتِم يَيْتَم يُتْمًا ويَتَمًا؛ مثل سَمِـع يَسْمع؛ ذكر الوجهين الفرّاء . وقد أيتمه الله . و يدلّ هذا على الرأفة باليتيم والحضّ على كفالته وحفظ ماله؛ على ما يأتى بيانه فى « النساء »(٢) .

وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة " . وأشار مالك(٣) بالسبّابة والوسطى؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سـعيد من حديث الحسن بن دينـار(٤) أبى سعيد البصرىّ وهو الحسن بن واصل قال حدّثنا الأسـود بن عبد الرحمن عن هِصّان(٥) عن أبى موسى الأشـعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ما قعد يتيم مع قوم على قَصْعتهم فيقرب قَصْعتهم الشـيطان " . وخرّج أيضا من حديث حسـين بن قيس وهو أبو على الرَّحَبى(٦) عن عكرمة عن ابن عبـاس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن ضمّ يتيمًا من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يُغْنيه الله عز وجل غُفرت له ذنو به ألْبَتّةَ إلّا أن يعمل عملًا لا يُغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غُفرت له ذنوبه — قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : — عيناه ومن كان له ثلاث بنـات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ(٧) أو يمتن غُفرت له ذنوبه ألْبَتّةَ

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٤٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ٨ (٣) مالك : أحد رواة سـند هذا الحديث . (٤) لأنه ربيب دينـار . (٥) فى تهذيب التهذيب : « بكسر أوّله وتشديد المهملة آخره نون » وهو ابن كاهن ويقال ابن كاهل ، كان أبوه كاهنا فى الجاهلية » . (٦) الرحبي (بفتح الراء والحاء المهملين وباء موحدة) : منسوب إلى رحبة بن زرعة . (٧) يبن : يتزوّجن .

Marfat.com

إلا أن يعمل عملا لا يُغفر" فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال : يا رسول الله أوآثنتين ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أوآثنتين " . فكان آبن عباس إذا حدّث بهـذا الحديث قال : هذا والله من غرائب الحديث وغُرَره .

السادســـة — السبّابة من الأصابع هى التى تلى الإبهام ، وكانت فى الجاهليـة تدعى بالسبابة ؛ لأنهم كانوا يَتسبُّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الأسم فسمّوْها المشيرة ؛ لأنهم كانوا يشيرون بهـا إلى الله فى التوحيد . وتُسمّى أيضا بالسـبّاحة، جاء تسميتها بذلك فى حديث وائل بن حُجْر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بمـا كانت تعرفه فى الجاهليـة فغلبت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم الوسطى أقصر منها ، ثم البنصر أقصر من الوسطى . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مِقْسَم الطائفىّ قال حدّثتنى عمّتى سارة بنت مِقْسَم أنهـا سمعت ميمونة بنت كَرْدَم قالت : خرجتُ فى حجّة حجّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وسأله أبى عن أشياء؛ فلقد رأيتنى أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التى تلى الإبهـام على سائر أصابعه . فقوله عليه السـلام : " أنا وهو كهاتين فى الجنة " ، وقوله فى الحديث الآخر : " أُحشَر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا " وأشار بأصابعه الثلاث ؛ فإنمـا أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ونحن مشرفون ، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة ، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الأنضمام والآقتراب بعضهم من بعض فى محل القربة . وهـذا معنى بعيد ؛ لأن منازل الرسل والنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين مراتب متباينة ، ومنازل مختلفة .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ « المساكين » عطف أيضا ؛ أى وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم . وهذا يتضمّن الحضّ على الصدقة والمؤاساة وتفقّد أحوال المساكين والضعفاء . روى مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " السّاعِى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله — وأحسبه قال —

Marfat.com

وكالقــائم لا يفــتر(١) وكالصائم لا يُفطر ". قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ « حُسْنًا » نصب على المصدر على المعنى؛ لأن المعنى ليَحْسُن قولُكم . وقيل : التقدير وقولوا للناس قولًا ذا حُسْن؛ فهو مصدر لا على المعنى . وقرأ حمـزة والكسائى « حَسَنًا » بفتح الحاء والسين . قال الأخفش : هما بمعنًى واحد؛ مثل البُخْل والبَخَل، والرُّشْد والرَّشَد . وحكى الأخفش : «حُسْنَى» بغير تنوين على فُعْلَى . قال النحاس : « وهذا لا يجوز فى العربية، لا يقال من هذا شىء إلا بالألف واللام، نحو الفُضْلَى والكُبْرَى والحُسْنَى؛ هذا قول سيبويه . وقرأ عيسى بن عمر « حُسُنًا » بضمتين؛ مثل الحُلُم » . قال ابن عباس : المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومُرُوهم بها . ابن جُرَيج : قولوا للناس صدقا فى أمر محمد صلى الله عليـه وسلم ولا تغيّروا نعته . سُفيان الثَّوْرى : مُرُوهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر . أبو العالية : قولوا لهم الطيِّب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به . وهـذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس ليِّنـا ووجهـه منبسطًا طَلْقًا مع البَرّ والفاجر، والسُّنىّ والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا(٢) » . فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معـه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عنـدك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فىّ حِدّة فأقول لهـم بعض القول الغليظ؛ فقال : لا تفعل ! يقول الله تعـالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا(٣) » . فدخل فى هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفىّ . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " لا تكونى فحّاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء " . وقيل : أراد بالناس محمدا صلى الله عليه وسلم؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّـاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ(٤) » . فكأنه قال : قولوا للنبىّ صلى الله عليـه وسلم حُسْنًا . وحكى

(١) كذا فى صحيح مسلم . والذى فى نسخ الأصل : « لا يفتر من صلاة ... الخ » . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « فكيف فى غيرهما » . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٥١ .

Marfat.com

المهـدوي عن قتادة أن قوله : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » منسوخ بآية السـيف . وحكاه أبو نصر عبد الرحيم(١) عن ابن عباس . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الابتداء ثم نسختها آية السيف . قال ابن عطية : وهـذا يدلّ على أن هـذه الأمة خوطبت بمثل هـذا اللفظ في صدر الإسلام ؛ وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أُمِروا به فلا نسخ فيه ، والله أعلم .

التاسـعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ تقدّم(٢) القول فيه . والخطاب لبني إسرائيل . قال ابن عطية : وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُتَقَبَّل ؛ ولا تنزل على ما لم يُتقبَّل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يحتاج إلى نقل ، كما ثبت ذلك في الغنائم . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : الزكاة التي أُمِروا بها طاعةُ الله والإخلاصُ .

العاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ الخطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسند إليهم تولّي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل في إعراضهم عن الحق مثلهم ؛ كما قال « شِنْشِنة(٣) أعرفها من أخزم » . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كعبد الله بن سَلَام وأصحابه . و « قليـلًا » نصب على الاستثناء ؛ والمستثنى عند سـيبويه منصوب ؛ لأنه مشبه بالمفعول . وقال محمد ابن يزيد : هو مفعول على الحقيقـة ؛ المعنى استثنيت قليـلا . ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ابتداء وخبر . والإعراض والتولّي بمعنًى واحد ، مخالَف بينهما في اللفظ . وقيل : التولّي بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهـدوي : « وأنتم مُعرِضُون » حال ؛ لأن التولّي فيـه دلالة على الإعراض .

---

(١) في بعض نسخ الأصل : « عبد الرحمن » .   (٢) يراجع جـ ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية .

(٣) الشنشنة (بالكسر) : الطبيعة والخليقة والسجية . قال الأصمعي : وهذا بيت رجز تمثل به لأبي أخزم الطائي ؛ وهـو :

إن بنيّ زملوني بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم

* من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن بري : كان أخزم عاقا لأبيه فمات وترك بنين وعقوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك . (عن اللسان) .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٨٤)

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ تقدّم القول فيه.[1] ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ المراد بنـو إسرائيـل ؛ ودخل فيه بالمعنى مَن بعـدهم . « لَا تَسْفِكُونَ » مثـل « لا تَعبُدُون »[2] فى الإعراب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وشعيب بن أبى حمـزة بضم الفاء ، وهى لغة ؛ وأبو نهيـك « تُسَفِّكون » بضم التاء وتشـديد الفاء وفتح السين . والسَّفْك : الصّب . وقد تقدّم.[3] ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ ﴾ معطوف . ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ النفس مأخوذة من النَّفَاسة ، فنفس الإنسان أشرف مافيه . والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حَلّه قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سُمِّيت دارًا لدورها على سكانها ؛ كما سُمِّىَ الحـائط حائطا لإحاطته على ما يحـويه . و﴿ أَقْـرَرْتُمْ ﴾ من الإقرار ؛ أى بهذا الميثاق الذى أُخذ عليكم وعلى أوائلكم . ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ من الشهادة ؛ أى شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور ؛ أى تحضرون سفك دمائكم ، و إخراج أنفسكم من دياركم .

الثانيـــة — فإن قيــل : وهل يَسفِك أحد دمه و يُخرج نفسه من داره ؟ قيـل له : لمـا كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا فى الأمم كالشخص الواحد جعل قتـل بعضهم بعضا و إخراج بعضهم بعضا قتلًا لأنفسهم ونَفيًا لها . وقيل : المراد القصاص ؛ أى لا يَقتل أحد فيُقتل قصاصًا ، فكأنه سفك دمه . وكذلك لا يزنى ولا يرتدّ ، فإن ذلك يبيـح الدم . ولا يُفسِد فيُنفَى ، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ و إن كان صحيح المعنى .

و إنمـا كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيـل فى التوراة ميثاقا ألّا يقتـل بعضهم بعضًا ، ولا ينفيه ولا يسترقّه ، ولا يدعه يسرق ؛ إلى غير ذلك من الطاعات .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ . (٢) راجع ص ١٣ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قلت : وهذا كله محرّم علينا، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا؛ فإنا لله و إنا إليه راجعون ! وفى التنزيل : «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ»(١) وسيأتى . قال ٱبن خُوَيْزِ منداد: وقد يجوز أن يراد به الظاهر، لا يقتل الإنسان نفسه ، ولا يخرج من داره سفهًا ؛ كما تقتل الهند أنفسها . أو يقتل الإنسان نفسه من جَهد و بلاء يصيبه ، أو يَهِيم فى الصحراء ولا يأوى البيوت جهلًا فى ديانته وسفهًا فى حلمه ؛ فهو عموم فى جميع ذلك . وقد روى أن عثمان بن مَظْعُون بايع فى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح ، وأن يَهِيموا فى الصحراء ولا يأْوُوا البيوت ، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده ، فقال لامرأته : " ما حديثٌ بلغنى عن عثمان " ؟ وكَرِهت أن تُفشى سِرّ زوجها ، وأن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالت : يا رسول الله، إن كان قد بلغك شىء فهو كما بلغك؛ فقال : "قولى لعثمان أخلاف لسُنّتى أم على غير مِلّتِى إنى أصلّى وأنام وأصوم وأُفطر وأَغْشَى النساء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن رَغِب عن سُنتى فليس منى" فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ﴾ « أنتم » فى موضع رفع بالابتداء ، ولا يعرب ؛ لأنه مضمَر . وضُمت التاء من « أنتم » لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحدا مذكّرا، ومكسورة

(١) راجع جـ ٧ ص ٩ .

Marfat.com

إذا خاطبت واحدة مؤنثة ؛ فلما ثنّيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة . ﴿ هَـٰؤُلَاءِ ﴾ قال القُتَبِيّ : التقدير يا هـؤلاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه ، ولا يجوز هـذا أقبـل . وقال الزجاج : هـؤلاء بمعنى الذين . و ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ داخل فى الصلة ؛ أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيـل : « هؤلاء » رفع بالابتداء ، و « أنتم » خبر مقـدم ، و « تقتلون » حال من أولاء . وقيـل : « هؤلاء » نصب بإضمار أعـنى . وقرأ الزُّهْرِيّ « تُقَتِّـلون » بضم التاء مشدّدا ، وكذلك « فَلِمَ تُقَتِّلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ » . وهذه الآية خطاب للواجهين لايحتمل ردّه إلى الأسـلاف . نزلت فى بنى قَيْنُقَاع وقُرَيظة والنَّضير من اليهـود ؛ وكانت بنو قَيْنُقَاع أعداء قُريظـة ، وكانت الأَوْس حلفاء بنى قَيْنُقاع ، والخـزرج حلفاء بنى قُريظة . والنَّضير والأوس والخزرج إخـوان ، وقريظة والنَّضير أيضا إخوان ، ثم ٱفترقـوا فكانوا يقتتلون ، ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم ؛ فعيّرهم الله بذلك فقال : «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ» .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ معنى « تظاهرون » تتعاونون ، مشتقّ من الظَّهر ؛ لأن بعضهم يقوّى بعضًا فيكون له كالظهر ؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم أَسْتاه بيتٍ تجمّعت[1] * على واحد لازلتُمُ قِرْنَ واحِدِ

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان : الإفراط فى الظلم والتجاوز فيه . وقرأ أهل المدينة وأهل مكة « تَظَّاهرون » بالتشديد ، يُدغمون التاء فى الظاء لقربها منها ؛ والأصل تتظاهرون . وقرأ الكوفيون « تَظَاهرون » مخففًا ، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ؛ وكذا « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ »[2] . وقرأ قتادة « تَظْهرون عليهم » وكله راجع إلى معنى التعاون ؛ ومنه : « وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا »[3] وقـوله : « وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ »[4] فٱعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى ﴾ شرط ، وجـوابه « تفادوهم » و « أُسارَى » نصب على الحال . قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول : ما صار فى أيديهم فهم

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « ... أستاه قوم ... الخ » . وقد وردت رواية البيت فى تفسير الشوكانى هكذا : * تظاهرتم من كل أوب ووجهة ... الخ *

(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٨٩ (٣) راجع جـ ١٣ ص ٦١ (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩١

Marfat.com

الأسارى، وما جاء مستأسِرًا فهم الأَسْرَى . ولا يَعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو، إنما هو كما تقول : سَكارى وسَكْرى . وقراءة الجماعة « أُسارى » ما عدا حمزة فإنه قرأ « أَسْرَى » على فَعْلَى، جمع أسير بمعنى مأسور، والباب — في تكسيره إذا كان كذلك — فَعْلَى، كما تقول : قتيل وقتلى ، وجريح وجرحى . قال أبو حاتم : ولا يجوز أَسَارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سَكارى، وفُعالى هو الأصل ، وفَعالى داخلة عليها . وحُكى عن محمد بن يزيد قال : يقال أسير وأُسراء، كظريف وظُرفاء . قال ابن فارس : يقال في جمع أسير أسرى وأسارى، وقرئ بهما . وقيل : أَسارى (بفتح الهمزة) وليست بالعالية .

الثانيــة — الأسير مشتق من الإسار ، وهو القِدّ الذي يُشدّ به المحمل فسمّى أسيرا ؛ لأنه يشدّ وثاقه ؛ والعرب تقول : قد أَسَرَ قَتَبه[(1)]، أي شدّه؛ ثم سُمّيَ كل أَخيذ أسيرا وإن لم يؤسر؛ وقال الأعشى :

وقَيّـدنى الشِّـعرُ في بيتِـهِ * كما قَيّـد الآسِراتُ الحِمـارا[(2)]

أي أنا في بيتـه؛ يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأمّا الأَسْر في قوله عز وجل : « وشَـدَدْنا أَسْرَهُمْ[(3)] » فهو الخَلْق . وأُسرة الرجل رهطه؛ لأنه يتقوّى بهم .

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ كذا قرأ نافع وحمزة والكسائي. والباقون «تَفْدُوهم» من الفداء . والفداء : طلب الفِدية في الأسير الذي في أيديهم. . قال الجوهري : « الفداء إذا كُسر أوله يُمدّ و يقصر، وإذا فُتح فهو مقصور، يقال : قُمْ فَدًى لك أبي . ومن العرب من يكسر « فِداءً » بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة؛ فيقول: فِداءٍ لك، لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء . وأنشد الأصمعي للنابغة :

مَهْلًا فِـداءٍ لك الأقوامُ كلُّهمُ * وما أُثَمِّـرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

و يقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فِداءه فأنقذه . وفَداه بنفسه ، وفدّاه يُفَدّيه إذا قال جعلت فَداك . وتَفادَوْا، أي فَـدَى بعضهم بعضا » . والفِدية والفَدَى والفِـداء كله بمعنًى واحد .

---

(1) القتب (بكسر فسكون و بالتحريك أيضا) : رحل صغير على قدر سنام البعير .

(2) الحمار : من معانيه أنه خشبة في مقدم الرحل تقبض عليها المرأة . وقيل : العود الذي يحمل عليه الأقتاب . والآسرات : النساء اللواتي يؤكدن الرحال بالقد و يوثقنها .　　(3) راجع جـ ١٩ ص ١٤٩

Marfat.com

وفاديت نفسي إذا أطلقتها بعـد أن دفعت شيئا، بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : فاديتُ نفسي وفاديتُ عَقِيلًا . وهما فعلان يتعدّيان إلى مفعولين الثاني منهما بحرف الجر، تقول : فديت نفسي بمالى وفاديته بمالى، قال الشاعر :

قِفِي فادِى أسـيرَكِ إنّ قومى * وقومَك ما أرى لهمُ اجتماعَا

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ «هو» مبتدأ وهو كناية عن الإخراج، و«مُحَرَّمٌ» خبره، و«إخراجُهم» بدل من «هو» وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة، والجملة التي بعده خبره ؛ أى والأمر محرّم عليكم إخراجهم . فـ « إخراجهم » مبتدأ ثان . و « محرم » خبره، والجملة خبر عن « هو » ؛ وفى « محرّم » ضمير ما لم يسم فاعله يعـود على الإخراج . ويجوز أن يكون « محـرمٌ » مبتدأ ، و « إخراجهم » مفعول ما لم يُسَمّ فاعله يسدّ مسدّ خبر « محرم » ، والجمـلة خبر عن « هو » . وزعم الفراء أن « هو » عماد، وهـذا عند البصريين خطأ لا معنى له ؛ لأن العماد لا يكون فى أول الكلام . ويُقرأ « وهْوَ » بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر(1) :

فَهْـــو لا تَنْمِى(2) رَمِيّتُـه * مالَه لا عُـدّ مِن نَفَرِهْ

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقد تقدّم(3) . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة، وفـداء أساراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبّخهم الله على ذلك توبيخا يُتْلَى فقال: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ» وهو التوراة « وتكفرون ببعض » ! !

قلت : ولَعَمْرُ الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلّاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت الآية وجوب فكّ الأسرى، وبذلك وردت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه

---

(1) هو امرؤ القيس ؛ كما فى اللسان وشرح الديوان .

(2) أنميت الصيد فنمى ينمى ، وذلك أن ترميه فتصيبه ويذهب عنك فيموت بعد ما يغيب .

(3) يراجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية .

Marfat.com

فكّ الأسارى وأمر بفكّهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين وآنعقد به الإجماع . ويجب فك الأسارى من بيت المال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ؛ ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين . وسيأتي (١) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ آبتداء وخبر . والخِزْيُ الهوان . قال الجوهري : وخَزِيَ — بالكسر — يَخْزَى خِزْيا إذا ذلّ وهان . قال آبن السكّيت : وقع في بلية . وأخزاه الله ، وخَزِي أيضا يَخْزَى خَزاية إذا آستحيا ، فهو خَزْيان . وقوم خَزَايا وآمرأة خَزْيا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ ﴾ « يردون » بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن « تردون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِلَى أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم القول فيه (٢) ، وكذلك : ﴿ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ﴾ الآية (٣) ؛ فلا معنى للإعادة . « يوم » منصوب بـ « يُرَدُّون » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة . ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا . والتَّقْفِية : الإتباع والإرداف ؛ مأخوذ من إتباع القَفَا وهو مؤخر العنق . تقول آستقفيته إذا جئت من خلفه ؛ ومنه سُمّيت قافية الشعر ؛ لأنها تتلو سائر الكلام . والقافية : القفا ؛ ومنه الحديث : " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم " . والقَفِيّ والقَفاوة : ما يدّخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه . وقفوت الرجل : قذفته بفجور . وفلانٌ قِفْوَتي أي تُهَمَتي . وقفوتي أي خيرتي . قال آبن دريد كأنه من الأضداد . قال العلماء : وهذه الآية مثل قوله تعالى : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا (٤) » . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٢ .　(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٦ .　(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية .　(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٢٥ .

Marfat.com

بلزومها إلى عيسى عليـه السلام . ويقال : رُسُل ورُسْل لغتان، الأولى لغة الحجاز، والثانيـة لغة تميم ؛ وسواء كان مُضافًا أو غير مضاف . وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويُثقل إذا أضاف إلى حرف واحد .

قوله تعـالى : ﴿ وآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الحجج والدلالات ؛ وهى التى ذكرها الله فى «آل عمران» و « المـائدة »[1] ؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أى قويناه . وقرأ مجاهـد وٱبن مُحَيْصن «آيدناه» بالمـدّ ، وهما لغتان . ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُـدُسِ ﴾ روى أبو مالك وأبو صالح عن ٱبن عباس ومَعْمر عن قتادة قالا : جبريل عليه السلام . وقال حسان :

وجبريلٌ رسـولُ الله فِينـا * وروحُ القُدْس ليس به خَفاءُ

قال النحاس : وسُمّيَ جبريل روحا وأضيف إلى القـدس ؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له رُوحًا من غير ولادة والد ولده ؛ وكذلك سُمّيَ عيسى رُوحًا لهذا . وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال : القدس هو الله عز وجل . وكذا قال الحسن : القـدس هو الله ، وروحه جبريل . وروى أبو رَوْق عن الضحاك عن ٱبن عباس : « بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ » قال : هو الاسم الذى كان يحيي به عيسى الموتى؛ وقاله سعيد بن جبير وعبيد بن عمير، وهو ٱسم الله الأعظم . وقيل : المراد الإنجيل، سماه روحًا كما سمى الله القرآن روحا فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا »[2] . والأوّل أظهر، والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد تقدّم[3] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ ﴾ أى بما لا يوافقها و يلائمها؛ وحُذفت الهاء لطول الاسم ؛ أى بما لا تهواه . ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن إجابته ٱحتقارًا للرسـل، وٱستبعادا للرسالة . وأصـل الهوى الميل إلى الشيء ؛ ويجمع أهـواء ، كما جاء فى التنزيل ، ولا يجمع أهوية ؛ على أنهم قد قالوا فى نَدًى أندية ؛ قال الشاعر :

فى ليـلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنْـدِيةٍ * لا يُبصِر الكلبُ فى ظَلْمائها الطُّنُبا[4]

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٣ ، جـ ٦ ص ٣٦٢ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٤

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٧ طبعة ثانية . (٤) الطنب (بضم الطاء وسكون النون وضمها) : حبل الخباء والسرادق ونحوهما .

Marfat.com

قال الجوهري : وهـو شاذ . وسُمّيَ الهَوَى هَوًى لأنه يهـوِي بصاحبه إلى النـار ؛ ولذلك لايستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه ؛ وهذه الآية من ذلك . وقد يستعمل في الحق ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في أسارى بَدْر : فهَوِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت . وقالت عائشة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث : والله ما أرى ربّك إلّا يُسارِع في هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَفَـرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ « ففريقًا » منصوب بـ « كذّبتم » ، وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام ، وممن قتلوه يحيي وزكريا عليهما السلام ، على ما يأتي بيانه في « سبحان »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَقَالُواْ قُلُوبُنَـا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُـمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعني اليهود ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ بسكون اللام جمـع أغلف ؛ أي عليها أغطية . وهو مثل قوله : « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ »(٢) أي في أوْعيـة . قال مجاهـد : « غُلْفٌ » عليها غشاوة . وقال عكرمة : عليهـا طابع . وحكى أهل اللغـة غلّفت السيف جعلت له غلافا ؛ فقَلْبٌ أغلف ، أي مستور عن الفهـم والتمييز . وقرأ ٱبن عباس والأعرج وٱبن مُحَيْصِن «غُلُف» بضم اللام . قال ٱبن عباس : أي قلوبنا ممتلئة علمًا لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسـلم ولا غيره . وقيل : هو جمع غِلاف ؛ مثل خِمار وخُمُـر ؛ أي قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وَعينا علما كثيرا ! وقيل . المعـنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم بيّن أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعِنوا بما تقدّم من كفرهم وٱجترائهم ؛ وهـذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللّعن في كلام العـرب الطّرد والإبعاد . ويقال للذئب : لعين . وللرجل الطريد : لعين ؛ وقال الشّماخ :

ذَعَرتُ به القَطا ونَفيْتُ عنـه * مَقـامَ الذئب كالرجل اللّعـينِ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٨ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٩ .

Marfat.com

ووجه الكلام : مقام الذئب اللعين كالرجل ؛ فالمعنى أبعـدهم الله من رحمته . وقيل : من توفيقه وهدايته . وقيل : من كل خير ؛ وهذا عام . « فقليلًا » نعت لمصدر محـذوف ؛ تقديره فإيمانًا قليـلا ما يؤمنون . وقال معْمَر : المعـنى لا يؤمنون إلا بقليـل ممـا فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ ويكون « قليـلا » منصوب بنزع حرف الصفة . و « ما » صـلة ؛ أى فقليلا يؤمنون . وقال الواقدى : معناه لا يؤمنون قليـلا ولا كثيرا ؛ كما تقول : ما أقلَّ ما يفعل كذا ؛ أى لا يفعله ألبتة . وقال الكسائى : تقول العرب مررْنا بأرضٍ قلَّ ما تنبت الكُرّاث والبصل ؛ أى لا تنبت شيئا .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِنـدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّـا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَـةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ مِنْ عِنْـدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ نعت لكتاب ؛ ويجوز فى غير القـرآن نصبه على الحال ؛ وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ بالنصب فيما رُوِىَ . ﴿ لِمَـا مَعَهُمْ ﴾ يعنى التوراة والإنجيل يخـبرهم بما فيهما . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ أى يستنصرون . والاستفتاح الاستنصار . استفتحت : استنصرت . وفى الحديث : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين ؛ أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم (١) . ومنه « فَعَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ » (٢) . والنصر : فتح شىء مغلق ؛ فهو يرجع إلى قولهم فتحت الباب . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى (٣) أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إنما نصرُ الله (٤) هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم و إخلاصهـم " . وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول :

(١) الذى فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة فتح : «أى يستنصر بهم» . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٧ .

(٣) يلاحظ أن راوى هذا الحديث هو سـعد بن أبى وقاص ؛ ففى سنن النسائى (جـ ١ ص ٦٥ طبع المطبعة الميمنية) باب الاستنصار بالضعيف : أخبرنا محمد بن إدريس ... عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن ... » الخ .

(٤) الذى فى سنن النسائى : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها » .

Marfat.com

" أبغُونِى الضعيف فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " . قال ابن عباس : كانت يهود خَيْبر تقاتل غَطَفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت[(1)] يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبيّ الأُمّيّ الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم . قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ؛ فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بك يا محمد، إلى قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ جواب « لمّا » الفاءَ وما بعدها فى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ فى قول الفَرّاء ؛ وجواب « لمّا » الثانية « كفروا » . وقال الأخفش سعيد : جواب « لما » محذوف لعلم السامع ؛ وقاله الزجاج . وقال المبرد : جواب « لما » فى قوله : « كفروا » ، وأعيدت « لما » الثانية لطول الكلام . ويفيد ذلك تقرير الذنب وتأكيدًا له .

قوله تعالى : بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴾ بئس فى كلام العرب مستوفية للذّم ؛ كما أن « نعم » مستوفية للمدح . وفى كل واحدة منها أربع لغات : بِئْس بَئْس بَئِس بِئِس . نِعْم نَعْم نَعِم نِعِم . ومذهب سيبويه أن « ما » فاعلة بئس ، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والنكرات . وكذا نعم ؛ فتقول نعم الرّجلُ زيدٌ ، ونعم رجلًا زيدٌ ؛ فإذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا ؛ فإذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجل على التمييز . وفى نعم مضمر على شريطة التفسير ؛ وزيد مرفوع على وجهين : على خبر ابتداء محذوف ؛ كأنه قيل مَن الممدوح ؟ قلت هو زيد ، والآخر على الابتداء وما قبله خبره . وأجاز أبو عليّ أن تليها « ما » موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخصّ واحدا

(١) فى ب : « فعاذت » بالذال المعجمة .

Marfat.com

بعينه، والتقدير عند سيبويه : بئس الشئ آشتروا به أنفسهم أن يكفروا . فـ«أن يكفروا» فى موضع رفع بالأبتداء وخبره فيا قبله ؛ كقولك : بئس الرجل زيد ، و «ما» على هـذا القول موصـولة . وقال الأخفش : «ما» فى موضع نصب على التمييز ؛ كقولك : بئس رجلًا زيدٌ ، فالتقدير بئس شيئا أن يكفروا . فـ «آشتروا به أنفسهم» على هذا القول صفة «ما» . وقال الفراء : «بئسما» بجملته شيء واحد رُكّب كحبّذا . وفى هذا القول آعتراض؛ لأنه يبقى فعـل بلا فاعل . وقال الكسائى : «ما» و «آشـتروا» بمنزلة آسم واحد قائم بنفسه ، والتقدير بئس آشتراؤهم أن يكفروا . وهـذا مردود ، فإن نعم و بئس لا يدخلان على آسم معيّن مُعرّف ، والشراء قد تعرّف بإضافته إلى الضمير . قال النحاس : وأبين هذه الأقوال قول الأخفش وسيبويه . قال الفراء والكسائى : «أن يكفروا» إن شئت كانت «أن» فى موضع خفض ردًّا على الهـاء فى به . قال الفراء : أى آشتروا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله . فآشترى بمعنى باع وبمعنى آبتاع؛ والمعنى : بئس الشيء الذى آختاروا لأنفسهم حيث آستبدلوا الباطل بالحق ، والكفر بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بَغْيًا ﴾ معناه حسدًا ؛ قاله قتادة والسُّدّى، وهو مفعول من أجله ، وهو على الحقيقة مصدر . الأصمعى : وهو مأخوذ من قولهم : قد بَغَى الجرح إذا فسد . وقيل : أصله الطلب ، ولذلك سُمّيت الزانية بَغِيًّا . ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لأن ينزّل ؛ أى لأجل إنزال الله الفضل على نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو ويعقوب وآبن مُحَيصن «أن يُنْزِل» مخففًا، وكذلك سائر ما فى القرآن، إلا «وَمَا نُنَزِّلُهُ» فى «الحجر»(١) ، وفى «الأنعام» «عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً»(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَبَـاءُوا ﴾ أى رجعوا، وأكثر ما يقال فى الشر، وقد تقدّم(٣) . ﴿ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ تقدّم معنى غضب الله عليهم(٤) ، وهو عقابه، فقيل : الغضب الأوّل لعبادتهـم العجل ، والثانى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله آبن عباس . وقال عكرمة : لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد ؛ يعـنى اليهود . وروى سـعيد عن قتادة : الأوّل لكفـرهم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

بالإنجيل ، والثـانى لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأبيد وشدة الحال عليهم ، لا أنه أراد غضبين معلّلين بمعصيتين . و ﴿مُهِينٌ﴾ مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود فى النار دائما بخلاف خلود العصاة من المسلمين ؛ فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير، كرجم الزانى وقطع يد السارق، على ما يأتى بيانه فى سورة « النساء »[1] من حديث أبى سعيد الخدرى ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ أى صدّقوا ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ﴾ يعنى القرآن ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ﴾ أى نصدّق ﴿بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى التوراة . ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى بمـا سواه؛ عن الفرّاء . وقتادة : بمـا بعده؛ وهو قول أبى عُبيدة، والمعنى واحد . قال الجوهرى : وراء بمعنى خلف؛ وقد تكون بمعنى قدّام . وهى من الأضداد؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾[2] أى أمامهـم ؛ وتصغيرها وُرَيِّئَة (بالهـاء) وهى شاذّة . وانتصب « وراءه » على الظرف . قال الأخفش : يقال لَقِيته من وراءُ، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف تجعله اسما وهو غير متمكّن؛ كقولك : من قبلُ ومن بعدُ ؛ وأنشد :

إذا أنا لم أُومَن عليكَ ولم يكن * لقـاؤكَ إلا مِن وراءُ وراءُ[3]

قلت : ومنه قول إبراهيم عليـه السلام فى حديث الشفاعة : "إنمـا[4] كنتُ خليلاً مِن وراءَ وراءَ" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعـالى : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة عند سيبويه . ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ ما فى موضع خفض باللام، و «معهم» صلتها، و «معهم» نصب بالاستقرار؛ ومن أسكن جعله حرفا .

(١) راجع جـ ٥ ص ٨٧ — ويأتى أيضا فى المائدة والنور، راجع جـ ٦ ص ١٥٩ ، جـ ١٢ ص ١٥٩

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤ (٣) البيت لعُتَيّ بن مالك العقيلى . (عن اللسان) .

(٤) الذى فى النهاية واللسان مادة (ورى) : « إنى كنت ... الخ » وفيهما : هكذا يروى مبنيا على الفتح ؛ أى من خلف حجاب » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بمـا أنزل عليهم ، وتكذيبٌ منه لهم وتوبيخ ؛ المعنى : فكيف قتلتم وقد نُهيتم عن ذلك! فالخطاب لمن حضر محمدا صلى الله عليه وسلم والمراد أسلافهم . وإنمـا توجّه الخطاب لأبنائهم؛ لأنهم كانوا يتولّون أولئك الذين قتلوا ، كما قال : « وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ »(١) فإذا تولّوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رَضُوا فعلهم فنُسب ذلك إليهم . وجاء « تقتلون » بلفظ الآستقبال وهو بمعنى المضىّ لمـا آرتفع الإشكال بقوله : « مِنْ قَبْـلُ » . وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى المـاضى بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى المـاضى؛ قال الحُطَيئة :

شَهِد الحُطَيئةُ يـوم يلقَى ربَّـه * أنَّ الوليـد أحقّ بالعـــذر

شهد بمعنى يشهد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن كنتم معتقدين الإيمـان فلِم رضيتم بقتـل الأنبياء! وقيل : « إنْ » بمعنى ما ، وأصل « لِمَ » لِمـا ، حذفت الألف فرقًا بين الآستفهام والخبر؛ ولا ينبغى أن يوقف عليه؛ لأنه إن وقف عليـه بلا هاء كان لحنًا ، وإن وقف عليه بالهـاء زيد فى السواد .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِۦ وَأَنْتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ اللام لام القَسَم . والبينات قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »(٢) وهى العصا ، والسُّنون ، واليد ، والدّم ، والطُّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، وفلق البحر . وقيل : البينات التوراة ، وما فيها من الدلالات .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ توبيخ ، و « ثُمّ » أبلغ من الواو فى التقريع؛ أى بعد النظر فى الآيات والإتيان بها آتخذتم . وهذا يدلّ على أنهم إنمـا فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات ، وذلك أعظم لجرمهم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ﴾ تقدّم الكلام في هذا (١) . ومعنى «ٱسمعوا» أطيعوا ، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط ، وإنما المراد ٱعملوا بما سمعتم والتزموه ؛ ومنه قولهم : سمع ٱلله لمن حمده ؛ أي قبِل وأجاب . قال :

دعوتُ الله حتى خِفتُ ألّا　*　يكون الله يســمع ما أقول

أي يَقبل؛ وقال الراجز :

والسمعُ والطـاعةُ والتسليمُ　*　خــيرٌ وأعْـفَى لبنى تمـــيم

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ٱختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقةً باللسان نُطْقًا ، أو يكونوا فعلوا فعلًا قام مقام القول فيكون مجازا؛ كما قال :

ٱمتلأ الحَــوْضُ وقال قطْنِي　*　مهلًا رُوَيْدًا قد ملأْتَ بطْنِي

وهذا ٱحتجاج عليهم في قولهم : « نُؤْمِنُ بِمَـا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » .

قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي حُبّ العجل . والمعنى : جعلت قلوبهم تُشربه ، وهــذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكّن أمر العجل في قلوبهم . وفي الحديث : "تُعْرَضُ الفِتَن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأيّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء" الحديث ، خرّجه مسلم . يقال أُشرِب قلبُه حبَّ كذا ؛ قال زهير :

فصحوتُ عنها بعد حُبٍّ داخلٍ　*　والحبُّ تُشرِبُه فــؤادَك داءُ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها ، طبعة ثانية .

Marfat.com

وإنما عبّر عن حُبّ العجل بالشُّرب دون الأكل لأن شرب المـاء يتغلغل فى الأعضـاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لهـا غير متغلغل فيها . وقد زاد على هـذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عَثْمَة ، وكان عَتَب عليها فى بعض الأمر فطلّقها وكان مُحِبًّا لها :

تغلغل حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادى * فباديه مـع الخـافى يسـير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب * ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها * أطير لَوَ اَنَّ إنسانا يطير

وقال السُّدّى وابن جُرَيج : إن موسى عليه السلام بَرَد العجل وذرّاه فى المـاء، وقال لبنى إسرائيـل : اشربوا من ذلك المـاء ؛ فشرب جميعهم ؛ فمن كان يحبّ العجل خرجت بُرادة الذهب على شَفَتَيْه . ورُوِىَ أنه ما شربه أحد إلا جُنّ ؛ حكاه القُشيرى .

قلت : أمّا تذريَتُه فى البحر فقـد دلّ عليه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا »(١) ؛ وأمّا شُرْبُ المـاء وظهور البُرادة على الشِّفاه فيردّه قوله تعالى : «وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ» . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ ﴾ أى إيمانكم الذى زعمتم فى قولكم : نؤمن بما أُنزِل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أُمِر أن يوبّخهم؛ أى قل لهم يا محمد . بئس هـذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بهـا إيمانكم . وقـد مضى الكلام فى « بئسما »(٢) والحمد لله وحده .

قوله تعـالى : قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

لمـا ادّعت اليهـود دعاوى باطلة حكاها الله عز وجل عنهـم فى كتابه ؛ كقوله تعالى : « لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً » ، وقوله : « وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

هُودًا أَوْ نَصَارَى» ، وقالوا : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (١) » أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد : « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ » يعنى الجنــة « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أقوالكم ؛ لأن من آعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحبَّ إليه من الحياة فى الدنيا ، لمـا يصير إليه من نعيم الجنة ، و يزول عنه من أذى الدنيا ، فأحجموا عن تمنّى ذلك فَرَقًا من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » ، وحرصهم على الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم بقوله الحق : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ تحقيقًا لكذبهم . وأيضا لو تمنَّوا الموت لمـاتوا ؛ كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو أن اليهود تمنَّوا الموت لمـاتوا ورأوا مقامهم (٢) من النار " . وقيل : إن الله صرفهم عن إظهار التمنى ، وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه ثلاثة أوجه فى تركهم التمنى . وحكى عِكرمة عن آبن عباس فى قوله : « فتمنَّوا الموت » أن المراد آدعوا بالموت على أكذب الفريقين منّا ومنكم ؛ فما دعوا لعلمهم بكذبهم .

فإن قيل : فالتّمنى يكون باللسان تارةً و بالقلب أخرى ؛ فمن أين عُلم أنهم لم يتمنّوه بقلوبهم ؟ قيل له : نطق القرآن بذلك بقوله « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » ولو تمنّوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردًّا على النبى صلى الله عليه وسلم و إبطالا لحجته ؛ وهذا بَيِّن .

قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً ﴾ نصب على خبر كان ، و إن شئت كان حالا ، و يكون « عند الله » فى موضع الخبر . ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف زمان يقع على القليل والكثير ؛ كالحين والوقت ، وهو هنا من أول العمر إلى الموت . و « ما » فى قوله « بمـا » بمعنى الذى والعائد محذوف ؛ والتقدير قدّمته ، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد . و « أيديهم » فى موضع رفع ، حُذفت الضمة من اليـاء لثقلها مع الكسرة ؛ و إن كانت فى موضع نصب حرّكتها ؛ لأن النصب خفيف ، ويجوز إسكانها فى الشعر . ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ آبتداء وخبر .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ .　　(٢) فى بعض نسخ الأصل : « مقاعدهم » .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ يعنى اليهود . ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل : المعنى وأحرص ؛ فحذف « مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » لمعرفتهم بذنوبهم وألّا خير لهم عند الله ؛ ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة ؛ ألا ترى قول شاعرهم :

تمتّـــع من الدنيـا فإنك فانٍ (١) * من النَّشَوات والنساء الحسان

والضمير فى «أَحَدُهُمْ» يعود فى هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم فى «حياة» ثم آستؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين . قيـل : هم المجوس ؛ وذلك بيِّن فى أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بمـا معناه « عِشْ ألفَ سنة » . وخُصّ الألف بالذكر لأنهـا نهاية العِقد فى الحساب . وذهب الحسن إلى أن « الذين أشركوا » مشركو العرب ، خُصُّوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث ؛ فهم يتمنّون طول العمر . وأصل سنة سَنْهَة . وقيل : سَنْوَة . وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أصل « يَوَدُّ » يَوْدَد ، أُدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ؛ وقُلبت حركة الدال على الواو ؛ ليـدل ذلك على أنه يفعل . وحكى الكسائى : وَدَدْت ؛ فيجوز على هذا يِوَدّ بكسر الواو . ومعنى يَوَدّ : يتمنّى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ اختلف النحاة فى هو ، فقيل: هو ضمير الأحد المتقدّم ، التقدير ما أحدهم بمزحزحه ، وخبر الابتداء فى المجرور . « أن يُعمَّر » فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقـدير وما التعمير بمزحزحه ، والخبر فى المجرور ، « أن يعمر » بدل من التعمير على هـذا القول . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : « هو » عماد .

(١) البيت لأمرئ القيس . والنشوات (جمع نشوة) : السكر .

Marfat.com

قلت : وفيه بُعْدٌ، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين؛ مثل قوله : « إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ »(١)، وقوله : « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ »(٢) ونحو ذلك . وقيل : « ما » عاملة حجازية، و « هو » اسمها، والخبر في « بِمُزَحْزِحِهِ » . وقالت طائفة : « هو » ضمير الأمر والشأن . ابن عطية : وفيه بُعْدٌ، فإن المحفوظ عن النحاة أن يفسَّر بجملة سالمة من حرف جرّ .

وقوله : ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ الزحزحة : الإبعاد والتنحية ؛ يقال : زحزحته أى باعدته فتزحزح أى تنحى وتباعد؛ يكون لازمًا ومتعديًا؛ قال الشاعر في المتعدى :

يا قابضَ الرُّوحِ من نفس إذا احتضرتْ * وغافرَ الذنب زَحْزِحْنِي عن النـارِ

وأنشده ذو الرُّمة :

يا قابضَ الروح عن جسم عصَى زَمنًا * وغافرَ الذنب زحزحني عن النـار

وقال آخر في اللازم :

خليـلىَّ ما بالُ الدُّجَى لا يتزحزح * وما بالُ ضَـوْءِ الصّبح لا يتوضّحُ

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من صام يوما في سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا" .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بما يعمل هؤلاء الذين يَوَدّ أحدهم أن يُعمَّر ألف سنة . ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده : قل لهم يا محمد الله بصير بما تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيّات الأمور . والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطّب، و بصير بالفقه، وبصير بملاقاة الرجال؛ قال :

فإن تسألونى بالنسـاء فإننى * بصيرٌ بأدواء النسـاء طبيب

قال الخطّابى : البصير العالم، والبصير المُبْصِر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار ، أى مدركة للبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوّة؛ فالله بصير بعباده، أى جاعل عباده مبصرين .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١١٥ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبيّ من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة و بالوحْى، فمَن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: "جبريل" قالوا : ذاك الذى ينزل بالحـرب و بالقتال، ذاك عدوّنا ! لو قلت : ميكائيـل الذى ينزل بالقطر و بالرحمـة تابعناك؛ فأنزل الله الآية إلى قـوله : « للكافرين » أخرجه الترمـذى .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ الضمير فى «إنه» يحتمل معنيين، الأوّل : فإن الله نزّل جبريل على قلبك . الثـانى : فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك . وخصّ القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقّى المعارف . ودلّت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذمّ معاديه .

وقوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى بإرادته وعلمه . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى التوراة . ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم معناه(١)، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ ﴾ شرط، وجوابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وهذا وعيد وذمٌّ لمُعَادى جبريل عليـه السلام، و إعلانٌ أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته وٱجتناب طاعته ، ومعادات أوليائه . وعداوةُ الله للعبـد تعذيبه و إظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيـل : لِم خصّ الله جبريل وميكائيل بالذكر و إن كان ذكر الملائكة قـد عمّهما ؟ قيل له : خصّهما بالذكر تشريفًا لهما، كما قال : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »(٢). وقيل : خُصّا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذِكْرُهما واجبٌ لئلا تقول اليهود : إنا لم نعاد

(١) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٨ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .

Marfat.com

الله وجميع ملائكته ؛ فنصّ الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . ولعلماء اللسان فى جبريل وميكائيل عليهما السلام لغات ؛ فأما التى فى جبريل فعَشْر :

الأولى — جِبريل ؛ وهى لغة أهل الحجاز ؛ قال حسان بن ثابت :

* وجِبْرِيلٌ رسولُ الله فِينا *

الثانيــة — جَبْرِيل (بفتح الجيم) وهى قراءة الحسن وآبن كَثير؛ ورُوِىَ عن آبن كَثير أنه قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرؤهما أبدًا كذلك .

الثالثــة — جَبْرَئِيـل (بياء بعد الهمزة ، مثال جبرعيل) ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وأنشــدوا :

شَهدنا فما تلق لنا من كتيبة * مَدَى الدهر إلا جَبْرَئِيلُ أمامُها (١)

وهى لغة تميم وقيس .

الرابعــة — جَبْرَئِل (على وزن جَبْرَعِل) مقصور ، وهى قراءة أبى بكر عن عاصم .

الخامســة — مثلها ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمَر ، إلا أنه شدّد اللام .

السادســة — جبرائل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عِكرمة .

السابعــة — مثلها ؛ إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنــة — جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر أيضا .

التاســعة — جَبْرَئين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون) .

العــاشرة — جِبْرِين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة) وهى لغة بنى أسد .

قال الطبرى : ولم يُقرأ بها . قال النحاس — وذكر قراءة آبن كَثير — : « لا يُعرف فى كلام العرب فَعْليل؛ وفيه فِعْليل؛ نحو دِهليز وقِطمير وبِرطيل؛ وليس ينكر أن يكون فى كلام العجم ما ليس له نظير فى كلام العرب ، وليس ينكر أن يكثر تغيّره، كما قالوا : إبراهيم وإبْرَهَم وإبراهُم

(١) البيت لكعب بن مالك ، كما فى شرح القاموس .

Marfat.com

وإبراهام » . قال غيره : جبريل آسم أعجمى عرّبته العرب ، فلها فيه هـذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقـدّم فى أوّل الكتاب[1] أن الصحيح فى هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل بلسان عربىّ مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأمّا اللغات التى فى ميكائيل فستّ :

الأولى — ميكاييل ، قراءة نافع . وميكائيل (بياء بعد الهمزة) قراءة حمزة . ميكال ، لغة أهـل الحجاز ، وهى قراءة أبى عمـرو وحفص عن عاصم . ورُوِىَ عن آبن كَثير الثـلاثة أوجه ؛ قال كعب بن مالك :

ويوم بَدْرٍ لقيناكم لنـا مَدَدٌ ... فيه مع النصر ميكالٌ وجبريلُ

وقال آخر[2] :

عبدوا الصّليب وكذّبوا بمحمّد ... وبجـــبرئيل وكذّبوا ميكالا

الرابعـــة — ميكئيل ، مثل ميكعيل ؛ وهى قراءة آبن مُحَيْصِن .

الخامســـة — ميكاييل (بياءين) وهى قراءة الأعمش باختلاف عنه .

السادســـة — ميكاءل ، كما يقال (إسراءل بهمزة مفتـوحة) ، وهو آسم أعجمى فـلذلك لم ينصرف . وذكر آبن عباس أن جَبْر وميكا وإسراف هى كلها بالأعجمية بمعنى : عبد ومملوك . وإيل : آسم الله تعالى ؛ ومنه قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حين سمع سَجْع مُسَيْلِمة : هذا كلام لم يخرج من إلّ ؛ وفى التنزيل : « لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً » فى أحد التأويلين ، وسيأتى[3] . قال المـاوردى : إن جبريل وميكائيل اسمان ، أحدهما عبد الله ، والآخر عبيد الله ؛ لأن إيل هو الله تعالى ، وجبر هو عبد ، وميكا هو عبيد ؛ فكأن جبريل عبد الله ، وميكائيل عبيد الله ؛ هذا قول آبن عباس ، وليس له فى المفسرين مخالف .

(١) راجع جـ ١ ص ٦٨ طبعة ثانية . (٢) هو جرير ؛ كما فى ديوانه . (٣) راجع جـ ٨ ص ٧٩

Marfat.com

قلت : و زاد بعض المفسرين : و إسرافيل عبد الرحمن . قال النحاس : ومن تأول الحديث « جبر » عبد ، و « إلّ » الله وجب عليه أن يقول : هـذا جبْرُئل و رأيت جبرَئل ومررت بجبرِئل؛ وهذا لا يقـال؛ فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مُسَمًّى بهـذا . قال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفا ، فترك الصرف يدلّ على أنه آسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الغني الحافظ من حديث أَفْلَت بن خليفة — وهو فُليت العامري وهو أبو حسان — عن جَسْرة بنت دَجَاجة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللّهُمّ ربّ جبريل وميكايل و إسرافيل أعوذ بك من حَرّ النار وعذاب القبر".

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (٩٩)

قال آبن عباس رضى الله عنهما : هـذا جواب لآبن صوريا[(١)] حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسـلم : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية؛ ذكره الطبرى .

قوله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الآستفهام كما تدخل على الفاء فى قوله : « أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ »[(٢)] ، «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ»[(٣)] ، «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ»[(٤)] . وعلى ثُمّ كقوله : « أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ »[(٥)] هذا قول سيبو يه . وقال الأخفش : الواو زائدة . ومذهب الكسائى أنهـا أو ، حُرّكت الواو منها تسهيلًا . وقرأها قوم أوْ، ساكنة الواو فتجىء بمعنى بل ؛ كما يقول القائل : لأضربنك؛ فيقول المجيب : أو يكفى الله . قال آبن عطية : وهذا كله متكلّف؛ والصحيح قول سيبو يه . « كلما» نصب على الظرف؛ والمعنى

(١) كذا فى نسخ الأصل وتفسير الطبرى وأسباب النزول للواحدى . وفى سيرة ابن هشام (ص ٣٧٩ طبع أوربا) : « أبو صلو با الفطيونى » .　(٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٤　(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠　(٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥١

Marfat.com

فى الآية مالك بن الصّيف ، ويقال فيه ٱبن الضيف(١)؛ كان قد قال : والله ما أُخذ علينا عهدٌ فى كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب ؛ فلما بُعث كفروا به . وقال عطاء : هى العهود التى كانت بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين اليهود فنقضوها ، كفعل قُريظة والنَّضير؛ دليله قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ(٢) » .

قوله تعـالى : ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ؛ ومنه النَّبيذ والمنبوذ ، قال أبو الأســود :

وخبّرنى مَن كنت أرسلتُ إنما * أخذتَ كتابى معرضًا بشمالكا
نظرتَ إلى عنـــوانه فنبـذتَه * كنبذك نعلًا أخلقتْ من نعالكا

آخـــر :

إن الذين أمرتهم أن يعـدلوا * نبذوا كتابك وٱستحلّوا المحْرَمَا

وهـذا مَثَل يُضرَب لمن ٱستخفّ بالشىء فلا يعمل به ؛ تقول العرب : ٱجعل هـذا خَلْفَ ظهـرك ، ودَبْرًا منـك ، وتحت قدمك ؛ أى ٱتركه وأعرض عنـه ؛ قال الله تعـالى : « وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا(٣) » . وأنشد الفراء :

تَمِيمُ بنَ زيد لا تكوننّ حاجتى * بظَهْــرٍ فلا يَعْيَا علىّ جوابُهـا(٤)

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ابتداء . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الخبر .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(١) فى أ ، ب ، ح : « الصيت » بالتاء المثناة ، وفى ج : « الصيب » بالباء . والتصويب عن سيرة ٱبن هشام ص ٣٥٢ طبع أوربا .
(٢) ج ٨ ص ٣٠
(٣) ج ٩ ص ٩١
(٤) البيت للفرزدق ، يخاطب تميم بن زيد القينى وكان على السند . (عن النقائض ص ٣٨١) طبع أوربا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ نعتٌ لرسول ، ويجوز نصبه على الحال . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ جواب « لما » . ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ نصب بـ « نَبَذَ » ، والمراد التوراة ؛ لأن كفرهم بالنبيّ عليه السلام وتكذيبهم له نبذٌ لها . قال السُّدّى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وبسحر هاروت وماروت . وقيل : يجوز أن يعنى به القرآن . قال الشَّعْبِيّ : هو بين أيديهم يقرءونه ؛ ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : أدرجوه فى الحرير والديباج ، وحلّوه بالذهب والفضة ، ولم يُحِلُّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه ؛ فذلك النّبذ . وقد تقدّم بيانه مستوفًى(١) . ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تشبيهٌ بمن لا يعلم ، إذ فعلوا فعل الجاهل ، فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علم .

قوله تعالى : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا ، وهم اليهود . وقال السُّدّى : عارضت اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف و بسحر هاروت وماروت . وقال محمد بن إسحاق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمانَ فى المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود

(١) فى الصفحة السابقة .

Marfat.com

كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَـرُوا﴾ أى ألقت إلى بنى آدم أن ما فعـله سليمان من ركوب البحر وٱستسخار الطـير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبي : كتبت الشياطين السحر والنِّيرَنْجِيَّات(1) على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلّاه حين ٱنتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان؛ فلما مات سليمان ٱستخرجوه وقالوا للناس : إنمـا ملَكَكم بهذا فتعلّموه؛ فأما علماء بنى إسرائيل فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ! وأما السِّفْلة فقالوا : هذا علم سليمان؛ وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله عز وجل على نبيّـه عذر سليمان وأظهر براءته ممـا رُمى به فقال : « وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّـيَاطِينُ » . قال عطاء : « تتلو » تقرأ من التـلاوة . وقال ٱبن عباس : « تتلو » تتبع؛ كما تقول : جاء القوم يتـلو بعضهم بعضا . وقال الطبرى : « ٱتبعوا » بمعنى فضّلوا .

قلت : لأن كل من اتبع شيئا وجعله أمامه فقد فضّله على غيره ، ومعنى « تتلو » يعنى تلت ، فهو بمعنى المضىّ؛ قال الشاعر :

وإذا مررتَ بقــبره فٱعْقِر به * كُومَ(2) الهِجان وكلّ طرفٍ سابح
وٱنضح جــوانبَ قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دَمٍ وذبائح

أى فلقد كان . و « ما » مفعول بـ « ٱتبعوا » ؛ أى ٱتبعوا ما تقوّلتـه الشياطين على سليمان وتلته . وقيل : «ما» نفىٌ؛ وليس بشىء لا فى نظام الكلام ولا فى صحته؛ قاله ابن العربى . ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى على شرعه ونبوّته . قال الزجاج : المعنى على عهد مُلك سليمان . وقيل : المعنى فى ملك سليمان؛ يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . قال الفرّاء : تصلح على وفى ، فى مثل هذا الموضع . وقال « علَى » ولم يقل بَعْدَ لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

(1) اختلفت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، والذى فى القاموس : « النيرنج » قال شارح القاموس : « هكذا فى سائر النسخ ، والمنقول عن نص كلام الليث : «النيرج» بإسقاط النون الثانية ، وكذا ورد فى اللسان . وهو أُخَذ كالسحر وليس به ، إنما هو تشبيه وتلبيس » .

(2) الكوم (بالضم) : جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . والهجان من الإبل : البيض الكرام .

Marfat.com

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ[(١)] » أى فى تلاوته . وقد تقـدّم معنى الشيطان واشتقاقه، فلا معنى لإعادته[(٢)] . والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن؛ وهو المفهوم من هذا الاسم . وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون فى الضلال؛ كقول جرير :

أيام يَدعونني الشيطان من غَزَلِي * وكنّ يَهْـوَيْنني إذ كنتُ شيطانا

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تبرئة من الله لسليمان؛ ولم يتقدّم فى الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر، ثم قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ فأثبت كفرهم بتعليم السحر . و « يُعَلِّمُونَ » فى موضع نصب على الحال، و يجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر ثان . وقرأ الكوفيون سوى عاصم « ولكنِ الشّياطينُ » بتخفيف « لكن » ، ورفع النون من « الشياطين » ؛ وكذلك فى الأنفال « ولكنِ اللهُ رمى[(٣)] » ووافقهم ابن عامر . الباقون بالتشديد والنصب . و « لكن » كلمة لها معنيان : نفى الخبر الماضى، و إثبات الخبر المستقبل؛ وهى مبنيّة من ثلاث كلمات : لا ، ك ، إن . « لا » نفى ، و « الكاف » خطاب ، و « إن » إثبات وتحقيق ؛ فذهبت الهمزة استثقالا ، وهى تثقّـل وتخفّف؛ فإذا ثُقِّلت نصبت كإنّ الثقيلة ، و إذا خُفِّفت رفعت بها كما ترفع بإن الخفيفة .

الثالثـــة — السحر، قيل : السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى، فيُخيَّل للمسحور أنهـا بخلاف ما هى به؛ كالذى يرى السراب من بعيد فيُخيَّل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرًا حثيثًا يُخيَّل إليه أن ما يرى من الأشجـار والجبال سائرة معه . وقيـل : هو مشتقّ من سَحَرتُ الصبيَّ إذا خدعته، وكذلك إذا علّلته . والتسحير مثله؛ قال لَبيد :

فإنْ تسألينا فِيمَ نحن فإنّنـا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤

Marfat.com

آخـــر :[1]

أرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ[2] * ونُسْحَرُ بالطعام وبالشَّرابِ
عصـافيرٌ وذِبَّانٌ ودودٌ * وأجرأ من مُجَلِّحَةِ الذئابِ[3]

وقوله تعـالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » يقال : المُسَحَّر الذى خُلِق ذا سَحْر؛ ويقال من المعلَّلين؛ أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل : أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله فى خُفية . وقيـل : أصـله الصَّرف؛ يقال : ما سَحَرك عن كذا، أى ما صرفك عنه؛ فالسِّحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الاستمالة؛ وكلُّ مَن استمالك فقد سحرك . وقيل فى قوله تعـالى : « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » أى سُحرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا . وقال الجوهرى : السِّحر الأُخْذة؛ وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر؛ وقد سحره يَسحره سِحرًا. والساحر : العـالم، وسحره أيضا بمعنى خدعه؛ وقد ذكرناه . وقال ابن مسعود : كنّا نُسمّى السحر فى الجاهلية العِضَه . والعِضَهُ عند العرب : شدّة البَهْت وتمويه الكذب؛ قال الشاعر:

أعـوذ بربِّى مِن النّافثا * ت فى عِضَه العاضه المُعْضِه

الرابعـــة ــ واختلف هل له حقيقة أم لا، فذكر الغزنوى الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعى وسوسة وأمراض . قال : وعندنا أصـله طِلَّسْم يُبنى على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس فى زئبـق عِصِىّ فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عَسُر .

قلت : وعندنا أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، على ما يأتى . ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشَّعْوَذة . والشَّعْوَذِىّ : البريد لخفّة سيره . قال ابن فارس فى المُجْمَل : الشَّعوذة ليست من كلام أهل البادية، وهى خفة فى اليـدين وأُخْذَةٌ كالسحر؛ ومنه ما يكون كلامًا يُحفظ، ورُقًى من أسمـاء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

(١) هو امرؤ القيس؛ كما فى ديوانه واللسان . (٢) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت؛ وأنه قد غيب عنا وقته؛ ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب . (٣) ذئب مجلح : جرىء .

Marfat.com

الخامســــة — سمّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفصاحةَ فى الكلام واللِّسانة فيه سِحْرًا؛ فقال : " إنّ من البيان لَسحْرًا " أخرجه مالك وغيره . وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهّم السامع أنه حــق؛ فعلى هــذا يكون قوله عليــه السلام . " إنّ من البيان لَســحْرًا " خرج مخرج الذم للبــلاغة والفصاحة ، إذ شبّهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان؛ قاله جماعة من أهل العلم . والأوّل أصح، والدليل عليه قوله عليه السلام : " فلعلّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض " ، وقــوله : " إنّ أبغضكم إلىّ الثَّرْثَارون المُتَفَيْهِقُون " . الثَّرثرة : كثرة الكلام وترديده؛ يقال: ثرثر الرجل فهو ثَرثار مِهذار . والمُتَفَيْهِق نحوه . قال ابن دُريد . فلان يتفيْهَق فى كلامه إذا توَسّع فيه وتنطّع ؛ قال : وأصله الفَهْق وهو الأمتلاء؛ كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهــذا المعنى الذى ذكرناه فسّره عامر الشعبيّ راوى الحــديث وصَعْصَعة بن صُوحان فقالا : أمّا قوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ من البيان لسحرًا" فالرجل يكون عليه الحق وهو ألْحَنُ بالحجج من صاحب الحق فيَسْحَرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه؛ وإنما يحمد العلمــاء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حدّ الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وهذا بيّن، والحمد لله .

السادســـة — مِن السِّحر ما يكون كُفْرًا من فاعله ؛ مثلما يدّعون من تغيير صُوَر الناس ، وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة ، والطيران فى الهواء؛ فكل مَن فعل هذا ليُوهِم الناس أنه محقّ فذلك كفر منه ؛ قاله أبو نصر عبــد الرحيم القُشَيْرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يُقلب الحيوان من صورة إلى صورة ، فيجعل الإنسان حمــارا أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها؛ فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء، يدّعى مثــل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيّأ مع هــذا علم صحة النبوّة إذ قد يحصل مثلها بالحيــلة . وأما من زعم أن السحر خُدَع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر، إلا أن يَقتل بفعله أحدا فيُقتل به .

Marfat.com

السابعـــة — ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الأسترابادى من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنمـا هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضَرْب من الخفّة والشَّعْوذة ؛ كما قال تعالى: « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ »(١) ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال « يُخَيَّل إليه » . وقال أيضا : « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّـاسِ »(٢) . وهـذا لا حجة فيه ؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل ووَرَد بها السمع ؛ فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس ، فدلّ على أن له حقيقة . وقوله تعالى فى قصة سَحَرة فرعون : «وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» وسورة «الفلق» ؛ مع ٱتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لَبِيد بن الأعصم ، وهو مما خرّجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: سَحَر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يهوديٌّ من يهود بنى زُرَيق يقال له لَبِيد بن الأعصم ؛ الحديث. وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لمـا حُلّ السِّحر : "إن الله شفانى" . والشفاء إنمـا يكون برفع العِـلّة وزوال المرض ؛ فدلّ على أن له حقًّا وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبـار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ، ولا عبرة مع ٱتفاقهم بحُثَالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق . ولقد شاع السِّحر وذاع فى سابق الزمان وتكلّم الناس فيه ، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ٱبن عباس قال : عُلِّم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها : « الفرما » فمن كذّب به فهو كافر ، مكذّب لله ورسوله ، منكِرٌ لمـا عُلِم مشاهدةً وعيانًا .

الثامنـــة — قال علمـاؤنا : لا يُنكَر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات ممـا ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقـل وتعويج عضو ، إلى غير ذلك ممـا قام الدليـل على ٱستحالة كونه من مقدورات العباد . قالوا : ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولّج فى الكُوّات والخوخات والأنتصاب على رأس قصبة ، والجَرْى على

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩

Marfat.com

خيط مستدقّ، والطيران فى الهواء والمشى على المـاء وركوب كلب وغير ذلك . ومع ذلك فلا يكون السحر موجبًا لذلك، ولا علّةً لوقوعه ولا سببًا مولدا، ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدِثها عند وجود السّحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والرّى عند شرب المـاء . روى سفيان عن عمار الذّهبى أن ساحرا كان عند الوليد بن عُقْبة يمشى على الحبل، و يدخل فى آست الحمار ويخرج من فيه؛ فآشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله جندب — هذا هو جُنْدَب بن كعب الأزدى ويقال البَجَلى — وهو الذى قال فى حقه النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " يكون فى أمتى رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرّق بين الحق والباطل " . فكانوا يرونه جُنْدَبًا هذا قاتل الساحر . قال على بن المدينى : روى عنه حارثة بن مُضَرِّب .

التاســعة — أجمع المسلمون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنـده إنزال الجراد والقُمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى و إنطاق العجماء، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : و إنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه .

العـاشرة — فى الفرق بين السحر والمعجزة؛ قال علمـاؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد . والمعجزة لا يمكّن الله أحدا أن يأتى بمثلها و بمعارضتها؛ ثم الساحر لم يدّع النبوّة فالذى يصدر منه متميّز عن المعجزة؛ فإن المعجزة شرطها آقتران دعوى النبوّة والتحدّى بها، كما تقدّم فى مقدمة الكتاب (١) .

الحادية عشرة — وآختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذّمىّ؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته؛ لأنه أمرٌ يستسِرّ به كالزنديق والزانى، ولأن الله تعـالى سمّى السحر كفرًا بقوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » وهو قول أحمـد بن حنبل وأبى ثور و إسحاق والشافعى

(١) يراجع جـ ١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

وأبى حنيفة . ورُوى قتـل الساحر عن عمـر وعثمان وآبن عمر وحفصة وأبى موسى وقيس ابن سعد وعن سبعة من التابعين . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " حَدُّ الساحرضَرْبُه بالسيف " خرّجه الترمذى وليس بالقوىّ؛ آنفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه آبن عُيَيْنة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مُرْسَـلًا ؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جُنْدَب . قال آبن المنذر : وقد رَوَينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرِّقاب . قال آبن المنذر : و إذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يَتُب ، وكذلك لو ثبتت به عليـه بيِّنة ووصفت البينة كلامًا يكون كفرا . و إن كان الكلام الذى ذكر أنه سَحَر به ليس بكفر لم يجز قتـله ، فإن كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص آقتُصّ منه إن كان عَمَد ذلك ؛ و إن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك . قال آبن المنـذر : و إذا آختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى المسألة وجب آتباع أشبههم بالكتاب والسُّنة ، وقـد يجوز أن يكون السِّحر الذى أَمَر من أمر منهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا فيكون ذلك موافقًا لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحتمَل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرًا . فإن آحتجّ محتجّ بحديث جُنْدَب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "حدُّ الساحر ضربه بالسيف" فلوصحّ لآحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا ، فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ... "

قلت : وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الآختلاف . والله تعـالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة أن السحر لا يتمّ إلا مع الكفر و لاستكبار ، أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دالٌّ على الكفر على هذا التقدير ، والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعى : لا يُقتل الساحر إلا أن يَقتل بسحره و يقول تعمّدت القتل ، و إن قال لم أتعمده لم يُقتل ، وكانت فيه الدِّية كقتل الخطأ ؛ و إن أضرّ به أُدِّب على قدر الضرر . قال آبن العربى : وهـذا باطل من وجهين ؛ أحدهما : أنه لم يعلم السحر ، وحقيقته أنه كلام

Marfat.com

مؤلف يُعظّم به غير الله تعالى، وتُنسب إليه المقادير والكائنات . الثانى : أن الله سبحانه قد صرّح فى كتابه بأنه كفر فقال : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » بقول السحر « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » به و بتعليمه . وهاروت وماروت يقولان : « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تُقبل توبته ؛ لأن السحر باطن لا يُظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ؛ و إنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدًّا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبل أن يُشهد عليهما قُبلت توبتهما ؛ والحجة لذلك قوله تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »[(١)] فدلّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب ، فكذلك هذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذِّمة ؛ فقيل يُقتل . وقال مالك : لا يُقتل إلا أن يَقتل بسحره ويَضمن ماجَنَى، ويُقتل إن جاء منه مالم يُعاهد عليه . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : فأمّا إذا كان ذِمّيًّا فقد آختلفت الرواية عن مالك ؛ فقال مَرّة : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مَرّة : يُقتل و إن أسلم . وأما الحربيّ فلا يُقتل إذا تاب ؛ وكذلك قال مالك فى ذمىّ سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مَرّة : يُقتل ولا يُستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا فى الذّمى إذا سَحر: يُعاقب ؛ إلا أن يكون قَتل بسحره، أو أحدث حدَثًا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يُقتل ؛ لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحرَ ورثتُه ؛ لأنه كافر إلا أن يكون سِحْره لا يُسمّى كفرًا . وقال مالك فى المرأة تَعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تُنكَّل ولا تُقتل .

الثالثة عشرة — وآختلفوا هل يُسئل الساحر حلّ السحر عن المسحور ؛ فأجازه سعيد ابن المسيّب على ما ذكره البخارى ، و إليه مال المُزَنِيّ وكرهه الحسن البصرى . وقال الشّعبي : لا بأس بالنُّشْرة[(٢)] . قال آبن بَطّال : وفى كتاب وَهْب بن مُنَبِّه أن يأخذ سبع ورقات من سِدْر

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦   (٢) النشرة (بالضم) : ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن أن به مسًّا من الجن ؛ لأنه يُنشر بها عنه ما خامره من الداء ، أى يكشف و يزال .

Marfat.com

أخضر فيدقّه بين حجرين ثم يضرب به بالماء ويقرأ عليه آية الكرسى، ثم يَحْسُو منه ثلاث حَسَوات ويغتسل به؛ فإنه يذهب عنه كل ما به، إن شاء الله تعالى، وهو جيّد للرجل إذا حُبس عن أهله.

الرابعـة عشرة — أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن؛ ودلّ إنكارهم على قلّة مبالاتهم وركاكة دياناتهم، وليس فى إثباتهم مستحيل عقلىّ؛ وقد دلّت نصوص الكتاب والسُّنة على إثباتهم، وحقّ على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونصّ الشرع على ثبوته؛ قال الله تعالى: « وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » وقال: « وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ »(١) إلى غير ذلك من الآى، وسورة «الجنّ» تقضى بذلك؛ وقال عليه السلام: "إن الشيطان يجرى من ابن آدم مَجْرَى الدم". وقد أنكر هـذا الخبر كثير من الناس، وأحالوا روحين فى جسد؛ والعقل لا يحيل سلوكهم فى الإنس إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم؛ ولو كانوا كثافا لصحّ ذلك أيضا منهم، كما يصح دخول الطعام والشراب فى الفراغ من الجسم، وكذلك الدِّيدان قد تكون فى بنى آدم وهى أحياء.

الخامسة عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ «ما» نفى، والواو للعطف على قوله: « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر؛ فنفى الله ذلك. وفى الكلام تقديم وتأخير، التقدير وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله « وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ». هـذا أولى ما حُملت عليه الآية من التأويل، وأصحّ ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقّة أفهامهم؛ وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساءُ وخاصّةً فى حال طَمْثِهِنَّ؛ قال الله تعالى: « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »(٢). وقال الشاعر:

أعوذ بربّى من النّـافثا ت ... ...

السادسة عشرة — إن قال قائل: كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدلُ إنما يكون على حدّ المبدَل منه؛ فالجواب من وجوه ثلاثة؛ الأوّل: أن الاثنين قد يُطلق عليهما اسم

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٥٧

Marfat.com

الجمع؛ كما قال تعالى : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ » ولا يحجبها عن الثلث إلى السّدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا، على ما يأتي بيانه في « النساء »(١) . الثاني : أنهما لمّا كانا الرأس في التعليم نصّ عليهما دون أتباعهما ؛ كما قال تعالى : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(٢) الثالث : إنما خُصّا بالذكر من بينهم لتمردهما؛ كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »(٣) وقوله : « وجبريل وميكال » . وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فقد ينصّ بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله؛ كقوله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ »(٤) وقوله : « وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ »، وإما لطيبه كقوله : « فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »؛ وإما لأكثريته؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : "جُعلت لي الأرضُ مسجدًا وتربتها طهورا" ، وإما لتمرده وعُتُوّه كما في هذه الآية، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن « ما » عطف على السّحر وهي مفعولة؛ فعلى هذا يكون « ما » بمعنى الذي، ويكون السحر منزّلا على الملكين فتنة للناس وامتحانا. ولله أن يمتحن عباده بما شاء؛ كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول المَلَكان : إنما نحن فتنة؛ أي مِحْنة من الله، نخبرك أن عمل الساحر كفر فإن أطعتنا نجوت ، وإن عصيتنا هلكت . وقد روى عن عليّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسّدّي والكلبي ما معناه : أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك في زمن إدريس عليه السلام — عيّرتهم الملائكة؛ فقال الله تعالى : أمَا إنكم لو كنتم مكانهم وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم؛ فقالوا : سبحانك! ما كان ينبغي لنا ذلك؛ قال : فاختاروا ملكين من خياركم؛ فاختاروا هاروت وماروت، فأنزلهما إلى الأرض فركّب فيهما الشهوة، فما مرّ بهما شهر حتى فُتنا بامرأة اسمها بالنّبطية « بيدخت » وبالفارسية « ناهيل »(٥) وبالعربية « الزُّهَرة » اختصمت إليهما ، وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرّم الله؛ فأجاباها وشربا الخمر وألمّا بها؛ فرآهما رجل فقتلاه، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلّماها فتكلّمت به

(١) راجع جـ ٥ ص ٧٢ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٧٧ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ١٠٩ . (٥) في بعض نسخ الأصل : « ناهيد » بالدال المهملة بدل اللام .

Marfat.com

فعرجت فمُسخت كوكبًا . وقال سالم عن أبيه عن عبد الله : فحدّثنى كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عمِلا بما حرّم الله عليهما . وفى غير هذا الحديث : فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ؛ فهما يُعذّبان ببابل فى سَرَب من الأرض . قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان ابن عمر فيما يُروَى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزُّهَرة وسُهيلًا سبّهما وشتمهما ؛ ويقول : إن سُهيلًا كان عشّارًا[1] باليمن يَظلم الناس ؛ وإن الزُّهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قلنا : هذا كلّه ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصحّ منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسُفراؤه إلى رسله «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»[2] . «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[3] . «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ»[3] . وأما العقل فلا يُنكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يُدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدلّ على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففى الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوّارة زُحَل والمُشتَرِى وبَهرام وعُطارد والزُّهَرة والشمس والقمر" . وهذا معنى قول الله تعالى : «وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»[3] . فثبت بهذا أن الزُّهرة وسُهيلًا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم إن قول الملائكة : «ما كان ينبغى لنا» عورة[4] : لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كُفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزّهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربّك ربِّ العزّة عما يصفون .

السابعة عشرة — قرأ ابن عباس وابن أبزَى والضحاك والحسن : « المَلِكين » بكسر اللام . قال ابن أبزى : هما داود وسليمان . فـ«ما» على هذا القول أيضا نافية ؛ وضعّف هذا القول ابن العربى . وقال الحسن : هما عِلْجان كانا ببابل مَلِكين ؛ فـ«ما» على هذا القول مفعولة غير نافية .

---

(١) العشار : الذى يقبض عشر الأموال . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ ، ٢٧٨ . (٤) كذا فى أ ، ب ، جـ . وفى ح ، ز : « عوده » . وكتب على هامش الأزهرية : « لعله تقديره » . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن « غوره » وغور كل شيء : عمقه و بعده .

Marfat.com

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعُجْمة ، وهي قُطر من الأرض ؛ قيـل : العراق وما والاه . وقال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة و بابل . وقال قتادة : هي من نَصِيبين إلى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب. قال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نهاوَنْد؛ فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل ؛ فقيـل : سُمّيَ بذلك لتبلبل الألسن بهـا حين سقط صَرْح نمروذ . وقيـل : سُمّيَ به لأن الله تعالى لمـا أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحًا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل؛ فبلبل الله ألسنتهم بها ؛ ثم فرقتهم تلك الريح في البـلاد . والبلبلة: التفريق؛ قال معناه الخليل . وقال أبو عمر بن عبد البر: من أخصر ما قيل في البَلْبَلة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند عن عِلْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لمـا هبط إلى أسفل الجُـودِيّ ابتنى قرية وسمّاها ثمـانين؛ فأصبح ذات يوم وقـد تَبَلْبَلَت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداها اللسان العربي ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة — روى عبدالله بن بشر المـازني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الدنيا فوالذي نفسي بيـده إنها لأسحر من هاروت وماروت" . قال علماؤنا : إنمـا كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها ، وتكتمك فتنتَها ، فتـدعوك إلى التّحارص عليها والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرق بينك وبين طاعة الله تعالى، وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته ؛ فالدنيا أسحر منهما ، تأخذ بقلبك عن الله، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وسحر الدنيـا : محبّتها وتلذّذك بشهواتها ، وتمنّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِمّ" .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ لا ينصرف « هاروت » ؛ لأنه أعجميّ معرفة ، وكذا « ماروت » ؛ ويجمع هواريت ومواريت، مثل طواغيث؛ ويقـال : هوارِتة وهوار، وموارِتة وموار، ومثله جالوت وطالوت؛ فاعلم . وقد تقدّم هل هما ملكان أو غيرهما ؟ خلاف . قال الزّجاج : ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : أيْ والذي أنزل

Marfat.com

على الملكين، وأن الملكين يعلّمان الناس تعليم إنذار من السّحر لا تعليم دعاء إليــه . قال الزجاج : وهذا القول الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر، ومعناه أنهما يعلّمان الناس على النهى فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا لتفرّقوا بين المرء وزوجه . والذى أُنزل عليهما هو النّهى، كأنه قولا للناس : لا تعملوا كذا؛ فـ «يُعَلّمان» بمعنى يُعْلِمان؛ كما قال : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »[1] أى أكرمنا .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ « من » زائدة للتوكيد، والتقدير : وما يعلمان أحدا . ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ نصب بحتى فلذلك حذفت منه النون؛ ولغـة هُذيل وثقيف « عتّى » بالعين غير المعجمة . والضمير فى « يعلّمان » لهـاروت وماروت . وفى «يُعَلّمان» قولان؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم . الثانى : أنه من الإعلام لا من التعليم؛ فـ « يُعَلّمان » بمعنى يُعْلِمان، وقد جاء فى كلام العرب تعـلّم بمعنى أعلم؛ ذكره ابن الأعرابى وابن الأنبارى . قال كعب بن مالك :

تعـلّم رسـول الله أنك مُدْرِكى * وأن وعيدًا منك كالأخذ باليـد

وقال القُطامِىّ :

تعلّم أن بعد الغَىّ رشـدا * وأن لذلك الغىّ انقشاعا

وقال زُهـــير :

تعـلّمَنْ ها لعَمْـــرُ الله ذا قسمًا * فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلكُ[2]

وقال آخر :

تعـلّم أنــه لا طــير إلا * عــلى مُتطيِّرٍ وهـــو الثُّبُــور

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لمـا أنبأا بفتنتهما كانت الدنيا أسحر منهما حين كتمت فتنتها . ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ قالت فرقة بتعليم السحر، وقالت فرقة باستعماله . وحكى المهدوىّ أنه استهزاء؛ لأنهما إنمـا يقولانه لمن قد تحققا ضلاله .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٣ (٢) فى البيت شاهد آخر، وهو تقديم « ها » التى للتنبيه على « ذا » وقد حال بينهما بقوله : « لعمر الله » . والمعنى تعلمن لعمر الله هذا ما أقسم به . وفى الديوان : «فاقصد بذرعك» .

Marfat.com

الثانيــة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون؛ قال ومثله « كُنْ فَيَكُونُ » . وقيل : هو معطوف على موضع « وَمَا يُعَلِّمَانِ » ؛ لأن قوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ » وإن دخلت عليه ما النافية فضمّنه الإيجاب في التعليم . وقال الفراء : هي مردودة على قوله : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » فيتعلمون؛ ويكون « فيتعلّمون » متصلة بقوله « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ » فيأتون فيتعلمون . قال السُّدّى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هـذا الرَّماد فَبُلْ فيه؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ؛ ثم يخرج منه دخان أسود فيدخل في أذنيــه وهو الكفر ؛ فإذا أخبرهما بمــا رآه من ذلك علّماه ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر ليس يقــدر على أكثر ممــا أخبر الله عنه من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذمّ للسحر والغاية في تعليمه ؛ فلو كان يقــدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفــة : ذلك خرج على الأغلب ، ولا ينكر أن السحر له تأثير في القــلوب ، بالحب والبُغض وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأســقام؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة ؛ وقــد تقدّم هذا ، والحمد لله .

الثــالثة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ « مَا هُمْ » إشارة إلى السحرة . وقيــل إلى اليهود ، وقيــل إلى الشياطين . « بِضَارِّينَ بِهِ » أي بالسحر . « مِنْ أَحَدٍ » أي أحدا ، ومن زائدة . « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أي بإرادته وقضائه لا بأمره؛ لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق بها . وقال الزجاج : « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » إلا بعلم الله . قال النحاس : وقول أبي إسحاق « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » إلا بعلم الله غلط ؛ لأنه إنما يقال في العــلم أَذِنَ ، وقد أَذِنْتُ أَذَنًا . ولكن لمــا لم يحل فيما بينهم وبينه وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجــازا .

الرابعة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يريد في الآخرة وإن أخذوا بها نفعًا قليلا في الدنيا . وقيل : يضرهم في الدنيــا ؛ لأن ضرر السحر والتفريق يعود

Marfat.com

على الساحر في الدنيا إذا عثر عليه ؛ لأنه يُؤدَّب ويُزجَر، ويلحقه شؤم السحر . وباقي الآي بين لتقدّم معانيها . واللام في « وَلَقَدْ عَلِمُوا » لام توكيد . ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ ﴾ لام يمين، وهي للتوكيد أيضا . وموضع «مَن» رفع بالابتداء ؛ لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها . و«مَن» بمعنى الذي . وقال الفرّاء : هي للجازاة . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط ، و«مَن» بمعنى الذي ؛ كما تقول : لقد علمت، لمن جاءك ما له عقل . ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ «من» زائدة ، والتقدير ما له في الآخرة خلاق، ولا تزاد في الواجب ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون: تكون زائدة في الواجب ، واستدلوا بقوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ »[1] والخَلَاق : النصيب ؛ قاله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ فأخبر أنهم قد علموا ؛ ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ؛ فالجواب وهو قول قُطْرُب والأخفش : أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شَرَوْا أنفسهم — أي باعوها — هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال عليّ بن سليمان : الأجود عندي أن يكون « وَلَقَدْ عَلِمُوا » للملكين ؛ لأنهما أولى بأن يعلموا . وقال : «علموا» كما يقال : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود ؛ ولكن قيل : « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أي فدخلوا في محل من يقال له : لست بعالم ؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ أي اتقوا السحر . ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ المثوبة الثواب ؛ وهي جواب « وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا » عند قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس لـ « لَوْ » هنا جواب في اللفظ ولكن في المعنى ؛ والمعنى لأثيبوا . وموضع «أَنّ» من قوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ » موضع رفع ؛ أي لو وقع إيمانهم ؛ لأن « لو » لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا ؛ لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدّ له من جواب ؛ و « أَنّ » يليه فعل . قال محمد بن يزيد :

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢١٧

Marfat.com

وإنما لم يجاز بـ «لو» لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضى إلى معنى المستقبل؛ فلما لم يكن هذا فى «لو» لم يجز أن يجازى بها .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠٤)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود، والمقصود نهى المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة « رَاعِنَا » فى اللغة أَرْعِنا ولْنَرْعَك ؛ لأن المفاعلة من آثنين ؛ فتكون من رعاك الله ، أى آحفظنا ولنحفظك ، وآرْقُبْنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك؛ أى فرّغ سمعك لكلامنا . وفى المخاطبة بهذا جفاء؛ فأمر المؤمنين أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أرقّها . قال آبن عباس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : راعنا . على جهة الطلب والرّغبة — من المراعاة — أى ٱلتفت إلينا ؛ وكان هذا بلسان اليهود سبًّا، أى آسمع لا سمعتَ؛ فآغتنموها وقالوا : كنا نَسُبّه سِرًّا فالآن نَسُبّه جهرًا؛ فكانوا يخاطبون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم؛ فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربنّ عنقه ؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية، ونُهُوا عنها لئلا تقتدى بها اليهود فى اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه .

الثانيــة — فى هذه الآية دليلان : أحدهما — على تجنّب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغضّ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافا لأبى حنيفة والشافعى وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره، والحدّ مما يسقط بالشبهة . وسيأتى فى «النور»[1] بيان هذا، إن شاء الله تعالى .

الدليل الثانى : التمسّك بسدّ الذرائع[2] وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حنبل فى رواية عنه؛ وقد دلّ على هذا الأصل الكتاب والسنّة . والذّريعة عبارة عن أمر

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٧٥ . (٢) الذرائع (جمع الذريعة) وهى لغة : الوسيلة والسبب إلى الشيء .

Marfat.com

دلائل قرآن

غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع . أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهى سب بلغتهم؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب، وقوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »(1) فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ »(1) الآية؛ فحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد فى يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرّعًا، أى ظاهرة، فسدّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السدّ ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم الله قردة وخنازير؛ وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لآدم وحوّاء : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » وقد تقدّم . وأما السنة(2) فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك](3) لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله". أخرجه البخارى ومسلم . قال علماؤنا : ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها؛ فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك، وشدّد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسدّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال : "اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" وقال : "اللّهمّ لا تجعل قبرى وثنا يعبد" . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه"(4) الحديث . فمنع من الإقدام

دلائل سنت

(1) راجع ج ٧ ص ٦١ وص ٣٠٤ (2) راجع ج ١ ص ٣٠٤

(3) زيادة عن صحيح البخارى . (4) ورد هذا فى صحيح مسلم — كتاب البيوع — ببعض اختلاف فى ألفاظه .

Marfat.com

على الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات ؛ وذلك سدًّا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذرًا مما به البأس " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيَسُبُّ أباه و يسبُّ أُمَّه فيسبُّ أمّه " . بجعل التعرض لسبّ الآباء كسبّ الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم ". وقال أبو عبيد الهَرَوِى : العِينَة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسَمًّى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فإن آشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما آشتراه إلى أجل مسمًّى ثم باعها المشترى من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضا عينة ، وهى أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم . وسُمّيت عِينة لحصول النقد لصاحب العِينة؛ وذلك لأن العَيْن هو المال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعَيْن حاضر يصل إليه من فوره . وروى آبن وهب عن مالك أن أم ولد لزيد بن الأرقم ذكرت لعائشة رضى الله عنها أنها باعت من زيد عبدًا بثمانمائة إلى العطاء ثم آبتاعته منه بستمائة نقدًا؛ فقالت عائشة : بئس ما شَرَيتِ، و بئس ما آشتريت ! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يَتُب . ومثل هـذا لا يقال بالرأى ؛ لأن إبطال الأعمال لا يتوصّل إلى معرفتها إلا بالوَحْى ؛ فثبت أنه مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دَعُوا الربا والرِّيبة . ونهى ابن عباس رضى الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما حريزة (١) .

قلت : فهذه هى الأدلة التى لنا على سدّ الذرائع ، وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال ؛ لأن ذلك عندهم

---

(١) كذا فى ا . وفى ب : « جريرة » . وفى جـ « حريرة » . وفى ح « جريزة » . ولم نوفق إلى وجه الصواب فيها .

Marfat.com

عقود مختلفة مستقلة، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون. والمالكية جعلوا السّلعة محلّلة ليُتَوَصَّل بها إلى دراهم بأكثر منها، وهذا هو الربا بعينه، فاعلمه .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ نهيٌ يقتضى التحريم، على ما تقدّم. وقرأ الحسن «راعنًا» منونة . وقال : أى هُجْرًا من القول، وهو مصدر ونصبه بالقول، أى لا تقولوا رُعُونة . وقرأ زِرّ بن حُبَيْش والأعمش «راعونا» ؛ يقال لما نتأ من الجبل : رَعْنٌ ، والجبل أَرْعَن . وجَيْش أَرْعَن ، أى متفرق . وكذا رجل أرعن ، أى متفرق الحجج وليس عقله مجتمعا ؛ عن النحاس . وقال ابن فارس : رَعُن الرجل يَرْعُن رَعْنًا فهو أرعن ، أى أهْوَج . والمرأة رعناء . وسُمّيت البصرة رَعْناء لأنها تُشَبَّه بِرَعْن الجبل ، قال ابن دُرَيْد ذلك ، وأنشد للفرزدق :

لولا ابن عتبة عمـــرو والرجاء له * ما كانت البصرة الرّعناء لى وطنـا

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أُمِروا أن يخاطبوه صلى الله عليه وسلم بالإجلال، والمعنى : أَقبِل علينا وانظر إلينا، فحذف حرف التعدية، كما قال :

ظاهرات الجمـال والحسن ينظر * ن كما ينظر الأراكَ الظِّبـاءُ

أى إلى الأراك[1] . وقال مجاهد : المعنى فَهِّمنا وبيِّن لنا . وقيل : المعنى انتظرنا وتأنّ بنا ، قال :

فإنكما إن تنظـرانى ساعةً * من الدهر ينفعنى لَدَى أُمِّ جُنْدُب

والظاهر استدعاء نظر العين المقترن بتدبّر الحال، وهذا هو معنى راعنا . فبدلت اللفظة للمؤمنين وزال تعلق اليهود . وقرأ الأعمش وغيره « أَنْظِرنا » بقطع الألف وكسر الظاء، بمعنى أخِّرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقّى منك ، قال الشاعر[2] :

أبا هنـــدٍ فـلا تعجل علينا * وأَنْظِـــرنا نخـــبِّرك اليقينا

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لما نهى وأمر جل وعز، حضّ على السمع الذى فى ضمنه الطاعة. وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليما .

---

(١) القائل هو امرؤ القيس ، كما فى ديوانه .

(٢) هو عمرو بن كلثوم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ ﴾ أى ما يتمنّى ، وقد تقدّم (١) . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ معطوف على « أهل » . ويجوز : ولا المشركون ، تعطفه على الذين ؛ قاله النحاس . ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ « من » زائدة ، « خير » اسم ما لم يُسمّ فاعله . و « أن » فى موضع نصب ؛ أى بأن ينزل . ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « يختص برحمته » أى بنبوّته ، خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن . وقيل : الرحمة فى هذه الآية عامّة لجميع أنواعها التى قد منحها الله عباده قديما وحديثا ؛ يقال : رَحِم يَرْحَم إذا رقّ . وَالرُّحْمُ والمَرْحَمَة والرَّحمة بمعنًى ؛ قاله ابن فارس . ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه لهم . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ « ذو » بمعنى صاحب .

قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ « نُنسِها » عطف على « ننسخ » ، وحذفت الياء للجزم . ومن قرأ « نَنْسَأْها » حذف الضمة من الهمزة للجزم ؛ وسيأتى معناه . ﴿ نَأْتِ ﴾ جواب الشرط ، وهذه آية عظمى فى الأحكام . وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين فى التوجّه إلى الكعبة وطعنوا فى الإسلام بذلك ، وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ؛ فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ؛ فأنزل الله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (٢) » وأنزل « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » .

(١) يراجع ص ٣٤ من هذا الجزء .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٧٦

Marfat.com

الثانيـــة — معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة ، لا يستغنى عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهـلة الأغبياء؛ لمـا يترتّب عليه من النوازل فى الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام . روى أبو البَخْتَرِىّ قال : دخل علىّ رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس؛ فقال : ماهذا ؟ قالوا : رجل يذكّر الناس ؛ فقال : ليس برجل يذكّر الناس ! لكنه يقول أنا فلان آبن فلان فآعرفونى، فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ؟! فقال : لا؛ قال : فآخرج من مسـجدنا ولا تُذكّر فيــه . وفى رواية أُخرى : أعلمتَ الناسخ والمنسوخ؟ قال : لا؛ قال : هلكتَ وأهلكتَ ! . ومثله عن آبن عباس رضى الله عنهما .

الثالثـــة — النسخ فى كلام العرب على وجهين :

أحدهمـا — النقل؛ كنقل كتاب من آخر . وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا؛ أعنى من اللوح المحفوظ و إنزاله إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا؛ وهذا لا مدخل له فى هذه الآية ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[(1)] أى نأمر بنسخه و إثباته .

الثـانى : الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا؛ وهو منقسم فى اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشىء وزواله و إقامة آخر مقامه؛ ومنه نسخَتِ الشمسُ الظلَّ إذا أذهبته وحلّت محله؛ وهو معنى قوله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » . وفى صحيح مسـلم : " لم تكن نبوّة قطّ إلا تناسخت " أى تحوّلت من حال إلى حال؛ يعنى أمر الأمّة . قال آبن فارس : النّسخ نسـخ الكتاب ، والنّسخ أن تزيل أمرًا كان من قبل يُعمل به ثم تنسخه بحادث غيره؛ كالآية ينزل بأمر ثم ينسخ بأخرى . وكلّ شىء خلف شيئا فقـد آنتسـخه؛ يقال : آنتسخت الشمسُ الظلَّ، والشيبُ الشباب . وتناسُخ الورثة : أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم؛ وكذلك تناسُخ الأزمنة والقرون .

الثـانى : إزالة الشىء دون أن يقوم آخر مقامه؛ كقولهم : نسخت الريح الأثر؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى : «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ»[(2)] أى يزيله فلا يتلى ولا يثبت فى المصحف بدله .

---

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٧٥ (2) راجع جـ ١٢ ص ٧٩

Marfat.com

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثانى قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فتُرفع فلا تُتلى ولا تُكتب .

قلت : ومنه ما روى عن أُبَىّ بن كعب وعائشة رضى الله عنهما أن سورة « الأحزاب » كانت تعدل سورة البقرة فى الطول؛ على ما يأتى مبيّناً هناك (١) إن شاء الله تعالى . ومما يدل على هذا ما ذكره أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا عبد الله ابن صالح عن اللّيث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب قال : حدّثنى أبو أمامة بن سهل ابن حُنيف فى مجلس سعيد بن المسيّب أن رجلا قام من الليل ليقرأ سورة من القرآن فلم يقدر على شىء منها، وقام آخر فلم يقدر على شىء منها، وقام آخر فلم يقدر على شىء منها ؛ فغدوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهم : قمتُ الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شىء منها؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها مما نَسخ الله البارحة". وفى إحدى الروايات : وسعيد بن المسيّب يسمع ما يحدّث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعــة — أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السّلف السابق على وقوعه فى الشريعة . وأنكرته أيضا طوائف من اليهود ؛ وهم محجوجون بما جاء فى توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إنى قد جعلت كل دابة مأْكَلًا لك ولذريّتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العُشْب ، ما خلا الدّم فلا تأكلوه . ثم قد حرّم على موسى وعلى بنى إسرائيل كثيرا من الحيوان؛ وبما كان آدم عليه السلام يزوّج الأخ من الأخت؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له : لا تذبحه؛ وبأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عَبَد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نبوّته غير متعبَّد بها قبل بعثه؛ ثم تُعبّد بها بعد ذلك، إلى غير ذلك . وليس هذا من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم؛ لضرب من المصلحة ، إظهارا لحكمته وكمال مملكته . ولا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١٣

Marfat.com

خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدّينية والدنيويّة ؛ وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالما بمآل الأمور ؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح ؛ كالطبيب المراعى أحوال العليل ؛ فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ؛ فخطابه يتبدّل ، وعلمه وإرادته لا تتغيّر ؛ فإن ذلك محال فى جهة الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئا واحدا ؛ ولذلك لم يجوّزوه فضلُّوا . قال النحاس : والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شىء إلى شىء قد كان حلالا فيحرم ، أو كان حراما فيُحلّل . وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه ؛ كقولك : امض إلى فلان اليوم ؛ ثم تقول لا تمض إليه ؛ فيبدو لك العدول عن القول الأوّل ؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم . وكذلك إن قلت : ازرع كذا فى هذه السنة ؛ ثم قلت : لا تفعل ؛ فهو البداء .

الخامسة — اعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى ، ويسمّى الخطاب الشرعى ناسخا تجوّزا ، إذ به يقع النسخ ، كما قد يتجوز فيسمّى المحكوم فيه ناسخا ، فيقال : صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء ؛ فالمنسوخ هو المزال ، والمنسوخ عنه هو المتعبَّد بالعبادة المزالة ، وهو المكلّف .

السادسة — اختلفت عبارات أئمتنا فى حدّ الناسخ ؛ فالذى عليه الحُذّاق من أهل السّنة أنه إزالة ما قد استقرّ من الحكم الشرعى بخطاب وارد متراخيا ؛ هكذا حدّه القاضى عبد الوهاب والقاضى أبو بكر ، وزادا : لولاه لكان السابق ثابتا ؛ فحافظا على معنى النسخ اللغوى ، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة ، وتحرُّزا من الحكم العقلى ، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيره ؛ وليخرج القياس والاجماع ، إذ لا يتصوّر النسخ فيهما ولا بهما . وقيّدا بالتراخى ؛ لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا ناسخا ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوّله ؛ كقولك : قم لا تقم .

السابعة — المنسوخ عند أئمتنا أهل السُّنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدّم زائل . والذى

Marfat.com

فأداهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسية للحسن ، ومراد الله حسن؛ وهذا قد أبطله علماؤنا فى كتبهم .

الثامنــة — اختلف علماؤنا فى الأخبار هل يدخلها النسخ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهى ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى .

وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكماً شرعياً جاز نسخه؛ كقوله تعالى : « ومِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا »(١) . وهناك يأتى القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسـعة — التخصيص من العموم يُوهِم أنه نسخ وليس به؛ لأن المخصص لم يتناوله العموم قط، ولو ثبت تناول العموم لشىء ما ثم أخرج ذلك الشىء عن العموم لكان نسخًا لا تخصيصا؛ والمتقدمون يطلقون على التخصيص نسخًا توسُّعًا ومجازًا .

العاشرة — اعلم أنه قد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق؛ ويرد تقييدها فى موضع آخر فيرتفع ذلك الإطلاق ؛ كقوله تعالى : « وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِى إِذَا دَعَانِ »(٢) . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال؛ لكن قد جاء ما قيده فى موضع آخر؛ كقوله « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »(٣) . فقد يظن من لا بصيرة عنده أن هـذا من باب النسخ فى الأخبار وليس كذلك ، بل هو من باب الإطلاق والتقييد . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل إلى الأخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين(٤) . ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان؛ على ما يأتى بيانه فى آية الصيام(٥) . ويُنسخ المثل بمثله ثقلا وخفة؛ كالقبلة. ويُنسخ الشىء لا إلى بدل كصدقة النجوى . ويُنسخ القرآن بالقرآن . والسُّنة بالعبارة؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعى . ويُنسخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحُذاق الأئمة على أن القرآن يُنسخ بالسُّنة، وذلك موجود فى قوله عليه السلام : "لا وصيةَ لوارث" . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبى ذلك الشافعى وأبو الفرج المالكى؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٢٧ (٢) ص ٣٠٨ من هذا الجزء . (٣) جـ ٦ ص ٤٢٣

(٤) وهو أن الله تعالى نسخ وقوف الواحد للعشرة فى الجهاد بثبوته لاثنين . (٥) ص ٢٧٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن آختلفت في الأسماء. وأيضا فإن الجلد ساقط في حدّ الزنى عن الثيّب الذي يُرجم، ولا مسقط لذلك إلا السُّـنة فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا بيّن.

والحذّاق أيضا على أن السُّنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القِبْلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى . وفي قوله تعالى : « فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ »(١) فإن رجوعهن إنمـا كان بصلح النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحذّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا، وآختلفوا هل وقع شرعًا؛ فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قُبَاء(٢)، على ما يأتي بيانه؛ وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نصّ بقياس؛ إذ من شروط القياس ألا يخالف نصًّا .

وهذا كله في مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأما بعـد موته وآستقرار الشريعة فأجمعت الأمّة أنه لا نسخ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ به إذ آنعقاده بعد آنقطاع الوحي؛ فإذا وجدنا إجماعًا يخالف نصًّا فيُعلم أن الإجماع آستند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النصّ المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نُسخ وبقي سـنة يُقرأ ويُروى؛ كما آية عدة السَّنة في القرآن تُتلى(٣)؛ فتأمّل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النَّجْوَى . وقد تُنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم . وقد تُنسخ التلاوة والحكم معا؛ ومنه قول الصدّيق رضي الله عنه : كنا نقرأ « لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر » ومثله كثير .

والذي عليه الحُذّاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبّد بالحكم الأوّل؛ كما يأتي بيـانه في تحويل القبلة .

والحُذّاق على جواز نسخ الحُكم قبل فعله، وهو موجود في قصة الذبيح، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس؛ على ما يأتي بيانه في « الإسراء »(٤) و« الصافات »(٥)؛ إن شاء الله تعالى .

الثانيـة عشرة — لمعرفة الناسخ طُرُق؛ منها — أن يكون في اللفظ ما يدل عليه؛ كقوله عليه السلام : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا في ظروف

(١) راجع جـ ١٨ ص ٦٣ (٢) جـ ٨ ص ٢٥٩ (٣) يريد قوله تعالى : «متاعا إلى الحول...» فإنه قد نسخ حكمها وبقيت تلاوتها . راجع جـ ٣ ص ٢٢٦ (٤) جـ ١٠ ص ٢١٠ (٥) جـ ١٥ ص ١٠٧

Marfat.com

الأَدَم فاشربوا فى كل وعاء غير ألّا تشربوا مُسْكِرًا " ونحوه . ومنها — أن يذكر الراوى التاريخ؛ مثل أن يقول : سمعت عامَ الخَنْدَق، وكان المنسوخ معلومًا قبله . أو يقول : نُسخ حكم كذا بكذا . ومنها — أن تجمع الأمة على حُكم أنه منسوخ وأن ناسخه متقدّم . وهذا الباب مبسوط فى أصول الفقه، نبّهنا منه على ما فيه لمن آقتصر كفاية، والله الموفّق للهداية .

الثالثة عشرة — قرأ الجمهور « مَا نَنْسَخْ » بفتح النون، من نَسَخ، وهو الظاهر المستعمل على معنى : ما نرفع من حكم آية ونُبقى تلاوتها؛ كما تقدّم . ويحتمل أن يكون المعنى : ما نرفع من حكم آية وتلاوتها؛ على ما ذكرناه . وقرأ آبن عامر « نُنسِخ » بضم النون، من أنسخت الكتاب؛ على معنى وجدته منسوخا . قال أبو حاتم : هو غلط . وقال الفارسى أبو علىّ : ليست لغة؛ لأنه لا يقال : نَسَخ وأنسخ بمعنًى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا؛ كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محمودا و بخيلا . قال أبو علىّ : وليس نجده منسوخا إلا بأن ننسخه، فتتفق القراءتان فى المعنى و إن آختلفتا فى اللفظ . وقيل : « ما ننسخ » ما نجعل لك نسخه؛ يقال : نسخت الكتاب إذا كتبته، وآنتسخته غيرى إذا جعلت نسخه له . قال مكّى : ولا يجوز أن تكون الهمزة للتعدّى، لأن المعنى يتغيّر، و يصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد؛ و إنساخه إياها إنزالها عليه، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها؛ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها؛ فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن؛ لأنه لم يُنسخ إلا اليسير من القرآن . فلما آمتنع أن يكون أفعل وفَعَل بمعنًى إذ لم يسمع، وآمتنع أن تكون الهمزة للتعدّى لفساد المعنى، لم يبق ممكن إلا أن يكون من باب أحمدته وأبخلته إذا وجدته محمودا أو بخيلا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ قرأ أبو عمرو وآبن كثير بفتح النون والسين والهمز، و به قرأ عمر وآبن عباس وعطاء ومجاهد وأُبَىّ بن كعب وعبيد بن عُمير والنَّخَعىّ وآبن مُحَيْصِن، من التأخير؛ أى نؤخّر نسخ لفظها، أى نتركه فى آخر أم الكتاب (١) فلا يكون (٢) . وهذا قول عطاء . وقال غير عطاء : معنى أو ننسأها : نؤخرها عن النسخ إلى وقت معلوم؛ من قولهم :

(١) كذا فى نسخة ا والذى فى ب، ج، ح، ز : « فى أم الكتاب » . (٢) فى ح : « فلا تكن نسخا » .

Marfat.com

نسأت هذا الأمر إذا أخرته ؛ ومن ذلك قولهم : بعته نَسْأً إذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون : نسأ الله فى أجلك ، وأنسأ الله أجلك . وقد انتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا أخرتهم . فالمعنى نؤخر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون «ننسها» بضم النون ، من النسيان الذى بمعنى الترك ، أى نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ؛ قاله ابن عباس والسدى ؛ ومنه قوله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »[1] أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قال أبو عبيد : سمعت أبا نُعيم القارئ يقول : قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام بقراءة أبى عمرو فلم يغير على إلا حرفين ؛ قال : قرأت عليه «وأَرْنا»[2] فقال : أَرِنا ؛ فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر «أو ننسأها» فقال : « أو ننسها » . وحكى الأزهرى «ننسها» نأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشىء أى أمرت بتركه ؛ ونسيته تركته ؛ قال الشاعر :

إن على عُقبة أقضيها ❊ لستُ بناسيها ولا مُنْسِيها[3]

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ؛ وما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « أو ننسها » قال : نتركها لا نبدلها ، فلا يصح . ولعل ابن عباس قال : نتركها ؛ فلم يضبط . والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى «أو ننسها» نبح لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ، ثم تعديه . وقال أبو على وغيره : ذلك مُتجه ؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها . وقيل : من النسيان على بابه الذى هو عدم الذكر ، على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ نقل بالهمز فتعدى الفعل إلى مفعولين : وهما النبى والهاء ، لكن اسم النبى محذوف .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لفظة «بخير» هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس فى عاجل إن كانت الناسخة أخف ، وفى آجل إن كانت أثقل ، وبمثلها

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٢) سيأتى الكلام عليها فى ص ١٢٧ من هذا الجزء .

(٣) العقبة (بضم فسكون) من معانيها : الإبل يرعاها الرجل ويسقيها ؛ أى أنا أسوق عقبتى وأحسن رعيها .

Marfat.com

إن كانت مستوية . وقال مالك : مُحْكَمَة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل؛ لأن كلام الله لا يتفاضل، و إنما هو مثل قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » (١) أي فله منها خير، أي نفع وأجر؛ لا الخير الذي هو بمعنى الأفضل، و يدل على القول الأول قوله : « أَوْ مِثْلِهَا » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ جزم بلم، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ؛ وفتحت « أنّ » لأنها في موضع نصب . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي بالإيجاد والاختراع، والمُلك والسلطان، ونفوذ الأمر والإرادة . وارتفع « مُلْكُ » بالابتداء، والخبر «له» والجملة خبر « أن » . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وقيل : المعنى أي قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دون الله من وَلىّ؛ من وَليت أمر فلان، أي قمت به ؛ ومنه وليّ العهد، أي القيّم بما عُهد إليه من أمر المسلمين . ومعنى ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ سوى الله وبعدَ الله ؛ كما قال أُميّة بن أبي الصَّلْت :

يا نفسُ ما لكِ دونَ الله من واقِ * وما على حَدَثان الدهر من باقِ

وقراءة الجماعة « وَلَا نَصِيرٍ » بالخفض عطفا على « وَلِيّ » ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع عطفا على الموضع، لأن المعنى ما لكم من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعالى : أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعة التي بمعنى بل؛ أي بل تريدون، ومعنى الكلام التوبيخ . ﴿ أَنْ تَسْأَلُوا ﴾ في موضع نصب بـ «تريدون» . ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف في موضع

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٤

Marfat.com

نصب نعت لمصدر؛ أى سؤالا كما. و«موسى» فى موضع رفع على مالم يسم فاعله. «من قبل»: سـؤالهم إياه أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا. عن ابن عباس ومجاهد: سألوا أن يجعل لهم الصّفا ذهبا. وقرأ الحسن «كما سِيل»، وهذا على لغة من قال؛ سِلْتُ أسالُ؛ ويجوز أن يكون على بدل الهمـزة ياء ساكنة على غير قياس فانكسرت السـين قبلها. قال النحاس: بدل الهمزة بعيـد. والسّواء من كل شيء: الوسط. قاله أبو عبيدة مَعْمر بن المُثنّى؛ ومنـه قوله: «فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ». وحكى عيسى بن عمر قال: ما زلت أكتب حتى انقطع سوائى؛ وأنشد قول حسان يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِهِ * بعـدَ المُغَيَّبِ فى سـواء المُلْحَدِ

وقيل: السـواء القصد؛ عن الفرّاء، أى ذهب عن قصد الطريق وسَمْته، أى طريق طاعة الله عز وجل. وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن خُزيمة ووهب ابن زيد قالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهارا نتّبعك.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. فيه مسألتان:

الأولى — ﴿وَدَّ﴾ تمنّى، وقد تقدّم[1]. ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثان بـ «يَرُدُّونَكُمْ». ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: هو متعلق بـ «وَدَّ». وقيل: بـ «حَسَدًا»؛ فالوقف على قوله: «كُفَّارًا». و«حسدا» مفعول له؛ أى وَدُّوا ذلك للحسد، أو مصدر دلّ ماقبله على الفعل. ومعنى «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» أى من

(١) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء.

Marfat.com

تلقائهم من غير أن يجدوه فى كتاب ولا أمروا به؛ ولفظة الحسد تُعطى هذا . فجاء « مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم » تأكيدًا وإلزامًا؛ كما قال تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ »(١) ، « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(٢) . والآية فى اليهود .

الثانيــة — الحســد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ؛ وسواء تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا ؛ وهذا النوع الذى ذمّه الله تعالى فى كتابه بقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »(٣) وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق . وأما المحمود فهو ما جاء فى صحيح الحديث من قوله عليه السلام : "لا حسدَ إلا فى اثنتين رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهارِ ورجلٍ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليلِ وآناء النهارِ". وهذا الحسد معناه الغبطة . وكذلك ترجم عليه البخارى « باب الاغتباط فى العلم والحكمة » . وحقيقتها : أن تتمنّى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره ؛ وقد يجوز أن يسمّى هذا منافسة ؛ ومنه قوله تعــالى : « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »(٤) . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى من بعد ما تبيّن الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا ﴾ والأصل اعْفُوُوا حُذفت الضمة لثقلها ، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين . والعَفْو : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس . صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه . وقــد ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنــه وتركته ؛ ومنه قوله تعالى : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا »(٥) .

الثانيــة — هذه الآية منسوخة بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « صَاغِرُونَ »(٦) عن ابن عباس . وقيل : الناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »(٧) . قال أبو عبيدة :

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ . (٢) جـ ٦ ص ٤١٩ . (٣) جـ ٥ ص ٢٥١ .
(٤) جـ ١٩ ص ٢٦٤ . (٥) جـ ١٦ ص ٦٢ . (٦) جـ ٨ ص ١٠٩ (٧) جـ ٨ ص ٧٢ .

Marfat.com

كل آية فيها ترْكٌ للقتال فهى مَكِّيَّة منسوخة بالقتال . قال ابن عطية : وحُكْمُه بأن هذه الآية مَكِّيَّة ضعيف ؛ لأن معاندات اليهود إنمـا كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصحيح ، روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَكِب على حمار عليه قَطِيفة فَدَكِيَّة[1] وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عُبَادة فى بنى الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بَدْر ؛ فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول[2] — وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَىّ — فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدَة الأوثان واليهود ؛ وفى المسلمين عبد الله بن رَوَاحة ؛ فلما غشيت المجلس عَجَاجةُ[3] الدابة خَمَّر[4] ابن أُبَىّ أنفـه بردائه وقال : لا تُغَبِّروا علينـا ! فسلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله تعـالى وقرأ عليهم القرآن ؛ فقال له عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول : أيها المرء ، لا أحسن ممـا تقول إن كان حقًّا ! فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، [ارجع إلى رَحْلك[5]] فمن جاءك فاْقصص عليه . قال عبد الله بن رَوَاحة : بلى يا رســول الله ، فاْغْشَنا فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك . فاستبّ المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون ؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُخَفِّضهم حتى سكنوا ؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " [يا سعد[5]] ألم تسمع إلى ما قال أبو حُبَاب — يريد عبد الله بن أُبَىّ — قال كذا وكذا " فقال : أىْ رسول الله ، بأبى أنت وأمى ! آعف عنه وآصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذى أنزل عليك ؛ ولقد آصطلح أهل هذه البُحَيرة[6] على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبوه بالعصابة ، فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِق بذلك ، فذلك فعل ما رأيت ؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه يَعْفُون عن المشركين وأهل الكتاب كما

(١) فدكية : منسوبة إلى فدك (بالتحريك) قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . (٢) سلول : أم عبد الله بن أبى . (٣) العجاج : الغبار . (٤) خمر أنفه : غطاه . (٥) زيادة عن صحيحى البخارى ومسلم يقتضيها السياق . والرحل : المنزل . (٦) البحيرة (تصغير البحرة) : مدينة الرسول عليه السلام ؛ وقد جاء فى رواية مكبرا

Marfat.com

أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى ؛ قال الله عز وجل : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[1] . وقال : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأوّل في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أُذِن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا فقتل الله به مَن قتل من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ قال عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ومَن معه من المشركين وعَبَدة الأوثان : هذا أمرٌ قد تَوَجّه[2] ؛ فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ يعني قَتْل قُرَيظة وجلاء بني النَّضير . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ تقدّم[3] . والحمد لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ جاء في الحديث "أن العبد إذا مات قال الناس ما خلّف وقالت الملائكة ما قدّم" . وخرّج البخاريّ والنّسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله" . قالوا : يا رسول الله، ما منّا من أحد إلا مالُه أحبُّ إليه من مال وارثه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منكم من أحد إلا مالُ وارثه أحب إليه من ماله . مالُك ما قدّمت ومالُ وارثك ما أخّرت" ؛ لفظ النسائي . ولفظ البخاري : قال عبد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله" قالوا : يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه ؛ قال : "فإن مالَه ما قدّم ومال وارثه ما أخّر" . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرّ ببَقِيع الغَرْقَد[4] فقال : السلام عليكم أهلَ القبور، أخبارُ ما عندنا أن نساءكم قد تزوّجن ، ودُوركم قد سُكِنت ، وأموالكم قد قُسِمت . فأجابه هاتف : يابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدّمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلّفناه فقد خسرناه . ولقد أحسن القائل :

قَـدِّم لنفسك قبل موتك صالحًا * واعمـل فليس إلى الخلود سبيل

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ (٢) أي ظهر وجهه . (٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها ، ٢٢٤ ، ٣٤٣ وما بعدها ، طبعة ثانية . (٤) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة

Marfat.com

وقال آخر :

قـدّم لنفسك تَوْبةً مرجُوّة * قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر :

وَلدتْك إذ وَلدتْـك أُمّك باكيًا * والقومُ حَوْلَك يضحكون سرورًا

فاعمل ليوم تكون فيـه إذا بكَوْا * فى يوم موتـك ضاحكًا مسرورًا

وقال آخر :

سابق إلى الخير وبادِرْ به * فإنمـا خَلْفَـك ما تعـلمُ

وقـدّم الخير فكلّ آمرئ * عـلى الذى قـدّمه يقـدمُ

وأحسن من هذا كله قول أبى العتاهية :

اسْعَدْ بمـالك فى حياتـك إنمـا * يبـق وراءك مصلحٌ أو مفسـدُ

وإذا تركت لمفسـدٍ لم يبقـه * وأخـو الصلاح قليـله يتزيّـد

وإن آستطعت فكن لنفسك وارثًا * إن المـورّث نفسـه لمسـدّد

﴿ إنّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تقدّم [1] .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ المعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا . وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا . وأجاز الفراء أن يكون «هُودًا» بمعنى يهوديًا ، حُذف منه الزائد، وأن يكون

(١) يراجع ص ٣٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

جمع هائد . وقال الأخفش سعيد : «إلا مَنْ كَانَ» جعل «كان» واحدا على لفظ «من»، ثم قال هـودا بجمع؛ لأن معنى «مَن» جَمع . ويجوز «تِلْكَ أمانيهـم» وتقدّم الكلام (١) فى هذا، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أصـل «هاتوا» هاتِيُوا، حُذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ يقال فى الواحد المذكر : هات، مثل رام؛ وفى المؤنث : هاتى، مثل رامى. والبرهان: الدليل الذى يوقع اليقين، وجمعه براهين؛ مثل قُرْبان وقرابين، وسلطان وسلاطين. قال الطبرى: طلب الدليل هنا يقضى إثبات النظر ويرد على من ينفيه . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنى فى إيمانكم أو فى قولكم تدخلون الجنة ؛ أى بينوا ما قلتم ببرهان ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم؛ أى ليس كما تقولون . وقيـل : إن «بلى» محمولة على المعنى ؛ كأنه قيل أمَا يدخل الجنـة أحد ؟ فقيل : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ومعنى «أسلم» آستسلم وخضع . وقيل : أخلص عمله . وخصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يُرى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس، وفيه يظهر العزّ والذّل . والعرب تُخبر بالوجه عن جملة الشيء ويصح أن يكون الوجه فى هـذه الآية المقصد . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ جملة فى موضع الحال ، وعاد الضمير فى «وجهه» و «له» على لفظ «مَن» وكذلك «أجْرُهُ» وعاد فى «عليهم» على المعنى ، وكذلك فى «يحزنون» وقد تقدم (٢) .

قوله تعـالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

(١) راجع المسألة الثانية ص ٥ من هذا الجزء .   (٢) راجع ج ١ ص ٣٢٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

معناه آدّعى كل فريق منهـــم أن صاحبه ليس على شىء، وأنه أحق برحمة الله منــه . ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة والإنجيل، والجملة فى موضع الحال . والمراد بـ«الذين لا يَعْلَمُونَ» فى قول الجمهور : كفار العـــرب؛ لأنهم لا كتاب لهم . وقال عطاء : المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى . الربيع بن أنس : المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى . آبن عباس : قدِم أهل نجران على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود؛ فتنازعوا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شىء؛ فنزلت الآية .

قوله تعـالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ «مَن» رفع بالابتداء، و «أَظْلَمُ» خبره، والمعنى لا أحدَ أظلم . و «أنْ» فى موضع نصب على البدل من «مساجد»، ويجوز أن يكون التقدير : كراهية أن يُذكر، ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : من أن يذكر فيها؛ وحرف الخفض يُحذف مع «أنْ» لطول الكلام . وأراد بالمساجد هنا بيت المَقْدِس ومحاريبه . وقيل الكعبة، وجمعت لأنها قِبْلة المساجد أو للتعظيم . وقيل: المراد سائر المساجد؛ والواحد مَسْجِد (بكسر الجيم)؛ ومن العرب من يقـول : مَسْجَد (بفتحها) . قال الفراء : «كل ما كان على فَعَل يَفْعُل؛ مثل دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح آسما كان أو مصدرا . ولا يقع فيه الفرق، مثل دخل يَدْخُل مَدْخَلًا، وهذا مَدْخَلُه؛ إلا أحرفا من الأسماء ألزموها كسر العين؛ من ذلك : المَسْجِد والمَطْلِع والمغرِب والمشرِق والمَسْقِط والمَفْرِق والجَزِر والمَسْكِن والمَرْفِق (من رَفَق يَرْفُق) والمَنْبِت والمَنْسِك (من نَسَك يَنْسُك)؛ فجعلوا

Marfat.com

الكسر علامة للاسم، ورُبّما فتحه بعض العـرب فى الاسم » . والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود . والآراب[(١)] : السبعة مساجد؛ قاله الجوهرى .

الثانيـــة ــ وآختلف الناس فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت؛ فذكر المفسرون أنها نزلت فى بُخْتَ نَصّر؛ لأنه كان أخرب بيت المقـدس . وقال آبن عباس وغيره : نزلت فى النصارى؛ والمعنى كيف تدعون أيهـا النصارى أنكم من أهل الجنـة ! وقد خرّبتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه . ومعنى الآية على هذا : التعجّب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، و إنمـا فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئـك أعداء الله النصارى؛ حملهم إبغاض اليهـود على أن أعانوا بُخْتَ نَصّر البابليّ المجوسيّ على تخريب بيت المقـدس . وروى أن هذا التخريب بقى إلى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلين والنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وصدّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة . وقيـل : المراد مَن منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد و بعض الأشخاص ضعيف؛ والله تعالى أعلم .

الثالثـــة ــ خراب المساجد قـد يكون حقيقيًّا كتخريب بُخْتَ نَصّر والنصارى بيت المقدس على ما ذُكر أنهـم غزَوْا بنى إسرائيل مع بعض ملوكهم ــ قيل : آسمه نطوس[(٢)] بن اسبيسانوس الرومى فيما ذكر الغزنَوِيّ ــ فقتلوا وسبَوْا، وحرقوا التوراة، وقذفوا فى بيت المقدس العَذِرة وخربوه .

ويكون مجازًا كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة و إظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها .

---

(١) الآراب (جمع إرب بكسر فسكون) : الأعضاء ؛ والمراد بالسبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان .

(٢) آضطربت الأصول فى رسم هذا الاسم ؛ ففى ا ، ح ، ز «بطوس» بالباء الموحدة التحتية . وفى ب : « نطرس » بالتاء المثناة من فوقها ، وفى حـ : « نطوس » بالنون .

Marfat.com

الرابعة — قال علماؤنا: ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج إذا كانت صَرُورة[(١)]، سواء كان لها مَحْرَم أو لم يكن؛ ولا تمنع أيضا من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة؛ وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" ولذلك قلنا: لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وإن خربت المحلة، ولا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف، بأن يبنوا مسجدا إلى جنب مسجد أو قُربه؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأوّل وخرابه واختلاف الكلمة، فإن المسجد الثاني ينقض ويمنع من بنيانه؛ ولذلك قلنا: لا يجوز أن يكون في المصر جامعان، ولا لمسجد واحد إمامان، ولا يصلي في مسجد جماعتان. وسيأتي لهذا كله مزيد بيان في سورة «براءة»[(٢)] إن شاء الله تعالى، وفي «النور»[(٣)] حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى. ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لمّا كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا كان منعها أعظم إثمًا.

الخامسة — كل موضع يمكن أن يُعبد الله فيه ويُسجد له يسمّى مسجدًا؛ قال صلى الله عليه وسلم: "جُعلت لِيَ الأرض مسجدا وطهورا"، أخرجه الأئمة. وأجمعت الأمة على أن البُقعة إذا عُيّنت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربّها وصارت عامّة لجميع المسلمين؛ فلو بنى رجل في داره مسجدا وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقي على ملكه ولم يخرج إلى حدّ المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن اختصاص الأملاك.

السادسة — قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ «أولئك» مبتدأ وما بعده خبره. «خائفين» حال؛ يعني إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها. فإن دخلوها، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها. وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال، على ما يأتي في «براءة» إن شاء الله تعالى. ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مرّ زمان

(١) الصرورة: التي لم تحج قط. (٢) راجع جـ ٨ ص ١٠٤ وص ٢٥٤ (٣) جـ ١٢ ص ٢٦٥

Marfat.com

بعد بناء عمر بيت المقدس فى الإسلام لا يدخله نصرانى إلا أُوجع ضرباً بعد أن كان متعبّدهم.
ومن جعلها فى قريش قال: كذلك نودى بأمر النبي صلى الله عليه وسلم: "ألّا لا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان". وقيل: هو خبر ومقصوده الأمر؛ أى جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفا؛ كقوله: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ»(١) فإنه نَهى ورَدَ بلفظ الخبر.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيل القتل للحربي، والجزية للذمى؛ عن قتادة. السُّدى: الخزْىُ لهم فى الدنيا قيامُ المهدى، وفتحُ عَمُّورِيّة ورُومِية وقُسْطَنْطِينِية، وغير ذلك من مُدُنهم؛ على ما ذكرناه فى كتاب التذكرة. ومن جعلها فى قريش جعل الخزى عليهم فى الفتح، والعذاب فى الآخرة لمن مات منهم كافرا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ «المشرق» موضع الشروق. «والمغرب» موضع الغروب؛ أى هُمَا له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع؛ كما تقدم. وخصّهما بالذكر والإضافة إليه تشريفًا؛ نحو بيت الله، وناقة الله، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك؛ على ما يأتى.

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ شَرْطٌ، ولذلك حذفت النون، و«أين» العاملة، و«ما» زائدة، والجواب «فَثَمَّ وجهُ الله». وقرأ الحسن «تَوَلَّوْا» بفتح التاء واللام، والأصل تتولّوا. و«ثَمَّ» فى موضع نصب على الظرف، ومعناها البعد؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير مُعْربة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبُعْد، فإن أردت القُرب قلت هنا.

الثالثــة — اختلف العلماء فى المعنى الذى نزلت فيه «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا» على خمسة أقوال: فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة؛ أخرجه

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٨.

Marfat.com

الترمذى عنه عن أبيه قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القِبلة ، فصلّى كل رجل منّا على حِياله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ » . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السّمان ، وأشعث بن سعيد أبو الربيع يُضعَّف فى الحديث . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هـذا ؛ قالوا : إذا صلّى فى الغيم لغير القِبلة ثم ٱستبان له بعد ذلك أنه صلّى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ و به يقول سفيان وٱبن المبارك وأحمد و إسحاق.

قلت : وهو قول أبى حنيفة ومالك ، غير أن مالكا قال : تُستحب له الإعادة فى الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضـه على ما أُمِر ، والكمال يُستدرك فى الوقت ؛ ٱستدلالا بالسنة فيمن صلّى وحده ثم أدرك تلك الصلاة فى وقتها فى جماعة أنه يعيد معهم ؛ ولا يعيد فى الوقت ٱستحبابا إلا من ٱستدبر القبلة أو شرّق أو غرّب جدًّا مجتهدًا ، وأمّا من تيامن أو تياسر قليـلا مجتهدا فلا إعادة عليـه فى وقت ولا غيره . وقال المُغـيرة والشافعى : لا يجزيه ؛ لأن القبلة شَرْط من شروط الصلاة . وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها فى المُسايفة ، وتبيحها أيضـا الرّخصة حالة السـفر . وقال ٱبن عمر : نزلت فى المسافر يتنفّل حيثما توجّهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مُقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يَدَع القبلـة عامدًا بوجه من الوجوه إلا فى شدّة الخوف ؛ على ما يأتى .

وٱختلف قول مالك فى المريض يصلّى على مَحْمَله ؛ فمرّة قال : لا يصلّى على ظهـر البعير فريضة و إن ٱشتدّ مرضه . قال سُحْنُون : فإن فعـل أعاد ؛ حكاه الباجى . ومرّة قال : إن كان ممن لا يصلى بالأرض إلا إيماء فليُصلّ على البعير بعد أن يوقَف له و يستقبل القبلة .

Marfat.com

وأجمعوا على أنه لايجوز لأحد صحيح أن يصلّى فريضة إلا بالأرض إلا فى الخوف الشديد خاصة، على ما يأتى بيانه .

وآختلف الفقهاء فى المسافر سفرًا لا تقصر فى مثله الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه والثَّورى: لا يتطوع على الراحلة إلا فى سفر تقصر فى مثله الصلاة؛ قالوا : لأن الأسفار التى حُكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعى وأبوحنيفة وأصحابهما والحسن بن حَىّ والليث بن سعد وداود بن علىّ : يجوز التطوع على الراحلة خارج المصر فى كل سفر، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أولا ؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفرٍ من سفر ، فكلّ سفرٍ جائز ذلك فيه ، إلا أن يخص شىء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصلّى فى المصر على الدابة بالإيماء؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلّى على حمار فى أزقّة المدينة يومئ إيماء . وقال الطبرى : يجوز لكل راكب وماش حاضرًا كان أو مسافرًا أن يتنفل على دابته وراحلته وعلى رجليه [بالإيماء] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعى أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة فى الحَضَر والسَّفر . وقال الأثرم: قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة فى الحضر، فقال: أمّا فى السفر فقد سمعتُ ، وما سمعتُ فى الحضر . قال آبن القاسم : من تنفّل فى محمله تنفّل جالسًا، قيامُه تربّع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت فى النَّجاشى ، وذلك أنه لما مات دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلّى على رجل مات ؟ وهو يصلى لغير قبلتنا ، وكان النَّجاشى ملك الحَبَشة — وآسمه أَصْحَمَة وهو بالعربية عطية — يصلّى إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ، ونزل فيه : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ »(1) فكان هذا عُذْرًا للنجاشى ، وكانت صلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه سنة تسع من الهجرة . وقد آستدلّ بهذا من أجاز الصلاة على الغائب، وهو الشافعى . قال آبن العربى : ومن أغرب مسائل الصلاة على الميت ما قال الشافعى : يصلى على الغائب ؛ وقد كنت ببغداد

(1) راجع جـ ٤ ص ٣٢٢

Marfat.com

فى مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات ؛ فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم يقول لنا : قوموا فلأصلّ لكم ؛ فيقوم فيصلّى عليه بنا ، وذلك بعد ستة أشهر من المدّة ، و بينه و بين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم فى ذلك صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم على النجاشي . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه :

أحدها — أن الأرض دُحيتْ له جنوباً وشمالاً حتى رأى نعش النجاشي، كما دُحيت له شمالا وجنوبا حتى رأى المسجد الأقصى . وقال المخالف : وأيّ فائدة فى رؤيته ، و إنما الفائدة فى لحوق بركته .

الثـانى — أن النجاشي لم يكن له هناك وَلِيٌّ من المؤمنين يقـوم بالصلاة عليـه . قال المخالف : هذا محال عادة ! مَلِك على دين لا يكون له أتباع ، والتأويل بالمحال محال .

الثـالث — أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم إنما أراد بالصلاة على النجاشي إدخال الرحمة عليه وآستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الآهتمام به حيًّا وميتًا . قال المخالف : بركة الدعاء من النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن سواه تلحق الميت بآتفاق . قال آبن العربيّ : والذى عندى فى صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي أنه علم أن النجاشي ومَن آمن معه ليس عندهم من سُنة الصلاة على الميت أَثَر ، فعُلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول أحسن ؛ لأنه إذا رآه فما صلّى على غائب وإنما صلّى على مَرْئِيّ حاضر ، والغائب ما لا يُرَى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع — قال آبن زيد : كانت اليهـود قد آستحسنت صلاة النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلى بيت المقدس وقالوا : ما آهتدى إلا بنا ؛ فلمـا حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما وَلّاهم عن قبلتهـم التى كانوا عليها ؛ فنزلت : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » فوجْه النظم على هذا القول : أن اليهود لمـا أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبّد عباده بمـا شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت المَقْـدس ، و إن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبـة ، فعل لا حجة عليه[1] ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون .

(١) فى ب ، جـ : « لا حجر » .

Marfat.com

القول الخامس — أن الآية منسوخة بقوله : « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »(١) ذكره ٱبن عباس ؛ فكأنه كان يجوز فى الابتداء أن يصلّى المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى تلقاءه ؛ حكاه أبو عيسى الترمذى .

وقول سادس — رُوِىَ عن مجاهد والضحاك أنها مُحْكَمَة ، المعنى : أينما كنتم من شرق وغرب فثَمَّ وجهُ الله الذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة . وعن مجاهد أيضا وٱبن جُبير لما نزلت : « ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . وعن ٱبن عمر والنَّخَعِىّ : أينما تولّوا فى أسفاركم ومنصرفاتكم فثَمّ وجه الله . وقيل : هى متصلة بقوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » الآيةَ ؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تَسَعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرّب مساجد الله أن تولّوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عامَ الحُدَيْبِيَة فاغتم المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها منسوخة فلا ٱعتراض عليه من جهة كونها خبرًا ؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر . يحتمل أن يكون معنى « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » : وَلُّوا وجوهكم نحو وجه الله ؛ وهذه الآية هى التى تلا سعيد بن جُبير رحمه الله لما أمر الحجاجُ بذبحه إلى الأرض .

الرابعــة — ٱختلف الناس فى تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسُّنة ؛ فقال الحُذّاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء فى الشاهد وأجلّها قدرًا . وقال ٱبن فُورك : قد تُذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسّعا ؛ كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ؛ إنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم ؛ كذلك إذا ذُكر الوجه هنا ، والمراد من له الوجه ، أى الوجود . وعلى هذا يتأول قوله تعالى : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ »(٢) لأن المراد به : لله الذى له الوجه ؛ وكذلك قوله : « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى »(٣) أى الذى له الوجه . قال ٱبن عباس :

(١) راجع ص ١٥٩ ، ١٦٨ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٨ (٣) راجع ج ٢٠ ص ٨٨

Marfat.com

الوجه عبارة عنـه عز وجلّ ؛ كما قال : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ »[١] . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدةٌ على ماتوجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية : وضعّف أبو المعالى هذا القول، وهو كذلك ضعيف؛ و إنما المراد وجوده . وقيل: المراد بالوجه هنا الجهة التى وُجِّهنا إليها أى القبلة . وقيل : الوجه القصد؛ كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبًا لستُ مُحْصيَه * رَبَّ العباد إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وقيل : المعنى فثَمّ رضا الله وثوابه؛ كما قال : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أى لرضائه وطلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة " . وقوله : " يُجاء يوم القيامة بصحف مُختمة فتُنصب بين يدى الله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ألقوا هـذا وٱقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزّتك يا ربّنا ما رأينا إلا خيرا وهو أعلم فيقول إن هـذا كان لغير وجهى ولا أقبل من العمل إلا ما ٱبتغى به وجهى " أى خالصًا لى ؛ خرّجه الدارقطنىّ . وقيل : المراد فثَمّ الله ؛ والوجه صلة ؛ وهو كقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ » . قاله الكلبى والقُتَبىّ ، ونحوه قول المعتزلة .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى يوسع على عباده فى دينهم، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : « واسع » بمعنى أنه يَسَع علمه كل شىء ؛ كما قال : « وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا »[٢] . وقال الفرّاء : الواسع هو الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء؛ دليله قوله تعالى : « ورحمتى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[٣] . وقيل : واسع المغفرة أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد وغنىٌّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يُسئل ، أى لا يبخل؛ قال الله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ »[٤] أى لينفق الغنى مما أعطاه الله . وقد أتينا عليه فى الكتاب « الأسنى » والحمد لله .

قوله تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٥ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٣ (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٧٠ .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ هـذا إخبار عن النصارى فى قولهم : المسيح ابن الله . وقيـل عن اليهـود فى قولهم : عُزَيْرٌ ابن الله . وقيـل عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار فى « مريم »(١) و « الأنبياء »(١) .

الثانيــة — قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ ﴾ الآية . خرّج البخارى عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأمّا تكذيبه إياى فزعَم أنى لا أقدر أن أعيدَه كما كان وأمّا شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا " .

الثالثــة — « سُبْحَانَ » منصوب على المصـدر ، ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة ، من قولهم : اتخـذ الله ولدا ؛ بل هو الله تعـالى واحد فى ذاته ، أحَدٌ فى صـفاته ، لم يـلد فيحتاج إلى صاحبـة ، « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَـةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » ولم يولد فيكون مسبوقا؛ جلّ وتعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرا ! ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ «ما» رفع بالابتداء والخبر فى المجرور ؛ أى كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . والقائل بأنه اتخذ ولدا داخل فى جملة السموات والأرض . وقد تقدّم أن معنى سبحان الله : براءة الله من السوء(٢) .

الرابعــة — لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سـبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشـبهه شىء؛ وقد قال : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْـدًا(١) » ، كما قال هنا : « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فالولدية تقتضى الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضى الوحدانية والثبوت؛ فهو سبحانه القديم الأزلى الواحد الأحد ، الفَرْد الصَّمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ . ثم إن البنوّة تنافى الرّق والعبودية — على ما يأتى بيانه فى سـورة « مريم(١) » إن شاء الله تعالى — فكيف يكون ولد عبدا ! هذا محال ، وما أدّى إلى المحال محال .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٨ فما بعدها وص ٢٨١　　　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم . « قَانِتُونَ » أى مطيعون وخاضعون ؛ فالمخـلوقات كلها تقنُت لله ، أى تخضع وتطيع . والجمادات قُنُوتهـم فى ظهور الصنعة عليهـم وفيهم . فالقنوت الطاعة ، والقنوت السكوت ؛ ومنه قول زيد بن أرقم : كنا نتكلّم فى الصـلاة، يُكَلِّمُ الرجل صاحبَـه إلى جنبه حـتى نزلت : « وَقُـومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ » فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . والقنـوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قانتـا لله يتـلو كُتُبَه * وعلى عمد من الناس اعتزل

وقال السُّدّى وغيره فى قوله : « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » أى يوم القيامة . الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت فى اللغة أصله القيام؛ ومنه الحديث : "أفضل الصلاة طول القنوت" قاله الزجاج . فالخلق قانتون ؛ أى قائمون بالعبودية إمّا إقـرارا و إمّا أن يكونوا على خلاف ذلك؛ فأثر الصنعة بيّن عليهـم . وقيل : أصـله الطاعة ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ » . وسيأتى لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ »[1] .

قوله تعـالى : بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَاتِ ﴾ فعيل للمبالغة ، وارتفـع على خبر ابتداء محـذوف ، واسم الفاعل مُبْـدِع ؛ كبصير من مُبْصر . أبدعتُ الشيء لا عن مثـال ؛ فالله عز وجل بديع السموات والأرض ، أى منشئها ومُوجدها ومبـدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال . وكل من أنشأ ما لم يُسْبق إليـه قيل له مبدع ؛ ومنه أصحاب البِـدَع . وسُمّيت البِدْعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام؛ وفى البخارى "ونِعْمَتِ البِـدْعة هذه" يعنى قيام رمضان .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .

Marfat.com

الثانيـة — كل بِدْعة صدرتْ من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل فى الشرع أولا؛ فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه؛ فهى فى حيّز المـدح . و إن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف؛ فهذا فعله من الأفعال المحمودة ، و إن لم يكن الفاعل قد سُبق إليه . و يَعْضُد هذا قول عمر رضى الله عنه : نِعْمتِ البدعة هـذه؛ لمـا كانت من أفعـال الخير وداخلة فى حيّز المدح ، وهى و إن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قـد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع النـاس عليها؛ فمحافظة عمر رضى الله عنه عليها ، وجمعُ الناس لهـا ، وندبُهم إليها، بدعةٌ لكنها بدعة محمودة ممدوحة . و إن كانت فى خلاف ما أمر الله به و رسوله فهى فى حيّز الذم والإنكار؛ قال معناه الخطّابى وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته : "وشرّ الأمور مُحدثاتها وكل بِدعة ضلالة" يريد ما لم يوافق كتابا أو سُـنّة ، أو عمل الصحابة رضى الله عنهم ، وقـد بيّن هذا بقوله : "مَن سَنّ فى الإسلام سُنّةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بهـا من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومَن سنّ فى الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووزر من عمل بها من بعـده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء" . وهـذا إشارة إلى ما آبتدع من قبيح وحسن ، وهو أصل هذا الباب، و بالله العصمة والتوفيق، لا ربّ غيره .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى إذا أراد إحكامه و إتقانه — كما سبق فى علمه — قال له كن . قال آبن عرفة : قضاء الشىء إحكامه و إمضاؤه والفراغ منـه؛ ومنه سُمّى القاضى؛ لأنه إذا حكم فقد فرغ ممـا بين الخصمين . وقال الأزهرى : قضى فى اللغـة على وجوه، مرجعها إلى آنقطاع الشىء وتمـامه؛ قال أبو ذُؤَيب :

وعليهما مَسْرودتان قضاهما ﴿ داودُ أو صَنَعُ السّوابِـغِ تُبّعُ (٢)

وقال الشمّاخ فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيتَ أمورا ثم غادرت بعـدها ﴿ بـوائق فى أكمامها لم تُفتّـق

(١) يريد : قيام رمضان .   (٢) مسرودتان : درعان مخروزتان . والصنع : الحاذق بالعمل .

Marfat.com

قال علماؤنا : «قَضَى» لفظ مشترك ، يكون بمعنى الخلق؛ قال الله تعالى : «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ»(١) أى خلقهن . ويكون بمعنى الإعلام؛ قال الله تعالى : «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ»(٢) أى أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»(٢) . ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام؛ ومنه سُمّى الحاكم قاضياً . ويكون بمعنى توفية الحق ؛ قال الله تعالى : «فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ»(٣) . ويكون بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى : «فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» أى إذا أراد خلق شيء . قال ابن عطية : «قَضَى» معناه قدّر ؛ وقد يجيء بمعنى أمضى ؛ ويتّجه فى هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السُّنة قدّر فى الأزل وأمضى فيه . وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿أَمْرًا﴾ الأمر واحد الأمور ، وليس بمصدر أمر يأمر . قال علماؤنا : والأمر فى القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً :

الأوّل — الدِّين؛ قال الله تعالى : «حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ»(٤) يعنى دين الله الإسلام.

الثـانى — القول ؛ ومنـه قوله تعـالى : «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا» يعنى قولنـا ، وقوله : «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بينهم» يعنى قولهم .

الثالث — العذاب؛ ومنه قوله تعالى : «لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ»(٥) يعنى لمـا وجب العذاب بأهل النـار .

الرابــع — عيسى عليــه السلام ؛ قال الله تعـالى : «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا»(٦) يعنى عيسى، وكان فى علمه أن يكون من غير أب .

الخـامس — القتل ببدر ؛ قال الله تعـالى : «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ»(٧) يعنى القتل ببدر، وقوله تعالى : «لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا»(٨) يعنى قتل كفار مكة .

السـادس — فتح مكة ؛ قال الله تعـالى : «فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ»(٩) يعنى فتح مكة .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١٤ ، ٢٣٦ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٠ . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٥٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٦) راجع جـ ٤ ص ٩٣ . (٧) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٤ . (٨) راجع جـ ٨ ص ٢٢ . (٩) راجع جـ ٨ ص ٩٥

Marfat.com

السابــع — قتــل قُرَيظة وجلاء بنى النّضير ؛ قال الله تعــالى : « فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ »(١) .

الثــامن — القيامة ؛ قال الله تعالى : « أَتَى أَمْرُ ٱللَّهِ »(٢) .

التاســع — القضاء ؛ قال الله تعالى : « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ »(٣) يعنى القضاء .

العــاشر — الوَحْى ؛ قال الله تعــالى : « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ »(٤) يقــول : ينزّل الوحى من السماء إلى الأرض ، وقوله : « يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ »(٥) يعنى الوحى .

الحادى عشر — أمر الخلق ؛ قال الله تعالى : « أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ »(٦) يعنى أمور الخــلائق .

الثــانى عشر — النَّصْر ؛ قال الله تعالى : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَــا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ »(٧) . يعنون النصر ، « قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى النصر .

الثالث عشر — الذّنب ؛ قال الله تعــالى : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا »(٨) يعنى جزاء ذنبها .

الرابع عشر — الشأن والفعل ؛ قال الله تعــالى : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »(٩) أى فعله وشأنه ، وقال : « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ »(١٠) أى فعله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ قيــل : الكاف من كَيْنُونه ، والنون من نُوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التّامات من شرّ ما خلق " . و يُروى : " بكلمة الله التامة " على الإفراد . فالجمع لمــا كانت هــذه الكلمة فى الأمور كلها ، فإذا قال لكل أمر كن ، ولكل شىء كن ، فهنّ كلمــات . يدلّ على هــذا ما رُوِى عن أبى ذرّ عن النبىّ صلى الله عليه وســلم فيما يحكى عن الله تعالى : " عطائى كلام وعذابى كلام " . خرّجه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضا ؛ لكن لمــا تفرّقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . و إنمــا قيل « تامة » لأن أقل الكلام عنــد أهل اللغة على ثلاثة أحرف : حرف مبتــدأ ، وحرف تُحشّى به الكلمة ، وحرف يُسكت عليــه . و إذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص ، كيَدٍ

Marfat.com

ودَمٍ ونَمٍ؛ و إنما نقص لعلّة . فهى من الآدميّين من المنقوصات لأنها على حرفين؛ ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات. ومن ربّنا تبارك وتعالى تامة؛ لأنها بغير الأدوات، تعالى عن شبه المخلوقين.

السادســـة — قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ قُرِئَ برفع النون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون، أو فإنه يكون . وقال غيره : هو معطوف على « يقول » ؛ فعلى الأول كائنا بعد الأمر ، و إن كان معدوما فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ؛ على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كائنا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره للشيء بـ « كن » لا يتقــدّم الوجود ولا يتأخر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجودا إلا وهو مأمور بالوجود ، على ما يأتى بيـانه . قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقــدّم دعاء الله ولا يتأخر عنـه ؛ كما قال « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ »(1) . وضعّف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى ؛ لأنه يقتضى أن القول مع التكوين والوجود(2) .

وتلخيص المعتقد فى هذه الآية : أن الله عزّ وجلّ لم يزل آمرًا للمعدومات بشرط وجودها، قادرًا مع تأخر المقدورات ، عالمًــا مع تأخر المعلومات . فكلُّ ما فى الآية يقتضى الاستقبال فهو بحسب المأمورات ؛ إذ المحدَثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يُسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل . والمعنى الذى تقتضيه عبارة « كن » : هو قديم قائم بالذات .

وقال أبو الحسن المـاوَرْدِى: فإن قيل : ففى أى حال يقول له كن فيكون ؟ أفى حال عدمه، أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورًا، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ؛ و إن كان فى حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيهــا بالوجود والحدوث ؛ لأنه موجود حادث ؟ قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها — أنه خبر من الله تعالى عن نفـوذ أوامره فى خلقـه الموجود ؛ كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا قِرَدَةً خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردًا فى إيجاد المعدومات .

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٩ . (2) فى ا : « من جهة التكوين » .

Marfat.com

الثـانى — أن الله عزّ وجلّ عالم بمـا هو كائن قبل كونه؛ فكانت الأشياء التى لم تكن وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتى هى موجودة؛ فجاز أن يقول لهـا : كونى، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود؛ لتصوّر جميعها له ولعلمه بها فى حال العدم .

الثـالث — أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يُحدثه ويكوّنه إذا أراد خلقه وإنشاءه كان، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله، وإنمـا هو قضاء يريده؛ فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولًا؛ كقول أبى النَّجْم :

* قد قالتِ الأنساع للبَطْنِ الْحَقِ *

ولا قول هناك، وإنمـا أراد أن الظَّهر قد لَحِق بالبطن، وكقول عمرو بن حممة الدُّوسىّ :

فأصبحتُ مثلَ النَّسْر طارت فِراخُه * إذا رامَ تَطْيـارًا يقـال له قَـــعِ

وكما قال الآخر :

قالت جناحاه لساقَيْـه الحقـا * ونجّيـا لحمكما أن يُمْـزَقا

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود. مجاهد : النصارى؛ ورجّحه الطبرى؛ لأنهم المذكورون فى الآية أولا . وقال الربيع والسُّدّى وقتادة : مشركو العرب . و « لولا » بمعنى « هلّا » تحضيض؛ كما قال الأشهب بن رُمَيْلة[(١)] :

تَعُـدّون عَقْر النِّيب أفضل مجدكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المُقَنَّعـا

(١) كذا فى الأصول . وقال البغدادى صاحب خزانة الأدب : «نسبه ابن الشجرى فى أماليه للأشهب ، والصحيح أنه من قصيدة لجرير ، لا خلاف بين الرواة أنها له ، وهى جواب عن قصيدة تقدمت للفرزدق على قافيتها» . وقضية عقر الإبل مشهورة فى التواريخ . والنيب (بكسر النون وسكون الياء جمع ناب) : الناقة المسنة . وضوطرى : قيل : الرجل الضخم اللئيم الذى لا غناء عنـده . وقيل : الحمق . والكمى : الشجاع . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . راجع خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والستين بعد المائة . وكتاب المغنى فى «لولا» والنقائض ص ٨٣٢ طبع أوربا ، وذيل أمالى القالى .

Marfat.com

وليست هذه « لولا » التى تعطى منع الشىء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن « لولا » بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مُظْهرًا أو مقدرا ، والتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر . ومعنى الكلام هَلّا يكلّمنا الله بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فنعلم أنه نبى فنؤمن به ، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوته . والآية : الدلالة والعلامة ؛ وقد تقدّم[(١)] . و ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ اليهود والنصارى فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » كفار العرب ، أو الأمم السالفة فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل « الذين لا يعلمون » النصارى . ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قيل : فى التعنيت والاقتراح وترك الإيمان . وقال الفرّاء . « تَشَابَهَتْ قلوبهم » فى اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ تقدّم[(٢)] .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ « بشيرا » نصب على الحال ، « ونذيرا » عطف عليه ، وقد تقدّم معناهما[(٣)] . ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال مقاتل : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا" ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ » برفع تسأل ، وهى قراءة الجمهور ، ويكون فى موضع الحال بعطفه على « بَشيرًا ونذيرًا » . والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سعيد الأخفش : ولا تَسألُ (بفتح التاء وضم اللام) ؛ ويكون فى موضع الحال عطفًا على « بشيرا ونذيرا » . والمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم . هذا معنى غير سائل . ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : "ليت شعرى ما فعل أبواى" . فنزلت هذه الآية ؛ وهذا على قراءة من قرأ « ولا تسألْ » جزمًا على النهى ، وهى قراءة نافع وحده ؛ وفيه وجهان :

(١) راجع جـ ١ ص ٦٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٠ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

أحدهما — أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء؛ لأنه قد يتغيّر حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان، وعن المعصية إلى الطاعة.

والثاني — وهو الأظهر، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه، وهذا كما يقال: لا تسأل عن فلان! أي قد بلغ فوق ما تحسب. وقرأ ابن مسعود «ولن تسأل». وقرأ أُبَيّ «وما تسأل»؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نفى أن يكون مسئولا عنهم. وقيل: إنما سأل أيّ أبويه أحدث موتا؛ فنزلت. وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل: "إن أبي وأباك في النار" وبيّنا ذلك، والحمد لله.

قوله تعالى: وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. فيه مسألتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ المعنى: ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتّباعهم. يقال: رضِيَ يَرْضَى رِضًا ورُضًا ورِضوانًا ورُضوانًا ومَرْضاة؛ وهو من ذوات الواو؛ ويقال في التثنية: رِضَوَانِ، وحكى الكسائي: رِضَيَانِ. وحُكي رضاء ممدود، وكأنه مصدر راضى يراضي مُراضاة ورِضاءً. و«تَتَّبِعَ» منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى؛ قاله الخليل. وذلك أن حتى خافضة للاسم؛ كقوله: «حَتَّى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ» وما يعمل في الاسم لا يعمل في الفعل ألبتة، وما يخفض اسما لا ينصب شيئا. وقال النحاس: «تَتَّبِعَ» منصوب بحتى، و«حتى» بدل من أن. والمِلّة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله.

Marfat.com

فكانت المِلّة والشريعـة سواء ؛ فأما الدِّين فقـد فرق بينه وبين المِلّة والشريعـة ؛ فإن المِلّة والشريعة ما دعا اللهُ عبادَه إلى فعله ، والدِّين ما فعله العباد عن أمره .

الثانيـــة — تمسّك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعى وداود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة ؛ لقـوله تعالى : « مِلَّتَهُمْ » فوحّد المِلّة ، وبقـوله تعالى : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[1] ، وبقوله عليه السلام : " لا يتوارث أهل مِلّتين " على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل قوله عليه السلام : " لا يرث المسلم الكافر ". وذهب مالك وأحمد فى الرواية الأخرى إلى أن الكفر مِلَلٌ ، فلا يرث اليهوديّ النصرانيَّ ، ولا يرثان المجوسيّ ؛ أخذا بظاهر قوله عليه السلام : " لا يتوارث أهل مِلّتين " ؛ وأما قوله تعالى : « مِلّتهم » فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة فى اللفظ بدليـل إضافتها إلى ضمير الكثرة ؛ كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة — مثلا — عِلْمَهم ، وسمعت عليهم حديثهم ؛ يعنى علومهم وأحاديثهم .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهُدَى الحقيق ، لا ما يدّعيه هؤلاء .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الأهواء جمع هَوًى ؛ كما تقول : جمل وأجمال ؛ ولمّـا كانت مختلفة جمعت ؛ ولو حُمل على أفراد المِلّة لقال هواهم . وفى هذا الخطاب وجهان : أحدهمـا — أنه للرسول ، لتوجّه الخطاب إليه . والثانى — أنه للرسول والمراد به أمّته ؛ وعلى الأوّل يكون فيه تأديب لأمّته ، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يسألون المسالمة والهُدنة ، ويَعِدُون النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإسلام ؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع مِلّتهم ، وأمره بجهادهم .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ سُئل أحمد بن حنبل عمن يقول : القرآن مخلوق ؛ فقال : كافر ؛ فقيـل : بِمَ كفّرته ؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : « وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ »[2] والقرآنُ من علم الله . فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ قال قتادة : هم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال ابن زيد : هم مَن أسلم من بني إسرائيل . والكتاب على هذا التأويل : التوراة ؛ والآية تَعُم . و « الذين » رفع بالابتداء ، « آتيناهم » صلته ، « يَتْلُونَهُ » خبر الابتداء ، وإن شئت كان الخبر « أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

واختلف في معنى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ فقيل : يتّبعونه حق اتباعه ، باتباع الأمر والنهي ؛ فيحلّلون حلاله ، ويحرّمون حرامه ، ويعملون بما تضمّنه ؛ قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعالى : « وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » أي اتبعها ؛ وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما . وقال الشاعر :

* قد جعلت دَلْوِي تَسْتَتْلِيني (1) *

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » قال : "يتّبعونه حق اتباعه" . في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر أحمد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعري : من يتّبع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هم الذين إذا مرّوا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مرّوا بآية عذاب استعاذوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : كان إذا مرّ بآية رحمة سأل ، وإذا مرّ بآية عذاب

(1) تمامه :	* ولا أريد تبع القرين *

Marfat.com

تعوّذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقيل : يقرءونه حق قراءته .

قلت : وهذا فيه بُعْدٌ ، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه ، ويفهمون معانيه ؛ فإن بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وُفّق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

فيه عشرون مسألة :

الأولى — لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذي بنى البيت ؛ فكان من حق اليهود — وهم من نَسْل إبراهيم — ألّا يرغبوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار ؛ ومعناه أمْرٌ وتعبُّدٌ . وإبراهيم تفسيره بالسُّريانية فيما ذكر الماوردي، وبالعربية فيما ذكر ابن عطية : أبٌ رحيم . قال السُّهيلي : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السُّرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ؛ لرحمته بالأطفال ؛ ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة .

قلت : ومما يدلّ على هذا ما خرّجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سَمُرة، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس، وقد أتينا عليه في كتاب التذكرة، والحمد لله .

وإبراهيم هذا هو ابن تارخ بن ناخور في قول بعض المؤرّخين . وفي التنزيل : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ »(1) وكذلك في صحيح البخاري ؛ ولا تناقض في ذلك ، على ما يأتي في « الأنعام » بيانه إن شاء الله تعالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومَدْيَن ومدائن ؛ على ما ذكره السُّهيلي . وقدّم على الفاعل للاهتمام ؛ إذ كون الربّ تبارك وتعالى

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٢

Marfat.com

مبتلياً معلوم ، وكون الضمير المفعول فى العربيـة متّصلًا بالفاعل موجب تقديم المفعول ؛ فإنما بُنِيَ الكلام على هذا الاهتمام ، فاعلمه . وقراءة العامة « إبراهيمَ » بالنصب ، « رَبُّهُ » بالرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك . والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل؛ وفيه بُعْدٌ؛ لأجل الباء فى قوله : «بِكلماتٍ» .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ الكلمات جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام البارى تعالى، لكنّه عبّر عنها عن الوظائف التى كُلِّفها إبراهيم عليه السلام؛ ولما كان تكليفها بالكلام سُمِّيت به ، كما سُمِّيَ عيسى كلمة ؛ لأنه صدر عن كلمة وهى « كُن » . وتسمية الشيء بمقدّمته أحد قسمى المجاز ؛ قاله ابن العربى .

الثالثـة — واختلف العلماء فى المراد بالكلمات على أقوال : أحدها — شرائع الإسلام، وهى ثلاثون سهما ، عشرة منها فى سورة براءة : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ »(١) إلى آخرها ، وعشرة فى الأحزاب : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ »(٢) إلى آخرها ، وعشرة فى المؤمنون : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »(٣) إلى قوله : «على صَلَوَاتِهِمْ يحافظون» وقوله فى «سأل سائل»(٤) : «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» إلى قوله : «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ابتلى الله أحدًا بهنّ فقام بها كلّها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابْتُلِيَ بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى »(٥) . وقال بعضهم : بالأمر والنهى، وقال بعضهم : بذبح ابنه، وقال بعضهم : بأداء الرسالة؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : هى قوله تعالى : إنى مبتليك بأمر، قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال نعم . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين ؛ قال : تجعل البيت مَثابةً للناس ؟ قال نعم . قال : وأَمْنًا ؟ قال نعم . قال : وتُرِينا مناسكنا وتتوب علينا ؟ قال نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات ؟ قال نعم . وعلى هذا القول فالله تعالى هو الذى أتم . وأصح من هذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٩ (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٩١ (٥) راجع جـ ١٧ ص ١١٣

Marfat.com

آبن طاوس عن آبن عباس فى قوله : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » قال : آبتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد : قصّ الشارب ، والمضمضة ، والآستنشاق ، والسّواك ، وفَرْق الشعر . وفى الجســد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والآختتان ، ونَتْف الإبْط ، وغسل مكان الغائط والبول بالمـاء ؛ وعلى هذا القول فالذى أتمّ هو إبراهيم ، وهو ظاهر القـرآن . وروى مطر[1] عن أبى الجلد أنهـا عشر أيضا ، إلا أنه جعـل موضع الفَرْق غسل البراجم[2] ، وموضع الآستنجاء الآستحداد[3] . وقال قتادة : هى مناسك الحج خاصة . الحسن : هى الخلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان . قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن هذا كله مما آبتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سـعيد أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : إبراهيم عليه الســلام أول من آختتن ، وأول من أضاف الضيف ، وأول من آستحدّ ، وأول من قلّم الأظفار ، وأول من قصّ الشارب ، وأول من شاب ؛ فلما رأى الشيب قال : ما هذا ؟ قال : وقار ؛ قال : يا رب زدنى وقارا . وذكر أبو بكر بن أبى شـيبة عن سعيد بن إبراهـيم عن أبيه قال : أوّل من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره : وأول من ثَرَد الثَّريد ، وأول من ضرب بالسيف ، وأوّل من آستاك ، وأوّل من آستنجى بالمـاء ، وأول من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنْ أتَّخِذ المنبر فقد آتخذه أبى إبراهيم وإنْ أتَّخِذ العصا فقد آتخذها أبى إبراهيم " .

قلت : وهذه أحكامٌ يجب بيانها والوقوف عليها والكلام فيها ؛ فأول ذلك « الختان » وما جاء فيه ، وهى المسألة :

الرابعــة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من آختتن . وآختُلِف فى السن التى آختتن فيهـا ؛ ففى الموطأ عن أبى هريرة موقوفا : " وهو آبن مائة وعشرين سنة وعاش

---

(١) فى ج : « مطرف » . (٢) سيأتى الكلام على البراجم فى المسألة العاشرة .

(٣) سيذكر المؤلف معنى الآستحداد عند المسألة التاسعة .

Marfat.com

بعد ذلك ثمـانين سنة " . ومثل هذا لا يكون رأيا ، وقـد رواه الأوزاعى مرفوعا عن يحيى آبن سعيد عن سـعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " آختتن إبراهيم عليه السلام وهو آبن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمـانين سنة " . ذكره أبو عمر[(١)] . وروى مسـندا مرفوعا من غير رواية يحـيى من وجوه : " أنه آختتن حين بلغ ثمـانين سنة وآختتن بالقـدوم[(٢)] " . كذا فى صحيح مسلم وغيره « آبن ثمـانين سنة » ؛ وهو المحفوظ فى حديث آبن عجلان وحديث الأعرج عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال عكرمة : آختتن إبراهيم وهو آبن ثمانين سنة . قال : ولم يَطُف بالبيت بعدُ على مِلّة إبراهيم إلا مَخْتُون ؛ هكذا قال عكرمة وقاله المسيّب بن رافع ؛ ذكره المَرْوَزِىّ . و « القدوم » يروى مشدّدا ومخفّفا . قال أبو الزناد : القَدُّوم (مشدّدا) : موضع .

الخامســـة — وآختلف العلمـاء فى الختان ؛ فجمهورهم على أن ذلك من مؤكّدات السُّنن ومن فطرة الإسـلام التى لا يسع تركها فى الرجال . وقالت طائفـة : ذلك فرض ؛ لقوله تعالى : « أَنِ ٱتَّبِـعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » . قال قتادة : هو الآختتان ؛ و إليه مال بعض المـالكيّين ، وهو قول الشافعى . وآسـتدل آبن سريج[(٣)] على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى العَـوْرة ، وقال : لولا أن الختان فرض لمـا أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل هـذا يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب ، والطبّ ليس بواجب إجمـاعا ؛ على ما يأتى فى « النحل » بيانه إن شاء الله تعالى . وقد آحتج بعض أصحابنا بمـا رواه الحجاج بن أرطاة عن أبى المليح عن أبيـه عن شدّاد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " الختان سُنّة للرجال مَكْرُمَةٌ للنساء " . والحجاج ليس ممن يحتجّ به .

---

(١) فى ج : « ذكره عبد الرزاق » .

(٢) قال النووى : « رواة مسلم متفقون على تخفيف (القدوم) ، ووقع فى روايات البخارى الخلاف فى تشديده وتخفيفه ، قالوا : وآلة النجار يقال لها : قدوم بالتخفيف لا غير ، وأما القدوم مكان بالشام ففيه التخفيف والتشديد . فمن رواه بالتشديد أراد القرية ، ورواية التخفيف تحتمل القرية والآلة ؛ والأكثرون على التخفيف وعلى إرادة الآلة » .

(٣) فى أ ، ح : « ابن شريح » .

Marfat.com

قلت : أعلى ما يحتجّ به فى هــذا الباب حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " الفطرة خمس الاختتان ... " الحديث، وسيأتى . وروى أبو داود عن أم عطية أن آمرأة كانت تختن النساء بالمدينــة، فقال لهــا النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لا تُنْهِكى[1] فإن ذلك أَحْظَى للرأة وأحبّ للبعل" . قال أبو داود : وهذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفى رواية ذكرها رزين : "ولا تَنْهَكِى فإنه أنْوَرُ للوجه وأحْظَى عند الرجل" .

السادســة — فإن وُلِد الصبىّ مختونًا فقد كفى مؤنة الختان . قال الميمونى قال لى أحمد : إن ها هنا رجلا ولد له ولد مختون، فآغتمّ لذلك غمًّا شديدا؛ فقلت له : إذا كان الله قد كفاك المؤنة فمــا غمّك بهذا !

السابعــة — قال أبو الفـرج الجوزىّ حدّثت عن كعب الأحبـار قال : خلق من الأنبيـاء ثلاثة عشر مختونين : آدم وشيث و إدريس ونوح وسام ولوط و يوسـف وموسى وشعيب وسليمان ويحيي وعيسى والنبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن حبيب الهاشمىّ : هم أربعـة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب و يوسف وموسى وسليمان وزكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان (نبىّ أصحاب الرّس[2]) ومحمد، صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

قلت : آختلفت الروايات فى النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فذكر أبو نعيم الحافظ فى «كتاب الحِلْية» بإسناده أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم ولد مختونا . وأسند أبو عمر فى التمهيد حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا يحيي بن أيوب بن بادى[3] العلاف حدّثنا محمد آبن أبى السرىّ العسقلانى حدّثنا الوليد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراسانىّ عن عكرمة عن آبن عباس : أن عبد المطلب خَتَن النّبى صلى الله عليه وسلم يوم سابعه، وجعل له مأدبة وسمّاه «محمدا» . قال أبو عمر : هــذا حديث مسند غريب . قال يحيي بن أيوب : طلبت

(١) «لا تنهكى» أى لا تبالغى فى استقصاء الختان .

(٢) فى اللسان : «قال الزجاج : يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، قال و يروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، و يروى أنهم كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر، أى دسوه فيها حتى مات، و يروى أن الرس بئر، وكل بئر عند العــرب رس» .

(٣) فى الأصول : «زياد» والتصويب عن تهذيب التهذيب .

Marfat.com

هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند آبن أبي السَّرِيّ . قال أبو عمر : وقد قيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلد مختونا .

الثامنـة — وآختلفوا متى يُختن الصبيّ ؛ فثبت في الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : ختن إبراهيمُ إسماعيلَ لثلاث عشرة سنة . وختن آبنه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع؛ وأنكر ذلك مالك وقال ذلك من عمل اليهود . ذكره عنه آبن وهب . وقال اللّيث بن سعد : يُختن الصبيّ ما بين سبع سنين إلى عشر . ونحوه روى آبن وهب عن مالك . وقال أحمد : لم أسمع في ذلك شيئا . وفي البخاريّ عن سعيد بن جُبير قال : سئل آبن عباس : مِثْلُ مَن أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مختون . قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يُدرك أو يقارب الآحتلام .

وآستحب العلماء في الرجل الكبير يُسلم أن يختتن ؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسلامه حتى يختتن وإن بلغ ثمانين سنة . وروى عن الحسن أنه كان يرخّص للشيخ الذي يُسلم ألّا يختتن، ولا يرى به بأسًا ولا بشهادته وذبيحته وحجّه وصلاته ؛ قال آبن عبد البر : وعامةُ أهل العلم على هذا . وحديث بُرَيْدة في حج الأغلف لا يثبت . وروى عن آبن عباس وجابر ابن زيد وعكرمة : أنّ الأغلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاسـعة — قوله : «وأوّل من آستحدّ» فالآستحداد آستعمال الحديد في حلق العانة . وروت أم سلمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا آطّلى(١) وَلِيَ عانته بيده . وروى آبن عباس أن رجلا طَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ إلى عانته قال له : آخرج عني، ثم طَلَى عانته بيده . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يَتَنَوّر ، وكان إذا كثر الشعر على عانته حلقه . قال آبن خُوَيْزِمَنداد : وهذا يدلّ على أن الأكثر من فعله كان الحلق وإنما تَنَوّر نادرا ، ليصح الجمع بين الحديثين .

---

(١) اطلى : يعني بالنورة وهي حجر يتخذ منه طلاء لإزالة الشعر من بواطن الجسد .

Marfat.com

العـاشرة — فى تقليم الأظفار . وتقليم الأظفار : قصّها ؛ والقُلامة مايزال منها . وقال مالك : أحِبّ للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو على الرجال . ذكره الحارث ابن مسكين وسُحْنُون عن ابن القاسم . وذكر الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصـول » له (الأصل التاسع والعشرون) : حدّثنا عمر بن أبى عمر قال حدّثنا إبراهيم بن العـلاء الزبيدى عن عمر بن بلال الفزارىّ قال سمعت عبد الله بن بشر المـازنىّ يقول قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "قُصُّـوا أظافيركم وآدفِنوا قُلاماتكم وَنقُّوا بَرَاجمكم وَنظِّفُوا لِثاتكم من الطعام وتَسنّنُوا ولا تدخلوا علىّ قُحْرًا بُخْرًا"[١] ثم تكلّم عليه فأحسن. قال الترمذىّ : فأما قَص الأظفار فمن أجل أنه يَخْدِش ويَخْمِش ويضرّ، وهـو مجتمع الوسخ ، فربّمـا أجنب ولا يصل المـاء إلى البشرة من أجل الوسخ فـلا يزال جُنُبًا . ومن أجنب فبقى موضـع إبرة من جسده بعـد الغسل غير مغسول فهو جُنُب على حاله حتى يعمّ الغسل جسده كله ؛ فلذلك ندبهم إلى قص الأظفار . والأظافير جمع الأظفـور ، والأظفار جمـع الظفر . وفى حديث رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حيث سَها فى صـلاته فقال : "ومالى لا أُوهِم ورُفْغُ[٢] أحدكم بين ظفره وأنملتـه ويسألنى أحدكم عن خبر السماء وفى أظافيره الجنـابة والتّفَث" . وذكر هـذا الخبر أبو الحسن علىّ بن محمـد الطبرى المعروف بالكِيَا فى « أحكام القرآن » له ، عن سـليمان بن فرج أبى واصـل قال : أتيت أبا أيوب رضى الله عنـه فصافحته ، فرأى فى أظفارى طولا فقال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم يسأله عن خبر السماء فقال : "يجىء أحدكم يسأل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والتّفَث" .

وأما قوله : "آدفِنُوا قلاماتكم" فإن جسد المؤمن ذو حُرمة ، فما سـقط منه وزال عنه فحفظه من الحرمة قائم ، فيحقّ عليه أن يدفنه ، كما أنه لو مات دُفِن ، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا تقام حرمته بدفنه ، كى لا يتفرق ولا يقع فى النار أو فى مزابل قذرة . وقد أمر رسول الله

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، والتصـويب عن « نوادر الأصول » وسينقل المؤلف رحمه الله كلام الترمذى من هذا الحديث . (٢) الرفغ : الوسخ الذى بين الأنملة والظفر .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم بدفن دمه حيث احتجم كى لا تبحث عنـه الكلاب . حدّثنا بذلك أبى رحمه الله تعـالى قال حدّثنا موسى بن إسماعيل قال حدّثنا الهنيد بن القاسم بن عبدالرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبدالله بن الزبير يقول إن أباه حدّثه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم، فلما فرغ قال : "يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد" . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم عمد إلى الدم فشربه؛ فلما رجع قال : "يا عبد الله ما صنعت به ؟" . قال : جعلته فى أخفى مكان ظننت أنه خافيًا عن الناس . قال : "لعلك شربته؟" قال نعم . قال : "لم شربتَ الدم [وَيْلٌ للناس منك و][1] وَيْلٌ لك من الناس" . حدّثنى أبى قال حدّثنا مالك بن سليمان الهروى قال حدّثنا داود بن عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحَيْضة، والسن، والقَلَفة، والبَشيمة .

وأما قـوله : "نَقُّوا بَراجِمَكم" فالبَراجِم تلك الغضون من المفاصل، وهى مجتمع الدَّرَن (واحدها بُرْجُمة) وهو ظهر عقدة كلّ مفصل؛ فظهر العقدة يسمى بُرْجُمة، وما بين العقدتين تسمى راجبة، وجمعها رواجب؛ وذلك ممـا يلى ظهرها، وهى قصبة الأصبع؛ فلكل أصبع بُرْجُمتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فإن لهـا بُرْجُمة وراجبتين؛ فأمر بتنقيته لئلا يَدْرَن فتبقى فيه الجنابة، ويحول الدّرن بين المـاء والبشرة .

وأما قوله : "نَظِّفُوا لِثاتكم" فاللِّثَة واحدة، واللِّثات جماعة، وهى اللّحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهى منابتها . والعُمُور : اللّحمة القليلة بيـن السنّين، واحدها عُمْر . فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وضَر الطعام فتتغيّر عليه النَّكْهة وتتنكّر الرائحة، ويتأذّى الملكان؛ لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نابيه . ورُوِىَ فى الخبر فى قوله تعـالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ »[2] قال : عند نابيه . حدّثنا بذلك محمد بن علىّ الشّقيقى قال سمعت أبى يذكر ذلك عن سفيان بن عُيينة، وجاد ما قال ؛ وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين يلفظ

(١) زيادة من كتاب « نوادر الأصول » .		(٢) راجع جـ ١٧ ص ١١

Marfat.com

الكلام عن لسانه إلى البراز . وقـوله : «لَدَيهِ» أى عنده، واللّدى والعنْد فى لغتهم السائرة بمعنًى واحد، وكذلك قولهم «لَدُن» فالنـون زائدة . فكأن الآية تنبئ أن الرقيب عَتِيد عند مغلظ الكلام وهو الناب .

وأما قوله : "تَسَنَّنُوا" وهو السواك مأخوذ من السِّن، أى نَظِّفُوا السّن .

وقـوله : "لا تدخلوا علىّ قُخْـرًا بُخْرًا" فالمحفوظ عنـدى "قُـلًا وقُلْحًا" . وسمعت الجـارود يذكر عن النّضر قال : الأقلح الذى قد اصفرّت أسنانه حتى بَخِـرت من باطنها، ولا أعرف القَخَر . والبَخَر : الذى تجد له رائحة منكرة لبشرته؛ يقال : رجل أبخر، ورجال بُخْر . حدّثنا الجارود قال حدّثنا جرير عن منصور عن أبى علىّ عن أبى جعفر بن تمـام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"استاكوا مالكم تدخلون علىّ قُلْحًا".

الحـادية عشرة — فى قص الشارب . وهو الأخذ منـه حتى يبدوَ طرَف الشّـفَة وهو الإطار، ولا يجزّه فيمثّل نفسه؛ قاله مالك . وذكر ابن عبد الحكم عنه قال: وأرى أن يؤدَّب من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال فى حلق الشارب : هذه بدع، وأرى أن يُوجع ضربًا مَن فعله . وقال ابن خُوَيْزِ منداد قال مالك : أرى أن يُوجع مَن حلقه ضربًا . كأنه يراه ممثّلًا بنفسه، وكذلك بنتفـه الشعر، وتقصيره عنده أولى من حلقه . وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا لِمّة؛ وكان أصحابه من بين وافر الشّعَر أو مُقَصِّر؛ وإنمـا حَلَق وحَلَقوا فى النُّسُك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصّ أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعـة . وقال الطحاوى : لم نجد عن الشافعى فى هـذا شيئا منصوصًا، وأصحابه الذين رأيناهم : المُزَنِىّ والربيع كانا يُحْفِيان شواربهما، ويدلّ ذلك أنهما أخذا ذلك عن الشافعى رحمه الله تعالى . قال : وأما أبو حنيفة وزُفَر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم فى شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير. وذكر ابن خُوَيْزِ مَنداد عن الشافعى أن مذهبه فى حلق الشارب كمذهب أبى حنيفة سواء. وقال أبو بكر الأثْرَم : رأيت أحمد بن حنبل يُحْفِى شاربه شديدًا، وسمعته سـئل عن السُّنة فى إحفاء الشّارب فقال : يُحْفَى كما قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم: "احفُوا الشّـوارب" . قال أبو عمر : إنمـا فى هـذا الباب

Marfat.com

أصلان : أحدهما — أُحْفُوا ، وهو لفـظ محتمل التأويل . والثـانى — قصّ الشارب ، وهو مفسّر ، والمفسّر يقضى على المجمل ، وهو عمـل أهل المدينة ، وهو أوْلى ما قيـل به فى هـذا الباب . روى الترمذىّ عن آبن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقصّ من شاربه ويقـول : "إن إبراهيم خليل الرحمن كان يفعله" . قال : هـذا حديث حسن غريب . وخرّج مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "الفِطرة خمسٌ الآختتان والآستحداد وقصّ الشارب وتقليم الأظفار ونَتْف الإبْط" . وفيـه عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "خالفوا المشركين أَحْفُوا الشـوارب وأَوْفُوا اللِّحَى"(١) . والأعاجم يقصّون لحاهم ، ويوفّرون شواربهـم أو يوفرونهما معاً ، وذلك عكس الجمال والنظافة . ذكر رَزِين عن نافع أن آبن عمـر كان يُحْفِى شاربه حتى ينظر إلى الجلد ، ويأخذ هذين، يعنى ما بين الشارب واللّحية. وفى البخارى: وكان آبن عمر يأخذ من طول لحيته مازاد على القَبْضة إذا حجّ أو آعتمر. وروى الترمذىّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من لحيتـه من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبْط فسُنّته النّتْف ، كما أن سُنّة العانة الحَـلْق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة ، والأوّل أوْلى ؛ لأنه المتيسّر المعتاد .

الثالثة عشرة — وفَرْق الشعر : تفريقه فى المَفْرِق(٢) ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إن آنفرقتْ عَقِيصتُه(٣) فَرَق ؛ يقال : فرقت الشعر أَفْرُقُـه فَرْقًا ؛ يقول : إن آنفـرق شعر رأسه فرقه فى مَفْرِقه ، فإن لم ينفرق تركه وَفْرَةً(٤) واحدة . خرج النسائى عن آبن عباس أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كان يَسْدل شعره ، وكان المشركون يفـرّقون شعورهم ، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك؛ أخرجه البخارى ومسلم عن أنس. قال القاضى عِياض : سَدْلُ الشعر إرساله ، والمراد به هاهنا عند العلماء إرساله على الجبين ، وآتخاذه كالقُصّة ؛ والفرقُ فى الشعر سُنّة ؛ لأنه الذى رجع إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا آنصرف من الجمعة

(١) إحفاء الشوارب : قص ماطال منها . وإعفاء اللحى : توفيرها .　(٢) المفرق : وسط الرأس .
(٣) العقيصة : الشعر المعقوص ، وهو نحو من المضفور .　(٤) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

Marfat.com

آدم على باب المسجد حرسًا يجزّون ناصية كلّ من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سُنّة إبراهيم عليه السلام ؛ فالله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما الشَّيب فنُــورٌ ويُكره نَتْفــه ؛ ففى النسائى وأبى داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شَيْبَةً فى الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحطّ عنه خطيئة " .

قلت : وكما يُكره نتفه كذلك يُكره تغييره بالسواد، فأما تغييره بغير السواد فجائز ؛ لقــوله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى قُحَافة — وقــد جىء به ولحيته كالثَّغامة (١) بياضا — : " غيّروا هذا بشىء وآجتنبوا السواد " . ولقد أحسن من قال :

يســـوّد أعلاها ويبيض أصــلها * ولا خير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضبَ الشيبِ بالحناء تســتره * سَــلِ المليك له ســترًا من النار

الخامسة عشرة — وأما الثريد فهــو أزكى الطعام وأكثره بركة ، وهو طعام العــرب ، وقد شهد له النبىّ صلى الله عليه وســلم بالفضل على سائر الطعام فقال : " فضل عائشــة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام". وفى صحيح البُسْتِىّ عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت إذا ثردت غطّته شيئا حتى يذهب فَوْره وتقــول : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه أعظم للبركة " .

السادسة عشرة — قلت : وهــذا كله فى معنى ما ذكره عبد الرزاق عن آبن عبــاس ، وما قاله ســعيد بن المسيّب وغيره . ويأتى ذكر المضمضة والآستنشاق والســواك فى سورة « النساء (٢) » وحكم الآســتنجاء فى « براءة (٣) » وحكم الضيافة فى « هــود (٤) » إن شاء الله تعالى .
وخرّج مسـلم عن أنس قال : وُقِّت لنــا فى قصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتــف الإبط وحلق العــانة ألا نَتْرُك أكثر من أربعين ليلة . قال علماؤنا : هذا تحديد فى أكثر المدّة ،

(١) الثغامة : نبت أبيض الثمر والزهر ؛ يشبّه بياض الشيب به . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢١٢ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ (٤) راجع جـ ٩ ص ٦٤

Marfat.com

والمستحبّ تفقّد ذلك من الجمعة إلى الجمعــة ؛ وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي : في حديثــه نظر . وقال أبو عمــر فيه : ليس بحجة ؛ لســوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقويّ من جهة النقل ، ولكنه قد قال به قوم ، وأكثرهم على ألّا توقيت في ذلك . وبالله التوفيق .

السابعة عشرة — قوله تعــالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام : القُدْوة ، ومنه قيل لخيط البناء : إمام ، وللطريق : إمام ؛ لأنه يؤم فيــه للسالك ، أى يقصد . فالمعنى : جعلناك للناس إمامًا يأتمّون بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون . فجعله الله تعالى إمامًا لأهل طاعته ؛ فلذلك أجتمعت الأمم على الدعوى فيه — والله أعلم — أنه كان حنيفًا .

الثامنة عشرة — قوله تعــالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ دعاء على جهة الرَّغباء إلى الله تعالى ؛ أى من ذُرّيتي يا ربّ فأجعل . وقيل : هذا منه على جهة الأستفهام عنهم ؛ أى ومن ذريتي يا ربّ ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعــالى أن فيهم عاصيًا وظالمـًا لا يستحق الإمامة . قال آبن عباس : سأل إبراهيم عليه الســلام أن يُجعل مِن ذُرّيته إمام ؛ فأعلمه الله أن في ذُرّيتــه من يعصى فقال : « لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ » .

التاسعة عشرة — قوله تعــالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أصل ذُرّية ، فُعْلِيــة من الذّر ؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صُلب آدم عليه السلام كالذّر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا خلقهم ؛ ومنه الذُّرّية وهى نسل الثّقلين ؛ إلا أن العــرب تركت همزها ، والجمــع الذّراري . وقرأ زيد بن ثابت « ذِرّية » بكسر الذال و«ذَرّية» بفتحها . قال آبن جنّي أبو الفتح عثمان : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها — ذرأ ، والثاني — ذَرَر ، والثالث — ذرو ، والرابع ذرى ؛ فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق ، وأما ذَرَر فمن لفظ الذّر ومعناه ، وذلك لمـا ورد في الخبر " أن الخلق كان كالذّر " وأما الواو والياء ، فمن ذَرَوت الحبّ وذَرَيْتُه يقالان جميعا ، وذلك قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ »(١) وهــذا للطفه وخفّته ، وتلك حال للذر أيضــا . قال الجــوهري :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٣

Marfat.com

ذَرَت الريح التراب وغيره تَذْرُوه وتَذْرِيه ذَرْواً وذَرْياً أى نسفته ؛ ومنه قولهم : ذرى الناس الحنطة ، وأذريت الشىء إذا ألقيتـه ، كإلقائك الحبّ للزرع . وطعنه فأذراه عن ظهـر دابتـه ؛ أى ألقاه . وقال الخليل : إنمـا سُمُّوا ذُرِّية ؛ لأن الله تعـالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . وقيل : أصل ذُرِّية ، ذُرُّورة ، لكن لمـا كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء ، فصارت ذُرُّويَة ، ثم أدغمت الواو فى الياء فصارت ذُرِّيَة . والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصّةً ، وقـد تُطلق على الآباء والأبناء ؛ ومنه قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ »[(١)] يعنى آباءهم .

الموفيـة عشرين — قوله تعـالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْـدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾ ٱختلف فى المراد بالعَهْـد ؛ فروى أبو صالح عن ٱبن عباس أنه النبوّة ؛ وقاله السُّـدِّىّ . مجاهد : الإمامة . قتادة : الإيمان . عطاء : الرحمة . الضحاك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر ، قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا »[(٢)] أى أمرنا . وقال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ » يعنى ألم أقدّم إليكم الأمر به ؛ وإذا كان عهد الله هو أوامره فقوله : « لَا يَنَالُ عَهْـدِى ٱلظَّالِمِينَ » أى لا يجـوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله ولا يقيمون عليها[(٣)] ؛ على ما يأتى بيانه بعد هذا آنفاً[(٤)] إن شاء الله تعالى . وروى مَعْمَر عن قتادة فى قوله تعالى : « لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ » قال : لا ينال عهد الله فى الآخرة الظالمين ؛ فأمّا فى الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به ، وأكل وعاش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن ؛ أى لا ينـال أمانى الظالمين ، أى لا أؤمنهم من عذابى . وقال سـعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ ٱبن مسعود وطَلْحة بن مُصَرِّف « لا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظالمون » برفع الظالمون . الباقون بالنصب . وأسكن حمزة وحفص وٱبن مُحَيْصِن الياء فى « عهدى » ، وفتحها الباقون .

الحادية والعشرون — ٱسـتدلّ جماعة من العلماء بهـذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوّة على القيام بذلك ، وهو الذى أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم ألّا ينازعوا الأمر أهله ؛ على ما تقدّم[(٥)] من القول فيه . فأما أهل الفسوق والجور والظلم

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ (٣) فى ب ، جـ : «ولا يفتون عليها» .
(٤) آنفا : الآن . وفعلت الشىء آنفا : أى فى أول وقت يقرب منى . (٥) راجع جـ ١ ص ٢٦٤ طبعة ثانية .

Marfat.com

فليسوا له بأهل؛ لقوله تعالى: « لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ » ولهذا خرج ٱبن الزبير والحسين[1] ابن علىّ رضى الله عنهم . وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بنى أميّة وقاموا عليهم ، فكانت الحَرّة التى أوقعها بهم مسلم بن عقبة[2] .

والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن فى منازعته والخروج عليــه ٱستبدال الأمن بالخوف ، و إراقة الدماء ، وٱنطـلاق أيدى السفهاء ، وشَنّ الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض . والأوّل مذهب طائفــة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج ، فٱعلمه .

الثانية والعشرون ــ قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : وكل من كان ظالمــا لم يكن نبياً ولا خليفةً ولا حاكمًا ولا مُفْتيًا ، ولا إمامَ صــلاة ، ولا يُقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعــة ، ولا تُقبل شهادته فى الأحكام، غير أنه لا يُعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحَلّ والعَقْد . وما تقدّم من أحكامه موافقًا للصواب ماضٍ غير منقوض . وقد نصّ مالك على هذا فى الخوارج والبُغاة أن أحكامهــم لا تُنقض إذا أصابوا بها وجهًا من الاجتهاد، ولم يخرقوا الإجماع ، أو يخالفوا النصوص . وإنمــا قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قــد خرجوا فى أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبّعوا أحكامهم ، ولا نقضوا شيئا منها ، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التى أخذوا وأقاموا ؛ فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرّض لأحكامهم .

الثالثة والعشرون ــ قال ٱبن خُوَيْزِمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما فى أيديهم مأخوذا على موجب الشريعــة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما فى أيدى

(١) فى ب، ج : « والحسن » .   (٢) الذى فى الأصول : « عقبة بن مسلم » وهو تحريف . ويوم الحرة ذكره ٱبن الأثير فى النهاية فقال : « وهو يوم مشهور فى الإسلام أيام يزيد بن معاوية لمــا ٱنتهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينــة من الصحابة والتابعين ، وأمّر عليهم مسلم بن عقبة المرّى فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين ، وعقيبها هلك يزيد . والحرة هذه : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة وكانت الوقعة بها » . ويراجع تاريخ الطبرى وٱبن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ثلاث وستين .

Marfat.com

الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ، وهـو كلص فى يده مال مسروق، ومال جيّد حلال قد وكله فيه رجل بخاء اللص يتصدّق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة، وإن كان قـد يجوز أن يكون اللص يتصـدّق ببعض ما سرق ، إذا لم يكن شيء معـروف بنهب، وكذلك لو باع أو آشترى كان العقد صحيحا لازما — وإن كان الورع التنزه عنه — وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم لجهاتها . وإن كان ما فى أيديهم ظلمًا صراحًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم . ولو كان ما فى أيديهم من المـال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ، فهـو كما لو وجد فى أيدى اللصوص وقُطّاع الطريق ، ويجعـل فى بيت المـال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فإذا لم يعرف صرفه الإمام فى مصالح المسلمين .

قوله تعـالى : وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِـدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيّرنا لتعديه إلى مفعولين، وقد تقدّم . ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ يعنى الكعبة ﴿مَثَابَةً﴾ أى مرجعًا، يقال : ثاب يثوب مثابًا ومثابة وثؤوبًا وثَوَبانًا . فالمثابة مصدر وُصف به ويراد به الموضع الذى يُثاب إليه، أى يرجع إليه . قال ورقة بن نوفل فى الكعبة:(١)

مثابًا لأفنـاء القبـائل كلّهـا * تخبّ إليها اليَعْمَلاتُ الذّوامِلُ

وقرأ الأعمش « مثاباتٍ » على الجمع . ويحتمل أن يكون من الثواب ؛ أى يثابون هناك . وقال مجاهد : لا يقضى أحد منه وطرًا ؛ قال الشاعر :

جُعِـل البيتُ مثـابًا لهـمُ * ليس منه الدّهرَ يقضون الوطَرْ

والأصل مثوبة، قُلبت حركة الواو على الثاء فقلبت الواو ألفا آتباعا لثاب يثوب، وآنتصب على المفعول الثانى، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أى يرجع؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرًا، فهى كنسّابة وعلّامة؛ قاله الأخفش . وقال غيره : هى هاء تأنيث المصدر وليست للمبالغة .

(١) الذى فى اللسان وشرح القاموس مادة « ثوب » أن البيت لأبى طالب .

Marfat.com

فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه ؛ قيل : ليس يختص بمن ورد عليه ، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصدا من الناس ؛ والله تعالى أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ استدلّ به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحدّ في الحَرَم على المُحْصن والسارق إذا لجأ إليه ؛ وعَضَدُوا ذلك بقوله تعالى : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » كأنه قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحدود في الحَرَم ، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت . وإنما الخلاف هل يقتل في الحَرَم أم لا ؟ والحَرَمُ لا يقع عليه اسم البيت حقيقة . وقد أجمعوا أنه لو قَتل في الحَرَم قُتل به ، ولو أتى حَدًّا أُقِيد منه فيه ، ولو حارب فيه حُورب وقُتل مكانه . وقال أبو حنيفة : من لجأ إلى الحرم لا يُقتل فيه ولا يُتابع ، ولا يزال يُضيَّق عليه حتى يموت أو يخرج . فنحن نقتله بالسيف ، وهو يقتله بالجوع والصدّ ؛ فأيّ قتل أشدّ من هذا . وفي قوله : « وَأَمْنًا » تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ؛ أي ليس في بيت المَقْدس هذه الفضيلة ، ولا يحج إليه الناس ، ومن استعاذ بالحَرَم أَمِن من أن يُغار عليه . وسيأتي بيان هذا في « المائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا » قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متّبعي إبراهيم ، وهو معطوف على « جعلنا » أي جعلنا البيت مَثابةً واتخذوه مُصَلًّى . وقيل هو معطوف على تقدير إذ ، كأنه قال : وإذ جعلنا البيت مَثابةً وإذ اتخذوا ؛ فعلى الأول الكلام جملة واحدة ، وعلى الثاني جملتان . وقرأ جمهور القراء « واتخِذوا » بكسر الخاء على جهة الأمر ، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفًا جملة على جملة . قال المهدويّ : يجوز أن يكون معطوفا على « اذكُرُوا نِعْمَتِيَ » كأنه قال ذلك لليهود ، أو على معنى إذ جعلنا البيت ؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا . أو على معنى قوله : « مثابةً » لأن معناه ثُوبُوا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥

Marfat.com

الثانيــة — روى ٱبْن عمر قال قال عمر : وافقتُ ربّى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر . خرّجه مسلم وغيره . وخرّجه البخارى عن أنس قال قال عمـر : وافقت الله فى ثلاث ، أو وافقنى ربى فى ثلاث ... الحـديث ، وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده فقال : حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا علىّ بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمـر : وافقت ربى فى أربع ؛ قلت يا رسـول الله : لو صلّيت خلف المقام ؟ فنزلت هـذه الآية : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسـول الله ، لو ضَرَبْتَ على نسائك الحجـاب فإنه يدخل عليهن البَرّ والفـاجر ؟ فأنزل الله : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »(١) ، ونزلت هذه الآية : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٢) ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(٢) ، ودخلتُ على أزواج النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فقلت : لتنتهنّ أو ليبدلنّه الله بأزواج خير منكن؛ فنزلت الآية : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ »(٣) .

قلت : ليس فى هذه الرواية ذكر للأسارى، فتكون موافقة عمر فى خمس .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَقَامِ ﴾ المقام فى اللغة : موضع القدمين . قال النحاس : « مَقَام » مِن قام يقوم، يكون مصدرًا وٱسمًا للوضع . ومُقام مِن أقام ؛ فأما قول زُهَير :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم(٤) * وأنديةٌ ينتابُهـا القولُ والفعـلُ

فمعناه : فيهم أهل مقامات . وٱختلف فى تعيين المقام على أقوال؛ أصحها — أنه الحجر الذى تعرفه الناس اليوم الذى يصلّون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وٱبن عباس وقتادة وغيرهم . وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا رأى البيت ٱستلم الركن فرَمَل(٥) ثلاثا ، ومشى أربعا ؛ ثم تقـدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فصـلى ركعتين قرأ فيهما بـ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » و « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » . وهـذا يدل على أن ركعتى الطـواف وغيرهما من الصـلوات

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩، ١١٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٢
(٤) فى نسخ الأصل : « وجوهها » . والتصويب عن الديوان . (٥) فى ب، جـ، ز : « نفذ » .

Marfat.com

[لأهل مكة[1] أفضـل و] يدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل ، على ما يأتي . وفي البخاري : أنه الحجر الذي ٱرتفع عليه إبراهيم حين ضَعُف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إيّاه في بناء البيت، وغَرِقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم؛ حكاه القُشَيري. وقال السُّدّيّ: المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه . وعن ٱبن عبـاس أيضا ومجاهـد وعكرمة[2] وعطاء : الحج كله . وعن عطاء : عَرَفة ومُزْدَلِفة والجمار؛ وقاله الشَّعْبي . النَّخَعيّ : الحَرَم كله مقام إبراهيم؛ وقاله مجاهد .

قلت : والصحيح في المقام القول الأول، حسب ما ثبت في الصحيح . وخرّج أبو نعيم من حديث محمد بن سُوقة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى رجل بين الركن والمقام، أو الباب والمقام وهو يدعو و يقول : اللّهُمّ ٱغفر لفلان؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما هـذا "؟ فقال : رجل ٱستودعني أن أدْعُوَ له في هذا المقام؛ فقال : " ٱرجع فقد غُفِر لصاحبك" . قال أبو نعيم : حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد ٱبن إبراهيم القاضي قال حدّثنا محمد بن عاصم بن يحيى الكاتب قال حدّثنا عبـد الرحمن بن القاسم القطّان الكوفي قال حدثنا الحارث بن عمران الجعفري عن محمـد بن سُوقة؛ فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبدالرحمن عن الحارث عن محمد عن جابر؛ وإنمـا يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن ٱبن عباس . ومعنى «مُصَلًّى» : مَدْعى يُدعَى فيه؛ قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصلَّى عنده؛ قاله قتادة . وقيل: قِبلة يقف الإمام عندها؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَعَهِدْنَا ﴾ قيل : معناه أمرنا . وقيل : أوحينا . ﴿ أَنْ طَهِّرَا ﴾ « أن » في موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : إنها بمعنى أي

(١) زيادة يقتضيها السياق، وقد اعتمدنا في زيادتها على ما ورد في المسألة السادسة ص ١١٦ من هذا الجزء.
(٢) هذا الاسم ساقط من ب، جـ، ز .

Marfat.com

مفسّرة، فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . و « طَهِّرَا » قيل معناه : من الأوثان؛ عن مجاهد والزهرى . وقال عُبيد بن عُمير وسعيد بن جبير : من الآفات والرِّيَب . وقيل : من الكفار . وقال السُّدّى : أبنياه وأسّساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجىء مثل قوله : « أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى »(١) . وقال يمان : بخّراه وخلّقاه . ﴿ بَيْتِيَ ﴾ أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك . وقرأ الحسن وٱبن أبى إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : « بَيْتِيَ » بفتح الياء، والآخرون بإسكانها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ظاهره الذين يطوفون به؛ وهو قول عطاء . وقال سعيد بن جبير : معناه للغرباء الطارئين على مكة؛ وفيه بُعْد . ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ المقيمين من بلدىّ وغريب؛ عن عطاء . وكذلك قوله : « لِلطَّائِفِينَ » . والعكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشىء؛ كما قال الشاعر(٢) :

* عَكْفَ النَّبِيط يلعبون الفَنْزَجَا(٣) *

وقال مجاهد : العاكفون المجاورون . ٱبن عباس : المصلّون . وقيل : الجالسون بغير طواف؛ والمعنى متقارب . ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أى المصلّون عند الكعبة . وخصّ الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أقرب أحوال المصلّى إلى الله تعالى . وقد تقدّم(٤) معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله .

الثالثـــة — لما قال الله تعالى « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة . وإنما خصّ الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حُرْمة؛ والأوّل أظهر، والله أعلم . وفى التنزيل «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ»(٥) وهناك يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٩ (٢) هو العجاج، يصف ثورا . وصدر البيت : * فهن يعكفن به إذا حجا *

(٣) الفنزجة والفنزج (بفتح فسكون) : رقص العجم إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٩١، ٣٤٤ طبعة ثانية . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٤

Marfat.com

سمع صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا ! أتدرى أين أنت ! ؟ وقال حذيفة قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله أوحى إلىّ يا أخا المنـذرين يا أخا المرسلين أنْذر قومك ألا يدخلوا بيتًا من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نَقِيّة وفروج طاهرة وألّا يدخلوا بيتًا من بيـوتى ما دام لأحد عندهم مظلمة فإنى ألعنه ما دام قائما بين يدىّ حـتى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعـه الذى يَسمع به و بصره الذى يبصر به و يكون من أوليائى وأصفيائى و يكون جارى مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين " .

الرابعـــة — آستدلّ الشافعى وأبو حنيفة والثورىّ و جماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشـافعى رحمه الله : إن صـلّى فى جوفها مستقبلا حائطا من جيطانها فصـلاته جائزة، و إن صلّى نحو الباب والباب مفتوح فصـلاته باطلة ، وكذلك من صـلّى على ظهرها ؛ لأنه لم يستقبل منها شـيئا . وقال مالك : لا يصلى فيه الفرض ولا السُّنن ، و يصلّى فيه التطوّع ؛ غير أنه إن صلّى فيه الفرض أعاد فى الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا .

قلت : وهو الصحيح ؛ لمـا رواه مسـلم عن آبن عباس قال : أخبرنى أسامة بن زيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا دخل البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصلّ فيه حتى خرج منه؛ فلما خرج ركع فى قُبُل الكعبة ركعتين وقال : " هذه القِبلة " وهذا نص .

فإن قيل : فقد روى البخارىّ عن آبن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد و بلال وعثمان بن طلحة الحَجَبِىّ البيت فأغلقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أوّل من وَلج فلقيت بلالًا فسألته : هـل صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؟ قال ، نعم بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مسـلم ، وفيه قال : جعل عمـودين عن يساره وعمـودا عن يمينه وثلاثة أعمـدة وراءه ؛ وكان البيت يومئذ على ستة أعمـدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلّى بمعنى دعا ، كما قال أسامة ؛ ويحتمل أن يكون صلّى الصلاة العُرْفِيّة ، وإذا آحتمل هذا وهذا سقط الآحتجاج به .

Marfat.com

فإن قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم صُوَرا فى الكعبة فكنت آتيه بماء فى الدّلو يضرب به تلك الصور . وخرّجه أبو داود الطيالسى قال : حدّثنا ابن أبى ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدّثنا عمير مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : "قاتل الله قوما يصوّرون ما لا يخلقون" . فيحتمل أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى فى حالة مُضِىّ أسامة فى طلب الماء فشاهد بلال ما لم يشاهده أسامة ، فكان من أثبت أولى ممن نفى ؛ وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى . وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صَفْوان قال قلت لعمر بن الخطاب : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة؟ قال: صلى ركعتين.

قلنا : هذا محمول على النافلة ، ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة ، وأمّا الفرض فلا ؛ لأن الله تعالى عيّن الجهة بقوله تعالى : « فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » على ما يأتى بيانه[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم لما خرج : "هذه القِبلة" فعينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : "هذه القبلة" . وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها ؛ فلا تعارض ، والحمد لله .

الخامسة — واختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها ؛ فقال الشافعى ما ذكرناه . وقال مالك : من صلّى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت . وقد رُوِىَ عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلّى على ظهر الكعبة فلا شىء عليه .

السادسة — واختلفوا أيضا أيُّما أفضل الصلاة عند البيت أو الطّواف به ؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذُكر عن ابن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور على أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : " لولا رجال خُشّع وشيوخ رُكّع وأطفال رُضّع وبهائم رُتّع لصببنا عليكم العذاب صبّاً " . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى كتاب (السابق واللاحق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

عليه وسـلم : " لولا فيكم رجال خُشّـع و بهائم رُتّع وصبيان رُضّع لصُبّ العـذاب على المذنبين صَبًّا " . لم يذكر فيه « وشيوخ ركع » . و فى حديث أبى ذرّ " الصلاة خير موضوع فآستكثر أو آستقل " . خرّجه الآجرى . والأخبار فى فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وفيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ يعنى مكة؛ فدعا لذرّيتـه وغيرهم بالأمن ورغد العيش . فروى أنه لمـا دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فآقتلع الطائف من الشام فطاف بهـا حول البيت أسـبوعا ، فسُمّيت الطائف لذلك، ثم أنزلهـا تهامة ؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفْرًا لا ماء ولا نبـات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم »(١) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ــ آختلف العلماء فى مكة هل صارت حَرَمًا آمِناً بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين :

أحدهما ــ أنهـا لم تزل حَرَمًا من الجبابرة المسلّطين، ومن الخسوف والزلازل ، وسائر المَثُلات التى تحل بالبـلاد، وجعل فى النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لهـا ما صار به أهلها متميّزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى . ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيهـا ؛ فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يَهيج الكلبُ الصيدَ ولا ينفر منه ، حتى إذا خرجا من الحَرَم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب .

و إنمـا سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمِناً من القحط والجـدْب والغارات ، وأن يرزق أهله من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم فى حق من لزمه القتل .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ فـا بعدها .

Marfat.com

فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال : طلب من الله أن يكون فى شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحَرَم؛ هذا بعيد جدا .

الثـانى — أن مكة كانت حلالاً قبـل دعوة إبراهيم عليه السـلام كسائر البلاد ، وأن بدعوته صارت حَرَمًا آمنًا كما صارت المدينة بتحريم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أمْنًا بعد أن كانت حلالا .

احتجّ أهل المقالة الأولى بحديث آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : ” إن هـذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهـو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة و إنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحد قبلي ولم يَحِلّ لى إلا ساعةً من نهارفهو حرام بحُـرْمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَد(١) شوكُه ولا يُنَفَّر صـيدُه ولا تُلتقط لُقَطته إلا من عَرَفها ولا يُخْتَـلَى(٢) خلاها“ فقال العبـاس : يا رسول الله إلّا الإذْخر(٣) فإنه لقَيْنِهم ولبيوتهـم؛ فقال : ”إلا الإذْخِر“ . ونحوه حديث أبى شُريح، أخرجهما مسلم وغيره .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها و إنى حرّمت المدينـة كما حرّم إبراهيم مكة و إنى دَعوت فى صاعها ومُدّها بمِثْلَىْ ما دعا به إبراهيم لأهل مكة“ . قال آبن عطية : «ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن الأوّل إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه؛وكون الحُرْمة مدّة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان . والثانى إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها و إظهاره ذلك بعد الدُّثور، وكان القول الأوّل من النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ثانى يوم الفتح إخبـارا بتعظيم حُرمة مكة على المؤمنين بإسـناد التحريم إلى الله تعـالى ، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينـة مثالاً لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه» . وقال الطبرى : كانت مكة حرامًا فلم يتعبّد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرّمها .

---

(١) لا يعضد : لا يقطع. (٢) الخلى (مقصور) : النبات الرطب الرقيق ما دام رطبا؛ واختلاؤه : قطعه .

(٣) الإذخر (بكسر الهمزة والخاء) : حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب، ويحرق بدل الخشب والفحم . والقين : الحداد .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ﴾ تقدّم معنى الرزق.[1] والثمرات جمع ثمرة ، وقد تقدّم.[2] « مَنْ آمَنَ » بدل من أهـل ، بدل البعض من الكل . والإيمـان : التصديق ، وقد تقـدّم.[3] ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ « مَن » فى قـوله « وَمَنْ كَفَرَ » فى موضع نصب ؛ والتقدير وأرزق من كفر ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع بالابتـداء ، وهى شرط والخبر « فَأُمَتِّعُهُ » وهو الجواب .

وآختلف هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام؟ فقال أُبَيّ بن كعب وآبن إسحاق وغيرهما : هو من الله تعالى، وقرءوا « فَأُمَتِّعُهُ » بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء. ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ بقطـع الألف وضم الراء ، وكذلك القـرّاء السبعة خلا آبن عامر فإنه سكّن الميم وخفّف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن فى قراءة أُبَيّ « فنمتّعه قليـلًا ثم نضطرّه » بالنون . وقال آبن عباس ومجاهـد وقتادة : هذا القول من إبراهيم عليه السـلام . وقرءوا « فأَمْتِعه » بفتح الهمزة وسكون الميم ، « ثم آضطرّه » بوصل الألف وفتح الراء ؛ فكان إبراهيم عليه السلام دعا للؤمنين وعلى الكافرين ، وعليه فيكون الضمير فى « قال » لإبراهيم ، وأعيد « قال » لطول الكلام، أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل فى « قال » على قراءة الجماعة آسم الله تعالى ، وآختاره النحاس ، وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة ، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلّان على غيرها ؛ أمّا نسق الكلام فإن الله تعالى خبّر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : « رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا » ثم جاء بقـوله عز وجلّ : « وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَـوْمِ ٱلْآخِرِ » ولم يفصل بينه بقال ، ثم قال بعدُ : « قَالَ وَمَنْ كَفَرَ » فكان هذا جوابا من الله، ولم يقل بعدُ : قال إبراهيم . وأمّا التفسير فقد صح عن آبن عباس وسعيد بن جبير ومحمـد بن كعب . وهذا لفظ آبن عباس : دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصّة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن ، وأنه يمتّعه قليـلا ثم يضطّره إلى عذاب

(١) راجع المسألة الثانية والعشرين جـ ١ ص ١٧٧ (٢) راجع المسألة الرابعة جـ ١ ص ٢٢٩
(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ١٦٢ طبعة ثانية .

Marfat.com

النـار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : « كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ »(١) وقال جل ثناؤه : « وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ »(٢) . قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن فى ذرّيته كفارا نخصّ المؤمنين ؛ لأن الله تعالى قال : « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » .

قوله تعـالى : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ القواعد : أساسه ؛ فى قـول أبى عبيدة والفـرّاء . وقال الكسائى : هى الجـدُر . والمعروف أنهـا الأساس . وفى الحديث : " إن البيت لمـا هُـدم أخرجت منه حجارة عظام " فقال ٱبن الزبير : هـذه القواعد التى رفعها إبراهيم عليه السـلام . وقيل : إن القواعد كانت قد ٱندرست فأطلع الله إبراهـيم عليها . ٱبن عباس : وضـع البيت على أركان رآها قبـل أن تُخلق الدنيا بألفى عام ثم دُحيت الأرض من تحته . والقواعد واحدتها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

وٱختلاف الناس فيمن بنى البيت أوّلًا وأسّسه؛ فقيل : الملائكة . رُوى عن جعفر بن محمد قال : سـئل أبى وأنا حاضر عن بَدْء خلق البيت فقال : إن الله عز وجل لمـا قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَـةً » قالت الملائكة : « أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ » فغضب عليهم؛ فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربّهم حتى رضى الله عنهم، وقال لهم: ابنوا لى بيتًا فى الأرض يتعوّذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، و يطوف حوله كما طفتم حول عرشى ، فأرضى عنـه كما رضيت عنكم ؛ فبنوْا هذا البيت .

وذكـر عبد الرزاق عن ٱبن جُريج عن عطاء وٱبن المسيب وغيرهمـا أن الله عز وجل أوحى إلى آدم : إذا هبطت ٱبن لى بيتا ثم ٱحفف به كما رأيت الملائكة تحفّ بعرشى الذى

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٦ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٨

Marfat.com

فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حِرَاء، ومن طُور سِينا ، ومن لُبنان، ومن الجُودِىّ، ومن طُورزِيتا؛ وكان رُبْضه(١) من حِراء . قال الخليل : والرُّبْض هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر؛ ومنه يقال لمـا حول المدينة : رَبَض . وذكر المـاوردىّ عن عطاء عن ابن عباس قال : لمـا أهبط آدم من الجنـة إلى الأرض قال له : يا آدم ، آذهب فابن لى بيتـًا وطُف به ، وآذكرنى عنـده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطّى وطُوِيَت له الأرض، وقُبِضت له المفازة؛ فلا يقع قدمه على شيء من الأرض إلا صار عُمرانًا حتى آنتهى إلى موضع البيت الحرام ؛ وأن جبريل عليـه السلام ضرب بجناحيـه الأرض فأبرز عن أسّ ثابت على الأرض السابعـة السُّفلى ، وقذفت إليـه الملائكة بالصَّخر، فمـا يُطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا . وقد رُوِىَ فى بعض الأخبار: أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضُربت فى موضع الكعبة ليسكن إليها و يطوف حولها ، فلم تزل باقيـة حتى قبض الله عز وجل آدم ثم رُفعت . وهـذا من طريق وَهْب بن مُنَبّـه . وفى رواية : أنه أهبط معـه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك إلى زمان الغرق ، ثم رفعـه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يُدعى البيت المعمور . رُوِىَ هذا عن قتادة ذكره الحَلِيمى فى كتاب « منهاج الدين » له ، وقال : يجوز أن يكون معنى ما قال قتـادة من أنه أهبط مع آدم بيت ، أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طُولًا وعَرْضًا وسُمْكًا، ثم قيل له : آبن بقدره؛ وتحرَّى(٢) أن يكون بحِياله ، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه . وأما الخيمة فقـد يجوز أن تكون أنزلت وضُربت فى موضع الكعبة، فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رفعت ؛ فتتفق هذه الأخبار . فهذا بناء آدم عليه السلام ، ثم بناه إبراهيم عليـه السلام . قال آبن جريج وقال ناس : أرســل الله سحابة فيهـا رأس ؛ فقال الرأس : يا إبراهيم، إن ربَّك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة؛ فجعل ينظر إليها و يخط قدرها؛ ثم قال الرأس : إنه قد فعلتَ ؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض . ورُوِىَ عن علىّ بن

(١) الربض (بضم الراء ، وبسكون الباء وضمها) : الأساس . و بفتحهما : ما حول المدينة .
(٢) فى ا ، جـ ، ز : « ويجوز أن يكون » .

Marfat.com

أبى طالب رضى الله عنه : أن الله تعالى لمـا أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنــه إسماعيل وأمّه هاجر ، وبعث معه السَّكينة(١) لهـا لسان تتكلّم به يغـدو معها إبراهيم إذا غدت ، و يروح معها إذا راحت ، حتى انتهت به إلى مكة ؛ فقالت لإبراهيم : ابنِ على موضعى(٢) الأساس ؛ فرفع البيت هو و إسماعيل حتى انتهى إلى موضع الرُّكن ؛ فقال لابنــه : يا بُنىّ ، ابغنى حجرا أجعله عَلَماً للناس ؛ فجاءه بحجر فلم يرضه ، وقال : ابغنى غيره ؛ فذهب يلتمس ، فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه ؛ فقال : يا أبة ، مَن جاءك بهذا الحجر ؟ فقال : من لم يَكِلنى إليــك . ابن عباس : صالح أبو قُبيس(٢) : يا إبراهيم ، يا خليل الرحمن ، إن لك عندى وديعة فخذها ، فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنــة كان آدم قد نزل به من الجنة ؛ فلمـا رفع إبراهيم و إسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربّعــة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعى . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام . ورُوِىَ أن إبراهيم و إسماعيل لمـا فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم حدّثنا عمر بن أبى عمر حدّثنى نعيم بن حماد حدّثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جُريج عن ابن أبى مُليكة عن ابن عبـاس قال : كانت الخيــل وَحْشًا كسائر الوحش ، فلمـا أذن الله لإبراهيم و إسمـاعيل برفع القواعد قال الله تبارك اسمــه : "إنى معطيكما كنزا ادّخرته لكما" ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أَجْياد فادع يأتك الكنز . فخرج إلى أجياد — وكانت وطنا — ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز ، فألهمه ؛ فلم يبــق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها وذلّلها له ، فاركبوها واعلفوها فإنهـا ميامين ، وهى ميراث أبيكم إسماعيل ؛ فإنمـا سُمّى(٣) الفرس عربيًّا لأنّ إسماعيل أمر بالدعاء و إياه أتى . وروى عبد المنعم بن ادريس عن وهب بن مُنَبِّه ، قال : أوّل من بنى البيت بالطين والحجارة شِيث عليه الســلام . وأما بنيان قريش له فمشهور ، وخبر الحيّــة فى ذلك مذكور ، وكانت تمنعهم من هَدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعَجُّوا إلى الله تعالى وقالوا : ربَّنا ، لم تُرَعْ ! أردنا تشريف بيتك وتزيينــه ، فإن كنت ترضى بذلك و إلا فمـا بدا لك فافعل ، فسمعوا

(١) السكينة (بفتح فكسر) : ريح خجوج ، أى سريعة المـر . (٢) فى جـ : «ابن علىّ موضع الأساس» . وأبو قبيس : اسم الجبل المشرف على مكة . (٣) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا .

Marfat.com

خَوَاتًا من السماء — والخَـوَّات : حفيف جناح الطـير الضخم — فإذا هو بطائر أعظم من النّسر ، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين ؛ فغرز مخاليبه فى قفا الحيّة ، ثم آنطـلق بها تجرّ ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى آنطلق بها نحـو أجياد ؛ فهدمتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادى تحملها قريش على رقابها ، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا ، فبينا النبيّ صلى الله عليـه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه نَمِرة[(1)] فضاقت عليـه النَّمِرة فذهب يرفع النَّمِرة على عاتقـه ، فتُرَى عورته من صغر النمرة ؛ فنودى : يا محمد ، خَمِّر عَوْرَتك ؛ فلم يُرَ عُـرْيانًا بعدُ . وكان بين بنيان الكعبة و بين ما أنزل عليـه خمس سنين ، وبين مخرجه و بنائها خمس عشرة سـنة . ذكره عبد الرزاق عن معمر عن عبـد الله بن عثمان عن أبى الطفيـل . وذكر عن معمر عن الزهرى : حتى إذا بنوها و بلغوا موضـع الركن آختصمت قريش فى الركن ، أىّ القبائل تلى رفعه ؟ حتى شَجَر بينهـم ؛ فقالوا : تعـالَوْا نحكّم أوّل من يطلع علينا من هـذه السكّة ؛ فاصطلحوا على ذلك ؛ فأطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وِشاح نَمِرة ؛ فحكّموه فأمر بالركن فوُضع فى ثوب ، ثم أمر سـيّد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثـوب ، ثم آرتقى هو فرفعوا إليه الركن ؛ فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم .

قال آبن إسحاق : وحُدِّثت أن قريشا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو ، حتى قـرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيـه : « أنا الله ذو بَكّة خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها[(2)] ، مباركٌ لأهلها فى المـاء واللبن » . وعن أبى جعفر محمـد بن علىّ قال : كان باب الكعبة على عهـد العماليق وجُرْهُم و إبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنته قريش . خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجَدْر[(3)] أمن البيت هو ؟ قال : "نعم" قلت : فلم لم يدخلوه [فى البيت][(4)] ؟ قال : "إنّ قومك قصّرتْ بهم النفقة". قلت :

(١) النمرة : كل شملة مخططة من مآزر العرب . (٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس ، والأحمر . (٣) الجدر : (بفتح الجيم وإسكان الدال) : حجر الكعبة (بكسر الحاء) .

(٤) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : " فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم فى الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرتُ أن أُدخل الجَدْر فى البيت وأن أُلزِق بابه بالأرض " . وخرّج عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : حدّثتنى خالتى (يعنى عائشة) رضى الله عنها قالت قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لولا أن قومك حديثُو عَهْدٍ بِشِرْك لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلتُ لها بابين بابا شرقيًّا وبابًا غربيًّا وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة " . وعن عروة عن [أبيه عن] [1] عائشة قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا حداثة [عهد] [1] قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإنّ قريشا حين بنت الكعبة استقصرتْ ولجعلتُ لها خَلْفًا " . وفى البخارى قال هشام بن عروة : يعنى بابًا . وفى البخارى أيضا : " لجعلت لها خَلْفين " يعنى بابين؛ فهذا بناء قريش . ثم لما غزا أهل الشام عبدَ الله بن الزبير ووَهَت الكعبة من حريقهم، هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر ، حتى أبدى أسًّا نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا ، فلما زاد فيه استقصره ، فزاد فى طوله عشرة أذرع، وجعل لها بابين أحدهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه؛ كذا فى صحيح مسلم، وألفاظ الحديث تختلف . وذكر سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال : لما أراد ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويَبْنِيَه [2] قال للناس : اهدموا ؛ قال : فأبَوْا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا إلى مِنًى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب . قال : وارتقى ابن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه؛ فلما رأوا أنه لم يصبه شىء اجترءوا على ذلك ؛ قال : فهدموا . فلما بناها جعل لها بابين : بابًا يدخلون منه، وبابًا يخرجون منه، وزاد فيه مما يلى الحِجْر ستة أذرع، وزاد فى طولها تسعة أذرع . قال مسلم فى حديثه : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك ابن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أُسّ نظر إليه العدول من أهل

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) كذا فى نسخ الأصل . ولعل تذكير الضمير على معنى البيت .

Marfat.com

مكة؛ فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ آبن الزبير في شيء[(١)]؛ أما ما زاد في طوله فأقِرّه، وأما ما زاد فيه من الحِجر فردّه إلى بنائه، وسُدَّ الباب الذي فتحه؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه . في رواية : قال عبد الملك : ما كنت أظن أبا خُبيب (يعني آبن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها؛ قال الحارث بن عبد الله : بلى، أنا سمعته منها؛ قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قومك آستقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدتُ ما تركوا منه[(٢)] فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلُمِّي لأُرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع " . في أخرى : قال عبد الملك : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى آبن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار .

ورُوِى أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يردّه على بناء آبن الزبير لما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وآمتثله آبن الزبير؛ فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، ألّا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه؛ فتذهب هيبته من صدور الناس . وذكر الواقدي : حدّثنا معمر عن همام بن منبه سمع أبا هريرة يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ أسعد الحميري، وهو تُبّع، وهو أوّل من كسا البيت، وهو تُبّع الآخر . قال آبن إسحاق : كانت تُكْسَى القباطيّ[(٣)] ثم كسيت البُرُد، وأوّل من كساها الديباج الحجاج .

قال العلماء : ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء، فإنه مهدًى إليها، ولا ينقص منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طِيب الكعبة يستشفى به؛ وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قفدها قفدة[(٤)] لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء : كان أحدنا إذا أراد أن يستشفى به جاء بطِيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

---

(١) قوله : إنا لسنا ... الخ، قال النووى : «يريد بذلك سبه وعيب فعله؛ يقال : لطخته أى رميته بأمر قبيح» .

(٢) كان في صحيح مسلم . وفي نسخ الأصل : « تمامه » .

(٣) القباطيّ (جمع القبطية بضم القاف) : ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس . (٤) القفد (بفتح فسكون) : صفع الرأس ببسط الكف من قبل القفا .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ المعنى : ويقولان «رَبَّنَـا» ؛ فحذف . وكذلك هى فى قراءة أُبىّ وعبـد الله بن مسعود : «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَـوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـاعِيلُ ويقولان رَبَّنَا تقبلْ مِنَّا» .

وتفسير إسماعيل : اسمع يا الله؛ لأن «إيل» بالسّريانية هو الله؛ وقد تقدّم[1] . فقيل : إن إبراهيم لمـا دعا ربّه قال : اسمـع يا إيل؛ فلما أجابه ربّه ورزقه الولد سمّاه بمـا دعاه . ذكره المـاوَرْدِىّ .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما فى الكتاب «الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» .

قوله تعـالى : رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّـةً مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَـا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِـيمُ ﴿١٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أى صيّرنا، و«مسلمين» مفعول ثان؛ سألا التثبيت والدوام . والإسلام فى هـذا الموضع : الإيمـان والأعمال جميعا؛ ومنه قوله تعـالى : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْـلَامُ»[2] ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمـان والإسلام شىء واحد، وعضدوا هـذا بقوله تعالى فى الآية الأخرى : «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَـا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَـا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[3] . وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابى «مسلِمِين» على الجمع .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّـةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ أى ومن ذرّيتنـا فاجعل ؛ فيقال : إنه لم يدع نبىّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسـه ولأمته ولهذه الأمة . و«مِن» فى قوله : «ومن ذُرِّيَّتِنَا» للتبعيض؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى : أنه أراد بقوله «ومنْ ذُرِّيَّتِنَـا» العرب خاصة[4] . قال السهيلى : وذريتهما

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٤٨

(٤) اضطربت الأصـول فى ذكر كلام السهيلى ؛ وقد ذكر الطبرى فى تاريخه خبر أولاد إسماعيل (ص ٣٥١ قسم أول) ، وابن الأثير (جـ ١ ص ٨٨) وابن هشام فى سيرته (ص ٤) طبع أوربا ؛ فيراجع .

Marfat.com

العرب؛ لأنهم بنو نَبْت بن إسماعيل ، أو بنو تيمن بن إسماعيل . ويقال : قَيْذَر بن نبت بن إسماعيل . أما العدنانية فمن نبت ، وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل ، أو تيمن على أحد القولين . قال ٱبن عطية : وهذا ضعيف ؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم . والأمّة : الجماعة هنا ، وتكون واحدا إذا كان يُقتدى به في الخير ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ»(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نُفَيل : "يُبعث أمّةً وحده" لأنه لم يشرك في دينه غيره ، والله أعلم . وقد يطلق لفظ الأمّة على غير هذا المعنى ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ »(٢) أي على دين ومِلّة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»(٣) . وقد تكون بمعنى الحين والزمان ؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ »(٤) أي بعد حين وزمان . ويقال : هذه أُمّة زيد ؛ أي أُمّ زيد . والأمّة أيضا : القامة ؛ يقال : فلان حسن الأمّة ؛ أي حسن القامة ؛ قال(٥) :

وإنّ معاويةَ الأكْرَمِيـ * ـن حسانُ الوجوه طِوالُ الأُمَمْ

وقيل : الأمّة الشجة التي تبلغ أمّ الدماغ ؛ يقال : رجل مأموم وأميم .

قوله تعالى : ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ « أرنا » من رؤية البصر ، فتتعدّى إلى مفعولين ، وقيل : من رؤية القلب ؛ ويلزم قائله أن يتعدّى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل . قال ٱبن عطية : وينفصل(٦) بأنه يوجد معدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين [كغير المعدّى(٧)] ، قال حُطائط ٱبن يعفر أخو الأسود بن يَعْفُر :

أَرِينِي جوادًا مات هزلًا لأنني(٨) * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلًا مُخَلَّدَا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وٱبن كثير وٱبن مُحَيْصِن والسُّدّي ورَوْح عن يعقوب ورُوَيْس والسُّوسي « أرْنا » بسكون الراء في القرآن ، وٱختاره أبو حاتم . وقرأ أبو عمرو بٱختلاس كسرة

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩٧	(٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤	(٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٨

(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٠١	(٥) القائل هو الأعشى ؛ كما في اللسان .	(٦) قال أبو حيان في البحر : «وقوله : ينفصل ... الخ . يعني أنه قد استعمل في اللسان العربي متعدّيا إلى اثنين ومعه همزة النقل كما استعمل متعديا إلى اثنين بغير الهمزة» .	(٧) زيادة عن ابن عطية .	(٨) ويروى « لعلي » ؛ ولأن بمعنى لعل .

Marfat.com

الراء ، والباقون بكسرها ، وآختاره أبو عبيد . وأصله أَرْئِنَا بالهمز ؛ فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها و بقيت الراء ساكنة على حالها ؛ وآستدلّ بقول الشاعر :

أَرْنا إداوة عبـــد الله نملـــؤها * من ماء زمزم إن القوم قد ظَمِئوا

ومن كسر فإنه نقــل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء ؛ وأبو عمرو طلب الخفّـة . وعن شُجاع ابن أبى نصر(١) وكان أمينا صادقا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فذاكره أشياء من حروف أبى عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين : هذا ، والآخر « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا » مهمـــوزا .

قوله تعـالى : ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ يقال : إن أصل النُّسك فى اللغة الغسل ؛ يقال منه : نسك ثو به إذا غسله . وهو فى الشرع آسم للعبادة ؛ يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا .

وآختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا ؛ فقيل : مناسك الحج ومعالمه ؛ قاله قتادة والسُّدى . وقال مجاهد وعطاء وآبن جُريج : المناسك المذابح ؛ أى مواضع الذبح . وقيل : جميع المتعبَّدات . وكل ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك . والناسك : العابد . قال النحاس : يقال نَسَك يَنْسُك ، فكان يجب أن يقال على هذا : مَنْسُك ، إلا أنه ليس فى كلام العرب مَفْعُل . وعن زهير بن محمد قال : لمـا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أىْ ربّ ، قـد فرغتُ فأرنا مناسكنا ؛ فبعث الله تعـالى إليه جبريل فحجّ به ، حتى إذا رجع من عَرَفة وجاء يوم النَّحر عَرَض له إبليس ، فقال له : أحصبه ، فحَصَبه بسبع حَصَيات ، ثم الغـد ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثَبِيرًا(٢) فقال : يا عباد الله ، أجيبوا ؛ فسمع دعوته مَنْ بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذَرّة من إيمان ، فقال : لَبَّيْكَ ، اللّهُمّ لَبَّيْكَ ؛ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا ، لولا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها . وأوّل من أجابه أهـل اليمن . وعن أبى مِجْلَز قال : لمـا فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف

(١) فى أ ، ب ، ز : « أبى نصرة » . وفى جـ ، ح : « أبى بصرة » . والتصويب عن طبقات القراء وتهذيب التهذيب .

(٢) ثبير : جبل بين مكة ومنى وهو على يمين الذاهب إلى مكة .

Marfat.com

بالبيت — قال : وأحسبه قال : والصَّفَا والمَرْوَة — ثم ٱنطلقا إلى العقبة فعرض لهما الشيطان؛ فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات ، فرمَى وكَبّر ، وقال لإبراهيم : ارم وكَبّر؛ فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم ٱنطلقا إلى الجَمْرة الوسطى ، فعرض لهما الشيطان؛ فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات ، وقال : ارم وكَبّر؛ فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتيا الجمرة القُصْوَى فعرض لهما الشيطان ؛ فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات وقال : ارم وكَبّر؛ فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتى به جمعًا(١) فقال : هاهنا يجمع الناس الصلوات . ثم أتى با عَرَفات فقال : عَرَفْتَ ؟ فقال نعم ؛ فمن ثَمَّ سُمّيَ عرفات . وروى أنه قال له : عَرَفْتَ ، عرفتَ ، عرفتَ ؟ أي مِنًى والجَمْع وهذا ؛ فقال نعم ؛ فسُمّيَ ذلك المكان عرفات . وعن خُصَيْف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدّثه قال : لما قال إبراهيم عليه السلام : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» أي الصَّفَا والمَرْوَة ، وهما من شعائر الله بنصّ القرآن؛ ثم خرج به جبريل ، فلما مرّ بجمرة العَقَبة إذا إبليس عليها ، فقال له جبريل : كَبّر وٱرْمه ؛ فٱرتفع إبليس إلى الوسطى ، فقال جبريل : كَبّر وٱرْمه؛ ثم في الجمرة القُصْوَى كذلك . ثم ٱنطلق به إلى المَشْعر الحرام ، ثم أتى به عَرفة فقال له : هل عَرفتَ ما أريتك ؟ قال نعم؛ فسُمّيتْ عرفات لذلك فيما قيل؛ قال : فأذّنْ في الناس بالحج؛ قال : كيف أقول؟ قال قل : يأيها الناس ، أجيبوا ربّكم ، ثلاث مرار ، ففعل؛ فقالوا : لبّيْكَ ، اللّهُمّ لبّيْكَ . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاج . وفي رواية أخرى : أنه حين نادى ٱستدار فدعا في كل وجه ، فلبّى الناس من كل مشرق ومغرب ، وتطأطأت الجبال حتى بَعُد صوته . وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال له : طُفْ به سبعًا ؛ فطاف به سبعًا هو وإسماعيل عليهما السلام ، يستلمان الأركان كلها في كل طواف؛ فلما أكملا سبعًا صلّيا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفَا والمَرْوَة ومِنًى والمُزْدَلِفة . قال :

(١) جمع (بفتح فسكون) . المزدلفة .

Marfat.com

فلمـا دخل مِنًى وهبط من العَقَبة تمثّل له إبليس ... ؛ فذكر نحو ماتقدّم . قال آبن إسحاق : وبلغنى أن آدم عليـه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام . وقال : حجّ إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيم عليه السلام يحجّه كل سـنة على البراق؛ وحجّته بعـد ذلك الأنبياء والأمم . وروى محمـد بن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أُمّته لحق مكة فتعبّد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحِجـر " . وذكر آبن وهب أن شُعَيْبًا مات بمكة هو ومن معـه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى مكة بين دار النَّدْوَة و بين بنى سَهْم . وقال آبن عباس : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام؛ فقبر إسماعيل فى الحِجْر، وقبر شعيب مقابل الحَجَر الأسود . وقال عبد الله بن ضمرة السّلولى : مابين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّـا جاءوا حجاجًا فقُبِروا هنالك، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعـالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ آختلف فى معنى قول إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام : « وَتُبْ عَلَيْنَا » وهم أنبياء معصومون؛ فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت : وهذا حسن ، وأحسن منه أنهما لمـا عرفا المناسك و بنيا البيت أرادا أن يبيّنا للناس و يعرّفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التوبة . وقيل : المعنى وَتُبْ على الظلمة منّا . وقد مضى الكلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام (١) فى قصة آدم عليه السلام، وتقدّم القول فى معنى قوله (٢) : « إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » فأغنى عن إعادته .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(١) يراجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية . (٢) يراجع جـ ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة أُبَيّ « وَٱبْعَثْ فِي آخِرِهِمْ رَسُولًا مِنهم » . وقد روى خالد بن مَعْدان : أن نفرا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ؛ قال : " نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبُشْرَي عيسى " . و « رسـولًا » أى مرسَلًا ؛ وهو فعـول من الرسالة . قال ٱبن الأنبارى : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقةٌ مِرْسالٌ ورَسْلَة ؛ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النُّوق . ويقال للجماعة المهملة المرسَلة : رَسَلٌ ، وجمـه أرسال . ويقال : جاء القوم أرسالا ، أى بعضهم فى أثر بعض ؛ ومنه يقال للبن رِسْلٌ ؛ لأنه يرسل من الضرع .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ « الكتاب » : القرآن . و « الحكمة » : المعرفة بالدِّين ، والفقه فى التأويل ، والفهم الذى هو سجيّة ونور من الله تعالى؛ قاله مالك، ورواه عنه ٱبن وهب ، وقاله ٱبن زيد . وقال قتـادة : « الحكمة » السُّنة وبيان الشرائع . وقيـل : الحُكْم والقضاء خاصّـةً ؛ والمعنى متقارب . ونُسب التعليم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأمور التى ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بمـا يلقيه الله إليه من وَحْيه . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى يطهّرهم من وَضَر الشرك(١)؛ عن ٱبن جُريج وغيره. والزكاة: التطهير، وقد تقدّم(٢) . وقيل : إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ . والكتاب معانى الألفاظ . والحكمة الحُكْم ؛ وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيّد، ومفسّر ومُجْمَـل ، وعموم وخصوص، وهو معنى ما تقدّم، والله تعالى أعلم . ﴿ وَٱلْعَزِيزُ ﴾ معناه المنيع الذى لا ينال ولا يغالب. وقال ٱبن كَيْسان: معناه الذى لا يُعجزه شيء؛ دليله : «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ»(٣). الكسائى: «العزيزُ» الغالب؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ»(٤) . وفى المَثَل : « مَن عَزَّ بَزَّ » أى من غَلب سَلب . وقيل : « العزيز » الذى لا مِثْل له ؛ بيانه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(٥) . وقد زدنا هذا المعنى بيانًا فى ٱسمه العزيز فى كتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وقد تقدم معنى « الحكيم »(٦) والحمد لله .

(١) الوضر : الوسخ . (٢) يراجع جـ ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٦١
(٤) راجع جـ ١٥ ص ١٧٤ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٨ (٦) راجع المسألة الثالثة جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ « مَن » استفهام فى موضع رفع بالابتداء ، و « يَرْغَبُ » صلة « مَن » . « إلا مَنْ سَفِه نَفْسَه » فى موضع الخبر . وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ؛ أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها؛ أى عن المِلّة وهى الدّين والشّرع . « إلا مَن سَفِه نَفْسَه » قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، رَغِبُوا عن مِلّة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية بِدْعةً ليست من الله تعالى . قال الزجاج : « سَفِه » بمعنى جهل ؛ أى جَهِل أمر نفسه فلم يفكّر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن « سفِه » بكسر الفاء يتعدّى كسَفَّه بفتح الفاء وشدّها . وحكى عن أبى الخطاب و يونس أنها لغة . وقال الأخفش : « سَفِه نَفْسَه » أى فعل بها من السَّفه ما صار به سفيهاً . وعنه أيضا هى لغة بمعنى سفّه ؛ حكاه المهدوِىّ . والأول ذكره الماوَرْدِىّ . فأمّا سَفُه بضم الفاء فلا يتعدّى ؛ قاله المبرد وثعلب . وحكى الكسائى عن الأخفش أن المعنى جَهِل فى نفسه ، فحذفت « فى » فانتصب . قال الأخفش : ومثله « عُقْدَةَ النِّكاح »[(1)] ؛ أى على عقدة النكاح . وهذا يجرى على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضُرِب فلان الظّهرَ والبطنَ ؛ أى فى الظهر والبطن . الفرّاء : هو تمييز . قال ابن بحر : معناه جهل نفسه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء ؛ فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قلت : وهذا هو معنى قول الزجاج ؛ فيفكر فى نفسه من يَدَيْن يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تنبت له عند غناه عن الرضاع وحاجته إلى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صَفْوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها إلى الأطراف ، وأمعاء يرسُب إليها ثُفل الغذاء ويبرز من أسفل البدن ؛ فيستدلّ بهذا على أن له خالقا قادرا عليما حكيما ؛ وهذا معنى قوله تعالى :

(١) أى فى قوله تعالى : « ولا تعزموا عقدة النكاح » راجع جـ ٣ ص ١٩٢

Marfat.com

« وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . أشار إلى هذا الخطّابي رحمه الله تعالى . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « والذّاريات »(١) إن شاء الله تعالى .

وقد آستدلّ بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعةٌ لنـا إلا ما نُسخ منها؛ وهذا كقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ »(٢)، « أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »(٣) . وسيأتى بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ أى آخترناه للرسالة فجعلناه صافيـا من الأدناس . والأصـل فى « ٱصْطَفَيْنَاهُ » آصتفيناه ، أُبدلت التـاء طاء لتناسبها(٤) مع الصـاد فى الإطباق . واللفظ مشتق من الصَّفْوة ؛ ومعناه تخيّر الأصفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ الصالح فى الآخرة هو الفائز . ثم قيـل : كيف جاز تقديم « فِي ٱلْآخِرَةِ » وهو داخل فى الصّـلة؛ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين فى الآخرة ، فتكون الصلة قـد تقدّمت ؛ ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال: منها أن يكون المعنى و إنه صالح فى الآخرة، ثم حذف . وقيل: «فى الآخرة» متعلّق بمصدر محـذوف ؛ أى صلاحه فى الآخرة . والقول الثالث : أن « الصالحين » ليس بمعنى الذين صلحوا، ولكنه آسم قائم بنفسه؛ كما يقال الرجل والغلام .

قلت : وقول رابع أن المعنى و إنه فى عمل الآخرة لمن الصالحين؛ فالكلام على حذف مضاف . وقال الحسين بن الفضل: فى الكلام تقديم وتأخير، مجازه ولقد آصطفيناه فى الدنيا والآخرة و إنه لمن الصالحين . وروى حَجّاج بن حجاج — وهو حجاج الأسـود ، وهو أيضا حجاج الأحول المعروف بزِقّ العَسَل — قال: سمعت معاوية بن قُرّة يقول: اللّهُمّ إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، اللّهـمّ كما أصلحتهم فأصلحنا، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فآرزقنا أن نعمل بطاعتك، وآرض عنا .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٤٠
(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠١
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨
(٤) فى أ : « لتشابهها ... » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٣١)

العامل فى « إذ » قوله : « ٱصْطَفَيْنَٰهُ » أى آصطفيناه إذ قال له ربّه أسلم . وكان هذا القول من الله تعـالى حين آبتلاه بالكوكب والقمر والشمس . قال آبن كَيْسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتّوحيد . وقيل : آخضع وآخشع . وقال آبن عباس : إنمـا قال له ذلك حين خرج من السَّرَب(١)، على ما يأتى ذكره فى « الأنعـام »(٢) . والإسلام هنا على أتم وجوهه . والإسلام فى كلام العرب : الخضوع والآنقياد للستسلم . وليس كل إسلام إيمانا، وكل إيمان إسلام؛ لأن من آمن بالله فقد آستسلم وآنقاد لله . وليس كل من أسلم آمن بالله؛ لأنه قـد يتكلم فَزَعًا(٣) من السيف ، ولا يكون ذلك إيمـانا ؛ خلافا للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمـان؛ فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن؛ لقوله : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ(٤) » فدلّ على أن الإسلام هو الدّين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن. ودليلنا قوله تعـالى : « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا(٥) » الآية . فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ؛ فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمنًا ؛ وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وَقّاص لمـّا قال له : أعْطِ فلانا فإنه مؤمن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أوْ مسلم " الحديث ، خرّجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمـان ليس الإسلام، فإن الإيمـان باطن، والإسلام ظاهر، وهذا بيِّن . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام، والإسلام ويراد به الإيمـان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه ؛ كالإسـلام الذى هو ثمرة الإيمـان ودلالة على صحته ، فآعلمه . وبالله التوفيق .

قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٣٢)

---

(١) السرب (بالتحريك) : الحفير، و بيت تحت الأرض .

(٢) راجع ٧ ص ٢٤ (٣) فى جـ : « فرقا » .

(٤) راجع جـ ٤ ص ٤٣ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى بالملّة؛ وقيـل : بالكلمة التى هى قـوله : « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو أصوب؛ لأنه أقرب مذكور؛ أى قولوا أسلمنا . ووَصَّى وأَوْصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنًى؛ مثـل كَرّمنا وأكرمنا؛ وقرئ بهما . وفى مصحف عبد الله « ووَصَّى »، وفى مصحف عثمان « وأَوْصَى » وهى قراءة أهل المدينـة والشام . الباقون « ووَصّى » وفيه معنى التكثير . « وإبراهيمُ » رفع بفعله ، « ويعقوبُ » عطف عليه؛ وقيل : هو مقطوع مستأنف، والمعنى : وأوصى يعقوب وقال يا بنيّ إن الله ٱصطفى لكم الدين؛ فيكون إبراهيم قد وَصّى بنيه ، ثم وَصّى بعده يعقوبُ بنيه .

وبنو إبراهيم : إسماعيل ، وأمّه هاجَر القبطية ، وهو أكبر ولده؛ نقله إبراهيم إلى مكّة وهو رضيع . وقيل : كان له سنتان؛ وقيل : كان له أربع عشرة سـنة؛ والأوّل أصح؛ على ما يأتى فى سورة «إبراهيم» (١) بيانه إن شاء الله تعالى . ووُلد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة . وقيـل : مائة وثلاثون . وكان سِـنّه لـما مات أبوه إبراهيم عليهما السـلام تسعا وثمانين سـنة؛ وهو الذَّبيح فى قولٍ . وإسحاق أُمّه سارة ، وهو الذَّبيح فى قول آخر، وهو الأصح، على ما يأتى بيانه فى سورة « والصافات » (٢) إن شاء الله . ومن ولده الروم واليونان والأرمن ومن يجرى مجراهم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ومات بالأرض المقدّسة ودُفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام . ثم لـما تُوفّيت سارة تزوّج إبراهيم عليه السـلام قنطورا بنت يقطن الكنعانيّـة ، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ (٣)؛ ثم توفّى عليه السـلام . وكان بين وفاته وبين مولد النبيّ صلى الله عليه وسـلم نحو من ألفى سـنة وستمائة سنة؛ واليهـود ينقصون من ذلك نحوا من أربعمائة سنة . وسيأتى ذكر أولاد يعقوب فى سورة « يوسف » (٤) إن شاء الله تعـالى . وقرأ عمرو بن فائد ٱلأسوارى وإسماعيل بن عبـد الله المكى : « ويعقوبَ » بالنصب عطفًا على

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٣) كذا وردت هذه الأسماء فى نسخ الأصل . والذى فى كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبرى قسم أول ص ٣٤٥ طبع أوربا : « يقسان، وزمران، ومديان، ويسبق، وسوح، وبسر» . وفى تاريخ ابن الأثير جـ ١ ص ٨٧ طبع أوربا : « نفشان، ومران، ومديان، ومدن، ونشق، وسرح » . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٢٠

Marfat.com

« بنيه »، فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصى . قال القُشَيْرِى : وقُرِئ «يعقوبَ» بالنصب عطفًا على « بنيــه » وهو بعيد ؛ لأن يعقــوب لم يكن فيما بين أولاد إبراهيم لمّا وصّاهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جدّه إبراهيم ، و إنما وُلد بعد موت إبراهيم، وأن[1] يعقوب أوصى بنيه أيضًا كما فعل إبراهيم . وسيأتى تسمية أولاد يعقوب إن شاء الله تعالى .

قال الكلبي : لمـا دخل يعقوب إلى مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

و يقال : إنمـا سُمِّىَ يعقوب لأنه كان هو والعِيص تَوْأَمين ، فخرج من بطن أمه آخذًا بعقب أخيه العِيص . وفى ذلك نظر ؛ لأن هــذا ٱشتقاق عربىّ ، ويعقوب ٱسم أعجمى ، و إن كان قد وافق العربيــة فى التسمية به كذَكَرِ الحَجَــلِ[2] . عاش عليه السـلام مائة وسبعًا وأر بعين سنة ومات بمصر، وأوصى أن يُحمل إلى الأرض المقدّسة، ويُدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ معناه أنْ يا بنىّ ؛ وكذلك هو فى قراءة أُبَىّ وٱبن مسعود والضّحاك . قال الفرّاء : أُلغيتْ أنْ لأنّ التوصــية كالقول، وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول أنْ وجاز فيــه إلغاؤها . قال : وقــول النحويين إنما أراد « أن » فألغيت ليس بشىء . النحاس : « يا بَنِيّ » نداء مضاف ، وهذه ياء النفْس لا يجوز هنا إلا فتحها؛ لأنها لو سكنتْ لالتقى ساكنان، ومثـله « بِمُصْرِخِيّ[3] » . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ كُسرت « إنّ » لأن أوصى وقال واحد . وقيل : على إضمار القول . ﴿ ٱصْطَفَى ﴾ ٱختار . قال الراجز :

يا بن ملوك ورّثوا الأملاكا * خلافـــة الله التى أعطاكا
* لك ٱصطفاها ولهـا ٱصطفاكا *

﴿ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى الإسلام ؛ والألف واللام فى «الدِّين» للعهد؛ لأنهم قد كانوا عرفوه . ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودُوموا عليه ولا تفارقوه

---

(١) فى ا ، ب ، ز : «بل إن» . (٢) الحجل (بالتحريك) : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، و يسمى دجاج البر ، و يسمى الذكر منه يعقوب وجمعه يعاقب و يعاقيب . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥٧

Marfat.com

حتى تموتوا . فأتى بلفظ موجز يتضمّن المقصود، ويتضمّن وعظًا وتذكيرًا بالموت ؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى ؛ فإذا أُمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجّه الخطاب من وقت الأمر دائبًا لازمًا . و «لا» نهى «تَمُوتُنَّ» فى موضع جزم بالنهى، أُكِّد بالنون الثقيلة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين . «إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ابتداء وخبر فى موضع الحال؛ أى محسنون بربكم الظنّ، وقيل مخلصون، وقيل مفوّضون، وقيل مؤمنون.

قوله تعالى : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ «شهداء» خبر كان، ولم يُصرف لأن فيه ألف التأنيث؛ ودخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء . والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يُوصِ به بَنِيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية ؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدّعون عن علم ؛ أى لم تشهدوا، بل أنتم تفترون ! . و «أم» بمعنى بل؛ أى بل أشهد أسلافكم يعقوب . والعامل فى «إذ» الأولى معنى الشهادة، و «إذ» الثانية بدل من الأولى . و «شهداء» جمع شاهد أى حاضر . ومعنى «حَضَرَ يعقوبَ الموتُ» أى مقدّماته وأسبابه ؛ وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا . وعبّر عن المعبود بـ «ما» ولم يقل مَن ؛ لأنه أراد أن يختبرهم ؛ ولو قال «مَن» لكان مقصوده أن ينظر مَن لهم الاهتداء منهم ؛ وإنما أراد تجربتهم فقال «ما» . وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة ؛ فاستفهم عما يعبدون من هذه . ومعنى «مِنْ بَعْدِى» أى من بعد موتى . وحُكى أن يعقوب حين خُيّر كما تُخيَّر الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنىّ وأهلى ؛ فجمعهم وقال لهم هذا ؛ فاهتدوا وقالوا : «نَعْبُدُ إِلٰهَك» الآية . فأروه ثبوتهم على الدّين ومعرفتهم بالله تعالى .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق» فى موضع خفض على البدل ، ولم تنصرف لأنها أعجمية . قال الكسائى : وإن شئت صرفت «إسحاق» وجعلته من السُّحْق ، وصرفت « يعقوب» وجعلته من الطير. وسمّى الله كلّ واحد من العمّ والجدّ أبًا ، وبدأ بذكر الجدّ ثم إسماعيل العمّ لأنه أكبر من إسحاق . و « إلهًا » بدل من « إلهك » بدل النكرة من المعرفة ؛ وكرره لفائدة الصّفة بالوحدانية . وقيل : « إلهًا » حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانيـة . وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمُر والجَحْدَرِى وأبو رجاء العُطارِدى « وإلهَ أبيك » وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده ، وكره أن يجعل إسماعيل أبًا لأنه عم . قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمّى العمّ أبًا .

الثـانى — على مذهب سيبويه أن يكون « أبيـك » جمع سلامة ؛ حكى سيبويه أبٌ وأبُونَ وأبِين ؛ كما قال الشاعر :

* فقلنا أسلموا إنّا أخوكم (١) *

وقال آخر :

فلمـا تبيّنّ أصواتنـا * بكَيْنَ وفـدّيننا بالأبِينا (٢)

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتـداء وخبر ؛ ويحتمل أن يكون فى موضع الحال ، والعامل « نعبد » .

قوله تعـالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

---

(١) الشاهد فيـه « أخوكم » فإنه جمع بالواو والنون وحذفت النون للإضافة ليصح الإخبار به عن ضمير الجمع . وتمـام البيت : * فقد سلمت من الإحن الصدور *

وصف نساء سبين فوفد عليهن من قومهن من يفاديهن فبكين إليهم وفديتهم بآبائهن سرورا بوفودهم عليهن . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والعشرين بعد الثلثمائة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ « تلك » مبتدأ ، و « أُمَّةٌ » خبر ، « قَدْ خَلَتْ » نعت لأمة ، وإن شئت كانت خبر المبتدأ ، وتكون « أُمَّةٌ » بدلا من « تلك » . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ « ما » فى موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين . ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله ، يريد من خير وشر . وفى هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب ؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك ، إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعَدْله ؛ وهذا مذهب أهل السُّنة ؛ والآى فى القرآن بهذا المعنى كثيرة . فالعبد مكتسب لأفعاله ، على معنى أنه خُلقت له قدرة مقارنة للفعل ، يُدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا ؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف . وقالت الجَبْرِيّة بنفى اكتساب العبد ، وإنه كالنبات الذى تصرّفه الرياح . وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين ، وإن العبد يخلق أفعاله .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ؛ مثل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » أى لا تحمل حاملة ثقل أخرى ؛ وسيأتى (١) .

قوله تعـالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِـۧمَ حَنِيفًـا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ دعت كلّ فرقة إلى ما هى عليه ؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةَ ﴾ أى قل يا محمد : بل نتبع مِلّةَ ؛ فلهـذا نصب المِلّة . وقيـل : المعنى بل نهتدى بملّة إبراهيم ؛ فلما حذف حرف الجر صار منصوبا . وقرأ الأعرج وابن أبى عَبْلة : « بَلْ مِلَّةُ » بالرفع ؛ والتقدير بل الهدى مِلّةُ ، أو مِلّتنا دين إبراهيم . و « حَنِيفًا » مائلا عن الأديان المكروهة إلى الحـق دينِ إبراهيم ؛ وهو فى موضع نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . أى بل نتبع ملّة إبراهيم فى هـذه الحالة . وقال على بن سليمان : هو منصوب على أعنى ، والحال خطأ ، لا يجوز جاءنى غلام هند مسرعة . وسُمّى إبراهيم حنيفا لأنه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧

Marfat.com

حَنف إلى دين الله وهو الإسلام . والحَنَف : المَيْل ؛ ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورَجُل أَحنَف ، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأَحْنَف :

واللهِ لولا حَنَفٌ برِجْــلِه * ما كان فى فِتيانكم من مِثْـلِه

وقال الشاعر :

إذا حوّل الظّل العشىّ رأيتَه * حَنيفًا وفى قَرْن الضحى يَتنصّرُ

أى الحِرْباء تستقبل القِبْـلة بالعشىّ، والمَشْرق بالغداة، وهو قِبـلة النصارى . وقال قوم : الحَنَف الاستقامة؛ فسُمّىَ دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته . وسُمّىَ المِعْوَجّ الرِّجلين أحنف تفاؤلًا بالاستقامة؛ كما قيل للّديغ سليم، وللمهلكة مفازة؛ فى قول أكثرهم .

قوله تعـالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦)

قوله تعـالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ خرّج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقُولُوا آمنّا بالله وما أُنزل" الآية . وقال محمد بن سيرين : إذا قيل لك أنت مؤمن ؟ فقل : « آمنّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » الآية . وكره أكثر السلف أن يقـول الرجل : أنا مؤمن حقًّا؛ وسيأتى بيـانه فى « الأنفال »[(١)] إن شاء الله تعـالى . وسُئل بعض المتقدّمين عن رجل قيـل له : أتؤمن بفلان النبىّ؟ فسمّاه بآسم لم يعرفه؛ فلو قال نعم، فلعـلّه لم يكن نبيًّا، فقد شهد بالنبوّة لغير نبىّ، ولو قال لا، فلعلّه نبىّ ، فقد جحد نبيًّا من الأنبياء؛ فكيف يصنع ؟ فقال : ينبغى أن يقول : إن كان نبيًّا فقد آمنتُ به . والخطاب فى هذه الآية لهذه الأمة ، علّمهم الإيمـان . قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦٧

Marfat.com

فسألوه عمن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا مَن آمن به .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ جمع إبراهيم براهيم، وإسماعيل سماعيل؛ قاله الخليل وسيبويه، وقاله الكوفيون، وحكَوْا بَراهمة وسَماعِلة، وحكَوْا براهم وسماعِل . قال محمد بن يزيد : هذا غلط، لأن الهمزة ليس هذا موضع زيادتها، ولكن أقول : أباره وأسامـع ، ويجوز أباريه وأساميع . وأجاز أحمد بن يحيى بِراه، كما يقال فى التصغير بُرَيْه . وجمع إسحاق أساحيق، وحكى الكوفيون أساحقة وأساحق؛ وكذا يعقوب ويعاقيب، ويعاقبة ويعاقب. قال النحاس : فأما إسرائيل فلا نعلم أحدا يجيز حذف الهمزة من أوّله، وإنمـا يقال أساريل، وحكى الكوفيون أسارلة وأسارِل . والباب فى هذا كله أن يُجمَـع مسلما فيقال : إبراهيمون وإسحاقون ويعقوبون، والمسلم لا عمل فيه .

والأسباط : وَلَدُ يعقوب عليه السلام، وهم آثنا عشر ولدا، وُلِد لكل واحد منهم أُمّة من الناس؛ واحدهم سِبْط . والسِّبْط فى بنى إسرائيل بمنزلة القَبِيلة فى ولد إسماعيل . وسُمُّوا الأسباط من السَّبط وهو التتابع؛ فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر؛ أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطة . قال أبو إسحاق الزجاج : ويُبيِّن لك هذا ما حدّثنا به محمد بن جعفر الأنبارى قال حدّثنا أبو نُجَيد(1) الدّقاق قال حدّثنا الأسود بن عامر قال حدّثنا إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن آبن عباس قال : كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة : نوحًا وشعيبًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وإسماعيلَ ومحمدًا صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له آسمان إلا عيسى ويعقوب . والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وشَعر سَبْط وسَبِط : غير جَعْد . ﴿ لَا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُـمْ ﴾ قال الفرّاء : أى لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

(1) كذا فى ج وتفسير آبن كثير فى هذا الموضع . وفى سائر الأصول : «أبو مجيد» بالميم .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَـدِ ٱهْتَدَوْا ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته . المعنى : فإن آمنوا مثـل إيمانكم ، وصدّقوا مثل تصديقكم فقـد ٱهتدوْا ؛ فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل : إن الباء زائدة مؤكّدة [(١)] . وكان ٱبن عباس يقرأ فيما حكى الطبرى : « فإن آمنوا بالذى آمنتم بِهِ فقدِ ٱهتدوْا » ، وهذا هو معنى القراءة و إن خالف المصحف ، فـ « مثل » زائدة كما هى فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[(٢)] أى ليس كهو شىء . وقال الشاعر[(٣)] :

* فصُيِّروا مثل كعَصْف مأكول *

وروى بَقِيَّة حدّثنا شُعبة عن أبى حمزة عن ٱبن عبـاس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثـل ما آمنتم به فإن الله ليس له مثـل ، ولكن قولوا : بالذى آمنـتم به . تابعه علىّ بن نصر الجَهْضَمِىّ عن شعبة، ذكره البيهقى . والمعنى : أى فإن آمنوا بنبيّكم و بعامة الأنبياء ولم يفرّقوا بينهم كما لم تُفرّقوا فقد ٱهتدوْا ، و إن أَبَوْا إلا التفريق فهـم الناكبون عن الدين[(٤)] إلى الشقاق « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » . وحكى عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » زائدة . قال : والذى روى عن ٱبن عباس من نَهْيِه عن القراءة العـامّة شىء ذهب إليه للمبـالغة فى نفى التشبيه عن الله عز وجل . وقال ٱبن عطية : هـذا من ٱبن عباس على جهة التفسير؛ أى هكذا فليتأوّل . وقد قيل : إن الباء بمعنى على، والمعنى : فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : « مثل » على بابها أى بمثل المنزّل؛ دليله قوله : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ »[(٥)] ، وقوله : « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ »[(٦)] .

---

(١) هذه الجملة من تمام القول الأوّل وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨

(٣) هو حميد الأرقط ؛ وصف قوما أستؤصلوا فشبههم بالعصف الذى أكل حبه . والعصف التبن . (عن شرح الشواهد) . (٤) فى جـ : « عن التبيين » . وفى ب ، ز : « عن التدين » .

(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمـان ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم: الشقاق المنـازعة . وقيـل : الشقاق المجـادلة والمخالفة والتّعادي . وأصـله من الشّق وهو الجانب؛ فكأن كل واحد من الفريقين فى شِقّ غير شِقّ صاحبه . قال الشاعر :

إلى كم تقتـل العلماء قسرا * وتفجـر بالشقاق و بالنفاق (١)

وقال آخر :

و إلّا فاعلموا أنّا وأنتم * بُغـاةٌ ما بقينا فى شِـقاقِ

وقيل : إنّ الشقاق مأخوذ من فِعل ما يَشُقّ و يصعُب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرِص على ما يشقّ على صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى فسيكفى اللهُ رسولَه عدوَّه . فكان هذا وعدًا من الله تعالى لنبيّه عليه السلام أنه سيكفيه مَن عانده ومَن خالفه من المتولّين بمن يَهديه من المؤمنين، فأنجز له الوعد؛ وكان ذلك فى قتـل بنى قَيْنُقاع و بنى قُريظة و إجلاء بنى النَّضير . والكاف والهاء والميم فى موضع نصب مفعولان . ويجوز فى غير القرآن: فسيكفيك [إيّاهم] (٢). وهذا الحرف « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » هو الذى وقع عليه دمُ عثمان حين قُتل بإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بذلك . و﴿ السَّمِيعُ ﴾ لقول كل قائل ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يُنفذه فى عباده و يُجريه عليهم . وحكى أن أبا دُلامة دخل على المنصور وعليه قَلَنْسُوة طويلة ، ودُرّاعة (٣) مكتوب بين كتفيها « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ، وسيف معلّق فى وسطه؛ وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزّى ، فقال له : كيف حالك يا أبا دُلامة؟ قال : بِشَرٍّ يا أمير المؤمنين! قال : وكيف ذاك؟ قال : ما ظنّك برجل وجهه فى وسطه، وسيفه فى آسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره! فضحك المنصور منه، وأمر بتغيير ذلك الزىّ من وقته .

(١) فى أ : « ... يقتل ... و يفجر ... » بالياء .

(٢) زيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٣) الدُّرّاعة والمِدرع : جبة مشقوقة المقدم .

Marfat.com

قوله تعـالى : صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش وغيره: دين الله؛ وهو بدل من «ملّة». وقال الكسائى : وهى منصوبة على تقدير ٱتبعوا . أو على الإغراء أى ٱلزموا . ولو قُرئت بالرفع لجاز؛ أى هى صبغة الله . وروى شَيبان عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبناءهم يهودا، و إن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى؛ و إن صبغة الله الإسلامُ. قال الزجاج: و يدلّك على هذا أن «صِبْغَةَ» بدل من «مِلّة». وقال مجاهد: أى فطرة الله التى فطر الناس عليها. قال أبو إسحاق الزجاج : وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام ؛ لأن الفطرة ٱبتداء الخلق، وٱبتداء ما خُلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبى العالية وقتادة : الصّبغةُ الدّين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى المـاء، وهو الذى يسمُّونه المعمودِيّة ، و يقولون : هذا تطهير لهم . وقال ٱبن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا وُلد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يقال له ماء المعموديّة، فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكان الختان ؛ لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيًّا حقًّا؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : « صِبْغَةَ اللهِ » أى صبغة الله أحسن صِبغة وهى الإسلام ؛ فسُمّىَ الدِّين صبغة ٱستعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله وسِمَته على المتديّن ، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب . وقال بعض شعراء ملوك هَمْدان :

وكلّ أُناسٍ لهم صِبْغَةٌ * وصبغةُ هَمْدان خير الصِّبَغْ
صَبَغنا على ذاك أبناءَنا * فأكرِم بصبغتنا فى الصِّبَغْ

وقيل : إن الصّبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام ، بدلًا من معمودية النصارى؛ ذكره الماوردى .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبًا تعبُّدًا ، وهى المسألة :

Marfat.com

الثانيـــة ــ لأن معنى « صبغةَ الله » غُسل الله ؛ أى آغتسلوا عنـد إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السُّنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمَـامة بن أثَال حين أسلما . روى أبو حاتم البُسْتِىّ فى صحيح مسـنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ثُمَـامة الحنفى أُسِر(١) فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم يومًا فأسلم؛ فبعث به إلى حائط(٢) أبى طَلْحة فأمره أن يغتسل فآغتسل وصلّى ركعتين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حَسُنَ إسلامُ صاحبكم". وخرّج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بمـاء وسِدْر . ذكره النسائى وصحّحه أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القُرْبة إلى الله تعالى يقال لها صِبْغة ؛ حكاه آبن فارس فى المُجْمَل . وقال الجوهرى : « صبغة الله » دينه . وقيل : إن الصّبغة الختان ، آختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان فى المـاء ؛ قاله الفَرّاء . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ (١٣٩)

قال الحسن : كانت المحاجة أن قالوا : نحن أَوْلى بالله منكم ؛ لأنّا أبنـاء الله وأحباؤه . وقيـل : لتقدّم آبائنا وكتبنا، ولأنا لم نعبـد الأوثان . فمعنى الآية : قل لهم يا محمد، أى قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وآدّعوْا أنهم أوْلى بالله منكم لِقدم آبائهم وكتبهم : « أتحاجُّوننا » أى أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والربُّ واحد ، وكلٌّ مجازى بعمـله ؛ فأى تأثير(٣) لِقدم الدّين . ومعنى « فى الله » أى فى دينه والقُرْب منه والحظوة له . وقراءة الجماعة : « أتحاجُّوننا » . وجاز آجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين ؛ لأن الثانى كالمنفصل . وقرأ آبن مُحَيْصِن «أتحاجُّونَّا» بالإدغام لآجتماع المثلين. قال النحاس: وهذا

(١) ثمـامة الحنفى هو ثمامة بن أثال المتقدم . (٢) الحائط : البستان من النخل إذا كان عليه جدار .
(٣) كذا فى الأصول ، ولعل صوابه : « والحظوة عنده » .

Marfat.com

جائز إلا أنه مخالف للسّـواد . ويجوز « أتحاجُّونِ » بحذف النونـ الثانية ، كما قرأ نافع « فَبِمَ تُبَشِّرُونِ »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أى مخلصون العبادة ، وفيـه معنى التوبيخ ؛ أى ولم تُخلصوا أنتم فكيف تدّعون ما نحن أَوْلى به منكم ! . والإخلاص حقيقته تصفية الفعـل عن ملاحظة المخلوقين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعـالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكًا فهو لشريكى يأيهـا الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هـذا لله وللرَّحِم فإنها للرَّحِم وليس لله منها شىء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شىء " . رواه الضحاك بن قيس الفِهْرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره ؛ خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ . وقال رُوَيْم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليـه عِوَضًا فى الدارين ولا حظًّا من المَلَكين . وقال الجُنَيْد : الإخلاص سِرٌّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوًى فيميله . وذكر أبو القاسم القشيرى وغيره عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رَبّ العِزّة عن الإخلاص ما هو قال سِرٌّ من سِرِّى آستودعته قلب من أحببته من عبادى " .

قوله تعـالى : أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا(٢) . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص « تقولون » بالتاء وهى قراءة حسنة ؛ لأن الكلام متّسق ، كأنّ المعنى : أتحاجوننا فى الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ؛ فهى أم المتصلة ، وهى على قراءة من قرأ بالياء منقطعة ؛ فيكون

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٢) هذا القول بأن « أم » منقطعة .

Marfat.com

كلامين وتكون « أمْ » بمعنى بل . ﴿ هُودًا ﴾ خبر كان ، وخبر « إنّ » فى الجملة . ويجوز فى غير القرآن رفع « هودا » على خبر « إنّ » ، وتكون كان ملغاة ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ تقرير وتوبيخ فى ادّعائهم بأنهم كانوا هودا أو نصارى . فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم ؛ أي لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الاستفهام ، والمعنى : لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام . وقيل : ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله قتادة ، والأوّل أشبه بسياق الآية . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُدًى وأنه يجازيهم على أعمالهم . والغافل : الذى لا يفطُن للأمور إهمالًا منه ؛ مأخوذ من الأرض الغُفْل وهى التى لا عَلَم بها ولا أثر عمارة . وناقةٌ غُفْل : لا سِمَة بها . ورجل غُفْل : لم يجرّب الأمور . وقال الكسائى : أرض غُفْل لم تُمطر . غَفَلت عن الشيء غَفْلة وغُفولا ، وأغفلت الشيء : تركته على ذُكر منك .

قوله تعالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كرّرها لأنها تضمّنت معنى التهديد والتخويف ؛ أى إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحْرَى ؛ فوجب التأكيد ، فلذلك كرّرها .

قوله تعالى : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون فى تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ما ولّاهم . و«سيقول» بمعنى قال؛ جعل المستقبل

Marfat.com

موضع الماضى، دلالة على آستدامة ذلك وأنهم يستمرّون على ذلك القول . وخصّ بقوله : « مِنَ ٱلنَّاسِ » لأن السّفه يكون فى جمادات وحيوانات . والمراد من « السُّفهاء » جميع من قال « ما ولّاهم » . والسُّفهاء جمع ، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل؛ من قولهم : ثوبٌ سَفيه إذا كان خفيف النَّسْج، وقد تقدّم (١) . والنساء سفائه . وقال المؤرِّج : السَّفيه البهّات الكذاب المتعمِّد خلاف ما يعلم . قُطْرُب : الظلوم الجهول . والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة؛ قاله مجاهد . السُّدِّى : المنافقون . الزّجاج : كفار قريش لمّا أنكروا تحويل القِبْلة قالوا : قد آشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحيّر . وقال المنافقون : ما ولّاهم عن قبلتهم ! وآستهزءوا بالمسلمين . و« ولّاهم » يعنى عدلهم وصرفهم .

الثانيــة — روى الأئمة واللفظ لمالك عن آبن عمر قال : بينما الناس بقُباء (٢) فى صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فآستقبلوها ؛ وكانت وجوههم إلى الشام فآستداروا إلى الكعبة . وخرّج البُخارِىّ عن البَراء أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى إلى بيت المَقْدِس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قِبْلته قِبَل البيت ، وإنه صلّى أوّل صلاة صلّاها (٣) العصر وصلّى معه قوم ؛ فخرج رجل ممن كان صلّى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله، لقد صلّيت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة؛ فداروا كما هم قِبَل البيت . وكان الذى مات على القِبْلة قبل أن تُحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ » ؛ ففى هذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح . وقيل : نزل ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلِمَة وهو فى صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحوّل فى الصلاة؛ فسُمّىَ ذلك

(١) يراجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية . (٢) قباء (بالضم) : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى . (عن معجم ياقوت) .

(٣) رواية البخارى كما فى صحيحه : « وإنه صلى — أو صلاها — صلاة العصر ... » .

Marfat.com

المسجد مسجد القِبلَتَين . وذكر أبو الفرج أن عَبّاد بن نَهِيك كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه الصلاة . وذكر أبو عمر في التمهيد عن نُوَيْلة (١) بنت أسلم وكانت من المُبَايِعات ؛ قالت : كنا في صلاة الظهر فأقبل عَبّاد بن بشر بن قَيْظِيّ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آستقبل القِبلة — أو قال : البيت الحرام — فتحوّل الرجال مكان النساء ، وتحوّل النساء مكان الرجال . وقيل : إنّ الآية نزلت في غير صلاة ؛ وهو الأكثر . وكان أوّل صلاة إلى الكعبة العصر ؛ والله أعلم . وروى أنّ أوّل مَن صلّى إلى الكعبة حين صُرفت القِبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى ؛ وذلك أنه كان مجتازًا على المسجد فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس تحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » حتى فرغ من الآية ؛ فقلت لصاحبي : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّل مَن صلّى فتوارَيْنا نَعَماً (٢) فصلّيناهما ؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بالناس الظهر يومئذ . قال أبو عمر : ليس لأبي سعيد بن المُعَلَّى غير هذا الحديث ، وحديث : « كنت أصلّي » في فضل الفاتحة ، خرّجه البخاري ، وقد تقدّم (٣) .

الثالثة — وآختلف في وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة ؛ فقيل : حُوِّلت بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ؛ كما في البخاري . وخرّجه الدّارَقُطْنِيّ عن البَرَاء أيضا ، قال : صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المَقْدِس ، ثم علم الله هوَى نبيّه فنزلت : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » الآية . ففي هذه الرواية ستة عشر شهرا من غير شك . وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن تحويلها كان قبل غَزْوة بَدْرٍ بشهرين . قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك في رجب من سنة

(١) في كتاب الاستيعاب والقاموس : « نولة » بالنون ، وقال صاحب القاموس : « أو هي بجهينة » . وقد ذكرت في كتاب الإصابة مصغرة في حرفي التاء والنون ، وهي بالنون رواية إسحاق بن إدريس عن جعفر بن محمود ، وبالتاء رواية إبراهيم بن حمزة ؛ قال صاحب الإصابة : « وهي أوثق » . (٢) هذه الكلمة ساقطة من أ — والنعم — بفتحتين — : واحد الأنعام ، الإبل والشاء أو الإبل خاصة ؛ يذكر ويؤنث .

(٣) يراجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

آثنتين . وقال أبو حاتم البُسْتِيّ : صلّى المسلمون إلى بيت المَقْدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء، وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل، وأمره الله عز وجل بآستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

الرابعـــة — وآختلف العلماء أيضا فى كيفية آستقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال ؛ فقال الحسن : كان ذلك منـه عن رأى وآجتهاد، وقاله (١) عكرمة وأبو العالية . الثانى — أنه كان مخيّرا بينه وبين الكعبة ، فآختار القُـدْس طمعًا فى إيمـان اليهود وآستمالتهم؛ قاله الطبرى . وقال الزجاج : آمتحانًا للشركين لأنهم أَلِفُوا الكعبة . الثالث — وهو الذى عليـه الجمهور : آبن عباس وغيره، وجب عليه آستقباله بأمر الله تعالى ووَحْيِه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة ؛ وآستدلّوا بقوله تعـالى : « وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ » الآية .

الخامســـة — وآختلفوا أيضا حين فرضت عليه الصلاة أوّلا بمكة، هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة ، على قولين؛ فقالت طائفة : إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهرا ، ثم صرفه الله تعـالى إلى الكعبة؛ قاله آبن عباس . وقال آخرون : أوّل ما آفتُرِضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلى إليها طولَ مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل ؛ فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة . قال أبو عمر : وهـذا أصح القولين عندى . قال غيره : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا قدم المدينـة أراد أن يستألف اليهود فتوجه [إلى] قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم؛ فلما تبيّن عنادهم وأيِس منهم أحبّ أن يحوّل إلى الكعبة فكان ينظر إلى السماء، وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قِبلة إبراهيم؛ عن آبن عباس . وقيل : لأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام، وقيل : مخالفة لليهود؛ عن مجاهد . وروى عن أبى العالية

(١) فى الأصول : « وقال » .

Marfat.com

الرياحى أنه قال : كانت[1] مسجد صالح عليه السلام وقِبْلته إلى الكعبة ؛ قال : وكان موسى عليه السلام يصلّى إلى الصخرة نحو الكعبة ، وهى قِبْلة الأنبياء كلّهم ؛ صلوات الله عليهم أجمعين .

السادسة — فى هذه الآية دليل واضح على أن فى أحكام الله تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخًا ، وأجمعت عليه الأمة إلّا من شذّ ، كما تقدّم[2] . وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نُسخ من القرآن ، وأنها نُسخت مرتين ، على أحد القولين المذكورين فى المسألة قبلُ .

السابعة — ودلّت أيضا على جواز نسخ السُّنة بالقرآن ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ، وليس فى ذلك قرآن ، فلم يكن الحُكم إلا من جهة السُّنة ثم نسخ ذلك بالقرآن ؛ وعلى هذا يكون : « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى أنت عليها .

الثامنة — وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد ؛ وذلك أن ٱستقبال بيت المقدس كان مقطوعًا به من الشريعة عندهم ، ثم أن أهل قُبَاء لما أتاهم الآتى وأخبرهم أن القبلة قد حُوِّلت إلى المسجد الحرام قَبِلوا قوله وٱستداروا نحو الكعبة ؛ فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون .

وقد ٱختلفت العلماء فى جوازه عقلًا ووقوعه ؛ فقال أبو حاتم : والمختار جواز ذلك عقلًا لو تعبّد الشرع به ، ووقوعًا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قصّة قُبَاء ، وبدليل أنه كان عليه السلام يُنفذ آحاد الوُلاة إلى الأطراف وكانوا يبلّغون الناسخ والمنسوخ جميعا . ولكن ذلك ممنوع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يُرفع بخبر الواحد ، فلا ذاهب إلى تجويزه من السَّلف والخَلَف . ٱحتج من منع ذلك بأنه يُفضى إلى المحال وهو رفع المقطوع بالمظنون . وأما قصّة أهل قباء

(١) العبارة هنا غير واضحة . والذى فى تفسير الطبرى (ج ٢ ص ٢١ طبع بولاق) : « ... قال الربيع : إن يهوديا خاصم أبا العالية فقال : إن موسى عليه السلام كان يصلى إلى صخرة بيت المقدس ؛ فقال أبو العالية : كان يصلى عند الصخرة إلى البيت الحرام . قال قال : فبيني وبينك مسجد صالح فإنه نحته من الجبل ؛ قال أبو العالية : قد صليت فيه وقبلته إلى البيت الحرام ؛ قال الربيع : وأخبرنى أبو العالية أنه مر على مسجد ذى القرنين وقبلته إلى الكعبة » .

(٢) عند قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » ص ٦١ من هذا الجزء .

Marfat.com

وولاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فحمول على قرائن إفادة العلم إما نقلا وتحقيقا، و إما احتمالا وتقديرًا . وتتميم هذا سؤالا وجوابًا فى أصول الفقه .

التاســعة — وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأول، خلافًا لمن قال : إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأول أصح؛ لأن أهل قُبَاء لم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ فمـالوا نحو الكعبة . فالناسخ إذا حصل فى الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العـلم به ؛ لأن الناسخ خطاب ، ولا يكون خطابًا فى حق من لم يبلغه . وفائدة هذا الخلاف فى عبادات فُعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا ؛ وعليه تنبنى مسألة الوكيل فى تصرّفه بعـد عَزْل مُوَكّله أو موته وقبل علمـه بذلك على قولين . وكذلك المُقارِض(١) ، والحـاكم إذا مات من وَلّاه أو عُزِل . والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء يَنفذ فعـله ولا يردّ حكمه . قال القاضى عِيَاض : ولم يختلف المذهب فى أحكام من أعتق ولم يعـلم بعتقه أنها أحكام حُرّة فيما بينه وبين الناس، وأما بينـه وبين الله تعالى فجائزة . ولم يختلفـوا فى المُعْتَقة أنها لا تعيـد ما صلّت بعد عتقها وقبل علمها بغير ستر، و إنما اختلفوا فيمن يطرأ عليه مُوجِب يغيّر حكم عبادته وهو فيها، قياسًا على مسألة قباء؛ فمن صـلّى على حال ثم تغـيّرت به حاله تلك قبل أن يتمّ صـلاته إنه يُتمّها ولا يقطعها ويجزيه ما مضى . وكذلك كمن صلّى عُريانًا ثم وجد ثوبا فى الصلاة، أو ابتدأ صلاته صحيحا فمرض ، أو مريضًا فصحّ ، أو قاعدًا ثم قدر على القيام، أو أَمَة عتقت وهى فى الصلاة إنها تأخذ قناعها وتبنى .

قلت : وكمن دخل فى الصلاة بالتيمّم فطرأ عليه المـاء إنه لا يقطع، كما يقوله مالك والشافعى — رحمهما الله — وغيرهما . وقيل : يقطع؛ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى، وسيأتى .

العـاشرة — وفيها دليل على قبول خبر الواحد، وهو مُجْمَع عليه من السّلف معلوم بالتواتر من عادة النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى توجيهه وُلَاتَه ورسـله آحادًا للآفاق؛ ليعـلّموا الناس دينهم فيبلّغوهم سُنّة رسولهم صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى .

(١) القراض (بكسر القاف) عند المـالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية ؛ وهـو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المـال) المقارض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

Marfat.com

الحادية عشرة — وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بعد شيء وفي حال بعد حال، على حسب الحاجة إليه، حتى أكمل الله دينه؛ كما قال: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»(١).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أقامه حجة؛ أي له ملك المشارق والمغارب وما بينهما؛ فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم؛ والله تعالى أعلم. والصراط: الطريق. والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه؛ وقد تقدم(٢).

قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا؛ أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العدل؛ وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» قال: "عدلًا". قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي التنزيل: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ»(٣) أي أعدلهم وخيرهم. وقال زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ✱ إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

(١) راجع ج ٦ ص ٦١ (٢) ج ١ ص ١٤٧ (٣) ج ١٨ ص ٢٤٤

Marfat.com

اخـــر :

أنـتمُ أوسـطُ حىّ علمـوا * بصـغير الأمر أو إحدى الكُبَر

وقال آخر :

لا تـذهَبنّ فى الأمـور فَرَطـا * لا تسألَن إن سألتَ شَطَطا

* وكُن من النـاس جميعًا وَسَطا *

ووسط الوادى : خير موضع فيه وأكثره كَلَأً وماء . ولما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودا ؛ أى هـذه الأمة لم تَغلُ غُلوّ النصارى فى أنبيائهـم ، ولا قصّروا تقصـير اليهود فى أنبيائهـم . وفى الحديث : " خير الأمور أوسطها " . وفيـه عن علىّ رضى الله عنـه : « عليكم بالنَّمط الأوسط (١) ، فإليه ينزل العالى ، و إليه يرتفع النازل » . وفلان من أوسط قومه ، و إنه لواسطة قومه ، ووسط قومه ؛ أى من خيارهم وأهل الحسب منهم . وقد وَسُط وساطة وسِطَة ؛ وليس من الوسَـط الذى بين شيئين فى شىء . والوَسْط (بسكون السين) الظَّرف ؛ تقول : صلّيت وَسْط القوم . وجلست وَسَط الدار (بالتحريك) لأنه آسم . قال الجوهرى : وكل موضع صلَح فيه « بَيْن » فهو وَسْط ، و إن لم يصلح فيه « بين » فهو وَسَط بالتحريك ، وربمـا يسكَّن وليس بالوجه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا ﴾ نصب بلام كى ؛ أى لأن تكونوا . ﴿شُهَدَاءَ﴾ خبر كان . ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى المحشر للأنبيـاء على أممهم ؛ كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخُـدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لَبَّيك وسَعْدَيك يا ربّ فيقول هـل بلّغت فيقول نعم فيقال لأمّتـه هل بلّغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول مَن يشهد لك فيقول محمد وأمّته فيشهدون أنه قد بلّغ و يكون الرسـول عليكم شهيدًا فذلك قوله عز وجل وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... " . وذكر هذا الحديث مطوّلا آبن المبارك بمعناه ،

(١) فى اللسان والنهاية : « ... خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » والنمط : جماعة من الناس أمرهم واحد . وقيل : هو الطريقة .

Marfat.com

وفيه : "فتقـول تلك الأمم كيف يَشهد علينا مَن لم يُدركنا فيقـول لهم الربّ سـبحانه كيف تشهدون على مَن لم تُدركوا فيقـولون ربّنا بعثت إلينا رسـولًا وأنزلت إلينا عهـدك وكتابك وقصصتَ علينا أنهم قـد بلّغوا فشَهدنا بمـا عَهِدتَ إلينا فيقول الربّ صـدقوا فذلك قـوله عزّ وجلّ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا — والوَسَط العَـدْل — لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا". قال ٱبن أَنْعُم : فبلغني أنه يَشهد يومئذ أمّة محمد عليه السلام، إلّا مَن كان في قلبه حِنَة[1] على أخيه . وقالت طائفة : معنى الآية يَشهد بعضكم على بعض بعد الموت ؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مرّت به جنازة فأُثْنِيَ عليها خيرٌ فقال : "وَجَبَتْ وَجبتْ وَجبتْ" . ثم مُرّ عليـه بأخرى فأُثْنِيَ عليها شرٌّ فقال : "وَجَبَتْ وَجبت وَجبتْ" . فقال عمر : فِدًى لك أبي وأُمّي ! مُرّ بجنازة فأُثْنِيَ عليها خيرٌ فقلت : "وجبتْ وَجبتْ وَجبتْ" ومُرَّ بجنازة فأُثْنِيَ عليهـا شرٌّ فقلت : "وَجبتْ وَجبتْ وَجبتُ" ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "من أثنيتم عليه خيرًا وَجبتْ له الجنة ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار أنتم شُهداء الله في الأرض أنتم شُهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض" . أخرجه البخاري بمعناه . وفي بعض طُرُقه في غير الصحيحين وتلا : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » . وروَى أَبَان ولَيْث عن شَهْر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصّامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعْطِيَتْ أُمّتي ثلاثًا لم تُعْطَ إلّا الأنبياء كان الله إذا بَعث نبيًّـا قال له آدعُني أستجب لك وقال لهذه الأمة آدْعُوني أستجب لكم وكان الله إذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك في الدِّين من حَرَج وقال لهذه الأمة وما جعل عليكم في الدِّين من حَرَج وكان الله إذا بَعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هـذه الأمة شُهداء على الناس" . خرّجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » .

الثالثــة — قال علماؤنا : أنبأنا رَبّنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا بٱسم العدالة وتَوْلِيَة خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أوّلا مكانًا وإن كنا آخرًا زمانًا ؛ كما قال

(١) الحنة (بكسر الحاء) : العداوة ؛ وهي لغة قليلة في الإحنة .

Marfat.com

عليه السلام : "نحن الآخِرون الأوّلون". وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عَدْلًا (١) . وسيأتى بيان العدالة وحكمها فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحُكْم به؛ لأنهـم إذا كانوا عدولا شَهِدوا على الناس . فكلُّ عصرٍ شهيدٌ على مَن بعده؛ فقولُ الصحابة حجّةٌ وشاهدٌ على التابعين، وقولُ التابعين على مَن بعدَهم . وإذ جُعلت الأمة شهداء فقد وَجبَ قبول قولهم . ولا معنى لقول من قال : أريد به جميع الأمة ؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليـه إلى قيام الساعة . وبيان هذا فى كتب أصول الفقه .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيـدًا ﴾ قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة . وقيل : «عليكم» بمعنى لكم؛ أى يشهد لكم بالإيمان . وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ قيل: المراد بالقِبْلة هنا القِبلةُ الأولى؛ لقوله « كنت عليها » . وقيل : الثانيـة ؛ فتكون الكاف زائدة ، أى أنت الآن عليها ، كما تقدّم ، وكما قال : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » (٢) أى أنتم ، فى قول بعضهم ، وسيأتى .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِـعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : معنى « لنعلم » لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ » (٣) بمعنى ألم تعلم . وقيل : المعنى إلّا لتعلموا أننا نعلم؛ فإن المنافقين كانوا فى شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كَوْنها . وقيل : المعنى لنميّز أهل اليقين من أهل الشك؛ حكاه ابن فُورَك، وذكره الطبرى عن ابن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبىّ وأتباعه ، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه ، كما يقال : فعـل الأميرُ كذا ، وإنما فعـله أتباعه؛ ذكره المَهْدَوِىّ وهو جيّد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصًا وتفضيلًا ، كما كَنَى عن نفسه سبحانه فى قوله : "يابن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنِى" (٤)

(١) راجع ج ٣ ص ٣٨٣ (٢) راجع ج ٤ ص ١٧٠ (٣) راجع ج ٢٠ ص ٤٤

(٤) أضاف المرض إليـه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له . وفى الحـديث : "قال يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعـده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ..." . راجع صحيح مسلم « فضل عيادة المريض » .

Marfat.com

الحديث . والأوّل أظهر، وأن معناه علم المعاينة الذى يوجب الجزاء، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ، عَلِم ما يكون قبل أن يكون ، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلّق بالكل تعلّقًا واحدًا . وهكذا كل ما ورد فى الكتاب من هـذا المعنى من قوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ »(1) ، « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ »(2) وما أشبه . والآية جواب لقريش فى قولهم : « مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » وكانت قريش تألف الكعبة ، فأراد الله عزوجل أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسولَ ممن لا يتبعه . وقرأ الزهرى « إلا ليُعلم » فـ « مَن » فى موضع رفع على هذه القراءة ؛ لأنها آسم ما لم يُسَمّ فاعله . وعلى قراءة الجماعة فى موضع نصب على المفعول . ﴿ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ يعنى فيما أمر به من آستقبال الكعبة . ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ يعنى ممن يرتد عن دينه ؛ لأن القبلة لما حُوّلت آرتد من المسلمين قوم ونافق قوم ؛ ولهذا قال : « وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً » أى تحويلها ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة . والتقدير فى العربية : وإن كانت التحويلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ ذهب الفـراء إلى أنّ « إنْ » واللام بمعنى ما وإلّا ؛ والبصريون يقولون : هى إنّ الثقيلة خُفِّفت . وقال الأخفش : أى وإن كانت القِبْلة أو التحويلة أو التَّوْلية لكبيرة . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أى خلق الهُدى الذى هو الإيمـان فى قلوبهم ؛ كما قال تعالى : « أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ »(3) .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلّى إلى بيت المَقْدس ؛ كما ثبت فى البخارى(4) من حديث البراء بن عازب ، على ما تقدّم . وخرّج الترمذى عن آبن عباس قال : لما وُجّه النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله ، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يُصلّون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » الآية ، قال : هـذا حديث حسن صحيح . فسمّى الصلاة إيمـانًا لآشتمالها على نيّة وقول وعمل . وقال مالك : إنى لأذكر بهذه الآية قولَ المُرْجِئة : إن الصلاة ليست من الإيمان . وقال محمد بن إسحاق : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » أى

(1) راجع جـ ٤ ص ٢١٨ (2) راجع جـ ١٦ ص ٢٥٣ (3) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٨
(4) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

بالتوجه إلى القبلة وتصديقكم لنبيكم ؛ وعلى هذا معظم المسلمين والأصوليين . وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» قال : صلاتكم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أشدّ من الرحمة . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكثر من الرحمة ؛ والمعنى متقارب . وقد أتينا على لغته وأشعاره ومعانيه فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » فلْيُنظر هناك . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « لَرَؤُف » على وزن فَعُل ؛ وهى لغة بنى أسد؛ ومنه قول الوليد بن عُقبة :

وشرُّ الطالبين فلا تكنه * يقاتل عمه الرؤُف الرحيم

وحكى الكسائى أن لغة بنى أسد «لَرَأْف» ، على فَعْل . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « لَرُوف » مثقلا بغير همز ؛ وكذلك سهّل كل همزة فى كتاب الله تعالى ، ساكنة كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قال العلماء : هذه الآية مقدمة فى النزول على قوله تعالى : «سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ» . ومعنى « تَقَلُّبَ وَجْهِكَ» : تحوّل وجهك إلى السماء؛ قاله الطبرى . الزجاج : تقلّب عينيك فى النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب . وخصّ السماء بالذّكر إذ هى مختصة بتعظيم ما أضيف إليها و يعود منها كالمطر والرحمة والوحى . ومعنى « تَرْضَاهَا » تحبها . قال السُّدّى : كان إذا صلّى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يُؤمر به ، وكان يحبّ أن يصلّى الى قِبل الكعبة فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ » . وروى أبو إسحاق عن البراء قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ أن يُوجّه نحو الكعبة؛ فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ » . وقد تقدّم هذا المعنى والقول فيه، والحمد لله .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ ﴾ أَمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة ، ولا خلاف فى هذا . قيـل : حيال البيت كله ؛ عن ٱبن عباس . وقال ٱبن عمر : حيال المِيزاب من الكعبة؛ قاله ٱبن عطية . والمِيزاب : هو قِبلة المدينة وأهل الشام، وهناك قبلة أهل الأندلس .

قلت : قـد روى ٱبن جُريج عن عطاء عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " البيتُ قِبْلَةٌ لأهل المسجد والمسجدُ قِبلَةٌ لأهل الحَرَم والحَرَمُ قِبْلَةٌ لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى " .

الثانيـــة ــ : قوله تعالى: ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الشَّطْر له محامل : يكون الناحية والجهة ، كما فى هذه الآية ، وهو ظرف مكان؛ كما تقول : تلقاءه وجِهته . وٱنتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به] [(١)] ، وأيضا فإن الفعـل واقع فيه . وقال داود بن أبى هنـد : إن فى حرف ٱبن مسعود « فَوَلِّ وَجْهَكَ تِلقاءَ المسجدِ الحرام » . وقال الشاعر [(٢)] :

أقـول لأُمّ زِنْبـاعٍ أقِيمى * صُدورَ العِيس شَطْرَ بنى تَمِيمِ

وقال آخــر :

وقد أظلّكُمُ من شَطْرِ ثَغرِكمُ * هَوْلٌ له ظُلَـمٌ يغشاكُمُ قِطعا

وقال آخــر :

ألا مَنْ مُبْلِـغٌ عَمْرًا رسولًا * وما تُغنِى الرسالةُ شَطْرَ عمرو

وشَطْرُ الشىء : نِصفُه ؛ ومنه الحديث : " الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان " . و يكون من الأضداد، يقال : شَطَر إلى كذا إذا أقبل نحوه ، وشَطَر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنـه . فأمّا الشاطر من الرجال فلأنه قـد أخذ فى نحوٍ غير الاستواء ، وهو الذى أعيا أهلَه خُبْثًا ؛ وقد شَطَر وشَطُر (بالضم) شَطارةً فيهما . وسئل بعضهم عن الشاطر ، فقال : هـو من أخذ فى البعد عما نهى الله عنه .

(١) التكلة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) هو أبو زنباع الجذامى ؛ (عن اللسان) .

Marfat.com

الثـالثــة — لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قِبْلَةٌ فى كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فُرِض عليه آستقبالها ، وأنه إن ترك آستقبالها وهو معايِنٌ لها وعالمٌ بجهتها فلا صلاة له ، وعليه إعادة كلّ ما صلّى ؛ ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خَفِيتْ عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيمانًا وآحتسابًا ؛ فإنه يروى أنّ النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

الرابعــة — وآختلفوا هل فَرْض الغائب آستقبال العين أو الجهة ؛ فمنهم من قال بالأوّل . قال آبن العربى : وهو ضعيف ؛ لأنه تكليف لما لا يصلُ(١) إليه . ومنهم من قال بالجهة ؛ وهو الصحيح لثلاثة أوجه : الأوّل — أنه الممكن الذى يرتبط به التكليف . الثانى — أنه المأمور به فى القرآن ؛ لقوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ » يعنى من الأرض من شرق أو غرب « فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » . الثالث — أن العلماء آحتجّوا بالصفّ الطويل الذى يُعلم قطعًا أنه أضعاف عرض البيت .

الخامســة — فى هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه فى أن المصلّى حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثورىّ وأبو حنيفة والشافعىّ والحسن بن حَىّ : يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده . وقال شريك القاضى : ينظر فى القيام إلى موضع السجود، وفى الركوع إلى موضع قدميه، وفى السجود إلى موضع أنفه، وفى القعود إلى حِجره . قال آبن العربى : إنما ينظر أمامه فإنه إن حَنَى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه فى الرأس وهو أشرف الأعضاء ، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقّة عظيمة وحَرَج ، وما جعل علينا فى الدِّين من حَرَج ؛ أما إنّ ذلك أفضل لمن قدر عليه .

(١) كذا فى كتاب الأحكام لابن العربى . وفى الأصول : « ما لا يوصل إليه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعـنى تحويل القِبلة من بيت المَقْدس . فإن قيل : كيف يعلمـون ذلك وليس من دينهم ولا فى كتابهم ؟ قيل عنه جوابان : أحدهما — أنهم لمـا علموا من كتابهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحقّ ولا يأمر إلا به . الثانى — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم ؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعـالى : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [1] تقـدّم معناه . وقـرأ ٱبن عامر وحمزة والكسائى « تعملون » بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الوجهين فهـو إعلام بأن الله تعالى لا يُهمل [2] أعمال العباد ولا يَغْفُل عنها ، وضمنه الوعيـد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنهم كفروا وقـد تبيّن لهم الحق ، وليس تنفعهم الآيات ؛ أى العـلامات . وجمع قِبْـلة فى التكسير : قِبَلٌ . وفى التسليم : قِبِلَاتٌ . ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة ، فتقول قِبَلات . ويجوز أن تحذف الكسرة وتسكن الباء فتقول قِبْلات . وأُجيبت «لئن» بجواب « لو » وهى ضدّها فى أنّ « لو » تَطلب فى جوابها المضيّ والوقوع ، و « لئن » تطلب الآستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجيبت بجواب « لو » لأن المعنى : ولو أتيت . وكذلك تُجاب « لو » بجواب « لئن » ، تقول : لو أحسنت أحسن إليك ؛ ومثله قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا » [3] أى ولو أرسلنا ريحا . وخالفهما سيبويه فقال : إن معـنى « لئن » مخالف

(١) راجع ج ١ ص ٤٦٦	(٢) فى ب : « بأن الله تعالى يعلم أعمال ... » .
(٣) راجع ج ١٤ ص ٤٥

Marfat.com

لمعـنى « لو » فلا يدخل واحد منهما على الآخر؛ فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلتك . قال سيبويه : ومعنى « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا » ليظلّن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لفـظ خبر ويتضمّن الأمر؛ أى فلا تركن الى شيء من ذلك . ثم أخبر تعالى أن اليهود ليست متّبعة قبلة النصارى ولا النصارى متّبعة قبلة اليهود ؛ عن السُّدّى وآبن زيد . فهذا إعلام بآختلافهم وتدابرهم وضـلالهم . وقال قوم : المعنى وما من آتبعك ممن أسلم منهم بمتّبع قبلةَ مَن لم يُسلم ، ولا من لم يُسلم قبلةَ من أسـلم . والأوّل أظهر ، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمراد أمّته ممن يجوز أن يتّبع هواه فيصير بآتباعه ظالمـًا، وليس يجوز أن يفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالمـًا ؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبيّ صلى الله عليه وسـلم وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه ، وخُوطب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم تعظيمًا للأمر ولأنه المنزل عليه . والأهـواء : جمع هوًى ، وقد تقـدّم (١) ؛ وكذا « مِنَ الْعِلْمِ » تقدّم أيضا (٢) ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع بالابتداء والخبر « يعرفونه » . ويصح أن يكون فى موضع خفض على الصفة لـ « لظالمين » ، و « يَعْرِفُونَ » فى موضع الحال؛ أى يعرفون نبوّته وصدق رسالته؛ والضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل : « يعرفون » تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق ؛ قاله آبن عباس وآبن جريج والربيـع وقتادة أيضا .

(١) راجع ص ٩٤ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

وخص الأبناء فى المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمرّ عليـه من زمنه بُرْهة لا يعرف فيها نفسـه ، ولا يمرّ عليـه وقت لا يعرف فيه ٱبنه . ورُوِيَ أن عمـر قال لعبد الله بن سَلَام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ٱبنك؟ فقال : نعم وأكثر، بعث الله أَمينه فى سمائه إلى أَمينه فى أرضه بنعته فعرفتُه ، وٱبنى لا أدرى ما كان من أُمّه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصيف . وقيل : استقبال الكعبة ، على ما ذكرنا آنفا .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر فى صحة الكفر عنادًا ؛ ومثله : « وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ »[(١)] وقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

قوله تعـالى : ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى ٱستقبال الكعبة ، لا ما أخبرك به اليهـود من قِبلتهم . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قرأ « الحقَّ » منصوبًا بـ«يعلمون» أى يعلمون الحق . ويصح نصبه على تقدير ٱلزم الحق . والرفعُ على الابتداء أو على إضمار مبتدأ، والتقدير هو الحق ، أو على إضمار فعل ، أى جاءك الحق . قال النحاس : فأمّا الذى فى « الأنبياء » « الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ »[(٢)] فلا نعلم أحدًا قرأه إلا منصوبًا ؛ والفرق بينهما أن الذى فى سورة « البقرة » مبتدأ آية[(٣)]، والذى فى الأنبياء ليس كذلك .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكين . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أُمّته . يقال : ٱمْتَرَى فلان [فى] كذا إذا ٱعترضه اليقين مَرّةً والشكّ أخرى فدافع إحداهما بالأخرى ؛ ومنه المِراء لأنّ كل واحد منهما يشكّ فى قول صاحبه . والامتراء فى الشيء الشك فيه ، وكذا التمـارى . وأنشد الطبرىّ شاهدًا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تَـدُرّ على أَسْـؤُق المـمتريـ ... ـن رَكْضًا إذا ما السّرابُ ٱرْجَحَنّ

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣　　(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٠　　(٣) فى ا : « به » .

Marfat.com

قال آبن عطيــة : ووَهِمَ فى هــذا ؛ لأن أبا عبيــدة وغيره قال : الممترون فى البيت هم الذين يَمْرُون الخيل بأرجلهم هَمْزًا لتجرِى كأنهم يحتلبون الجَرْىَ منها، وليس فى البيت معنى الشك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيــه موجود ؛ لأنه يحتمل أن يختــبر الفرسَ صاحبُه هــل هو على ما عهد منه من الجرى أمْ لا؛ لئلا يكون أصابه شيء، أو يكون هذا عند أوّل شرائه فيُجريه ليعلم مقدار جَرْيه . قال الجوهرى : ومَرَيْتُ الفرسَ إذا آستخرجت ما عنــده من الجرى بسوط أو غيره . والآسم المِرْيَةُ (بالكسر) وقــد تضم . ومَرَيْت الناقة مَرْيًا : إذا مسحْت ضَرعها لتَدِرّ . وأَمْرَتْ هى إذا دَرّ لَبَنُها؛ والآسم المِرْيَةُ (بالكسر)، والضم غلط . والمِرْيَةُ: الشك ، وقد تضم ، وقرئ بهما .

قوله تعـالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوِجْهة وزنها فِعْلة من المواجهة . والوجهة والجِهة والوجه بمعنًى واحد، والمراد القِبْلة ؛ أى إنهم لا يتّبعون قِبلتك وأنت لا تتّبع قِبلتهم ، ولكلٍّ وجهةٌ إمّا بحقّ وإمّا بهوًى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ «هو» عائد على لفظ كلّ لا على معناه، لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مُوَلُّوها وجوهَهم؛ فالهاء والألف مفعول أوّل والمفعول الثانى محذوف، أى هو موليها وجهه ونفســه . والمعنى : ولكلّ صاحب مِلّةٍ قِبلةٌ ، صاحب القِبــلة مُوَلِّيها وجهه، على لفظ كل؛ وهو قول الربيع وعطاء وآبن عباس . وقال علىّ بن سليمان : «مُوَلِّيها» أى متولّيها . وقرأ آبن عباس وآبن عامر « مُوَلّاها » على ما لم يسمّ فاعله . والضمير على هذه القراءة لواحد؛ أى ولكل واحد من الناس قِبلة، الواحدُ مُوَلّاها أى مصروف إليها؛ قاله الزجاج . ويحتمل أن يكون على قراءة الجماعة « هو » ضمير آسم الله عز وجل وإن لم يجرله ذكر؛ إذ

Marfat.com

معلوم أنّ الله عزّ وجلّ فاعل ذلك، والمعنى: لكل صاحب مِلةٍ قبلةٌ اللهُ مُوَلّيها إيّاه . وحكى الطبري : أن قوما قرءوا « ولكلِّ وجهةٍ » بإضافة كل إلى وجهة . قال آبن عطية : وخطّأها الطبري ، وهي متّجهة ؛ أي فاستبقوا الخيرات لكل وجهـة ولّاكموها ، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه؛ أي إنمـا عليكم الطاعة في الجميع . وقـدّم قوله « ولِكُلٍّ وِجهة » على الأمر في قوله : « فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ » للآهتمام بالوجهة كما يُقدّم المفعول؛ وذكر أبو عمرو الدّانيّ هذه القراءة عن آبن عباس رضي الله عنهما . وسَلِمت الواو في « وِجهة » للفرق بين عِدَة وزِنَة ؛ لأن جهـةً ظرف ، وتلك مصادر . وقال أبو عليّ : ذهب قوم إلى أنه مصدر شذّ عن القياس فسَلِم . وذهب قوم إلى أنه آسم وليس بمصدر . وقال غير أبي علي : وإذا أردت المصدر قلت جهة، وقد يقال الجهة في الظرف .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ ﴾ أي إلى الخيرات . فحذف الحرف ؛ أي بادروا ما أمركم الله عزّ وجلّ من آستقبال البيت الحـرام؛ وإن كان يتضمّن الحثّ على المبادرة والآستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم ، فالمراد ما ذكر من الآستقبال لسياق الآي . والمعنى المراد المبادرة بالصـلاة أول وقتها ، والله تعـالى أعلم . روى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنمـا مَثَلُ المُهَجِّر إلى الصلاة كَمَثَل الذي يُهْدِي البَدَنَة ثم الذي على أَثَره كالذي يُهْدِي البقرة ثم الذي على أثره كالذي يُهدِي الكبش ثم الذي على أثره كالذي يُهْـدِي الدّجاجة ثم الذي على أثره كالذي يُهْدِي البيضـة " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم ليصلّي الصلاة لوقتها وقـد ترك من الوقت الأوّل ما هو خير له من أهله وماله " . وأخرجه مالك عن يحيي بن سعيد قوله . وروى الدّارَقُطْنِي أيضا عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خير الأعمال الصلاةُ في أوّل وقتها" . وفي حديث آبن مسعود «أوّل وقتها» بإسقاط « في » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الملك عن أبي مَحْذُورَة عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّلُ الوقت رضوانُ الله ووَسَطُ الوقت رحمةُ الله

Marfat.com

وآخرُ الوقت عفوُ الله" . زاد ٱبن العربى : فقال أبو بكر : رضوانُ الله أحبّ إلينا من عفوه؛ فإن رضوانه عن المحسنين وعفوه عن المُقَصِّرين؛ وهذا ٱختيار الشافعى . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضل؛ لأنه وقت الوجوب . وأمّا مالك ففصّل القول ؛ فأما الصبح والمغرب فأوّل الوقت فيهما أفضل؛ أما الصبح فلحديث عائشة رضى الله عنها قالت: " إنْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى الصبح فينصرف النســاء مُتَلَفِّعاتٍ بمُرُوطهنّ ما يُعرفن من الغَلَس " — فى رواية — " متلفّفات " . وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأَكْوَع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى المغرب إذا غَرَبت الشمس وتوارت بالحجاب ؛ أخرجهما مســلم . وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قَــدَر عليه . روى ٱبن عمر قال : مكثنا [ذات](1) ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ؛ فخرج إلينا حين ذهب ثُلُث الليل أو بعــده، فلا ندرى أشىء شغله فى أهله أو غيرُ ذلك ؛ فقال حيــن خرج : " إنكم لتنتظرون صلاةً ماينتظرها أهلُ دين غيرُكم ولولا أن يَثْقُل على أمّتى لصلّيتُ بهم هذه الساعة". وفى البخارىّ عن أنس قال : أخّر النبىّ صــلى الله عليه وســلم صــلاة العشاء إلى نصف الليل ثم صلّى ... ؛ وذكر الحديث . وقال أبو بَرْزَة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحبّ تأخيرها . وأمّا الظهر فإنها تأتى الناس [على](2) غفــلة فيستحبّ تأخيرها قليــلًا حتى يتأهّبوا ويجتمعوا . قال أبو الفرج قال مالك : أوّل الوقت أفضلُ فى كل صلاة إلا للظهر فى شــدّة الحرّ . وقال ٱبن أبى أُوَيْس : وكان مالك يكره أن يصلى الظهر عند الزوال ولكن بعد ذلك، ويقــول : تلك صلاة الخوارج . وفى صحيح البخارى وصحيح الترمذىّ عن أبى ذَرّ الغِفَارىّ قال : كنّا مع النــبىّ صلى الله عليه وســلم فى سَفَر فأراد المؤذّن أن يؤذّن للظهر ؛ فقال النــبىّ صلى الله عليه وسلم: " أَبْرِد " ثم أراد أن يؤذّن فقال له : " أبْرِد " حتى رأينا فَىْء التُّلول؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إن شدّة الحرّ من فَيْح(3) جهنم فإذا ٱشتدّ الحرّ فأبرِدُوا بالصلاة". وفى صحيح مسلم عن أنس أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى الظهر إذا زالت الشمس . والذى يجمع بين الحديثين ماروراه أنس أنه إذا كان الحرّ أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجّل .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن النسائى . (٢) الزيادة عن أحكام القرآن لابن العربى .
(٣) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

Marfat.com

قال أبو عيسى الترمذي : « وقد آختار قوم [من أهل العلم](1) تأخير صلاة الظهر في شدّة الحرّ ، وهو قول آبن المبارك وأحمد و إسحاق . قال الشافعي : إنما الإبراد بصلاة الظهر إذا كان [مسجدا](1) ينتاب(2) أهله من البعد ، فأمّا المُصَلِّي وحده والذي يصلّي في مسجد قومه فالذي أحبّ له ألّا يؤخّر الصلاة في شدّة الحرّ . قال أبو عيسى : ومعنى من ذهب إلى تأخير الظهر(3) في شدّة الحرّ هو أولى وأشبه بالآتباع ، وأمّا ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله أنّ الرخصة لمن ينتاب من البعد وللمشقّة على الناس ، فإن في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه ما يدل على خلاف ما قال الشافعي . قال أبو ذرّ : كنّا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأذّن بلالٌ بصلاة الظهر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " [يا بلال](1) أبْرِد ثم أبْرِد " . فلو كان الأمر على ما ذهب إليه الشافعي لم يكن للإبراد في ذلك الوقت معنًى ؛ لآجتماعهم في السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينتابوا من البُعد » . وأمّا العصر فتقديمها أفضل . ولا خلاف في مذهبنا أن تأخير الصلاة رجاءَ الجماعة أفضل من تقديمها ؛ فإن فضل الجماعة معلوم ، وفضل أوّل الوقت مجهول وتحصيل المعلوم أولى ؛ قاله آبن العربي .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ شرط ، وجوابه : ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً ﴾ يعني يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شيء لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبِلَى .

قوله تعالى : وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

(1) الزيادة من صحيح الترمذي .　　(2) انتاب : قصد .
(3) كذا في صحيح الترمذي . وفي الأصول : « تأخير الصلاة » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : هـذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة وآهتمام بها ؛ لأن موقع التحويل كان صعباً[1] فى نفوسهم جدًّا ؛ فأكّد الأمر ليرى الناس الآهتمام به فيخفّ عليهم وتسكن نفوسهم إليه . وقيـل : أراد بالأوّل : ولِّ وجهك شطر الكعبة ؛ أى عاينها إذا صلّيت تلقاءها . ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعنى وجوب الآستقبال فى الأسفار ؛ فكان هذا أمرًا بالتوجّه إلى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض .

قلت : هذا القول أحسن من الأوّل ؛ لأن فيه حملَ كلّ آية على فائدة . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن أنس بن مالك قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلّى على راحلته آستقبل القبلة وكبّر ثم صلّى حيث توجّهت به . أخرجه أبو داود أيضا ؛ وبه قال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الآستقبال ؛ لحديث آبن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مُقْبِل من مكة إلى المدينة على راحلته ، قال : وفيه نزل « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد تقدّم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هذا من باب المطلق والمقيّد ؛ فقول الشافعيّ أَوْلَى ، وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح . ويروى أن جعفر بن محمد سُئل ما معنى تكرير القَصَص فى القرآن ؟ فقال : عَلِم الله أن كلّ الناس لا يحفظ القرآن ، فلو لم تكن القصة مكرّرة لجاز أن تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكُرِّرت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعـالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ قال مجاهـد : هم مشركو العرب . وحجّتهم قولهم : راجعتَ قبلتنا ؛ وقد أجيبوا عن هذا بقوله : « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » . وقيـل : معنى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » لئلا يقـولوا لكم : قد أُمِرتم باستقبال الكعبة ولستم تَرَوْنها ؛ فلمـا قال عز وجل : « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا

(١) فى نسخ الأصل : « كان معنى » . والتصويب عن تفسير ابن عطية .

Marfat.com

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » زال هــذا . وقال أبو عبيدة : إنّ « إلا » هاهنا بمعنى الواو ؛ أى والذين ظلموا ؛ فهو آستثناء بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر(١) :

ما بالمدينــة دارٌ غيرُ واحــدة * دار الخليفـــة إلّا دارُ مَرْوانَا

كأنه قال : إلّا دار الخليفة ودارُ مَرْوان ؛ وكذا قيل فى قوله تعـالى : « إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢) » أى الذين آمنوا . وأبطل الزجاج هذا القول وقال : هذا خطأ عنـد الحُذّاق من النحويين، وفيـه بطلان المعـانى، وتكون « إلّا » وما بعدها مستغنًى عن ذكرهما . والقول عندهم أن هذا آستثناء ليس مرن الأول ؛ أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجّون . قال أبو إسحاق الزجّاج : أى عرّفكم الله أمر الآحتجاج فى القبلة فى قـوله : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا » ، « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّـاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّـةٌ » إلّا مَن ظلم بآحتجاجه فيما قد وضح له ؛ كما تقول : مالك علىّ حُجّةٌ إلا الظلم أو إلّا أن تظلمنى ؛ أى مالك حجةٌ ألبتّةَ ولكنك تظلمنى ؛ فسمّى ظلمه حُجّـة لأن المحتجّ به سمّاه حجة و إن كانت داحضة . وقال قُطْرُب : يجـوز أن يكون المعنى لئلا يكون للنـاس عليكم حجة إلّا على الذين ظلموا ؛ فالذين بدل من الكاف والميم فى « عليكم » . وقالت فرقة : « إِلَّا الَّذِينَ » آستثناء متّصل ؛ روى معناه عن آبن عباس وغيره، وآختاره الطبرى وقال : نَفَى الله أن يكون لأحد حُجّةٌ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى آستقبالهم الكعبة . والمعنى : لا حُجَّةَ لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة . حيث قالوا : ما ولّاهم، وتحيّر محمد فى دينه ، وما توجّه إلى قبلتنا إلّا أنّا كنا أهدى منه ؛ وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلّا من عابد وثنٍ أو يهودىّ أو منافق . والحجّـةُ بمعنى المحاجّة التى هى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حُجّة وحَكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة . وقال آبن عطية : وقيل إن الآستثناء منقطع ؛ وهـذا على أن يكون المراد بالنـاس اليهود ، ثم آستثنى كُفّار العـرب، كأنه قال : لكن الذين ظلموا يحاجّونكم؛ وقوله « مِنْهم » يردّ هذا التأويل . والمعنى لكن الذيــن ظلموا ، يعنى كفار قريش فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا

(١) هو الفرزدق؛ وأراد مروان بن الحكم . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١١٦

ويرجع إلى ديننا كله . ويدخل فى ذلك كلّ من تكلّم فى النازلة من غير اليهود . وقرأ آبن عباس وزيد بن علىّ وآبن زيد « ألَا الذين ظَلَمُوا » بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى آستفتاح الكلام ، فيكون « الذين ظلموا » آبتداء ، أو على معنى الإغراء، فيكون « الذين » منصوبًا بفعل مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ وَٱخْشَوْنِى ﴾ الخَشْيَةُ أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التّوقّى . والخوف : فزع القلب تَخِف له الأعضاء، ولخفّة الأعضاء به سُمّى خوفًا . ومعنى الآية التّحقير لكل مَن سوى الله تعالى، والأمر بآطّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ معطوف على « لِئَلَّا يَكُونَ » أى ولأن أتمّ ؛ قاله الأخفش . وقيل : مقطوع فى موضع رفع بالآبتداء والخبر مضمر ، التقدير : ولأتمّ نعمتى عليكم عرّفتكم قِبلتى ؛ قاله الزجاج[1] . وإتمام النعمة الهداية إلى القِبْلة ، وقيل : دخول الجنة . قال سعيد بن جُبير : ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يُدخله الجنة . و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تقدّم[2] .

قوله تعالى : كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ؛ المعنى : ولأتم نعمتى عليكم إتمامًا مثل ما أرسلنا ؛ قاله الفرّاء . قال آبن عطية : وهذا أحسن الأقوال ؛ أى ولأتم نعمتى عليكم فى بيان سُنّة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون آهتداء مثل ما أرسلنا . وقيل : هى فى موضع نصب على الحال، والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة ، وأن الذّكر المأمور به فى عظمه كعظم النعمة . وقيل : معنى الكلام على التقديم والتأخير ؛ أى فآذكرونى

(١) نص العبارة فى البحر المحيط لأبى حيان : « وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر ، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى » .

(٢) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

كما أرسلنا . روى عن علىّ رضى الله عنه وآختاره الزجاج . أى كما أرسلنا فيكم رسولا تعرفونه بالصدق فآذكرونى بالتوحيد والتصديق به . والوقف على « تَهْتَدُونَ » على هذا القول جائز .

قلت : وهذا آختيار الترمذىّ الحكيم فى كتابه؛ أى كما فعلتُ بكم هذا من المنن التى عددتها عليكم «اذكرونى بالشكر أذكركم بالمزيد؛ لأن فى ذكركم ذلك شكرًا لى، وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر، وهو قوله : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »[(١)]؛ فالكاف فى قوله « كما » هنا، وفى الأنفال « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ »[(٢)] وفى آخر الحجر « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ »[(٣)] متعلقة بما بعده، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابُه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جُزم . وأصل الذِّكر التّنبه بالقلب للذكور والتيقظ له . وسُمى الذِّكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى ؛ غير أنه لمـا كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم .

ومعنى الآية : آذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة؛ قاله سعيد بن جبير . وقال أيضا : الذكر طاعة الله ؛ فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن ؛ وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومَن عصى الله فقد نسى الله وإن كثّر صلاتَه وصومَه وصنيعَه للخير" ؛ ذكره أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْداد فى «أحكام القرآن» له . وقال أبو عثمان النَّهْدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها؛ قيل له : ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عز وجل : «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» . وقال السُّدّى : ليس من عبدٍ يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وسُئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولانجد فى قلوبنا حلاوة ؟ فقال : آحمدوا الله تعالى على أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته . وقال ذو النُّون المصرى رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذِكرًا على الحقيقة نَسِيَ فى جنب ذكره

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣   (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٦٧   (٣) راجع جـ ١٠ ص ٥٧

Marfat.com

كل شىء، وحفظ الله عليه كل شىء، وكان له عوضًا من كل شىء. وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ما عمـل آبن آدم من عمـل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث فى فضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة . روى آبن ماجه عن عبد الله بن بُسر أن أعرابيًّا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قـد كثرت علىّ فأنبئنى منهـا بشىء أتشبّث به؛ قال : " لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل " . وخرّج عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الله عز وجل يقول أنا مع عبـدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه " . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »[1] وأن المراد ذكر القلب الذى يجب آستدامته فى عموم الحالات .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال الفرّاء يقال : شكرتك وشكرت لك ، ونصـحتك ونصحت لك؛ والفصيح الأوّل[2]. والشكر معرفة الإحسان والتحدّث به ؛ وأصله فى اللغة الظهور؛ وقد تقدّم[3] . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له؛ إلا أن شكر العبد نطقٌ باللسان و إقرارٌ بالقلب بإنعام الربّ مع الطاعات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ نَهْىٌ؛ ولذلك حُذفت منه نون الجماعة ، وهذه نون المتكلم. وحذفت الياء لأنها رأس آية، و إثباتها أحسن فى غير القرآن؛ أى لا تكفروا نعمتى وأيادى . فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول فى الكفر[4] لغة ، ومضى القول فى معنى الاستعانة[5] بالصبر والصلاة ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧ (٢) الذى فى معاجم اللغة أن الفصيح الثانى. (٣) تراجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية . (٤) يراجع جـ ١ ص ١٨٣ . (٥) يراجع جـ ١ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

Marfat.com

هذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»، وهناك يأتى (١) الكلام فى الشهداء وأحكامهم، إن شاء الله تعالى.

وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم — على ما يأتى — فيجوز أن يحيى الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر. والشهداء أحياء كما قال الله تعالى، وليس معناه أنهم سيحيون؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون. وارتفع «أموات» على إضمار مبتدأ، وكذلك «بل أحياء» أى هم أموات وهم أحياء، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب؛ كما يصح فى قولك: قلت كلاما وحجة.

قوله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيبويه لالتقاء الساكنين. وقال غيره: لما ضُمّت إلى النون الثقيلة بُنِى الفعل فصار بمنزلة خمسةَ عشر. والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا. وأصله المحنة، وقد تقدّم (٢). والمعنى لنمتحننّكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء؛ كما تقدّم. وقيل: إنما ابتُلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق. وقيل: أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنه يصيبهم؛ فيوطّنوا أنفسهم عليه فيكونوا أبعد لهم من الجزع؛ وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس.

قوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾ لفظ مفرد ومعناه الجمع. وقرأ الضحاك «بأشياء» على الجمع وقرأ الجمهور بالتوحيد؛ أى بشىء من هذا وشىء من هذا؛ فاكتفى بالأول إيجازا ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ أى خوف العدوّ والفزع فى القتال؛ قاله ابن عباس. وقال الشافعى: هو خوف

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ (٢) تراجع المسألة الثالثة عشرة جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية.

Marfat.com

الله عز وجل . ﴿ والجُـوعِ ﴾ يعنى المجاعة بالجدب والقحط ؛ فى قـول ابن عباس . وقال الشافعى : هو الجوع فى شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾ بسبب الآشتغال بقتال الكفار. وقيل : الجوائح المتلفة . وقال الشافعى : بالزكاة المفروضة . ﴿ والأَنْفُسِ ﴾ قال آبن عباس : بالقتل و لموت فى الجهاد . وقال الشافعى : يعنى بالأمراض . ﴿ والثَّمَرَاتِ ﴾ قال الشافعى : المـراد موت الأولاد ، وولد الرجل ثمرة قلبـه ؛ كما جاء فى الخـبر ، على ما يأتى . وقال آبن عباس : المراد قلّة النبات وآنقطاع البركات .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أى بالثواب على الصـبر . والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدر ؛ وقد تقدّم[(١)]. لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ؛ كما روى البخارى عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أتمّ منه ؛ أى إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتهـا ؛ فإنه يدل على قوّة القلب وتثبته فى مقام الصـبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ؛ ولذلك قيـل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عنـد المصيبة ما لا بدّ للأحمق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : لمـا قال تعالى : « وبَشِّرِ الصَّابرين » صار الصبر عيشاً[(٢)] . والصبر صبران : صبر عن معصية الله ، فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله ، فهـذا عابد . فإذا صبر عن معصية الله وصـبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ؛ وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات . وقال الخوّاص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة. وقال رُوَيم: الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصرى : الصـبر هو الآستعانة بالله تعـالى . وقال الأسـتاذ أبو علىّ : الصـبر حدّه ألا تعترض على التقدير ؛ فأما إظهار البـلوى على غير وجه الشكوى فـلا ينافى الصبر ؛ قال الله تعالى فى قصـة أيوب : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ[(٣)] » مع ما أخبر عنه أنه قال : « مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ (٢) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢١٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ المصيبة : كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه؛ يقال : أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا . والمصيبة واحدة المصائب . والمَصُوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة . وأجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو ؛ كأنهم شبّهوا الأصليّ بالزائد ، ويجمع على مصاوب ، وهو الأصل . والمصابُ الإصابةُ؛ قال الشاعر :

أَسُلَيم إنّ مُصابكم رجلاً * أهدَى السلام تحيّةً ظُلْمُ

وصاب السّهمُ القرطاسَ يَصيب صَيْبًا؛ لغـة فى أصابه . والمصيبة : النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت؛ وتستعمل فى الشر؛ روى عكرمة أن مصباح رسـول الله صلى الله عليـه وسلم آنطفأ ذات ليلة فقال : «إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فقيل : أمصيبة هى يا رسول الله ؟ قال : "نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة" .

قلت : هذا ثابت معناه فى الصحيح، خرّج مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهَمّ يُهمّه (١) إلا كُفِّر به من سيئاته " .

الثانيـــة — خرّج آبن ماجه فى سننه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجرّاح عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث آسترجاعًا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب " .

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسـلم : « قال القاضى : هو بضم اليـاء وفتح الهاء على ما لم يسم فاعله ، وضبطه غيره بفتح الياء وضم الهاء ، أى يغمه ، وكلاهما صحيح » .

Marfat.com

الثالثـــة — من أعظم المصائب المصيبة فى الدِّين؛ ذكر أبو عمر عن الفِرْيَابِىّ قال حدّثنا فِطْر بن خليفة حدّثنا عطاء بن أبى رَبَاح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها من أعظم المصائب". أخرجه السَّمرقندى أبو محمد فى مسنده، أخبرنا أبو نعيم قال: أنبأنا فطر...؛ فذكر مثله سواء. وأسند مثله عن مكحول مرسلا. قال أبو عمر: وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوَحْى وماتت النبوّة. وكان أوّل ظهور الشر بآرتداد العرب وغير ذلك، وكان أوّل آنقطاع الخير وأوّل نقصانه. قال أبو سعيد: ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا. ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول:

اصبِرْ لكل مصيبة وتجـلَّدِ * وآعلم بأن المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ
أو مَا ترى أن المصائب جَمَّــةٌ * وترى المنيَّةَ للعباد بمَرْصَـدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة؟ * هـذا سبيلٌ لستَ فيـه بأوحد
فإذا ذكرتَ محمدا ومصـابه * فآذكر مصابك بالنبيّ محمد

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحَنين؛ لمـا جمعت من المعـانى المباركة؛ فإن قوله: «إنّا لله» توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: «وإنا إليـه راجعون» إقرار بالهُلْك على أنفسنا والبعث من قبورنا؛ واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له. قال سعيد آبن جبير رحمـه الله تعالى: لم تعط هذه الكلمات نبيًّـا قبل نبيّنا، ولو عرفها يعقوب لمـا قال: يا أسفى على يوسف.

الخامســـة — قال أبو سنان: دفنت آبنى سنانا، وأبو طلحة الخَوْلانى على شفير القبر؛ فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال: ألا أبشّرك يا أبا سـنان، حدّثنى الضحاك عن أبى موسى أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال: "إذا مات ولد العبـد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدى

Marfat.com

فيقولون حمدك وآسترجع فيقول الله تعالى آبنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسمّوه بيت الحمـد " .
وروى مسلم عن أم سَلَمَة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عزّ وجلّ إنا لله وإنا إليه راجعون اللّهمّ أجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها " . فهذا تنبيه على قوله تعـالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » إمّا بالخَلَف كما أخلف الله لأمّ سلمة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه تزوّجها لمـا مات أبو سلمـة زوجها . وإمّا بالثواب الجـزيل ؛ كما فى حديث أبى موسى ، وقد يكون بهما .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ هـذه نِعمٌ من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين . وصلاة الله على عبده : عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه فى الدنيـا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هـذا الصلاةُ على الميت إنمـا هو الثناء عليـه والدعاء له ؛ وكرر الرحمة لمـا آختلف اللفظ تأكيدًا وإشباعًا للمعنى ؛ كما قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُـدَى » ، وقوله « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » . وقال الشاعر :

صلَّى على يحيى وأشـياعِه　*　ربٌّ كريمٌ وشفيعٌ مطاعْ

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة . وفى البخارى وقال عمر رضى الله عنه : نِعم العِدلان ونعم العِـلاوة : « الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . أراد بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتـداء . قيل : إلى آستحقاق الثواب وإجزال الأجر ، وقيـل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

Marfat.com

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصّفا والمرْوَة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

وخرّج الترمذي عن عروة قال : « قلت لعائشة ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي ألّا أطوف بينهما . فقالت : بئس ماقلت يابن أختي! طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون، وإنما كان من أَهَلَّ لِمَناة(١) الطاغية التي بِالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة؛ فأنزل الله تعالى : «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » ولو كانت كما تقول لكانت : « فلا جناح عليه ألّا يَطَّوَّف بهما » . قال الزُّهْرِيّ : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال : إن هذا لَعِلْمٌ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون : إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف [بالبيت](٢) ولم نؤمر به بين الصفا والمرْوَة؛ فأنزل الله تعالى : « إنّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فأراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء . قال : « هذا حديث حسن صحيح » . أخرجه البخاري بمعناه، وفيه بَعْدَ قوله فأنزل الله تعالى « إن الصفا والمروة من شعائرِ الله » : « قالت عائشة وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » ؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إن هذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس — إلا مَن ذكرتْ عائشةُ — ممن كان يُهِلّ بمَناة كانوا يطوفون كلهم بالصّفا والمروة؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا : يارسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حَرَج أن

(١) مناة : اسم صنم في جهة البحر مما يلي قديدا بالمشلل (وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر) على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون إليه ، وكان أول من نصبه عمرو بن لحيّ الخزاعي . (راجع معجم ياقوت في اسم مناة) .

(٢) زيادة عن الترمذي .

Marfat.com

نطوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » الآية . قال أبو بكر : فأسمع هـذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام؛ من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت » . وروى الترمذى عن عاصم بن سليمان الأحول قال : « سألت أنس بن مالك[(١)] عن الصفا والمروة فقال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ؛ فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » قال : هما تطوع ، « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » . قال: هذا حديث حسن صحيح » . خرجه البخارى أيضا . وعن ابن عباس قال : كان فى الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك ؛ فنزلت . وقال الشعبى : كان على الصفا فى الجاهلية صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يسمى « نائلة » فكانوا يمسحونهما إذا طافوا ؛ فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — أصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس ؛ وهو هنا جبل بمكة معروف ، وكذلك المروة جبل أيضا ؛ ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف . وذكر الصفا لأن آدم المصطفى صلى الله عليه وسلم وقف عليه فسمى به ، ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المرأة ، فأنث لذلك ؛ والله أعلم . وقال الشعبى : كان على الصفا صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يدعى « نائلة » فاطرد ذلك فى التذكير والتأنيث وقدم المذكر ، وهذا حسن ؛ لأن الأحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ؛ حتى رفع الله الحرج فى ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين

(١) كذا فى الأصول وصحيح البخارى وتفسير الطبرى . والذى فى صحيح الترمذى : « أنس بن سيرين ... » وهو مولى أنس بن مالك وممن روى عنه .

Marfat.com

فوضعهما على الصفا والمروة ليُعتبر بهما؛ فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله؛ والله تعالى أعلم .

والصفا (مقصور) : جمع صَفاة ، وهى الحجارة الملس . وقيـل : الصفا آسم مفرد، و جمعه صُفِيّ (بضم الصاد) وأصفاء على مثل أرحاء . قال الراجز (١) :

كأنّ مَتنَيْه (٢) من النَّفِيّ * مواقعُ الطير على الصُّفِيّ

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة ؛ وآشتقاقه من صـفا يصفو ، أى خَلَص من التراب والطين . والمروة (واحدة المَرْو) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل إنهـا الصلاب . والصحيح أن المرو الحجارة صليبها و رخوها الذى يتشظّى وترقّ حاشيته؛ وفى هذا يقال : المرو أكثر و يقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولّى الأرض خفًّا ذابلًا * فإذا ماصادف المرو رضخ

وقال أبو ذؤيب :

حتى كأنى للحـوادث مَرْوة * بصَفَا المُشَقَّر (٣) كل يوم تُقْرَعُ

وقد قيل : إنها الحجارة السود . وقيل : حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من معالمه ومواضـع عباداته ؛ وهى جمع شـعيرة . والشعائر : المتعبّدات التى أشعرها الله تعالى ؛ أى جعلها أعلاما للناس ، من الموقف والسَّعْى والنّحـر . والشِّعار : العـلامة ؛ يقال : أشعر الهَـدْىَ أعلَمَه بغرز حديدة فى سَنامه ؛ من قولك : أشعرت أى أعلمت ، وقال الكُميت :

نُقتّلهم جِيلًا فجِيلًا تَراهُمُ * شعائِرَ قُرْبَانٍ بهم يُتقرّبُ

---

(١) هو الأخيل ؛ كما فى اللسان . (٢) فى اللسان : « قال آبن سيده : كذا أنشده أبو على ، وأنشده آبن دريد فى الجمهرة : « كأن متنى » قال : وهو الصحيح ، لقوله بعده : من طول إشراف على الطَّوِىّ . والنَّفِىّ : تطاير الماء عن الرشاء عند الأستقاء . ونفى المطر : ما تنفيه وترشه . قال صاحب اللسان : « وفسره ثعلب فقال : شبه الماء، وقد وقع على متن المستقى بذرق الطائر على الصفى » . (٣) المشقر : حصن بالبحرين عظيم لعبد القيس يلى حصنا لهم آخر يقال له الصفا قبل مدينة هجر . ويروى «بصفا المشرق» قال أبو عبيدة : المشرق سوق الطائف . وقال الأصمعى : المشرّق المصلّى . (عن شرح الديوان ومعجم ياقوت) .

Marfat.com

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ أى قصد . وأصل الحج القصد ، قال الشاعر[(١)] :

فأشهدُ مِن عَوْفٍ حُلولًا[(٢)] كثيرةً ✽ يَحُجّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفرا

السِّب : لفظ مشترك . قال أبو عبيدة : السِّبّ (بالكسر) الكثير السِّباب . وسِبُّك أيضا الذى يُسابُّك؛ قال الشاعر[(٣)] :

لا تَسُبَّنَّنِى فلستَ بِسِبِّى ✽ إنّ سِبِّى مِن الرّجال الكريمُ

والسِّبّ أيضا الخمار ، وكذلك العمامة؛ قال المُخَبَّل السّعدى :

✽ يَحُجُّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرَا ✽

والسِّب أيضا الحبل فى لغة هذيل ؛ قال أبو ذؤيب :

تَـدَلَّى عليهـا بين سِبٍّ وخَيْطَـة ✽ بجَرْداءَ مِثْلِ الوكفِ يكبُو غُرابُها

والسُّبوب : الحبال . والسِّبّ : شُقّة كَتّان رقيقة، والسِّبيبة مثله؛ والجمع السُّبوب والسبائب؛ قاله الجوهرى . وحَجّ الطبيب الشَّجّة إذا سبرها بالمِيل؛ قال الشاعر[(٤)] :

✽ يحجّ مأمُومةً[(٥)] فى قعرها لَجَفُ ✽

اللَّجَف : الخَسْف . تلجّفت البئر : انخسف أسفلها . ثم اختص هـذا الاسم بالقصد إلى البيت الحرام لأفعال مخصوصة .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ أى زار . والعُمْرة : الزيارة؛ قال الشاعر[(٦)] :

لقد سمـا ابن مَعْمَرٍ حين اعْتَمَرْ ✽ مَغْزًى بعيـدا من بعيـد وضَبَرْ[(٧)]

---

(١) هو المخبل السعدى كما سيجىء . (٢) الحلول : الأحياء المجتمعة ، وهو جمع حال . والمزعفر : الملون بالزعفران ، وسادات العرب تصبغ عمائمها بالزعفران . (٣) هو عبد الرحمن بن حسان يهجو مسكينا الدارمى . (عن اللسان) . (٤) هو عذار بن درّة الطائى ؛ كما فى اللسان . وتمام البيت :

✽ فاست الطبيب قـذاها كالمغاريد ✽

(٥) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس ، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ . وفى اللسان : « وفسر ابن دريد هذا الشعر فقال : وصف هـذا الشاعر طبيبا يداوى شجة بعيدة القعر فهو يجزع من هولها ؛ فالقذى يتساقط من استه كالمغاريد » . والمغاريد : جمع مغرود وهو صمغ معروف .

(٦) هو العجاج يمدح عمر بن عبيد الله القرشى . عن اللسان . (٧) ضبر : جمع قوائمه ليثب .

Marfat.com

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ ﴾ أى لا إثم . وأصـله من الجنوح وهو الميل ؛ ومنه الجوانح للأعضاء لاعوجاجها . وقد تقدّم تأويل عائشة لهذه الآية . قال ابن العربى : «وتحقيق القول فيه أن قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل؛ إباحة الفعل . وقوله : لا جناح عليك ألّا تفعـل ؛ إباحة لترك الفعل ؛ فلما سمع عروة قول الله تعـالى : « فلا جناح عليـهِ أنْ يَطّوف بِهِما » قال : هذا دليـل على أن ترك الطواف جائز؛ ثم رأى الشريعـة مطبقة على أن الطواف لا رخصـة فى تركه فطلب الجمع بين هـذين المتعارضين . فقالت له عائشة : ليس قوله : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْه أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » دليلا على ترك الطواف، إنما كان يكون دليلا على تركه لوكان « فلا جناح عليه ألّا يطوّف بهما » فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف ، ولا فيه دليل عليه ؛ و إنما جاء لإفادة إباحة الطـواف لمن كان يتحرّج منه فى الجاهلية ، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصدا للأصنام التى كانت فيه ؛ فأعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا » .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما » وهى قراءة ابن مسعود، ويروى أنها فى مصحف أُبَىّ كذلك، ويروى عن أنس مثل هذا . والجـواب أن ذلك خلاف ما فى المصحف، ولا يترك ما قد ثبت فى المصحف إلى قـراءة لا يدرى أصحّت أم لا ؛ وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سمـاع . والرواية فى هذا عن أنس قد قيل إنها ليست بالمضبوطة؛ أو تكون « لا » زائدة للتوكيد؛ كما قال :

وما ألوم البيض ألا تسـخرا * لمـا رأين الشّـمطَ القَفَنْدَرا (١)

السابعـــة ــ روى الترمذى عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قـدم مكة فطاف بالبيت سبعا فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه ثم قال : "نبدأ بمـا بدأ الله به" فبدأ بالصفا وقال (٢) : « إن الصفا والمروة من

(١) القفندر : القبيح المنظر . (٢) الذى فى صحيح الترمذى : « وقرأ » .

Marfat.com

شعائر الله » قال : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة ؛ فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه و يبدأ بالصفا .

الثامنــة — وآختلف العلماء فى وجوب السعى بين الصفا والمروة ؛ فقال الشافعى وآبن حنبل : هو ركن ؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليـه السلام : " آسعوا فإن الله كتب عليكم السعى ". خرّجه الدارقطنى . وكتب بمعنى أوجب ؛ لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » ، وقوله عليـه السلام : " خمس صلوات كتبهن الله على العبـاد " ، وخرّج آبن ماجه عن أمّ ولدٍ لشَيْبة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول : " لا يُقطع الأبطح إلا شَدًّا[1] " فمن تركه أو شوطا منه ناسيًا أو عامدًا رجع من بلده أو من حيث ذكر إلى مكة ، فيطوف و يسعى ؛ لأن السعى لا يكون إلا متصلا بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك فى حج أو عُمْرة و إن لم يكن فى العمرة فرضًا ، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عُمرة وهَدْىٌ عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعى : عليه هَدْىٌ ، ولا معنى للعمرة إذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والشعبى : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالدّم ؛ لأنه سُنّة من سنن الحج . وهو قول مالك فى العتبية[2] . وروى عن آبن عباس وآبن الزبير وأنس بن مالك وآبن سيرين أنه تطوّع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى « يطوّع » مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوّع خيرا فهو خير له » الباقون « تطوّع » ماضٍ ، وهو ما يأتيه المؤمن من قِبل نفسه فمن أتى بشىء من النوافل فإن الله يشكره . وشُكر الله للعبد إثابتـه على الطاعة . والصحيح ما ذهب إليه الشافعى رحمه الله تعالى لمـا ذكرنا ، وقوله عليه السلام : " خذوا عنّى مناسككم " فصار بيانًا لمجمل الحج ؛ فالواجب أن يكون فرضًا ؛ كبيانه لعدد الركعات ، وما كان مثل ذلك إذا لم يتفق على أنه سُنّة أو تطوّع . وقال طُليب : رأى آبن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أمّكم أم إسماعيل .

(١) شدّا : أى عَدْوًا .　　(٢) العتبية : كتاب فى مذهب الإمام مالك ، نسبت إلى مؤلفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبي المتوفى سنة ٢٥٤ هـ .

Marfat.com

قلت : وهذا ثابت فى صحيح البخارى ، على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم »[(١)]

التاسـعة — ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ؛ فإن طاف معذورا فعليه دم ، و إن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت ، و إن غاب عنه أَهْدَى . إنمـا قلنا ذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بنفسه وقال : " خذوا عنى مناسككم " ، و إنما جوّزنا ذلك من العذر؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم طاف على بعيره وآستلم الركن بمِحْجَنه[(٢)] ، وقال لعائشة وقد قالت له : إنى أشتكى ؛ فقال : " طُوفِى من وراء الناس وأنت راكبة " . وفرّق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فإن طاف على ظهر إنسان لم يجزه؛ لأنه حينئـذ لا يكون طائفا ، و إنما الطائف الحامل . و إذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهذه تفرقة آختيار، وأما الإجزاء فيجزئ؛ ألا ترى أنه لو أغمى عليه فَطِيف به محمولا ، أو وقف به بعرفات محمولًا كان مجزئا عنه .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (١٥٩)

فيه سبع مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البيّنات والهُدَى ملعون . وآختلفوا مَن المراد بذلك؛ فقيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كتم اليهودُ أمرَ الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق ؛ فهى عامة فى كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثّه ؛ وذلك مفسّر فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم [يعلمه][(٣)] فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص ، أخرجه آبن ماجه . و يعارضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السلام : " حدّث الناس بمـا يفهمون أتحبون أن

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٢) المحجن : عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ما سقط له .
(٣) الزيادة عن سنن آبن ماجه .

Marfat.com

يكذب الله ورسوله " . وهذا محمول على بعض العلوم ، كعلم الكلام أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العوام؛ فحكم العالم أن يُحدّث بما يُفهم عنه ، و ينزل كل إنسان منزلته ؛ والله تعالى أعلم .

الثانيــة — هــذه الآية هى التى أراد أبو هريرة رضى الله عنـه فى قوله : لولا آية (١) فى كتاب الله تعالى ما حدّثتكم حديثا . وبها آستدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق ، وتبيان العلم على الجملة ، دون أخذ الأجرة عليه ؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله ، كما لا يستحق الأجرة على الإسلام . وقد مضى القول (٢) فى هذا .

وتحقيق الآية هو : أن العالم إذا قصـد كتمان العلم عصى ، و إذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأمّا من سُئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث . أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يُسلم ، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحِجاج ليجادل به أهل الحق ، ولا يُعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلا يتطرق به إلى مكاره الرعية ، ولا ينشر الرُّخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى آرتكاب المحظورات ، وترك الواجبات ونحو ذلك . يُرْوَى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها فتظلموها ". وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تعلّقوا الدُّرّ فى أعناق الخنازير " ؛ يريد تعليم الفقه من ليس من أهله . وقد قال سُحْنون : إن حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء فى الشهادة . قال آبن العربى : والصحيح خلافه ؛ لأن فى الحديث " مَن سُئل عن علم " ولم يقل عن شهادة ، والبقاء على الظاهر حتى يرد عليه ما يزيله ؛ والله أعلم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾ يعمّ المنصوص عليـه والمستنبط ؛ لشمول آسم الهُدَى للجميع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم .

(١) الذى فى صحيح البخارى وسنن ابن ماجه : « لولا آيتان » .
(٢) تراجع المسألة الثانيــة جـ ١ ص ٣٣٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فإن قيــل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهياً عن الكتمان ومأموراً بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهـم الخبر . قلنا : هذا غلط ؛ لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليـه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجباً للعلم؛ والله تعـالى أعلم .

الرابعــــة — لمـا قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » دلّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كَتْمه ، لا سيما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد فى الكتمان . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وِعاءَيْن ؛ فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلْعوم . أخرجه البخارى . قال أبو عبد الله (١) : البلعوم مجرى الطعام. قال علماؤنا : وهذا الذى لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل إنما هو ممـا يتعـلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ، ونحو هذا ممـا لا يتعلّق بالبينات والهدى ؛ والله تعالى أعلم .

الخامســــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ ﴾ الكناية فى « بيناه » ترجع إلى ما أنزل من البينات والهدى . والكتاب : اسم جنس ؛ فالمراد جميع الكتب المنزلة .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أى يتبرأ منهم ويبعـدهم من ثوابه ويقول لهم : عليـكم لعنتى ؛ كما قال للّعين : « وإنّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى » . وأصـل اللعن فى اللغة الإبعاد والطرد ؛ وقد تقدم (٢) .

السابعــــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ قال قتادة والربيع : المراد بـ« اللاعنون» الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهـذا واضح جارٍ على مقتضى الكلام . وقال مجاهـد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علمـاء السوء الكاتمين فيلعنونهـم . قال الزجاج : والصواب قول من قال : « اللاعنون » الملائكة والمؤمنون ؛ فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذَيْنِك شيئا .

(١) أبو عبد الله : كنية البخارى رضى الله عنه . (٢) يراجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضى الله عنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ » قال . " دواب الأرض " . أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنبأنا عمار بن محمد عن ليث عن أبى المنهال عن زاذان عن البراء ؛ إسناد حسن .

فإن قيـل : كيف جمع من لا يعقل جمـع من يعقل؟ . قيل : لأنه أسـند إليهم فعل من يعقل ؛ كما قال « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »(١) ولم يقل ساجدات ، وقـد قال : « لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا »(٢) ، وقال : « وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ »(٣) ، ومثله كثير ، وسيأتى إن شاء الله تعـالى . وقال البراء بن عازب وابن عباس : «اللاعنون» كل المخلوقات ما عدا الثقلين : الجن والإنس ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الكافر إذا ضُرب فى قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع " . وقال ابن مسعود والسُّدّى : هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذى قيلت فيه أهلًا لذلك ، فترجع إلى الذى تكلم بها فلا تجـده أهلًا فتنطلق فتقع على اليهـود الذين كتموا ما أنزل الله تعـالى ؛ فهو قوله : « وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ » فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود .

قوله تعـالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفى فى التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت ، حتى يظهر منه فى الثانى خلاف الأول ؛ فإن كان مرتدًّا رجع إلى الإسـلام مظهرا شرائعـه ، و إن كان من أهـل المعاصى ظهر منه العمل الصالح ، وجانب أهل الفساد والأحوال التى كان عليها . و إن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام ، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه . وسيأتى بيان التـوبة وأحكامها فى « النساء »(٤) إن شاء الله تعـالى . وقال بعض العلماء فى قـوله :

(١) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٠ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤
(٤) راجع جـ ٥ ص ٩١

Marfat.com

﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أى بكسر الخمر وإراقتها . وقيل : « بَيَّنُوا » يعنى ما فى التوراة من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه . والعموم أولى على ما بيّناه؛ أى بيّنوا خلاف ما كانوا عليه؛ والله تعالى أعلم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الواو واو الحال . قال ابن العربى : قال لى كثير من أشياخى إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه ؛ لأن حاله عند الموافاة لا تُعلم ، وقد شرط الله تعالى فى هذه الآية فى إطلاق اللعنة : الموافاة على الكفر ؛ وأما ما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال ابن العربى : والصحيح عندى جواز لعنه لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله ؛ وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اللّهمّ إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فالعنه واهجه عدد ما هجانى" . فلعنه ، وإن كان الإيمان والدِّين والإسلام مآله . وانتصف بقوله : "عدد ما هجانى" ولم يزد ليعلم العدل والإنصاف ، وأضاف الهَجْوَ إلى الله تعالى فى باب الجزاء دون الابتداء بالوصف بذلك ؛ كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا .

قلت : أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف فى ذلك ؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحُصَين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة فى رمضان . قال علماؤنا : وسواء كانت لهم ذمّة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ، ولكنه مباح لمن

(١) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فعـله ؛ بجحدهم الحق وعداوتهم للدّين وأهـله . وكذلك كل مَن جاهر بالمعاصي كشُرّاب الخمر وأكلة الرّبا ، ومَن تشبّه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، إلى غير ذلك ممـا ورد في الأحاديث لعنه .

الثانيـــة — ليس لعن الكافر بطريق الزّجْر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره؛ كان الكافر ميتاً أو مجنوناً . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة في لعن مَن جُنّ أو مات منهم، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر، فإنه لا يتأثّر به .

والمراد بالآية على هـذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثّر بذلك ويتضرّر ويتألّم قلبه؛ فيكون ذلك جزاء على كفره؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[1] ، ويدل على هـذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله تعـالى بلعنهم، لا على الأمر . وذكر ابن العـربي أن لعن العاصي المعيّن لا يجوز إتفاقاً؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُتِيَ بشارب خمر مرارًا، فقال بعض من حضره : لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتَى به ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" فجعل له حُرمة الأخوّة؛ وهذا يوجب الشفقة، وهذا حديث صحيح .

قلت : خرّجه البخاري ومسلم . وقـد ذكر بعض العلماء خلافاً في لعن العاصي المعيّن؛ قال : وإنمـا قال عليه السلام : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" في حق نُعيمان[2] بعد إقامة الحدّ عليـه ؛ ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغي لعنه ، ومَن لم يُقَم عليه الحدّ فلعنته جائزة سـواء سُمّيَ أو عُيّن أم لا ؛ لأن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لا يلعن إلا من تجب عليـه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للّعن ؛ فإذا تاب منها وأقلع وطهّره الحدّ فلا لعنة تتوجّه عليه . وبيّن هذا قولُه صلى الله عليه وسلم: "إذا زَنَتْ أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب"[3] .

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٣٩ (٢) نعيمان : هو ابن عمرو بن رفاعة ، شهد العقبة و بدرا والمشاهد بعدها ، وكان كثير المزاح ، يضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أسد الغابة) .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية : « أى لا يوبخها ولا يقرعها بالزنا بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع في عقوبتها بالتثريب بل يضربها الحدّ » .

Marfat.com

فدلّ هذا الحديث مع صحته على أن التّثريب واللّعن إنمـا يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة ؛ والله تعـالى أعلم .

قال ٱبن العربى : وأما لعن العاصى مطلقًا فيجوز إجماعًا ؛ لمـا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لعن الله السارق يَسْرِق البَيْضة فتُقْطع يده" .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةِ وَٱلنَّـاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى إبعادهم من رحمته . وأصل اللعن : الطرد والإبعاد ؛ وقد تقدّم[1] . فاللعنة من العباد الطرد، ومن الله العذاب . وقرأ الحسن البصرى « والملائكةُ والنّاسُ أجمعون » بالرفع . وتأويلها : أولئك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون ؛ كما تقول : كرهت قيام زيدٍ وعمرٌو وخالدٌ ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه مخالفة للصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم ؛ قيل عن هذا ثلاثة أجوبة ؛ أحدها ــ أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل . الثـانى ــ قال السُّدّى : كل أحد يلعن الظالم ، وإذا لعن الكافرُ الظالمَ فقـد لعن نفسه . الثالث ــ قال أبو العالية : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس ؛ كما قال تعالى: « ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[2] . ثم قال جل وعز : ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَـا ﴾ يعنى فى اللعنة ؛ أى فى جزائها . وقيـل : خلودهم فى اللعنة أنهـا مؤبدة عليهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يؤخّرون عن العذاب وقتاً من الأوقات . و « خالدين » نصب على الحال من الهـاء والميم فى « عليهم » ؛ والعامل فيـه الظرف من قوله : « عليهم » لأن فيها معنى ٱستقرار اللعنة .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لمـا حذّر تعالى من كتمان الحق بيّن أن أوّل ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد ، ووصل ذلك بذكر البرهان ، وعلم طريق

(١) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٣٩

Marfat.com

النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع ؛ ليعـلم أنه لابدّ له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ٱبن عباس رضى الله عنهما : قالت كفار قريش : يا محمد ٱنسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى سورة « الإخلاص » وهذه الآية . وكان للشركين ثلثمائة وستون صنما ؛ فبيّن الله أنه واحد .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفيٌ و إثبات . أوّلها كفر وآخرها إيمـان ، ومعناه لامعبود إلا الله . وحُكى عن الشّبلىّ رحمـه الله أنه كان يقـول : الله ؛ ولا يقول : لا إله ؛ فسُئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ فى كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة ، التى ليست لها حقيقة ؛ فإن الله جلّ ٱسمه ذكر هذا المعنى فى كتابه نفيًا و إثباتًا وكرره ، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ خرّجه الموطأ والبخارىّ ومسلم وغيرهم . وقال صلى الله عليـه وسلم : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . خرّجه مسلم . والمقصود القلب لا اللسان ؛ فلو قال : لا إله ومات ومعتقده وضميره الواحدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة بٱتفاق أهل السُّنة . وقد أتينـا على معنى ٱسمه الواحد ، ولا إله إلا هو والرحمن الرحيم فى « الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى » . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قال عطاء : لمـا نزلت « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » قالت كفـار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ! فنزلت « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ورواه سفيان عن أبيه

Marfat.com

عن أبى الضُّحى قال : لمـا نزلت « و إلهكم إله واحد » قالوا هـل من دليـل على ذلك ؟ فأنزل الله تعالى «إن فى خلقِ السمواتِ والأرضِ» فكأنهم طلبوا آية فبيّن لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لابدّ له من بانٍ وصانع . وجَمَعَ السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . وَوَحَّدَ الأرض لأنها كلها تراب؛ والله تعالى أعلم.

فآية السموات : آرتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ ودلّ ذلك على القدرة وخرق العادة . ولو جاء نبيّ فتُحدِّى بوقوف جبل فى الهواء دون علاقة كان معجزًا . ثم ما فيها من الشمس والقمـر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نـيِّرة وممحوّة آية ثانيــة .

وآية الأرض : بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما و إدبار الآخر من حيث لايعلم . وقيل : اختلافهما فى الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر . والليل جمع ليلة؛ مثل تَمْرة وتَمْر ونخلة ونخل . و يجمع أيضا ليالى وليال بمعنًى، وهو مما شذّ عن قياس الجمـوع؛ كشَبَه ومشَابِه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر؛ وكأن ليـالى فى القياس جمع ليلاة . وقد آستعملوا ذلك فى الشعر قال :

* فى كلّ يوم وكل ليـلاة *

وقال آخر :

فى كلّ يومٍ ما وكُلّ لَيْـلاه * حتى يقول كلُّ راءٍ إذ رآه
* يا وَيْحَهُ مِن جَمَلٍ ما أشقاه *

قال آبن فارس فى المُجمل : و يقال إن بعض الطير يسمى ليلا، ولا أعرفه (١) . والنهار يجمع نُهُر وأنْهِرَة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : نَهَر جمع نُهُر وهو جمع [الجمع] (٢) للنهار، وقيل النهار آسم

---

(١) قال الجوهرى فى الصحاح : « وذكر قوم أن الليل ولد الكروان ، وأن النهار ولد الحبارى؛ وقد جاء ذلك فى بعض الأشعار » . (٢) زيادة عن اللسان .

Marfat.com

مفرد لم يجمع لأنه بمعنى المصدر، كقولك الضياء، يقع على القليل والكثير . والأول أكثر؛ قال الشاعر :

لولا الثَّرِيدانِ هَلكْنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ لَيْــلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُــرْ

قال ٱبن فارس : النهار معروف ، والجمع نهر وأنهار . ويقال : إن النهار يجمع على النهر . والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ورَجُل نَهِرٌ: صاحب نهار . ويقال: إن النّهار فَرْخ الحُبَارى . قال النَّضربن شُمَيْل : أوّل النهار طلوع الشمس ، ولا يُعَدّ ما قبل ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوّله عنـد العرب طلوع الشمس ؛ وٱستشهد بقول أُمَيّة بن أبى الصَّلْت .

والشمس تطلع كلَّ آخرِ ليلةٍ * حمراء يُصـبح لونُهَا يتـورّد

وأنشد قول عَدِىّ بن زيد :

وجاعلُ الشمسِ مِصْرًا[1] لاخفاءَ به * بين النهار وبين الليل قد فَصَلَا

وأنشد الكسائى :

إذا طلعت شمس النهـار فإنها * أمارة تسليمى عليك فسلِّمى

قال الزجاج فى كتاب الأنواء : أوّل النهـار ذرور الشمس . وقسّم ٱبن الأنبـارى الزمن ثلاثة أقسام : قسمًا جعله ليلًا محضًا ؛ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقسمًا جعـله نهارًا محضًا ؛ وهو من طلوع الشمس إلى غروبها . وقسمًا جعله مشتركًا بين النهار والليل ؛ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ كما رواه ٱبن فارس فى المُجْمَل؛ يدلّ عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عَدِىّ بن حاتم قال : لمـا نزلت «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْـوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» قال له عَدِىّ : يا رسول الله ، إنى أجعل تحت وسادتى عِقالين : عقالًا أبيض وعقالًا أسودَ، أعرف بهما الليل من النهار. فقال

(١) المصر : الحاجز بين الشيئين .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن وِسادك لعريض إنمــا هو سواد الليل و بياض النهار" .
فهــذا الحديث يقضى أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ وهو مقتضى الفقــه في الأيمــان ، و به ترتبط الأحكام . فمن حلف ألّا يُكلّم فلانا نهارا فكلّمه قبل طلوع الشمس حَنِث ؛ وعلى الأول لا يحنَث . وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الفَيْصل فى ذلك والحكَم .
وأمّا على ظاهر اللغة وأخذه من السُّنّة فهو من وقت الإسفار إذا ٱتسع وقت النهار؛ كما قال:(١)

مَلكتُ بهــا كفِّى فأنهرتُ فتقها * يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

وقد جاء عن حذيفة ما يدلّ على هذا القول ؛ خرّجه النسائى(٢) . وسيأتى فى آى الصيام إن شاء الله تعــالى .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الفلك : السفن ، و إفراده وجمعــه بلفظ واحد ، ويذكّر ويؤنّث . وليست الحركات فى المفرد تلك بأعيانها فى الجمع ، بل كأنه بَنَى الجمع بناء آخر؛ يدلّ على ذلك توسّط التثنية فى قولهم : فُلْكان . والفلك المفرد مذكّر ؛ قال تعالى : « فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ »(٣) فجاء به مذكّرًا ، وقال : « وٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ » فأنّث . ويحتمل واحدًا وجمعًا؛ وقال : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِــم بِرِيحٍ طَيِّبَــةٍ »(٤) فجمع؛ فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فيذكّر، و إلى السفينة فيؤنّث . وقيل : واحده فلك ؛ مثل أَسد وأُسْد، وخَشَب وخُشْب ، وأصله من الدَّوران ، ومنه : فلك السماء التى تدور عليه النجوم . وفَلَّكَت الجارِيةُ ٱستدار ثديها؛ ومنه فَلْكَة المِغْزَل . وسُمّيت السفينة فُلْكًا لأنها تدور بالمــاء أسهل دور .

ووجه الآية فى الفلك : تسخير الله إيّاها حتى تجرى على وجه المــاء ووقوفها فوقه مع ثقلها . وأوّل من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى ؛ وقال له جبريل : اصنعها على جُؤجُؤ(٥) الطائر؛ فعملها نوح عليه الســلام وراثة فى العالمين بمــا أراه جبريل . فالسفينة طائر مقلوب والمــاء فى أسفلها نظير الهواء فى أعلاها ؛ قاله ٱبن العربى .

---

(١) هو قيس بن الخطيم ، يصف طعنة . (٢) راجع ص ٢٧٣ من هذا الجزء . (٣) راجع ج ١٥ ص ٣٤ . (٤) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ . (٥) الجؤجؤ : الصدر ، وقيل : عظامه .

Marfat.com

الرابعـــة — هذه الآية وما كان مثلها دليـل على جواز ركوب البحر مطلقًا لتجارة كان أو عبـادة ؛ كالحج والجهاد . ومن السُّنة حديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليـل من المـاء . الحديث . وحديث أنس بن مالك في قصة أم حرام ؛ أخرجهما الأئمة : مالك وغيره . روى حديث أنس عنـه جماعةٌ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام ؛ جعله من مسند أم حرام لا من مسند أنس . هكذا حدّث عنه به بُندار محمد بن بشار؛ ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء ؛ وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفـترض أولى وأوجب . وروى عن عمـر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسُّنة يرد هـذا القول ؛ ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبيّ صلى الله عليه وسـلم الذين قالوا له : إنا نركب البحر . وهـذه الآية وما كان مثلها نَصٌّ في الغـرض وإليها المفزع . وقـد تُؤُول ما روى عن العُمَرين في ذلك بأن ذلك محمـول على الاحتياط وترك التغـرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها ؛ وأما في أداء الفـرائض فلا . ومما يدلّ على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق في العُدْوَتين(١) ، وقسّم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جانبها إلا بشَقّ البحر لها ؛ فسهّل الله سبيله بالفُلْك ؛ قاله ابن العربي. قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج في البحر ، وهـو للجهاد لذلك أكره . والقرآن والسُّنة يردّ قوله ، إلا أن بعض أصحابنا من أهـل البصرة قال : إنما كره ذلك مالك لأن السفن بالحجاز صـغار ، وأن النساء لا يقـدرن على الاسـتتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها ؛ وكان الطريق من المدينـة إلى مكة على البرّ ممكنا ؛ فـلذلك كره مالك ذلك . وأمّا السفن الكبار نحو سفن أهـل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل من استطاع إليه سـبيلا من الأحرار البالغين ، نساء كانوا أو رجالا ، إذا كان الأغلب من الطريق الأمن ، ولم يخصّ بحرًا من برّ .

(١) العدوة : شاطئ الوادي .

Marfat.com

قلت : فدل الكتاب والسّنة والمعنى على إباحة ركوبه للمعنيين جميعا : العبادة والتجارة ؛ فهى الحجة وفيها الأُسْــوة . إلا أنّ الناس فى ركوب البحر تختلف أحوالهم ؛ فــرُبّ راكب يسهل عليه ذلك ولا يشقّ ، وآخر يشق عليه و يضعف به ؛ كالمــائد(١) المفرط المَيْد ، ومن لم يقدر معــه على أداء فرض الصــلاة ونحوها من الفرائض ؛ فالأوّل ذلك له جائز ، والثــانى يحرم عليه و يمنع منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهى :

الخامســـة — إن البحر إذا أَرْتَجَ(٢) لم يجــز ركوبه لأحد بوجه مــن الوجوه فى حين إرتجاجه ولا فى الزمن الذى الأغلب فيــه عدم السلامة ؛ و إنمــا يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون السلامة فيه الأغلب ؛ فإن الذين يركبونه حال السلامة و ينجون لا حاصر لهم ، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادســـة — قوله تعــالى : ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّــاسَ ﴾ أى بالذى ينفعهــم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بها أحوالهم . وبركوب البحر تكتسب الأرباح ، وينتفع من يحمل إليــه المتاع أيضا . وقــد قال بعض من طعن فى الدّين : إن الله تعالى يقــول فى كتابكم : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(٣) » فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من المِلْح والفُلْفُل وغير ذلك ؟ فقيل له فى قوله : « بِمَــا يَنْفَعُ النَّاسَ » .

السابعـــة — قوله تعــالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم و إخراج النبات والأرزاق ، وجعل منــه المخزون عُدّة للآنتفاع فى غير وقت نزوله ؛ كما قال تعالى : « فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ(٤) » .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرق ونشر؛ومنه « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٥) » . ودابة تجمــع الحيوان كله ؛ وقد أخرج بعض الناس الطــير ، وهو مردود ؛

(١) المــائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه حتى يدار به و يكاد يغشى عليه . (٢) أرتج البحر : إذا هاج . وقيل : إذا كثر ماؤه فعم كل شىء . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٠ (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٢
(٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٥

Marfat.com

قال الله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا »(١) فإن الطير يدبّ على رجليه فى بعض حالاته ؛ قال الأعشى :

* يدبّ قطا البطحاء فى كلّ منهل *

وقال علقمة بن عبدة :

* صواعقها لطيرهنّ دبيب *

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ تصريفها : إرسالها عقيماً ومُلْقِحة، وصِرًّا ونَصْرًا وهلاكًا، وحارّة وباردة، وليّنة وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوبًا وشمالًا، ودَبورًا وصَبًا، ونَكْباء، وهى التى تأتى بين مَهَبّى ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتى السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك ؛ و يصرف عنهما ما يضربهما، ولا اعتبار بكبر القلاع ولا صغرها ؛ فإن الريح لو جاءت جسدًا واحدًا لصدمت القلاع وأغرقت . والرياح جمع ريح سُمّيت به لأنها تأتى بالروح غالبًا . روى أبو داود عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرّيح من رَوْح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تَسُبُّوها وآسألوا الله خيرها وآستعيذوا بالله من شرها "(٢) . وأخرجه أيضا آبن ماجه فى سُنَنه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا يحيى بن سعيد عن الأوزاعى عن الزُّهْرى حدّثنا ثابت الزُّرَقى عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَسُبُّوا الريح فإنها من رَوح الله تأتى بالرحمة والعذاب ولكن سَلُوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرها " . و روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تسُبُّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن " . المعنى : أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح ؛ والإضافةُ من طريق الفعل . والمعنى : أن الله تعالى جعلها كذلك . وفى صحيح مسلم عن آبن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور "(٣) . وهذا معنى ما جاء فى الخبر أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦　　(٢) كذا ورد فى سنن أبى داود . والذى فى الأصول : « الريح من روح الله . قال سلمة : فروح الله عز وجل تأتى ... » الخ وسلمة هذا أحد من روى عنهم أبو داود هذا الحديث .

(٣) أى يوم الأحزاب . وسيأتى معنى « الصبا والدبور » .

Marfat.com

فرّج عن نبيّه صلى الله عليه وسلم بالريح يوم الأحزاب؛ فقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا »(١) . ويقال : نفّس الله عن فلان كُرْبة من كرب الدنيا ؛ أى فرّج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : "مَن نفّس عن مسلم كُرْبة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة" أى فرّج عنه . وقال الشاعر :

كأنّ الصَّبا ريح إذا ما تنسّمت * على كَبِـد مهموم تجلّت همومُها

قال ٱبن الأعرابى : النسيم أوّل هبوب الريح . وأصل الريح روح ؛ ولهذا قيل فى جمع القلة أرواح ، ولا يقال : أرياح ؛ لأنها من ذوات الواو ، وإنمـا قيل : رياح من جهة الكثرة وطاب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ﴾ قرأ حمزة والكسائى « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف و إبراهيم والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى والجاثيـة ؛ لا خلاف بينهما فى ذلك . ووافقهما ٱبن كثير فى الأعراف والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى . وأفرد حمزة « الرِّيحَ لواقحَ »(٢) . وأفرد ٱبن كثير « وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ »(٣) فى الفُرقان . وقرأ الباقون بالجمع فى جميعها ســوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع ؛ ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الرُّوم هو الثانى « اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ »(٤) . ولا خلاف بينهم فى « الرِّيَاحَ مُبَشِّراتٍ » . وكان أبو جعفر يزيد بن القَعْقَاع يجمع الرياح إذا كان فيها ألف ولام فى جميع القرآن ؛ سوى « تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ » و «الرِّيحَ العَقِيمَ» . فإن لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحّد الريح فلأنه ٱسم للجنس يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهبّ منها الرياح . ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعـل ذلك ٱعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » و « الرِّيحَ العَقِـيمَ » بخاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب؛ إلا فى يونس فى قوله : « وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت الرّيح : "اللّهمّ ٱجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا" . وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٤٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ (٤) راجع جـ ١٤ ص ٤٤

Marfat.com

واحد ، وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هى رياح . فأفردت مع الفُلْك فى « يونس » ؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هى ريح واحدة متصلة ثم وُصفت بالطّيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب .

الحادية عشرة — قال العلماء : الرّيح تحرّك الهواء ؛ وقد يشتدّ ويضعف . فإذا بَدَت حركة الهواء من تجاه القبلة ذاهبةً إلى سَمْت القِبلة قيل لتلك الريح : « الصَّبَا » . وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة وكانت ذاهبة إلى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدَّبُور » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يمين القِبلة ذاهبةً إلى يسارها قيل لها : « ريح الجنوب » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبةً إلى يمينها قيل لها : « ريح الشَّمال » . ولكل واحدة من هذه الرياح طبع ، فتكون منفعتها بحسب طبعها ؛ فالصَّبا حارّةٌ يابسة ، والدَّبُورُ باردةٌ رطبة ، والجنوب حارّةٌ رطبةٌ ، والشَّمال باردةٌ يابسة . واختلاف طباعها كاختلاف طبائع فصول السنة . وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء ؛ فجعل الربيع الذى هو أوّل الفصول حارًّا رَطْبًا ، ورتّب فيه النَّشْء والنُّمُوّ فتنزل فيه المياه ، وتُخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، ويأخذ الناس فى غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا انقضى الرّبيع تلاه الصيف الذى هو مشاكل للربيع فى إحدى طبيعتيه وهى الحرارة ، ومباين له فى الأخرى وهى الرطوبة ؛ لأن الهواء فى الصيف حارّ يابس ، فتَنْضَج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة فى الربيع . فإذا انقضى الصيف تبعه الخريف الذى هو مشاكل للصيف فى إحدى طبيعتيه وهى اليبس ، ومباين له فى الأخرى وهى الحرارة ؛ لأن الهواء فى الخريف بارد يابس ، فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيبس وتجفّ فتصير إلى حال الادّخار ، فتُقطف الثمار وتُحصد الأعناب وتَفرغ من جمعها الأشجار . فإذا انقضى الخريف تلاه الشتاء وهو ملائم للخريف فى إحدى طبيعتيه وهى البرودة ، ومباين له فى الأخرى وهو اليبس ؛ لأن الهواء فى الشتاء بارد رطب ، فتكثر الأمطار والثلوج وتَهْمُد الأرض كالجسد المستريح ؛ فلا تتحرّك إلّا أن يعيد الله تبارك وتعالى إليها حرارة

Marfat.com

ربين ، فإذا اجتمعت مع الرطوبة كان عند ذلك الذَّنْءِ والنَّمو بإذن الله سبحانه وتعالى .
وقد تهب رياح كثيرة سوى ما ذكرناه ، إلّا أن الأصول هذه الأربع . فكل ريح تهب بين ريحين فحكمها حكم الريح التى تكون فى هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى « النكباء » .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بين السَّماءِ والأَرْضِ ﴾ سُمّى السحاب سحابًا لانسحابه فى الهواء . وسحبت ذَيْلى سحْبًا . وتسحّب فلان على فلان : اجترأ . والسَّحْب : شدّة الأكل والشرب . والمسخّر : المذلّل ؛ وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأول أظهر . وقد يكون بماء وبعذاب ؛ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "بينما رجلٌ بفلاة من الأرض فسمع صوتًا فى سحابة آسْقِ حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرّة فإذا شَرْجَة[1] من تلك الشِّراج قد آستوعبت ذلك الماء كله فتتبّع الماء فإذا رجل قائم فى حديقته يحوّل الماء بِمسحاته فقال له يا عبد الله ما آسمك قال فلان للاسم الذى سَمِع فى السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألنى عن آسمى فقال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول آسق حديقة فلان لآسمك فما تصنع [فيها][2] قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه" . وفى رواية "وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وآبن السبيل" . وفى التنزيل : « واللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ »[3] ؛ وقال : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ »[4] وهو فى التنزيل كثير . وخرّج آبن ماجه عن عائشة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى سحابا مقبلًا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان فى صلاة حتى يستقبله فيقول : "اللّهُمّ إنا نعوذ بك من شرّ ما أُرسل به" فإن أمطر قال : "اللّهُمّ سَيْبًا نافعًا" مرتين أو ثلاثة ، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الرّيح والغيم عُرِف ذلك فى وجهه

(١) الحرة : أرض ذات أحجار سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٦ (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩

Marfat.com

وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّ به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته فقال: "إني خشيت أن يكون عذابًا سُلّط على أمتي". ويقول إذا رأى المطر: "رحمة". في رواية فقال: "لعله ياعائشة كما قال قوم عاد «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»[1]". فهذه الأحاديث والآي تدلّ على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم. فإن الثبوت يدلّ على عدم الانتقال؛ فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح؛ لقوله «بين» وهي مع ذلك مسخرة محمولة، وذلك أعظم في القدرة، كالطير في الهواء؛ قال الله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»[2]، وقال: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ»[3].

الثالثة عشرة — قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض؛ رواه عنه ابن عباس. ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علي عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب الجُهَني قال: رأيت ابن عباس مرّ على بغلة وأنا في بني سلمة، فمرّ به تُبيع ابن امرأة كعب فسلّم على ابن عباس فسأله ابن عباس: هل سمعت كعب الأحبار يقول في السحاب شيئا؟ قال: نعم؛ قال: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض. قال: سمعت كعبًا يقول في الأرض تنبت العام نباتا، وتنبت عاما قابلاً غيره؟ قال نعم، سمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال ابن عباس: وقد سمعت ذلك من كعب.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ» ليدلّ بها على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وَيْلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها" أي لم يتفكّر فيها ولم يعتبرها.

فإن قيل: فما أنكرت أنها أحدثت أنفسها. قيل له: هذا محال؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخل من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معدومة؛ فإن أحدثتها وهي

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ (٢) راجع ج ١٠ ص ١٥٢ (٣) راجع ج ١٨ ص ٢١٧

Marfat.com

معدومة كان محالا ؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حىّ عالم قادر مريد ، وما ليس بموجود لا يصح وصفـه بذلك . و إن كانت موجودة فوجودها يغنى عن إحداث أنفسها . وأيضا فلو جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه؛ وكذلك النجارة والنسج، وذلك محال، وما أدّى إلى المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها فى وحدانيته على مجرّد الأخبار حتى قرن ذلك بالنظـر والاعتبار فى آى من القرآن ؛ فقال لنبيه صلى الله عليه وسـلم : « قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) والخطاب للكفار ، لقوله تعالى : « وما تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » . وقال : « أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٢) يعنى بالملكوت الآيات . وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(٣) . يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكر وتدبّر حتى يستدلّوا بكونها محلّا للحوادث والتغييرات على أنها محدَثات ، وأن المحدَث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير مريد سميع بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال . وقال تعـالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٤) يعنى آدم عليه السلام ، « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ » أى جعلنا نسله وذرّيته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » إلى قوله : « تُبْعَثُونَ » . فالإنسان إذا تفكّر بهذا التنبيه بمـا جُعل له من العقل فى نفسه رآها مدبّرة وعلى أحوال شتّى مصرّفة . كان نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضْغة ثم لحمًـا وعظما؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال؛ لأنه لا يقدر على أن يُحدث لنفسه فى الحال الأفضل التى هى كمال عقله و بلوغ أشُدّه عضوًا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ؛ فيـدلّه ذلك على أنه فى حال نقصه وأوان ضعفه عن فعـل ذلك أعجز . وقـد يرى نفسه شابًا ثم كهْلًا ثم شيخًا وهو لم ينقل نفسـه من حال الشباب والقوّة إلى حال الشيخوخة والهرم . ولا آختاره لنفسه ولا فى وسعه أن يزايل حال المَشيب و يراجع قوّة الشباب ؛ فيعلم بذلك أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعًا صنعه وناقلًا نقله من حال إلى حال؛ ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر . وقال بعض الحكماء : إن كل شىء فى العـالم الكبير له نظير فى العالم الصغير ، الذى هـو بدن الإنسان ؛ ولذلك قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦ (٢) جـ ٧ ص ٣٣٠ (٣) جـ ١٧ ص ٤٠ (٤) جـ ١٢ ص ١٠٩

Marfat.com

تُبْصِرُونَ » . فخواصّ الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها، وأعضاؤه تصير عند البِلَى تراباً من جنس الأرض؛ وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن ، ومن جنس الهواء فيه الروح والنَّفَس ، ومن جنس النار فيه المِرّة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض ، وكبده بمنزلة العيون التى تستمدّ منها الأنهار؛ لأن العروق تستمدّ من الكبد . ومثانته بمنزلة البحر؛ لانصباب مافى أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار إلى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار؛ فكما أن لكل شجر ورقًا أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر. والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض. ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان؛ فهو العالَم الصغير مع العالَم الكبير مخلوق محدَث لصانع واحد؛ لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

لمّا أخبر الله سبحانه وتعالى فى الآية قبلُ ما دلّ على وحدانيّته وقدرته وعِظَم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوى العقول من يتخذ معه أندادًا؛ وواحدها نِدّ؛ وقد تقدّم[(١)] . والمراد الأوثان والأصنام التى كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها؛ قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ أى يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق؛ قاله المبرّد، وقال معناه الزجاج . أى أنهم مع عجز الأصنام يحبّونهم كحب المؤمنين لله مع قدرته . وقال ابن عباس والسُّدّى : المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون؛ يطيعونهم فى معاصى الله . وجاء الضمير فى «يُحِبُّونَهُمْ» على هذا على الأصل، وعلى الأوّل جاء ضمير الأصنام

(١) تراجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٢٣٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

ضمير مَن يعقل على غير الأصل . وقال آبن كَيْسان والزّجاج أيضا : معنى «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» أى يسوّون بين الأصنام و بين الله تعالى فى المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح ؛ والدليل على صحته : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » . وقرأ أبو رجاء «يَحَبونهم» بفتح الياء . وكذلك ما كان منه فى القرآن ، وهى لغة ؛ يقال : حببت الرجل فهو محبوب . قال الفرّاء : أنشدنى أبو تراب :

أحبّ لحبّها السُّودان حتى * حببت لحبّها سُودَ الكلاب

و« مَن » فى قوله «مَنْ يَتَّخِذُ» فى موضع رفع بالابتداء ، و «يتخذ» على اللفظ ، ويجوز فى غير القرآن «يتخذون» على المعنى ، و «يحبُّونهم» على المعنى ، و «يحبهم» على اللفظ ، وهو فى موضع نصب على الحال من الضمير الذى فى «يتخذ» أى محبين ، وإن شئت كان نعتا للأنداد ، أى محبوبة . والكاف من «كحب» نعت لمصدر محذوف ؛ أى يحبونهم حبًّا كحب الله . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أى أشدّ من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمتبوعهم . وقيل : إنمـا قال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أوّلا ثم أحبّوه . ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتمّ ؛ قال الله تعـالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وسيأتى بيان حب المؤمنين لله تعالى وحبه لهم فى سورة « آل عمران »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ قراءة أهل المدينة وأهل الشام بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء ؛ وهو آختيار أبى عبيد . وفى الآية إشكال وحذف ؛ فقال أبو عبيد : المعنى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القُوّة لله جميعا . و « يرى » على هذا من رؤية البصر . قال النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقال فى كتاب «إعراب القرآن» له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد ، وليست عبارته فيه بالجيدة ؛ لأنه يقدّر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب ؛ فكأنه يجعـله مشكوكا فيـه وقد أوجبه الله تعـالى ؛ ولكن التقدير وهو قول الأخفش :

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٩

Marfat.com

ولو يرى الذين ظلموا أن القوّة لله . و « يرى » بمعنى يعلم؛ أى لو يعلمون حقيقة قوّة الله عزّ وجلّ وشدّة عذابه . فـ « يرى » واقعة على أن القوّة لله، وسدّت مسدّ المفعولين . و « الذين » فاعل « يرى » ، وجواب « لو » محذوف؛ أى ليتبيّنوا ضرر اتخاذهم الآلهة؛ كما قال عزّ وجلّ . « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ »(١) ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ »(١) ولم يأت لـ « لَوْ » جواب . قال الزهرى وقتادة : الإضمار أشدّ للوعيد؛ ومثله قول القائل : لو رأيتَ فلانًا والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالتاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العـذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقرّوا أنّ القوّة لله ؛ فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل فى « أنّ » . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوّة لله جميعًا . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمّته ؛ فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هـذا . ويجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيـل : « أنّ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ أى لأنّ القوّة لله جميعًا . وأنشد سيبويه :

وأغفـرُ عـوراءَ الكريم آدّخارَه ❊ وأُعرِضُ عن شتم اللئيم تكرُّما

أى لادّخاره ، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهـم للعذاب لأنّ القوّة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حلّ بهم . ودخلت « إذ » وهى لمـا مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريبًا للأمر وتصحيحًا لوقوعه . وقرأ ابن عامر وحده « يرون » بضم الياء، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلّام وأبو جعفر « إن القوّة، وإن الله » بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف أو على تقـدير القول ؛ أى ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوّة لله . وثبت بنصّ هذه الآية القوّة لله، بخلاف قول المعتزلة فى نفيهم معانى الصفات القديمة؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعـالى : إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١١، ٤٠٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ ٱتُّبِعُوا ﴾ يعنى السادة والرؤساء تبرءوا ممن ٱتبعهم على الكفر؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسُّدّى : هم الشياطين المضلّون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوع . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى التابعين والمتبوعين؛ قيل : بتيقّنهم له عند المعاينة فى الدنيا . وقيل : عند العرض والمُساءلة فى الآخرة .

قلت : كلاهما حاصل، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفى الآخرة يذوقون أليم العذاب والنَّكال .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أى الوُصُلات التى كانوا يتواصلون بهـا فى الدنيا من رَحِم وغيره؛ عن مجاهد وغيره . الواحد سَبَب ووُصْلة . وأصل السَّبب الحبل يشدّ بالشىء فيجذبه؛ ثم جعـل كل ما جرّ شيئا سببًا . وقال السُّدّى وٱبن زيد : إن الأسـباب أعمالهم . والسبب الناحية؛ ومنه قول زُهير :

ومن هاب أسباب المنـايا ينلنه * ولو رام أسـبابَ السماء بسُـلّم

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ « أنّ » فى موضع رفع؛ أى لو ثبت أن لنا رَجْعة ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ جواب التمنّى . والكَرّة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت؛ أى قال الأتباع : لو رُدِدنا إلى الدنيـا حتى نعمل صالحا ونتبرّأ منهم ﴿ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ أى تبرُّأً كما؛ فالكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نصبًا على الحال، تقديرها متبرّئين؛ والتبرُّؤ الأنفصال .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ الكاف فى موضـع رفع ؛ أى الأمر كذلك . أى كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم . و« يُرِيهِمُ اللَّهُ » قيل :

Marfat.com

هي من رؤية البَصَر؛ فيكون متعدّياً لمفعولين : الأول الهـاء والميم في « يُرِيهم » . والثـاني « أعمـالَهم » ؛ وتكون « حَسَراتٍ » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون « حسراتٍ » المفعول الثالث . « أعمالَهم » قال الربيع : أي الأعمال الفاسدة التي آرتكبوها فوجبت لهم بها النـار . وقال آبن مسعود والسُّدّي : الأعمال الصالحـة التي تركوها ففاتتهم الجنـة؛ ورُوِيَت في هذا القول أحاديث . قال السدّي : ترفع لهم الجنـة فينظرون إليها و إلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون . وأضيفت هـذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها ، وأما إضافة الأعمال الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها . والحَسْرة واحدة الحسرات؛ كتمرة وتمرات، وجَفْنة وجَفَنات، وشَهْوة وشَهَوات . هذا إذا كان آسماً، فإن نعته سكّنت؛ كقولك : ضَخْمة وضَخْمات، وعَبْلة وعَبْلات . والحَسْرة أعلا درجات الندامة على شيء فائت . والتحسّر : التلهّف؛ يقال : حَسِرت عليه (بالكسر) أحْسَر حَسَراً وحَسْرة . وهي مشتقّة من الشيء الحسير الذي قد آنقطع وذهبت قوّته؛ كالبعير إذا عَيِيَ . وقيل : هي مشتقّة من حَسَر إذا كشف؛ ومنه الحاسر في الحرب : الذي لا دِرْعَ معه . والانحسار : الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليـل على خلود الكفار فيها وأنهـم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السُّنّة؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » . وسيأتي[(١)] .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٦٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية . قيـل : إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني مُدْلِج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام؛ واللّفظ عام. والطَّيِّب هنا الحلال . فهو تأكيد لاختـلاف اللفظ . وهـذا قول مالك في الطَّيِّب . وقال الشافعيّ : الطَّيِّب المستلَذّ؛ فهو

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦ .

Marfat.com

تنويع، ولذلك يمنع أكل الحيوان القَذِر. وسيأتى بيان هذا فى «الأنعام»(١) و«الأعراف»(١) إن شاء الله تعـالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ «حلالًا» حال، وقيـل مفعول . وسُمِّى الحلال حلالًا لانحلال عقدة الحَظْر عنــه . قال سهـل بن عبد الله : النَّجاة فى ثلاثة : أكل الحلال ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عبـد الله الساجى وآسمه سعيد بن يزيد : خمس خصال بها تمام العلم، وهى : معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال؛ فإن فُقِدت واحدة لم يُرْفَع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المـال حلالا حتى يصفُوَ من ستّ خصال : الربا والحرام والسُّحْت — وهو آسم مجمل — والغُلول والمكروه والشُّبهة .

الثالثــة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نَهْىٌ ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ « خُطُوات » جمع خَطْوة وخُطْوة بمعنًى واحد . قال الفــرّاء : الخطوات جمع خَطوة ؛ بالفتح . وخُطوة (بالضم) : ما بين القدمين . وقال الجَوْهرى : وجمع القِلّة خَطْوات وخُطُوات وخَطَوات، والكثير خُطًا . والخَطْوة (بالفتح) : المرّة الواحدة، والجمع خَطَوات (بالتحريك) وخِطاء؛ مثل رَكْوة ورِكاء؛ قال آمرؤ القيس :

لهـا وَثَبَاتٌ كوَثْب الظِّباءْ * فـوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطَـــر(٢)

وقرأ أبو السَّمّال العَدَوى وعُبيد بن عُمير « خَطَوات » بفتح الخـاء والطاء . وروى عن علىّ بن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن مَيمون والأعمش «خُطُؤات» بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة، من الخطأ لا من الخَطْو . والمعنى على قراءة الجمهور : ولا تَقْفُوا أثَرَ الشيطان وعمله ؛ وما لم يَرِد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان . قال آبن عباس : « خُطُوات الشَّيْطان » أعماله . مجاهد : خطاياه . السُّدّى : طاعته . أبو مِجْلَز : هى النذور فى المعاصى .

---

(١) راجع ج ٧ ص ١١٥ ، ٣٠٠ .

(٢) يقـول : مرة تخطو فتكف عن العدو ، ومرة تعدو عَدْوًا يشبه المطر . عن شرح الديوان .

Marfat.com

قلت — والصحيح أن اللفظ عامّ فى كل ما عدا السُّنن والشرائع من البِدَع والمعاصى . وتقدّم القول فى « الشيطان » مستوفًى (١) .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أخبر تعالى بأن الشّيطان عدوّ، وخبره حق وصدق . فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدوّ الذى قد أبان عداوته من زمن آدم، و بذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال بنِي آدم؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جلّ من قائل : « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » ، « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وقال : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » (٢) وقال : « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » وقال : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (٣) وقال : « إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ » (٤) وقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » (٥) . وهذا غاية فى التحذير، ومثله فى القرآن كثير . وقال عبد الله ابن عمر : إن إبليس مُوثَق فى الأرض السُّفلى، فإذا تحرّك فإن كل شرٍّ فى الأرض بين آثنين فصاعدًا من تحرّكه . وخرّج الترمذى من حديث أبى مالك الأشعرى وفيــه : ” وآمركم أن تذكروا الله فإن مَثَل ذلك كَمَثَل رجل خرج العدوّ فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفســه من الشيطان إلا بذكر الله “ الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سُمّى السُّوء سوءًا لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساءه يسوءه سُوْءًا ومساءةً إذا أحزنه . وسُؤْته فسِىءَ إذا أحزنته فحزِن؛ قال الله تعالى : « سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » (٦) . وقال الشاعر :

(١) تراجع المسألة العاشرة ج ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٢٨ . (٣) راجع ج ٦ ص ٢٩٢ .
(٤) راجع ج ١٣ ص ٢٦١ . (٥) راجع ج ١٤ ص ٣٢٣ . (٦) راجع ج ١٨ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

إن يك هذا الدهر قد ساءنى * فطالما قـــد سرّنى الدهر
الأمر عنـــدى فيهما واحد * لذاك شكرٌ ولذاك صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر ؛ كما قال :

وَجِيدٍ كجِيد الرِّيم[1] ليس بفاحشٍ *

ثم آستعملت اللفظة فيما يقبح من المعانى . والشرع هو الذى يحسّن و يقبّح ؛ فكل مانهت عنـه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مُقاتل : إن كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى ؛ إلا قوله : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » فإنه منع الزكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السوء ما لا حَدّ فيـه ، والفحشاء ما فيـه حَدٌّ . وحكى عن آبن عباس وغيره ؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبرى : يريد ما حرّموا من البحيرة[2] والسائبة[3] ونحوها مما جعلوه شرعًا . « وَأَنْ تَقُولُوا » فى موضع خفض عطفًا على قوله تعالى : « بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيـلَ لَهُـمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ ﴾ يعنى كفّار العرب . آبن عبـاس : نزلت فى اليهود . الطبرى : الضمير فى « لهم » عائد على الناس من قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا » .

---

(١) الريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . (٢) قال أبو اسحاق النحوى : « أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة أنها الناقة كانت إذا نُتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرًا بحروا أذنها أى شقّوه ، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولاتُحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المُعْيِى المنقطع به لم يركبها » .

(٣) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برئ من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة ، أى تسيب فلا ينتفع بظهرها ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ولا تركب . (عن اللسان) .

Marfat.com

وقيل : هو عائد على «من» فى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » الآية .
وقوله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى بالقبول والعمل . ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ألفينا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألْفَيْتُــه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ * ولا ذاكرِ اللهَ إلّا قليــلا

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ الألف للاستفهام، وفُتحت الواو لأنها واو عطف، عَطفتْ جملةَ كلام على جملة؛ لأن غاية الفساد فى الالتزام أن يقولوا: نتّبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون؛ فقُرِّروا على التزامهم هذا، إذ هى حال آبائهم .

مسألة — قال علماؤنا : وقُــوّة ألفاظ هــذه الآية تعطى إبطال التقليد ؛ ونظيرها : «وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» الآية . وهذه الآية والتى قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكّمت فيه بآرائها السَّفيهة فى البَحِيرة والسائبة والوصيلة(١)؛ فاحتجّوا بأنه أمْرٌ وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم فى ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رســوله وأمر به فى دينه؛ فالضمير فى «لهم» عائد عليهم فى الآيتين جميعا .

الثالثـــة — تعلّق قوم بهذه الآية فى ذم التقليد لذمّ الله تعالى الكفارَ باتباعهم لآبائهم فى الباطل، واقتدائهم بهم فى الكفر والمعصية . وهذا فى الباطل صحيح، أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدِّين، وعِصْمَةٌ من عِصَم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصِّر عن دَرْك النظر .

واختلف العلماء فى جوازه فى مسائل الأصول على ما يأتى؛ وأما جوازه فى مسائل الفروع فصـــحيح .

الرابعـــة — التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة؛ وعلى هذا فمَن قَبِل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون مُقلِّدا؛ وأمّا من نظر فيها فلا يكون مُقلِّدا .

---

(١) قال المفسرون : الوصيلة كانت فى الشاء خاصـــة ؛ كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، فإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصـلت أخاها ؛ فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وفيها معان أخر . (براجع اللسان مادة « وصل ») . وتقدم معنى « البحيرة والسائبة » ص ٢١٠

Marfat.com

وقيـل : هو آعتقاد صحة فُتْيا مَن لا يعلم صحة قوله . وهو فى اللغة مأخوذ من قِلادة البعير، فإن العرب تقول: قلّدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلاً يُقاد به، فكأن المقلِّد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقـلِّدوا أمركم لله درّكم * ثَبْتَ الجَنان بأمر الحرب مضطلعا

الخامسـة — التقليد ليس طريقًا للعلم ولا موصِّلا له، لا فى الأصول ولا فى الفروع؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء؛ خلافًا لما يحكى عن جُهّال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق، وأن ذلك هو الواجب، وأن النظر والبحث حرام؛ والآحتجاج عليهم فى كتب الأصول.

السادسـة — فرض العامى الذى لا يشتغل بآستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينـه و يحتاج إليه أن يقصد أعلم مَن فى زمانه و بلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه؛ لقوله تعالى : «فاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»(1)، وعليه الآجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه، حتى يقع عليه الآتفاق من الأكثر من الناس . وعلى العـالم أيضا فرض أن يقلد عالمـا مثله فى نازلة خفى عليـه فيها وجه الدليل والنظر، وأراد أن يجدّد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت عن ذلك ، وخاف على العبادة أن تفوت ، أو على الحكم أن يذهب، سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيًّا أو غيره؛ و إليه ذهب القاضى أبو بكر و جماعة من المحققين .

السابعـة — قال آبن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد. وذكر فيه غيره خلافًا كالقـاضى أبى بكر بن العـربى وأبى عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الشافعى . قال آبن درباس فى كتاب « الآنتصار » له : وقال بعض النـاس يجوز التقليد فى أمر التوحيد؛ وهو خطأ لقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ »(2) . فذمّهم بتقليدهم آباءهم وتركهم آتباع الرسل؛ كصنيع أهل الأهواء فى تقليدهم كبراءهم وتركهم آتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى دينه؛ ولأنه فرض على كل مكلّف تعلُّم أمر التوحيد والقطع به؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسُّنة ، كما بيّناه فى آية التوحيد(3) ، والله يهدى من يريد .

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ و جـ ١١ ص ٢٧٢ — (2) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ (3) ص ١٩٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قال ابن درباس : وقـد أكثر أهل الزيغ القولَ على من تمسّك بالكتاب والسّنة أنهـم مقلّدون . وهذا خطأ منهـم ، بل هو بهم أليق وبمذاهبهم أخلق ؛ إذ قبلوا قول ساداتهـم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسـنة رسوله و إجماع الصحابة رضى الله عنهـم ؛ فكانوا داخلين فيمن ذمّهم الله بقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا » إلى قـوله : « كَبِيراً »(١) وقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ »(٢) . ثم قال لنبيّه : « قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »(٢) ثم قال لنبيه عليه السلام « فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ »(٢) الآية . فبيّن تعالى أن الهـدَى فيما جاءت به رسله عليهم السـلام . وليس قول أهـل الأثر فى عقائدهم : إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسـنة وإجمـاع السلف الصالح من الأمة ، من قـولهم : إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل ؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل و إلى متابعة الرسول ؛ وأولئـك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فازدادوا بذلك فى التضليل ؛ ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام فى القرآن حيث قال : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ »(٣) . فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياءَ متّبعين للوحى وهو الدين الخالص الذى ارتضاه الله ، كان اتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلّقها بالجواهر وانقلابها فيها ؛ فدلّ على أن لا هُدَى فيها ولا رشد فى واضعيها .

قال ابن الحصّار : وإنمـا ظهر التلفـظ بها فى زمن المأمون بعد المـائتين لمـا تُرجمت كتب الأوائل وظهر فيها اختلافهم فى قدم العالَم وحدوثه . واختلافهم فى الجوهر وثبوته ، والعَرَض وماهيّتـه ؛ فسارع المبتـدعون ومَن فى قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السّنة ، و إدخال الشّبه على الضعفاء من أهل المِلّة . فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البِدْعة، وصارت للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان ؛ حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٤٩ . (٢) راجع ج ١٦ ص ٧٤ فا بعدها . (٣) راجع ج ٩ ص ١٩٠ .

Marfat.com

فانتدب رجال من أهـل السُّنة كالشيخ أبى الحسن الأشعرى وعبد الله[1] بن كُلّاب وآبن مجاهد والمحاسـبى وأضرابهم ؛ فخاضوا مع المبتـدعة فى اصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتـلوهم بسلاحهم . وكان مَن دَرَج من المسلمين من هذه الأمة متمسّكين بالكتاب والسُّنة، معرضين عن شُبَه الملحدين ، لم ينظروا فى الجوهر والعَرَض ؛ على ذلك كان السَّلف .

قلت : ومن نظر الآن فى آصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدِّين فمنزلته قريبة من النبيّين . فأمّا مَن يهجن من غلاة المتكلمين طريق مَن أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحـق إلا من جهتها بتلك الأصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدّمين من الأئمة المـاضين ؛ والله أعلم . وأما المخاصمة والجدال بالدليل والبرهان فذلك بيّن فى القرآن ؛ وسيأتى بيانه[2] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَثَـلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَـا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالراعى الذى يَنْعِق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقـول ؛ هكذا فسّره آبن عباس ومجاهـد وعِكرمة والسّدّى والزجاج والفَـرّاء وسيبويه ؛ وهذه نهاية الإيجاز . قال سـيبويه : لم يُشبَّهوا بالناعق إنما شُبّهوا بالمنعـوق به . والمعنى : ومثَـلك يا محمد ومَثَل الذين كفروا كمَثَـل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال آبن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جَوْف الليل فيجيبه الصَّدَى ؛ فهو يصيح بما لا يسمع ، ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع . وقال قُطْرُب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم ، يعنى الأصنام ، كمثل الراعى إذا نَعَق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . قال الطبرى : المراد مثَـل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثل الذى ينعق بشىء بعيـد فهو لا يسمع من أجل

(١) فى الأصول : «وأبى عبد الله» والتصويب عن القاموس وشرحه ، وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب التميمى البصري ، وهو رأس الطائفة الكلابية من أهل السنة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ٩٤ ، جـ ١٣ ص ٣٥٠

Marfat.com

البعـد ؛ فليس للناعق من ذلك إلا النّـداء الذى يُتعبـه ويُنصبه . ففى هـذه التأويلات الثلاثة يشبّه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به. والنّعيق: زجر الغنم والصياح بها؛ يقال : نَعَق الراعى بغنمه يَنْعِق نَعِيقا ونُعاقًا ونَعَقانًا؛ أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل:

انعِـق بضأنك يا جريرُ فإنمـا * منّتك نفسك فى الخلاء ضلالَا

قال القُتَبِيّ : لم يكن جرير راعى ضأن ، وإنمـا أراد أن بنى كُلَيب يُعَـيَّرون برعى الضأن ، وجرير منهم ؛ فهو فى جهلهم . والعـرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهـل ويقولون : « أجهل من راعى ضأن» . قال القتبِيّ : ومن ذهب إلى هـذا فى معنى الآية كان مذهبًا؛ غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم .

والنداء للبعيد، والدعاء للقريب ؛ ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد . وقد تضمّ النون فى النـداء والأصل الكسر . ثم شبّه تعـالى الكافرين بأنهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ . وقد تقدّم فى أوّل السورة[1] .

قوله تعـالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

هذا تأكيد للأمر الأوّل، وخصّ المؤمنين هنا بالذكر تفضيلًا. والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيـل : هو الأكل المعتاد . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيّباً وإن الله أمر المؤمنين بمـا أمر به المرسلين فقال «يَأَيُّهَـا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» وقال «يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ثم ذكر الرجلُ[2] يُطيل السّفَر أشعثَ أغبرَ يمـدّ يديه إلى السّماء يارَبِّ يا رَبِّ ومَطْعَمه حرام [ومشربه حرام] ومَلْبَسه حرام [وغُذِىَ بالحـرام][3] فأنّى يُستجاب لذلك " . ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ﴾ تقدّم معنى الشكر[4] فلا معنى للإعادة .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية .　(٢) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم . و«الرجل» بالرفع مبتدأ ، مذكور على الحكاية من لفظ الرسول عليه السلام . ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » .　(٣) الزيادة عن صحيح مسلم .　(٤) تراجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسألة[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ « إنما » كلمة موضوعة للحصر ، تتضمن النفى والإثبات ؛ فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه ، وقد حصرت ها هنا التحريم ، لا سيما وقد جاءت عقيب التحليل فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » فأفادت الإباحة على الإطلاق، ثم عقبها بذكر المحرم بكلمة « إنما » الحاصرة ، فاقتضى ذلك الإيعاب للقسمين ؛ فلا محرم يخرج عن هذه الآية ، وهى مدنية ، وأكدها بالآية الأخرى التى روى أنها نزلت بعرفة : « قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ » إلى آخرها ؛ فاستوفى البيان أولا وآخرا ؛ قاله ابن العربى . وسيأتى الكلام فى تلك فى « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — «الْمَيْتَةَ» نصب بـ «حرّم» ، و«ما» كافة . ويجوز أن تجعلها بمعنى الذى ، منفصلة فى الخط ، وترفع «الميتة والدم ولحم الخنزير» على خبر «إنّ» وهى قراءة ابن أبى عبلة . وفى « حرّم » ضمير يعود على الذى ؛ ونظيره قوله تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ »[3] . وقرأ أبو جعفر « حُرِم » بضم الحاء وكسر الراء ورفع الأسماء بعدها ، إمّا على ما لم يسم فاعله ، وإمّا على خبر إن . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضا « الميّتة » بالتشديد . الطبرى : وقال جماعة من اللغويين : التشديد والتخفيف فى ميْت وميّت لغتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه «ميْت» بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[4] . وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميْت * إنما الميْت ميّت الأحياء

(١) اضطربت جميع نسخ الأصل فى ذكر هذه المسائل ، فبعضها أسقط الثانية ، وأخرى « الحادية والعشرين » . أخرى « الرابعة والعشرين » . (٢) راجع جـ٧ ص ١١٥ (٣) راجع جـ١١ ص ٢٢٣ (٤) راجع جـ١٥ ص ٢٥٤

Marfat.com

ولم يقـرأ أحد بتخفيف ما لم يمت ؛ إلا ما روى البَزّى عن ابن كثير « وَمَا هُـوَ بِمَيْتٍ »[1] والمشهور عنه التثقيل ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم　*　فسرّك أن يعيش فجئ بزاد

فلا أبلـغ فى الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة؛ وقـد ذهب بعض النـاس إلى أنه أراد من شارف الموت؛ والأول أشهر .

الثالثـــة — الميْتة : ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يُذبح؛وما ليس بمأكول فذكاته كموته ؛ كالسباع وغيرها ، على ما يأتى بيانه هنا وفى « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : "أُحلّت لنا مَيْتتان الحُوتُ والجراد ودَمانِ الكبدُ والطّحال" . أخرجه الدّارَقُطْنِيّ ، وكذلك حديث جابر فى العنْبَر[3] يخصص عموم القرآن بصحة سـنده . خرّجه البخاريّ ومسلم مع قوله تعـالى : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ »[4]، على ما يأتى بيانه هناك، إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل العـلم على جواز أكل جميع دواب البحر حَيّها ومَيّتها؛ وهو مذهب مالك . وتوقّف أن يجيب فى خنزير المـاء وقال : أنتم تقولون خنزيرا ! . قال ابن القاسم : وأنا أتقيه ولا أراه حراما .

الخامســـة — وقد اختلف الناس فى تخصيص كتاب الله تعالى بالسُّنة ، ومع اختلافهم فى ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف ؛ قاله ابن العربى . وقد يستدلّ على تخصيص هذه الآية أيضا بما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : غزَوْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . وظاهره أكله كيف ما مات بعـلاج أو حَتْف أنفـه ؛ وبهذا قال ابن نافع وابن عبـد الحكم وأكثر العلمـاء ؛ وهو مذهب الشافعيّ وأبى حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حَتْفَ أنفه؛ لأنه من صـيد البر، ألَا ترى أن المُحْرِم يجزئه إذا قتله، فأشـبه الغزال . وقال

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٢　　(٢) راجع جـ ٧ ص ١١٦ .　　(٣) العنبر : سمكة كبيرة بحرية تتخذ من جلدها الأتراس ، ويقال للترس : عنبر، وسمى هذا الحوت بالعنبر لوجوده فى جوفه . (عن القسطلانى واللسان) .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣١٨ .

Marfat.com

أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل. وسيأتى لحكم الجراد مزيد بيان فى « الأعراف » عند ذكره، إن شاء الله تعالى .(1)

السادســة — وآختلف العلماء هل يجـوز أن ينتفع بالميتـة أو بشىء من النجاسات، وآختلف عن مالك فى ذلك أيضا ؛ فقال مرة : يجوز الانتفاع بها ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميمونة فقال : " هلّا أخذتم إهابها " الحديث . وقال مرّة : جملتها محرّم، فلا يجوز الانتفاع بشىء منها ، ولا بشىء من النجاسات على وجه من وجوه الانتفاع ؛ حتى لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان المـاء النجس ، ولا تعلف البهائم النجاسات ، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع ، وإن أكلتها لم تمنع . ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ» ولم يخص وجهًا من وجه ، ولا يجوز أن يقال : هذا الخطاب مجمل ؛ لأن المجمل ما لا يفهم المراد من ظاهره ، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعـالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » ، وأيضا فإن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " لا تنتفعوا من الميتة بشىء " . وفى حديث عبد الله بن عكيم " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب " . وهذا آخر ما ورد به كتابه قبـل موته بشهر؛ وسيأتى بيانـ(2) هذه الأخبـار والكلام عليهـا فى « النحـل » إن شاء الله تعـالى .

السابعــة — فأما الناقة إذا نحرت ، أو البقرة أو الشـاة إذا ذبحت ، وكان فى بطنهـا جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له فى نفسه، إلّا أن يخرج حيًّا فيذكّى ، ويكون له حكم نفسه؛ وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتًا جرى مجرى العضو من أعضائها . ومما يبيّن ذلك أنه لو باع الشاة وآستثنى ما فى بطنها لم يجز ، كما لو آستثنى عضوًا منها ، وكانـ ما فى بطنها تابعا لها كسائر أعضائها . وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما فى بطنها عتقًا مبتدأ ؛ ولو كان منفصلا عنها لم يتبعها فى بيع ولا عتق . وقد روى جابر رضى الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون فى بطنها جنين ميت؛ فقال : " إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه " . خرّجه أبو داود بمعناه من حديث

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٦٨ . (2) فى قوله تعالى : «إنما حرم عليكم الميتة ..» آية ١١٥ ولم يذكر المؤلف فيها شيئا، بل أحال على ما هنا؛ راجع جـ ١٠ ص ١٩٥ .

Marfat.com

أبي سعيد الخُدْرِي وهو نصّ لا يحتمل . وسيأتي لهـذا مزيد بيان في سورة « المـائدة »[1] إن شاء الله تعالى .

الثامنــة — واختلفت الرواية عن مالك في جِلْد الميتة هل يطهـر بالدباغ أولا ؛ فرُوِي عنه أنه لا يطهر ، وهو ظاهر مذهبه . ورُوِيَ عنه أنه يطهر ؛ لقوله عليه السلام "أيّمـا إهابٍ دُبِغ فقد طَهُر" . ووجه قوله : لا يطهر ؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منهـا في حال الحياة كان نجسًا ، فوجب ألّا يطهره الدّباغ قياسًا على اللحم . وتُحمل الأخبار بالطهارة على أن الدّباغ يُزيل الأوساخ عن الجلد حتى يُنتفع به في الأشياء اليابسة وفي الجلوس عليـه ، ويجوز أيضا أن يُنتفع به في المـاء بأن يجعل سقاء ؛ لأن المـاء على أصل الطهارة مالم يتغيّر له وصف على ما يأتي من حكمه في سـورة « الفرقان »[2] . والطهارة في اللغة متوجّهة نحو إزالة الأوساخ كما تتوجّه إلى الطهارة الشرعية ، والله تعالى أعلم .

التاســعة — وأما شعر الميتة وصوفُها فطاهر ؛ لمـا رُوِيَ عن أم سَلَمة رضي الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا بأس بمَسْك الميتة إذا دُبِغ وصوفها وشـعرها إذا غُسِل" . ولأنه كان طاهرًا لو أُخِذ منها في حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت ، إلا أن اللحم لمـا كان نجسًا في حال الحياة كان كذلك بعد الموت ؛ فيجب أن يكون الصوف خلافه في حال الموت كما كان خلافه في حال الحياة آستدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيضة من الدجاجة الميتة ؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعد الموت . وكذلك البيضة ؛ ولكنهما حصلا في وعاء نجس فتنجّسا بمجاورة الوعاء لا أنهما نُجّسا بالموت . وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة والتي قبلها وما للعلماء فيهما من الخلاف في سورة « النحل »[3] إن شاء الله تعالى .

العـاشرة — وأما ما وقعت فيه الفأرة فله حالتان : حالة تكون إن أُخرجت الفأرة حيّة فهو طاهر . وإن ماتت فيه فله حالتان : حالة يكون مائعًا فإنه ينجس جميعه . وحالة يكون جامدًا فإنه ينجس ماجاورها ، فتُطرح وما حولها ، ويُنتفع بما بقي وهو على طهارته ؛ لمـا روي أن النبي صلّى الله عليه وسلم سُـئل عن الفأرة تقع في السمن فتموت ؛ فقال عليه السلام :

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٠ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٥

Marfat.com

" إن كان جامدًا فاطرحوها وما حولها و إن كان مائعًا فأريقوه ". واختلف العلماء فيه إذا غُسل؛ فقيل : لايطهر بالغسل؛ لأنه مائع نجس فأشبه الدّم والخمر والبول وسائر النجاسات . وقال ابن القاسم : يطهر بالغسل ؛ لأنه جسم تنجّس بمجاورة النّجاسة فأشبه الثوب؛ ولا يلزم على هذا الدم؛ لأنه نجس بعينه، ولا الخمر والبول لأن الغسل يستهلكهما ولا يتأتّى فيه .

الحادية عشرة — فإذا حكمنا بطهارته بالغسل رجع إلى حالته الأولى فى الطهارة وسائر وجوه الانتفاع ؛ لكن لا يبيعه حتى يبيّن؛ لأن ذلك عَيب عند الناس تأباه نفوسهم . ومنهم من يعتقد تحريمه ونجاسته ؛ فلا يجوز بيعه حتى يبيّن العيب كسائر الأشياء المَعيبة . وأما قبل الغسل فلا يجوز بيعه بحال ؛ لأن النجاسات عنده لايجوز بيعها ، ولأنه مائع نجس فأشبه الخمر، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن الخمر فقال: " لعن الله اليهود حرّمت عليهم الشّحوم فجَمَلُوها(1) فباعوها وأكلوا أثمانها " . وأن الله إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه . وهذا المائع محرّم لنجاسته.فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر .

الثانية عشرة — واختلف إذا وقع فى القدر حيوان : طائر أو غيره [فمات] فروى ابن وهب عن مالك أنه قال : لا يؤكل مافى القِدْر ، وقد تنجّس بمخالطة الميتة إياه . وروى ابن القاسم عنه أنه قال : يُغسل اللحم ويُراق المرق . وقد سئل ابن عباس عن هذه المسألة فقال : يغسل اللحم ويؤكل. ولا مخالف له فى المرق(2) من أصحابه ؛ ذكره ابن خُوَيْزِمَنْدَاد .

الثالثة عشرة — فأما أنفحة الميتة ولبن الميتة فقال الشافعيّ : ذلك نجس لعموم قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » . وقال أبو حنيفة بطهارتهما ؛ ولم يجعل لموضع الخلقة أثرًا فى تنجس ما جاوره مما حدث فيه خلقة، قال: ولذلك يؤكل اللحم بما فيه من العروق، مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير تطهير ولا غسل إجماعًا.وقال مالك نحو قول أبى حنيفة إن ذلك لاينجس بالموت ، ولكن ينجس بمجاورة الوعاء النجس وهو مما لا يتأتّى فيه الغسل .

---

(1) جمل الشحم وأجمله : أذابه واستخرج دهنه . (2) فى بعض الأصول والنسخة الأزهرية : « ولا مخالف له فى الصحابة » .

Marfat.com

وكذلك الدجاجة تخرج منها البيضة بعد موتها؛ لأن البيضة لَيِّنة فى حكم المـائع قبل خروجها، وإنمـا تجمد وتصاب بالهواء .

قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد فإن قيل : فقولكم يؤدِّى إلى خلاف الإجماع؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان مجلوبًا إليهم من أرض العجم، ومعلوم أن ذبائح العجم وهم مجوس مَيْتَـة ، ولم يعتدّوا بأن يكون مجمّدا بأنفحة مَيْتَة أو ذُكَّى . قيـل له : قدر مايقع من الأنفحة فى اللبن المجبّن يسـير؛ واليسير من النجاسة معفو عنه إذا خالط الكثير من المـائع . هذا جواب على إحدى الروايتين . وعلى الرواية الأخرى إنمـا كان ذلك فى أوّل الإسلام، ولايمكن أحد أن ينقل أن الصحابة أكلت الجبن المحمول من أرض العجم، بل الجبن ليس من طعام العرب؛ فلما ٱنتشر المسلمون فى أرض العجم بالفتوح صارت الذبائح لهم؛ فمن أين لنـا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلت جبنًا فضـلًا عن أن يكون محمولًا من أرض العجم ومعمولًا من أنفحة ذبائحهم ! .

وقال أبو عمر : ولا بأس بأكل طعام عَبَدة الأوثان والمجوس وسائر من لا كتاب له من الكفار ما لم يكن من ذبائحهم ولم يحتج إلى ذكاة إلا الجبن لمـا فيه من أنفحة الميتة . وفى سنن ٱبن ماجه « الجبن والسمن » حدّثنا إسماعيل بن موسى السدّى حدّثنا سيف بن هارون عن سليمان التيميّ عن أبى عثمان النَّهدى عن سلمان الفارسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفِرَاء . فقال : " الحلال ما أحلّ الله فى كتابه والحرام ماحرّم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو ممـا عفا عنه " .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَالدَّمَ ﴾ ٱتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : وأما الدم فمحرّم ما لم تعمّ به البلوى، ومعفوّ عما تعمّ به البلوى . والذى تعمّ به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه، ويسيره فى البدن والثوب يُصلَّى فيه . وإنمـا قلنا ذلك لأن الله تعـالى قال : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ »، وقال فى موضـع آخر : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا[1] »

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥

Marfat.com

فحرم المسفوح من الدم . وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرْمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلوها الصُّفرة من الدم فنأكل ولا ننكره ؛ لأن التحفظ من هذا إصْرٌ وفيه مشقة، والإصر والمشقة فى الدِّين موضوع . وهذا أصل فى الشرع ، أن كلما حَرِجت الأمة فى أداء العبادة فيه وثَقُل عليها سقطت العبادة عنها فيه ؛ ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة، وأن المريض يُفطر ويتيَمّم فى نحو ذلك .

قال : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا، وقيّده فى الأنعام بقوله « مَسْفُوحًا »[1] وحمل العلماء هاهنا المطلق على المقيّد إجماعا . فالدم هنا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرّم بإجماع، وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه . وفى دم الحوت المزايل له ٱختلاف؛ ورُوى عن القاسى أنه طاهر ، ويلزم على طهارته أنه غير محرّم . وهو ٱختيار ٱبن العربى ، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسًا لشُرعت ذكاته .

قال : وهو مذهب أبى حنيفة فى دم الحوت ؛ سمعت بعض الحنفيّة يقول : الدليل على أنه طاهر أنه إذا يبس ٱبيضّ بخلاف سائر الدماء فإنه يسودّ . وهذه النكتة لهم فى الٱحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خصّ الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذُكِّىَ أو لم يُذَكَّ، وليعمّ الشحم وما هنالك من الغضاريف[2] وغيرها .

السادسة عشرة — أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير . وقد ٱستدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألّا يأكل شحمًا فأكل لحمًا لم يحْنَث بأكل اللحم . فإن حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحما حَنِث ؛ لأن اللحم مع الشحم يقع عليه ٱسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم فى ٱسم اللحم ولا يدخل اللحم فى ٱسم الشحم . وقد حرّم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه ؛ لأنه دخل تحت ٱسم اللحم . وحرّم الله تعالى على بنى إسرائيل الشُّحوم بقوله : « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا » فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل فى ٱسم الشحم ؛ فلهذا فرّق مالك بين الحالف

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٣ . (٢) الغضروف والغرضوف : كل عظم ليّن رَخْص فى أى موضع كان .

Marfat.com

فى الشحم والحالف فى اللحم ؛ إلا أن يكون للحالف نية فى اللحم دون الشحم فلا يحنث ؛ والله تعالى أعلم . ولا يحنث فى قول الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا . وقال أحمد : إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتناب الدسم .

السابعة عشرة — لا خلاف أن جملة الخنزير محرّمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به . وقد رُوى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير؛ فقال : "لا بأس بذلك" ذكره ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد، قال: ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ، وبعده موجودة ظاهرة ، لا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجازه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كابتداء الشرع منه .

الثامنة عشرة — لا خلاف فى تحريم خنزير البر كما ذكرنا ؛ وفى خنزير الماء خلاف. وأبَى مالك أن يجيب فيه بشىء ، وقال : أنتم تقولون خنزيرا ! وقد تقدم ؛ وسيأتى بيانه فى « المائدة »[1] إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية. وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خَزَر العَيْن ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هذا ثلاثية . وفى الصحاح : وتخازر الرَّجُل إذا ضيّق جَفْنه ليحدّد النظر . والخَزَر : ضِيق العين وصغرها. رجل أَخْزَر بيّن الخَزَر . ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤْخرِها . وجمعُ الخنزير خنازير. والخنازير أيضا علّة معروفة ، وهى قروح صُلْبة تحدث فى الرقبة .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ أى ذكر عليه غير اسم الله تعالى ، وهى ذبيحة المجوسىّ والوثنىّ والمُعَطِّل . فالوثنىّ يذبح للوثن ، والمجوسىّ للنار ، والمُعَطِّل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه . ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسىّ لناره والوثنى لوثنه لا يؤكل ، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعى وغيرهما و إن لم يذبحا لناره ووثنه ؛ وأجازهما ابن المسيّب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره . وسيأتى لهذا مزيد بيان

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٢٠ .

Marfat.com

إن شاء الله تعالى فى سـورة « المـائدة »(١) . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أَهَلَّ بكذا ؛ أى رفع صوته . قال آبن أحمر يصف فلاة :

يُهِـلّ بالفَرْقَـد رُكبانُها * كما يُهِلّ الراكب المُعْتَمِر

وقال النـابغة :

أو دُرّةٌ صَـدَفيّةٌ غَوّاصهـا * بَهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويَسجُدُ

ومنـه إهلال الصبيّ وآستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . وقال آبن عباس وغيره : المراد ما ذُبح للأنصاب والأوثان ، لا ما ذُكر عليه آسم المسيح ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «المـائدة»(١) إن شاء الله تعـالى . وجرت عادة العـرب بالصياح باسم المقصـود بالذبيحة ، وغلب ذلك فى آستعمالهم حتى عبّر به عن النية التى هى علة التحريم ؛ ألا ترى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه راعى النية فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها ممـا أُهِلّ لغير الله به ؛ فتركها النـاس . قال آبن عطية : ورأيت فى أخبـار الحسن بن أبى الحسن أنه سـئل عن آمرأة مترفة صنعت للُعَبِها عرسا فنحرت جَزُورا ؛ فقال الحسن : لا يحـل أكلها فإنها إنمـا نُحرت لصنم .

قلت : ومن هـذا المعنى ما رويناه عن يحيى بن يحيى التميمى شيخ مسـلم قال : أخبرنا جرير عن قابوس قال : أرسـل أبى آمرأة إلى عائشة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها السلام منه ، وتسـألهـا أيّة صـلاة كانت أعْجَبَ إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدوم عليها . قالت : كان يصـلّى قبل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويحسن الركوع والسجود ، فأمّا ما لم يَدَع قطّ ، صحيحا ولا مريضا ولا شاهدا ، ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت آمرأة عند ذلك من النـاس : يا أمّ المؤمنين ، إن لنا أظآرًا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيهدون لنا منه ، أفنأكل منه شيئا ؟ قالت : أمّا ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم .

الحـادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ آضْطُرَّ ﴾ قرئ بضم النون للاتباع وبالكسر وهو الأصل لآلتقاء السـاكنين ، وفيه إضمـار ؛ أى فمن آضطر إلى شىء من هذه

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ .

Marfat.com

المحرمات أى أُحوِج إليها ؛ فهو ٱفتعل من الضرورة . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن « فمن ٱطَّرّ » بإدغام الضاد فى الطاء . وأبو السَّمّال « فمن ٱضطِر » بكسر الطاء . وأصله ٱضطرر فلما أدغمت نقلت حركة الراء إلى الطاء .

الثانية والعشرون — الاضطرار لايخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع فى مَخْمَصَة . والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيّره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أُكره وغُلب على أكل هذه المحرمات . قال مجاهد : يعنى أُكره عليــه كالرجل يأخذه العــدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصــية الله تعالى ؛ إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المَخْمَصَة فلا يخلو أن تكون دائمة أولا ؛ فإن كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع من الميتة ؛ إلا أنه لا يحــل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيــه قَطْعًا ؛ كالتمر المعلق وحَرِيسة الجبل(1) ، ونحو ذلك مما لا قَطْع فيه ولا أذًى . وهذا ممــا لا ٱختلاف فيه ؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر إذ رأينا إبلًا مصرورة(2) بعضاه الشجر فثُبْنا إليها فنادانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا إليه فقال: " إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم ويُمْنُهم(3) بعد الله أيسرّكم لو رجعتم إلى مَزَاودكم فوجدتم مافيهــا قد ذُهب به أترون ذلك عدلا " قالوا لا ؛ فقال : " إن هــذه كذلك " . قلنا : أفرأيت إن ٱحتجنا إلى الطعام والشراب ؟ فقال: " كل ولا تحمل وٱشرب ولا تحمل". خرّجه ٱبن ماجه رحمه الله ؛ وقال : هذا الأصل عندى . وذكره ٱبن المنذر قال : قلنا يارسول الله ، ما يحلّ لأحدنا من مال أخيه إذا ٱضــطرّ إليــه ؟ قال : " يأكل ولا يحمــل ويشرب ولا يحمل" . قال ٱبن المنذر : وكل مختلف فيه بعد ذلك مردود إلى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وجملة القول فى ذلك أن المســلم إذا تعيّن عليــه ردّ رَمَق مُهْجة المســلم ، وتوجّه

(1) الحريســة : الشاة تسرق ليلا . وفى الحــديث " لاقطــع فى حريســة الجبل " أى ليس فيما يحرس بالجبل قطع ؛ لأنه ليس بحرز .	(2) مصرورة : مربوطة الضروع ؛ وكان عادة العرب أنهم إذا أرسلوا الحلوبات إلى المراعى ربطوا ضروعها .	(3) كذا فى سنن ٱبن ماجه ؛ أى بركتهم وخيرهم . وفى الأصول «قيمهم» .

Marfat.com

الفرض فى ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميق تلك المهجة الآدمية. وكان للممنوع منه ماله من ذلك محاربة من منعه ومقاتلته، وإن أتى ذلك على نفسه؛ وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير؛ فحينئذ يتعين عليه الفرض. فإن كانوا كثيرًا أو جماعة وعددًا كان ذلك عليهم فرضًا على الكفاية. والماء فى ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء. إلا أنهم اختلفوا فى وجوب قيمة ذلك الشيء على الذى ردّت به مهجته ورمق به نفسه؛ فأوجبها موجبون، وأباها آخرون. وفى مذهبنا القولان جميعًا. ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم فى وجوب ردّ مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشيء اليسير الذى لا مضرّة فيه على صاحبه وفيه البُلْغة.

الثالثة والعشرون — خرّج ابن ماجه أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا شَبابة (ح)[1] وحدّثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالا حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس قال: سمعت عبّاد بن شرحبيل — رجلا من بنى غُبَر — قال: أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطًا[2] من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلته فى كسائى؛ فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته؛ فقال للرجل: "ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساغبا ولا علّمته إذ كان جاهلا" فأمره النبىّ صلى الله عليه وسلم فردّ إليه ثوبه، وأمر له بوَسْق من طعام أو نصف وَسق.

قلت: هـذا حديث صحيح اتفق على رجاله البخارىّ ومسلم؛ إلا ابن أبى شيبة فإنه لمسلم وحده. وعبّاد بن شرحبيل الغُبرى اليشكُرى لم يُخرج له البخارى ومسلم شيئا، وليس له عن النبىّ صلى الله عليه وسلم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمه الله، وهو ينفى القطع والأدب فى المخمصة. وقد روى أبو داود عن الحسن عن سَمُرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أتى أحدكم على ماشية فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه فإن أذن له فليحتلب وليشرب وإن لم يكن فيها فليُصَوّت ثلاثا فإن أجاب فليستأذنه فإن أذن له وإلا فليحتلب وليشرب

(١) إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد: « ح » وهى مأخوذة من التحول ... الخ. راجع كتب المصطلح. (٢) الحائط: البستان من النخيل وغيره إذا كان عليه جدار.

Marfat.com

ولا يحمـل ". وذكر الترمذى عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " من دخل حائطا فليأكل ولا يتخذ خُبْنة ". قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم. وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق؛ فقال: "من أصاب منه من ذى حاجة غير متَّخذ خُبْنة فلا شيء عليه ". قال فيه : حديث حسن. وفى حديث عمر رضى الله عنه: " إذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل ولا يتخذ ثِبَـانًا ". قال أبو عبيد قال أبو عمر : وهو الوعاء الذى يُحمل فيـه الشيء؛ فإن حملته بين يديك فهو ثِبان؛ يقال : قـد تَثَبّنت ثِبانا ؛ فإن حملته على ظهرك فهو الحال؛ يقال منه: قد تحوّلت كسائى إذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك. فإن جعلته فى حضنك فهو خُبْنة؛ ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتخذ خُبْنة". يقال منه : خَبَنْت أَخْبِن خَبْنًا . قال أبو عبيد : وإنما يوجّه هذا الحديث أنه رُخّص فيه للجائع المضطّر الذى لا شيء معه يشترى به ألّا يَحمل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتّفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فإن كانت هناك عادة بعمل ذلك كما كان فى أوّل الإسـلام ، أوكما هو الآن فى بعض البلدان، فذلك جائز . ويُحمل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة، كما تقدّم والله أعلم .

وإن كان الثـاني(1) وهو النادر فى وقت من الأوقات؛ فاختلف العلمـاء فيها على قولين : أحدهما — أنه يأكل حتى يشبع ويتضلّع(2) ؛ ويتزود إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر ، وإذا وجد عنها غِنًى طرحها . قال معناه مالك فى مُوَطّئـه؛ وبه قال الشافعيّ وكثير من العلماء . والحجة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود مباحًا. ومقدار الضرورة إنما هو فى حالة عدم القوت إلى حالة وجوده . وحديث العَنْبر نصٌّ فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لمـا رجعوا من سـفرهم وقد ذهب عنهم الزاد، انطلقوا إلى ساحل البحر فرُفع

(1) يريد بالثانى أحد فرضى المخمصة الذى تقدم فى المسألة « الثانية والعشرين » وهو غير الدائمة .
(2) تضلّع : امتلأ شبعا أو ريًّا .

Marfat.com

لهم على ساحله كهيئة الكثيب الضخم، فلما أتوه إذا هى دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيـدة أميرهم : مَيْتة . ثم قال : لا ، بل نحن رسـل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سبيل الله، وقـد آضطررتم فكلوا . قال : فأقمنا عليها شهرا ونحن ثلثمائة حتى سَمِنَّا ، الحـديث . فأكلوا وشبعوا – رضوان الله عليهم – مما آعتقدوا أنه ميتة وتزودوا منها إلى المدينة، وذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا " فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة . يأكل بقدر سدّ الرمق . وبه قال آبن المـاجشون وآبن حبيب وفرّق أصحاب الشافعى بين حالة المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسـدّ رمقه ، والمسافر يتضلّع ويتزوّد : فاذا وجد غِنًى عنها طرحهـا ، وإن وجد مضطرا أعطاه إياها ولا يأخذ منـه عِوضًـا ، فإنّ المَيْتـة لا يجوز بيعها .

الرابعة والعشرون – فإن آضطرّ إلى خمر فإن كان بإكراه شرب بلا خلاف ، وإن كان بجـوع أو عطش فلا يشرب ، وبه قال مالك فى العتبيّة قال : ولا يزيده الخمر إلا عطشًا . وهو قول الشافعى ، فإن الله تعالى حرّم الخمر تحريمًا مطلقًا ، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة. وقال الأبهرى : إن ردّت الخمر عنه جوعًا أو عطشًا شربها ، لأن الله تعـالى قال فى الخنزير «فإنّه رِجْسٌ» ثم أباحه للضرورة. وقال تعالى فى الخمر إنها «رجس» فتدخل فى إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلىّ الذى هو أقوى من القياس، ولا بدّ أن تروى ولو ساعة وترد الجوع ولو مدّة .

الخامسة والعشرون – روى أصبغ عن آبن القاسم أنه قال : يشرب المضطرُّ الدمَ ولا يشرب الخمر، ويأكل الميتة ولا يقرب ضَوَالّ الإبل – وقاله آبن وهب – ويشرب البول ولا يشرب الخمر، لأن الخمر يلزم فيها الحدّ فهى أغلظ . نص عليه أصحاب الشافعى .

السادسة والعشرون – فإن غصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أولا ، فقيل . لا ، مخافة أن يدّعى ذلك . وأجاز ذلك آبن حبيب ، لأنها حالة ضرورة . آبن العربى : «أما الغاصّ بلقمة

Marfat.com

فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى ، وأما فيما بيننا فإن شاهدناه فلا تخفى علينا بقرائن الحال صـورة الغُصّة من غيرها؛ فيصدق إذا ظهر ذلك ؛ وإن لم يظهر حدّدناه ظاهرًا وسَـلِم من العقوبة عند الله تعـالى باطنًا . ثم إذا وجد المضطرّ ميتةً وخنزيرا ولحمَ آبنِ آدم أكل الميتة؛ لأنها حلال فى حال . والخنزيرُ وآبنُ آدم لا يحلّ بحال. والتحريم المخفَّف أولى أن يقتحم من التحريم المثقل؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية،وطئ الأجنبية لأنها تحل له بحال. وهذا هو الضابط لهذه الأحكام.ولا يأكل آبنَ آدم ولو مات؛ قاله علماؤنا،وبه قال أحمد وداود. احتجّ أحمد بقوله عليه السلام : "كَسْرُ عظمِ الميت ككسره حيًّا" . وقال الشافعى : يأكل لحم آبن آدم.ولا يجوز له أن يقتل ذِمّيًّا لأنه محترم الدم، ولا مسلماً ولا أسيراً لأنه مال الغير . فإن كان حربيًّا أو زانيًا مُحْصنًا جاز قتله والأكل منه . وشنّع داود على المُزَنى بأن قال : قد أبحت أكل لحوم الأنبياء ! فغلب عليه آبن شريح بأن قال : فأنت قد تعرضت لقتل الأنبياء إذ منعتهم من أكل الكافر . قال آبن العربى : الصحيح عنـدى ألا يأكل الآدمى إلا إذا تحقق أن ذلك ينجيه ويحييه؛ والله أعلم .

السابعة والعشرون — سـئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير تمرًا أو زرعًا أو غنمًا؛فقال: إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يُعدّ سارقًا ويصدَّق فى قوله ، أكل من أى ذلك وجد ما يردّ جوعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحبّ إلىّ من أن يأكل الميتة ؛ وقد تقدم هذا المعنى مستوفًى. وإن هو خَشِىَ ألا يصدّقوه وأن يعدّوه سارقًا فإنّ أكل الميتة أجْوز عندى، وله فى أكل الميتة على هذه المنزلة سَعة .

الثامنة والعشرون — روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدّثنا حماد عن سِمَاك بن حرب عن جابر بن سَمُرة أن رجلا نزل الحَرّة[1] ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لى ضلّت فإن وجدتهـا فأمسكها ؛ فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت آمرأته : آنحرها، فأبىَ فنفقت . فقالت : اسلخها حتى نُقدّد لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال: حتى أسأل

(١) الحرّة (بفتح الحاء والراء المشدّدة) : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فسأله ، فقال : " هل عندك غِنًى يغنيك " قال لا ، قال : "فكلوها" قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال : هلّا كنت نحرتَها ! فقال : آستحييت منك . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد : فى هذا الحديث دليلان : أحدهما — أن المضطر يأكل من الميتة و إن لم يخف التلف ؛ لأنه سأله عن الغنى ولم يسأله عن خوفه على نفسه . والثانى — يأكل و يشبع و يدخر ويتزوّد؛ لأنه أباحه الآدّخار ولم يشترط عليه ألّا يشبع. قال أبو داود : وحدثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا الفضل بن دُكين قال أنبأنا عقبة بن وهب بن عقبة العامرى قال : سمعت أبى يحدّث عن الفُجَيع العامرىّ أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنا الميتة ؟ قال : " ما طعامكم " قلنا : نَغْتَبِق ونصطبح . قال أبو نعيم(١) : فسّره لى عقبة : قَدَحٌ غُدْوَةً وقدحٌ عشِيّة. قال : "ذاك وأبى الجوع". قال : فأحلّ لهم الميتة على هذه الحال . قال أبو داود : الغبوق من آخر النهار والصبوح من أوّل النهار . وقال الخطابى : الغبوق العَشاء، والصبوح الغداء، والقَدَح من اللبن بالغداة، والقدح بالعشىّ يمسك الرَّمق ويُقيم النفس، و إن كان لا يُغذّى البدن ولا يُشبع الشبع التام ؛ وقد أباح لهم مع ذلك تناول الميتة ؛ فكان دلالته أنّ تناول الميتة مباح إلى أن تأخذ النفس حاجتها من القوت . و إلى هذا ذهب مالك وهو أحد قولى الشافعى. قال آبن خُوَيْزِمَنْداد: إذا جاز أن يصطبحوا و يغتبقوا جاز أن يشبعوا و يتزودوا. وقال أبو حنيفة والشافعى فى القول الآخر: لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمسك رمقه؛ و إليه ذهب المزنىّ. قالوا: لأنه لو كان فى الآبتداء بهذه الحال لم يجز له أن يأكل منها شيئا؛ فكذلك إذا بلغها بعد تناولها . وروى نحوه عن الحسن . وقال قتادة : لا يتضلّع منها بشىء . وقال مقاتل بن حَيّان : لا يزداد على ثلاث لُقَم . والصحيح خلاف هذا، كما تقدّم .

التاسعة والعشرون — وأما التداوى بها فلا يخلو أن يحتاج إلى آستعمالها قائمة العين أو محرقة؛ فإن تغيّرت بالإحراق فقال آبن حبيب : يجوز التداوى بها والصلاة . وخفّفه آبن الماجشون

(١) أبو نعيم : كنية الفضل بن دكين .

Marfat.com

بناء على أن الحرق تطهير لتغيّر الصفات. وفى العُتْبِيّة من رواية مالك فى المَرْتَك(١) يُصنع من عظام المَيْتة إذا وضعه فى جرحه لا يصلى به حتى يغسله. وإن كانت الميتة قائمة بعينها فقد قال سُحْنُون: لا يُتداوى بها بحال ولا بالخنزير؛ لأن منها عوضًا حلالًا بخلاف المجاعة. ولو وُجد منها عوض فى المجاعة لم تؤكل. وكذلك الخمر لا يتداوى بها، قاله مالك، وهو ظاهر مذهب الشافعى، وهو آختيار آبن أبى هريرة من أصحابه. وقال أبو حنيفة: يجوز شربها للتداوى دون العطش؛ وهو آختيار القاضى الطبرى من أصحاب الشافعى، وهو قول الثورى. وقال بعض البغداديين من الشافعية: يجوز شربها للعطش دون التداوى؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوى. وقيل: يجوز شربها للأمرين جميعا. ومنع بعض أصحاب الشافعى التداوى بكل محرّم إلا بأبوال الإبل خاصة؛ لحديث العُرَنِيِّين. ومنع بعضهم التداوى بكل محرم؛ لقوله عليه السلام: "إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حُرّم عليهم"، ولقوله عليه السلام لطارق بن سويد وقد سأله عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء؛ فقال: "إنه ليس بدواء ولكنه داء". رواه مسلم فى الصحيح. وهذا يحتمل أن يقيّد بحالة الأضطرار؛ فإنه يجوز التداوى بالسم ولا يجوز شربه؛ والله أعلم.

الموفية ثلاثين — قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ «غير» نصب على الحال، وقيل: على الآستثناء. وإذا رأيت «غير» يصلح فى موضعها «فى» فهى حال، وإذا صلح موضعها «إلا» فهى آستثناء، فقس عليه. و«باغ» أصله باغى، ثقلت الضمة على الياء فسكنت والتنوين ساكن، فحذفت الياء والكسرة تدل عليها. والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وآبن زيد وعكرمة «غير باغ» فى أكله فوق حاجته، «ولا عادٍ» بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحة ويأكلها. وقال السدى: «غير باغٍ» فى أكلها شهوة وتلذذًا، «ولا عادٍ» بآستيفاء الأكل إلى حدّ الشبع. وقال مجاهد وآبن جبير وغيرهما: المعنى «غير باغٍ» على المسلمين «ولا عادٍ» عليهم؛ فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر فى قطع الرحم والغارة على

(١) المرتك (كمقعد): ضرب من الأدوية.

Marfat.com

...ين وماشاكله . وهذا صحيح ؛ فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد ؛ يقال : بَغَت المرأة تبغى بِغاء إذا فَجَرت ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ »(١) . وربما استعمل البغى فى طلب غير الفساد . والعرب تقول : خرج الرجل فى بُغاء إبلٍ له ، أى فى طلبها ؛ ومنه قول الشاعر :

لا يمنعنّك من بُغا ‏ * ‏ ءِ الخير تَعْقادُ الرَّتائم

إن الأشائم كالأيا ‏ * ‏ مِن والأيامن كالأشائم

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أصل « عاد » عائد ؛ فهو من المقلوب ، كشاكى السلاح وهارٍ ولاثٍ . والأصل شائك وهائر ولائث ؛ من لُثْت العمامة . فأباح الله فى حالة الاضطرار أكل جميع المحرمات لعجزه عن جميع المباحات كما بينا ؛ فصار عدم المباح شرطًا فى استباحة المحرم .

الثانية والثلاثون — واختلف العلماء إذا اقترن بضرورته معصية ، بقطع طريق وإخافة سبيل ؛ فحظرها عليه مالك والشافعىّ فى أحد قوليه لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عونًا ، والعاصى لا يحلّ أن يُعان ؛ فإن أراد الأكل فليَتُب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفة والشافعىّ فى القول الآخر له ، وسوّيا فى استباحته بين طاعته ومعصيته . قال ابن العربى : وعَجَبًا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية ، وما أظن أحدًا يقوله ، فإن قاله فهو مخطئ قطعًا .

قلت : الصحيح خلاف هذا ؛ فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) وهذا عامّ ، ولعلّه يتوب فى ثانى حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار ، إلا أن يعفو الله عنه . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكِيَا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رُخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيًا ،

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

Marfat.com

وليس [تناول][(١)] الميتة من رخص السفر أو متعلقا بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرًا كان أو حَضَرًا ، وهو كالإفطار للعاصي المقيم إذا كان مريضًا ، وكالتيمّم للعاصي المسافر عند عدم المـاء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : وآختلفت الروايات عن مالك فى ذلك ؛ فالمشهور من مذهبه فيما ذكر البـاجى فى المنتقى : أنه يجوز له الأكل فى سـفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطر . وقال آبن خُوَيْزِمَنْداد : فأما الأكل عند الاضطرار فالطائع والعاصى فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها فى السفر والحضر ، وليس بخروج الخارج إلى المعاصى يسقط عنه حكم المقيم بل أسـوأ حالة من أن يكون مقيمًا ؛ وليس كذلك الفطر والقصر ؛ لأنهما رخصتان متعلّقتان بالسفر . فمتى كان السفر سفرَ معصية لم يجز أن يقصر فيه ؛ لأن هذه الرخصة تختص بالسفر ، ولذلك قلنا : إنه يتيمّم إذا عدم المـاء فى سفر المعصية ؛ لأن التيمم فى الحضر والسفر سواء . وكيف يجوز منعه من أكل الميتـة والتيمم لأجل معصية آرتكبها ، وفى تركه الأكل تلف نفســه ، وتلك أكبر المعاصى ، وفى تركه التيمم إضاعة للصـلاة . أيجوز أن يقـال له : آرتكبت معصية فارتكب أخرى ! أيجوز أن يقال لشارب الخمر : ازن ، وللزانى : اكفر ! أو يقال لهما : ضيّعا الصلاة ؟ ذكر هـذا كله فى أحكام القرآن له ، ولم يذكر خلافًا عن مالك ولا عن أحد من أصحـابه . وقال الباجى : « وروى زياد بن عبـد الرحمن الأندلسى أن العاصى بسفره يقصر الصـلاة ، ويُفطر فى رمضان . فسوّى بين ذلك كله ، وهو قول أبى حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له قتل نفسه بالإمساك عن الأكل ، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب ؛ ومن كان فى سفر معصية لا تسقط عنـه الفروض والواجبات من الصيام والصـلاة ، بل يلزمه الإتيان بهما ؛ فكذلك ما ذكرناه . وجه القول الأول أن هذه المعانى إنمـا أبيحت فى الأسفار لحاجة الناس إليها ؛ فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصى وله سبيل إلى ألّا يقتل نفسه . قال آبن حبيب : وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعـد توبته . وتعلّق آبن حبيب فى ذلك بقوله تعالى : « فَمَنِ آضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » فاشترط فى إباحة الميتـة للضرورة ألّا يكون باغيًا . والمسافر

(١) الزيادة عن كتاب « أحكام القرآن » للكيا الهراسى .

Marfat.com

على وجه الحرابة أو القطع، أو فى قطع رَحِم أو طالب إثم — باغٍ ومعتـد ؛ فلم توجد فيـه شروط الإباحة. والله أعلم »

قلت : هذا آستدلال بمفهوم الخطاب، وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه ، وغيره مسكوت عنه ، والأصل عموم الخطاب ؛ فمن آدعى زواله لأمرٍ مّا فعليه الدليل .

الرابعـة والثلاثون[1] — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى يغفر المعاصى ؛ فأولى ألا يؤاخذ بمـا رخّص فيه ، ومن رحمته أنه رخّص .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى علمـاء اليهود، كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته . ومعنى «أنزل» : أظهر؛ كما قال تعـالى : « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْـلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ »[2] أى سأظهر . وقيل : هو على بابه من النزول؛ أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ﴾ أى بالمكتوم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى أخذ الرّشاء . وسمّاه قليلًا لانقطاع مدّته وسوء عاقبته . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية و إن كانت فى الأخبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارًا لذلك بسبب دنيا يصيبها؛ وقد تقدّم[3] هذا المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ فِى بُطُونِهِـمْ ﴾ ذكر البطون دلالةً وتأكيدًا على حقيقة الأكل؛ إذ قد يستعمل مجازا فى مثـل أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضًا تنبيه على جشعهم

(١) يلاحظ أن نسخ الأصل اضطربت فى عد هذه المسائل . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٤ ، ص ٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وأنهم باعوا آخرتهم بحظّهم من المطعم الذى لا خطر له . ومعنى « إِلَّا النَّـارَ » أى إنه حرام يعذّبهم الله عليـه بالنار ؛ فسُمّى ما أكلوه من الرّشاء نارًا لأنه يؤدّيهـم إلى النار ؛ هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقةً . فأخبر عن المآل بالحال؛ كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا »(١) أى أن عاقبته تؤول إلى ذلك ؛ ومنه قولهم :

* لِدُوا للموت وٱبْنُوا للخراب(٢) *

قال :

* فللموت ما تلد الوالده *

آخـــر :

* ودُورُنا لخراب الدّهر نبنيها *

وهو فى القرآن والشعر كثير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم و إزالة الرضا عنهم ؛ يقال : فـلان لا يكلّم فلانًا إذا غضب عليه . وقال الطـبرى : المعنى « ولا يكلمهم » بما يحبونه . وفى التنزيل : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»(٣) . وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية . ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِـمْ ﴾ أى لا يصلح أعمالهم الخبيثـة فيطهّرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيرًا ولا يسمّيهم أزكياء . و﴿ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى مؤلم ؛ وقد تقـدّم(٤) . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهـم ولهم عذاب أليم شـيخٌ زانٍ ومَلِكٌ كذاب وعائلٌ مستكبر " . وإنما خصّ هؤلاء بأليم العذاب وشـدّة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصى ؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة، ولا دعتهم إليه ضرورة كما تدعو من لم يكن مثلهم . ومعنى « لا ينظر إليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسيأتى فى « آل عمران »(٥) إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٣   (٢) اختلف فى أنه حديث أو غير حديث . راجع كشف الخفاء جـ٢ ص ١٤٠
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣   (٤) راجع جـ ١ ص ١٩٨   (٥) راجع جـ ٤ ص ١١٩

Marfat.com

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ تقدّم القول [(١)] فيه . ولما كان العذاب تابعًا للضلالة وكانت المغفرة تابعةً للهدى الذى آطّرحوه دخلا فى تجوّز الشراء .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ مذهب الجمهور — منهم الحسن ومجاهد — أن « ما » معناه التعجب ؛ وهو مردود إلى المخلوقين ، كأنه قال : آعجبوا من صبرهم على النار ومُكثهم فيها . وفى التنزيل : « قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ »[(٢)] و « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ »[(٣)] . وبهذا المعنى صدر أبو علىّ . قال الحسن وقتادة وآبن جبير والرّبيع : ما لهم والله عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار ! وهى لغة يَمَنِيّة معروفة . قال الفرّاء : أخبرنى الكسائى قال : أخبرنى قاضى اليمن أن خصمين آختصما إليه فوجبت اليمين على أحدهما فحلف ؛ فقال له صاحبه : ما أصبرك على الله ؟ أى ما أجرأك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملًا يؤدّى إليها . وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار ؛ من قولهم : ما أصبر فلانًا على الحبس ! أى ما أبقاه فيه . وقيل : المعنى فما أقلّ جزعهم من النار؛ فجعل قلة الجزع صبرًا . وقال الكسائى وقُطْرُب : أى ما أدْوَمهم على عمل أهل النار . وقيل: «ما» آستفهام معناه التوبيخ ؛ قاله آبن عباس والسدّى وعطاء وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى ؛ ومعناه : أىّ أىّ شىء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيل : هذا على وجه الآستهانة بهم والآستخفاف بأمرهم .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢١٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ، وهو إشارة إلى الحُكم ؛ كأنه قال : ذلك الحكم بالنار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر ، أو ذلك العذاب لهم . قال الأخفش : وخبر « ذلك » مضمر، معناه ذلك معلوم لهم . وقيل : محله نصب ، معناه فعلنا ذلك بهـم . ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ﴾ يعنى القرآن فى هـذا الموضع ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالصدق . وقيل بالحجـة . ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَابِ﴾ يعنى التوراة ؛ فادّعى النصارى أن فيها صفة عيسى ، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم فى التمسك بها . وقيل : خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسـلم واختلفوا فيها . وقيل : المراد القرآن ، والذين اختلفوا كفار قريش ؛ يقول بعضهم : هو سحر ، و بعضهم يقول : أساطير الأولين . و بعضهم : مفترًى ؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول فى معنى الشقاق[1] ، والحمد لله .

قوله تعـالى : لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ اختلف من المراد بهذا الخطاب ؛ فقال قتادة : ذُكر لنـا أن رجلًا سأل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم عن البرّ ؛ فأنزل الله هـذه الآية . قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال الربيع وقتادة أيضا : الخطاب لليهود

(١) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

والنصارى لأنهـم آختلفوا فى التوجّه والتّـولّى ؛ فاليهود إلى المغرب قِبَـل بيت المقدس ، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس ؛ وتكلّموا فى تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها ؛ فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله .

الثانيـــة — قرأ حمزة وحفص « البِرَّ » بالنصب ؛ لأن ليس من أخوات كان، يقـع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الأسم أو الخبر؛ فلما وقع بعد « ليس » : « البرّ » نصبه؛ وجعل « أن تُوَلُّوا » الأسم ، وكان المصدر أولى بأن يكون آسمًا لأنه لا يتنكّر، والبرّ قد يتنكّر والفعل أقوى فى التعريف . وقرأ الباقون « البِرُّ » بالرفع على أنه آسم ليس ، وخبره « أن تُوَلُّوا » ، تقـديره : ليس البرّ توليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأوّل ليس توليتكم وجوهكم البرّ ؛ كقوله : « مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا »[(١)] ، « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا »[(٢)] « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ »[(٣)] وما كان مثله . ويقـوّى قراءة الرفع أن الثانى معه البـاء إجماعًا فى قوله : « وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فحملُ الأوّل على الثانى أَوْلى من مخالفته له . وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ بالبـاء « ليس البر بأن تُوَلُّوا» وكذلك فى مصحف آبن مسعود أيضا ؛ وعليه أكثر القراء، والقراءتان حسنتان .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ ﴾ البر ها هنا آسم جامع للخير ، والتقدير : ولكن البرّ برّ من آمن ؛ فحذف المضاف ؛ كقوله تعـالى : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »[(٤)] ، « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ »[(٥)] قاله الفرّاء وقُطْرُب والزجاج . وقال الشاعر :

* فإنمـا هى إقبـالٌ وإدبار *

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابغة :

وكيف تُواصل من أصبحت * خِلالتـــه كأبِى مَـــرْحبِ[(٦)]

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٧٣ (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٢

(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٥) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٦) الخلالة : (بفتح الخاء وكسرها وضمها ، جمع الخُلّة) : الصداقة . وأبو مرحب : كنية الظل ، ويقال : هو كنية عرقوب . يقول : خلة هـذه المرأة ووصالها لا يثبت كما لا تثبت خلة أبى مرحب ؛ فلا ينبغى أن نستأنس بها ونعتدّ بها . (عن اللسان وشرح الشواهد) .

Marfat.com

أى كلالة أبى مرحب؛ فحذف . وقيل: المعنى ولكنّ ذا البر؛ كقوله تعالى: «هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ»(١) أى ذوو درجات. وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وفُرضت الفرائض وصُرفت القبلة إلى الكعبة وحُدّت الحدود أنزل الله هذه الآية فقال: ليس البر كله أن تصلّوا ولا تعملوا غير ذلك، ولكن البر — أى ذا البر — من آمن بالله، إلى آخرها؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء وسفيان والزجاج أيضا. ويجوز أن يكون «البر» بمعنى البارّ والبَرّ، والفاعل قد يُسمّى بمعنى المصدر؛ كما يقال: رجل عَدْل، وصَوْم وفِطْر. وفى التنزيل: «إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا»(٢) أى غائرا؛ وهذا اختيار أبى عبيدة. وقال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت «ولكنّ البَرّ» بفتح الباء.

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾ فقيـل: يكون «الموفون» عطفا على «مَن» لأن من فى موضع جمع ومحل رفع؛ كأنه قال: ولكنّ البرّ المؤمنون والموفون؛ قاله الفراء والأخفش. «والصابرين» نصب على المدح، أو بإضمار فعل. والعرب تنصب على المدح وعلى الذم كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام، وينصبونه. فأما المدح فقوله: «والمقيمين الصلاة»(٣). وأنشد الكسائى:

وكلُّ قومٍ أطاعوا أمرَ مُرْشِدِهم * إلا نُمَيرًا أطاعت أمرَ غاوِيها
الظاعنينَ ولما يُظْعِنوا أحدا * والقائلونَ لِمَنْ دارٌ نُخَلِّيها

وأنشد أبو عبيدة:

لا يَبْعَدَن قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزُرِ(٤)
النازلين بكل مُعْتَرَكٍ * والطيبون معاقدَ الأُزُرِ

وقال آخر:

* نحن بنى ضَبَّةَ أصحاب الجمل *

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٣ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢ (٣) راجع جـ ٦ ص ١٣
(٤) راجع كتاب سيبويه وتوجيه الاعراب فيه (جـ ١ ص ١٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩) طبع بولاق .

Marfat.com

فنصب على المدح . وأمّا الذم فقوله تعـالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا »[1] الآية . وقال عُرْوَة ٱبن الوَرْد :

سَقَونى الخمـر ثم تَكَنَّفُونى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِب وزورِ

وهذا مَهْيَع[2] فى النعوت، لامطعن فيه من جهة الإعراب، موجود فى كلام العرب كما بيّنا. وقال بعض من تعسّف فى كلامه : إن هذا غلط من الكتّاب حين كتبوا مصحف الإمام ؛ قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال: أرى فيه لَحْنًا[3] وستقيمه العرب بألسنتها . وهكذا قال فى ســورة النساء « والْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، وفى سورة المـائدة «وَالصَّابِئُونَ»[4] . والجواب ما ذكرناه . وقيل: «الموفون» رفع على الابتداء والخبر محذوف ، تقديره وهم الموفون. وقال الكسائى: « والصابرين » عطف على « ذوى القربى » كأنه قال: وآتى الصابرين. قال النحاس: «وهذا القول خطأ وغلط بيّن؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقته على «ذوى القربى» دخل فى صلة «من» و إذا رفعت «والموفون» على أنه نسق على «مَن» فقد نسقت على «مَن» من قبل أن تم الصلة، وفرّقت بين الصلة والموصول بالمعطوف». وقال الكسائى: وفى قراءة عبدالله «والموفين،والصابرين». وقال النحاس: «يكونان منسوقين على « ذوى القربى » أو على المدح . قال الفرّاء : وفى قراءة عبـد الله فى النساء « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة »[5]. وقرأ يعقوب والأعمش «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما. وقرأ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ . (٢) المهيع : الطريق الواسع البيّن . (٣) هـذا القول من أخبث ما وضع الوضاعون على عثمان رضى الله عنـه ، وقد أنكر العلماء صحة نسبته إليه . على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه [illegible]ار الصحابة فى جمعـه وكتابته ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنـه ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التى عرض فيها النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السـلام . وهل يظن ظان أنـ عثمان رضى الله عنه وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله و يتركه و يقول : ستقيمه العرب بألسنتها ! وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة ولا يقفون فى وجهه و يردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته . وممن أنكر نسبة هـذا القول إلى عثمان المصنف والزمخشرى وأبو حيان والآلوسى فى ســورة « النساء » عند قوله تعـالى : « والمقيمين الصلاة » آية ١٦٢ ، راجع جـ ٦ ص ١٣ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٤٦ .

(٥) كذا فى كتاب « إعراب القرآن » للنحاس ، وما يدل عليه سياق الكلام فى البحر المحيط لأبى حيان فى سورة « النساء » . وفى الأصول : « والمقيمين ... والمؤتين » .

Marfat.com

الجحدري « بعهودهم » . وقد قيل : إن « والموفون » عطف على الضمير الذى فى « آمن » . وأنكره أبو على وقال : ليس المعنى عليه ؛ إذ ليس المراد أن البرّ برّ من آمن بالله هو والموفون ؛ أى آمنا جميعا . كما تقول : الشجاع مَن أقدم هو وعمرو ؛ وإنما الذى بعد قوله « من آمن » تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخامســة — قال علماؤنا : هــذه آية عظيمة من أمهات الأحكام ؛ لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته — وقد أتينا عليها فى « الكتاب الأسنى » — والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشــفاعة والجنة والنار — وقــد أتينا عليها فى كتاب « التذكرة » — والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله — كما تقدم — والنبيين وإنفاق المـال فيما يعنّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل — قيل المنقطع به . وقيــل : الضيف — والسؤال وفك الرقاب . وسيأتى بيان هذا فى آية الصدقات(1) ، والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر فى الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . وتقدم التنبيه على أكثرها ، ويأتى بيان باقيها بمـا فيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

واختلف هل يُعطَى اليتيم من صدقة التطوع بمجرد اليُتْم على وجه الصلة وإن كان غنياً ، أو لا يعطى حتى يكون فقيرا ؛ قولان للعلماء . وهــذا على أن يكون إيتاء المـال غير الزكاة الواجبة ، على ما نبينه آنفا(2) .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ استدل به من قال : إن فى المـال حقًّا سوى الزكاة وبها كمال البرّ . وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، والأول أصح ؛ لمـا خرّجه الدارقطني عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فى المـال حقًّا سوى الزكاة " ثم تلا هذه الآية « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ » إلى آخر الآية . وأخرجه ابن ماجه فى سُننه والترمذى فى جامعه وقال : « هذا حديث ليس إسناده بذاك ، وأبو حمزة

(1) راجع جـ ٨ ص ١٦٧ (2) آنفا : أى الآن .

Marfat.com

ميمون الأعور يُضعَّف . وروى بيـان و إسماعيل بن سالم عن الشعبي هـذا الحديث قوله وهو أصح » .

قلت : والحديث و إن كان فيه مقال فقد دلّ على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعـالى : « وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ » فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله : « وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ » ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكون تكرارا، والله أعلم . وآتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المـال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم و إن آستغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا، وهو يقوّى ما آخترناه، والموفّق الإله .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الضمير فى « حُبّه » آختلف فى عوده؛ فقيل : يعود على المعطى للمـال، وحذف المفعول وهو المـال . و يجوز نصب « ذَوِى الْقُرْبَى » بالحُبّ، فيكون التقـدير على حبّ المعطى ذوى القربى . وقيـل : يعود على المـال، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال آبن عطية : ويجيء قوله « على حُبِّهِ » آعتراضًا بليغًا أثناء القول .

قلت : ونظيره قوله الحق : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا »(١) فإنه جمع المعنيين، الآعتراض و إضافة المصدر إلى المفعول؛ أى على حب الطعام . ومن الآعتراض قوله الحق : « وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ »(٢) وهـذا عندهم يسمى التتميم، وهو نوع من البلاغة، ويُسمَّى أيضا الآحتراس والآحتياط، فتمّم بقوله « على حبه » وقوله : « وهو مؤمن »؛ ومنه قول زهير :

مَن يَلْقَ يومًا على عِلّاته هَرِمًا * يَلْقَ السَّماحةَ منـه والنَّـدَى خُلُقَا

وقال امرؤ القيس :

على هَيْـكلٍ يُعطيك قبل سـؤاله * أفانينَ جَرْيٍ غـيرَ كَزٍّ ولا وَانِ

فقوله : « على علاته » و « قبل سؤاله » تتميم حسن؛ ومنه قول عنترة :

أثنى عـلىّ بمـا علمتِ فإننى * سَهـلٌ مخالقـتى إذا لم أُظْلَمِ

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٢٦ (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩

Marfat.com

فقوله : « إذا لم أُظلم » تتميم حَسَن . وقال طَرَفة :

فَسَـقَى دِيارَكِ غيرَ مفسِدِها * صوبُ الربيع ودِيمةٌ تَهْمِى

وقال الربيع بن ضَبع الفَزَارىّ :

فنيت وما يفنى صنيعى ومنطق * وكل آمرئ إلا أحاديثه فانٍ

فقوله : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » تتميم وآحتراس . وقال أبو هفّان :

فأفنى الرّدى أرواحنا غير ظالم * وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله : « غير ظالم ، و « غير عائب » تتميم وآحتياط ، وهو فى الشعر كثير . وقيل : يعود على الإيتاء ؛ لأن الفعل يدل على مصـدره، وهو كقوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَـا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُـمْ (١) » أى البخل خيرًا لهم، فإذا أصابت الناس حاجة أو فاقة فإيتاء المـال حبيب إليهـم . وقيل : يعود على آسم الله تعالى فى قوله : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » . والمعنى المقصـود أن يتصدق المرء فى هـذه الوجوه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمن البقاء .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أى فيما بينهم و بين الله تعالى وفيما بينهم و بين الناس . ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدّة والفقر . والضّراء : المرض والزّمانة ؛ قاله آبن مسعود . وقال عليه السلام : " يقول الله تعالى أيمّا عبدٍ من عبادى آبتليته ببلاء فى فراشه فلم يَشْك إلى عوّاده أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه فإن قبضته فإلى رحمتى و إن عافيته عافيته وليس له ذنب " قيـل : يارسول الله ، ما لحمٌ خيرٌ من لحمـه ؟ قال : " لحم لم يُذنب " قيل : فما دمٌ خير من دمه؟ قال : " دم لم يذنب " . والبأساء والضراء آسمـان بُنيا على فعلاء ، ولا فعـل لها ؛ لأنهما آسمـان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أى وقت الحزب (٢) .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بها ، وأنهم كانوا جادّين فى الدّين ؛ وهذا غاية الثناء . والصدق : خلاف

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ .　　(٢) فى ب : « وقت الجدب » .

Marfat.com

الكذب . و يقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق ؛ وفى الحديث : "عليكم بالصدق فإن الصدق يَهْدى إلى البِرّ و إن البِرّ يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يَصْدق و يتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا" .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — روى البخارى والنسائى والدّارقُطْنى عن ابن عباس قال : «كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدِّية ؛ فقال الله لهذه الأمة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ » فالعفوُ أن يقبل الدِّية فى العمد «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ » يتّبع بالمعروف و يؤدى بإحسان « ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ » مما كتب على من كان قبلكم « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قتل بعد قبول الدية » . هـذا لفظ البخارى : حدّثنا الحميدى حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو [قال][(١)] سمعت مجاهدا [قال][(١)] سمعت ابن عباس [يقول][(١)] . وقال الشعبى فى قوله تعالى : « الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى » قال : أنزلت فى قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا ؛ نقتل بعبدنا فلان بن فلان ، و بأَمَتنا فلانةَ بنت فلان ؛ ونحوه عن قتادة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ « كُتب » معناه فُرِض وأُثبت ؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كُتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جَرّ الذيول

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

Marfat.com

وقد قيل : إن «كُتب» هنا إخبار عما كُتب فى اللوح المحفوظ وسبق به القضاء. والقصاص مأخوذ من قَصّ الأثر وهو آتباعه؛ ومنــه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبار . وقصّ الشــعر آتباع أثره؛ فكأن القاتل سلك طريقًا من القتــل فقُصّ أثره فيها ومشى على سبيله فى ذلك؛ ومنه «فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا» . وقيل : القصّ القطع؛ يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القِصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به؛ يقال: أقصّ الحاكمُ فلانا من فلان وأباءه به فأمثله فآمتثل منه؛ أى آقتص منه .

الثالثــة — صورة القِصاص هو أن القاتل فُرض عليه إذا أراد الولىّ القتل الآستسلامُ لأمر الله والآنقيادُ لقصاصه المشروع، وأن الولىّ فُرض عليه الوقوف عند قاتل وليّــه وترك التعدّى على غيره؛ كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل؛ وهو معنى قوله عليــه السلام : "إنّ مِن أعْتَى النــاس على الله يوم القيامة ثلاثة رجلٌ قتــل غير قاتله ورجل قتــل فى الحَرَم ورجل أخذ بذَحُول الجاهلية"[1] . قال الشعبي وقتادة وغيرهما : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحىّ إذا كان فيــه عزّ ومنَعَة فقُتل لهم عبد؛ قتــله عبد قوم آخرين قالوا : لا نقتل به إلا حُرًّا ، و إذا قُتلت منهــم آمرأة قالوا : لا نقتــل بها إلا رجلا ، و إذا قُتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به إلا شريفًا؛ و يقولون : «القتل أَوْقَى للقتل» بالواو والقاف . و يروى « أبق » بالبــاء والقاف ، و يروى « أنفى » بالنونـــ والفاء ؛ فنهاهم الله عن البغى فقال : «كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُــرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ» الآية، وقال «وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ» . و بين الكلامين فى الفصاحة والجَزْل بَوْنٌ عظيم .

الرابعــة — لا خلاف أن القصاص فى القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض بالقصاص و إقامة الحدود وغير ذلك ؛ لأنـــ الله سبحانه خاطب جميــع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص؛ فأقاموا السلطان مقام أنفسهم

(١) الذحل (بفتح فسكون) : قيل هو العداوة والحقد، وقيل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أوجرح، ونحو ذلك .

Marfat.com

فى إقامة القصاص وغيره من الحدود. وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألّا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتـداء ؛ فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دِيَة أو عفو فذلك مباح ، على ما يأتى بيانه .

فإن قيل : فان قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » معناه فُرِض وأُلزِم ؛ فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم ؛ فاعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاحّ . والقتلى جمع قتيل ، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة ، وهو ممـا يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء كجَرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقى ؛ وشبههن .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ الآية . آختلف فى تأويلها ؛ فقالت طائفة : جاءت الآية مبيّنة لحكم النوع إذا قتل نوعه ؛ فبيّنت حكم الحرّ إذا قتـل حُرًّا ، والعبد إذا قتل عبدًا ، والأنثى إذا قتلت أنثى ، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ؛ فالآية مُحكَمة وفيها إجمال يبيّنه قوله تعالى : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » ، وبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم بسُنّته لمـا قتل اليهوديّ بالمرأة ؛ قاله مجاهد ، وذكره أبو عبيد عن آبن عباس . وروى عن آبن عباس أيضا أنها منسوخة بآية « المـائدة »(1) وهو قول أهل العراق .

السادسـة — قال الكوفيون والثورى : يُقتل الحر بالعبد ، والمسلمُ بالذمى ؛ وآحتجّوا بقوله تعـالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » فعمّ ، وقوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » ، قالوا : والذّمّى مع المسـلم(2) متساويان فى الحُرمة التى تكفى فى القصـاص وهى حُرمة الدم الثابتة على التأبيد ؛ فإن الذمى مَحقُون الدم على التأبيد ، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام ؛ والذى يحقق ذلك أن المسلم يُقطع بسرقة مال الذمىّ ، وهذا يدلّ على أن مال الذمىّ قد ساوى مال المسـلم ؛ فدل على مساواته لدمه إذ المـال إنما يحرم بحرمة مالكه . وآتفق أبو حنيفـة وأصحابه والثورىّ وآبن أبى ليـلى على أن الحر يُقتل بالعبـد كما يُقتل العبد به ؛ وهو قول داود ، وروى ذلك عن علىّ وآبن مسـعود

(1) راجع ج ٦ ص ١٩١ .   (2) فى ب ، جـ ، ز : «مع الحر» .

Marfat.com

رضى الله عنهما، وبه قال سعيد بن المسيّب وقتادة وإبراهيم النَّخعى والحكم بن عُيينة . والجمهور من العلماء لا يقتلون الحرّ بالعبد؛ للتنويع والتقسيم فى الآية . وقال أبو ثور : لمـا آتفق جميعهم على أنه لا قصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أحْرَى بذلك، ومَن فرّق منهم بين ذلك فقد ناقض . وأيضا فالإجماع فيمن قتل عبدا خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبه الحرّ فى الخطأ لم يشبهه فى العمد . وأيضا فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى، ويتصرّف فيه الحرّ كيف شاء، فلا مساواة بينه وبين الحرّ ولا مقاومة .

قلت : هذا الإجماع صحيح، وأما قوله أوّلا : « ولمـا آتفق جميعهم — إلى قوله — فقد ناقض » فقـد قال آبن أبى ليلى وداود بالقصاص بين الأحرار والعبيـد فى النفس وفى جميع الأعضاء؛ وآستدل داود بقوله عليه السلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " فلم يفرّق بين حُرّ وعبد . وسيأتى بيانه فى « النساء »(1) إن شاء الله تعالى .

السابعــة — والجمهور أيضا على أنه لا يُقتل مسلم بكافر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُقتل مسلم بكافر " أخرجه البخارىّ عن علىّ بن أبى طالب . ولا يصحّ لهم ما رووْه من حديث ربيعة أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قَتل يوم خَيْبَر مسلما بكافر؛ لأنه منقطع، ومن حديث آبن البَيْلَمَانىّ وهو ضعيف عن آبن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم مرفوعاً . قال الدَّارَقُطْنى : « لم يسنده غير إبراهيم بن أبى يحيى وهو متروك الحديث . والصواب عن ربيعة عن آبن البَيْلَمَانىّ مرسَـل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وآبن البَيْلَمَانىّ ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله » .

قلت : فلا يصح فى البـاب إلا حديث البخارىّ، وهو يخصص عموم قوله تعـالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى » الآية، وعموم قوله : « النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » .

الثامنــة — رُوى عن علىّ بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن البصرىّ أن الآية نزلت مبيّنة حكم المذكورين، ليـدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يَقتل حرّ عبدًا أو عبـدٌ حرًّا، أو ذكرٌ أنثى أو أنثى ذكرًا، وقالا : إذا قتل رجلٌ آمرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفّوا

(1) راجع جـ ٥ ص ٣١٤

Marfat.com

أولياءه نصف الدّية، وإن أرادوا آستحيَوْه وأخذوا منه دِيَة المرأة . وإذا قتلت آمرأةٌ رجلا فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدّية ، وإلا أخذوا دِية صاحبهم وآستحيَوْها . روى هذا الشعبي عن عليّ، ولا يصح؛ لأن الشعبيّ لم يلق عليًّا . وقد روى الحَكَم عن عليّ وعبد الله قالا : إذا قتل الرجلُ المرأةَ متعمّدا فهو بها قَوَدٌ؛ وهذا يعارض رواية الشعبيّ عن عليّ . وأجمع العلمـاء على أن الأعور والأشَـلّ إذا قتل رجلا سالمَ الأعضاء أنه ليس لوليّـه أن يقتـل الأعور، ويأخذ منـه نصف الدّية من أجل أنه قتـل ذا عينين وهو أعور، وقتـل ذا يدَيْن وهو أشلّ؛ فهـذا يدلّ على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيها الكبير .

ويقال لقائل ذلك : إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " فلِمَ قتلت الرجل بها وهى لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدّية ، والعلمـاء قد أجمعوا أن الدّية لا تجتمع مع القصاص، وأن الدّية إذا قُبلت حَرُم الدم وآرتفع القصاص؛ فليس قولك هذا بأصل ولا قياس، قاله أبو عمر رضى الله عنه . وإذا قتل الحرُّ العبدَ، فإن أراد سيّد العبد قَتل وأعطى دِيَة الحرّ إلا قيمة العبد، وإن شاء آستحيا وأخذ قيمة العبد؛ هذا مذكور عن عليّ والحسن؛ وقد أنكر ذلك عنهم أيضا .

التاسـعة — وأجمع العلمـاء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل؛ والجمهور لا يرَوْن الرجوع بشيء . وفرقة ترى الآتباع بفضل الدّيات . قال مالك والشافعى وأحمـد وإسحاق والثوريّ وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس . وقال حمـاد بن أبى سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيما دون النفس بالنفس وإنمـا هو فى النفس بالنفس؛ وهما محجوجان بإلحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأحرى والأَوْلى، على ما تقدّم .

العاشـرة — قال آبن العربى : «ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يُقتل الحرّ بعبد نفسـه ، ورَوَوْا فى ذلك حديثًا عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " مَن قتل عبـده قتلناه " وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعـالى : « وَمَنْ قُتِلَ

Marfat.com

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ(١) » والولىّ ها هنا السّـيد ؛ فكيف يجعل له سلطان على نفسه » . وقد اتفق الجميع على أن السّيد لو قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المـال؛ وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلًا قتل عبده متعمّدًا فجلده النبيّ صلى الله عليه وسلم ونفاه سَنَةً ومَحَا سهمه من المسلمين ولم يُقِده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لَمْ تقولوا : ينصب النكاح شبهة فى درء القصاص عن الزوج، إذ النكاح ضرب من الرّق ، وقـد قال ذلك اللّيث بن سـعد . قلنـا : النكاح ينعقد لهـا عليه، كما ينعقد له عليها ؛ بدليل أنه لا يتزوّج أختها ولا أربعًا سـواها ، وتطالبـه فى حق الوطء بمـا يطالبها ، ولكن له عليها فضل القَوامة التى جعل الله له عليها بما أنفق من ماله ؛ أى بمـا وجب عليه من صداق ونفقة ؛ فلو أورث شبهة لأورثها فى الجانبين .

قلت : هذا الحديث الذى ضعّفه ابن العربى وهو صحيح ، أخرجه النسائى وأبو داود ، وتمام متْنه : "ومَن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه". وقال البخارى عن علىّ بن المدينى : سماع الحسن من سَمُرة صحيح ؛ وأخذ بهذا الحديث . وقال البخارى : وأنا أذهب إليه ؛ فلو لم يصح الحديث لمـا ذهب إليه هذان الإمامان ، وحَسْبُك بهما ! . ويُقتل الحرُّ بعبد نفســه . قال النَّخَعىّ والثّورىّ فى أحد قوليه وقد قيل : إن الحسن لم يسمع من سَمُرة إلا حديث العقيقة ؛ والله أعلم . [واختلفوا(٢) فى القصاص بين العبيد فيما دون النفس ؛ هذا قول عمر بن عبد العزيز وسـالم بن عبـد الله والزّهرى وقُرّان(٣) ومالك والشـافعى وأبو ثور . وقال الشعبىّ والنَّخَعىّ والثّورىّ وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا فى النفس . قال ابن المنذر : الأوّل أصح] .

الحادية عشرة — روى الدّارَقُطْنِيّ وأبو عيسى الترمذى عن سُراقة بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقيد الأب من ابنه ، ولا يُقيد الابن من أبيه . قال أبو عيسى : « هذا حديث لا نعرفه من حديث سُراقة إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بصحيح ، رواه إسماعيل بن عيّاش عن المُثَنّى بن الصباح ، والمُثَنّى يُضعَّف فى الحديث ، وقد روى هـذا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٤ (٢) ما بين المربعين ساقط من ب ، جـ ، ز .
(٣) قران (بضم القاف وتشديد الراء) بن تمام الأسدى ؛ توفى سنة إحدى وثمانين ومائة .

Marfat.com

الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد رُوِىَ هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلًا، وهذا الحديث فيه آضطراب ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قَتل آبنه لا يُقتل به ، و إذا قذفه لا يُحَدّ » . وقال آبن المنذر : آختلف أهل العلم فى الرجل يقتل آبنه عمدا؛ فقالت طائفة : لا قَوَد عليه وعليه دِيَته؛ وهذا قول الشافعى وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى ، ورُوى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقال مالك وآبن نافع وآبن عبد الحكم : يُقتل به . وقال آبن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسُّنة ؛ فأمّا ظاهر الكتاب فقوله تعـالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ» ، والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم" ولا نعلم خبرًا ثابتًا يجب به آستثناء الأب من جمـلة الآية ؛ وقد رَوَيْنا فيـه أخبارًا غير ثابتـة . وحكى الكِيَا الطبرى عن عثمان البَتّى أنه يُقتـل الوالد بولده ؛ للعمومات فى القصاص . ورُوى مثل ذلك عن مالك، ولعلهما لا يقبلان أخبـار الآحاد فى مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتـل الرجل آبنه متعمّدًا مثـل أن يُضْجِعه و يذبحه أو يَصْبِره[(1)] مما لا عذر له فيه ولا شبهة فى آدّعاء الخطأ، أنه يُقتل به قولًا واحدًا . فأما إن رماه بالسلاح أدبًا أو حَنَقًا فقتله ، ففيه فى المذهب قولان : يُقتل به، ولا يُقتل به وتُغَلَّظ الدِّية؛ و به قال جماعة العلماء . ويُقتل الأجنبيّ بمثـل هذا . آبن العربى[(2)] : « سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول فى النّظر : لا يُقتل الأب بآبنه ؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ وهذا يبطل بما إذا زنى بآبنته فإنه يُرجم، وكان سبب وجودها وتكون هى سبب عدمه ؛ [ثم أىّ فقـه تحت هذا ، ولم لا يكون سبب عدمه إذا عصى الله تعـالى فى ذلك][(3)] . وقد أثَرُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا يقاد الوالد

(١) صبر الإنسان وغيره على القتل : أن يحبس و يرمى حتى يموت . وفى ا ، ج : « أو يضربه » .
(٢) أثبتنا كلام آبن العربى هنا كما ورد فى كتابه « أحكام القرآن » ، وقـد ورد فى الأصول بنقص وتحريف من النساخ . (٣) زيادة عن ابن العربى .

Marfat.com

بولده " وهـو حديث باطل ؛ ومتعلّقهم أن عمر رضى الله عنـه قضى بالدّية مغلّظة فى قاتل ابنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليـه ؛ فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهـم المسألة مُسْجلة (١)، [وقالوا : لا يُقتل الوالد بولده] (٢)؛ وأخذها مالك محكمة مفصّلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوّة شُبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تُسقط القَوَد ، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله » . قال ابن المنذر : وكان مالك والشافعيّ وأحمد و إسحاق يقولون : إذا قتل الابنُ الأب قُتل به .

الثانية عشرة — وقد استدلّ الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تُقتل الجماعة بالواحد ، قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقـد قال تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ» . والجواب أن المراد بالقصاص فى الآية قَتْل مَنْ قَتَل كائنًا من كان ؛ ردًّا على العرب التى كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقتل ، وتقتل فى مقابلة الواحد مائة ؛ افتخارًا واستظهارًا بالجاه والمقدرة ، فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يُقتل مَن قَتَل ، وقد قَتل عمر رضى الله عنه سبعةً برجل بصنعاء وقال : لو تمـالأ عليه أهـلُ صنعاء لقتلتهم به جميعا . وقتـل عليّ رضى الله عنه الحرورية (٣) بعبد الله بن خَبّاب ؛ فإنه توقّف عن قتالهم حتى يُحدِثُوا ، فلما ذبحوا عبـد الله بن خَبّاب كما تُذبح الشاة ، وأُخبر عليّ بذلك قال : الله أكبر ! نادوهم أن أخرجـوا إلينا قاتلَ عبد الله بن خَبّاب ؛ فقالوا : كلنا قتله ، ثلاث مرات ، فقال عليّ لأصحابه : دونكم القوم ، فما لبث أن قتلهم عليّ وأصحابه . خرّج الحديثين الدّارَقُطْنيّ فى سُننه . وفى الترمذيّ عن أبى سعيد وأبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبّهم الله فى النار" . وقال فيـه : حديث غريب . وأيضا فلو علم الجماعة أنهـم إذا قتلوا الواحد لم يُقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك فى قتلهم و بلغوا الأمل من التشفّى ،

---

(١) أى مرسلة مطلقة . (٢) زيادة عن ابن العربى . (٣) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى حروراء (موضع قريب من الكوفة) لأن أوّل مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

Marfat.com

ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، والله أعلم . [وقال ابن المنذر(1): وقال الزهرى وحبيب بن أبى ثابت وابن سيرين : لا يُقتل اثنان بواحد . روينا ذلك عن معاذ بن جبل وابن الزبير وعبد الملك ، قال ابن المنذر : وهـذا أصح، ولا حجة مع من أباح قتـل جماعة بواحد . وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه(1)] .

الثالثة عشرة — روى الأئمة عن أبى شريح الكعبى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إنكم معشرَ خزاعة قتلتم هذا القتيل من هُذيل وإنى عاقله فمن قُتل له بعد مقالتى هذه قتيل فأهله بين خِيرَتَين أن يأخذوا العقل أو يقتلوا "، لفظ أبى داود . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى شريح الخـزاعى(2) عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : " من قُتل له قتيل فله أن يقتـل أو يعفو أو يأخذ الدية " . وذهب إلى هـذا بعض أهل العلم ، وهو قول أحمد وإسحاق .

الرابعة عشرة — اختلف أهل العلم فى أخذ الدية من قاتل العمد، فقالت طائفة : ولىُّ المقتول بالخيار إن شاء اقتص وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل . يُروى هذا عن سعيد ابن المسيّب وعطاء والحسن، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال الليث والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبى شريح وما كان فى معناه، وهو نص فى موضع الخلاف؛ وأيضا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه ؛ لأن فرضًا عليه إحياء نفسه ، وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»(3) . وقوله : «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» أى ترك له دمه، فى أحد التأويلات، ورضى منه بالدية «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ» أى فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف فى المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أى أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضّل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضى بها ولىّ الدم، على ما يأتى بيانه . وقال

(1) ما بين المربعين ساقط من ب، جـ، ز . (2) أبو شريح الخزاعى : هو أبو شريح الكعبى؛ واختلف فى اسمه ، والمشهور أنه خويلد بن عمرو بن صخر ، أسلم يوم الفتح . (3) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

Marfat.com

آخرون : ليس لولىّ المقتول إلا القصاص، ولا يأخذ الدّية إلا إذا رضى القاتل؛ رواه آبن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه ، وبه قال الثورىّ والكوفيون . وآحتجوا بحديث أَنَس فى قصة الرُّبَيِّع(١) حين كَسرت ثَنِيّة المرأة؛ رواه الأئمة قالوا : فلما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص وقال : "القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله" ولم يخيّر المجنى عليه بين القصاص والدّية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وسُنّة رسوله فى العمد هو القصاص، والأوّل أصح؛ لحديث أبى شريح المذكور . وروى الرّبيع عن الشافعى قال : أخبرنى أبو حنيفة آبن سِمَاك بن الفضل الشهابى قال : وحدّثنى آبن أبى ذئب عن المَقْبُرِىّ عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامَ الفتح : "مَن قُتل له قتيل فهو بخير النّظرَيْن إن أحبّ أخذ العقل وإن أحبّ فله القَوَد" . فقال أبو حنيفة : فقلت لآبن أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث! فضرب صدرى وصاح علىّ صياحًا كثيرًا ونال منّى وقال : أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : تأخذ به! نعم آخذ به ، وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه ، إن الله عز وجل ثناؤه آختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه ، وآختار لهم ما آختاره له وعلى لسانه ؛ فعلى الخلق أن يتّبعوه طائعين أو داخرين ، لا مخرج لمسلم من ذلك؛ قال : وما سكت عنّى حتى تمنّيت أن يسكت .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ آختلف العلماء فى تأويل « مَنْ » و « عُفِيَ » على تأويلات خمس :

أحدها — أن « مَن » يراد بها القاتل، و « عُفِيَ » تتضمّن عافيًا هو ولىّ الدم، والأخ هو المقتول، و « شَيْءٌ » هو الدّم الذى يُعفَى عنه ويرجع إلى أخذ الدّية؛ هذا قول آبن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء . والعَفْوُ فى هذا القول على بابه الذى هو الترك . والمعنى: أن القاتل إذا عفا عنه ولىّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدّية ويتبع بالمعروف، ويؤدّى إليه القاتل بإحسان .

(١) الربيع (بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد المثناة المكسورة بعدها عين مهملة) وهى عمة أنس بن مالك .

Marfat.com

الثـانى — وهو قول مالك أن « مَن » يراد به الولىّ « وعُفِىَ » يُسِّر ، لا على بابها فى العفـو ، والأخ يراد به القاتل ، و « شىء » هو الدية ، أى أن الولىّ إذا جنح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القاتل مخيّر بين أن يعطيها أو يسلم نفسه ؛ فمرّة تيسّر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضى الأولياء بالدّية فلا خيار للقاتل بل تلزمه. وقد رُوى عن مالك هذا القول، ورجّحه كثير من أصحابه. وقال أبو حنيفة: إن معنى «عُفِىَ»بُذِل؛ والعفو فى اللغة: البذل؛ ولهذا قال الله تعالى: « خُذِ الْعَفْوَ »(١) أى ما سهل. وقال أبو الأسود الدؤلى:

* خُذى العفو منّى تستديمى مودّتى *

[وقال(٢) صلى الله عليه وسلم : "أوّل الوقت رضوان الله وآخره عفو الله" يعنى شهد الله على عباده . فكأنه قال : مَن بُذِل له شىء من الدّية فليقبل وليتبع بالمعروف . وقال قوم : وليُؤدّ إليـه القاتل بإحسـان ؛ فندبه تعـالى إلى أخذ المـال إذا سهل ذلك من جهـة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة؛ كما قال ذلك عقب ذكر القصاص فى سورة «المـائدة» « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »(٣) فندب إلى رحمة العفو والصدقة، وكذلك ندب فيما ذكر فى هذه الآية إلى قبول الدّية إذا بذلها الجانى بإعطاء الدّية، ثم أمر الولىّ باتباع وأمر الجانى بالأداء بالإحسان] .

وقـد قال قوم : إن هـذه الألفاظ فى المعيّنين الذين نزلت فيهم الآية كلهـا وتساقطوا الدّيات فيما بينهم مقاصّـة . ومعنى الآية : فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شىء من تلك الدّيات؛ ويكون « عُفِىَ » بمعنى فُضل .

[روى(٢) سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبىّ قال : كان بين حيّين من العرب قتال؛ فقُتل من هؤلاء، وهؤلاء. وقال أحد الحيّين: لا نرضى حتى يُقتل بالمرأة الرجلُ و بالرجل المرأةُ؛ فآرتفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه السلام : "القتل سواء" فآصطلحوا على الدّيات ، ففُضّل أحد الحيّين على الآخر؛ فهو قوله : « كُتِبَ » إلى قوله : « فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيـهِ شَىْءٌ » يعنى فمن فُضل له على أخيه فضل فليؤدّه بالمعـروف؛ فأخبر الشعبى عن السـبب فى نزول لآية ، وذكر سفيان العفو هنا الفضل؛ وهو معنًى يحتمله اللفظ] .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ (٢) ما بين المربعين فى ح، وساقط من سائر النسخ. (٣) جـ ٦ ص ٢٠٨

Marfat.com

وتأويل خامس — وهو قول عليّ رضى الله عنه والحسن فى الفضل بين دية الرجل[(١)] والمرأة والحرّ والعبد ، أى من كان له ذلك الفضل فآتباع بالمعروف؛ و « عُفِى » فى هذا الموضع أيضا بمعنى فُضل .

السادسة عشرة — هذه الآية حضٌّ من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب ، وحسن القضاء من المؤدّى ؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب . فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛ لأن المعنى فعليه آتباع بالمعروف . قال النحاس : « فَمَنْ عُفِيَ لَهُ » شرطٌ والجواب « فآتباع » وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه آتباع بالمعروف. ويجوز فى غير القرآن « فآتباعاً » وأداءً » بجعلهما مصدرين . قال آبن عطية : وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « فآتباعا » بالنصب . والرفع سبيل للواجبات ؛ كقوله تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ[(٢)] » . وأما المندوب إليه فيأتى منصوبا؛ كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ[(٣)] » .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَدٌ ولا دِيَة؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة؛ فمن شاء قتل ، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ ﴾ شرط وجوابه؛ أى قتل بعد أخذ الدية وسقوط [الدم[(٤)]] قاتلَ وليِّه . ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال الحسن : كان الرجل فى الجاهلية إذا قتل قتيلا فرّ إلى قومه فيجيء قومه فيصالحون بالدّية فيقول وَلِيّ المقتول : إنى أقبل الدية؛ حتى يأمن القاتل ويخرج ، فيقتله ثم يرمى إليهم بالدّية .

وآختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية ؛ فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعى : هو كمن قتل آبتداء، إن شاء الولىّ قتله و إن شاء عفا عنه وعذابه فى الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسدّى وغيرهم : عذابه أن يُقتل البتّة ، ولا يمكّن الحاكمُ الولىَّ من العفو . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا أُعْفِى[(٥)] من قتل بعد أخذ

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله لم يذكر التأويل الثالث والرابع .　　(٢) راجع جـ ٣ ص ١٢٧
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٥　　(٤) زيادة يقتضيها السياق .　　(٥) أعفى : من عفا الشيء إذا كثر وزاد؛ وهذا دعاء عليه ؛ أى لا كثر ماله ولا آستغنى .

Marfat.com

الدية " . وقال الحسن : عذابه أن يردّ الدّية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفى سُنن الدّارَقُطْنِيّ عن أبى شريح الخزاعىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصيب بدم أو خَبْل — والخَبْل عَرَج — فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص أو يعفو أو يأخذ العقل فإن قَبِل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا فيها مخلّداً " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدّم . ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضًا ؛ رواه سفيان عن السُّدّىّ عن أبى مالك . والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقّق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر ، مخافةَ أن يقتص منه فحييا بذلك معًا . وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حَمِيَ قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيًا إلى قتل العدد الكثير ؛ فلما شرع الله القصاص قَنِع الكل به وتركوا الاقتتال ؛ فلهم فى ذلك حياة .

الثانية — اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ؛ وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك ؛ ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

الثالثة — وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدّى على أحد من رعيّته ، إذ هو واحد منهم ؛ وإنما له مَزِيّة النظر لهم كالوصىّ والوكيل ، وذلك لا يمنع القصاص ، وليس بينهم وبين العامّة فرق فى أحكام الله عز وجل ؛ لقوله جل ذكره : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » ، وثبت عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه أن عاملاً قطع يده : لئن كنت صادقًا لأقيدنّك منه . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ

Marfat.com

قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئا إذ أكبّ عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعُرجون كان معه ، فصاح الرجل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "[تعال] فاستقد" . قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود الطيالسي عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إليّ أقيده منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن أدب رجل منا رجلًا من أهل رعيته لتقصنه منه ؟ قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ! . ولفظ أبي داود السجستاني عنه قال : خطبنا عمر بن الخطاب فقال : إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ فمن فعل ذلك به فليرفعه إليّ أقصه منه . وذكر الحديث بمعناه .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) تقدم معناه . والمراد هنا « تتقون » القتل فتسلمون من القصاص ، ثم يكون ذلك داعيـــة لأنواع التقوى في غير ذلك ؛ فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة . وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعيّ «ولكم في القَصَص حياة» . قال النحاس : قراءة أبي الجوزاء شاذة . قال غيره : يحتمل أن يكون مصدرا كالقصاص . وقيل : أراد بالقَصَص القرآن ؛ أي لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة ؛ أي نجاة .

قوله تعـالى : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ هـذه آية الوصيـة ، وليس في القرآن ذكر للوصيـة إلا في هـذه الآية ، (2) [وفي « النساء » : «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ» (3) وفي «المـائدة» : «حِينَ الْوَصِيَّةِ» (4) . والتي في البقرة أتمها وأكملها] ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث ، على ما يأتي

(1) يراجع ج ١ ص ٢٢٦ وما بعدها ، طبعة ثانية . (2) ما بين المربعين ساقط في ب ، ج ، ز .
(3) راجع ج ٥ ص ٧٣ . (4) راجع ج ٦ ص ٣٤٨

Marfat.com

بيانه . وفى الكلام تقدير واو العطف؛ أى وكتب عليكم، فلما طال الكلام أسقطت الواو. ومثله فى بعض الأقوال : «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى»(١) أى والذى؛ فحذف. وقيل : لمّا ذكر أن لولىّ الدم أن يقتصّ؛ فهذا الذى أشرف على أن يقتصّ منه وهو سبب الموت فكأنما حضره الموت، فهذا أوان الوصية؛ فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها فلذلك سقطت واو العطف. و «كُتب» معناه فُرض وأُثبت؛ كما تقدّم(٢). وحضور الموت : أسبابه، ومتى حضر السبب كنّت به العرب عن المسبّب؛ قال شاعرهم :

يأيها الراكبُ المُزْجى مَطيّتَه * سائلْ بنى أسَد ما هذه الصوْتُ(٣)
وقل لهم بادروا بالعُذْر والتمسوا * قولاً يبرّئكم إنى أنا المـوت

وقال عنــترة :

و إن المـوت طوعُ يدى إذا ما * وصلت بنانها بالهندوان

وقال جرير فى مهاجاة الفرزدق :

أنا المـــوت الذى حدثت عنه * فليس لهاربٍ مــنّى نجـاء

الثانيـــة — إن قيل: لم قال «كُتب»، ولم يقل كُتبَتْ، والوصيةُ مؤنّثة؟ قيل له : إنما ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل: لأنه تخالّ فاصل؛ فكان الفاصل كالعوَض من تاء التأنيث؛ تقول العرب : حضر القاضى اليوم آمرأة . وقد حكى سيبويه : قام آمرأة . ولكن حُسْن ذلك إنما هو مع طول الحائل .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ «إن» شَرْط، وفى جوابه لأبى الحسن الأخفش قولان ؛ قال الأخفش : التقدير فالوصيـة ، ثم حذفت الفاء؛ كما قال الشاعر :

مَن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها * والشّرُّ بالشّر عنـــد الله مِثْلانِ

والجواب الآخر : أن المـاضى يجوز أن يكون جوابه قبـله و بعده ؛ فيكون التقدير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدّرت الفاء فالوصية رفع بالابتداء، و إن لم تقـدّر

(١) راجع ج ٢٠ ص ٨٦ . (٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء .

(٣) الصوت مذكر، وإنما أنثه ها هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة، على معنى الصيحة . (عن اللسان) .

Marfat.com

الفاء جاز أن ترفعها بالابتداء، وأن ترفعها على ما لم يُسَمَّ فاعله؛ أى كُتب عليكم الوصـية. ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل « الوصية » فى « إذا » لأنهـا فى حكم الصلة للمصدر الذى هو الوصـية وقد تقدمت، فلا يجوز أن تعمل فيها متقدّمة. ويجـوز أن يكون العامل فى « إذا » : « كُتِب » والمعنى : توجّه إيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر؛ فعبّر عن توجّه الإيجاب بكُتب لينتظم إلى هـذا المعنى أنه مكتوب فى الأزل. ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » الإيصاء يكون مقدرا دلّ على الوصية، المعنى : كُتب عليكم الإيصاء إذا.

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المـال من غير خلاف؛ واختلفوا فى مقـداره؛ فقيل : المـال الكثير؛ روى ذلك عن علىّ وعائشة وابن عباس وقالوا فى سبعمائة دينار إنه قليل. قتادة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها. الشعبىّ : ما بين خمسمائة دينار إلى ألف. والوصية عبارة عن كل شىء يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة وبعد الموت. وخصّصها العرف بمـا يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت. والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية. والوصىّ يكون الموصِى والموصَى إليه؛ وأصـله من وَصَى مخففًا. وتواصى النبت تواصيًا إذا اتصل. وأرض واصية : متّصلة النبات. وأوصيت له بشىء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّك. والاسم الوِصاية والوَصاية (بالكسر والفتح). وأوصيته ووصّيته أيضا توصية بمعنًى؛ والاسم الوصاة. وتواصى القوم أوْصى بعضهم بعضا. وفى الحديث : "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوانٍ عندكم (1)". ووصّيت الشىء بكذا إذا وصلته به.

الخامســة — اختلف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالا، بعد إجماعهم على أنها واجبة على من قِبَله ودائع وعليه ديون. وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قِبَله شىء من ذلك؛ وهو قول مالك والشافعى والثورىّ، موسرا كان الموصى أو فقيرا. وقالت طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن؛ قاله الزهرى وأبو مجلز، قليلا كان المـال أو كثيراً. وقال أبو ثور : ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال

(1) عوانٍ (جمع عانية) : وهى الأسيرة. يقول : إنما هنّ عندكم بمنزلة الأسرى.

Marfat.com

لقوم ؛ فواجب عليـه أن يكتب وصيته و يخـبر بما عليه . فأمّا من لا دَين عليه ولا وديعـة عنـده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء . قال ابن المنذر : وهـذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات إلى أهلها ؛ ومن لا حق عليه ولا أمانة قِبَله فليس واجب عليـه أن يوصى . احتج الأوّلون بما رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيّته مكتوبة عنده " وفى رواية " يبيت ثلاث ليال " وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرّت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا وعنـدى وصيتى . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يجعلها إلى إرادة الموصى ، ولكان ذلك لازمًا على كل حال ، ثم لو سُلِّم أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه ؛ وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم ؛ كما قال أبو ثور . وكذلك إن كانت له حقوق عنـد الناس يخاف تلفها على الورثة ؛ فهـذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » وكُتِب بمعنى فُرِض ؛ فدلّ على وجوب الوصية . قيل لهم : قد تقدّم الجواب عنه فى الآية قبلُ ، والمعنى : إذا أردتم الوصيّة ؛ والله أعلم . وقال النَّخَعىّ : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوص ، وقد أوصى أبو بكر ، فإن أوصى فحسن ، وإن لم يوص فلا شىء عليه .

السادســة — لم يبيّن الله تعالى فى كتابه مقدار ما يوصى به من المـال ، وإنما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » والخير المـال ؛ كقوله : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ »[1] ، « وإنه لِحُبّ الخيرِ »[2] . فاختلف العلماء فى مقدار ذلك ؛ فرُوِىَ عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه أوصى بالخمس . وقال علىّ رضى الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس . وقال مَعْمَر عن قتادة : أوصى عمر بالربع . وذكره البخارى عن ابن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحبّ إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحبّ إلىّ من أوصى بالثلث .

واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة تَرْك الوصـية ؛ روى ذلك عن علىّ وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهـم أجمعين . روى ابن أبى شـيبة من حديث ابن أبى مليـكة عن

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٩ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٦٢

Marfat.com

عائشة قال لها : إني أريد أن أوصي؛ قالت : وكم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكم عيالك ؟ قال أربعة . قالت : إن الله تعالى يقول : «إِنْ تَرَكَ خَيْراً» وهذا شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك .

السابعــة — ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا : إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله . وقالوا : إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء؛ لقوله عليه السلام : " إنك أنْ تَدَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " الحديث ، رواه الأئمة . ومن لا وارث له فليس ممن عُني بالحديث ، روى هذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، وإليه ذهب إسحاق ومالك في أحد قوليه ، وروي عن علي . وسبب الخلاف مع ما ذكرنا، الخلافُ في بيت المال هل هو وارث أو حافظ لما يُجعل فيه ؟ قولان .

الثامنــة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصي بجميع ماله . وروى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنه عبد الله : إني قد أردت أن أوصي؛ فقال له : أوص ومالك في مالي؛ فدعا كاتباً فأملى؛ فقال عبد الله : فقلت له ما أراك إلا وقد أتيت على مالي ومالك، ولو دعوت إخوتي فاستحللتهم .

التاســعة — وأجمعوا أن للإنسان أن يغيّر وصيته ويرجع فيما شاء منها؛ إلا أنهم اختلفوا من ذلك في المُدَبَّر؛ فقال مالك رحمه الله : الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصي إذا أوصى في صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقه أو غير ذلك فإنه يغيّر من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وإن أحبّ أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعل ، إلا أن يُدبِّر فإن دبّر مملوكا فلا سبيل له إلى تغيير ما دبّر؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حقّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده " . قال أبو الفرج المالكي : المُدَبَّر في القياس كالمعتق إلى شهر؛ لأنه أجل آت

Marfat.com

لا محالة . وأجمعوا ألّا يرجع فى اليميـــن بالعتق والعتق إلى أجل فكذلك المـدبَّر ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعيّ وأحمـد وإسحاق : هو وصـية ؛ لإجماعهم أنه فى الثلث كسائر الوصايا . وفى إجازتهم وطء المُدَبَّرة ما ينقض قياسهم المدبَّر على العتق إلى أجل . وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم باع مدبّرا، وأن عائشة دبّرت جارية لها ثم باعتها؛ وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يغيّر الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة . وكذلك قال الشعبيّ وآبن سيرين وآبن شُبْرُمة والنَّخعيّ ؛ وهو قول سفيان الثوريّ .

العـاشرة — وآختلفوا فى الرجل يقول لعبده : أنت حُرٌّ بعـد موتى ؛ وأراد الوصية ؛ فله الرجوع عند مالك فى ذلك . وإن قال : فلان مُدَبَّر بعد موتى؛ لم يكن له الرجوع فيه . وإن أراد التّدبير بقوله الأوّل لم يرجع أيضا عند أكثر أصحاب مالك . وأما الشافعيّ وأحمد وإسحـاق وأبو ثور فكل هـذا عندهم وصية ؛ لأنه فى الثلث ، وكل ما كان فى الثلث فهـو وصية ؛ إلا أن الشافعيّ قال : لا يكون الرجوع فى المدبَّر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبة . وليس قوله : « قد رجعت » رجوعا ؛ وإن لم يخرج المدبَّر عن ملكه حتى يموت فإنه يعتق بموته . وقال فى القـديم : يرجع فى المدبَّر كما يرجع فى الوصـية . وآختاره المُزَنيّ قياسًا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقـه . وقال أبو ثور : إذا قال قـد رجعت فى مدبَّرى فقد بطل التدبير ، فإن مات لم يعتق . وآختلف آبن القاسم وأشهب فيمن قال : عبدى حُرٌّ بعـد موتى ؛ ولم يرد الوصـية ولا التدبير ؛ فقال آبن القاسم : هـو وصية . وقال أشهب : هو مُدَبَّر وإن لم يُرد الوصية .

الحادية عشرة — آختلف العلماء فى هـذه الآية هل هى منسوخة أو مُحْكَمَة ؛ فقيل : هى محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفى القرابة غير الورثة ؛ قاله الضحاك وطاوس والحسن ، وآختاره الطبرى . وعن الزهرى أن الوصية واجبة فيما قلّ أو كثر . وقال آبن المنذر : أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذَيْن لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال آبن عباس والحسن أيضا وقتادة : الآية عامة ، وتقرر الحكم بها بُرهة من الدهر، ونسخ منها كل من كان يرث بآية

Marfat.com

الفرائض . وقد قيل : إن آية الفرائض لم تستقل بنسخها بل بضميمة أخرى ، وهي قوله عليه السلام : "إن الله قد أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث" . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . فنسخ الآية إنما كان بالسنة الثابتة لا بالإرث ، على الصحيح من أقوال العلماء . ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المال عن المورث بالوصية ، وبالميراث إن لم يوص ، أو ما بقي بعد الوصية ؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعي وأبو الفرج وإن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء ، وقد تقدم هذا المعنى[1] . ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحادًا لكن قد انضم إليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسنة وأنها مستند المجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن : نُسخت الوصية للوالدين بالفرض في سورة «النساء» وثبتت للأقربين الذين لا يرثون ؛ وهو مذهب الشافعي وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم . وفي البخاري عن ابن عباس قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ؛ فنسخ من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس ، وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد : الآية كلها منسوخة ، وبقيت الوصية ندبًا ؛ ونحو هذا قول مالك رحمه الله ، وذكره النحاس عن الشعبي والنخعي . وقال الربيع بن خثيم[2] : لا وصية . قال عروة بن ثابت : قلت للربيع بن خثيم أوص لي بمصحفك ؛ فنظر إلى ولده وقرأ « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ »[3] . ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه .

---

(١) يراجع ص ٦٥ من هذا الجزء .

(٢) خثيم : بضم أوله وفتح المثلثة ؛ كذا في التقريب . وفي الخلاصة بفتح المعجمة ، المثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٥٨ .

Marfat.com

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقربون جمع أقرب . قال قوم : الوصية للأقربين أولى من الأجانب ؛ لنص الله تعالى عليهم ؛ حتى قال الضّحاك : إن أوصى لغير قرابته فقد ختم عمله بمعصية . وروى عن ابن عمر أنه أوصى لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف . وروى أن عائشة وصّت لمولاة لها بأثاث البيت . وروى عن سالم ابن عبد الله بمثل ذلك . وقال الحسن : إن أوصى لغير الأقربين ردّت الوصية للأقربين ؛ فإن كانت لأجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم . وقال الناس حين مات أبو العالية : عجبا له ! أعتقته امرأة من رياح(٢) وأوصى بماله لبني هاشم . وقال الشعبيّ : لم يكن له ذلك ولا كرامة . وقال طاوس : إذا أوصى لغير قرابته ردّت الوصية إلى قرابته ونقض فعله ؛ وقاله جابر بن زيد، وقد روى مثل هذا عن الحسن أيضا ، وبه قال إسحاق بن رَاهَوَيْه . وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعي وأحمد بن حنبل : من أوصى لغير قرابته وترك قرابته محتاجين فبئسما صنع ! وفعله مع ذلك جائز ماضٍ لكل من أوصى له من غنيّ وفقير، قريب وبعيد، مسلم وكافر . وهو معنى ما روى عن ابن عمر وعائشة ، وهو قول ابن عمر وابن عباس .

قلت : القول الأول أحسن . وأما أبو العالية رضي الله عنه فلعله نظر إلى أن بني هاشم أولى من معتقته لصحبته ابن عباس وتعليمه إياه وإلحاقه بدرجة العلماء في الدنيا والأخرى . وهذه الأبوة وإن كانت معنوية فهي الحقيقية، ومعتقته غايتها أن ألحقته بالأحرار في الدنيا؛ فحسبها ثواب عتقها ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — ذهب الجمهور من العلماء إلى أن المريض يُحجر عليه في ماله ؛ وشذّ أهل الظاهر فقالوا : لا يُحجر عليه وهو كالصحيح ؛ والحديث والمعنى يردّ عليهم . قال سعد : عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من وجع أشفيتُ(٣) منه على الموت فقلت يا رسول الله ، بلغ بي ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا بنت واحدة،

---

(١) في ب ، ج : « عن عمر » . والمعروف أن سيدنا عمر مات مدينا .

(٢) رياح (ككتاب) : قبيلة . (٣) أشفى على الشيء : أشرف .

Marfat.com

أفأتصدق بثلى مالى ؟ قال : "لا"؛ قلت : أفأتصدق بشطره؟ قال : "لا، الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " الحديث .

ومنع أهـل الظاهر أيضا الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة . وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة، وهو الصحيح؛ لأن المريض إنما مُنع من الوصية بزيادة على الثلث لحق الوارث ؛ فإذا أسقط الورثة حقهم كان ذلك جائزا صحيحا ، وكان كالهبة من عندهم . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة " . وروى عن عمرو بن خارجة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاوصية لوارث إلا أن تُجيز الورثة " .

الرابعة عشرة — واختلفوا فى رجوع المجيزين للوصية للوارث فى حياة الموصى بعد وفاته ؛ فقالت طائفة : ذلك جائز عليهم وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبى رباح وطاوس والحسن وابن سيرين وابن أبى ليلى والزهرى وربيعة والأوزاعى . وقالت طائفة: لهم الرجوع فى ذلك إن أحبّوا . هذا قول ابن مسعود وشُريح والحكم وطاوس والثورى والحسن بن صالح وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وأبى ثور ، واختاره ابن المنذر . وفرّق مالك فقال : إذا أذنوا فى صحته فلهم أن يرجعوا، وإن أذنوا له فى مرضه حين يُحجب عن ماله فذلك جائز عليهم ؛ وهو قول إسحاق . احتجّ أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة ؛ فإذا أجازوه جاز . وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثـه لأجنبى جاز بإجازتهم ؛ فكذلك ها هنا . واحتجّ أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت، وإنما يُملك المال بعد وفاته، وقد يموت الوارث المستأذن قبله ولا يكون وارثا وقد يرثه غيره؛ فقد أجاز من لا حق له فيه فلا يلزمه شىء . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء؛ فإذا أذنوا له فى صحته فقد تركوا شيئا لم يجب لهم، وإذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق ؛ فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان قد أنفذه لأنه قد فات .

الخامسة عشرة — فإن لم يُنفـذ المريض ذلك كان للوارث الرجوع فيـه لأنه لم يفت بالتنفيذ؛ قاله الأبهرى . وذكر ابن المنذر عن إسحاق بن راهَوَيْه أن قول مالك فى هذه المسألة

Marfat.com

أشبه بالسُّنة من غيره . قال آبن المنـذر : وآتفق قول مالك والثورىّ والكوفيين والشافعىّ وأبى ثور أنهم إذا أجازوا ذلك بعد وفاته لزمهم .

السادسة عشرة — وآختلفوا فى الرجل يوصى لبعض ورثته بمال ، ويقول فى وصيّته : إن أجازها الورثة فهى له ، وإن لم يجيزوه فهو فى سبيل الله؛ فلم يجيزوه . فقال مالك : إن لم تُجز الورثة ذلك رجع إليهم . وفى قول الشافعى وأبى حنيفة ومَعْمَر صاحب عبد الرزاق يمضى فى سبيل الله .

السابعة عشرة — لا خلاف فى وصيّة البالغ العاقل غير المحجور عليه، وآختلف فى غيره؛ فقال مالك : الأمر المجمع عليه عنـدنا أن الضعيف فى عقله والسّفيه والمصاب الذى يُفيق أحيانًا تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم مايعرفون مايوصون به . وكذلك الصبىّ الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول فوصيّته جائزة ماضـية . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز وصـيّة الصبىّ . وقال المُزَنىّ : وهو قيـاس قول الشافعىّ ، ولم أجد للشافعىّ فى ذلك شيئا ذكره ونصّ عليـه . وآختلف أصحابه على قولين : أحدهـا كقول مالك ، والثـانى كقول أبى حنيفة . وحجتهـم أنه لا يجوز طلاقه ولا عتاقه ولا يقتصّ منه فى جناية ولا يحدّ فى قذف ؛ فليس كالبالغ المحجور عليه ، فكذلك وصيته . قال أبو عمر : قد آتفق هؤلاء على أن وصية البالغ المحجور عليه جائزة . ومعلوم أن من يعقل من الصبيان ما يوصى به فحاله حال المحجور عليه فى ماله ؛ وعلّة الحجر تبذير المـال وإتلافه ، وتلك علّة مرتفعة عنـه بالموت ، وهو بالمحجور عليه فى ماله أشبه منه بالمجنون الذى لا يعقل ؛ فوجب أن تجوز وصيته مع الأمر الذى جاء فيـه عن عمر رضى الله عنه . وقال مالك : إنه الأمر المجمع عليـه عندهم بالمدينة؛ وبالله التوفيق . وقال محمـد بن شريح : من أوصى من صغير أو كبير فأصاب الحق فالله قضاه على لسانه ليس للحق مدفع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعنى بالعدل، لا وكس فيه ولا شطط ؛ وكان هذا موكولا إلى آجتهاد الميت ونظر الموصى، ثم تولّى الله سبحانه تقدير ذلك على لسان

Marfat.com

نبيّه عليه السلام، فقال عليه السلام : " الثلث والثلث كثير "؛ وقد تقدّم ما للعلماء في هذا . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تصدّق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة لكم في حسناتكم ليجعلها لكم زكاة " . أخرجه الدّارَقُطْني عن أبي أمامة عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن : لا تجوز وصيّة إلا في الثلث؛ وإليه ذهب البخاري واحتج بقوله تعالى : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ »[1] وحُكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الثلث كثير هو الحكم بما أنزل الله . فمن تجاوز ما حدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عنه؛ وكان بفعله ذلك عاصيًا إذا كان بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عالمًا . وقال الشافعي : وقوله " الثلث كثير " يريد أنه غير قليل .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَقًّا ﴾ يعني ثابتًا ثبوت نظر وتحصين، لا ثبوت فرض ووجوب؛ بدليل قوله : « عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » وهذا يدلّ على كونه ندبًا؛ لأنه لو كان فرضًا لكان على جميع المسلمين، فلما خصّ الله من يتقي، أي يخاف تقصيرا، دلّ على أنه غير لازم إلا فيما يتوقّع تلفه إن مات، فيلزمه فرضًا المبادرة بكَتْبه والوصية به؛ لأنه إن سكت عنه كان تضييعًا له وتقصيرًا منه؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وٱنتصب « حقًّا » على المصدر المؤكّد، ويجوز في غير القرآن « حقّ » بمعنى ذلك حق .

الموفّية عشرين — قال العلماء : المبادرة بكَتْب الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية وإنما هي من حديث ٱبن عمر . وفائدتها : المبالغة في زيادة الاستيثاق وكونها مكتوبة مشهودا بها وهي الوصية المتفق على العمل بها؛ فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظًا لعُمل بها وإن لم تكتب خطًّا؛ فلو كتبها بيده ولم يُشهد فلم يختلف قول مالك أنه لا يُعمل بها إلا فيما يكون فيها من إقرار بحق لمن لا يتّهم عليه فيلزمه تنفيذه .

الحادية والعشرون — روى الدّارَقُطْنيّ عن أنس بن مالك قال : كانوا يكتبون في صدور وصاياهم « هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢ .

Marfat.com

وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور. وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ و«ما» كافة لـ«إن» عن العمل. و«إثمه» رفع بالابتداء، «على الذين يبدلونه» موضع الخبر. والضمير فى «بدله» يرجع إلى الإيصاء؛ لأن الوصية فى معنى الإيصاء، وكذلك الضمير فى «سمعه»، وهو كقوله: «فمن جاءه موعظة من ربه»[(١)] أى وعظ، وقوله: «إذا حضر القسمة»[(٢)] أى المال، بدليل قوله «منه». ومثله قول الشاعر:

* ما هـذه الصوت *

أى الصيحة. وقال امرؤ القيس:

برهرهة رؤدة رخصة * كخرعوبة البانة المنفطر[(٣)]

والمنفطر المنتفخ بالورق، وهو أنعم ما يكون؛ ذهب إلى القضيب وترك لفظ الخرعوبة. و«سمعه» يحتمل أن يكون سمعه من الوصى نفسه، ويحتمل أن يكون سمعه ممن يثبت به ذلك عنده، وذلك عدلان. والضمير فى «إثمه» عائد على التبديل؛ أى إثم التبديل عائد على المبدل لا على الميت؛ فإن الموصى خرج بالوصية عن اللوم وتوجهت على الوارث أو الولى. وقيل: إن هذا الموصى إذا غير فترك الوصية أو لم يجزها على ما رسم له فى الشرع فعليه الإثم.

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩. (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٨.

(٣) البرهرهة: الرقيقة الجلد، أو هى الملساء المترجرجة. الرؤدة والرودة: الشابة الحسنة، السريعة الشباب مع حسن غذاء. والرخصة: اللينة الخلق. والخرعوبة: القضيب الغض اللدن. والبانة: يريد شجر البان.

Marfat.com

الثانيـــة — في هذه الآية دليـل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج به عن ذمته وحصل الوليّ مطلوبا به ، له الأجر في قضائه ، وعليه الوِزْر في تأخيره . وقال القاضي أبو بكر آبن العربي : « وهذا إنمـا يصح إذا كان الميت لم يفرّط في أدائه ، وأمّا إذا قدر عليه وتركه ثم وصّى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الوليّ فيه » .

الثالثـــة — ولا خلاف أنه إذا أوصى بمـا لا يجوز ؛ مثل أن يوصى بخمـر أو خنزير أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه ، كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث ؛ قاله أبو عمـر .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف المُوصين وتبديل المعتدين .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

فيـــه ست مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ « مَنْ » شَرْط ، و « خاف » بمعنى خَشِيَ . وقيل : علم . والأصل خَوِف ، قُلبت الواو ألفـا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها . وأهل الكوفة يميلون «خاف» ليدلوا على الكسرة من فَعِلت . «مِنْ مُوَصٍّ» بالتشديد قراءة أبي بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ، وخفّف الباقون ، والتخفيف أبين ؛ لأن أكثر النحويين يقولون « مُوَصٍّ » للتكثير . وقد يجـوز أن يكون مثل كَرّم وأكرم . « جنفًا » من جَنِف يَجْنَف إذا جار ، والآسم منه جَنِف وجانف ؛ عن النحاس . وقيل : الجَنَف الميل . قال الأعشى :

تجانَفُ عن حجـر[1] اليمـامة ناقتي * وما قَصَدَتْ من أهلها لسوائكا

وفي الصّحاح : «الجَنَف» الميل . وقد جَنِف بالكسر يَجْنَف جَنَفًا إذا مال ؛ ومنه قوله تعالى : « فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » . قال الشاعر[2] :

هُمُ المَـوْلَى وإنْ جَنَفُوا علينـا * وإنّا مِـن لِقائِهِـمُ لَزُورُ

(١) في الصحاح واللسان : « جو » .   (٢) هو عامر الخصفي .

Marfat.com

قال أبو عبيدة : المَوْلَى هاهنا فى موضع الموالِى ، أى بنى العـمّ ؛ كقوله تعالى « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » (١) . وقال لَبِيد :

إنى ٱمرؤٌ مَنعتْ أرومةُ عامرٍ * ضَيْمِى وقد جَنِفتْ علىّ خصومى

قال أبو عبيدة : وكذلك الجانئ (بالهمز) وهو المـائل أيضا . ويقال : أجنف الرجل؛ أى جاء بالجَنَف . كما يقال : أَلَامَ؛ أى أتى بمـا يلام عليه . وأخَسّ؛ أى أتى بخسيس . وتجانَف لإثم؛ أى مال . ورجلٌ أجنَف؛ أى منحنى الظهر . وجُنَفَى (على فُعَلَى بضم الفاء وفتح العين) : ٱسم موضع؛ عن ٱبن السكّيت . ورُوى عن علىّ أنه قـرأ « حَيْفًا » بالحاء والياء؛ أى ظلمًا . وقال مجاهد : « فمن خاف » أى من خشى أن يجنف الموصى ويقطع ميراث طائفة ويتعمد الأذيّة (٢) ، أو يأتيها دون تعمّد، وذلك هو الجَنَف دون إثم، فإن تعمّد فهو الجنف فى إثم . فالمعنى من وعظ فى ذلك وردّ عنه فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته وبين الورثة فى ذاتهـم فلا إثم عليه . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن الموصى إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الأذية . وقال ٱبن عباس وقتادة والرّبيع وغيرهم : معنى الآية من خاف أى علم ورأى رأى علمه عليه بعد موت الموصى أن الموصى جنف وتعمّد أذية بعض ورثته فأصلح ما وقع بين الورثة من الأضطراب والشقاق « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »؛ أى لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل . وإن كان فى فعله تبديلٌ مّا ولا بدّ، ولكنه تبديل لمصلحة . والتبديل الذى فيه الإثم إنمـا هو تبديل الهوى .

الثانيـــة — الخطاب بقوله : ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ لجميع المسلمين . قيل لهم : إن خفتم من مُوصٍ مَيْلًا فى الوصيّة وعدولًا عن الحـق ووقوعًا فى إثم ولم يخرجها بالمعروف ، وذلك بأن يوصى بالمـال إلى زوج ٱبنته أو لولد ٱبنته لينصرف المـال إلى ٱبنته ، أو إلى ٱبن ٱبنه والغرض أن ينصرف المـال إلى ٱبنه ، أو أوصى لبعيد وترك القريب؛ فبادروا إلى السعى فى الإصلاح بينهم؛ فإذا وقع الصلح سـقط الإثم عن المصلح . والإصلاح فرض على الكفاية ، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين ، وإن لم يفعلوا أثم الكل .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٠ (٢) فى الأصول هنا وفيما سيأتى « الأذاية » .

Marfat.com

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على الحكم بالظن ؛ لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعى فى الصلاح . وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إنما يكون حكما بالدفع وإبطالا للفساد وحَسْمًا له .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ عطف على « خاف » ، والكناية عن الورثة ، ولم يجر لهم ذكر لأنه قد عرف المعنى ، وجواب الشرط « فلا إثم عليه » .

الرابعـــة — لا خلاف أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عنـد الموت ؛ لقوله عليه السلام وقـد سئل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال : " أن تَصَـدَّقَ وأنت صحيح شحيح " الحديث ، أخرجه أهـل الصحيح . وروى الدَّارَقُطْنِىّ عن أبى سعيد الخـدرىّ أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لأن يتصدق المرء فى حياته بدرهم خير له من أن يتصدق عند موته بمـائة " . وروى النسائى عن أبى الدرداء عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " مَثَل الذى ينفق أو يتصدق عند موته مَثَل الذى يهدى بعد ما يَشبع " .

الخامســـة — من لم يضرّ فى وصيته كانت كفارة لمـا ترك من زكاته . روى الدَّارَقُطْنِىّ عن معاوية بن قُرّة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حضرته الوفاة فأوصى فكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لمـا ترك من زكاته " . فإن ضَرّ فى الوصية وهى :

السادســـة — فقد روى الدَّارَقُطْنِىّ أيضا عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الإضرار فى الوصية من الكبائر " . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضارّان فى الوصية فتجب لهما النار " . وترجم النسائى « الصلاة على من جَنَف(1) فى وصيته » أخبرنا علىّ بن حجر أنبأنا هشيم عن منصور وهو ابن زاذان عن الحسن(2) عن عمران بن حُصين رضى الله عنه أن رجلا أعتق ســتةً مملوكين له عند موته ولم يكن له مال

(1) فى سنن النسائى : « حيف » بالحاء والياء .

(2) كذا فى النسائى . وفى الأصول : « عن الحسن عن سمرة عن عمران » .

Marfat.com

غيرهم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فغضب من ذلك وقال : " لقد هممت ألّا أصلّى عليه " [ثم دعا مملوكيه] (١) فجزأهم ثلاثة أجزاء ثم أقرع بينهم فأعتق آثنين وأرق أربعة . وأخرجه مسلم بمعناه إلا أنه قال فى آخره : وقال له قولا شديدا، بدل قوله : " لقد هممت ألا أصلّى عليه " .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ لما ذكر ما كتب على المكلّفين من القصاص والوصية ذكر أيضا أنه كتب عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم، ولا خلاف فيه، قال صلى الله عليه وسلم : "بُنِيَ الإسلام على خمسٍ شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة وصومِ رمضان والحج" رواه ٱبن عمر . ومعناه فى اللغة : الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال . ويقال للصَّمْت صوم ؛ لأنه إمساك عن الكلام ؛ قال الله تعالى مخبرًا عن مريم : « إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا » (٢) أى سكوتًا عن الكلام . والصوم : ركود الريح ؛ وهو إمساكها عن الهبوب . وصامت الدابة على آريِّها (٣) : قامت وثبتت فلم تَعْتَلِف . وصام النهار : اعتدل . ومَصَامُ الشمس حيث تستوى فى منتصف النهار ؛ ومنه قول النابغة :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ * تحت العَجاج وخيلٌ تَعْلُكُ اللُّجُمَا

(١) الزيادة عن سنن النسائى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٩٧
(٣) الآرى : حبل تشد به الدابة فى محبسها ، ويسمى الأخية .

Marfat.com

أى خيل ثابتة ممسكة عن الجرى والحركة ؛ كما قال[1] :

* كأنّ الثُّرَيَّا عُلِّقت فى مَصَامِها *

أى هى ثابتة فى مواضعها فلا تنتقل ؛ وقوله :

* والبَكَرَات شرّهنّ الصائمة[2] *

يعنى التى لاتدور .

وقال آمرؤ القيس :

فدَعْها[3] وسَلّ الهمَّ عنك بجَسْرة * ذَمولٍ إذا صام النهارُ وهَجّرا

أى ابطأت الشمس عن الآنتقال والسير فصارت بالإبطاء كالممسكة .

وقال آخر :

حتى إذا صام النهار وآعتدل * وسال للشمس لعابٌ فنزل

وقال آخر :

نَعَامًا بوَجْرَة صفر الخدُو * دِ ما تَطْعَم النوم إلا صِيَامًا[4]

أى قائمة . والشعر فى هذا المعنى كثير .

والصوم فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع آقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله بآجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرّمات؛ لقوله عليه السلام : " من لم يَدَعْ قول الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَع طعامَه وشرابَه " .

الثانيـــة — فضل الصـــوم عظيم، وثوابه جسيم، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة فى مسانيدهم، وسيأتى بعضها، ويكفيك الآن منها فى فضل الصوم أنْ خصّه الله بالإضافة إليه، كما ثبت فى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربّه :

---

(١) هو آمرؤ القيس؛ كما فى اللسان والمعلقات، وتمام البيت : * بأمراس كتّان على صُمّ جندل *

(٢) قبله : * شر الدلاء الولغة الملازمة *

(٣) فى الأصول : « فدع ذا » والتصويب عن الديوان واللسان .

(٤) تقدم الكلام على هذا البيت جـ ١ ص ٢٣ ؛ طبعة ثانية ، فليراجع .

Marfat.com

" يقول الله تبارك وتعالى كل عمل آبن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به " الحديث .
وإنما خصّ الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات .

أحدهما — أن الصوم يمنع من ملاذّ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات .

الثانى — أن الصوم سرّ بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له ؛ فلذلك صار مختصًّا به .
وما سواه من العبادات ظاهر، رُبّما فعله تَصنُّعًا ورياء؛ فلهذا صار أخص بالصوم من غيره.
وقيل غير هذا .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت ، التقدير كَتْبًا كما ، أو صومًا كما . أو على الحال من الصيام؛ أى كتب عليكم الصيام مشبهًا كما كتب على الذين من قبلكم . وقال بعض النحاة: الكاف فى موضع رفع نعتًا للصيام؛ إذ ليس تعريفه بمحض؛ لمكان الإجمال الذى فيه بما فسّرته الشريعة ، فلذلك جاز نعته بـ«كما» إذ لا يُنعت بها إلا النكرات ، فهو بمنزلة كُتب عليكم صيام؛ وقد ضُعِّف هذا القول . و « ما » فى موضع خفض، وصلتها : « كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . والضمير فى « كُتب » يعود على «ما» .
وآختلف أهل التأويل فى موضع التشبيه وهى :

الرابعـة — فقال الشعبيّ وقتادة وغيرهما : التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم؛ فإن الله تعالى كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيّروا، وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام ثم مَرِض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد فى صومهم عشرة أيام ففعل ؛ فصار صوم النصارى خمسين يومًا؛ فصعُب عليهم فى الحر فنقلوه إلى الربيع . وآختار هذا القول النحاس وقال : وهو الأشبه بما فى الآية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دَغْفَل آبن حنظلة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان على النصارى صوم شهر فمرض رجل منهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشرة ثم كان آخر فأكل لحمًا فأوجع فاه فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن سبعة ثم كان ملك آخر فقالوا لنتمّن هذه السبعة الأيام ونجعل صومنا فى الربيع قال فصار خمسين " . وقال مجاهد : كتب الله عزّ وجلّ صوم شهر رمضان على كل أمة. وقيل:

Marfat.com

أخذوا بالوثيقة(١) فصاموا قبل الثلاثين يومًا و بعدها يومًا، قرنًا بعد قرن؛ حتى بلغ صومهم خمسين يومًا ؛ فصعُب عليهم فى الحرّ فنقلوه إلى الفصل الشمسى . قال النقاش : وفى ذلك حديث عن دَغْفَل بن حنظلة والحسن البصرى والسُّدّى .

قلت : ولهذا ــ والله أعلم ــ كُره الآن صوم يوم الشك والسّتة من شوّال بإثر يوم الفطر متصلًا به . قال الشعبي : لو صمتُ السنة كلها لأفطرتُ يوم الشك؛ وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا، فحوّلوه إلى الفصل الشمسى؛ لأنه قد كان يوافق القيظ فعدّوا ثلاثين يومًا، ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوَثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يومًا و بعدها يومًا؛ ثم لم يزل الآخر يستنّ بسُنة من كان قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا فذلك قوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . وقيل : التشبيه راجع إلى أصل وجوبه على من تقدّم، لا فى الوقت والكيفية . وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذى كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح، فاذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان فى النصارى أوّلا وكان فى أوّل الإسلام، ثم نسخه الله تعالى بقوله : « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » على ما يأتى بيانه(٢)؛ قاله السُّدّى وأبو العالية والربيع . وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدّة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » أى فى أوّل الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر و يوم عاشوراء؛ « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » وهم اليهود ــ فى قول ابن عباس ــ ثلاثة أيام و يوم عاشوراء . ثم نُسخ هذا فى هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك « بِأَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » ثم نُسخت الأيام برمضان .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » ترجّ فى حقّهم، كما تقدم(٣). و « تتقون » قيل : معناه هنا تضعفون؛ فإنه كلما قلّ الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت

(١) الوثيقة فى الأمر : إحكامه والأخذ بالثقة .　　(٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الشهوة قلّت المعاصى . وهذا وجه مجازى حسن . وقيل : لتتقوا المعاصى . وقيل : هو على العموم ؛ لأن الصيام كما قال عليه السلام : "الصيامُ جُنّةٌ وَوِجاء"(١) وسبب تقوى ؛ لأنه يُميت الشهوات .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ «أياما» مفعول ثان بـ «كُتب» ؛ قاله الفراء . وقيل : نصب على الظـرف لـ «كُتب» ؛ أى كتب عليكم الصيام فى أيام . والأيام المعدودات : شهر رمضان ؛ وهذا يدل على خلاف ماروى عن معاذ ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه ست عشرة مسـألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿مَرِيضًا﴾ للمريض حالتان : إحداهما — ألّا يطيق الصوم بحال ؛ فعليه الفطر واجبًا . الثانية — أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة ؛ فهذا يُستحبّ له الفطر ولا يصوم إلا جاهل . قال ٱبن سيرين : متى حصل الإنسان فى حالٍ يستحق بها ٱسم المرض صحّ الفطر، قياسًا على المسافر لعلّة السفر، و إن لم تدع إلى الفطر ضرورة . قال طريف ٱبن تمام العُطاردى : دخلت على محمد بن سيرين فى رمضان وهو يأكل؛ فلما فرغ قال : إنه وجعتْ أصبعى هـذه . وقال جمهور من العلماء : إذا كان به مرض يؤلمه و يؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيّده صحّ له الفطر . قال ٱبن عطية : وهذا مذهب حذّاق أصحاب مالك وبه يناظرون . وأما لفظ مالك فهو المرض الذى يشقّ على المرء و يبلغ به . وقال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : وٱختلفت الرواية عن مالك فى المرض المبيح للفطر، فقال مرّة : هو خوف التلف من الصيام . وقال مرّة : شدّة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة . وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر ؛ لأنه لم يخصّ مرضًا من مرض فهو مباح فى كل مرض ، إلا ماخصّه الدليل من الصّـداع والحمّى والمرض اليسير الذى لا كُلْفة معه فى الصيام . وقال الحسن : إذا لم يقـدر من المرض على الصلاة قائمـا أفطر ؛ وقاله النَّخَعى . وقالت فرقة : لا يُفطر بالمرض إلا من

(١) الوجاء : أن تُرَضّ أنثيا الفحل رضًا شـديدا يذهب شهوة الجماع ، و يتنزّل فى قطعه منزلة الخصى . أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

Marfat.com

دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ، ومتى آحتمل الضرورة معـه لم يفطر . وهـذا قول الشافعيّ رحمه الله تعالى .

قلت : قول آبن سِيرين أعدل شيء في هـذا الباب إن شاء الله تعالى . قال البخاري : آعتللتُ بنَيْسابور علّةً خفيفة وذلك في شهر رمضـان ؛ فعادني إسحاق بن رَاهَوَيْه في نفر من أصحـابه فقال لي : أفطرت يا أبا عبـد الله ؟ فقلت نعم . فقال : خشيتَ أن تضعف عن قبول الرّخصة . قلت : حدّثنا عبدان عن آبن المبارك عن آبن جُريج قال قلت لعطاء : من أيّ المرض أفطر ؟ قال : من أيّ مرض كان ؛ كما قال الله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا » قال البخاري : وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق . وقال أبو حنيفة : إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم إن لم يُفطر أن تزداد عينه وجعًا أو حُمّاه شدّةً أفطر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ آختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتّصل بهذين سَفَرُ صلة الرّحم وطلب المعاش الضروري . أما سفر التجارات والمباحات فمختلَف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح . وأمّا سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح ، قاله آبن عطية . ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة . وآختلف العلماء في قدر ذلك ؛ فقال مالك : يوم وليـلة ؛ ثم رجع فقال : ثمـانية وأربعون مِيـلا . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وهو ظاهر مذهبه ؛ وقال مرّة : آثنان وأربعون مِيلًا ؛ وقال مرّة ستة وثلاثون مِيلًا ؛ وقال مرّة : مسيرة يوم وليلة ؛ وروى عنـه يومان ؛ وهو قول الشافعي . وفصّل مرّة بين البرّ والبحر ؛ فقال في البحر مسيرة يوم وليلة ، وفي البر ثمانية وأربعون ميلًا ، وفي المذهب ثلاثون ميلًا ؛ وفي غير المذهب ثلاثة أميال . وقال آبن عمر وآبن عباس والثوريّ : الفطر في سـفرِ ثلاثة أيام ؛ حكاه آبن عطية .

قلت : والذي في البخاري : وكان آبن عمر وآبن عباس يفطران و يقصران في أربعـة بُرُد ، وهي ستة عشر فرسخًا .

Marfat.com

الثالثـــة ــ آتفق العلمــاء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيّت الفطر؛ لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنّية بخلاف المقيم، وإنمــا يكون مسافراً بالعمل والنهوض، والمقيم لا يفتقر إلى عمل؛ لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيّما فى الحين، لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا. ولا خلاف بينهم أيضا فى الذى يؤمّل السفر أنه لا يجوز له أن يفطر قبل أن يخرج؛ فإن أفطر فقال آبن حبيب: إن كان قد تأهّب لسفره وأخذ فى أسباب الحركة فلا شيء عليه؛ وحكى ذلك عن أَصْبَغ وآبن المـاجشُون؛ فإن عاقه عن السفر عائق كان عليـه الكفارة، وحَسْبه أن ينجو إن سافر. وروى عيسى عن آبن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم؛ لأنه متأول فى فطره. وقال أشهب: ليس عليه شيء من الكفارة سافر أولم يسافر. وقال سُحْنون: عليه الكفارة سافر أو لم يسافر؛ وهو بمنزلة المرأة تقول: غدًا تأتينى حَيْضتى، فتُفْطِر لذلك. ثم رجع إلى قول عبد الملك وأَصْبَغ وقال: ليس مثل المرأة؛ لأن الرجل يُحدث السفر إذا شاء، والمرأة لا تُحدث الحيضة.

قلت: قول آبن القاسم وأشهب فى نفى الكفّارة حَسَن؛ لأنه فعل ما يجوز له فعله، والذّمة بريئة، فلا يثبت فيها شيء إلا بيقين ولا يقين مع الآختلاف، ثم إنه مقتضى قوله تعالى: «أَوْ عَلَى سَفَرٍ». وقال أبو عمر: هذا أصح أقاويلهم فى هذه المسألة؛ لأنه غير منتهك لحرمة الصوم بقصد إلى ذلك، إنمــا هو متأول، ولو كان الأكل مع نيّة السفر يوجب عليه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه؛ فتأمّل ذلك تجده كذلك، إن شاء الله تعالى. وقد روى الدّارَقُطْنِىّ: حدّثنا أبو بكر النيسابورى حدّثنا إسماعيل بن إسحاق بن سهل بمصر قال حدّثنا آبن أبى مريم حدّثنا محمد بن جعفر أخبرنى زيد بن أسلم قال: أخبرنى محمد بن المُنْكَدِر عن محمد ابن كعب أنه قال: أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رُحِلَت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس، فدعا بطعام فأكل منــه ثم ركب. فقلت له: سُــنّة؟ قال نعم. وروى عن أنس أيضــا قال قال لى أبو موسى: ألم أنبئْك إذا خرجت خرجت صائمًا، وإذا دخلت دخلت صائمًا؛ فإذا خرجت فآخرج مفطرًا وإذا دخلت فآدخل

Marfat.com

مفطرًا . وقال الحسن البصرى : يُفطر إن شاء فى بيتـه يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت . وقال إسحاق : لا، بل حين يضع رجله فى الرّحْل . قال ٱبن المنذر : قول أحمـد صحيح ؛ لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحًا ثم ٱعتلّ : إنه يُفطر بقيـة يومه ، وكذلك إذا أصبح فى الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك و إن نهض فى سـفره ؛ كذلك قال الزهرى ومكحول و يحيى الأنصـارى ومالك والأوزاعى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى . وٱختلفوا إن فعل؛ فكلهم قال يقضى ولا يكفّر. قال مالك : لأن السفر عذر طارئ، فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضى و يكفّر؛ وهو قول ٱبن كنانة والمخزومى، وحكاه البـاجى عن الشافعى، وٱختـاره ٱبن العربى وقال به؛ قال : لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض؛ لأن المرض يبيح له الفطر، والحيضُ يُحَرِّم عليها الصوم، والسفرُ لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حُرمته . قال أبو عمر : وليس هذا بشىء ؛ لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر فى الكتاب والسُّنة . وأما قولهم «لا يفطر» فإنما ذلك ٱستحباب لمـا عقده فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لهـا ، ومن أوجبها فقد أوجب مالم يوجبه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسـلم . وقد روى عن ٱبن عمـر فى هذه المسألة : يفطر إن شـاء فى يومه ذلك إذا خرج مسافرًا؛ وهو قول الشعبى وأحمد و إسحاق .

قلت : وقد ترجم البخارى رحمـه الله على هـذه المسألة « باب من أفطر فى السفر ليراه الناس » وساق الحديث عن ٱبن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان[(١)]؛ ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليُريه الناسَ فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان . وأخرجه مسلم أيضًا عن ٱبن عباس وقال فيـه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارًا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة . وهذا نصّ فى الباب فسقط ما خالفه، و بالله التوفيق. وفيه أيضا حجة على من يقول : إن الصوم لا ينعقد فى السفر . روى عن عمر وٱبن عباس

(١) عسفان (بضم العين وسكون السين المهملتين) : قرية بينها و بين مكة ثمانية وأربعون ميلا .

Marfat.com

وأبى هريرة وآبن عمر . قال آبن عمر : من صام فى السفر قضى فى الحضر . وعن عبد الرحمن ابن عوف : الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر . وقال به قوم من أهل الظاهر؛ وآحتجوا بقوله تعالى : «فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» على ما يأتى بيانه ، و بما روى كعب بن عاصم قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس مِن البِرّ الصيامُ فى السَّفر" . وفيه أيضا حجةٌ على من يقول : إن مَن بيّت الصوم فى السفر فله أن يُفطر و إن لم يكن له عذر؛ و إليه ذهب مُطَرِّف ، وهو أحد قولى الشافعى وعليه جماعة من أهل الحديث . وكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة لأنه كان مُخيَّراً فى الصوم والفطر ، فلما آختار الصوم و بيّته لزمه ولم يكن له الفطر ؛ فإن أفطر عامدًا من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفّارة عليه ؛ وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك فإنه قال : إن أفطر بجماع كفّر ؛ لأنه لايقوى بذلك على سفره ولا عذر له ؛ لأن المسافر إنما أبيح له الفطر ليقوَى بذلك على سفره . وقال سائر الفقهاء بالعراق والحجاز : إنه لا كفارة عليه ؛ منهم الثورى والأوزاعى والشافعى وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة ؛ قاله أبو عمر .

الرابعة ــ وآختلف العلماء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر ؛ فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قَوِىَ عليه . وجُلّ مذهب مالك التخيير وكذلك مذهب الشافعى . قال الشافعى ومن آتبعه : هو مخيّر ؛ ولم يفصّل ، وكذلك آبن عُلَيّة ؛ لحديث أنس قال : سافرنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ؛ خرّجه مالك والبخارىّ ومسلم . وروى عن عثمان بن أبى العاص الثقفىّ وأنس بن مالك صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : الصوم فى السفر أفضل لمن قدر عليه ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . وروى عن آبن عمر وآبن عباس : الرخصة أفضل ، وقال به سعيد بن المسيّب والشعبى وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعى وأحمد و إسحاق . كلُّ هؤلاء يقولون الفطر أفضل ؛ لقول الله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

Marfat.com

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى من يكن منكم مريضًا أو مسافرًا فأفطر فليقض . والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يومًا وفى البلد رجل مريض لم يصح فإنه يقضى تسعة وعشرين يومًا . وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حَىّ : إنه يقضى شهرا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام . قال الكِيَا الطَّبَرى : وهذا بعيد ؛ لقوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر » ولم يقل فشهر من أيام أخر . وقوله : « فَعِـدَّةٌ » يقتضى آستيفاء عدد ما أفطر فيـه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعده بعدده ؛ كذلك يجب أن يكون حكم إفطاره جميعه فى آعتبار عدده .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ آرتفع « عِدّة » على خبر الابتداء ، تقديره فالحكم أو فالواجب عدّة ، ويصحّ فعليه عدّة . وقال الكسائى : ويجوز فعدّةً ، أى فليصم عدّة من أيام . وقيل : المعنى فعليه صيام عدّة ، فحذف المضاف وأقيمت العدّة مقامه . والعدّة فِعلة من العدّ ، وهى بمعنى المعدود ؛ كالطِّحْن بمعنى المطحون ، تقول : أسمعُ جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنًا (١) . ومنه عدّة المرأة . ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ لم ينصرف « أُخَر » عند سيبويه ، لأنها معدولة عن الألف واللام ، لأن سبيل فُعَل من هذا الباب أن يأتى بالألف واللام ، نحو الكُبَر والفُضل . وقال الكسائى : هى معدولة عن آخر ، كما تقول : حمراء وحُمر ؛ فلذلك لم تنصرف . وقيل : منعت من الصرف لأنها على وزن جُمَع وهى صفة لأيام ، ولم تجئ أخرى لئلا يشكل بأنها صفة للعدّة . وقيل : إن « أخر » جمع أخرى كأنه أيام أخرى ثم كثرت فقيل : أيام أخر . وقيـل : إن نعت الأيام يكون مؤنثًا فلذلك نعتت بأُخَر .

السابعـــة — اختلف الناس فى وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدَّارَقُطْنِى فى « سننه » ؛ فروى عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : نزلت « فعدّة من أيام أُخر متتابعات » فسقطت (٢) « متتابعات » قال هـذا إسناد صحيح . وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله

(١) مثل يضرب للرجل الذى يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذى يَعِد ولا يفعل .

(٢) قال الزرقانى فى شرح الموطأ : معنى « سقطت » نسخت ؛ قال : وليس بين اللوحين « متتابعات » أى ليس فى المصحف كلمة « متتابعات » . وقال الدارقطنى : إن كلمة « سقطت » انفرد بها عروة .

Marfat.com

عليه وسلم : " من كان عليه صومٌ من رمضان فليسرده ولا يقطعه "(١) فى إسناده عبد الرحمن ابن إبراهيم ضعيف الحديث . وأسنده عن ابن عباس فى قضاء رمضان «صمه كيف شئت» . وقال ابن عمر : « صُمْه كما أفطرته » . وأسند عن أبى عبيدة بن الجراح وابن عباس وأبى هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص . وعن محمد بن المنكدر قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال : " ذلك إليك أرأيت لو كان على أحدكم دَين فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه فالله أحق أن يَعفُوَ و يغفر" . إسناده حسن إلا أنه مرسل ولا يثبت متّصلا . وفى مُوَطّأ مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : يصوم رمضان متتابعًا من أفطره متتابعًا من مرض أو فى سفر(٢) . قال الباجى فى « المنتقى » : « يحتمل أن يريد الإخبار عن الوجوب، و يحتمل أن يريد الإخبار عن الاستحباب؛ وعلى الاستحباب جمهور الفقهاء . و إن فرّقه أجزأه ؛ و بذلك قال مالك والشافعى . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » ولم يخصّ متفرقة من متتابعة ، و إذا أتى بها متفرّقة فقد صام عدّة من أيام أخر، فوجب أن يجزيه » . ابن العربى : إنما وجب التتابع فى الشهر لكونه معيّنا ، وقد عدم التعيين فى القضاء فجاز التفريق .

الثامنــــة — لمـا قال تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ دلّ ذلك على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان؛ لأن اللفظ مسترسل على الأزمان لا يختصّ ببعضها دون بعض . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : يكون علىّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيَه إلا فى شعبان، الشُّغْلُ(٣) من رسول الله، أو برسول الله صلى الله عليه وسلم . فى رواية : وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نصّ وزيادة بيان للآية . وذلك يردّ على داود قوله : إنه يجب عليه قضاؤه ثانى شوّال . ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده ؛ وبنى عليه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبة تباع بثمن فليس له أن يتعدّاها و يشترى غيرها؛ لأن الفرض عليه أن يعتق أوّل رقبة يجدها فلا يجزيه غيرها . ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشترى

(١) أى يتابعه . (٢) عبارة الموطأ : « يصوم قضاء رمضان متتابعا من أفطره من مرض أو سفر » .
(٣) قال النووى : هو مرفوع على أنه فاعل لفعل مقدر؛ أى يمنعنى الشغل .

Marfat.com

غيرها، ولو مات الذى عنده فلا يبطل العتق؛ كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره، وذلك يفسد قوله . وقال بعض الأصوليين: إذا مات بعد مضى اليوم الثانى من شوّال لا يعصى على شرط العزم . والصحيح أنه غير آثم ولا مفرّط ، وهو قول الجمهور، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنيّة فيبقى عليه الفرض .

التاســعة — من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليــه عدّتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخّر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه؛ لأنه ليس بمفرّط حين فعل ما يجوز له من التأخير. هذا قول البغداديين من المــالكيين، ويَرَوْنه قول ابن القاسم فى المدوّنة .

العاشــرة — فإن أخّر قضاءه عن شعبان الذى هو غاية الزمان الذى يقضى فيه رمضان فهل يلزمه لذلك كفارة أوْ لا؛ فقال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق : نعم . وقال أبو حنيفة والحسن والنّخَعِيّ وداود : لا .

قلت : وإلى هــذا ذهب البخارىّ لقوله ، ويذكر عن أبى هريرة مرسلًا وابن عباس أنه يُطعِم ، ولم يذكر الله الإطعام ، إنما قال : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» .

قلت : قد جاء عن أبى هريرة مُسْنَدًا فيمن فرّط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر قال : يصوم هذا مع الناس، ويصوم الذى فرّط فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا . خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال : إسناد صحيح . وروى عنه مرفوعًا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى رجل أفطر فى شهر رمضان من مرض ثم صحّ ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال: "يصوم الذى أدركه ثم يصوم الشهر الذى أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا" . فى إسناده ابن نافع وابن وجيه ضعيفان .

الحادية عشرة — فإن تمادَى به المرض فلم يَصِحّ حتى جاء رمضان آخر، فروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا من حنطة، ثم ليس عليــه قضاء . وروى أيضا عن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يَصِحّ بين الرمضانين صام عن هــذا وأطعم عن الثانى

Marfat.com

ولا قضاء عليه، وإذا صح فلم يصم حتى إذا أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى؛ فإذا أفطر قضاه؛ إسناد صحيح . قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها . ورُوى عن آبن عباس أن رجلا جاء إليـه فقال : مرضت رمضانين ؟ فقـال له آبن عباس : استمر بك مرضك، أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت، قال : صُم رمضانين وأطعم ستين مسكينا . وهذا بدل من قوله : إنه لو تمـادى به مرضه لا قضاء عليه . وهذا يشبه مذهبهم فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ؛ على ما يأتى[1] .

الثانية عشرة — وآختلف من أوجب عليـه الإطعام فى قدر ما يجب أن يطعم ؛ فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعى يقولون : يُطعِم عن كل يوم مُدًّا . وقال الثورى : يُطعِم نصف صاع عن كل يوم .

الثالثة عشرة — وآختلفوا فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه؛ فقال مالك : من أفطر يومًا من قضـاء رمضان ناسيًا لم يكن عليه شىء غير قضائه ، ويستحبّ له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه ، ولو أفطره عامدًا أثِم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ؛ لأنه لا معنى لكفّه عما يكفّ الصائم هاهنا إذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لإفطاره عامدًا . وأما الكفارة فلا خلاف عنـد مالك وأصحابه أنها لا تجب فى ذلك ، وهو قول جمهـور العلماء . قال مالك : ليس على من أفطـر يومًا من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة، وإنما عليه قضاء ذلك اليوم . وقال قتادة : على مَن جامع فى قضاء رمضان القضاء والكفارة . وروى آبن القاسم عن مالك أن من أفطر فى قضاء رمضان فعليه يومان؛ وكان آبن القاسم يُفتى به ثم رجع عنه ثم قال : إن أفطر عمداً فى قضاء القضاء كان عليه مكانه صيام يومين ؛ كمن أفسد حجّه بإصابة أهله ، وحجّ قابلًا فأفسد حجّه أيضا بإصابة أهله كان عليه حجتان . قال أبو عمر : قد خالفه فى الحج آبن وهب وعبد الملك، وليس يجب القياس على أصل مختلَف فيه . والصواب عندى — والله أعلم — أنه ليس عليه فى الوجهين إلا قضاء يوم واحد ؛ لأنه يوم واحد أفسده مرتين .

---

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : وهو مقتضى قوله تعـالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فمتى أتى بيـوم تام بدلاً عما أفطره فى قضاء رمضان فقد أتى بالواجب عليه، ولا يجب عليه غير ذلك، والله أعلم .

الرابعة عشرة — والجمهور على أن من أفطر فى رمضان لعلّة فمات من علّته تلك، أو سافر فمـات فى سفره ذلك أنه لا شيء عليـه . وقال طاوس وقتادة فى المريض يموت قبـل أن يصحّ : يُطعَم عنه .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا فيمن مات وعليه صومٌ من رمضان لم يقضه؛ فقال مالك والشافعيّ والثورى : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمـد و إسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر: يُصام عنه؛ إلا أنهم خصّصوه بالنذر؛ وروى مثله عن الشافعى . وقال أحمـد و إسحاق فى قضاء رمضان : يُطعَم عنه . ٱحتج من قال بالصوم بمـا رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من مات وعليه صيام صام عنه وَلِيّه ". إلا أن هذا عام فى الصوم، يخصّصه ما رواه مسلم أيضا عن ٱبن عباس قال : جاءت ٱمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله، إن أمى قد ماتت وعليها صوم نذر — وفى رواية صـوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : " أرأيتِ لو كان على أمك دَيْنٌ فقضيتيه أكان يؤدّى ذلك عنها " قالت : نعم؛ قال : " فصومى عن أمك " . ٱحتج مالك ومن وافقـه بقوله سبحانه : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[(١)] وقـوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »[(٢)] وقوله : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا »[(١)] و بمـا خرّجه النسائى عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " لا يصلّ أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يُطعم عنه مكان كل يوم مُدًّا من حنطة " .

قلت : وهـذا الحديث عام ، فيحتمل أن يكون المراد بقـوله : " لا يصوم أحد عن أحد " صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز؛ بدليل حديث ٱبن عباس وغيره ، فقد جاء فى صحيح مسلم أيضا من حديث بُريدة نحو حديث ٱبن عبـاس ، وفى بعض طرقه : صـوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال : " صومى عنها " قالت : إنهـا لم تحُجّ قط أفأحُجّ عنها ؟ قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦ ، ١٥٧ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٤

Marfat.com

" جُحِّى عنها " . فقولها : شهرين، يبعد أن يكون رمضان ، والله أعلم . وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة، و يعضُده القياس الجلىّ، وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة . ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلا .

السادسة عشرة — آستدلّ بهذه الآية من قال : إن الصوم لا ينعقد فى السفر وعليه القضاء أبدا ؛ فإن الله تعالى يقول : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » أى فعليه عدة، ولا حذف فى الكلام ولا إضمار . [وبقوله عليه الصلاة والسلام : " ليس من البرّ الصيام فى السفر " قال : ما لم يكن من البرّ فهو من الإثم ، فيدل ذلك على أن صوم رمضان لا يجوز فى السفر] (١) . والجمهور يقولون : فيه محذوف فأفطر ؛ كما تقدّم . وهو الصحيح، لحديث أنس قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعِب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ؛ رواه مالك عن حُميد الطويل عن أنس . وأخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لِستّ عشرة مضت من رمضان فِمنّا من صام ومنا من أفطر، فلم يَعِب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قرأ الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله يُطْوِقونه نُقلت الكسرة إلى الطاء وآنقلبت الواو ياء لآنكسار ما قبلها . وقرأ حُميد على الأصل من غير آعتلال، والقياس الآعتلال . ومشهور قراءة آبن عباس «يُطَوَّقونه» بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو بمعنى يكلّفونه . وقد روى مجاهد « يَطيّقونه » بالياء بعد الطاء على لفظ «يكيّلونه» وهى باطلة ومحال ؛ لأن الفعل مأخوذ من الطوق، فالواو لازمة واجبة فيه ولا مدخل للياء فى هذا المثال . قال أبو بكر الأنبارى : وأنشدنا أحمد بن يحيى النحوى لأبى ذؤيب :

فقيل تحمّلْ فوق طَوْقك إنها * مُطَبَّعَة (٢) مَن يأتها لا يَضِيرها

(١) ما بين المربعين فى ج ، وساقط من سائر نسخ الأصل . (٢) مطبعة : مملوءة .

Marfat.com

فأظهر الواو فى الطّوق، وصحّ بذلك أن واضع الياء مكانها يفارق الصواب. وروى آبن الأنبارى عن آبن عباس «يَطَّيَّقُونه» بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى يطيقونه؛ يقال: طاق وأطاق وأطيق بمعنًى. وعن آبن عباس أيضا وعائشة وطاوس وعمرو بن دينار «يَطَّوَّقونه» بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة، وهى صواب فى اللغة؛ لأن الأصل يتطوقونه فأسكنت التاء وأدغمت فى الطاء فصارت طاء مشدّدة، وليست من القرآن، خلافًا لمن أثبتها قرآنًا، وإنما هى قراءة على التفسير. وقرأ أهل المدينة والشام «فديةُ طعامِ» مضافا، «مساكينَ» جمعًا. وقرأ آبن عباس «طعام مسكين» بالإفراد فيما ذكر البخارى وأبو داود والنسائى عن عطاء عنه. وهى قراءة حسنة؛ لأنها بيّنت الحكم فى اليوم، وآختارها أبو عبيد، وهى قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى. قال أبو عبيـد: فبيّنت أن لكل يوم إطعام واحد؛ فالواحد مترجم عن الجميع، وليس الجميع بمترجم عن واحد. وجمع المساكين لا يدرى كم منهم فى اليوم إلا من غير الآية. وتخرج قراءة الجمع فى «مساكين» لما كان الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين بجمع لفظه؛ كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً[1]» أى آجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة؛ فليست الثمانون متفرقة فى جميعهم، بل لكل واحد ثمانون؛ قال معناه أبو علىّ. وآختار قراءة الجمع النحاس قال: وما اختاره أبو عبيد مردود؛ لأن هذا إنما يعرف بالدلالة؛ فقد علم أن معنى «وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ» أن لكل يوم مسكينا، فآختيار هذه القراءة لتردّ جمعًا على جمع. قال النحاس: وآختار أبو عبيد أن يقرأ «فديةٌ طعامُ» قال: لأن الطعام هو الفدية، ولا يجوز أن يكون الطعام نعتًا لأنه جوهر ولكنه يجوز على البدل، وأَبْيَن منه أن يقرأ «فديةُ طعامٍ» بالإضافة؛ لأن «فِدية» مبهمة تقع للطعام وغيره، فصار مثل قولك: هذا ثوبُ خزٍّ.

الثانيـــة — وآختلف العلماء فى المراد بالآية؛ فقيل: هى منسوخة. روى البخارى: «وقال آبن نُمير حدّثنا [الأعمش حدّثنا] عمرو بن مُرّة حدّثنا آبن أبى ليلى حدّثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن

(١) راجع ج ١٢ ص ١٧١

Marfat.com

يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها « وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ » . وعلى هـذا قراءة الجمهور « يطيقونه » أى يقدرون عليه ؛ لأن فرض الصيام هكذا : من أراد صام ومن أراد أطعم مسكيناً . وقال ٱبن عباس : نزلت هذه الآية رُخصة للشيوخ والعجزة خاصّةً إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم ، ثم نُسخت بقوله « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » فزالت الرُّخصة إلا لمن عجز منهم . قال الفَرّاء : الضمير فى « يطيقونه » يجوز أن يعود على الصيام ؛ أى وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا ، ثم نسخ بقوله : « وَأَنْ تَصُومُوا » . ويجوز أن يعود على الفداء ؛ أى وعلى الذين يطيقون الفداء فِدْية . وأما قراءة « يُطَوَّقونه » على معنى يكلّفونه مع المشقة اللاحقة لهم ؛ كالمريض والحامل فإنهما يقدران عليه لكن بمشقة تلحقهم فى أنفسهم ، فإن صاموا أجزأهم وإن ٱفتدوا فلهم ذلك . ففسّر ٱبن عباس — إن كان الإسناد عنه صحيحًا — « يطيقونه » بيُطَوّقونه ويتكلفونه فأدخله بعض النقـلة فى القـرآن . روى أبو داود عن ٱبن عبـاس « وعلى الذين يطيقونه » قال : أُثبتت للحبلى والمرضع . وروى عنه أيضا « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » قال . كانت رُخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم أن يُفطرا ويُطعما مكان كل يوم مسكينًا ، والحُبْلَى والمرضع إذا خافَتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا . وخرّج الدارَقُطْنِيّ عنه أيضا قال : رُخّص للشيخ الكبير أن يُفطر ويُطعم عن كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليه ؛ هذا إسناد صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال : « وعلى الذين يُطيقونه فِدْية طعام » ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما ، فيطعما مكان كل يوم مسكينًا ؛ وهـذا صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال لأمّ ولد له حُبْلَى أو مُرْضِع : أنت من الذين لا يطيقون الصـيام ، عليك الجزاء ولا عليك القضاء ؛ وهـذا إسناد صحيح . وفى رواية : كانت له أمّ ولد ترضع — من غير شك — فأُجهدت فأمرها أن تُفطر ولا تقضى ؛ هذا صحيح .

قلت : فقـد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ٱبن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها مُحْكَمة فى حق من ذُكر . والقول الاول صحيح أيضا ، إلا أنه يحتمـل أن يكون النسخ هناك

Marfat.com

بمعنى التخصيص، فكثيرا ما يُطلق المتقدمون النسخ بمعناه، والله أعلم . وقال الحسن البصري وعطاء بن أبي رَباح والضحاك والنَّخَعِي والزُّهْرِي وربيعة والأوزاعي وأصحاب الرأي: الحامل والمرضع يُفطران ولا إطعام عليهما ؛ بمنزلة المريض يُفطر ويَقضي ؛ وبه قال ابو عبيد وأبو ثور . وحكى ذلك أبو عبيد عن أبي ثور، وآختاره آبن المنذر؛ وهو قول مالك في الحبلى إن أفطرت، فأمّا المرضع إن أفطرت فعليها القضاء والإطعام . وقال الشافعي وأحمد: يُفطران ويُطعمان ويَقضيان، وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا . وآختلفوا فيما عليهم ؛ فقال ربيعة ومالك : لا شيء عليهم، غير أن مالكا قال: لو أطعموا عن كل يوم مسكينًا كان أحبّ إليّ . وقال أنس وآبن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة : عليهم الفِدْية . وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق؛ آتباعًا لقول الصحابة رضي الله عن جميعهم ،وقوله تعالى: « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ثم قال : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين،فوجبت عليهم الفدية . والدليل لقول مالك: أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه إطعام كالمسافر والمريض . ورُوي هذا عن الثوري ومكحول ، وآختاره آبن المنذر .

الثالثـــة — وآختلَف مَن أوجب الفدية على مَن ذُكر في مقدارها؛ فقال مالك : مُدٌّ بمُد النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كل يوم أفطره؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : كفّارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بُرّ . وروي عن آبن عباس نصف صاع من حنطة ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِيّ . ورُوي عن أبي هريرة قال : من أدركه الكِبَر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مُدٌّ من قمح . وروي عن أنس بن مالك أنه ضَعُف عن الصوم عاماً فصنع جَفْنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكيناً فأشبعهم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ قال آبن شهاب: من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد : من زاد في الإطعام على المُدّ . آبن عباس : « فمن تطوع

Marfat.com

خيرا » قال : مسكيناً آخر فهو خير له . ذكره الدَّارَقُطْنِيّ وقال : إسناد صحيح ثابت . و «خَيْرٌ» الثانى صفة تفضيل، وكذلك الثالث و « خير » الأوّل . وقرأ عيسى بن عمرو ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « يَطَّوَّعْ خيرا » مشدّدًا وجزم العين على معنى يتطوع . الباقون « تَطَوَّعَ » بالتاء وتخفيف الطاء وفتح العين على المـاضى .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى والصيام خير لكم . وكذا قرأ أُبَيّ؛ أى من الإفطار مع الفدية وكان هـذا قبل النسخ . وقيـل : « وأن تصوموا » فى الســفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم . وعلى الجملة فإنه يقتضى الحضّ على الصوم ؛ أى فاعلموا ذلك وصوموا .

قوله تعـالى : شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيـهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُـدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ قال أهل التاريخ : أوّل من صام رمضان نوح عليه السلام لمـا خرج من السفينة . وقد تقدّم قول مجاهد : كتب الله رمضان على كل أمة[1]، ومعلوم أنه كان قبل نوح أمم ؛ والله أعلم . والشهر مشـتق من الإشهار لأنه مشتهر لا يتعذر علمه على أحد يريده ؛ ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته . ورمضانُ مأخوذ من رَمِضَ الصائمُ يَرْمَضُ إذا حَرّ جوفُه من شدّة العطش . والرَّمضاء (ممدودة) : شدّة الحرّ؛ ومنه الحديث : "صلاة الأوّابين إذا رَمِضت الفِصَال"[2]. خرّجه مسلم . ورَمَضُ الفِصالِ أن تحرق الرَّمْضاءُ أخفافَها فتبرُك من شدّة حرّها . فرمضانُ — فيما ذكروا — وافق شدّة الحرّ؛ فهو مأخوذ من الرَّمْضاء . قال

(١) راجع ص ٢٧٤ من هذا الجزء . (٢) هى الصلاة التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الضحى .

Marfat.com

الجوهري : وشهر رمضان يُجمع على رَمَضانات وأرمضاء؛ يقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رَمَض الحرّ فسُمِّي بذلك . وقيل : إنما سُمِّي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الإرماض وهو الإحراق؛ ومنه رَمِضت قَدَمُه من الرَّمْضاء أي آحترقت . وأرْمَضَتْني الرمضاء أي أحرقتني؛ ومنه قيل : أرْمَضَني الأمر . وقيل: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة كما يأخذ الرمل والحجارة من حرّ الشمس . والرمضاء : الحجارة المُحْمَاة . وقيل : هو من رَمَضْتُ النصل أَرْمِضُه وأَرْمُضُه رَمْضًا إذا دَقَقْته بين حجرين لِيَرِق . ومنه نَصْل رميض ومرموض — عن آبن السِّكِّيت — ؛ وسُمِّي الشهر به لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم في رمضان ليحاربوا بها في شوّال قبل دخول الأشهر الحُرُم. وحكى الماوردي أن آسمه في الجاهلية « ناتق » وأنشد للمفضّل :

وفي ناتقٍ أجْلَتْ لدى حَوْمَة الوَغَى * وولَّتْ على الأدبار فُرسانُ خَثْعَمَا

و « شَهْرُ » بالرفع قراءة الجماعة على الآبتداء، والخبرُ « الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ » . أو يرتفع على إضمار مبتدأ، المعنى : المفروض عليكم صومه شهر رمضان، أو فيما كتب عليكم شهر رمضان. ويجوز أن يكون « شهر » مبتدأ، و « الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ » صفة، والخبر « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ » . وأعيد ذكر الشهر تعظيمًا ، كقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ » . وجاز أن يدخله معنى الجزاء، لأن شهر رمضان وإن كان معرفة فليس معرفة بعينها لأنه شائع في جميع القابل؛ قاله أبو علي . وروى عن مجاهد وشَهْر بن حَوْشَب نصب «شهر» ، ورواها هارون الأعور عن أبي عمرو ، ومعناه : الزموا شهر رمضان أو صوموا . و «الذي أنزل فيه القرآن» نعت له ، ولا يجوز أن ينتصب بتصوموا؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول بخبر أن وهو « خير لكم » . الرماني : يجوز نصبه على البدل من قوله « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » .

الثانيــة — وآختلف هل يقال « رمضان » دون أن يضاف إلى شهر؛ فكره ذلك مجاهد وقال : يقال كما قال الله تعالى . وفي الخبر : " لا تقولوا رمضان بل آنسبوه كما نسبه الله في القرآن

Marfat.com

فقال شَهْرُ رَمَضَانَ " . وكان يقول : بلغنى أنه آسم من أسماء الله . وكان يكره أن يجمع لفظه لهذا المعنى . ويحتجّ بما روى : رمضان آسم من أسماء الله تعالى، وهذا ليس بصحيح فإنه من حديث أبى معشر نجيح وهو ضعيف . والصحيح جواز إطلاق رمضـان من غير إضافة كما ثبت فى الصحاح وغيرها . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جاء رمضان فُتّحت أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب النار وصُفّدت الشياطين ". وفى صحيح البُسْتِىّ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان رمضان فُتحت له أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب جهنم وسُلْسِلت الشياطين " . وروى عن آبن شهاب عن أنس بن أبى أنس ان أباه حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول ...، فذكره . قال البُسْتِىّ: أنس بن أبى أنس هذا هو والد مالك بن أنس، وآسم أبى أنس مالك بن أبى عامر من ثقات أهل المدينة، وهو مالك آبن أبى عامر بن عمرو بن الحـارث بن عثمان[1] بن جثيل بن عمرو من ذى أصبح من أقيال اليمن . وروى النسائى عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أتاكم رمضان شهرٌ مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه تُفتح فيه أبواب السماء وتُغلق فيه أبواب الجحيم وتُغَلّ فيه مَرَدة الشياطين لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر مَن حُرِم خيرها فقد حُرِم " . وأخرجه أبو حاتم البُسْتِىّ أيضا وقال : فقوله " مَرَدة الشياطين " تقييد لقوله : " صُفّدت الشياطين وسُلْسِلت " . وروى النسائى أيضًا عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : " إذا كان رمضان فآعتمرى فإن عُمْرة فيه تَعدل حجة " . وروى النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عَوف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله تعالى فرض صيام رمضان [عليكم] وسَنَنْتُ لكم قيامه فمن صامه وقامه إيمانًا وآحتسابًا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه " . والآثار فى هذا كثيرة، كلها بإسقاط شهر . وربمـا أسقطت العرب ذكر الشهر من رمضان .

---

(١) الذى فى ابن خلكان : « غيان — بغين معجمة وياء تحتها نقطتان — ويقال عثمان — بعين مهملة وثاء مثلثة — ، ابن جثيل — بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان . وقال آبن سعد : هو خثيل بخاء معجمة » . وقد ورد هذا النسب فى الأصول محرفا .

Marfat.com

قال الشاعر :

جاريةٌ فى دِرعها الفَضْفاضِ * أبيضُ مِن أختِ بنى إباضِ
جاريةٌ فى رمضانَ الماضِى * تُقَطِّعِ الحديثَ بالإيماضِ

وفضلُ رمضان عظيم ، وثوابُه جسيم ؛ يدلّ على ذلك معنى الاشتقاق من كونه محرقاً للذنوب ، وما كتبناه من الأحاديث .

الثالثــة — فرض الله صيام شهر رمضان أى مدّة هلاله ، وبه سُمِّىَ الشهر ؛ كما جاء فى الحديث : " فإن غُمِّىَ عليكم الشهر " أى الهلال ، وسيأتى ؛ وقال الشاعر :

أخَوانِ مِن نَجْدٍ على ثِقَة * والشَّهرُ مثلُ قُلامة الظُّفر
حتى تكامل فى آستدارته * فى أربع زادت على عشر

وفُرض علينا عند غُمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً ، وإكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً ، حتى ندخل فى العبادة بيقين ونخرج عنها بيقين ؛ فقال فى كتابه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (١) » . وروى الأئمة الأثبات عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فأكملوا العــدد " فى رواية " فإن غُمِّىَ عليكم الشهر فعُدُّوا ثلاثين " . وقد ذهب مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وهو من كبار التابعين وآبن قتيبة من اللغويين فقالا : يُعَوَّل على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل وآعتبار حسابها فى صوم رمضان ، حتى إنه لو كان صحوا لرؤى ؛ لقوله عليه السلام : "فإن أُغمى عليكم فآقدروا له" أى آستدِلّوا عليه بمنازله ، وقدّروا إتمــام الشهر بحسابه . وقال الجمهور : معنى " فآقــدروا له " فأكملوا المقدار ؛ يفسّره حديث أبى هريرة " فأكملوا العدة " . وذكر الداوُدِى أنه قيل فى معنى قوله " فآقدروا له " : أى قدّروا المنازل . وهذا لا نعلم أحدا قال به إلا بعض أصحاب الشافعى أنه يُعتبر فى ذلك بقول المنجّمين ، والإجماعُ حجة عليهم . وقد روى آبن نافع عن مالك فى الإمام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يُفطر لرؤيته ، وإنما يصوم ويُفطر على الحساب : إنه لا يُقتدى به

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ .

Marfat.com

ولا يُتّبَع . قال آبن العربى: وقــد زَلّ بعض أصحابنا فحكى عن الشافعى أنه قال : يعوّل على الحساب ، وهى عَثرة « لا لَعًا لها »(1) .

الرابعـــة — وآختلف مالك والشافعى هل يثبت هلال رمضان بشهادة واحد أو شاهدين؛ فقال مالك : لا يُقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلالٍ فلا يُقبل فيها أقل من آثنين؛ أصله الشهادة على هلال شوّال وذى الحجة. وقال الشافعى وأبو حنيفة : يُقبل الواحد ؛ لمـا رواه أبو داود عن آبن عمر قال: تراءى الناس الهلال فأخبرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى رأيته ، فصام وأمر الناس بصيامه . وأخرجه الدّارَقُطْنى وقال: تفرّد به مروان بن محمد عن آبن وهب وهو ثقة . روى الدّارقطنى « أن رجلًا شهد عند علىّ بن أبى طالب على رؤية هلال رمضان فصام ؛ أحسبه قال: وأمر الناس أن يصوموا، وقال: أصوم يومًا من شعبان أحبّ إلى من أن أفطر يومًا من رمضان. قال الشافعى : فإن لم تر العامّة هلال شهر رمضان ورآه رجل عَدْل رأيت أن أقبله للأثر والاحتياط . وقال الشافعى بعدُ : لا يجوز على رمضان إلا شاهدان . قال الشافعى وقال بعض أصحابنا : لا أقبل عليــه إلا شاهدين ، وهو القياس على كل مغيّب » .

الخامســـة — وآختلفوا فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوال؛ فروى الربيع عن الشافعى : من رأى هلال رمضان وحده فليصمه، ومن رأى هلال شوال وحده فليفطر، وليُخْفِ ذلك . وروى آبن وهب عن مالك فى الذى يرى هلال رمضان وحده أنه يصوم ؛ لأنه لا ينبغى له أن يفطر وهو يعلم أن ذلك اليوم من شهر رمضان . ومن رأى هلال شوّال وحده فلا يفطر؛ لأن الناس يتّهمون على أن يفطر منهم من ليس مأمونًا، ثم يقول أولئك إذا ظهر عليهم : قد رأينا الهلال. قال آبن المنذر : وبهذا قال الليث بن سعد وأحمد بن حنبل. وقال عطاء و إسحاق : لا يصوم ولا يفطر . قال آبن المنذر : يصوم و يفطر .

---

(1) كذا فى أ ، ب ، جـ ، ز ، و « لعا » بالتنوين : كلمة يدعى بها للعاثر، معناها الارتفاع والإقالة من العثرة ، فإذا أريد الدعاء عليه قيل : لا لعا . وفى ح : « لا يقال بها » . وفى أحكام القرآن لابن العربى : « لا يقالها » .

Marfat.com

السادســة — واختلفوا إذا أخبر مخبر عن رؤية بلد، فلا يخلو أن يقرُب أو يبعد، فإن قرب فالحكم واحد، وإن بَعُدَ فلأهل كل بلد رؤيتهم؛ روى هذا عن عكرمة والقاسم وسالم، وروى عن ابن عباس، وبه قال إسحاق، وإليه أشار البخاريّ حيث بوب: «لأهل كل بلد رؤيتهم». وقال آخرون. إذا ثبت عند الناس أن أهل بلد قد رأَوْه فعليهم قضاء ما أفطروا؛ هكذا قال الليث بن سعد والشافعيّ. قال ابن المنذر: ولا أعلمه إلا قول المُزَنيّ والكوفى.

قلت: ذكر الكِيَا الطبرى فى كتاب «أحكام القرآن» له: وأجمع أصحاب أبى حنيفة على أنه إذا صام أهل بلد ثلاثين يومًا للرؤية، وأهل بلد تسعةً وعشرين يومًا أن على الذين صاموا تسعة وعشرين يوما قضاء يوم. وأصحاب الشافعى لا يرون ذلك؛ إذ كانت المطالع فى البلدان يجوز أن تختلف. وحجة أصحاب أبى حنيفة قوله تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» وثبت برؤية أهل بلد أن العدّة ثلاثون فوجب على هؤلاء إكمالها. ومخالفهم يحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" الحديث، وذلك يوجب اعتبار عادة كل قوم فى بلدهم. وحكى أبو عمر الإجماع على أنه لا تراعى الرؤية فيما بَعُد من البلدان كالأندلس من خراسان، قال: ولكل بلد رؤيتهم، إلا ما كان كالمصر الكبير وما تقاربت أقطاره من بلدان المسلمين. روى مسلم عن كُرَيب أن أمّ الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام قال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستُهِل علىّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر فسألنى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلةَ الجمعة. فقال: أنت رأيتَـه؟ فقلت نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية. فقال: لكنّا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نُكمل ثلاثين أو نراه. فقلت: أولا تكتفى برؤية معاوية وصيامه؟ فقال لا، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال علماؤنا: قول ابن عباس «هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم» كلمة تصريح برفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبأمره. فهو حجة على أن البلاد إذا تباعدت كتباعد الشام من الحجاز فالواجب على أهل كل بلد أن تعمل على رؤيته دون رؤية غيره، وإن ثبت ذلك

Marfat.com

عند الإمام الأعظم، ما لم يحمل الناس على ذلك؛ فإن حمل فلا تجوز مخالفته . وقال الكيا الطبرى : قوله « هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون تأول فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" . وقال آبن العربى : «واختلف فى تأويل [قول] آبن عباس [هذا](١)؛ فقيل : ردّه لأنه خبر واحد، وقيل : ردّه لأن الأقطار مختلفة فى المطالع، وهو الصحيح، لأن كُرَيْبًا لم يشهد وإنما أخبر عن حكم ثبت بالشهادة، ولا خلاف فى الحكم الثابت أنه يجزى فيه خبر الواحد. ونظيره ما لو ثبت أنه أهلّ ليلة الجمعة بأغمات(٢) وأهلّ بأشبيلية(٣) ليلة السبت فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم؛ لأن سهيلا(٤) يكشف من أغمات ولا يكشف من أشبيلية؛ وهذا يدل على آختلاف المطالع» .

قلت : وأما مذهب مالك رحمه الله فى هذه المسألة فروى آبن وهب وآبن القاسم عنه فى المجموعة أن أهل البصرة إذا رأوا هلال رمضان ثم بلغ ذلك إلى أهل الكوفة والمدينة واليمن أنه يلزمهم الصيام أو القضاء إن فات الأداء . وروى القاضى أبو إسحاق عن آبن الماجشون أنه إن كان ثبت بالبصرة بأمر شائع ذائع يستغنى عن الشهادة والتعديل له فإنه يلزم غيرهم من أهل البلاد القضاء، وإن كان إنما ثبت عند حاكمهم بشهادة شاهدين لم يلزم ذلك من البلاد إلا من كان يلزمه حكم ذلك الحاكم ممن هو فى ولايته، أو يكون ثبت ذلك عند أمير المؤمنين فيلزم القضاء جماعة المسلمين . قال : وهذا قول مالك .

السابعـــة — قرأ جمهور الناس « شَهْرُ » بالرفع على أنه خبر آبتداء مضمر؛ أى ذلكم شهر، أو المفترض عليكم صيامه شهر رمضان، أو الصوم أو الأيام . وقيل : آرتفع على أنه مفعول لم يسمّ فاعله بـ «كُتِب» أى كُتب عليكم شهر رمضان. و «رمضان» لا ينصرف لأن النون فيه زائدة . ويجوز أن يكون مرفوعًا على الآبتداء، وخبره «الذى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» . وقيل : خبره «فَمَنْ شَهِدَ»، و «الذى أُنزل» نعت له . وقيل : ارتفع على البدل من الصيام. فمن قال : إن الصيام فى قوله « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » هى ثلاثة أيام وعاشوراء قال هنا

(١) الزيادة عن « أحكام القرآن » لابن العربى . (٢) أغمات : ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش . (٣) أشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس . (٤) سهيل : كوكب .

Marfat.com

بالآبتداء . ومن قال : إن الصيام هنالك رمضان قال هنا بالآبتـداء أو بالبدل من الصيام ؛ أى كُتِب عليكم شهر رمضان . وقرأ مجاهد وشَهْرُبن حَوْشَب « شَهْـرَ » بالنصب . قال الكسائى : المعنى كُتب عليكم الصيام، وأن تصوموا شهر رمضان . وقال الفرّاء : أى كُتب عليكم الصيام أى أن تصوموا شهر رمضان . قال النحاس : « لا يجوز أن ينتصب « شهر رمضان » بتصوموا؛ لأنه يدخل فى الصلة ثم يفرّق بين الصلة والموصول ، وكذلك إن نصبته بالصيام؛ ولكن يجوز أن تنصبه على الإغراء؛ أى آلزموا شهر رمضان، وصوموا شهر رمضان، وهذا بعيد أيضا لأنه لم يتقدّم ذكر الشهر فيغرَى به » .

قلت : قوله « كُتِب عليكم الصِّـيامُ » يدل على الشهر بخـار الإغـراء ؛ وهـو آختيار أبى عبيـد . وقال الأخفش : آنتصب على الظرف . وحكى عن الحسن وأبى عمرو إدغام الراء فى الراء؛ وهذا لا يجوز لئلا يجتمع ساكنان؛ و يجوز أن تُقلب حركة الراء على الهاء فتضم الهـاء ثم تُدغم، وهو قول الكوفيين .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ فِيـهِ ٱلْقُرْآنُ﴾ نصّ فى أن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وهو يبيّن قوله عز جل : « حمٓ . وَٱلْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » (١) يعنى ليلة القدر ، ولقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ » (٢) . وفى هـذا دليل على أن ليلة القدر إنمـا تكون فى رمضان لا فى غيره . ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر — على ما بيناه (٣) — جملةً واحدة، فوُضع فى بيت العزّة فى سماء الدنيا، ثم كان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل به نجمًا نجمًا فى الأوامر والنواهى والأسباب، وذلك فى عشرين سنة . وقال آبن عباس : أُنزل القرآن من اللّوح المحفوظ جملةً واحدة إلى الكَتَبة فى سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل عليـه السلام نجومًا — يعنى الآية والآيتين — فى أوقات مختلفة فى إحدى وعشرين سنة . وقال مقاتل فى قوله تعـالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ فِيـهِ القُرْآنُ » قال أنزل من اللّوح المحفوظ كلّ عام فى ليـلة القدر إلى سمـاء الدنيا ، ثم نزل إلى السَّفَرة (٤) من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرًا، ونزل به جبريل فى عشرين سنة .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٢٥ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٢٩
(٣) يراجع ج ١ ص ٦٠ (٤) السفرة : الملائكة .

Marfat.com

قلت : وقول مُقاتل هـذا خلاف ما نُقل من الإجماع « أن القرآن أنزل جملةً واحدةً » والله أعلم . وروى وَاثِلة بن الأَسْقع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان والتوراةُ لِستّ مضيْن منـه والإنجيلُ لثلاث عشرة والقرآنُ لأربع وعشرين" .

قلت : وفى هـذا الحديث دلالة على ما يقـوله الحسن أن ليلة القدر تكون ليـلة أربع وعشرين . وسيأتى إن شاء الله تعالى بيانُ هذا (١) .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ الْقُرْآنُ ﴾ « القرآن » : اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء ، كالمشروب يُسمّى شرابا ، والمكتوب يُسمّى كتابا ؛ وعلى هذا قيل : هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا بمعنًى . قال الشاعر :

ضحّـوا بأشمطَ عُنوانُ السّجود بِهِ * يُقَطِّـع اللّيــلَ تسبيحًا وقـرآنا

أى قراءة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أن فى البحر شياطين مسجونة أَوْثقها سليمان عليه الســلام يوشك أن تخرج فتقرأ على النـاس قرآنا ، أى قراءة . وفى التنزيل : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٢) » أى قراءة الفجـر . ويُسمّى المقروء قرآنًا على عادة العرب فى تسميتها المفعول بآسم المصدر ؛ كتسميتهم للعلوم علماً وللمضروب ضرباً وللمشروب شربًا ، كما ذكرنا ؛ ثم آشتهر الآستعمال فى هــذا وآقترن به العُرف الشرعى ، فصار القرآن آسمًا لكلام الله ، حتى إذا قيل : القرآن غير مخلوق ، يراد به المقروء لا القراءة لذلك . وقد يُسمّى المصحف الذى يُكتب فيه كلام الله قرآناً توسُّعًا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدوّ" أراد به المصحف . وهو مشتق من قرأت الشيء جمعته . وقيل : هو آسمُ عَلَم لكتاب الله ، غير مشتقّ كالتوراة والإنجيل ؛ وهذا يُحكى عن الشافعيّ . والصحيح الآشتقاق فى الجميع ، وسيأتى .

العـاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ « هُدًى » فى موضع نصب على الحال من القرآن ، أى هاديًا لهم . ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ عطف عليه . و﴿ الْهُدَى ﴾ الإرشاد والبيان ، كما تقدّم (٣) ؛

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٥ (٣) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

أى بيانًا لهم وإرشادًا. والمراد القرآن بجملته من مُحْكَم ومُتشابه وناسخ ومنسوخ؛ ثم شرف بالذكر والتخصيص البينات منه، يعنى الحلال والحرام والمواعظ والأحكام . «وبَيِّنَاتٍ» جمع بيّنة، من بان الشئ يبين إذا وضح. ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ مافرق بين الحق والباطل، أى فصل؛ وقد تقدّم.(١)

الحـادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قراءة العامة بجزم اللام . وقرأ الحسن والأعرج بكسر اللام، وهى لام الأمر وحقُّها الكسر إذا أُفرِدت ؛ فإذا وُصلت بشىء ففيها وجهان : الجزم والكسر . و إنمـا تُوصل بثلاثة أحرف : بالفاء كقوله «فَلْيَصُمْهُ» «فَلْيَعْبُدُوا» . والواو كقوله: « وَلْيُوفُوا » . وثُمّ كقوله : « ثُمَّ لْيَقْضُوا » . و«شَهِد» بمعنى حَضَر، وفيه إضمار؛ أى من شهد منكم المصر فى الشهر عاقلاً بالغًا صحيحًا مقيمًا فليصمه، وهو يقال عامّ فيخصّص بقوله : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ » الآية . وليس الشهر بمفعول و إنمـا هو ظرف زمان . وقد آختلف العلماء فى تأويل هذا ؛ فقال علىّ آبن أبى طالب وابن عباس وسُوَيد بن غَفَلَة وعائشة — أربعـة من الصحابة — وأبو مِجْلَز لاحق بن حُميد وعَبيدة السَّلْمـانِىّ : من شهد أى من حضر دخول الشهر وكان مقيما فى أوله فى بلده وأهله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام ، و إنمـا يُفطر فى السفر من دخل عليه رمضان وهو فى سفر . والمعنى عندهم : من أدركه رمضان مسافرًا أفطر وعليه عدّة من أيام أخر، ومن أدركه حاضرًا فليصمه . وقال جمهور الأمة : من شهد أوّل الشهر وآخره فليصم مادام مقيمًا ؛ فإن سافر أفطر ؛ وهـذا هو الصحيح وعليه تدل الأخبار الثـابتة . وقد ترجم البخارى رحمـه الله ردًّا على القول الأوّل « باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر » حدّثنا عبدالله بن يوسف قال أنبأنا مالك عن آبن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ الكَدِيد(٢) أفطر فأفطر الناس . قال أبوعبد الله : والكَدِيد ما بين عُسفان(٣) وقُدَيد .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية .	(٢) الكديد (بفتح الكاف وكسر الدال) : موضع بينه و بين المدينة سبع مراحل أو نحوها ، و بينه و بين مكة نحو مرحلتين .	(٣) عسفان : قرية بها مزارع ونخيل على مرحلتين من مكة . وقديد (بضم القاف) : اسم موضع قرب مكة .

Marfat.com

قلت : قد يحتمل أن يحمل قول علىّ رضى الله عنه ومن وافقه على السفر المندوب كزيارة الإخوان من الفضلاء والصالحين ، أو المباح فى طلب الرزق الزائد على الكفاية . وأما السفر الواجب فى طلب القوت الضرورى ، أو فتح بلد إذا تحقق ذلك ، أو دفع عدو ، فالمرء فيه مخيّر ولا يجب عليه الإمساك ؛ بل الفطر فيـه أفضل للتقوى ، وإن كان شهد الشهر فى بلده وصام بعضه فيه ؛ لحديث ٱبن عباس وغيره ، ولا يكون فى هذا خلاف إن شاء الله ، والله أعلم. وقال أبو حنيفة وأصحابه : من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولامغمى عليه فليصمه ، ومن دخل عليـه رمضان وهو مجنون وتمـادى به طول الشهر فلا قضاء عليه ؛ لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام . ومن جُنّ أوّل الشهر وآخره فإنه يقضى أيام جنونه . ونَصْب الشهر على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بـ « شهد » .

الثـانية عشرة ــ قـد تقرر أن فرض الصوم مستحق بالإسلام والبلوغ والعلم بالشهر؛ فإذا أسلم الكافر أو بلغ الصـبى قبل الفجر لزمهما الصوم صبيحة اليوم، وإن كان بعد الفجر ٱستحب لهما الإمساك ، وليس عليهما قضاء المـاضى من الشهر ولا اليوم الذى بلغ فيه أو أسلم . وقد ٱختلف العلماء فى الكافر يُسلم فى آخر يوم من رمضان، هل يجب عليه قضاء رمضان كله أولا ؟ وهل يجب عليـه قضاء اليوم الذى أســلم فيه ؟ فقال الإمام مالك والجمهور : ليس عليه قضاء مامضى ؛ لأنه إنمـا شهد الشهر من حين إسلامه . قال مالك : وأحبّ إلىّ أن يقضى اليوم الذى أسـلم فيه . وقال عطاء والحسن : يصوم مابقى ويقضى مامضى . وقال عبد الملك بن المـاجشون : يكفّ عن الأكل فى ذلك اليوم و يقضيه . وقال أحمد و إسحاق مثله . وقال ٱبن المنذر : ليس عليـه أن يقضى ما مضى من الشهر ولا ذلك اليـوم . وقال الباجى : من قال من أصحابنا أن الكفار مخاطبون بشرائع الإسلام ــ وهو مقتضى قول مالك وأكثر أصحابه ــ أوجب عليه الإمساك فى بقية يومه . ورواه فى المدوّنة ٱبن نافع عن مالك ، وقاله الشيخ أبو القاسم . ومن قال من أصحابنا ليسوا مخاطبين قال : لا يلزمه الإمساك فى بقية يومه ؛ وهو مقتضى قول أشهب وعبد الملك بن المـاجشون ، وقاله ٱبن القاسم .

Marfat.com

قلت : وهو الصحيح لقوله تعالى : «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا» فخاطب المؤمنين دون غيرهم؛ وهذا واضح، فلا يجب عليه الإمساك في بقية اليوم ولا قضاء ما مضى . وتقدّم الكلام في معنى قوله : « وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »(١) والحمد لله .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ قراءة جماعة « اليُسُر » بضم السين لغتان، وكذلك « العُسُر » . قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر في السفر، و « العسر » الصوم في السـفر . والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين ؛ كما قال تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٢)، وروى عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم " دين الله يُسر "، وقال صلى الله عليـه وسلم : " يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا " . واليسر من السهولة، ومنـه اليسار للغنى . وسُمِّيت اليد اليسرى تفاؤلًا، أو لأنه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى ؛ قولان . وقوله : ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ هو بمعنى قوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ فكرر تأكيدا .

الرابعة عشرة ــ دلّت الآية على أن الله سبحانه مريد بإرادة قديمة أزلية زائدة على الذات . هذا مذهب أهل السنة؛ كما أنه عالم بعلم، قادرٌ بقدرة، حيٌّ بحياة، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، متكلمٌ بكلام . وهذه كلها معانٍ وجودية أزلية زائدة على الذات . وذهب الفلاسفة والشِّيعة إلى نَفْيها ؛ تعالى الله عن قول الزائغين و إبطال المبطلين . والذى يقطع دابر أهل التعطيل أن يقال : لو لم يَصْدُق كونه ذا إرادة لصدق أنه ليس بذى إرادة، ولو صح ذلك لكان كل ما ليس بذى إرادة ناقصًا بالنسبة إلى من له إرادة؛ فإنّ من كانت له الصفات الإرادية فله أن يخصص الشيء وله ألا يخصّصـه ؛ فالعقل السليم يقضى بأن ذلك كمال له وليس بنقصان ، حتى أنه لو قُدِّر بالوهم سلب ذلك الأمر عنـه لقد كان حاله أوّلا أكمل بالنسبة إلى حاله ثانيـا، فلم يبق إلا أن يكون مالم يتّصف أنقص مما هو متّصف به ، ولا يخفى ما فيه من المحـال؛ فإنه كيف يتصوّر أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والخالق أنقص منـه ، والبديهة تقضى بردّه و إبطاله . وقد وصف نفسه جلّ جلاله وتقدست أسمـاؤه بأنه مريد فقال تعـالى :

(١) تراجع المسألة الأولى ومابعدها ص ٢٧٦ من هذا الجزء .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٠ .

Marfat.com

« فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ »[1] وقال سبحانه : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »وقال: «يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »[2]، إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. ثم إن هذا العالَم على غاية من الحكمة والإتقان والانتظام والإحكام، وهو مع ذلك جائز وجوده وجائز عدمه، فالذى خصّصه بالوجود يجب أن يكون مريدًا له قادرًا عليـه عالمـًا به ؛ فإن لم يكن عالمـًا قادرًا لا يصح منه صـدور شيء ؛ ومن لم يكن عالمـا و إن كان قادرًا لم يكن ما صدر منه على نظام الحكمة والإتقان، ومن لم يكن مريدًا لم يكن تخصيص بعض الجائزات بأحوال وأوقات دون البعض بأولى من العكس؛ إذ نسبتها إليه نسبة واحدة. قالوا : وإذ ثبت كونه قادرًا مريدًا وجب أن يكون حيًّا؛ إذ الحياة شرط هذه الصفات؛ ويلزم من كونه حيًّا أن يكون سميعًا بصـيرًا متكلمًا ؛ فإن لم تثبت له هـذه الصفات فإنه لا محالة متّصف بأضـدادها كالعمى والطرش والخرس على ما عرف فى الشاهـد ؛ والبارئ سبحانه وتعـالى يتقدّس عن أن يتّصف بمـا يوجب فى ذاته نقصًا .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ فيـه تأويلان : أحدهما ــ إكمال عدّة الأداء لمن أفطر فى سفره أو مرضه . الثانى ــ عدّة الهلال سواء كانت تسعًا وعشرين أو ثلاثين . قال جابر بن عبـد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "إن الشهر يكون تسعًا وعشرين". وفى هذا ردّ لتأويل من تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : "شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذوالحجة" أنهما لا ينقصان عن ثلاثين يومًا، أخرجه أبوداود. وتأوّله جمهور العلماء على معنى أنهما لا ينقصان فى الأجر وتكفير الخطايا، سواء كانا من تسع وعشرين أو ثلاثين.

السادسة عشرة ــ ولا اعتبار برؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهاراً بل هو لليلة التى تأتى، هـذا هو الصحيح . وقـد اختلف الرواة عن عمر فى هـذه المسألة فروى الدّارَقُطْنِي عن شقيق قال : جاءنا كتاب عمـر ونحن بخانقين قال فى كتابه : إن الأهلّة بعضها أكبر من بعض، فإذا رأيتم الهلال نهارا فلا تُفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٨

Marfat.com

وذكره أبو عمر من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي وائل(١) قال : كتب إلينا عمر ...، فذكره . قال أبو عمر : ورُوى عن عليّ بن أبي طالب مثل ماذكره عبد الرزاق أيضا ، وهو قول آبن مسعود وآبن عمر وأنس بن مالك ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة ومحمد آبن الحسن والليث والأوزاعي ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال سفيان الثوريّ وأبو يوسف : إن رُؤى بعد الزوال فهو لليلة التي تأتي ، وإن رُؤى قبل الزوال فهو لليلة الماضية . ورُوى مثل ذلك عن عمر ، ذكره عبد الرزاق عن الثوري عن مغيرة عن شِباك عن إبراهيم قال : كتب عمر إلى عتبة بن فَرْقَد « إذا رأيتم الهلال نهارًا قبل أن تزول الشمس لتمام ثلاثين فأفطروا ، وإذا رأيتموه بعد ما تزول الشمس فلا تُفطروا حتى تمسوا » ؛ ورُوى عن عليّ مثله . ولا يصحّ في هذه المسألة شيء من جهة الإسناد عن عليّ . ورُوى عن سليمان بن ربيعة مثل قول الثوريّ ، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب ، وبه كان يُفتى بقُرْطبة . وآختلف عن عمر بن عبد العزيز في هذه المسألة ؛ قال أبو عمر : والحديث عن عمر بمعنى ماذهب إليه مالك والشافعيّ وأبو حنيفة متّصل ، والحديث الذي روى عنه بمذهب الثوري منقطع ، والمصير إلى المتّصل أوْلَى . وقد آحتج من ذهب مذهب الثوريّ بأن قال : حديث الأعمش مُجمَل لم يخصّ فيه قبل الزوال ولا بعده ، وحديث إبراهيم مفسّر ، فهو أوْلى أن يقال به .

قلت : قد روى مرفوعًا معنى ماروى عن عمر متصلًا موقوفًا روته عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صائمًا صُبح ثلاثين يومًا ، فرأى هلال شوّال نهارًا فلم يُفطر حتى أمسى . أخرجه الدارَقُطْني من حديث الواقدي وقال : قال الواقدي حدّثنا معاذ بن محمد الأنصاري قال : سألت الزهريّ عن هلال شوّال إذا رؤى باكرًا ؛ قال سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن رؤى هلال شوّال بعد أن طلع الفجر إلى العصر أو إلى أن تغرب الشمس فهو من الليلة التي تجيء ؛ قال أبو عبد الله : وهذا مجمع عليه .

(١) أبو وائل : كنية شقيق السابق ذكره .

Marfat.com

السابعـــة عشرة — روى الدّارَقُطْنِيّ عن رِبْعِيّ بن حِراش عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : آختلف الناس في آخر يوم من رمضان فقدم أعرابيّان فشهدا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بالله لأَهَلا(1) الهلالَ أمس عَشِيّة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [الناس](2) أن يُفطروا وأن يغدوا إلى مُصلّاهم . قال الدّارَقُطْنِيّ : هذا إسناد حسن ثابت . قال أبو عمر : لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تُصلّى صلاة العيد في غير يوم العيد ولا في يوم العيد بعد الزوال ؛ وحكى عن أبي حنيفة . وآختلف قول الشافعي في هذه المسألة ؛ فمرّة قال بقول مالك ، وآختاره المزنيّ وقال : إذا لم يجز أن تُصلّى في يوم العيد بعد الزوال فاليوم الثاني أبعد من وقتها وأحْرَى ألا تُصلّى فيـه . وعن الشافعي رواية أخرى أنها تصلّى في اليوم الثاني ضُحًى . وقال البُوَيطي : لا تصلّى إلا أن يثبت في ذلك حديث . قال أبو عمر : لو قُضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض ، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تُقضى ؛ فهذه مثلها . وقال الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل : يخرجون من الغد ، وقاله أبو يوسف في الإملاء . وقال الحسن بن صالح بن حَيّ : لا يخرجون في الفطر ويخرجون في الأضحى . قال أبو يوسف : وأما في الأضحى فيصليها بهم في اليوم الثالث . قال أبو عمر : لأن الأضحى أيام عيد وهي صلاة عيد ، وليس الفطر يوم عيد إلا يوم واحد ، فإذا لم تصلّ فيه لم تُقضَ في غيره ؛ لأنها ليست بفريضة فتُقضَى . وقال الليث بن سعد : يخرجون في الفطر والأضحى من الغد .

قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصح ؛ للسنة الثابتة في ذلك ، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ماشاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن لم يُصَلّ ركعتى الفجر فليصلهما بعد ماتطلع الشمس " . صحّحه أبو محمد . قال الترمذي : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ، وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وآبن المبارك . وروى عن عمر أنه فعله .

---

(1) أهل الرجل الهلال : رآه . (2) زيادة عن سنن الدارقطني .

Marfat.com

قلت : وقد قال علماؤنا : من ضاق عليه الوقت وصلى الصبح وترك ركعتى الفجر فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء . وقيل : لا يصليهما حينئذ . ثم إذا قلنا : يصليهما فهل ما يفعله قضاء ، أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب ، وذكر القضاء تجوّز .

قلت : ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل ، لا سيّما مع كونهـا مرّة واحدة فى السّنة مع ما ثبت من السُّنّة . روى النسائى قال : أخبرنى عمرو بن علىّ قال حدّثنا يحيى قال حدّثنا شعبة قال حدّثنى أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له : أن قومًا رأوا الهـلال فأتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يُفطروا بعـد ما ٱرتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . فى رواية : ويخرجوا لمصلّاهم من الغد .

الثامنة عشرة — قرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو — فى بعض ما روى عنه — والحسن وقتادة والأعرج « ولِتُكَمِّلُوا العـدّة » بالتشديد . والباقون بالتخفيف . وٱختـار الكسائى التخفيف ؛ كقوله عز وجل : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(١) . قال النحاس : وهما لغتان بمعنًى واحد ؛ كما قال عز وجل : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »(٢) . ولا يجوز « ولْتكملوا » بإسكان اللام ، والفرق بين هذا و بين ما تقدّم أن التقـدير : و يريد لأن تكملوا ، ولا يجوز حذف أن والكسرة ؛ هذا قول البصريين ، ونحوه قول كُثَيِّر أبو صخر :

* أريد لأنسى ذكرها *

أى لأن أنسى ، وهذه اللام هى الداخلة على المفعول ؛ كالتى فى قولك : ضربت لزيد ؛ المعنى و يريد إكمال العدّة . وقيل : هى متعلقة بفعل مضمر بعدُ ، تقديره : ولأن تكملوا العدّة رخّص لكم هذه الرخصة . وهذا قول الكوفيين وحكاه النحاس عن الفرّاء . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ ومثله : « وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ »(٣) أى وليكون من الموقنين فعلنا ذلك . وقيل : الواو مُقْحَمة . وقيل : يحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام . وقال أبو إسحاق إبراهيم

(١) راجع جـ ٦ ص ٦١ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢ (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٣

Marfat.com

آبن السّرى : هو محمول على المعنى ، والتقدير : فعـل الله ذلك ليسهّل عليكم ولتكملوا العدّة ، قال : ومثله ما أنشده سيبويه .

بادتْ وغيّرَ آيهنّ مع البِـلَى * إلا رواكِدَ جَمْـــرُهنّ هباء
ومُشَجَّجٌ أمّا ســواءُ قَذاله * فبَــدَا وغيّب(١) سارَه(٢) المَعْزاءُ

شاده يَشيده شَيْدًا جَصّصه ؛ لأنّ معناه بادت إلا رواكد بها رواكد ، فكأنه قال : وبها مشجج أو ثَمّ مشجّج .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه ، ومعناه الحضّ على التكبير فى آخر رمضان فى قول جمهور أهل التأويل . وآختلف النـاس فى حدّه ؛ فقال الشافعى : رُوى عن سعيد بن المسيّب وعُرْوة وأبى سلمة أنهم كانوا يكبّرون ليلة الفطر ويحمّدون ، قال: وتشبه ليلة النحر بها . وقال آبن عباس : حَقٌّ على المسلمين إذا رأوا هلال شوّال أن يكبّروا . ورُوى عنه : يكبّر المرء من رؤية الهلال إلى آنقضاء الخطبة ، ويمسك وقت خروج الإمام ويكبّر بتكبيره . وقال قوم : يكبّر من رؤية الهلال إلى خروج الإمام للصلاة . وقال سفيان : هو التكبير يوم الفطر . زيد بن أسلم : يكبّرون إذا خرجوا إلى المُصَلّى فإذا آنقضت الصلاة آنقضى العيد . وهذا مذهب مالك ، قال مالك : هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام . وروى آبن القاسم وعلىّ بن زياد : أنه إن خرج قبل طلوع الشمس فلا يكبّر فى طريقه

(١) فى نسخ الأصـل وكتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس : « غيّر » بالراء . والتصويب عن اللسان مادة « شجج » . (٢) كذا فى كتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس واللسان . وساره يريد « سائره » نخفف بحذف الهمزة ، ومثله هار وأصله هائر، وشاك وأصله شائك . وفى الأصول « شاده » بالشين المعجمة والدال وهو تصحيف . وبهذا يعلم أن تفسير المؤلف وقع لكلمة مصحفة .

والآى (جمع آية) وهى علامات الديار . والرواكد : الأثافى . والهباء هنـا : الغبار . وأراد بالمشجج وتدا من أوتاد الخيام ، وتشجيجه ضرب رأسه ليثبت . وسواء قذاله : وسطه . ويروى : سواد قذاله ، وسواد كل شىء شخصه . وأراد بالقذال أعلاه ، وهو أيضا جماع مؤخر الرأس من الإنسان . والمعزاء : أرض صلبة ذات حصى . (راجع شرح الشواهد للشنتمرى) .

Marfat.com

ولا جلوسه حتى تطلع الشمس ، و إن غدا بعـد الطلوع فليكبّر في طريقه إلى المُصلّى و إذا جاس حتى يخرج الإمام. والفطر والأضحى في ذلك سواء عند مالك، و به قال الشافعي. وقال أبوحنيفة : يُكبّر في الأضحى ولا يُكبّر في الفطر، والدليل عليه قوله تعالى : « وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ » ولأن هذا يوم عيـد لا يتكرّر في العـام فسُنّ التكبير في الخروج إليه كالأضحى . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال: كانوا في التكبير في الفطر أشدّ منهم في الأضحى ورُوِيَ عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبّر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتي المُصلّى. وروى عن ابن عمر: أنه كان إذا غدا يوم الأضحى و يوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتي المصلّى ثم يكبّر حتى يأتي الإمام . وأكثر أهل العلم على التكبير في عيد الفطر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم فيما ذكر ابن المنذر قال : وحكى ذلك الأوزاعي عن إلياس . وكان الشافعيّ يقول إذا رأى هلال شـوّال : أحببت أن يكبّر النـاس جماعةً وفرادى، ولا يزالون يكبّرون و يُظهرون التكبير حتى يغدوا إلى المصلّى وحين يخرج الإمام إلى الصلاة، وكذلك أحبّ ليلة الأضحى لمن لم يحج . وسيأتي حكم صـلاة العيدَيْن والتكبير فيهما في « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » و « الكوثر »(1) إن شاء الله تعالى .

الموَفِّيَـــة عشرين ــ ولفظ التكبير عند مالك و جماعة من العلماء : الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ثلاثًا، وروى عن جابر بن عبد الله . ومن العلماء من يكبّر ويُهلّل ويُسبّح أثناء التكبير. ومنهم من يقول : الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بُكرةً وأصيلا . وكان ابن المبارك يقول إذا خرج من يوم الفطر : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا . قال ابن المنذر : وكان مالك لا يَحُدّ فيه حدّا . وقال أحمد: هو واسع . قال ابن العربي: «واختار علماؤنا التكبير المطلق، وهو ظاهر القرآن و إليه أميل» .

الحادية والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ قيل : لمـا ضلّ فيه النصارى من تبـديل صيامهم(2) . وقيل : بدلًا عمّـا كانت الجاهلية تفعله من التفاخر بالآباء والتظاهر

(1) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢ وص ٢١٨　　(٢) في بعض الأصول : « كتابهم » .

Marfat.com

بالأحساب وتعديد المناقب . وقيل : لتعظموه على ما أرشدكم إليه من الشرائع؛ فهو عام .
وتقدم معنى « ولعلكم تشكرون »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ المعنى وإذا سألوك عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعى، ويعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك . واختلف فى سبب نزولها ؛ فقال مقاتل : إن عمر رضى الله عنه واقع امرأته بعدما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتمًّا؛ وكان ذلك قبل نزول الرخصة، فنزلت هذه الآية : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ » . وقيل : لما وجب عليهم فى الابتداء ترك الأكل بعد النوم فأكل بعضهم ثم ندم ؛ فنزلت هذه الآية فى قبول التوبة ونسخ ذلك الحكم، على ما يأتى بيانه(٢) . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا ، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية . وقال الحسن: سببها أن قومًا قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت . وقال عطاء وقتادة: لما نزلت : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(٣) قال قوم : فى أىّ ساعة ندعوه ؟ فنزلت .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ أى بالإجابة . وقيل بالعلم . وقيـل : قريب من أوليائى بالإفضال والإنعام .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أى أقبل عبادة من عبدنى؛ فالدعاء بمعنى العبادة، والإجابة بمعنى القبول . دليله ما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير عن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٧، ٣٩٧ طبعة ثانية . (٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الدعاء هو العبادة قال ربكم آدعونى أستجب لكم " فسمّى الدعاء عبادة؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»(١) أى دعائى . فأمر تعالى بالدعاء وحض عليه وسمّاه عبادة، ووعد بأن يستجيب لهم . روى ليث عن شهر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصّامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أُعطِيَت أمتى ثلاثًا لم تُعط إلا الأنبياءَ كان الله إذا بعث نبياً قال آدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة آدعونى أستجب لكم وكان الله إذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدّين من حَرج وقال لهذه الأمة ما جعل عليكم فى الدّين من حرج وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيدًا على قومه وجعل هذه الأمة شُهداءَ على الناس" . وكان خالد الرَّبَعِيّ يقول : عَجِبت لهذه الأمة فى «آدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شَرْط. قال له قائل مثل ماذا؟ قال مثل قوله : «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»(٢) فها هنا شَرْط، وقوله : «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ»(٣) فليس فيه شَرْط العمل، ومثل قوله : «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»(٤) فها هنا شَرط، وقوله : «آدْعُونِى أستجِبْ لكم» ليس فيه شرط . وكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها فى حوائجهم حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك .

فإن قيل : فما للدّاعى قد يدعو فلا يُجاب؟ فالجواب أن يُعلم أن قوله الحق فى الآيتين «أُجيب» «أَسْتَجِبْ» لا يقتضى الاستجابة مطلقًا لكل داعٍ على التفصيل، ولا بكلّ مطلوب على التفصيل، فقد قال ربُّنا تبارك وتعالى فى آية أخرى : «آدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»(٥) وكلّ مُصِرّ على كبيرة عالمًا بها أو جاهلاً فهو مُعْتَدٍ، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له . وأنواع الاعتداء كثيرة؛ يأتى بيانها هنا وفى «الأعراف» إن شاء الله تعالى. وقال بعض العلماء : أجيب إن شئتُ؛ كما قال : «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ»(٦) فيكون هذا من باب المطلق والمقيد . وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ثلاث فأُعطى آثنتين ومُنع واحدة، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى . وقيل : إنما مقصود هذا الإخبار

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨　(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٩　(٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣　(٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٣

Marfat.com

تعريف جميع المؤمنين أن هذا وصف ربهم سبحانه أنه يجيب دعاء الداعين فى الجملة ، وأنه قريب من العبد يسمع دعاءه ويعلم اضطراره فيجيبه بما شاء وكيف شاء « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ[(1)] » الآية . وقد يجيب السيدُ عبده والوالدُ ولده ثم لا يعطيه سُؤْله . فالإجابة كانت حاصلة لا محالة عند وجود الدعوة ؛ لأن أجيب وأستجب خبر لا يُنسخ فيصير المخبر كذابا . يدلّ على هذا التأويل ما روى ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من فُتح له فى الدعاء فُتحت له أبواب الإجابة" . وأوحى الله تعالى إلى داود : أنْ قل للظلمة من عبادى لا يدعونى فإنى أوجبت على نفسى أن أجيب من دعانى و إنى إذا أجبت الظلمة لعنتهم . وقال قوم : إن الله يجيب كلّ الدعاء؛ فإمّا أن تظهر الإجابة فى الدنيا، و إمّا أن يكفّر عنه، و إمّا أن يدّخر له فى الآخرة؛ لما رواه أبو سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحِم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إمّا أن يُعجّل له دعوته و إمّا أن يدّخر له و إمّا أن يكفّ عنه من السوء بمثلها" . قالوا : إذن نُكثر؟ قال : "الله أكثر" . خرّجه أبو عمر بن عبد البر، وصححه أبو محمد عبد الحق ، وهو فى الموطأ منقطع السند . قال أبو عمر : وهذا الحديث يخرج فى التفسير المسند لقول الله تعالى «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» فهذا كله من الإجابة . وقال ابن عباس : كل عبد دعا أستجيب له ؛ فإن كان الذى يدعو به رزقا له فى الدنيا أعطيَه ، و إن لم يكن رزقًا له فى الدنيا ذُخرله .

قلت : وحديث أبى سعيد الخُدْرىّ و إن كان إذنًا بالإجابة فى إحدى ثلاث فقد دلّك على صحة ما تقدّم من اجتناب الاعتداء المانع من الإجابة حيث قال فيه : "ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم" وزاد مسلم : "ما لم يستعجل". رواه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم ما لم يستعجل — قيل : يا رسول الله، ما الاستعجال ؟ قال — يقول قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أر يستجيب لى فيستحسر[(2)] عند ذلك ويَدَعُ الدعاء". وروى البخارىّ ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٨٣ (2) يستحسر : ينقطع عن الدعاء ويمَلّه .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل يقول دَعوتُ فلم يُستجب لى".
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : يحتمل قوله "يُستجاب لأحدكم" الإخبار عن [وجوب][1] وقوع الإجابة ، والإخبار عن جواز وقوعها ؛ فإذا كان بمعنى الإخبار عن الوجوب والوقوع فإن الإجابة تكون بمعنى الثلاثة الأشياء المتقدّمة . فإذا قال : قد دعوت فلم يُستجب لى ، بطل وقوع أحد هذه الثلاثة الأشــياء وعَرِىَ الدعاء من جميعها . وإن كان بمعنى جواز الإجابة فإن الإجابة حينئذ تكون بفعل ما دعا به خاصّةً ، ويمنع من ذلك قول الداعى : قد دعوتُ فلم يُستجب لى ؛ لأن ذلك من باب القنوط وضعف اليقين والسّخط .

قلت : ويمنع من إجابة الدعاء أيضا أكل الحرام وما كان فى معناه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرجل يُطيل السّفرَ أشعثَ أغبرَ يمــدّ يديه إلى السماء يا ربّ يا ربّ ومَطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك " وهــذا آستفهام على جهة الآستبعاد من قبول دعاء مَن هذه صفته ، فإن إجابة الدعاء لا بدّ لهــا من شروط فى الداعى وفى الدعاء وفى الشيء المدعو به . فمن شَرْط الداعى أن يكون عالمــا بأن لا قادر على حاجته إلا الله ، وأن الوسائط فى قبضته ومسخّرة بتسخيره ، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب ، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ ، وأن يكون مجتنبًا لأكل الحرام ، وألا يملّ من الدعاء . ومن شَرط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا ؛ كما قال : "ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعــة رَحِم" فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : شروط الدعاء سبعة : أولهــا التضرّع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال . وقال آبن عطاء : إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا ؛ فإن وافق أركانه قَوِىَ ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرأفة والآستكانة والخشوع ، وأجنحته الصــدق ، ومواقيته الأسحار ، وأســبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه

(١) زيادة من الموطأ يقتضيها السياق .

Marfat.com

وسلم . وقيل : شرائطه أربع — أولها حفظ القلب عند الوحدة، وحفظ اللسان مع الخلق، وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحلّ ، وحفظ البطن من الحرام . وقد قيل : إنّ من شرط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن ؛ كما أنشد بعضهم :

ينـادى ربّه باللحن ليثٌ * كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنـا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرســول فلم تتّبعوا سُـنّته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نِعم الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم وآشتغلتم بعيوب الناس . قال عليّ رضي الله عنه لنَوْف البِكَاليّ : يا نَوْف ، إن الله أوحى إلى داود أن مُرْ بنى إسرائيل ألّا يدخلوا بيتاً من بيوتى إلا بقلوب طاهرة ، وأبصار خاشعة ، وأيدٍ نقيّة ؛ فإنى لا أستجيب لأحد منهـم ، ما دام لأحد من خلقى مظلمة . يا نوف ، لا تكوننّ شاعراً ولا عَرِيفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا عَشّاراً(١) ، فإن داود قام فى ساعة من الليل فقال : إنها ساعة لا يدعو عبـد إلّا آستجيب له فيها ، إلا أن يكون عَرِيفاً أو شرطياً أو جابياً أو عَشّاراً ، أو صاحب عَرْطَبَة ، وهى الطُّنبور ، أو صاحب كُوبة ، وهى الطبل . قال علماؤنا : ولا يَقُل الداعى : اللّهُمّ أعطنى إن شئتَ ، اللّهمّ آغفر لى إن شئتَ ، اللّهمّ آرحمنى إن شئتَ ؛ بل يَعرى سؤاله ودعاءه من لفظ المشيئة ، ويسأل سؤال من يعلم أنه لا يفعل إلا أن يشاء . وأيضا فإن فى قوله : « إن شئت » نوع من الآستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته ؛ كقول القائل : إن شئت أن تعطينى كذا فآفعل ؛ لا يستعمل هذا إلا مع الغنىّ عنه ، وأما المضطرّ إليه فإنه يعزم فى مسألته ويسأل سؤال فقير مضطرّ إلى ما سأله . روى الأئمة واللفظ للبخارىّ عن أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا دعا أحدكم فليعزِم المسألة ولا يقولنّ

---

(١) العريف : الذى يلى أمور طائفة من الناس ويتعرّف أمورهم ويبلغها للأمير . والشرطى (كتركى وجهنى) : هم أعوان الحاكم . والعشار : من يتولى أخذ أعشار الأموال .

Marfat.com

اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مُستَكرِه له ". وفي الموطّا : " اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت". قال علماؤنا : قوله "فليعزم المسألة" دليل على أنه ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله؛ لأنه يدعو كريمًا. قال سفيان ابن عُيينة : لا يمنعنّ أحدا من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قد أجاب دعاء شرّ الخلق إبليس؛ قال : رَبِّ فأنظِرني إلى يوم يُبعثون؛ قال فإنك من المنظرين . وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسَّحَر ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء؛ وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض، وعند نزول المطر والصَّف في سبيل الله . كل هذا جاءت به الآثار، ويأتي بيانها في مواضعها . وروى شَهر بن حَوشَب أن أمّ الدرداء قالت له : يا شَهر، ألا تجد القشعريرة ؟ قلت نعم . قالت : فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك . وقال جابر بن عبد الله : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثًا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين . فعرفتُ السرور في وجهه . قال جابر : ما نزل بي أمرٌ مُهِمّ غليظ إلا توخّيتُ تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ قال أبو رجاء الخراساني : فليَدْعُوا لي . وقال ابن عطية : المعنى فليطلبوا أن أجيبهم . وهذا هو باب « استفعل » أي طلب الشيء إلا ما شذّ؛ مثل استغنى الله . وقال مجاهد وغيره : المعنى فليجيبوا إليّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان؛ أي الطاعة والعمل . ويقال : أجاب واستجاب بمعنًى؛ ومنه قول الشاعر :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب *

أي لم يجبه . والسين زائدة واللام لام الأمر . وكذا « وَلْيُؤْمِنُوا » وجزمت لام الأمر لأنها تجعل الفعل مستقبلًا لا غير، فأشبهت إنْ التي للشرط . وقيل : لأنها لا تقع إلا على الفعل . والرشاد خلاف الغيّ . وقد رَشَد يَرشُد رُشْدًا . ورَشِد (بالكسر) يَرْشَد رَشَدًا، لغة فيه . وأرشده الله . والمَراشِد : مقاصد الطرق . والطريق الأرْشَد : نحو الأقصد . وتقول :

Marfat.com

هو لِرِشْدَة[1] . خلاف قولك : لِزِنْيَة . وأُمّ راشد : كُنية للفأرة . وبنو رَشْدان : بطن من العرب؛ عن الجوهري . وقال الهروى : الرُّشْد والرَّشَد والرشاد : الهدى والآستقامة؛ ومنه قوله : « لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ » .

قوله تعالى : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

فيه ست وثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ لفظ « أُحِلَّ » يقتضى أنه كان محرّماً قبل ذلك ثم نُسخ . روى أبو داود عن آبن أبى لَيْلَى قال وحدّثنا أصحابنا قال : وكان الرجل إذا أفطر[2] فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح ، قال : فجاء عمر فأراد آمرأته فقالت : إنى قد نمت ؛ فظن أنها تعتلّ فأتاها . فجاء رجل من الأنصار فأراد طعاماً فقالوا : حتى نسخّن لك شيئاً فنام ؛ فلما أصبحوا أُنزلت هذه الآية ، وفيها « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » . وروى البخارىّ عن البراء قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يُفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمْسِى ، وأن قَيْس ابن صِرْمة الأنصارى كان صائماً — وفى رواية : كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائماً — فلما حضر الإفطار أتى آمرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت لا ، ولكن أنطلقُ فأطلب لك ؛ وكان يومه يعمل ، فغلبته عيناه ، فجاءته آمرأته فلما رأته قالت : خَيْبةٌ لك ! فلما

(١) بكسر الراء وقد تفتح ؛ ومعناه : إذا كان لنكاح صحيح .
(٢) الذى فى مسند أبى داود : « إذا صام فنام ... » .

Marfat.com

انتصف النهار غُشِيَ عليه؛ فذُكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » ففرحوا فرحا شديدا، ونزلت : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ » . وفى البخارى أيضا عن البَرَاء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه ، وكان رجال يخونون أنفسهم؛ فأنزل الله تعالى : « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ » . يقال : خان واختان بمعنًى من الخيانة، أى تخونون أنفسكم بالمباشرة فى ليالى الصوم . ومن عصى الله فقد خان نفسه إذ جلب إليها العقاب . وقال القُتَبِيّ : أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدّى الأمانة فيه . وذكر الطبرى : أن عمر رضى الله تعالى عنه رجع من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سَمَر عنده ليلةً فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له : قد نمت؛ فقال لها : ما نمتِ، فوقع بها . وصنع كعب بن مالك مثله ؛ فغدا عمر على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أعتذر إلى الله وإليك؛ فإن نفسى زيّنت لى فواقعت أهلى، فهل تجد لى من رخصة؟ فقال لى : " لم تكن حقيقًا بذلك يا عمر " فلما بلغ بيته أرسل إليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن . وذكره النحاس ومكيّ، وأن عمر نام ثم وقع بامرأته ، وأنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فنزلت : « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ » الآية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ « ليلةَ » نصب على الظرف، وهى اسم جنس فلذلك أُفردت . والرَّفَث : كناية عن الجماع لأن الله عز وجل كريم يَكْنِي؛ قاله ابن عباس والسُّدّى . وقال الزجاج : الرَّفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته ؛ وقاله الأزهرى أيضا . وقال ابن عرفة : الرَّفث ها هنا الجماع . والرفث : التصريح بذكر الجماع والإعراب به . قال الشاعر :

وَيُرَيْنَ من أُنْس الحديث زوانيا * وبهنّ عن رَفَث الرجال نِفارُ

وقيل : الرفث أصله قول الفُحش؛ يقال : رَفَث وأرفث إذا تكلّم بالقبيح؛ ومنه قول الشاعر :

ورُبّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ * عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

Marfat.com

وتعدّى «الرَّفث» بإلى فى قوله تعالى جدّه : «الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» . وأنت لاتقول : رفثت إلى النساء ، ولكنه جيء به محمولًا على الإفضاء الذى يراد به الملابسة فى مثل قوله : «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»(١) . ومن هذا المعنى : «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ»(٢) كما تقدّم . وقوله : «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا»(٣) أى يوقد، لأنك تقول : أحميت الحديدةَ فى النار، وسيأتى، ومنه قوله : «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ»(٤) حُمل على معنى يخرفون عن أمره أو يروغون عن أمره؛ لأنك تقول: خالفت زيدًا. ومثله قوله تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»(٥) حُمل على معنى رءوف فى نحو «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»(٦)؛ ألا ترى أنك تقول : رؤفت به، ولا تقول رحمت به، ولكنه لمـا وافقه فى المعنى نزل منزلته فى التعدية . ومن هذا الضرب قول أبى كَبِير الهُذَلِىّ :

حَمَلتْ به فى ليلة مَزْءُودةٍ(٧) * كَرْهًا وعَقدِ نِطاقها لم يُحلَل

عدّى «حملتْ» بالباء، وحقّه أن يصل إلى المفعول بنفسه؛ كما جاء فى التنزيل : «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا»(٨) ولكنه قال : حملت به؛ لأنه فى معنى حَبِلت به .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ ابتداء وخبر، وشُدّدت النون من «هنّ» لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر . ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أصل اللباس فى الثياب ، ثم سُمّى آمتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسًا ؛ لأنضمام الجسد وآمتزاجهما وتلازمهما تشبيهًا بالثوب . وقال النابغة الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجِيعُ ثَنَى جِيدَها * تداعتْ فكانت عليه لِباسًا

وقال أيضا :

لَبِستُ أناسًا فأفنيتُهم * وأفنيتُ بعد أُناسٍ أناسَا

وقال بعضهم : يقال لمـا ستر الشيء وداراه : لباس . فجائز أن يكون كل واحد منهما سِترًا لصاحبه عما لا يحلّ، كما ورد فى الخبر . وقيل : لأن كل واحد منهما سترٌ لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك . قال رجل لعمر بن الخطاب :

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٢ (٢) جـ ١ ص ٢٠٦ (٣) جـ ٨ ص ١٢٩ (٤) جـ ١٢ ص ٣٢٢
(٥) جـ ١٤ ص ١٩٨ (٦) جـ ٨ ص ٣٠٢ (٧) مزءودة : فزعة . (٨) جـ ١٦ ص ١٩٣

Marfat.com

أَلا أَبْلِـغْ أَبا حَفْصٍ رسـولًا * فِدًى لك من أُخى ثِقَةٍ إزارى

قال أبو عبيـد : أى نسائى . وقيل نفسى . وقال الربيع : هن فراش لـكم ، وأنتم لحاف لهن . مجاهد : أى سكن لكم ؛ أى يسكن بعضكم إلى بعض .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يستأمر بعضكم بعضًا فى مواقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم فى ليالى الصوم؛ كقوله تعالى : « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ » يعنى يقتل بعضكم بعضًا . ويحتمل أن يريد به كل واحد منهم فى نفسه بأنه يخونها ؛ وسماه خائنًا لنفسه من حيث كان ضرره عائدًا عليه ، كما تقدم . وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما — قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم . والآخر — التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة ؛ كقوله تعالى : « عَـلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ »(١) يعنى خفف عنكم . وقوله عقيب القتل الخطأ : « فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ »(٢) يعنى تخفيفًا ؛ لأن القاتل خطأ لم يفعل شيئًا تلزمه التوبة منه ، وقال تعالى : « لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ »(٣) وإن لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم ما يوجب التوبة منه . وقوله : ﴿ فَعَفَا عَنكُمْ ﴾ يحتمل العفو من الذنب ، ويحتمل التوسعة والتسهيل ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله" يعنى تسهيله وتوسعته . فمعنى « عَلِمَ اللَّهُ » أى علم وقوع هذا منكم مشاهدة « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » بعد ما وقع ، أى خفف عنكم « وَعَفَا » أى سهل . و « تَخْتَانُونَ » من الخيانة ، كما تقدم . قال ابن العربى : « وقال علماء الزهد : وكذا فلتكن العناية وشرف المنزلة ، خان نفسه عمر رضى الله عنه فجعلها الله تعالى شريعة ، وخفف من أجله عن الأمة فرضى الله عنه وأرضاه » .

قوله تعالى : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ كناية عن الجماع ؛ أى قد أحل لكم ما حرم عليكم . وسمى الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيـه . قال ابن العربى : « وهذا يدل على أن سبب الآية جماع عمر رضى الله عنه لا جوع قيس ؛ لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال : فالآن كلوا ؛ ابتدأ به لأنه المهم الذى نزلت الآية لأجله .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٥١　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٢٧　　(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧

Marfat.com

الخامســـة — قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد والحكم ٱبن عُيَينة وعكرمة والحسن والسُّدِّي والربيع والضحاك : معناه وٱبتغوا الولد ؛ يدلّ عليه أنه عقيب قوله : « فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » . وقال ٱبن عباس : ما كتب ٱلله لنا هو القرآن . الزجاج : أي ٱبتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن ٱبن عباس ومعاذ بن جبل أن المعنى وٱبتغوا ليلة القدر . وقيل : المعنى ٱطلبوا الرخصة والتوسعة ؛ قاله قتادة . قال ٱبن عطية : وهو قول حسن . وقيل : « ٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ » من الإماء والزّوجات . وقرأ الحسن البصري والحسن بن قرة « وٱتبعوا » من الاتبـاع ، وجوزها ٱبن عباس ، ورجّح « ٱبتغوا » من الابتغـاء .

السـادســـة — قوله تعـالى : ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ هذا جواب نازلة قيس ، والأول جواب عمر ، وقد ٱبتدأ بنازلة عمر لأنه المهمّ فهو المقدّم .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ « حتّى » غاية للتبيين ، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر . وٱختُلف في الحدّ الذي بتبيّنه يجب الإمسـاك ؛ فقال الجمهور : ذلك الفجر المعترض في الأفق يَمْنَةً ويَسْرة ؛ وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار . روى مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "لا يغرّنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير[1] هكذا" . وحكاه حماد[2] بيديه قال[3] : يعني معترضًا . وفي حديث ٱبن مسعود : "إن الفجر ليس الذي يقول هكذا — وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض — ولكن الذي يقول هكذا — ووضع المُسَبِّحة على المُسَبِّحة ومدّ يديه" . وروى الدَّارَقُطْني عن عبد الرحمن بن عباس أنه بلغه أن رسول ٱلله

(١) يستطير : أي ينتشر ضوءه ويعترض في الأفق بخلاف المستطيل ، والاستطارة هـذه تكون بعد غيبوبة ذلك المستطيل . (٢) حماد هذا هو حماد بن زيد أحد رجال سند هـذا الحديث . (٣) قال ابن الأثير في النهاية : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده ، أي أخذ . وقال برجله ، أي مشى . وقال بثوبه ، أي رفعه ؛ وكل ذلك على المجاز والاتساع » فمعنى يقول هنا : يظهر .

Marfat.com

صـلى الله عليه وسـلم قال : " هما فجران فأمّا الذى كأنه ذَنَب السِّرحان(١) فإنه لا يُحـلّ شيئًا ولا يحرّمه وأمّا المستطيل الذى عارض الأُفُق ففيه تَحِل الصلاة ويَحرم الطعام " هذا مرسَل .
وقالت طائفة : ذلك بعد طلوع الفجر وتبيّنه فى الطُّرق والبيوت ؛ روى ذلك عن عمر(٢) وحذيفة وآبن عباس وطَلْق بن علىّ وعطاء بن أبى رَباح والأعمش سليمان وغيرهم أن الإمساك يجب بتبيين الفجــر فى الطُّرق وعلى رءوس الجبال . وقال مسروق : لم يكن يعدّون الفجر فجركم إنمـا كانوا يعدّون الفجر الذى يملأ البيوت . وروى النسائى عن عاصم عن زِرّ قال قلنا لحذيفة : أى ساعة تسحّرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو النهار إلا أنّ الشمس لم تطلع . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن طَلْق بن علىّ أن نبىّ الله قال : " كلوا وآشربوا ولا يَغُرّنكم الساطع المصعد وكلوا وآشربوا حتى يعرض لكم الأحمر " . قال الدّارقطنىّ : [قيس بن طَلْق(٣)] ليس بالقوىّ . وقال أبو داود : هذا مما تفرّد به أهل اليمامة . قال الطبرى : والذى قادهم إلى هذا أن الصوم إنما هو فى النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس ، وآخره غروبها؛ وقد مضى(٤) الخلاف فى هذا بين اللغويين . وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " إنما هو سواد الليل و بياض النهار " الفَيْصل فى ذلك، وقوله « أيّامًا مَعْدُودَاتٍ » .
وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يبيت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صـيام له " . تفرّد به عبد الله بن عباد عن المفضّل بن فضالة بهذا الإسناد، وكلهم ثقات . وروى عن حَفصة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يجمـع الصيام قبل الفجر فلا صيام له " . رفعه عبد الله بن أبى بكر وهو من الثقات الرفعاء، وروى عن حفصة مرفوعًا من قولها . ففى هذين الحديثين دليل على ما قاله الجمهور فى الفجر، ومنع من الصيام دون نيّة قبل الفجر، خلافًا لقول أبى حنيفة ، وهى :
الثامنــــة ــ وذلك أن الصيام من جملة العبادات فلا يصح إلا بنيّة، وقد وقّتها الشارع قبل الفجر؛ فكيف يقال : إن الأكل والشرب بعد الفجر جائز . وروى البخارىّ ومسلم عن

(١) السرحان (بكسر فسكون) : الذئب، وقيــل : الأسد؛ وجمعه سراح وسراحين .
(٢) فى بعض النسخ : « عثمان » .		(٣) التكلة عن سنن الدارقطنى يقتضيها السياق .
(٤) تراجع المسألة الثانية ص ١٩٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

سهل بن سعد قال: نزلت «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» ولم ينزل «من الفجر» وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما؛ فأنزل الله بعدُ «مِنَ الْفَجْرِ» فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهار. وعن عَدِىّ بن حاتم قال قلت: يارسـول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: "إنك لعريض القفا(1) إن أبصرتَ الخيطين — ثم قال — لا بل هو سواد الليل وبياض النهار". أخرجه البخارىّ. وسُمِّى الفجر خيطًا لأن مايبدو من البياض يُرى ممتدًا كالخيط. قال الشاعر:

الخيطُ الأبيضُ ضوءُ الصبح مُنْفَلِقٌ * والخيطُ الأسودُ جنحُ الليل مكتومُ

والخيط فى كلامهم عبارة عن اللون. والفجر مصدر فجرت الماء أفجره فجرًا إذا جرى وٱنبعث، وأصله الشّـق؛ فلذلك قيل للطالع من تباشـير ضياء الشمس من مطلعها: فجـرا لانبعاث ضوئه، وهو أول بيـاض النهار الظاهر المسـتطير فى الأفق المنتشر، تسمّيه العرب الخيط الأبيض؛ كما بيّنـا. قال أبو دُواد الإيادىّ:

فلمـا أضاءتْ لنـا سُـدْفَةٌ(2) * ولاح من الصّـبح خَيْطٌ أنارا

وقال آخـــر:

قـد كاد يبدو وبدت تباشره * وسَـدَفُ الليـل البَهيم ساتره

وقد تسمّيه أيضا الصّديع؛ ومنـه قولهم: ٱنصدع الفجر. قال بشر بن أبى خازم أو عمرو ٱبن معديكرب:

ترى السِّرحانَ مفترشًـا يديه * كأن بيـاضَ لَبّتـــه صَـدِيعُ

وشبهه الشّماخ بمفرق الرأس فقال:

إذا ما الليل كان الصبـح فيه * أشـق كمفرق الرأس الدّهين

---

(1) القفا العريض يستدل به على قلة فطنة الرجل. (2) السدفة (بضم السين وفتحها وسكون الدال): فى لغة نجد ظلمة الليل، وفى لغة غيرهم الضوء، وهو من الأضداد.

Marfat.com

ويقولون فى الأمر الواضح : هـذا كفَلَق الصـبح ، وكانبلاج الفجر ، وتباشير الصـبح . قال الشاعر :

فوردتْ قبل ٱنبلاج الفجرِ * وٱبنُ ذكاءَ كامِنٌ فى كَفْرِ[1]

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ جعل الله جلّ ذكره الليل ظَرْفًا للأكل والشرب والجماع ، والنهارَ ظرفا للصيام ؛ فبيّن أحكام الزمانين وغاير بينهما . فلا يجوز فى اليوم شىء مما أباحه بالليل إلا لمسافر أو مريض ، كما تقدّم بيانه . فمن أفطر فى رمضان من غير مَن ذُكر فلا يخلو إمّا أن يكون عامدًا أو ناسيًا ؛ فإن كان الأوّل فقال مالك : من أفطر فى رمضان عامدًا بأكل أو شرب أو جماع فعليه القضاء والكفارة ؛ لما رواه مالك فى مُوَطَّئه ، ومسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رجلا أفطر فى رمضان فأمره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أن يكفّر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا ، الحديث . وبهذا قال الشعبىّ . وقال الشافعى وغيره : إن هذه الكفارة إنما تختصّ بمن أفطر بالجماع ؛ لحديث أبى هريرة أيضا قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ يا رسول الله ! قال : " وما أهلكك " قال : وقعتُ على ٱمرأتى فى رمضان ، الحديث . وفيـه ذكر الكفارة على الترتيب ؛ أخرجه مسـلم . وحملوا هـذه القضية على القضية الأولى فقالوا : هى واحدة ؛ وهذا غير مسلَّم به بل هما قضيّتان مختلفتان ؛ لأن مساقهما مختلف ، وقد علّق الكفارة على من أفطر مجرّدًا عن القيود فلزم مطلقًا . وبهـذا قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ وإسحاق وأبو ثور والطبرى وٱبن المنذر ، وروى ذلك عن عطاء فى رواية ، وعن الحسن والزهرىّ . ويلزم الشافعىّ القول به فإنه يقول : ترك الاستفصال مع تعارض الأحوال يدل على عموم الحكم . وأوجب الشافعىّ عليه مع القضاء العقوبةَ لٱنتهاك حرمة الشهر .

العاشــرة — وٱختلفوا أيضا فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى شهر رمضان ؛ فقال مالك وأبو يوسف وأصحاب الرأى : عليها مثـل ما على الزوج . وقال الشافعى : ليس عليها

---

(١) قائل هـذا البيت هو حميد الأرقط ؛ كما فى الصحاح . وذكاء (بالضم) : اسم الشمس ، ويقال للصبح : ٱبن ذكاء لأنه من ضوئها . والكفر (بالفتح) : ظلمة الليل وسواده .

Marfat.com

إلا كفارة واحدة ، وسواء طاوعته أو أكرهها ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أجاب السائل بكفارة واحدة ولم يفصّل. وروى عن أبي حنيفة : إن طاوعته فعلى كل واحد منهما كفارة، وإن أكرهها فعليه كفارة واحدة لا غير . وهو قول سُحنون بن سعيد المـالكى. وقال مالك : عليه كفارتان؛ وهو تحصيل مذهبه عند جماعة أصحابه .

الحادية عشرة — وآختلفوا أيضا فيمن جامع ناسيًا لصومه أو أكل ؛ فقال الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق : ليس عليه فى الوجهين شيء، لا قضاء ولا كفارة . وقال مالك والليث والأوزاعيّ : عليـه القضاء ولا كفارة ؛ ورُوِىَ مثل ذلك عن عطاء . وقـد روى عن عطاء أن عليه الكفارة إن جامع، وقال: مثل هذا لا يُنسى. وقال قوم من أهل الظاهر: سـواء وَطِئ ناسيا أو عامدًا فعليـه القضاء والكفارة؛ وهو قول آبن المـاجشون عبد الملك، وإليه ذهب أحمد بن حنبل؛ لأن الحديث الموجب للكفارة لم يفرّق فيه بين الناسى والعامد. قال آبن المنذر : لا شيء عليه .

الثـانية عشرة — قال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى : إذا أكل ناسياً فظنّ أن ذلك قد فطّره فجامع عامدًا أن عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال آبن المنذر: وبه نقول . وقيل فى المذهب : عليه القضاء والكفارة إن كان قاصدًا لهتك حُرمة صومه جُرْأةً وتهاوُنًا . قال أبو عمر : وقدكان يجب على أصـل مالك ألّا يكفّر ، لأن من أكل ناسـيًا فهو عنده مفطر يقضى يومه ذلك؛ فأىّ حرمة هتك وهو مفطر . وعند غير مالك : ليس بمفطر كلُّ من أكل ناسياً لصومه .

قلت : وهو الصحيح، وبه قال الجمهور : إنـ مَن أكل أو شرب ناسـيًا فلا قضاء عليه وإن صومه تام؛ لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسـيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعـالى [إليـه] ولا قضاء عليـه — فى رواية — وليتمّ صومه فإن الله أطعمه وسقاه". أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . وقال : إسناد صحيح وكلهم ثقات . قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبـد الله يُسئل عمن أكل ناسيًا فى رمضان ؛

Marfat.com

قال : ليس عليه شيء على حديث أبي هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكًا يقول عليــه القضاء ! وضحك . وقال ٱبن المنـذر : لا شيء عليه ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن أكل أو شرب ناسياً : "يتمّ صومه" وإذا قال "يتمّ صومه" فأتمه فهو صومٌ تام كامل.

قلت : وإذا كان من أفطر ناسياً لا قضاء عليه وصومه صومٌ تامٌ فعليه إذا جامع عامدًا القضاء والكفارة — والله أعلم — كمن لم يفطر ناسيًا . وقد ٱحتجّ علماؤنا على إيجاب القضاء بأن قالوا: المطلوب منه صيام يوم تام لا يقع فيه خَرم؛ لقوله تعالى: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» وهــذا لم يأت به على التمام فهو باقٍ عليــه؛ ولعل الحديث في صوم التطوع لخفّته . وقد جاء في صحيحي البخاريّ ومسلم: "مَن نَسِيَ وهو صائم فأكل أو شرب فليتمّ صومه" فلم يذكر قضاء ولا تعرّض له ، بل الذى تعرّض له سقوط المؤاخذة والأمر بمضيّه على صومه وإتمامه؛ هذا إن كان واجبًا فدلّ على ما ذكرناه من القضاء . وأمّا صوم التطوّع فلا قضاء فيــه لمن أكل ناسيًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا قضاء عليه " .

قلت : هذا ما ٱحتج به علماؤنا وهو صحيح، لولا ما صحّ عن الشارع ما ذكرناه، وقد جاء بالنص الصريح الصحيح وهو ما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : " من أفطر في شهر رمضان ناسـيًا فلا قضاء عنيه ولا كفارة " أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال : تفرّد به ٱبن مرزوق وهو ثقة عن الأنصارى؛ فزال الٱحتمال وٱرتفع الإشكال، والحمد لله ذى الجلال والكمال .

الثـالثة عشرة — لمـا بيّن سبحانه محظورات الصيام وهى الأكل والشرب والجماع، ولم يذكر المباشرة التى هى ٱتصال البَشَرة بالبَشَرة كالقُبلة والجَسّة وغيرها، دلّ ذلك على صحة صوم مَن قبّل وباشر؛ لأن فحوَى الكلام إنمـا يدلّ على تحريم ما أباحه الليل وهو الأشياء الثلاثة، ولا دلالة فيه على غيرها بل هو موقوف على الدليل؛ ولذلك شاع الاختلاف فيــه، وٱختلف علماء السلف فيه؛ فمن ذلك المباشرة . قال علماؤنا : يُكره لمن لا يأمن على نفسه ولا يملكها؛ لئلا يكون سببًا إلى ما يفسد الصوم. روى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان

Marfat.com

يَنهى عن القُبلة والمباشرة للصائم ؛ وهذا — والله أعلم — خوف ما يحدث عنهما ؛ فإن قبّل وسَلم فلا جناح عليــه ، وكذلك إن باشر . وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُقبّل ويُباشر وهو صائم . وممن كَرِه القُبلة للصائم عبــد الله بن مسعود وعُروة ابن الزبير . وقد رُوِى عن ٱبن مسعود أنه يقضي يومًا مكانه ، والحــديث حجة عليهم . قال أبو عمر : ولا أعلم أحدًا رخّص فيها لمن يعلم أنه يتولّد عليــه منها ما يُفسد صومه ؛ فإن قبّل فأمْنَى فعليه القضاء ولا كفارة ؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ والحسن والشافعيّ ، وٱختاره ٱبن المنذر وقال : ليس لمن أوجب عليه الكفارة حجة . قال أبو عمر : ولو قبّل فأمْذَى لم يكن عليه شيء عندهم . وقال أحمد : مَن قبّل فأمْذَى أو أَمْنَى فعليه القضــاء ولا كفارة عليه ؛ إلا على من جامع فأَوْلج عامدًا أو ناسيًا . وروى ٱبن القاسم عن مالك فيمن قبّل أو باشر فأنعَظ ولم يخرج منه ماء بجملةً عليه القضاء . وروى ٱبن وهب عنه لا قضاء عليه حتى يُمْذِى . قال القاضي أبو محمد : وٱتفق أصحابنا على أنه لا كفارة عليه . و إن كان مَنِيًّا فهل تلزمه الكفارة مع القضاء ؛ فلا يخلو أن يكون قبّل قُبلةً واحدةً فأنزل ، أو قبّل فٱلتذّ فعاود فأنزل ؛ فإن كان قبّل قُبلة واحدةً أو باشر أو لمس مرّةً فقال أشهب وسُحنون : لا كفارة عليه حتى يكرر . وقال ٱبن القاسم : يكفّر في ذلك كله ، إلا في النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر . وممن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاعب ٱمرأته أو جامع دون الفرج فأَمْنَى : الحسن البصرى وعطاء وٱبن المبارك وأبو ثور وإسحاق ، وهو قول مالك في المدوّنة . وحجة قول أشهب : أن اللّمس والقُبلة والمباشرة ليست تُفطر في نفسها ، وإنما يبقى أن تؤول إلى الأمر الذى يقع به الفطر ، فإذا فعل مرةً واحدةً لم يقصد الإنزال وإفساد الصوم فلا كفارة عليه كالنظر إليها ، وإذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر . قال اللّخْميّ : وٱتفق جميعهم في الإنزال عن النّظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع . والأصل أنه لا تجب الكفارة إلا على من قصد الفطر وٱنتهاك حُرمة الصوم ، فإذا كان ذلك وجب أن يُنظر إلى عادة من نزل به ذلك ، فإذا كان ذلك شأنه أن يُنزل عن قُبــلة أو مباشرة مرةً ، أو كانت عادته مختلفة : مرّةً يُنزل ،

Marfat.com

ومرّة لا يُنزل، رأيت عليه الكفارة ؛ لأن فاعل ذلك قاصد لانتهاك صومه أو متعرض له . وإن كانت عادته السلامة فقُـدِّر أن كان منه خلاف العادة لم يكن عليه كفارة، وقد يحتمل قول مالك فى وجوب الكفارة؛ لأن ذلك لا يجرى إلا ممن يكون ذلك طبعه وٱكتفى بما ظهر منه . وحمل أشهب الأمر على الغالب من الناس أنهم يسلمون من ذلك، وقولهم فى النظر دليل على ذلك .

قلت : ما حكاه من الاتفاق فى النظر وجعله أصلاً ليس كذلك؛ فقد حكى الباجى فى المنتقى « فإن نظر نظرةً واحدةً يقصد بها اللذة [فأنزل](١) فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال الباجى : وهو الصحيح عندى؛ لأنه إذا قصد بها الاستمتاع كانت كالقُبلة وغير ذلك من أنواع الاستمتاع، والله أعلم » . وقال جابر بن زيد والثورى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن ردّد النظر إلى المرأة حتى أمْنَى : فلا قضاء عليه ولا كفارة؛ قاله ٱبن المنذر . قال الباجى : وروى فى المدنيّة ٱبن نافع عن مالك أنه إن نظر إلى ٱمرأة متجرّدة فٱلتذّ فأنزل عليه القضاء دون الكفارة .

الرابعة عشرة — والجمهور من العلماء على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنب . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : «وذلك جائز إجماعاً، وقد كان وقع فيه بين الصحابة كلام ثم ٱستقرّ الأمر على أن من أصبح جُنُبًا فإن صومه صحيح » .

قلت : أمّا ما ذُكر من وقوع الكلام فصحيح مشهور، وذلك قول أبى هريرة : من أصبح جُنُبًا فلا صوم له؛ أخرجه الموطأ وغيره . وفى كتاب النسائى أنه قال لما روجع : والله ما أنا قلته ، محمد صلى الله عليه وسلم والله قاله . وقد ٱختلف فى رجوعه عنها ؛ وأشهر قوليه عند أهل العلم أنه لا صوم له ؛ حكاه ٱبن المنذر، ورُوىَ عن الحسن بن صالح . وعن أبى هريرة أيضا قول ثالث قال : إذا علم بجنابته ثم نام حتى يصبح فهو مفطر، وإن لم يعلم حتى أصبح

(١) زيادة عن كتاب « المنتقى » يقتضيها السياق .

Marfat.com

فهو صائم؛ رُوِىَ ذلك عن عطاء وطاوس وعُروة بن الزبير . وروى عن الحسن والنخعِىّ أن ذلك يجزى فى التطوّع و يقضى فى الفرض .

قلت : فهذه أربعة أقوال للعلماء فيمن أصبح جُنُبًا، والصحيح منها مذهب الجمهور؛ لحديث عائشة رضى الله عنها وأمّ سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصبح جُنُبًا من جماع غير ٱحتلام ثم يصوم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركه الفجر فى رمضان وهو جُنب من غير ٱحتلام فيغتسل و يصوم؛ أخرجهما البخارىّ ومسلم . وهو الذى يفهم من ضرورة قوله تعالى : « فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنّ » الآية؛ فإنه لما مدّ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر فبالضرورة يعلم أن الفجر يطلع عليه وهو جُنب، و إنما يتأتى الغسل بعـد الفجر . وقد قال الشافعى : ولو كان الذكر داخل المرأة فنزعه مع طلوع الفجر أنه لا قضاء عليه . وقال المُزَنِىّ : عليه القضاء لأنه من تمام الجماع؛ والأول أصح لما ذكرنا، وهو قول علمائنا .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا فى الحائض تطهر قبـل الفجر وتترك التطهّر حتى تُصبح ؛ فجمهورهم على وجوب الصوم عليها و إجزائه ، سواء تركته عمدًا أو سهوًا كالجنب؛ وهو قول مالك وٱبن القاسم . وقال عبد الملك : إذا طَهُرت الحائض قبـل الفجر فأخّرت غسلها حتى طلع الفجر فيومها يوم فطر ؛ لأنها فى بعضه غير طاهرة، وليست كالجنب لأن الآحتـلام لا ينقض الصوم، والحَيْضة تنقضه . هكذا ذكره أبو الفرج فى كتابه عن عبـد الملك . وقال الأوزاعىّ : تقضى لأنها فرّطت فى الآغتسال . وذكر ٱبن الجـلاب عن عبد الملك أنها إن طهرت قبل الفجر فى وقت يمكنها فيه الغسـل ففرّطت ولم تغتسل حتى أصبحت لم يضرها كالجنب، و إن كان الوقت ضيّقًا لا تدرك فيه الغسل لم يجز صومها و يومها يوم فطر؛ وقاله مالك ، وهى كمن طلع عليها الفجر وهى حائض . وقال محمد بن مسلمة فى هـذه : تصوم وتقضى، مثل قول الأوزاعى . وروى عنه أنه شذّ فأوجب على من طهرت قبل الفجر ففرّطت وتوانت وتأخّرت حتى تُصبح — الكفارةَ مع القضاء .

Marfat.com

السادسة عشرة — وإذا طهرت المرأة ليــلًا فى رمضان فلم تَدْرِ أكان ذلك قبل الفجر أو بعده ، صامت وقضت ذلك اليوم آحتياطًا ، ولا كفارة عليها .

السابعة عشرة — رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفطر الحاجم والمحجوم". من حديث ثَوْبان وحديث شدّاد بن أوس وحديث رافع بن خَديج؛ وبه قال أحمد وإسحاق، وصحّح أحمد حديث شدّاد بن أوس، وصحّح على بن المدينى حديث رافع بن خَديج. وقال مالك والشافعى والثورى : لا قضاء عليه، إلا أنه يكره له ذلك من أجل التغرير . وفى صحيح مسلم من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم؟ قال لا، إلا من أجل الضعف. وقال أبو عمر : حديث شدّاد ورافع وثوبان عندنا منسوخ بحديث آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آحتجم صائمًا محرمًا ؛ لأن فى حديث شدّاد بن أوس وغيره أنه صلى الله عليه وسلم مرّ عام الفتح على رجل يحتجم لثمــان عشرة ليلة خلت من رمضان فقال: "أفطر الحاجم والمحجوم". وآحتجم هو صلى الله عليه وسلم عامَ حجة الوداع وهو مُحرِم صائم؛ فإذا كانت حجته صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع فهى ناسخة لا محالة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يُدرك بعد ذلك رمضان؛ لأنه تُوُفِّىَ فى ربيع الأوّل، صلى الله عليه وسلم .

الثامنــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أمْرٌ يقتضى الوجوب من غير خلاف . و « إلى » غاية، فإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلهــا فهو داخل فى حكمه؛ كقولك: آشتريت الفدان إلى حاشيته، أو آشتريت منك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة — والمبيع شجر؛ فإن الشجرة داخلة فى المبيع . بخلاف قولك : آشتريت الفدان إلى الدار؛ فإن الدار لا تدخل فى المحدود إذ ليست من جنسه . فشَرَط تعالى تمــام الصوم حتى يتبيّن الليل، كما جوّز الأكل حتى يتبيّن النهار .

التاسعة عشرة — ومن تمام الصوم آستصحاب النّية دون رفعها، فإنْ رفعها فى بعض النهار ونوى الفطر إلا أنه لم يأكل ولم يشرب فجعــله فى المدوّنة مفطرًا وعليــه القضاء . وفى كتاب آبن حبيب أنه على صومه؛ قال : ولا يخرجه من الصوم إلا الإفطار بالفعــل وليس بالنية .

Marfat.com

وقيل : عليه القضاء والكفارة . وقال سُحنون : إنمـا يكفّر من بيّت الفطر، فأمّا من نوا
فى نهاره فلا يضره، وإنما يقضى آستحساناً .

قلت : هذا حسن .

الموفيــة عشرين — قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّيْلِ ﴾ إذا تبيّن الليل سنّ الفطر شرعاً، أكل أو لم يأكل . قال آبن العـربى : وقد ســئل الإمام أبو إسحاق الشـيرازى عن رجل حلف بالطلاق ثلاثاً أنه لا يُفطر على حار ولا بارد، فأجاب أنه بغروب الشمس مفطرٌ لا شىء عليه؛ وآحتجّ بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاء الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم" . وسئل عنها الإمام أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل فقال : لابدّ أن يفطر على حار أو بارد . وما أجاب به الإمام أبو إسحاق أَوْلى؛ لأنه مقتضى الكتاب والسُّنة .

الحادية والعشرون — فإن ظن أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر ثم ظهرت الشمس فعليــه القضاء فى قول أكثر العلماء . وفى البخارى عن أسمــاء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ غَيْم ثم طلعت الشمس، قيل لهشام (1) : فأُمِرُوا بالقضاء؟ قال : لا بدّ من قضاء ؟ . قال عمر فى الموطأ فى هذا : الخطب يسير، وقد آجتهدنا [فى الوقت] (2) يريد القضاء . وروى عن عمر أنه قال : لا قضاء عليه؛ وبه قال الحسن البصرى : لا قضاء عليــه كالناسى؛ وهو قول إسحــاق وأهل الظاهر . وقول الله تعــالى : « إلى الليل » يردّ هذا القول، والله أعلم .

الثــانية والعشرون — فإن أفطر وهو شاكٌّ فى غروبهــا كفّر مع القضاء؛ قاله مالك، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها . ومن شكّ عنده فى طلوع الفجر لزمه الكف عن الأكل؛ فإن أكل مع شكّه فعليه القضاء كالناسى، لم يختلف فى ذلك قوله . ومن أهل العلم بالمدينــة وغيرها من لا يرى عليــه شيئاً حتى يتبيّن له طلوع الفجر؛ وبه قال آبن المنــذر . وقال الكيا الطبرى : « وقد ظن قوم أنه إذا أبيح له الفطر إلى أوّل الفجر فإذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع فى وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه؛ كذلك قال مجاهد وجابر

(1) هو آبن عروة، أحد رجال سند هذا الحديث . (2) زيادة عن الموطأ .

Marfat.com

ابن زيد . ولا خلاف فى وجوب القضاء إذا غُمّ عليه الهلال فى أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان، والذى نحن فيه مثله . وكذلك الأسير فى دار الحرب إذا أكل ظنًّا أنه من شعبان ثم بان خلافه » .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فيه ما يقتضى النهى عن الوصال ؛ إذ الليل غاية الصيام؛ وقالته عائشة . وهذا موضعٌ آختلف فيه ؛ فمن واصل عبد الله بن الزبير وإبراهيم التَّيْمى وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدِّينَوَرِىّ وغيرهم . كان ابن الزبير يواصل سبعًا، فإذا أفطر شرب السمن والصبر حتى يفتق أمعاءه، قال: وكانت تيبس أمعاؤه . وكان أبو الجوزاء يواصل سبعة أيام وسبع ليال ولو قبض على ذراع الرجل الشديد لحطمها . وظاهر القرآن والسُّنة يقتضى المنع ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم" . خرجه مسلم من حديث عبد الله بن أبى أَوْفَى . ونهى عن الوصال، فلما أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا ثم رأوا الهلال فقال : "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمُنَكِّل لهم حين أَبَوْا أن ينتهوا . أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وفى حديث أنس : "لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالًا يَدَعُ المتعمِّقون تعمُّقَهم". خرجه مسلم أيضا . وقال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والوصال إياكم والوصال" تأكيدًا فى المنع لهم منه، وأخرجه البخارى . وعلى كراهية الوصال — لما ذكرنا ولما فيه من ضعف القُوَى وإنهاك الأبدان — جمهور العلماء . وقد حرّمه بعضهم لما فيه من مخالفة الظاهر والتشبه بأهل الكتاب، قال صلى الله عليه وسلم : "إن فَصْلَ[1] ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَر" . خرّجه مسلم وأبو داود . وفى البخارى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تواصلوا فأيُّكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السَّحَر" قالوا : فإنك تواصل يارسول الله ؟ قال : "لست كهيئتكم إنى أَبِيتُ لِى مُطْعِمٌ يُطعمنى وساقٍ يَسقينى" . قالوا : وهذا إباحة لتأخير الفطر إلى السحر، وهو الغاية فى الوصال لمن أراده، ومنعٌ من آتصال يوم بيوم؛ وبه قال أحمد

(١) كذا فى صحيح مسلم بالصاد المهملة، بمعنى الفاصل . وفى سنن أبى داود بالضاد المعجمة .

Marfat.com

و إسحاق وآبن وهب صاحب مالك . واحتجّ من أجاز الوصال بأن قال : إنما كان النهى عن الوصال لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام ، فخشِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلّفوا الوصال وأعلى المقامات فيفتُرُوا أو يضعفوا عما كان أنفع منه من الجهاد والقوّة على العدوّ، ومع حاجتهم فى ذلك الوقت. وكان هو يلتزم فى خاصّة نفسه الوصال وأعلى مقامات الطاعات، فلما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقًا بينه و بينهم، وأعلمهم أن حالته فى ذلك غير حالاتهم فقال: " لستُ مثلكم إنّى أَبِيتُ يُطعمنى ربّى و يَسقينى " . فلما كمل الإيمان فى قلوبهم واستحكم فى صدورهم ورسخ، وكثر المسلمون وظهروا على عدوّهم ، واصل أولياء الله وألزموا أنفسهم أعلى المقامات ، والله أعلم .

قلت: ترك الوصال مع ظهور الإسلام وقهر الأعداء أوْلى ، وذلك أرفع الدرجات وأعلى المنازل والمقامات ؛ والدليل على ذلك ما ذكرناه . وأن الليل ليس بزمان صوم شرعى ، حتى لو شرع إنسان فيه الصوم بنيّة ما أثيب عليه ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ما أخبر عن نفسه أنه واصل ، و إنما الصحابة ظنّوا ذلك فقالوا : إنك تواصل؛ فأخبر أنه يُطْعَم ويُسْقَى . وظاهر هذه الحقيقة : أنه صلى الله عليه وسلم يُؤتى بطعام الجنة وشرابها . وقيل : إن ذلك محمول على ما يرد على قلبه من المعانى واللطائف ؛ و إذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يَرِد دليل يزيلها . ثم لما أبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم وهو على عادته كما أخبر عن نفسه ، وهم على عادتهم حتى يضعفوا و يقلّ صبرهم فلا يواصلوا . وهذه حقيقة التنكيل حتى يدعوا تعمّقهم وما أرادوه من التشديد على أنفسهم . وأيضا لو نزلنا على أن المراد بقوله : "أطعَم وأُسقَى" المعنى لكان مفطرًا حُكمًا؛ كما أن من آغتاب فى صومه أو شهد بزور مفطرٌ حُكمًا، ولا فرق بينهما ، قال صلى الله عليه وسلم : "مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به فليس لله حاجة فى أنْ يَدَع طعامَه وشرابَه ". وعلى هذا الحدّ ما واصل النبى صلى الله عليه وسلم ولا أمر به ، فكان تَركُه أولى . و بالله التوفيق .

الرابعة والعشرون — و يستحبّ للصائم إذا أفطر أن يُفطر على رُطَبات أو تمرات أو حَسوات من الماء، لما رواه أبو داود عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

يُفطر على رُطبات قبل أن يصلّى، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن تمرات حَسَا حَسوات من ماء . وأخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال فيـه : إسناد صحيح . وروى الدّارقطني عن ٱبن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال : "لك صُمْنا وعلى رِزْقك أفطرنا فتقبّل منّا إنك أنت السميع العليم" . وعن ٱبن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول إذا أفطر : "ذهب الظمأ وٱبتلّت العـروق وثبت الأجر إن شاء الله" . خرّجه أبو داود أيضا . وقال الدّارقطني : تفرّد به الحسين بن واقد إسـناده حسن . وروى ٱبن ماجه عن عبد الله بن الزبير قال : أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سعد بن معاذ فقال : "أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة" . وروى أيضا عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فطّر صائمـا كان له مثل أجرهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا" . وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُرَدّ" . قال ٱبن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللّهُمّ إنى أسألك برحمتك التى وَسِعتْ كلّ شيء أن تغفر لى . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "للصائم فرْحتان يفرحهما إذا أفطر فَرِح بفطره وإذا لَقِيَ ربّه فَرِح بصومه" .

الخامسة والعشرون — ويستحب له أن يصوم من شوّال سـتة أيام؛ لمـا رواه مسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائيّ وٱبن ماجه عن أبى أيوب الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "مَن صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شـوّال كان له كصيام الدهر" هـذا حديث حسن صحيح من حديث سـعد بن سعيد الأنصارى المدنى، وهو ممن لم يُخرّج له البخارى شيئا، وقد جاء بإسناد جيّد مفسَّرا من حديث أبى أسمـاء الرَّحَبِيّ عن ثَوْبان مولَى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "جعل الله الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان بعشرة أشهر وستة أيام بعد الفطر تمـام السنة" . رواه النسائى . واختلف فى صيام هذه الايام؛ فكرهها مالك فى مُوَطَّئه خوفًا أن يُلحق أهلُ الجهالة برمضان

Marfat.com

ما ليس منه ؛ وقـد وقع ما خافه حتى أنه كان فى بعض بلاد خراسان يقومون لسحورها على عادتهم فى رمضان . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه كان يصومها فى خاصّة نفسه . وآستحب صيامها الشافعى ، وكرهه أبو يوسف .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ بيّن جلّ تعـالى أن الجماع يُفسد الاعتكاف . وأجمع أهل العلم على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامدا لذلك فى فرجها أنه مفسد لاعتكافه ، وآختلفوا فيما عليه إذا فعل ذلك ، فقال الحسن البصرىّ والزهرىّ : عليه ما على المواقع أهله فى رمضان . فأما المباشرة من غير جماع فإن قصد بهـا التلذّذ فهى مكروهة ، و إن لم يقصد لم يُكره ؛ لأن عائشـة كانت تُرَجِّل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف ، وكانت لامحالة تمسّ بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها ، فدلّ بذلك على أن المباشرة بغير شهوة غير محظورة ؛ هـذا قول عطاء والشافعى وآبن المنـذر . قال أبو عمر : وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يُقَبِّـل . وآختلفوا فيما عليه إن فعل ؛ فقال مالك والشافعى : إن فعل شيئا من ذلك فسد آعتكافه ؛ قاله المُزَنِىّ . وقال فى موضع آخر من مسائل الاعتكاف : لا يفسـد الاعتكاف من الوطء إلا ما يوجب الحدّ ، وآختاره المُزَنِىّ قياسا على أصله فى الحج والصوم .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ ﴾ جملة فى موضع الحـال . والاعتكاف فى اللغة : الملازمة ؛ يقال عَكَف على الشىء إذا لازمه مقبلا عليه . قال الراجز :

* عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبون الفَنْزَجا (١) *

وقال الشاعر :

وظلّ بنات الليل حولى عُكّفا * عكوف البـواكى بينهنّ صريع

ولمـا كان المعتكف ملازما للعمل بطاعة الله مدّة آعتكافه لزمه هـذا الاسم . وهو فى عرف الشرع : ملازمةُ طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع

(١) تقدّم صدر هذا البيت وقائله ومعناه فى هامش ص ١١٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

مخصوص . وأجمع العلمـاء على أنه ليس بواجب ، وهو قُرْبَة من القُرَب ونافلة من النوافل عمل بهـا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه وأزواجه ، ويلزمه إن ألزمه نفسه ، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه .

الثامنة والعشرون ــ أجمـع العلماء على أن الآعتكاف لا يكون إلا فى المسجد ؛ لقول الله تعـالى « فِى الْمَسَاجِدِ » . وآختلفوا فى المراد بالمساجد؛ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد، وهو ما بنـاه نبيٌّ كالمسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وسـلم ومسجد إيليـاء(١)، رُوِى هذا عن حُذيفة بن اليَمـان وسعيد بن المسيِّب ، فلا يجوز الآعتكاف عندهم فى غيرها . وقال آخرون : لا آعتكاف إلا فى مسجد تُجمع فيـه الجمعة ؛ لأن الإشارة فى الآية عندهم إلى ذلك الجنس من المساجد؛ رُوى هذا عن علىّ بن أبى طالب وآبن مسعود، وهو قول عُرْوة والحَكَم وحمّاد والزُّهرى وأبى جعفر محمد بن علىّ ، وهو أحد قولى مالك . وقال آخرون : الاعتكاف فى كل مسجد جائز؛ يُروى هذا القول عن سعيد بن جبير وأبى قِلَابة وغيرهم، وهو قول الشافعى وأبى حنيفة وأصحابهما . وحجتهم حمل الآية على عمومها فى كل مسجد له إمام ومؤذّن، وهو أحد قولى مالك ، و به يقول آبن عُلَيَّة وداود بن علىّ والطبرى وآبن المنذر. وروى الدَّارَقُطْنِىّ عن الضحاك عن حُذيفـة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " كلُّ مسجد له مؤذّن و إمام فالآعتكاف فيه يصلح " . قال الدَّارَقُطْنِىّ : والضحاك لم يسمع من حذيفة .

التاسعة والعشرون ــ وأقلّ الآعتكاف عنـد مالك وأبى حنيفة يوم وليلة ، فإن قال : لله علىّ آعتكاف ليلة لزمه آعتكاف ليلة و يوم . وكذلك إن نذر آعتكاف يوم لزمه يوم وليلة . وقال سُحْنون : من نذر آعتكاف ليلة فلا شيء عليه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن نذر يوما فعليه يوم بغير ليلة ، و إن نذر ليلة فلا شيء عليه ؛ كما قال سحنون . قال الشافعى : عليه ما نذر، إن نذر ليلةً فليلةٌ ، و إن نذر يوما فيومًا . قال الشافعى : أقلّه لحظة ولا حدّ لأكثره . وقال بعض

(١) إيلياء (بكسر أوله واللام) : اسم مدينة بيت المقدس .

Marfat.com

أصحاب أبى حنيفة : يصحّ الاعتكاف ساعة . وعلى هذا القول فليس من شرطه صوم؛ ورُوى عن أحمد بن حنبل فى أحد قوليه، وهو قول داود بن علىّ وآبن عُلَيّــة ، وآختاره آبن المنذر وآبن العربى . وآحتجوا بأن آعتكاف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى رمضان، ومحال أن يكون صوم رمضان لرمضان ولغيره . ولو نوى المعتكف فى رمضان بصومه التطوّع والفرض فسد صومه عنــد مالك وأصحابه . ومعلوم أن ليل المعتكف يلزمه فيــه من آجتناب مباشرة النساء ما يلزمه فى نهاره، وأن ليله داخل فى آعتكافه، وأن الليل ليس بموضع صوم، فكذلك نهاره ليس بمفتقر إلى الصوم، وإن صام فحسن . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمــد فى القول الآخر : لا يصح إلا بصوم . وروى عن آبن عمر وآبن عباس وعائشة رضى الله عنهــم . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد ونافع مولى عبد الله بن عمر : لا آعتكاف إلا بصيام؛ لقول الله تعالى فى كتابه : « وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا » إلى قوله : « فِى المَسَاجِدِ » وقالا : فإنمــا ذكر الله الاعتكاف مع الصيام . قال يحيى قال مالك : وعلى ذلك الأمر عندنا . وآحتجوا بمــا رواه عبد الله بن بُدَيْل عن عمرو بن دينار عن آبن عمر أن عمر جعل عليه [أن يعتكف](1) فى الجاهليــة ليلة أو يوما [عند الكعبة](1) فسأل النبىّ صلى الله عليه وســلم فقال : "آعتكف وصُمْ" . أخرجه أبو داود . وقال الدَّارَقُطْنِىّ : تفــرّد به آبن بُدَيل عن عمرو وهــو ضعيف . وعن عائشــة أن النبىّ صلى الله عليه وســلم قال : "لا آعتكاف إلا بصيام" . قال الدَّارَقُطْنِى : تفرّد به سُويد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن عروة عن عائشة . وقالوا : ليس من شرط الصوم عنــدنا أن يكون للاعتكاف، بل يصح أن يكون الصوم له ولرمضان ولنذر ولغيره؛ فإذا نذره الناذر فإنمــا ينصرف نذره إلى مقتضاه فى أصل الشرع، وهذا كمن نذر صلاة فإنها تلزمه، ولم يكن عليه أن يتطهّر لها خاصّةً بل يجزئه أن يؤدّيها بطهارة لغيرها .

الموفية ثلاثين ـــ وليس للمعتكف أن يخرج من معتكَفه إلّا لمــا لابدّ له منه، لمــا روى الأئمة عن عائشــة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آعتكف يُدْنِى إلىّ رأسه

Marfat.com

فأرجّله ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان؛ تريد الغائط والبول . ولا خلاف فى هذا بين الأمة ولا بين الأئمة؛ فإذا خرج المعتكف لضرورة وما لا بدّ له منه ورجع فى فَوْره بعد زوال الضرورة بنى على ما مضى من آعتكافه ولا شىء عليه . ومن الضرورة المرضُ البيّن والحيض. وآختلفوا فى خروجه لما سوى ذلك ؛ فمذهب مالك ما ذكرنا ، وكذلك مذهب الشافعى وأبى حنيفة . وقال سعيد بن جُبير والحسن والنخعىّ : يعود المريضَ ويشهد الجنائز؛ وروى عن علىّ وليس بثابت عنه . وفرّق إسحاق بين الآعتكاف الواجب والتطوّع، فقال فى الآعتكاف الواجب : لا يعود المريضَ ولا يشهد الجنائز، وقال فى التطوّع : يَشترط حين يبتدئ حضورَ الجنائز وعيادة المرضى والجمعة . وقال الشافعى : يصح آشتراط الخروج من معتكفه لعيادة مريض وشهود الجنائز وغير ذلك من حوائجه . وآختلف فيه عن أحمد ، فمنع منه مَرّة، وقال مَرّة : أرجو ألا يكون به بأس . وقال الأوزاعى كما قال مالك : لا يكون فى الآعتكاف شرط . قال آبن المنذر : لا يخرج المعتكف من آعتكافه إلا لما لا بدّ له منه، وهو الذى كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يخرج له .

الحادية والثلاثون — وآختلفوا فى خروجه للجمعة؛ فقالت طائفة : يخرج للجمعة ويرجع إذا سلّم؛ لأنه خرج إلى فرض ولا ينتقض آعتكافه . ورواه آبن الجهم عن مالك، وبه قال أبو حنيفة، وآختاره آبن العربى وآبن المنذر . ومشهور مذهب مالك أن من أراد أن يعتكف عشرة أيام أو نذر ذلك لم يعتكف إلا فى المسجد الجامع، وإذا آعتكف فى غيره لزمه الخروج إلى الجمعة وبطل آعتكافه . وقال عبد الملك : يخرج إلى الجمعة فيشهدها ويرجع مكانه ويصح آعتكافه .

قلت : وهو صحيح لقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ » فعمّ . وأجمع العلماء على أن الآعتكاف ليس بواجب وأنه سُنّة، وأجمع الجمهور من الأئمة على أن الجمعة فرض على الأعيان، ومتى آجتمع واجبان أحدهما آكد من الآخر قُدّم الآكد ؛ فكيف إذا آجتمع مندوب وواجب، ولم يقل أحد بترك الخروج إليها، فكان الخروج إليها فى معنى حاجة الإنسان.

Marfat.com

الثانية والثلاثون — المعتكف إذا أتى كبيرة فسد آعتكافه؛ لأن الكبيرة ضــد العبادة؛ كما أن الحَدَث ضد الطهارة والصلاة، وتَرْكُ ما حرّم الله تعالى عليــه أعلى منازل الآعتكاف فى العبادة . قاله آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد عن مالك .

الثالثة والثلاثون — روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلّى الفجر ثم دخل معتكفه...؛ الحديث . وآختلف العلماء فى وقت دخول المعتكف فى آعتكافه؛ فقال الأوزاعى بظاهر هــذا الحديث ، و رُوِى عن الثورى والليث ابن سعد فى أحد قوليه، و به قال آبن المنذر وطائفة من التابعين . وقال أبو ثور : إنما يفعل هــذا من نذر عشرة أيام ، فإن زاد عليها فقبل غروب الشمس . وقال مالك والشافعى وأبو حنيفــة وأصحابهم : إذا أوجب على نفسه آعتكاف شهر، دخل المسجد قبــل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم . قال مالك : وكذلك كل من أراد أن يعتكف يومًا أو أكثر . و به قال أبو حنيفة وآبن الماجشون عبد الملك؛ لأن أوّل ليلة أيام الآعتكاف داخلة فيها، وأنه زمن للآعتكاف فلم يتبعّض كاليوم . وقال الشافعى : إذا قال لله علىّ يوم دخل قبــل طلوع الفجر وخرج بعد غروب الشمس؛ خلاف قوله فى الشهر . وقال الليث فى أحد قوليه وزُفَر: يدخل قبل طلوع الفجر؛ والشهر واليوم عندهم سواء . وروى مثل ذلك عن أبى يوسف، و به قال القاضى عبد الوهاب، وأن الليلة إنما تدخل فى الآعتكاف على سبيل التَّبع؛ بدليل أن الآعتكاف لا يكون إلا بصوم وليس الليل بزمن للصوم . فثبت أن المقصود بالآعتكاف هو النهار دون الليل .

قلت : وحديث عائشة يردّ هــذه الأقوال وهو الحجة عنــد التنازع ، وهو حديث ثابت لا خلاف فى صحته .

الرابعة والثلاثون — آستحب مالك لمن آعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليــلة الفطر فى المسجد حتى يغدو منه إلى المُصلّى، و به قال أحمد . وقال الشافعى والأوزاعى : يخرج إذا غابت الشمس؛ ورواه سُحْنون عن آبن القاسم؛ لأن العشر يزول بزوال الشهر، والشهر ينقضى

Marfat.com

بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . وقال سُحْنون : إن ذلك على الوجوب؛ فإن خرج ليلة الفطر بطل اعتكافه . وقال ابن الماجشون : وهذا يرده ما ذكرنا من انقضاء الشهر ، ولو كان المقام ليلة الفطر من شرط صحة الاعتكاف لما صح اعتكافٌ لا يتصل بليلة الفطر؛ وفي الإجماع على جواز ذلك دليل على أن مقام ليلة الفطر للمعتكف ليس شرطًا في صحة الاعتكاف . فهذه جمل كافية من أحكام الصيام والاعتكاف اللائقة بالآيات ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفّق للهداية .

الخامسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها؛ فـ « تلك » إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي . والحدود : الحواجز . والحدّ : المنع ؛ ومنه سُمِّيَ الحديد حديدا؛ لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن . وسُمِّيَ البوّاب والسجّان حدّادا؛ لأنه يمنع مَن في الدار من الخروج منها ، ويمنع الخارجَ من الدخول فيها . وسُمِّيت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج منها ما هو منها؛ ومنها سُمِّيت الحدود في المعاصي ؛ لأنها تمنع أصحابها من العَوْد إلى أمثالها . ومنه سُمِّيت الحادّ في العِدّة ؛ لأنها تمتنع من الزينة .

السادسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بيّن هذه الحدود يُبيّن جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها . والآيات : العلامات الهادية إلى الحق . و ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ تَرَجٍّ في حقهم ؛ فظاهر ذلك عموم ومعناه خصوص فيمن يسّره الله للهدى ؛ بدلالة الآيات التي تتضمّن أن الله يُضلّ من يشاء .

قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ قيل : إنه نزل في عبدان ابن أَشْوَع الحضرمي ، ادّعى مالًا على امرئ القيس الكندي واختصما إلى النبيّ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم؛ فأنكر آمرؤ القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية؛ فكفّ عن اليمين وحكّم عبدان فى أرضه ولم يخاصمه .

الثانيـــة — الخطاب بهذه الآية يتضمّن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق . فيدخل فى هــذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، ومالا تطيب به نفس مالكه، أو حرّمته الشريعة و إن طابت به نفس مالكه؛ كمهر البغيّ وحُلْوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك . ولا يدخل فيه الغَبْن فى البيع مع معرفة البائع بحقيقة ماباع لأن الغبن كأنه هبة، على ما يأتى بيـانه فى سورة « النساء »[(١)] . وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهىّ لمـا كان كل واحد منهما منهيًّا ومنهيًّا عنــه ؛ كما قال : « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ »[(٢)] . وقال قوم : المراد بالآية « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »[(٣)] أى فى الملاهى والقِيان والشرب والبطالة؛ فيجىء على هذا إضافة المـال إلى ضمير المـالكين .

الثالثـــة — من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل؛ فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضى؛ لأنه إنمـا يقضى بالظاهر . وهذا إجماع فى الأموال، و إن كان عند أبى حنيفة قضاؤه ينفذ فى الفروج باطنًا، و إذا كان قضاء القاضى لا يغيّر حكم الباطن فى الأموال فهو فى الفروج أولى . وروى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ ولعلّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض فأقضى له على نحوٍ مما أسمع فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار — فى رواية — فليَحْمِلها أو يَذَرْها " . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . وهو نصٌّ فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يُغيّر حكم الباطن ، وســواء كان ذلك فى الأموال والدّماء والفروج ؛ إلا ما حُكى عن أبى حنيفة فى الفروج ، وزعم أنه لو شهد شاهدَا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فإن فرجها يحلّ لمتزوّجها — ممن يعلم أن القضية باطل — بعد العدّة . وكذلك لو تزوّجها أحد الشاهدين جاز عنده ؛ لأنه لمـا حلّت للأزواج فى الظاهر كان الشاهد وغيره

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٢ (٢) راجع ص ١٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٠

Marfat.com

سـواء؛ لأن قضاء القاضى قطع عصمتها، وأحدث فى ذلك التحليـل والتحريم فى الظاهر والباطن جميعا، ولولا ذلك ما حلّت للأزواج. وآحتجّ بحكم اللّعان وقال: معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللّعان الكاذب، الذى لو علم الحاكم كذبها فيه لحدّها وما فرّق بينهما؛ فلم يدخل هذا فى عموم قوله عليه السلام: "فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه" الحـديث.

الرابعـة — وهذه الآية متمسّك كل مؤالف ومخالف فى كل حكم يدعونه لأنفسهم بأنه لا يجوز؛ فيسـتدلّ عليه بقوله تعـالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ». فجوابه أن يقال له: لا نسلّم أنه باطل حتى تبيّنه بالدليل، وحينئذ يدخل فى هـذا العموم؛ فهى دليل على أن الباطل فى المعاملات لا يجوز، وليس فيها تعيين الباطل.

الخامســة — قوله تعالى: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى اللغة: الذاهب الزائل؛ يقال: بَطَل يَبْطُل بُطولا وبُطْلانا، وجمع الباطل بواطل. والأباطيـل جمع البطولة. وتبطّل أى آتبع اللهو. وأبطل فلان إذا جاء بالباطل. وقوله تعالى: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ»(١) قال قتادة: هو إبليس، لا يزيد فى القرآن ولا ينقص. وقوله: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَـاطِلَ»(٢) يعنى الشرك. والبطلة: السَّحَرة.

السادسـة — قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ الآية. قيل: يعنى الوديعة وما لا تقوم فيه بيّنة؛ عن آبن عباس والحسن. وقيـل: هو مال اليتيم الذى فى أيدى الأوصياء، يرفعه إلى الحكام إذا طولب به ليقتطع بعضه وتقوم له فى الظاهر حجة. وقال الزجاج: تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق. يقال: أدلى الرجل بحجّته أو بالأمر الذى يرجو النجاح به؛ تشبيها بالذى يرسل الدّلو فى البئر؛ يقال: أدلى دَلْوه: أرسلها. ودلّاها: أخرجها. وجمع الدّلو والدّلاء: أَدْلٍ ودِلاءٌ ودُلِىّ. والمعنى فى الآية: لا تجمعـوا بين أكل المـال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة؛ وهو كقوله: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ»(٣). وهو من قبيل قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقيل:

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥ (٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٠

Marfat.com

المعنى لا تصانعوا بأموالكم الحكامَ وتَرْشوهم ليقضوا لكم على أكثر منهـا؛ فالباء إلزاق مجرد . قال ٱبن عطية : وهذا القول يترجّح؛لأن الحكامَ مظِنّة الرّشاء إلا من عصم وهو الأقل. وأيضا فإن اللفظين متناسبان : تدلوا من إرسال الدّلو ، والرشوة من الرّشاء ؛ كأنه يمدّ بهـا ليقضى الحـاجة .

قلت : ويقوّى هـذا قوله : « وَتُدْلُوا بِهَا » تدلوا فى موضـع جزم عطفًا على تأكلوا كما ذكرنا . وفى مصحف أُبَىّ «ولاتدلوا» بتكرار حرف النهى،وهذه القراءة تؤيّد جزم «تُدْلُوا» فى قراءة الجماعة . وقيل : «تدلوا» فى موضع نصب على الظرف، والذى ينصب فى مثل هذا عند سيبويه « أنْ » مضمرة . والهاء فى قوله « بها » ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأوّل إلى الحجـة ولم يجر لهـا ذكر؛ فقوى القول الثـانى لذكر الأموال، والله أعلم . فى الصحاح : « والرَّشـوة معروفة، والرُّشوة بالضم مثله ، والجمع رُشًى ورِشًى، وقد رشاه يرشوه . وٱرتشى: أخذ الرّشوة . وٱسترشى فى حكمه : طلب الرشوة عليه » .

قلت — فالحكام اليوم عين الرّشا لا مَظِنّته، وَلا حول ولا قوة إلا بالله ! .

السابعـــة — قوله تعالى: ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ نصب بلام كى . ﴿ فَرِيقًا ﴾ أى قطعة وجزءا ، فعبّر عن الفريق بالقطعة والبعض . والفريق : القطعة من الغنم تشِذّ عن معظمها . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ، التقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس . ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ معناه بالظلم والتعدّى ؛ وسمى ذلك إثمًـا لمـا كان الإثم يتعلق بفاعله . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى بطلان ذلك و إثمه، وهذه مبالغة فى الجرأة والمعصية .

الثامنـــة — اتفق أهل السُّنة على أن من أخذ ما وقع عليه ٱسم مالٍ قلّ أو كَثُر أنه يُفَسّق بذلك، وأنه محرّم عليـه أخذه . خلافًا لبشر بن المعتمر ومن تابعه من المعتزلة حيث قالوا : إن المكلّف لا يُفسّق إلا بأخذ مائتى درهم ولا يُفَسّق بدون ذلك. وخلافًا لٱبن الجُبّائى حيث قال : إنه يفسّق بأخذ عشرة دراهم ولا يفسّق بدونهـا . وخلافًا لٱبن الهذيل حيث قال : يفسّق بأخذ خمسة دراهم . وخلافًا لبعض قدرية البصرة حيث قال : يفسّق بأخذ درهم فـا

Marfat.com

فوق، ولا يفسّق بهــا دون ذلك . وهذا كله مردود بالقرآن والسنّة و باتفاق علمــاء الأمة، قال صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " الحديث ، متّفق على صحته .

قوله تعــالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

فيه آثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ هذا مما سأل عنه اليهود وآعترضوا به على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال معاذ : يا رسول الله، إن اليهود تغشانا و يكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فمــا بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يستوى و يستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن سبب نزولها سؤالُ قوم من المسلمين النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن الهلال وما سبب مِحاقه(١) وكماله ومخالفته لحال الشمس ؛ قاله آبن عباس وقتادة والرّبيع وغيرهم .

الثانيـــة — قوله تعــالى : ﴿ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ الأهلة جمع الهلال ، وجُمـع وهو واحد فى الحقيقة من حيث كونه هلالًا واحدًا فى شهرٍ، غيرَ كونه هلالًا فى آخر؛ فإنما جمع أحواله من الأهلة . و يريد بالأهلة شهورها، وقد يعبّر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه؛ كما قال :

أَخوانِ من نَجْد على ثقة * والشهرُ مثل قُلامة الظُّفر

وقيــل : سُمّى شهرًا لأن الأيدى تشهر بالإشارة إلى موضـع الرؤية و يدلّون عليــه . و يطلق لفظ الهلال لليلتين من آخر الشهر، وليلتين من أوله . وقيل : لثلاث من أوله . وقال الأصمعىّ : هو هلال حتى يحجّر و يسـتدير له كالخيط الرقيق . وقيــل : بل هو هلال حتى يَبْهَر بضوئه

(١) المحاق (بتثليث الميم) : أن يستترَ القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية .

Marfat.com

السماء، وذلك ليلة سبع . قال أبو العباس : وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه . ومنه آستهلّ الصبيّ إذا ظهرت حياته بصراخه . وآستهلّ وجهه فرحًا وتهلّل إذا ظهر فيه السرور . قال أبو كَبِير :

وإذا نظرت إلى أسِرّة وجهه * برقت كبرق العـارض المتهلِّل

ويقال : أهللنا الهلال إذا دخلنا فيه . قال الجوهرى : « وأُهِلّ الهـلال وآستُهِل على ما لم يُسَم فاعله . ويقال أيضا : استهلّ بمعنى تبيّن، ولا يقال : أهَلّ . ويقال : أهللنا عن ليـلة كذا، ولا يقال : أهللناه فهـلّ، كما يقال : أدخلناه فدخل ؛ وهو قياسـه » : قال أبو نصر عبد الرحيم القُشيرى فى تفسيره : ويقال : أهل الهلال وآستهلّ وأهللنا الهلال وآستهللنا .

الثالثـة — قال علماؤنا : من حلف ليقضِيَنّ غريمه أو ليفعلنّ كذا فى الهلال أو رأس الهلال أو عند الهلال، ففعل ذلك بعد رؤية الهلال بيوم أو يومين لم يحنَث . وجميع الشهور تصلح لجميع العبادات والمعاملات على ما يأتى .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ تبيين لوجه الحكمة فى زيادة القمر ونقصانه ، وهو زوال الإشكال فى الآجال والمعاملات والأيمان والحج والعدد والصوم والفطر ومدّة الحمل والإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد . ونظيره قوله الحق : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » على ما يأتى (١) . وقوله : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (٢) » . وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام .

الرابعـة — وبهذا الذى قررناه يردّ على أهـل الظاهر ومن قال بقولهم : إن المساقاة تجوز إلى الأجل المجهول سنين غير معلومة، وآحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل اليهود على شطر الزرع والنخل ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسـلم من غير توقيت . وهذا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٩

Marfat.com

لا دليل فيه، لأنه عليه السلام قال لليهود : " أقركم [فيها](١) ما أقركم الله". وهذا أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن ذلك خصوص له ؛ فكان ينتظر فى ذلك القضاء من ربّه ، وليس كذلك غيره . وقد أحكمت الشريعة معانى الإجارات وسائر المعاملات ؛ فلا يجوز شيء منها إلا على ما أحكمه الكتاب والسُّنّة ، وقال به علماء الأمة .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ مَوَاقِيتُ ﴾ المواقيت : جمـع الميقات وهو الوقت . وقيل : الميقات منتهى الوقت . و « مواقيت » لا تنصرف ، لأنه جمع لا نظير له فى الآحاد ، فهو جمع ونهايةُ جمع ، إذ ليس يجمع فصار كأن الجمع تكرر فيها . وصُرفت « قوارير » فى قوله : « قواريرًا »(٢) لأنهـا وقعت فى رأس آية فنُوِّنت كما تنوّن القـوافى ؛ فليس هو تنوين الصرف الذى يدل على تمكّن الاسم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿وَالْحَجِّ﴾ بفتح الحاء قراءة الجمهور . وقرأ ابن أبى إسحاق بالكسر فى جميع القـرآن ، وفى قوله : « حِجُّ الْبَيْتِ »(٣) فى « آل عمران » . سيبويه : الحَجّ كالرّد والشدّ ، والحِجّ كالذِّكر ؛ فهما مصدران بمعنًى . وقيل : الفتح مصدر ، والكسر الاسم .

السابعـــة — أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، وأنه لا يجوز النَّسِيء فيه عن وقته ، بخلاف ما رأته العرب ؛ فإنها كانت تحج بالعدد وتبدّل الشهور ، فأبطل الله قولهم وفعلهم ، على ما يأتى بيانه فى « براءة »(٤) إن شاء الله تعالى .

الثامنـــة — استدل مالك رحمه الله وأبو حنيفة وأصحابهما فى أن الإحرام بالحج يصح فى غير أشهر الحج بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى جعل الأهلّة كلها ظرفًا لذلك ، فصح أن يُحرِم فى جميعها بالحج ؛ وخالف فى ذلك الشافعى ؛ لقوله تعالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » على ما يأتى . وأن معنى هذه الآية أن بعضها مواقيت للناس ، و بعضها مواقيت للحج ؛ وهـذا كما تقول : الجارية لزيد وعمرو ؛ وذلك يقضى أن يكون بعضها لزيد و بعضها لعمرو ؛ ولا يجوز أن يقال : جميعها لزيد و جميعها لعمرو . والجواب أن يقال : إن ظاهر قـوله « هِى مواقيت لِلناس

(١) الزيادة عن الموطأ .		(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٣٨ .		(٣) راجع جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ١٣٦ .

Marfat.com

والحج» يقتضى كون جميعها مواقيت للناس وجميعها مواقيت للحج، ولو أراد التبعيض لقال: بعضها مواقيت للنـاس و بعضها مواقيت للحج . وهـذا كما تقول : إن شهر رمضان ميقات لصوم زيد وعمرو . ولا خلاف أن المراد بذلك أن جميعه ميقات لصوم كل واحد منهما . وما ذكروه من الجارية فصحيح ؛ لأن كونها جمعـاء لزيد مع كونها جمعاء لعمرو مستحيل ، وليس كذلك فى مسئلتنا ؛ فإن الزمان يصح أن يكون ميقاتاً لزيد وميقاتاً لعمرو؛ فبطل ما قالوه.

التاســـعة — لا خلاف بين العلماء أن من باع معلومًا من السِّلَع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العـدد أن البيع جائز . وكذلك قالوا فى السَّلَم إلى الأجل المعلوم . وآختلفوا فى من باع إلى الحصاد أو إلى الدِّياس أو إلى العطاء وشبه ذلك؛ فقال مالك : ذلك جائز لأنه معروف؛ وبه قال أبو ثور . وقال أحمد : أرجو ألا يكون به بأس . وكذلك إلى قدوم الغزاة . وعن آبن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء . وقالت طائفة : ذلك غير جائز؛ لأن الله تعالى وقَّت المواقيت وجعلها عَلَمًا لآجالهم فى بياعاتهم ومصالحهم . كذلك قال آبن عباس، وبه قال الشافعي والنعمان . قال آبن المنذر : قول آبن عباس صحيح .

العاشـــرة — إذا رُؤى الهلال كبيرا فقـال علماؤنا : لا يُعوَّل على كبره ولا على صغره وإنمـا هو آبن ليلته . روى مسلم عن أبى البَخْتَرِىّ قال : خرجنا للعُمْرة فلما نزلنا ببطن نَخْلة قال : تراءينا الهلال؛ فقال بعض القوم : هو آبن ثلاث، وقال بعض القوم : هو آبن ليلتين . قال : فلقينا آبنَ عباس فقلنا : إنا رأينا الهلال فقال بعض القوم هو آبن ثلاث، وقال بعض القـوم هو آبن ليلتين . فقال : أىّ ليلة رأيتموه؟ قال فقلنا : ليـلةَ كذا وكذا . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله مدّه للرؤية " فهو لِلَيْلةٍ رأيتموه .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ اتصـل هـذا بذكر مواقيت الحج لآتفاق وقوع القضيتين فى وقت السؤال عن الأهـلّة وعن دخول البيوت من ظهورها ؛ فنزلت الآية فيهما جميعًا . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعًا ألا يحول بينهم و بين

Marfat.com

السماء حائل، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك ، أى من بعد إحرامه من بيته ، فرجع لحاجة لا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ؛ فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته . فكانوا يرون هذا من النسك والبرّ، كما كانوا يعتقدون أشياء نسكاً ؛ فردّ عليهم فيها، وبيّن الربّ تعالى أن البرّ فى آمتثال أمره . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح : كان الناس فى الجاهلية وفى أوّل الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المَدَر — يعنى من أهل البيوت — نقب فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سُلّماً فيصعد منه وينحدر عليه . وإن كان من أهل الوَبَر — يعنى أهل الخيام — يدخل من خلف الخيام الخيمةَ ، إلا من كان من الحُمْس . وروى الزهرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أهلّ زمن الحُدَيْبِيَة بالعُمْرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارىّ من بنى سلمة، فدخل وخرق عادة قومه ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لِمَ دخلت وأنت قد أحرمت" . فقال : دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إنى أَحْمَس" أى من قوم لا يدينون بذلك . فقال له الرجل : وأنا دينى دينك؛ فنزلت الآية، وقاله آبن عباس وعطاء وقتادة . وقيل : إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى .

والحُمْس : قريش وكِنَانة وخُزاعة وثَقِيف وجشم (١) وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر آبن معاوية . وسُمُّوا حُمْسًا لتشديدهم فى دينهم . والحماسة الشدّة . قال العجاج :

* وكم قَطعنا من قِفافٍ (٢) حُمْسِ *

أى شداد . ثم آختلفوا فى تأويلها ؛ فقيل ما ذكرنا ، وهو الصحيح . وقيل : إنه النَّسِىء وتأخير الحج به ، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج إليه، والشهرَ الحرامَ حلالًا بتأخير الحج عنه؛ فيكون ذكر البيوت على هذا مثلًا لمخالفة الواجب فى الحج وشهوره .

(١) كذا فى جـ . وفى سائر الأصول والفخر الرازى : « خيثم » . وفى البحر لأبى حيان : « خثعم » .
(٢) فى نسخ الأصل : «قفار» بالراء، والتصويب عن اللسان . والقفاف : الأماكن الغلاظ الصلبة .

Marfat.com

وسيأتى بيان النّسىء فى سورة « براءة »(١) إن شاء الله تعـالى . وقال أبو عبيدة : الآية ضَرْب مَثَل ، المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن آتقوا الله واسألوا العلماء؛ فهـذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وحكى المهدوىّ ومكىّ عن آبن الأنبارى، والمـاوردىّ عن آبن زيد أن الآية مَثَل فى جماع النساء ، أمر بإتيانهن فى القُبُل لا من الدُّبُر . وسُمّى النساء بيوتاً للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت . قال آبن عطية : وهـذا بعيد مغيّر نَمَط الكلام . وقال الحسن : كانوا يتطيّرون ، فمن سافر ولم تحصل حاجته كان يأتى بيتــه من وراء ظهره تطيُّراً من الخيبة؛ فقيل لهم : ليس فى التَّطير بِرٌّ، بل البِرّ أن تتّقوا الله وتتوكّلوا عليه .

قلت : القول الأوّل أصح هذه الأقوال ، لمـا رواه البَرَاء قال : كان الأنصار إذا حَجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ؛ قال : فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له فى ذلك، فنزلت هذه الآية : « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » وهذا نصٌّ فى البيوت حقيقة . خرّجه البخارىّ ومسلم . وأما تلك الأقوال فتؤخذ من موضع آخر لا من الآية ، فتأمّله . وقد قيل : إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البِرّ من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيـان البيوت من أبوابها مثلاً ليشير به إلى أن نأتى الأمور من مأتاها الذى ندبنا الله تعالى إليه .

قلت : فعلى هـذا يصح ما ذُكر من الأقوال . والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم البـاء وكسرها . وتقدّم معنى التقوى والفلاح ولعل، فلا معنى للإعادة(٢) .

الثانيــة عشرة — فى هـذه الآية بيان أن ما لم يَشْرعه الله قُرْبة ولا نَدَب إليــه لا يصير قربة بأن يتقرّب به متقرّب . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : إذا أشكل ما هو بِرّ وقُرْبَةٌ بمـا ليس هو بِرّ وقُرْبة أن ينظر فى ذلك العمل؛ فإن كان له نظير فى الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن فليس ببِرّ ولا قُرْبة . قال : وبذلك جاءت الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وذكر حديث آبن عباس قال : بينما رســول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم

(١) راجع جـ ٨ ص ١٣٦ (٢) راجع جـ ١ ص ١٦١، ١٨٢، ٢٢٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

فى الشمس فسأل عنه، فقالوا: هو أبو إسرائيل[(١)]؛ نذر أن يقومَ ولا يقعدَ ولا يستظلّ ولا يتكلّمَ ويصوم. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مُرُوه فليتكلّمْ وليستظلّ وليقعدْ وليُتمّ صومَه". فأبطل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان غير قُرْبة مما لا أصل له فى شريعته، وصحّح ما كان قُرْبة مما له نظير فى الفرائض والسُّنَن.

قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـــ قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ هذه الآية أوّل آية نزلت فى الأمر بالقتال؛ ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[(٢)] وقوله: « فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ »[(٣)] وقوله: « وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »[(٤)] وقوله: « لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[(٥)] وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أُمر بالقتال فنزل: « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » قاله الربيع بن أنس وغيره. وروى عن أبى بكر الصدّيق أن أوّل آية نزلت فى القتال: « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا »[(٦)]. والأوّل أكثر، وأن آية الإذن إنما نزلت فى القتال عامّةً لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعُمْرة، فلما نزل الحُدَيْبِيَة بقُرب مكة ـــ والحُدَيْبِيَة آسم بئر، فسُمّى ذلك الموضع بآسم تلك البئر ـــ فصدّه المشركون عن البيت، وأقام بالحُدَيْبِيَة شهرا، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء؛ على أن تُخْلَى له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة. فلما كان من قابل تجهّز لعُمْرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحَرَم وفى الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية؛ أى يحلّ لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت

---

(١) أبو إسرائيل هذا: رجل من الأنصار من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، اختلف فى اسمه. راجع الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة فى «باب الكنى». (٢) راجع ج ١٢ ص ١٤٧ (٣) راجع ج ٦ ص ١١٦ (٤) راجع ج ١٩ ص ٤٤ (٥) راجع ج ٢٠ ص ٣٧ (٦) راجع ج ١٢ ص ٦٧

Marfat.com

من ظهورها، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله ويكُفّ عمن كَفّ عنه، حتى نزل «فَٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ»(١) فنسخت هذه الآية؛ قاله جماعة من العلماء. وقال آبن زيد والربيع : نسخها «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»(١) فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال آبن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هى مُحكَمة؛ أى قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرُّهبان وشبههم؛ على ما يأتى بيانه. قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح القولين فى السُّنة والنَّظر؛ فأما السُّنة فحديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى بعض مغازيه آمرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان؛ رواه الأئمة. وأما النَّظر فإن «فاعَل» لا يكون فى الغالب إلا من آثنين، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة؛ والقتال لا يكون فى النساء ولا فى الصبيان ومن أشبههم، كالرُّهبان والزَّمْنَى والشيوخ والأجراء فلا يُقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذاية؛ أخرجه مالك وغيره، وللعلماء فيهم صُوَر ستّ :

الأولى — النساء إن قاتلن قُتِلن؛ قال سُحْنون : فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله : «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»، «وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ». وللمرأة آثار عظيمة فى القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات، معيِّرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن؛ غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن، وتعذّر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

الثانية — الصبيان فلا يُقتلون للنّهى الثابت عن قتل الذرّية، ولأنه لا تكليف عليهم؛ فإن قاتل [الصبىّ] قُتل.

الثالثة — الرُّهبان لا يُقتلون ولا يُسترقّون، بل يُترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا آنفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد(٢) : «وستجد أقوامًا زعموا أنهم حبّسوا

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٢ وص ١٣٢

(٢) هو يزيد بن أبى سفيان بن حرب، أسلم يوم فتح مكة، وعقد له أبو بكر رضى الله عنه سنة ١٣ هـ مع أمراء الجيوش إلى الشام، وكان أول الأمراء الذين خرجوا إليها، وشيّعه أبو بكر راجلا، وقال له : «... وإنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نحلا ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن». راجع موطأ مالك باب الجهاد، وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري.

Marfat.com

أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهــم حَبَسُوا أنفسهم له » فإن كانوا مع الكفار فى الكنائس قُتلوا . ولو ترهّبت المرأة فروَى أشهب أنها لاتُهاج[(١)] . وقال سُحْنون : لايغيّر الترهُّب حكمها. قال القــاضى أبو بكربن العــربى : « والصحيح عنــدى رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : فذرهم وما حَبَسُوا أنفسهم له » .

الرابعـــة ــ الزَّمْنَى . قال سُحْنون : يُقتلون . وقال آبن حبيب : لايُقتلون . والصحيح أن تُعتبر أحوالهم[(٢)] ؛ فإن كانت فيهم إذاية قُتلوا ، و إلا تُركوا وما هم بسبيله من الزَّمانة وصاروا مالا على حالهم وحشوة .

الخامســـة ــ الشيوخ . قال مالك فى كتاب محمد : لا يُقتلون . والذى عليــه جمهور الفقهاء : إن كان شيخًا كبيرًا هرِمًا لا يُطيق القتال ، ولا يُنتفع به فى رأيٍ ولا مدافعــة فإنه لا يُقتل ؛ وبه قال مالك وأبو حنيفة . وللشافعى قولان : أحدهما ــ مثــل قول الجماعة . والثــانى ــ يُقتل هــو والراهب . والصحيح الأوّل لقــول أبى بكر ليزيد ؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع . وأيضًا فإنه ممن لا يُقاتِل ولا يعين العدوّ فلا يجوز قتــله كالمرأة ، وأمّا إن كان ممن تخشى مضرّته بالحرب أو الرأى أو المــال فهذا إذا أُسِر يكون الإمام فيه مخيَّرا بين خمسة أشياء : القتل أو المنّ أو الفداء أو الآسترقاق أو عَقْد الذمة على أداء الجزية .

السادســـة ــ العُسَفاء، وهم الأُجراء والفلّاحون ؛ فقال مالك فى كتاب محمد : لا يُقتلون . وقال الشافعى : يُقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يُسلموا أو يؤدّوا الجزْية . والأوّل أصحّ، لقوله عليه السلام فى حديث رَباح[(٣)] بن الربيع " الحقْ بخالد بن الوليد فلا يقتلنّ ذرّية ولا عَسيفًا" . وقال عمر بن الخطاب: آتقوا الله فى الذرّية والفلّاحين الذين لايَنْصُبون لكم الحرب . وكان عمر بن عبد العزيز لا يَقتل حرّاثًا ؛ ذكره آبن المنذر .

---

(١) لا تهاج : أى لا تزعج ولا تنفر .		(٢) هكذا فى الأصول .

(٣) رباح ، بباء موحدة ، وقيل : بالياء المثناة من تحت . راجع تهذيب التهذيب فى حرف الراء .

Marfat.com

الثانيـــة — روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » أهلُ الحُدَيْبِيَة[1] أُمروا بقتال من قاتلهم . والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين؛ أمر كلّ أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه . ألا تراه كيف بيّنها فى سورة « براءة » بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ[2] » وذلك أنّ المقصود أوّلاً كان أهل مكة فتعيّنت البداءة بهم ؛ فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلى ممن كان يؤذى حتى تعمّ الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة ، وذلك باقٍ متمادٍ إلى يوم القيامة ، ممتدٌّ إلى غاية هى قوله عليه السلام: "الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجْرُ والمغنم". وقيل: غايته نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، وهو موافق للحديث الذى قبله ؛ لأن نزوله من أشراط الساعة.

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ قيـــل فى تأويله ما قدّمناه ، فهى محْكَمة . فأما المرتدّون فليس إلا القتل أو التـــوبة ، وكذلك أهل الزّيغ والضـــلال ليس إلا السيف أو التـــوبة . ومن أسرّ الاعتقـــاد بالباطل[3] ثم ظهر عليـــه فهو كالزّنديق يُقتل ولا يُستتاب . وأما الخوارج على أئمة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق . وقال قوم : المعنى لا تعتدوا فى القتال لغـــير وجه الله ، كالحميّة وكسب الذّكر ، بل قاتلوا فى سـبيل الله الذين يقاتلونكم ؛ يعنى دِيناً وإظهاراً للكلمة . وقيل : «لا تعتدوا» أى لا تقاتلوا من لم يقاتل . فعلى هذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار ، والله أعلم .

قوله تعـــالى : وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيـــهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَـــوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

---

(١) فى ا ، ب ، ز : « أهل المدينة » .　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٧

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... بالباطن ... » بالنون .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ يقال : ثَقِف يَثْقُف ثَقْفًا وثَقَفًا، ورجل ثَقْفٌ لَقْفٌ : إذا كان مُحْكِمًا لمـا يتناوله من الأمور. وفى هذا دليل على قتل الأسير، وسيأتى بيان هذا فى « الأنفال » (١) إن شاء الله تعـالى . ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أى مكة . قال الطبرى : الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أى الفتنة التى حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشـدّ من القتل . قال مجاهـد : أى من أن يقتل المؤمن ؛ فالقتل أخفّ عليـه من الفتنة . وقال غيره : أى شركهم بالله وكفرهم به أعظم جُرْمًا وأشدّ من القتل الذى عيّروكم به . وهذا دليل على أن الآية نزلت فى شأن عمرو بن الحَضْرمِيّ حين قتله واقد بن عبـد الله التميمى فى آخر يوم من رجب الشهر الحـرام ، حسب ما هو مذكور فى سَرِيّة عبد الله بن جَحْش، على ما يأتى بيانه (٢) ؛ قاله الطبرى وغيره .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيـهِ ﴾ الآية . للعلماء فى هذه الآية قولان : أحدهما — أنها منسوخة ، والثـانى — أنها مُحْكَمة . قال مجاهد: الآية مُحْكَمَة، ولا يجوز قتال أحد فى المسجد الحرام إلا بعد أن يُقَاتِل؛ وبه قال طاوس، وهو الذى يقتضيه نصّ الآية، وهو الصحيح من القولين، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. وفى الصحيح عن ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يَحِـلّ القتالُ فيه لأحد قبلى ولم يَحِـلّ لى إلا ساعةً من نهار فهو حرام بحُـرْمة الله إلى يوم القيامة". وقال قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَإِذَا ٱنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (٣) . وقال مُقاتل : نسخها قوله تعالى: « وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » ثم نسخ هـذا قولُه : « ٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . فيجوز الابتداء بالقتال فى الحرَم .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٩ (٣) راجع جـ ٨ ص ٧٢

Marfat.com

ومما احتجّوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» بسنتين، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه المِغْفَر[1]؛ فقيل: إن ابن خَطَل متعلّق بأستار الكعبة؛ فقال: "اقتلوه".

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» منسوخة؛ لأن الإجماع قد تقرّر بأن عدوًّا لو استولى على مكة وقال: لأقاتلكم، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال؛ فمكة وغيرها من البلاد سواء. وإنما قيل فيها: هى حرام تعظيمًا لها؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال: "احصدهم بالسيف حتى تلقانى على الصَّفَا" حتى جاء العباس فقال: يا رسول الله، ذهبت قريش، فلا قريش بعد اليوم. ألا ترى أنه قال فى تعظيمها: "وَلَا يَلْتَقِط لُقَطَتَها إلّا مُنْشِد" واللُّقَطة بها وبغيرها سواء. ويجوز أن تكون منسوخة بقوله: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ».

قال ابن العربى: «حضرتُ فى بيت المقدس — طهّره الله — بمدرسة أبى عُقْبة الحنفى، والقاضى الزَّنجانى يلقى علينا الدرس فى يوم جمعة، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بَهِىّ المَنْظَر على ظهره أطمار، فسلّم سلام العلماء وتصدّر فى صدر المجلس بمدارع الرِّعاء[2]؛ فقال القاضى الزّنجانى: مَن السيد؟ فقال: رجل سلبه الشُّطّار[3] أمس، وكان مقصدى هذا الحَرَم المقدّس؛ وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم. فقال القاضى مبادرًا: سَلُوه — على العادة فى إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم — ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحَرَم هل يُقتل أم لا؟ فأفتى بأنه لا يقتل. فسُئل عن الدليل؛ فقال قوله تعالى: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ» قُرِئَ «ولا تقتلوهم، ولا تقاتلوهم» فإن قُرِئَ «ولا تقتلوهم» فالمسألة نصّ، وإن قرئ «ولا تقاتلوهم» فهو تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذى هو سبب القتل كان دليلًا بيّنًا ظاهرًا على النهى عن القتل. فاعترض عليه القاضى منتصرًا للشافعىّ ومالك، وإن لم ير مذهبهما، على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

(١) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر): زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٢) المدرع والدراعة: ضرب من الثياب التى تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم.

(٣) الشطار: جمع شاطر، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثا.

Marfat.com

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . فقال له الصّاغانى: هذا لا يليق بمَنْصب القاضى وعلمه؛ فإن هذه الآية التى آعترضتَ بها عامةٌ فى الأماكن؛ والتى آحتججت بها خاصّة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العامَّ ينْسَخ الخاص . فبُهت القاضى الزنجانى، وهذا من بديع الكلام»(١).قال آبن العربى: « فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه ، لنصّ الآية والسُّنة الثابتة بالنّهى عن القتال فيــه . وأما الزانى والقاتل فلا بدّ من إقامة الحدّ عليه، إلا أن يبتدئ الكافرُ بالقتال فيُقتل بنصّ القرآن» .

قلت : وأما ما آحتجّوا به من قتل آبن خَطَل وأصحابه فلا حجة فيه ، فإن ذلك كان فى الوقت الذى أُحلّت له مكة وهى دار حَرْب وكُفر ، وكان له أن يُريق دماء من شـاء من أهلها فى الساعة التى أُحلّ له فيها القتال . فثبت وصحّ أن القول الأوّل أصح، والله أعلم .

الرابعــة ــ قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن الباغى على الإمام بخلاف الكافر؛ فالكافرُ يُقتل إذا قاتل بكل حال، والباغى إذا قاتل يقاتل بنية الدفع .ولا يُتْبَع مُدْبِر ولا يُجهَز على جريح . على ما يأتى بيانه من أحكام الباغين فى « الحجرات »(٢) إن شاء الله تعالى.

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿فإنِ ٱنتَهَوْا﴾ أى عن قتالكم بالإيمان فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدّم، ويرحم كلًّا منهم بالعفو عما آجترم؛ نظيره قوله تعالى : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »(٣) . وسيأتى .

قوله تعـالى : وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَـكُونَ فِتْنَةٌ وَيَـكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أمْرٌ بالقتال لكل مشرك فى كل موضع؛ على من رآها ناسخة . ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم : «فإنْ قَاتَلُوكُمْ» والأوّل أظهر، وهو أمْرٌ بقتالٍ مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار . دَليـل ذلك قوله تعالى : « ويكونَ الدِّينُ لله » ، وقال عليه السلام : " أُمِرْتُ أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله

(١) وردت عبارة ابن العربى فى كتابه ببعض اختلاف عما فى الأصول . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ فما بعدها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٠١

Marfat.com

إلا الله". فدلّت الآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر؛ لأنه قال : «حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى كفر؛ بجعل الغاية عدم الكفر، وهـذا ظاهر . قال ٱبن عباس وقتادة والربيع والسُّدّى وغيرهم : الفتنة هناك الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين . وأصل الفتنة : الاختبار والامتحان ؛ مأخوذ من فتَنْتُ الفضة إذا أدخلتها فى النار لتميّز رديئها من جيّدها . وسيأتى بيان محاملها إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا ﴾ أى عن الكفر، إما بالإسلام كما تقدّم فى الآية قبلُ، أو بأداء الجِزْية فى حق أهل الكتاب؛ على ما يأتى بيانه فى «براءة»(١) و إلا قوتلوا وهم الظالمون لا عدوان إلا عليهم. وسُمّىَ مايصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمّن العدوان، فسُمّىَ جزاء العدوان عدواناً؛ كقوله : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»(٢). والظالمون هم على أحد التأويلين: من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقى على كُفْر وفتنة.

قوله تعالى : ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ ﴾ قد تقدّم ٱشتقاق الشَّهر(٣). وسبب نزولها ما رُوِى عن ٱبن عباس وقتادة ومجاهد ومِقْسَم والسُّدّى والربيع والضحاك وغيرهم قالوا : نزلت فى عُمْرة القضيّة وعام الحُدَيْبِيَة، [وذلك(٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مُعْتَمِراً حتى بلغ الحديبية] فى ذى القعدة سنة ستّ ، فصدّه المشركون كفارُ قريش عن البيت فٱنصرف؛ ووعده الله سبحانه أنه سيدخله ، فدخله سنة سبع وقضى نُسكه ؛ فنزلت هذه الآية . ورُوِى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أَنُهيت يا محمد عن القتال فى الشهر الحرام ؟ قال: "نعم" . فأرادوا قتاله؛ فنزلت الآية . المعنى : إن ٱستحلُّوا ذلك فيه فقاتلهم؛ فأباح الله بالآية مدافعتهم، والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤٠ (٣) راجع ص ٢٩٠ من هذا الجزء.
(٤) ما بين المربعين ساقط من ب .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ الحُرُمات جمع حُرْمة، كالظُّلُمات جمع ظُلْمة، والحُجُرات جمع حُجرة . وإنما جُمعت الحُرُمات لأنه أراد [حُرْمة] الشهر الحرام [وحُرْمة] البلد الحرام، وحُرْمة الإحرام . والحُـرْمة : ما مُنِعتَ من آنتهاكه . والقصاص المساواة؛ أى آقتصصت لكم منهم إذ صدّوكم سنة سِتٍّ فقضيتم العُمْرة سنة سبع . فـ « الحُرُمات قصاصٌ » على هذا متّصل بمـا قبله ومتعلّق به . وقيل : هو مقطوع منه . وهو آبتداءُ أمرٍ كان فى أوّل الإسلام : إن مَن آنتهك حُرْمتك نِلت منه مثلَ ما آعتدى عليك؛ ثم نسخ ذلك بالقتـال . وقالت طائفة : ما تناولت الآية من التعدّى بيـن أمة محمد صلى الله عليه وسـلم والجنايات ونحوها لم يُنسخ، وجاز لمن تُعُدِّىَ عليه فى مال أو جرح أن يَتعدّى بمثل ما تُعُدِّىَ به عليه إذا خفى[(1)] له ذلك؛ وليس بينه وبين الله تعالى فى ذلك شيء؛ قاله الشافعى وغيره، وهى رواية فى مذهب مالك . وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس ذلك له، وأمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . والأموال يتناولها قوله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تَخُن من خانك " . خرّجه الدّارقطنِيّ وغيره . فمن آئتمنه من خانه فلا يجوز له أن يخونه ويصل إلى حقه مما آئتمنه عليه، وهو المشهور من المذهب، وبه قال أبو حنيفة تمسّكاً بهذا الحديث، وقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا »[(2)] . وهو قول عطاء الخُراسانِىّ . قال قُدامة بن الهَيْثَم : سألت عطاء بن مَيْسرة الخراسانى فقلت له : لى على رجل حق، وقد جحدنى به وقد أعيا علىّ البيّنة، أفأقتص من ماله ؟ قال : أرأيت لو وقع بجاريتك، فعلمت ما كنت صانعا .

قلت : والصحيح جواز ذلك كيف ما توصّل إلى أخذ حقّه مالم يعدّ سارقاً؛ وهو مذهب الشافعىّ وحكاه الدّاودى عن مالك، وقال به آبن المنـذر ، وآختاره آبن العربى، وأن ذلك ليس خيانة وإنما هو وصول إلى حق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً " وأخذ الحق من الظالم نَصْرٌ له . وقال صلى الله عليه وسلم لِهِنْد بنت عُتْبة آمرأة أبى سُفيان لمـا قالت له : إن أبا سفيان رجل شَحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بَنِىّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل علىّ جناح ؟ فقال رسـول الله صلى الله

(1) قوله : « إذا خفى » أى ظهر . وهذا اللفظ من الأضداد؛ يقال : خفيت الشى : كتمته . وخفيته : أظهرته . راجع جـ ١١ ص ١٨٢		(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥

Marfat.com

عليه وسلم : "خُذِى ما يَكفيك ويَكْفِى وَلَدَك بالمعروف" . فأباح لها الأخذ وألّا تأخذ إلا القدر الذى يجب لها . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقولُه تعـالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » قاطع فى موضع الخلاف .

الثالثـــة ــ وآختلفوا إذا ظَفِر له بمـال من غير جنس ماله ؛ فقيل : لا يأخذ إلا بحُكم الحاكم . وللشافعىّ قولان، أصحهما الأخذ، قياسًا على ما لو ظَفِر له من جنس ماله . والقول الثانى لا يأخذ لأنه خلاف الجنس . ومنهم من قال : يتحرّى قيمة ما له عليه و يأخذ مقدار ذلك . وهذا هو الصحيح لمـا بيّناه من الدليل، والله أعلم .

الرابعـــة ــ و إذا فرّعنا على الأخذ فهل يعتبر ما عليـه من الديون وغير ذلك ؛ فقـال الشافعىّ : لا ، بل يأخذ ماله عليه . وقال مالك : يعتبر ما يحصل له مع الغرماء فى الفلس ؛ وهو القياس، والله أعلم .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ عموم متّفق عليه، إمّا بالمباشرة إن أمكن، و إمّا بالحُكّام . وآختلف الناس فى المكافأة هل تُسمّى عُدوانًا أم لا ؛ فمن قال : ليس فى القرآن مجـاز ، قال : المقابلة عدوان، وهو عدوان مباح، كما أن المجاز فى كلام العرب كذب مباح؛ لأن قول القائل :

* فقالت له العينان سمعًا وطاعة *

وكـذلك :

* آمتـــلأ الحوض وقال قَطْنِى *

وكـذلك :

* شـكا إلىّ جملى طول السُّرَى *

ومعلوم أن هذه الأشياء لا تَنطق . وحدّ الكذب : إخبار عن الشيء على خلاف ما هو به . ومن قال فى القرآن مجاز سَمّى هـذا عدوانًا على طريق المجاز ومقابلة الكلام بمثـله ؛ كما قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحـد علينـا * فنجهلَ فوق جهـل الجاهلينـا

Marfat.com

وقال الآخر :

وَلِي فَرَسٌ للحِلم بالحِلم مُلْجَمٌ * ولي فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ
ومن رام تقويمي فإني مُقَــوَّمٌ * ومن رام تعــويجي فإني مُعوَّجُ

يريد : أكافئ الجاهل والمعوّج ، لا أنه آمتدح بالجهل والأعوجاج .

السادســة — وآختلف العلماء فيمن آستهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العُرُوض التي لا تكال ولا توزن ؛ فقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء : عليه في ذلك المِثْل، ولا يُعدَل إلى القيمة إلا عند عدم المثل؛ لقوله تعالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ» وقوله تعالى : « وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »(1) .

قالوا : وهذا عموم في جميع الأشياء كلها ، وعَضَدُوا هذا بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم حبس القَصعة المكسورة في بيت التي كسرتها ودفع الصحيحة وقال : "إناءٌ بإناء وطعامٌ بطعام" خرّجه أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيي ح وحدّثنا محمد بن المثنى حدّثنا خالد عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمّهات المؤمنين مع خادم قَصعة فيها طعام ، قال : فضربت بيدها فكسرت القصعة . قال آبن المثنّى : فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم الكسرتين فضمّ إحداهما إلى الأخرى ، فجعل يجمع فيها الطعام ويقول : "غارت أمّكم". زاد آبن المثنّى "كُلُوا" فأكلوا حتى جاءت قصعتها التي في بيتها . ثم رجعنا إلى لفظ حديث مسدّد وقال : "كُلُوا" وحبس الرسولَ والقصعةَ حتى فرغوا، فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول وحبس المكسورة في بيته . حدّثنا أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيي عن سفيان قال وحدّثنا فُلَيْتٌ العامريّ — قال أبو داود : وهو أَفْلَت بن خليفة — عن جَسْرة بنت دَجاجة قالت قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت صانعاً طعاما مثل صَفيّة ؛ صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعامًا فبعثتْ به ، فأخذني أَفْكَلٌ(2) فكسرتُ الإناء ، فقلت : يا رسول الله ، ما كفارة ما صنعتُ ؟ قال : "إناءٌ مثل إناءٍ وطعامٌ مثلُ طعام". قال مالك

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠ (2) الأفكل (على وزن أفعل) : الرعدة . أي ارتعدت من شدة الغيرة .

Marfat.com

وأصحابه : عليه فى الحيوان والعروض التى لا تُكال ولا توزن القيمةُ لا المِثل؛ بدليل تضمين النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى أعتق نصف عبده قيمةَ نصف شريكه ، ولم يضمّنه مثل نصف عبده . ولا خلاف بين العلماء على تضمين المِثل فى المطعومات والمشروبات والموزونات ؛ لقوله عليه السلام : "طعامٌ بطعام".

السابعة — لاخلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص؛ فمن قَتل بشىء قُتِل بمثل ما قَتل به ؛ وهو قول الجمهور ، مالم يقتله بفسق كاللُّوطية و إسقاء الخمر فيُقتل بالسيف . وللشافعية قول : إنه يُقتل بذلك ؛ فيُتّخذ عود على تلك الصفة و يُطعن به فى دُبُره حتى يموت ، و يُسقى عن الخمر ماء حتى يموت . وقال آبن الماجشون : إن من قَتل بالنار أو بالسمّ لا يُقتل به ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لايعذِّب بالنار إلا الله". والسمّ نار باطنة . وذهب الجمهور إلى أنه يُقتل بذلك ؛ لعموم الآية .

الثامنة — وأما القَوَد بالعصا فقال مالك فى إحدى الروايتين : إنه إن كان فى القتل بالعصا تطويل وتعذيب قُتِل بالسيف؛ رواه عنه آبن وهب، وقاله آبن القاسم. وفى الأخرى : يُقتل بها و إن كان فيه ذلك؛ وهو قول الشافعى . وروى أشهب وآبن نافع عن مالك فى الحجر والعصا أنه يُقتل بهما إذا كانت الضَّربة مُجْهِزة؛ فأمّا أن يُضرب ضربات فلا . وعليه لا يُرْمَى بالنَّبل ولا بالحجارة لأنه من التعذيب؛ وقاله عبد الملك . قال آبن العربى: «والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة، إلا أن تدخل فى حدّ التعذيب فلتترك إلى السيف». وآتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قصْدَ التعذيب فُعِل به ذلك، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بقَتَلَة الرِّعاء[1] . وإن كان فى مدافعة أو مضاربة قتل بالسيف . وذهبت طائفة إلى خلاف هذا كله فقالوا: لا قَوَد إلا بالسيف، وهو مذهب أبى حنيفة والشَّعبيّ والنَّخَعيّ .

---

(١) هم قوم من عُرَيْنة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا وآستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم وآصفرت ألوانهم وعظمت بطونهم ؛ فبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحّوا فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل ؛ فبعث نبى الله فى طلبهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم . راجع كتب السنة فى هذا الحديث .

Marfat.com

واحتجّوا على ذلك بما رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لاقَوَد إلا بحديدة"، وبالنهى عن المُثْلة، وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا رَبُّ النار". والصحيح ماذهب إليه الجمهور، لما رواه الأئمة عن أنس بن مالك أن جارية وُجِد رأسها قد رُضّ بين حجرين؛ فسألوها : مَن صنع هذا بك ! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأَوْمأت برأسها، فأُخذ اليهودى فأقرّ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُرَضّ رأسه بالحجارة . وفى رواية : فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حجرين . وهذا نصٌّ صريح صحيح، وهو مقتضى قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » وقوله : « فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وأمّا ما ٱستدلّوا به من حديث جابر فحديث ضعيف عند المحدّثين، لا يروَى من طريق صحيح، ولو صح قلنا بموجبه، وأنه إذا قتل بحديدة قُتِل بها؛ يدلّ على ذلك حديث أنس : أن يهوديًّا رَضّ رأس جارية بين حجرين فرَضّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بين حجرين . وأمّا النّهى عن المُثْلة فنقول أيضًا بموجبها إذا لم يُمَثِّل، فإذا مَثّل مَثّلنا به؛ يدلّ على ذلك حديث العُرَنِيِّين، وهو صحيح أخرجه الأئمة . وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار" صحيح إذا لم يَحرِق، فإن حَرق حُرِق؛ يدلّ عليه عموم القرآن . قال الشافعيّ : إن طرحه فى النار عمدًا طُرح فى النار حتى يموت؛ وذكره الوَقّار(١) فى مختصره عن مالك، وهو قول محمد بن عبد الحكم . قال ٱبن المنذر : وقول كثير من أهل العلم فى الرجل يَخنُق الرجلَ : عليه القَوَد؛ وخالف فى ذلك محمد بن الحسن فقال : لو خنقه حتى مات أو طرحه فى بئر فمات، أو ألقاه من جبل أو سطح فمات، لم يكن عليه قصاص وكان على عاقلته الدِّية؛ فإن كان معروفًا بذلك — قد خنق غير واحد — فعليه القتل . قال ٱبن المنذر : ولما أقاد النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليهوديّ الذى رَضّ رأس الجارية بالحجر كان هذا فى معناه، فلا معنى لقوله .

قلت : وحكى هذا القول غيره عن أبى حنيفة فقال : وقد شدّ أبو حنيفة فقال فيمن قتل بخَنْق أو بسُمّ أو تردية من جبل أو بئر أو بخشبة : إنه لا يُقتل ولا يُقتصّ منه، إلا إذا

(١) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى بن إبراهيم الفقيه المصرى، أخذ عن ٱبن القاسم وٱبن وهب .

Marfat.com

قتل بمـدّد حديد أو حجر أو خشب أو كان معروفاً بالخنق والتّردية وكان على عاقلته الدّية . وهذا منه ردٌّ للكتاب والسُّنة، وإحداثُ مالم يكن عليه أمر الأمة، وذريعةٌ إلى رفع القصاص الذى شرعه الله للنفوس، فليس عنه مناص .

التاســعة — وآختلفوا فيمن حبس رجلا وقتله آخر ؛ فقـال عطاء : يُقتـل القاتل ويُحبَس الحابس حتى يموت . وقال مالك : إن كان حبسه وهو يرى أنه يريد قتله قُتلا جميعًا، وفى قول الشافعىّ وأبى ثور والنُّعمان يُعاقَب الحابس . وآختاره آبن المنذر .

قلت : قول عطاء صحيح، وهو مقتضى التنزيل . وروى الدّارَقُطنىّ عن آبن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمسك الرجلُ الرجلَ وقتله الآخر يُقتل القاتل ويُحبس الذى أمسكه" . رواه سفيان الثورىّ عن إسماعيل بن أميّة عن نافع عن آبن عمر، ورواه معمر وآبن جُريج عن إسماعيل مُرسَلًا .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى ﴾ الآعتداء هو التجاوز؛ قال الله تعالى : «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ»[1] أى يتجاوزها ؛ فمن ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك ، ومن شتمك فردّ عليه مثلَ قوله ، ومن أخذ عِرْضَك فخذ عِرضه؛ لا تتعدّى إلى أبويه ولا إلى آبنه أو قريبه ، وليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تُقابل بالمعصية؛ فلو قال لك مثلاً : يا كافر، جاز لك أن تقول له : أنت الكافر . وإن قال لك : يازان، فقصاصك أن تقول له : يا كذّاب يا شاهد زُور . ولو قلت له يا زانٍ، كنت كاذبًا وأثمتَ فى الكذب . وإن مَطَلك وهو غنىّ دون عُذر فقل : يا ظالم، يا آكل أموال الناس؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لَيُّ الواجِد[2] يُحِلّ عِرْضَه وعقوبتَه" . أمّا عِرْضه فيما فسّرناه، وأمّا عقوبته فالسجن يُحبَس فيه . وقال آبن عباس : نزل هذا قبل أن يقوى الإسلام؛ فأمر مَن أُوذِىَ من المسلمين أن يُجازِى بمثل ما أوذِىَ به ، أو يصبر أو يعفو؛ ثم نسخ ذلك بقوله : «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»[3] . وقيل : نسـخ ذلك بتصييره إلى السلطان . ولا يحلّ لأحد أن يقتصّ من أحد إلا بإذن السلطان .

(١) راجع جـ ٣ ص ١٤٦ و جـ ١٨ ص ١٥٦ (٢) اللىّ : المطل . والواجد : القادر على قضاء دينه .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٣٦

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاري عن حذيفة : «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ» قال : نزلت في النفقة . وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال : غَزَوْنا القُسْطَنْطِينِيّة، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد، والرومُ مُلْصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدوّ، فقال الناس : مَهٍ مَهْ[1] ! لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب : سبحان الله ! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيّه وأظهر دينه ؛ قلنا : هَلُمّ نقيم في أموالنا ونُصلحها ؛ فأنزل الله عز وجل : «وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» الآية . والإلقاء باليَد إلى التَّهْلُكَة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . فلم يزل أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية ؛ فقبره هناك . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك . ورُوي مثلُه عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحّاك .

قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا الخبر بمعناه فقال : «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى الجماعة فَضالة بن عُبيد ؛ فحمل رجل من المسلمين على صَفّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يُلقى بيديه إلى التهلكة . فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يأيها الناس، إنكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه ؛ فقال بعضنا لبعض سِرًّا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام

(١) مه : زجر ونهي ، فإن وصلت نونت ، قلت : مه مه ؛ وكذلك صه .

Marfat.com

وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ؛ فأنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم يردّ علينا ما قلنا : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال و إصلاحها وتركنا الغزو؛ فما زال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح » . وقال حُذيفة بن اليمان وآبن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد و جمهور الناس : المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العَيْلة ، فيقول الرجل : ليس عندى ما أنفقه . و إلى هذا المعنى ذهب البخارىّ إذ لم يذكر غيره ، والله أعلم . قال آبن عباس : أنفق فى سبيل الله ، وإن لم يكن لك إلا سَهم أو مِشْقَص(1) ، ولا يقولنّ أحدكم : لا أجد شيئًا . ونحوه عن السُّدّى : أنفق ولو عِقالاً ، ولا تُلق بيــدك إلى التهلكة فتقول : ليس عنــدى شىء . وقول ثالث قاله آبن عباس ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم لمــا أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام إليه أناس من الأعراب حاضرين بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهّز ! فوالله مالنا زاد ولا يطعمنا أحد ؛ فنزل قوله تعالى : «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» يعنى تصدّقوا يا أهل المَيْسرة فى سبيل الله ، يعنى فى طاعة الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » يعنى ولا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا ؛ وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول آبن عباس : ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا ؛ أى لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العــدوّ فتهلكوا . وقول رابع — قيل للبراء ابن عازب فى هــذه الآية : أهو الرجل يحمل على الكتيبة ؟ فقال لا ، ولكنه الرجل يصيب الذنب فيُلقى بيديه و يقول : قد بالغت فى المعاصى ولا فائدة فى التوبة ؛ فييأس من الله فينهمك بعد ذلك فى المعاصى . فالهلاك : اليأس من الله ؛ وقاله عَبيدة السَّلْمانى . وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا فى الجهاد بغير زاد ؛ وقد كان فعــل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الآنقطاع فى الطريق ، أو يكون عالة على الناس . فهذه خمسة أقوال . و « سبيل الله » هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعــدُ جميع سُبُله . والبــاء فى « بأيديكم » زائدة ، التقــدير تلقوا أيديكم .

---

(1) المشقص (كمنبر) : نصل عريض أو سهم فيه نصل ، يرمى به الوحش .

Marfat.com

ونظيره : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »(١) . وقال المبرّد : « بأيديكم » أى بأنفسكم ؛ فعبّر بالبعض عن الكل؛ كقوله : « فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »(٢) ، « بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »(٣) . وقيل : هذا ضَرْب مَثَل؛ تقول: فلان ألقى بيده فى أمر كذا إذا آستسلم ؛ لأن المستسلم فى القتال يُلْقى سلاحه بيديه ، فكذلك فعلُ كلّ عاجز فى أىّ فعل كان ، ومنه قول عبد المطلب : « واللهِ إن إلقاءنا بأيدينا للموت لَعَجْزٌ »(٤) . وقال قوم : التقدير لاتلقوا أنفسكم بأيديكم ؛ كما تقول : لاتفسد حالك برأيك . والتَّهْلُكَة (بضم اللام) مصدر من هَلَكَ يَهْلِك هلاكًا وهُلْكًا وتَهْلُكَة ، أى لا تأخذوا فيما يُهلككم ؛ قاله الزجاج وغيره . أى إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم . وقيل . إن معنى الآية لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم . ومعنى آخر : ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخلَف فى الدنيا والثواب فى الآخرة . ويقال : « لا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة » يعنى لاتنفقوا من حرام فيُرَدّ عليكم فتهلكوا . ونحوه عن عكرمة قال : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» قال : «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » . وقال الطبرى : قوله « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » عامّ فى جميع ماذُكر لدخوله فيه ، إذ اللفظ يحتمله .

الثانيــة — آختلف العلماء فى آقتحام الرجل فى الحرب وحَمْله على العدو وحدَه؛ فقال القاسم بن مُخَيْمِرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوّة ، وكان لله بنيّة خالصة ؛ فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل، لأن مقصوده واحد منهم ؛ وذلك بيّن فى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ »(٥) . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : فأمّا أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علِم وغَلب على ظنّه أن سيَقتل مَن حمل عليه وينجو فحَسَن ، وكذلك لو علِم وغَلب على ظنّه أن يُقتل ولكن سيُنْكِى نِكاية أو سيُبْلِى أو يؤثّر أثرًا يَنتفع به المسلمون فجائز أيضا . وقد بلغنى أن عسكر المسلمين لما لَقِى الفرس نَفرت خيل المسلمين من

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٤　(٢) راجع ج ١٦ ص ٣٠　(٣) فى نسخ الأصل : « بما كسبت » راجع ج ١٢ ص ١٦　(٤) عبارة عبد المطلب كما أوردها آبن هشام فى سيرته عند الكلام على حفر زمزم : «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لعجز ...» الخ .　(٥) راجع ج ٣ ص ٢٠

Marfat.com

الفِيلَة ، فعَمَد رجل منهم فصنع فِيلًا من طين وأنَّس به فرسه حتى أَلِفه ، فلمّا أصبح لم ينْفِر فرسُه من الفيل فحمل على الفيل الذى كان يَقْدُمها فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضَيْرَ أن أُقتَل ويُفتح للسلمين . وكذلك يوم اليمامة لمـا تحصّنت بنو حنيفة بالحديقة ، قال رجل من(١) المسلمين : ضعونى فى الجحَفَة(٢) وألقونى إليهم ؛ ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب .

قلت : ومن هــذا ماروِىَ أنّ رجلًا قال للنبىّ صلى الله عليه وسـلم : أرأيت إن قُتِلتُ فى سبيل الله صابرًا مُحْتَسِبًا ؟ قال : "فلك الجنة" . فآنغمس فى العدوّ حتى قُتِل . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُفْرِد(٣) يومَ أُحُد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ؛ فلما رَهِقُوه(٤) قال : "مَن يردّهم عنّا وله الجنة" أو "هو رفيق فى الجنة" فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . [ثم رَهِقُوه أيضا فقال : " مَن يردّهم عنا وله الجنة " أو "هو رفيق فى الجنة" . فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل(٥)] . فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعةُ ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنصفْنا أصحابَنا" . هكذا الرواية «أنصفْنا» بسكون الفاء «أصحابَنا» بفتح الباء ؛ أى لم نَدُلّهم(٦) للقتال حـتى قتلوا . وروى بفتح الفاء ورفع الباء ، ووجهها أنها ترجع لمن فرّ عنه من أصحابه ، والله أعلم . وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدوّ ؛ فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ؛ لأنه عرّض نفسه للتّلف فى غير منفعة للسلمين . فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعة للسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدوّ وليعلم صلابة المسلمين فى الدِّين فلا يبعد جوازه . وإذا كان فيه نفع للسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ(٧) » الآية ، إلى غيرها من آيات المدح التى مدح الله بها من بَذَل نفسه . وعلى ذلك ينبغى أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنه متى رَجَا نفعًا فى الدِّين فبذَل نفسه فيه حتى قُتل كان

(١) هو البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك ، كما فى تاريخ الطبرى . (٢) الجحفة (بتقديم الحاء على الجيم والتحريك) : ترس يتخذ من الجلود . (٣) أفرد يوم أحد ، أى حين انهزم الناس وخلص إليه العدوّ . (٤) رهقه (بكسر ثانيه) : غشيه ولحقه . (٥) زيادة عن صحيح مسلم . (٦) أى لم نرشدهم ونسدّدهم . (٧) راجع جـ ٨ ص ٢٦٧ .

Marfat.com

فى أعلى درجات الشهداء ؛ قال الله تعالى : « وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(1) . وقد روى عكرمة عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضـل الشهداء حمزةُ بن عبـد المطلب ورجلٌ تكلّم بكلمةِ حقّ عند سلطان جائر فقتله " . وسيأتى القول فى هذا فى « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة، وأحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : «أحسنوا» فى أعمالكم بٱمتثال الطاعات ؛ روى ذلك عن بعض الصحابة .

قوله تعـالى : وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعُمْرة لله ؛ فقيل : أداؤهما والإتيان بهما ؛ كقوله : « فَأَتَمَّهُنَّ » وقوله : « ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ » أى ائتوا بالصيام ؛ وهذا على مذهب من أوجب العُمرة ، على ما يأتى . ومن لم يوجبها قال : المراد تمامهما بعد الشروع فيهما ، فإن مَن أحرم بنُسك وجب عليه المضيّ فيه ولا يفسخه ؛ قال معناه الشعبيّ وٱبن زيد . وعن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إتمامهما أن تُحرم بهما من دُوَيْرة أهلك . ورُوِىَ ذلك عن عمر بن الخطاب وسـعد بن أبى وقّاص ، وفعـله عمران بن حُصين . وقال سفيان

(1) راجع ج ١٤ ص ٦٨ .

Marfat.com

الثَّورِيّ : إتمامهما أن تخرج قاصدًا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك ؛ و يقوّى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كلّ واحد منهما من غير تمتّع وقران؛ وقاله آبن حبيب . وقال مُقاتل : إتمامهما ألّا تستحلّوا فيهما ما لا ينبغى لكم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون فى إحرامهم فيقولون : لَبَّيْك اللّهمّ لَبَّيْك ، لا شريكَ لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما مَلَك . فقال: فأتموهما ولا تخلطوهما بشىء آخر .

قلت : أمّا ما رُوِىَ عن علىّ وفعله عِمران بن حُصين فى الإحرام قبل المواقيت التى وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال به عبد الله بن مسعود و جماعة من السلف، وثبت أن عمر أَهَلّ من إيليــاء، وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو إسحاق يُحرمون من بيوتهــم؛ ورَخّص فيــه الشافعى . وروى أبو داود والدّارَقُطنيّ عن أمّ سَلَمــة قالت قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن أحرم من بيت المقدس بحجّ أو عُمْرة كان من ذنوبه كيوم[1] ولدته أمه" فى رواية "غُفرله ما تقدّم من ذنبــه وما تأخّر" . وخرجه أبو داود وقال : «يرحم الله وَكيعًا ! أحرم من بيت المقدس ؛ يعنى إلى مكة» . ففى هــذا إجازة الإحرام قبل الميقات. وكره مالك رحمه الله أن يُحرم أحدٌ قبــل الميقات ، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وأنه أنكر على عِمران بن حُصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على آبن عمر[2] إحرامه قبل الميقات . وقال أحمــد و إسحاق : وجه العمل المواقيت ؛ ومن الحجة لهذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت المواقيت وعيّنها ، فصارت بيانًا لمجمل الحج ، ولم يُحرم صلى الله عليه وسلم من بيته لحجته ، بل أحرم من ميقاته الذى وقّته لأمته ؛ وما فعله صلى الله عليه وسلم فهو الأفضل إن شاء الله . وكذلك صنع جمهور الصحابة والتابعين بعــدهم . وآحتج أهــل المقالة الأولى بأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليــه وسلم بين أمرين إلا آختار أيسرهما ، وبحديث أمّ سلمة مع ما ذُكر عن الصحابة فى ذلك ، وقد شهدوا إحرام رسول الله

(١) كذا فى الدارقطنى . وفى الأصول : « كهيئة يوم » . (٢) فى شرح الموطأ للزرقانى : « ... على عبد الله بن عامر » وعبد الله بن عامر هذا ابن خال عثمان وكان واليا له على البصرة .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم فى حجته من ميقاته، وعرفوا مغزاه ومراده، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرًا على أمته .

الثانيــة — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيْفَة[(1)]، ولأهل الشام الجُحْفَة[(2)]، ولأهل نجد قَرْن[(3)]، ولأهل اليمن يَلَمْلَم[(4)]، هُنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعُمْرة . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ؛ حتى أهْل مكة من مكة يُهِلّون منها. وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث وآستعماله، لا يخالفون شيئا منه . وآختلفوا فى ميقات أهل العراق وفيمن وَقّته؛ فروَى أبو داود والترمذى عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل المشرق العَقِيق . قال الترمذىّ : هذا حديث حَسَن . وروى أن عمر وَقّت لأهل العراق ذات عِرْق[(5)] . وفى كتاب أبى داود عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل العراق ذات عِرْق؛ وهذا هو الصحيح . ومن روى أن عمر وقته لأن العراق فى وقته آفتُتحت، فغَفْلة منه ؛ بل وَقّته رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وَقّت لأهل الشام الجُحْفَة . والشام كلها يومئذ دارُ كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان، ولم تُفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر ، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل السِّيَر . قال أبو عمر : كلّ عِراقىّ أو مَشْرِقىّ أحرم من ذات عِرْق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته، والعقِيق أحْوط عندهم وأوْلى من ذات عِرْق ، وذات عِرْق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثــة — أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتى الميقات أنه مُحْرِم، وإنما منع من ذلك من رأى الإحرام عند الميقات أفضل؛ كراهية أن يضيّق المرء على نفسه ما قد وسّع الله عليه ، وأن يتعرّض بما لا يؤمن أن يحدث فى إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك ؛ لأنه زاد ولم ينقص .

---

(١) ذو الحليفة (مصغر حلفة) : قرية خربة بينها وبين مكة مائتا ميل . (٢) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل ، ويقرب منها القرية المعروفة برابغ — براء وموحدة وغين معجمة — ويصح الإحرام منها . (٣) قرن : (بفتح فسكون) : جبل مشرف على عرفات ، وهو على مرحلتين من مكة . (٤) يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .
(٥) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .

Marfat.com

الرابعـــة — فى هذه الآية دليل على وجوب العُمْرة ، لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . قال الصُّبَىّ[(١)] بن مَعْبد : أتيت عمر رضى الله عنه فقلت إنى كنت نصرانيًّا فأسلمت ، وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ ، وإنى أهللت بهما جميعًا . فقال له عمر هُدِيت لسُنّة نبيّك . قال ابن المنذر : ولم ينكر عليه قوله : «وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ» . وبوجوبهما قال علىّ بن أبى طالب وابن عمر وابن عباس . وروى الدَّارَقُطْنِىّ عن ابن جُرَيج قال : أخبرنى نافع أن عبـد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعُمرة واجبتان مَن استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فمن زاد بعدها شيئا فهو خير وتطوّع . قال : ولم أسمعه يقول فى أهل مكة شيئا . قال ابن جُرَيج : وأُخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلا . وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشّعبىّ وسعيد بن جُبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شدّاد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عُبيد وابن الجَهْم من المـالكيين . وقال الثورىّ : سمعنا أنها واجبة . وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبـل الحج ؛ فقال : صلاتان لا يضرّك بأيّهما بدأت ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِىّ . وروى مرفوعًا عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرّك بأيّهما بدأت " . وكان مالك يقول : « العمرة سُنّة ولا نعلم أحدًا أرخص فى تركها » . وهو قول النخعىّ وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبى حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة ؛ قاله ابن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدّارقطنى حدّثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدّثنا محمد بن العلاء أبو كُرَيب حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبـد الله قال : سأل رجل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : " نعم " فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : " لا وأن تعتمر خير لك " . رواه يحيى[(٢)] بن أيوب عن حجاج وابن جريج عن ابن المنكدر

(١) الصبى (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد الياء) .
(٢) فى نسخ الأصل : « محمد » والتصويب عن سنن الدارقطنى .

Marfat.com

عن جابر موقوفًا من قول جابر . فهذه حجة من لم يوجبها من السُّــنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب ؛ لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ؛ فإنه ٱبتدأ الصلاة والزكاة فقال « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكَاةَ » . وٱبتدأ بإيجاب الحج فقال : «وِللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» (١) ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بٱبتدائها، فلو حج عشر حجج، أو ٱعتمر عشر عُمَر لزم الإتمام فى جميعها ؛ فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء ، والله أعلم . وٱحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف بعرفة، وليس فى العمرة وقوف؛ فلو كانت كسُنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله ؛ كما أن سُنة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها .

الخامســـة — قرأ الشَّعبي وأبو حَيْوَة برفع التاء فى «العُمرة» ؛ وهى تدلّ على عدم الوجوب . وقرأ الجماعة « العمرةَ » بنصب التاء ، وهى تدل على الوجوب . وفى مصحف ٱبن مسعود « وأتِمُّوا الحجّ والعمرةَ إلى البيت لله » (٢) وروى عنه « وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» . وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتَّظاهر والتّناضل والتّنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ؛ وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولاحظّ بقصد ، ولا قُرْبة بمعتقَد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه ، ثم سامح فى التجارة ، على ما يأتى .

السادســـة — لا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوى حجًّا ولا عُمرة — والقلم جارٍ له وعليه — أن شهودها بغير نيّة ولا قصد غير مغْنٍ عنه ، وأن النية تجب فرضًا؛ لقوله تعالى : « وَأَتِمُّوا » ومن تمام العبادة حضور النية ، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام ؛ لقوله عليه السلام لما ركب راحلته : "لَبَّيْكَ بحجّة وعُمْرة معًا" على ما يأتى . وذكر الرَّبيع فى كتاب البُوَيْطى عن الشافعى قال : ولو لَبَّى رجلٌ ولم يَنْوِ حجًّا ولاعمرة لم يكن

(١) راجع ج ٤ ص ١٤٢   (٢) قال أبو حيان فى البحر : ينبغى أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليه المسلمون .

Marfat.com

حاجًّا ولا مُعْتَمِرًا، ولو نوى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسك كان حجه تامًّا؛ وآحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنّيات " . قال : ومن فعل مثل ما فعل عليٌّ حين أهلّ على إهلال النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزته تلك النية؛ لأنها وقعت على نيةٍ لغيره قد تقدّمت ، بخلاف الصلاة .

السابعــة — وآختلف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يحتلم هذا و يعتِق هذا قبل الوقوف بعرفة؛ فقال مالك : لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد متمسكًا بقوله تعالى : « وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لِلهِ » ومَن رفض إحرامه فلا يتمّ حجــه ولا عمرته . وقال أبو حنيفة : جائز للصبيّ إذا بلغ قبل الوقوف بعَرَفة أن يجدّد إحراما ؛ فإن تمـادى على حجه ذلك لم يجزه من حجة الإسلام. واحتجّ بأنه لمـّا لم يكن الحج يجزى عنه،ولم يكن الفرض لازمًا له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ آستحال أن يُشغل عن فرضٍ قد تعيّن عليه بنافلة و يعطّل فرضه ؛ كمن دخل فى نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخَشِيَ فوتها قطع النافلة ودخل فى المكتوبة . وقال الشافعيّ : إذا أحرم الصبيّ ثم بلغ قبل الوقوف بعَرَفة فوقف بها مُحْرِمًا أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد . قال : ولو عَتَق بمزدلفة و بلغ الصبيّ بها فرجعا إلى عرفة بعــد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإســلام، ولم يكن عليهما دم ؛ ولو آحتاطًا فأهراقا(١) دمًا كان أحبّ إليّ ،وليس ذلك بالبيّن عندى. وآحتجّ فى إسقاط تجديد الإحرام بحديث عليّ رضى الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج : " بِمَ أَهْلَلْتَ " قال قلت : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ بإهلالٍ كإهلال نبيّك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"فإنى أهللتُ بالحج وسُقْتُ الهَدْيَ". قال الشافعيّ : ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ،ولا أمره بتجديد نيّةٍ لإفرادٍ أو تمتّعٍ أو قِرانٍ. وقال مالك فى النصرانيّ يُسلم عشيّةَ عرفة فيُحْرِم بالحج : أجزأه من حجة الإسلام ، وكذلك العبد يعتِق ، والصبيّ يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولادَم على واحد منهم ؛ و إنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يُحرم من الميقات .

(١) هراق الماء وأهرقه وأهراقه : صبه . وأصله : أراقه .

Marfat.com

وقال أبو حنيفة : يلزم العبد الدّم . وهــو كالحُرّ عندهم فى تجاوز الميقات ؛ بخلاف الصبيّ والنّصرانيّ فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبيّ كان حكمهما حكم المكيّ، ولا شيء عليهما فى ترك الميقات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فيه ٱثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قال ابن العربي : هذه آية مشكلة، عُضْلة من العُضَل .

قلت : لا إشكال فيها، ونحن نبيّنها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذى تقصده بالعوائق جملةً ؛ فـ«جملة» أى بأيّ عذر كان، كان حَصْرَ عدوٍّ أو جورَ سلطان أو مرضٍ أو ما كان . وٱختلف العلماء فى تعيين المـانع هنا على قولين : الأوّل — قال علقمة وعُروة ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا العــدو . وقيل : العدو خاصّة ؛ قاله ٱبن عباس وٱبن عمر وأنس والشافعيّ . قال ٱبن العربي : وهو ٱختيار علمائنا . ورأى أكثر أهل اللغة ومحصّليها على أنّ « أُحْصِر » عُرِّضَ للمرض، و « حُصِر » نزل به العدو .

قلت : ما حكاه ٱبن العربي من أنه ٱختيار علمائنا فلم يقل به إلّا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك فى هذا وقالوا : الإحصار إنما هو المرض، وأما العدوّ فإنما يقال فيه : حُصِر حَصْرًا فهو محصور ؛ قاله الباجى فى المنتقَى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عنــد جميع أهل اللغة، على ما يأتى . وقال أبو عبيدة والكسائى : « أُحْصِر » بالمرض ، و « حُصِر » بالعدو . وفى المجمَل لابن فارس على العكس ؛ فحُصِر بالمرض، وأُحْصِر بالعدو . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعًا من الرباعى، حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم فى مُوَطّئه «أحصر» فيهما ؛ فتأمله . وقال الفرّاء : هما بمعنًى واحد فى المرض والعدو . قال القُشيرى أبو نصر : وٱدّعت الشافعية أن الإحصار يستعمل فى العدو ؛ فأما المرض فيُستعمل فيه الحصر ؛ والصحيح أنهما يُستعملان فيهما .

قلت : ما ٱدّعته الشافعية قــد نَصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليــل : حَصرت الرجل حصْرًا منعته وحبسته، وأُحْصِر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه ؛

Marfat.com

هكذا قال ؛ جعل الأوّل ثُلاثيًا من حصرت، والثانى فى المرض رُباعياً . وعلى هـذا خرج قول ٱبن عباس : لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدوّ . وقال ٱبن السِّكيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها . وقـد حصره العدوّ يحصُرونه إذا ضيّقوا عليـه فأطافوا به، وحاصروه محاصرةً وحصاراً . قال الأخفش : حصرت الرجل فهـو محصور؛ أى حبسته . قال : وأحصرنى بَوْلى، وأحصرنى مرضى؛ أى جعلنى أحصر نفسى . قال أبو عمرو الشيبانى : حصرنى الشىء وأحصرنى؛ أى حبسنى .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن «حُصِر» فى العدوّ، و «أحصر» فى المرض؛ وقد قيل ذلك فى قول الله تعالى: « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ »[1] . وقال ٱبن مَيّادة :

وما هجر لَيْـلَى أن تكون تباعدَتْ * عليكَ ولا أنْ أحْصَرَتْك شُـغولُ

وقال الزجاج: الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأمّا من العدوّ فلا يقال فيه إلا حُصِر؛ يقال : حُصِر حصرًا، وفى الأوّل أُحصِر إحصاراً؛ فدل على ما ذكرناه . وأصل الكلمة من الحبس ؛ ومنـه الحصير للذى يحبس نفسه عن البَوْح بسرّه . والحَصِير : المَلِك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحَصِير الذى يجلس عليـه لأنضمام بعض طاقات البَرْدِىّ[2] إلى بعض؛ كحبس الشىء مع غيره .

الثانيـــة — ولمّا كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفيّة : المُحْصَر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدوّ أو غير ذلك . وٱحتجُّوا بمقتضى الإحصار مطلقا ، قالوا :وذِكْرُ الأمن فى آخر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض؛قال صلى الله عليه وسلم: " الزكام أمان من الجُذام" ، وقال : " مَن سَبَق العاطسَ بالحمد أَمِن من الشَّوْص واللَّوْص والعِلَّوْص " . الشَّوْص : وجع السن . واللَّوْص : وجع الأذن . والعِلَّوْص : وجع البطن. أخرجه ٱبن ماجه فى سُننه . قالوا : و إنما جعلنا حبس العدوّ حصارًا قياسًا على المرض إذا كان

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٩ (٢) البردى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : نبات يعمل منـه الحصر . وبضمها وسكون الراء : ضرب من أجود التمر .

فى حكمه، لا بدلالة الظاهر . وقال ابن عمر وابن الزبير وابن عباس والشافعيّ وأهل المدينة: المراد بالآية حَصْر العدوّ؛ لأن الآية نزلت فى سنة سِتّ فى عُمْرة الحُدَيْبِيَة حين صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة. قال ابن عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبيّ صلى الله عليه وسلم هَدْيه وحلق رأسه . ودلّ على هذا قوله تعالى: « فَإِذَا أَمِنتُمْ » . ولم يقل : برأتم؛ والله أعلم .

الثالثــة — جمهور الناس على أن المُحْصَر بعدوّ يحِلّ حيث أُحْصِر وينحر هَدْيه إن كان ثَمّ هَدْيٌ ويَحْلِق رأسه. وقال قتادة و إبراهيم: يبعث بهَدْيه إن أمكنه، فإذا بلغ مَحِلّه (١) صار حلالاً . وقال أبو حنيفة : دم الإحصار لا يتوقّف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلغ مَحِلّه؛ وخالفه صاحباه فقالا : يتوقّف على يوم النحر، و إن نَحَـر قبله لم يُجْزِه . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان .

الرابعــة — الأكثر من العلماء على أن من أُحْصِر بعدوّ كافر أو مسلم أو سلطان حبسه فى سجن أنّ عليــه الهَدْى؛ وهو قول الشافعي ، وبه قال أشهب . وكان ابن القاسم يقول : ليس على مَن صُدّ عن البيت فى حج أو عُمْرة هَدْيٌ إلا أن يكون ساقه معه؛ وهو قول مالك . ومن حُجّتهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما نحر يوم الحُدَيْبِيَة هَدْياً قد كان أشعره (٢) وقلّده حين أحْرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهَدْىُ مَحِلّه للصدّ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنُحِر؛ لأنه كان هَدْيًا وجب بالتقليد والإشعار، وخرج لله فلم يجز الرجوع فيه، ولم ينحره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الصدّ؛ فلذلك لا يجب على مَن صُدّ عن البيت هَدْيٌ . واحتجّ الجمهور بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَحِلّ يوم الحُدَيْبِيَة ولم يَحْلِق رأسه حتى نحر الهَدْىَ؛ فدلّ ذلك على أنّ من شَرْط إحلال المُحْصَر ذبح هَدْى إن كان عنده، و إن كان فقيراً فمتى وجده وقدر عليه لا يَحِلّ إلا به ؛ وهو مقتضى قوله : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » .

(١) محله : أى الموضع والوقت الذى يحل فيهما نحره، وهو يوم النحر بمنى .
(٢) إشعار الهدى : هو أن يشق أحد جنبي السنام حتى يسيل الدم، ويجعل ذلك علامة له يعرف بها أنه هدى . وتقليده : أن يجعل فى عنقه شعار يعلم به أنه هدى .

Marfat.com

وقد قيــل : يحِلّ ويُهْدِى إذا قَدَر عليـه ؛ والقولان للشافعى ، وكذلك مَن لا يجد هَدْيًا يشتريه؛ قولان .

الخامســـة — قال عطاء وغيره : المُحْصَر بمرض كالمُحْصَر بعدوّ . وقال مالك والشافعىّ وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت و إن أقام سنين حتى يُفيق . وكذلك من أخطأ العدد أو خَفِىَ عليه الهلال . قال مالك : وأهلُ مكةَ فى ذلك كأهل الآفاق . قال : و إن آحتاج المريض إلى دواء تداوى به وآفتدى و بقى على إحرامه لا يَحِلّ من شىء حتى يبرأ من مرضه؛ فإذا برِئَ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعًا، وسعى بين الصَّفَا والمَرْوة، وحلّ من حَجّتـه أو عُمْرته . وهـذا كله قول الشافعى، وذهب فى ذلك إلى ماروى عن عمر وآبن عباس وعائشة وآبن عمر وآبن الزبير أنهم قالوا فى المُحْصَر بمرض أو خطأ العـدد : إنه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وكذلك مَن أصابه كسر أو بطن متخرق . وحُكْم من كانت هذه حاله عند مالك وأصحابه أن يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعَرَفة لمرضه، إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتحلّل بعمرة، و إن شاء أقام على إحرامه إلى قابل، و إن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نُهِى عنه الحاجّ فلا هَدْى عليه . ومِن حُجّته فى ذلك الإجماع من الصحابة على أن من أخطأ العدد أن هذا حكمه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وقال فى المكىّ إذا بقى محصورًا حتى فرغ الناس من حَجّهم : فإنه يخرج إلى الحِلّ فيُلَبِّى ويفعل ما يفعله المعتمِر ويحلّ، فإذا كان قابل حجّ وأهدى . وقال آبن شهاب الزهرىّ فى إحصار من أُحْصِر بمكة من أهلها : لا بدّ له من أن يقف بعرفة و إن نُعِش نَعْشًا . وآختار هـذا القول أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير المـالكى فقال : قول مالك فى المُحْصَر المكىّ أن عليه ماعلى الآفاق من إعادة الحج والهَدْى خلاف ظاهر الكتاب؛ لقول الله عز وجل: «ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ» . قال: والقول عندى فى هذا قول الزهرىّ فى أن الإباحة من الله عز وجل لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام أن يقيم لبعد المسافة يتعالج و إن فاته الحج؛ فأما من كان بينه و بين المسجد الحرام ما لا تقصر فى مثله الصلاة فإنه يحضر المشاهد و إن

Marfat.com

نُعش نَعْشًا لقرب المسافة بالبيت . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل مَن مُنع من الوصول الى البيت بعدو أو مرض أو ذهاب نفقة أو إضـلال راحلة أو لَدْغ هامّة فإنه يقف مكانه على إحرامه ويبعث بهَدْيه أو بثمن هَدْيه، فإذا نحر فقد حلّ من إحرامه . كذلك قال عروة وقتادة والحسن وعطاء والنَّخَعي ومجاهد وأهل العـراق؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَـدْيِ » الآية .

السادســة — قال مالك وأصحابه : لا ينفع المُحْرِم الاشتراط في الحج إذا خاف الحصر بمرض أو عدو؛ وهو قول الثوري وأبي حنيفة وأصحابهم . والاشتراط أن يقول إذا أهلّ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، ومَحِلّي حيث حبستني من الأرض . وقال أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهوية وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه؛ وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين، وحجتهم حديث ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني أردت الحج، أأشترط؟ قال : "نعم". قالت : فكيف أقول ؟ قال : "قولي لَبَّيْكَ اللَّهُـمّ لَبَّيْكَ ومَحِلّي من الأرض حيث حبستني" ، أخرجه أبو داود والدارقطني وغيرهما . قال الشافعي : لو ثبت حديث ضُباعة لم أَعْدُه ، وكان مَحِلّه حيث حبسه الله .

قلت : قد صححه غير واحد، منهم أبو حاتم البستي وابن المنذر . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال لضُباعة بنت الزبير : "حُجّي واشترطي" . وبه قال الشافعي إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنـذر : وبالقول الأول أقول . وذكره عبـد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طاوسًا وعكرمة أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضُباعة بنت الزبير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة ثقيلة(١) و إني أريد الحج، فكيف تأمرني أن أهل؟ قال : "أهلّي واشترطي أن مَحِلّي حيث حبستني" . قال : فأدركتْ(٢) . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) أي أثقلني المرض .   (٢) أي أدركت الحج ولم تحلل حتى فرغت منه .

Marfat.com

السابعـــة ـــ وآختلفت العلماء أيضا فى وجوب القضاء على من أُحصر؛ فقال مالك والشافعىّ : من أُحصر بعدوّ فلا قضاء عليـه لحجّه ولا عُمْرته ، إلّا أن يكون صَرُورة[(1)] لم يكن حَجّ ؛ فيكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه، وكذلك العمرة عند من أوجبها فرضًا . وقال أبو حنيفة : المُحْصَر بمرض أو عدوّ عليه حجة وعمرة؛ وهو قول الطبرى . قال أصحاب الرأى : إن كان مُهِلًّا بحج قضى حجة وعمرة؛ لأن إحرامه بالحج صار عمرة . و إن كان قارنًا قضى حجة وعمرتين . و إن كان مُهِـلًّا بعُمْرة قضى عُمرة . وسـواء عندهم المُحْصَر بمرض أو عدوّ ، على ما تقـدّم . وآحتجّوا بحديث ميمون بن مِهران قال : خرجت معتمرًا عامَ حاصر أهـل الشام آبنَ الزبير بمكة وبعث معى رجالٌ من قومى بهَـدْى؛ فلما آنتهيت إلى أهل الشام منعونى أن أدخل الحَرَم؛ فنحرت الهَدْى مكانى ثم حَلَلتُ ثم رجعتُ؛ فلما كان من العام المقبل خرجتْ لأقضى عمرتى ، فأتيت آبن عباس فسألته ، فقال : أبدل الهَدْى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُبدلوا الهَدى الذى نحروا عام الحُدَيْبِيَة فى عمرة القضاء . وآستدلوا بقوله عليه السلام : "مَن كُسِر أو عَرِج فقد حَلّ وعليه حجة أخرى أو عمرة أخرى". رواه عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عَرِج أو كُسِر فقـد حَلّ وعليه حجة أخرى". قالوا : فآعتمار رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء لتلك العمرة؛ قالوا : ولذلك قيل لها عمرة القضاء. وآحتج مالك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر أحدًا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشىء، ولا حُفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصِرت فيها، ولم يُنقل ذلك عنه . قالوا : وعُمرة القضاء وعُمرة القضيّة سواء ؛ و إنما قيل لها ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العـام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل ؛ فسُمِّيت بذلك عمرة القضيّة .

(1) الصرورة (بالصاد المهملة) : الذى لم يحج قط . و يطلق أيضا على من لم يتزوّج ؛ وأصـله من الصر :

Marfat.com

الثامنـــة — لم يقل أحد من الفقهاء فيمن كُسِر أو عَرِج أنه يحلّ مكانه بنفس الكسر غير أبي ثور على ظاهر حديث الحجاج بن عمرو ؛ وتابعه على ذلك داود بن علي وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحلّ من كُسر ؛ ولكن آختلفوا فيما به يحلّ ؛ فقال مالك وغيره : يحلّ بالطواف بالبيت لا يحلّه غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول: يحلّ بالنية وفعل ما يتحلّل به ؛ على ما تقدّم من مذهبه .

التاســـعة — لا خلاف بين علماء الأمصـــار أن الإحصار عامٌّ في الحج والعمرة . وقال آبن سيرين : لا إحصار في العمرة، لأنها غير مؤقّتة. وأجيب بأنها و إن كانت غير مؤقتة لكن في الصبر إلى زوال العذر ضرر، وفي ذلك نزلت الآية . وحُكي عن آبن الزبير أن من أحصره العدوّ أو المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت؛ وهذا أيضًا مخالف لنصّ الخبر عامَ الحُدَيْبِيَة .

العـاشرة — الحاصر لا يخلو أن يكون كافرًا أو مسلمًا ، فإن كان كافرًا لم يجز قتاله ولو وثق بالظهور عليه، و يتحلّل بموضعه؛ لقوله تعالى : «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» كما تقدّم. ولو سـأل الكافرُ جُعْلًا لم يجز، لأن ذلك وَهْن في الإسلام . فإن كان مسلمًا لم يجز قتاله بحـال، ووجب التحلّل؛ فإن طلب شـيئًا و يتخلّى عن الطريق جاز دفعـه، ولم يجـز القتال لمـا فيـه من إتلاف المُهَج ، وذلك لا يلزم في أداء العبادات ، فإن الدين أسمح . وأمّا بذل الجُعل فلمَا فيه من دفع أعظم الضررين بأهونهما ، ولأن الحج مما يُنفَق فيه المـال ، فيُعَدّ هذا من النفقة .

الحادية عشرة — والعدوّ الحاصر لا يخلو أن يتيقّن بقاؤه وآستيطانه لقوته وكثرته أوّلا ؛ فإن كان الأوّل حلّ المحصَر مكانه من ساعته . و إن كان الثـانى وهو مما يرجَى زواله فهـذا لا يكون محصورا حتى يبقى بينه و بين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدوّ لا يدرك فيه الحج ، فيحلّ حينئذ عند آبن القاسم وآبن الماجشون . وقال أشهب: لا يحلّ مَن حُصر عن الحج بعدوّ حتى يوم النحر، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى عَرَفة . وجه قول آبن القاسم: أن هذا وقت يأس من إكمال حجّه لعدوّ غالب، فجاز له أن يحلّ فيه ؛ أصل ذلك يوم عرفة . ووجه

Marfat.com

قول أشهب أن عليه أن يأتى من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامه[1] له إلى يوم النحر، الوقت الذى يجوز للحاج التحلل بما يمكنه] الإتيان به [فكان ذلك عليه[1]] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ «ما» فى موضع رفع؛ أى فالواجب أو فعليكم ما آستيسر . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب؛ أى فآنحروا أو فآهدوا . و « مَا آسْتَيْسَرَ » عند جمهور أهل العلم شاة . وقال آبن عمر وعائشة وآبن الزبير: «ما آستيسر» جمل دون جمل، و بقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما . وقال الحسن : أعلى الهَدْى بدنة، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة . وفى هذا دليل على ما ذهب إليه مالك من أن المحصَر بعدوّ لا يجب عليه القضاء؛ لقوله : « فَمَا آسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » ولم يذكر قضاء . والله أعلم .

الثانية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وهو ما يُهْدَى إلى بيت الله من بَدَنة أو غيرها . والعرب تقول: كم هَدِىّ بنى فلان؛ أى كم إبلهم . وقال أبو بكر: سُمّيت هَدِيًّا لأن منها ما يُهْدَى إلى بيت الله؛ فسميت بما يلحق بعضها، كما قال تعالى: «فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ[2]» . أراد فإن زنى الإماء فعلى الأَمَة منهن إذا زنت نصف ما على الحُـرّة البكر إذا زنت؛ فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار؛ لأن الإحصان يكون فى أكثرهن فسمّين بأمر يوجد فى بعضهن . والمُحْصَنة من الحرائر هى ذات الزوج، يجب عليها الرَّجْم إذا زنت، والرجم لا يتبعّض، فيكون على الأَمَة نصفـه؛ فآنكشف بهذا أن المُحْصَنات يراد بهن الأبكار لا أُولات الأزواج . وقال الفرّاء : أهل الحجاز وبنو أسد يخفّفون الهَدْى؛ قال : وتميم وسُفْلَى قيس يثقّلون فيقولون : هَدِىّ . قال الشاعر :

حلفتُ بربّ مكة والمُصَـلَّى ٭ وأعناقِ الهَـدِىِّ مُقلَّداتِ

قال : وواحد الهَدْى هدية . ويقال فى جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ فيه سبع مسائل :

(١) الزيادة عن كتاب « المنتقى » للباجى يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٣ .

Marfat.com

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ ﴾ الخطاب لجميع الأمة : مُحْصَر ومُخَلًّى . ومن العلماء من يراها للمحصَرين خاصّةً؛ أى لا تتحلّلوا من الإحرام حتى يُنْحَر الهَـدْى . والمَحِلُّ : الموضع الذى يحلّ فيـه ذبحه . فالمحِلّ فى حصر العـدوّ عند مالك والشافعى : موضع الحصر؛ ٱقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحُدَيْبِيَة؛ قال الله تعالى : « وَالْهَـدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِـلَّهُ » (١) قيـل : محبوسًا إذا كان محصَرًا ممنوعًا من الوصول إلى البيت العَتيق . وعند أبى حنيفة مَحِلّ الهَدْى فى الإحصار : الحَرَم؛ لقوله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » (٢) . وأجيب عن هذا بأن المخاطَب به الآمنُ الذى يجد الوصول إلى البيت . فأمّا المُحْصَر فخارج من قول الله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » بدليل نحر النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه هَدْيَهم بالحديبية وليست من الحَرَم . وٱحتجّوا من السُّـنة بحديث ناجية ٱبن جُندب صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ٱبعث معى الهَدْىَ فأنحره بالحرم . قال : "فكيف تصنع به" قال : أخرجه فى الأَوْدِية لا يقدرون عليه، فأنطلق به حتى أنحره فى الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح، و إنما يُنحر حيث حلّ؛ ٱقتداءً بفعله عليه السـلام بالحديبية ؛ وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأن الهَدْىَ تابع للمُهْدِى ، والمهدى حلّ بموضعه؛ فالمُهْدَى أيضا يحل معه .

الثـانيـــة — وٱختلف العلماء على ما قرّرناه فى المحصَر هل له أن يَحلِق أو يَحِلّ بشىء من الحِلّ قبل أن يَنحر ما ٱستيسر من الهَدْى؛ فقال مالك : السُّنة الثابتة التى لا ٱختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه، قال الله تعـالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ » . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا حلّ المحصَر قبل أن يَنحر هَدْيه فعليه دمٌ، و يعود حرامًا كما كان حتى يَنحر هَدْيه . و إن أصاب صيدًا قبل أن يَنْحر الهَدْىَ فعليه الجزاء . وسـواء فى ذلك الموسر والمعسر لا يحلّ أبدا حتى يَنحر أو يُنحر عنـه . قالوا : وأقلّ ما يُهديه شاة، لا عمياء ولا مقطوعة الأذنين؛ وليس هـذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض؛ لأنهم لا يجيزون لمُحْصَر بعدوّ ولا مرض أن يحلّ

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٨٣ .　　(٢) راجع ج ١٢ ص ٥٧ .

Marfat.com

حتى يَنحر هديه فى الحَرَم . و إذا أجازوا للحصر بمرض أن يبعث بهَدْى و يواعد حامله يومًا يَنحره فيه فيحلّ و يحلق فقـد أجازوا له أن يحـلّ على غير يقين من نحر الهدى و بلوغه، وحملوه على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شيء من فرائضه أن يخرج منه بالظن؛ والدليل على أن ذلك ظنّ قولهم : لو عَطِب ذلك الهَدْىُ أو ضَلّ أو سُرِق فحلّ مُرْسله وأصاب النساء وصاد أنه يعود حرامًا وعليه جزاء ما صاد؛ فأباحوا له فساد الحج وألزموه ما يلزم مَن لم يحلّ من إحرامه . وهذا ما لا خفاء فيه من التناقض وضعف المذاهب ، و إنمـا بَنَوْا مذهبهم هذا كله على قول آبن مسعود ولم ينظروا فى خلاف غيره له . وقال الشافعى فى المحصر إذا أعسر بالهدى : فيه قولان : لا يحلّ أبدا إلا بهَدْى . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتى بما قدر عليه؛ فإن لم يقدر على شيء كان عليه أن يأتى به إذا قَدَر عليه . قال الشافعى : ومن قال هذا قال : يحلّ مكانه و يذبح إذا قَدَر؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يُجْـزه أن يذبح إلا بها، و إن لم يقدر ذبح حيث قدر . قال ويقال : لا يَجزيه إلا هَدْى . و يقال : إذا لم يَجد هديًا كان عليه الإطعام أو الصيام . و إن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها إذا قدر . وقال فى العبـد : لا يجزيه إلا الصوم، تُقوّم له الشاة دراهم ثم الدراهم طعامًا ثم يصوم عن كل مُدّ يوما .

الثالثـــة — وآختلفوا إذا نحر المُحْصَر هَدْيَه هل له أن يَحلِق أَوْ لا ؛ فقالت طائفة : ليس عليه أن يحلق رأسه؛ لأنه قد ذهب عنه النُّسك . وآحتجّوا بأنه لمـا سقط عنه بالإحصار جميعُ المناسك كالطواف والسّعْى — وذلك مما يحلّ به المحرِم من إحرامه — سقط عنه سائر ما يحلّ به المحرم من أجل أنه مُحْصَر . وممن آحتجّ بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المُحْصَر تقصير ولا حِلاق . وقال أبو يوسف : يَحلِق المقصِّر، فإن لم يَحلق فلا شيء عليه . وقد حكى آبن أبى عمران عن آبن سماعة عن أبى يوسف فى نوادره أن عليه الحلاق ؛ والتقصير لابدّ له منه . وآختلف قول الشافعى فى هذه المسألة على قولين : أحدهما أن الحِلاق للمُحْصَر من النُّسك ؛ وهو قول مالك . والآخر ليس من النسك كما قال أبو حنيفة . والحجة

Marfat.com

لمالك أن الطواف بالبيت والسّعى بين الصّفا والمرْوَة قد منـع من ذلك كلّه المحصَر وقد صُدّ عنه؛ فسقط عنه ما قد حِيل بينه و بينه. وأما الحِلاق فلم يُحَلْ بينه و بينه، وهو قادر على أن يفعله، وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه. ومما يدل على أن الحلاق باق على المحصَر كما هو باقٍ على مَن قد وصل إلى البيت سواء قوله تعالى: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ»، وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمُحَلِّقين ثلاثا وللمُقَصِّرين واحدةً. وهو الحجة القاطعـة والنظر الصحيح فى هذه المسألة، وإلى هـذا ذهب مالك وأصحابه. الحِلاق عندهم نُسك على الحاجّ الذى قد أتمّ حَجّه، وعلى من فاته الحج، والمُحْصَر بعدوّ والمحْصَر بمـــرض.

الرابعـــة — روى الأئمة واللفظ لمـالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رســول الله صلى الله عليه وسـلم قال: "اللّهُمّ ٱرْحم المحلِّقين" قالوا: والمُقَصِّرين يارسول الله؛ قال: "اللّهمّ ٱرحم المحلِّقين" قالوا: والمُقَصِّرين يارســول الله؛ قال: "والمُقَصِّرين". قال علماؤنا: ففى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلِّقين ثلاثًا وللمُقَصِّرين مرّةً دليل على أن الحلق فى الحج والعُمْرة أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ» الآية، ولم يقل تُقصِّروا. وأجمع أهل العلم على أن التقصير يجزئ عن الرجال؛ إلا شيء ذُكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أوّل حَجّة يحجّها الإنسان.

الخامســـة — لم تدخل النساء فى الحَلْق، وأن سنّتهن التّقصير؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس على النساء حَلْق إنمـا عليهن التقصير". خرّجه أبو داود عن ٱبن عباس. وأجمع أهل العلم على القول به. ورأت جماعة أن حلقها رأسها من المُثْلَة، وٱختلفوا فى قدر ما تُقَصِّر من رأسها؛ فكان ٱبن عمـر والشافعى وأحمـد و إسحاق يقولون: تُقصِّر من كل قَرْن مثل الأنملة. وقال عطاء: قدر ثلاث أصابع مقبوضة. وقال قتادة: تقصر الثلث أو الربع. وفرّقت حفصة بنت سيـرين بين المرأة التى قعـدت فتأخذ الربع، وفى الشابة أشارت بأنملتها تأخذ وتقلل. وقال مالك: تأخذ من جميع قرون رأسها، وما أخذت

Marfat.com

من ذلك فهو يكفيها ؛ ولا يجزئ عنـده أن تأخذ من بعض القُـرون وتُبقى بعضًا . قال آبن المنذر : يجزى ما وقع عليه آسم تقصير ، وأحْوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أنملة .

السادســة — لا يجوز لأحد أن يحلق رأسـه حتى ينحر هديه ؛ وذلك أن سُنّة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ » ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدأ فنحر هديه ثم حلَق بعد ذلك ؛ فمن خالف هذا فقدّم الحلاق قبل النحر فلا يخلو أن يقدّمه خطأً وجهلًا أو عمدًا وقصدًا ؛ فإن كان الأوّل فلا شىء عليه ؛ رواه آبن حبيب عن آبن القاسم ، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال آبن المـاجشون : عليه الهَدْىُ ؛ وبه قال أبو حنيفة . وإن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على النحر ؛ وبه قال الشافعى . والظاهر من المذهب المنع ، والصحيح الجواز ؛ لحديث آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قيل له فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير فقال : " لَا حَرَجَ " رواه مسلم . وخرّج آبن ماجه عن عبد الله بن عمـرو أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُئل عمن ذَبح قبل أن يَحلِق ، أو حَلَق قبل أن يَذبح فقال : " لا حَرَجَ " .

السابعـــة — لا خلاف أن حلق الرأس فى الحج نُسك مندوب إليه وفى غير الحج جائز ؛ خلافًا لمن قال : إنه مُثْلة ، ولو كان مثلة ما جاز فى الحج ولا غيره ؛ لأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المُثْلة ، وقد حلق رءوس بنى جعفر بعـد أن أتاه قتله بثلاثة أيام ، ولو لم يجز الحلق ما حلقهم . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحلق رأسه . قال آبن عبد البر : وقد أجمع العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الحلق . وكفى بهذا حجة ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ آستدلّ بعض علماء الشافعية بهذه الآية على أن المُحْصَر فى أوّل الآية العدوّ لا المرض ، وهذا لا يلزم ؛ فإن معنى قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فحلَق « فَفِدْيَةٌ » ، أى فعليه فِدْية ، وإذا كان هذا واردًا فى المرض

Marfat.com

بلا خلاف كان الظاهر أن أوّل الآية ورد فيمن ورد فيه وسـطها وآخرها ، لاتساق الكلام بعضه على بعض ، وانتظام بعضه ببعض؛ ورجوع الإضمـار فى آخر الآية إلى من خوطب فى أوّلها ، فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدلّ الدليـل على العدول عنه . ومـما يدلّ على ماقلناه سبب نزول هذه الآية ، روى الأئمة واللفظ للدّارَقُطْنِيّ : «عن كعب بن عُجْرَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقَمْله يتساقط على وجهه فقـال : "أيؤذيك هوامُّك" قال نعم . فأمره أن يحلق وهو بالحُدَيْبِيَة ، ولم يبيِّن لهم أنهم يحلّون بها وهم على طمـع أن يدخلوا مكة ؛ فأنزل الله الفدية ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطعم فَرَقًا (١) بين ستة مساكين ، أو يُهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام» . خرّجه البخارى بهذا اللفظ أيضا . فقوله : «ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها» يدلّ على أنهم ما كانوا على يقين من حصر العدوّ لهم ؛ فإذًا الموجب للفِدْية الحلق للأذى والمرض ، والله أعلم .

الثانيـــة — قال الأوزاعى فى المُحْرِم يصيبه أذًى فى رأسه : إنه يجزيه أن يكفّر بالفدية قبل الحلق .

قلت : فعلى هـذا يكون المعنى « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى من رأسه فَفِدْيَةٌ مِن صيامٍ أو صَدقةٍ أَوْ نُسُكٍ» إن أراد أن يَحْلِق ، ومن قدر لحلَق ففدية ؛ فلا يفتدى حتى يحلق . والله أعلم .

الثالثـــة — قال ابن عبد البر : كلّ مَن ذَكر النُّسك فى هذا الحديث مفسَّرًا فإنما ذكره بشاة ، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء . وأمّا الصوم والإطعام فاختلفوا فيه ؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام ، وهو محفوظ صحيح فى حديث كعب بن عُجْرَة . وجاء عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام ، والإطعام عشرة مساكين ، ولم يقل أحد بهذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحـديث . وقد جاء من رواية أبى الزبير عن

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا ؛ وهى اثنا عشر مدا ، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز . وقيل : خمسة أقساط ؛ والقسط : نصف صاع . والفرق (بالسكون) : مائة وعشرون رطلا . عن نهاية ابن الأثير .

Marfat.com

مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرَة أنه حدّثه أنه كان أَهَلّ فى ذى القعـدة، وأنه قَمِل رأسه فأتى عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يوقد تحت قِدْر له؛ فقال له : "كأنك يؤذيك هوامّ رأسك" . فقال أَجَل . قال : "أحلِق وأَهْدِ هَدْيًا" . فقال : ما أجد هَدْيًا . قال : "فأطعم ستة مساكين" . فقال : ما أجد . قال : "صُم ثلاثة أيام" . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هـذا كان معناه الآختيار أوّلًا فأوّلًا؛ وعامة الآثار عن كعب بن عجرة وردت بلفظ التخيير، وهو نصّ القرآن، وعليـه مضى عمل العلماء فى كل الأمصار وفتواهم ، و بالله التوفيق .

الرابعـــة — اختلف العلماء فى الإطعام فى فِدية الأذى؛ فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام فى ذلك مُدّان بمُدّ(1) النبىّ صلى الله عليه وسـلم ؛ وهو قول أبى ثور وداود . وروى عن الثورى أنه قال فى الفِـدْية : مِن البُرّ نصفُ صاع، ومن التمر والشـعير والزبيب صاع . وروى عن أبى حنيفـة أيضا مثله، جعل نصفَ صاع بُرٍّ عِدْلَ صاع تمر. قال ابن المنذر : وهذا غلط؛ لأن فى بعض أخبار كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : "أن تصدّق بثلاثة أَصْوُع من تمر على ستة مساكين" . وقال أحمد بن حنبل مرّةً كما قال مالك والشافعى، ومرّةً قال: إن أطعم بُرًّا فمُدّ لكل مسكين، و إن أطعم تمرًا فنصف صاع .

الخامســـة — ولا يجزى أن يغدّى المساكين و يعشّيهم فى كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مُدّين بمدّ النبىّ صـلى الله عليـه وسلم . و بذلك قال مالك والثورى والشـافعى ومحمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : يجزيه أن يغدّيهم ويعشّيهم .

السادســـة — أجمع أهل العلم على أن المحرِم ممنوع من حَلق شعره وجَزّه و إتلافه بحلق أو نُورة أو غير ذلك إلا فى حالة العلّة كما نصّ على ذلك القرآن . وأجمعوا على وجوب الفِدية على مَن حلق وهو مُحْـرِم بغير علّة، وآختلفوا فيما على من فعل ذلك ، أو لبس أو تطيّب بغير عذر عامدًا ؛ فقال مالك : بئس ما فعل ! وعليه الفدية؛ وهو مخيّر فيها؛ وسواء عنده العمد فى ذلك والخطأ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفـة والشافعى وأصحابهما وأبو ثور :

(1) فى ب ، ز : « مدان .مدان بمد ... » .

Marfat.com

لبس بمخيَّر إلا فى الضرورة؛ لأن الله تعالى قال : «فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ» فإذا حلق رأسه عامدًا أو لبس عامدًا لغير عذر فليس بمخيَّر وعليه دمٌ لا غير .

السابعـــة — وآختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيًا ؛ فقال مالك رحمه الله : العامد والناسى فى ذلك سواء فى وجوب الفِدْية ؛ وهو قول أبى حنيفة والثورى والليث . وللشافعىّ فى هذه المسألة قولان : أحدهما — لا فِدْيةَ عليه ؛ وهو قول داود وإسحاق . والثانى — عليه الفدية . وأكثر العلماء يوجبون الفدية على المُحْرِم بلبس المَخِيط وتغطية الرأس أو بعضه ، ولبس الخُفَّين وتقليم الأظافر ومسّ الطِّيب وإماطة الأذى ، وكذلك إذا حلق شعر جسده أو آطّلى ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل فى ذلك ، وعليها الفِدْية فى الكُحْل وإن لم يكن فيه طِيب . وللرجل أن يكتحل بما لا طِيب فيه . وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القُفّازين ، والعمد والسهو والجهل فى ذلك ســواء ، وبعضهم يجعـل عليهما دمًا فى كل شىء من ذلك . وقال داود : لا شىء عليهما فى حلق شعر الجسد .

الثامنـــة — وآختلف العلماء فى موضع الفدية المذكورة ؛ فقال عطاء : ما كان من دمٍ فبمكّة ، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء ؛ وبنحو ذلك قال أصحاب الرأى . وعن الحسن أن الدم بمكّة . وقال طاوس والشافعىّ : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكّة ، والصوم حيث شاء ؛ لأن الصيام لا منفعة فيــه لأهل الحَرَم ، وقد قال الله سبحانه « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ »[(١)] رِفقًا لمساكين جيران بيته ؛ فالإطعام فيــه منفعة بخلاف الصيام ، والله أعلم . وقال مالك : يفعل ذلك أين شاء ؛ وهو الصحيح من القول ، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نُسُك وليس بهَدْى لنصّ القرآن والسنة ؛ والنُّسك يكون حيث شــاء ، والهَدْى لا يكون إلا بمكّة . ومن حُجته أيضا ما رواه عن يحيى بن ســعيد فى مُوَطّئه ، وفيــه : فأمر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه برأسه — يعنى رأس حسين[(٢)] — فحلق ثم نسك عنه بالسُّقْيا[(٣)] فنحر عنه بعيرا . قال مالك قال يحيى بن سعيد : وكان حسين خرج مع عثمان فى سفره [ذلك][(٤)] الى مكّة . ففى هذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣١٤ .   (٢) هو حسين بن على .   (٣) السقيا : منزل بين مكّة والمدينة ، قيل هى على يومين من المدينة .   (٤) زيادة عن الموطأ .

Marfat.com

أوضح دليل على أن فِدْيةَ الأذى جائز أن تكون بغير مكة، وجائز عند مالك فى الهَدْى إذا نُحر فى الحَرَم أن يُعطاه غير أهل الحرم؛ لأن البُغْية فيه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولما جاز الصوم أن يؤتى به بغير الحَرَم جاز إطعام غير أهل الحرم؛ ثم إن قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا » الآية، أوضح الدلالة على ما قلناه؛ فإنه تعالى لما قال : « فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » لم يقل فى موضع دون موضع ، فالظاهر أنه حيثما فعل أجزأه . وقال : « أو نسك » فسمّى ما يذبح نُسكا، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يسمّه هَدْيًا؛ فلا يلزمنا أن نرده قياسا على الهَدْى، ولا أن نعتبره بالهدى مع ما جاء فى ذلك عن علىّ . وأيضا فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمّا أمر كَعْبًا بالفدية ما كان فى الحَرَم؛ فصحّ أن ذلك كله يكون خارج الحرم؛ وقد رُوى عن الشافعىّ مثل هذا فى وجه بعيد .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ النُّسك : جمع نسيكة ، وهى الذبيحة يَنْسُكها العبد لله تعالى . ويُجمع أيضا على نسائك . والنُّسك : العبادة فى الأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَرِنَا مَنَاسِكَنَا »(1) أى مُتعبَّداتنا . وقيل : إن أصل النّسك فى اللغة الغسل ؛ ومنه نَسَك ثوبه إذا غسله ؛ فكأنّ العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيل : النّسك سبائك الفضة، كل سبيكة منها نسيكة؛ فكأن العابد خلّص نفسه من دنس الآثام وسبكها .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ قيل : معناه برأتم من المرض . وقيل : من خوفكم من العدوّ المُحْصِر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشبه باللفظ إلا أن يتخيّل الخوف من المرض فيكون الأمن منه، كما تقدّم، والله أعلم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الآية . اختلف العلماء مَن المخاطب بهذا ؟ فقال عبد الله بن الزبير وعَلْقمة و إبراهيم : الآية فى المحصَرين دون المُخلَّى سبيلهم . وصورة المتمتّع عند ابن الزبير: أن يُحْصَر الرجل حتى يفوته الحج، ثم يصل إلى البيت

(1) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

فيحلّ بعُمْرة، ثم يقضى الحج من قابل؛ فهذا قد تمتّع بمـا بين العُمْرة إلى حج القضاء . وصورة المتمتّع المُحْصَر عنـد غيره : أن يُحصر فيحلّ دون عُمرة ويؤخرها حـتى يأتى من قابل فيعتمر فى أشهر الحج ويحـج من عامه . وقال ٱبن عباس وجمـاعة : الآية فى المُحْصَرين وغيرهم ممن خُلِّيَ سـبيله .

الثالثــة ــ لا خلاف بين العلماء فى أن التمتع جائز على ما يأتى تفصيله ، وأن الإفراد جائز؛ وأن القِرَان جائز؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَضِيَ كُلًّا ولم ينكره فى حجّته على أحد من أصحابه، بل أجازه لهم ورَضِيَه منهم، صلى الله عليه وسلم . وإنمـا ٱختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمًا فى حجّته وفى الأفضل من ذلك، لٱختلاف الآثار الواردة فى ذلك؛ فقال قائلون منهم مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفْرِدًا، والإفراد أفضل من القِرَان . قال: والقِرَان أفضل من التمتع . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : " من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعُمرة فليفعل ومن أراد أن يهلّ بحج فَلْيُهِلّ ومن أراد أن يهلّ بعمرة فليُهِلّ " قالت عائشة : فأهَلّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعُمْرة والحج ، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة ؛ رواه جمـاعة عن هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة . وقال بعضهم فيـه : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " وأما أنا فأُهِلّ بالحج " وهـذا نصٌّ فى موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله . وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال : إذا جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثان مختلفان و بلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وتركا الآخر كان فى ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به . وٱستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضّله على التمتع والقِرَان؛ وهو أحد قولى الشافعيّ فى المشهور عنه . وٱستحب آخرون التمتع بالعُمرة إلى الحج، قالوا : وذلك أفضل . وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، و به قال أحمد بن حنبل، وهو أحد قولى الشافعيّ . قال الدّارَقُطْنيّ قال الشافعيّ : ٱخترت الإفراد، والتمتعُ حَسَن لا نكرهه . ٱحتجّ مَن فضّل التمتع بمـا رواه مسلم عن عمران بن حُصين

Marfat.com

قال : نزلت آية المُتْعَة فى كتاب الله — يعنى متعة الحج — وأمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم تنزل آيةٌ تنسخ [آية](١) متعة الحج ، ولم يَنْـه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ؛ قال رجل برأيه بعدُ ماشاء . وروى الترمذى حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نَوْفَل أنه سمع سعد بن أبى وقاص والضحاك ابن قيس عامَ حَجّ معاوية بن أبى سفيان وهما يذكران التمتع بالعُمْرة إلى الحج ؛ فقال الضحاك ابن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ماقلت يابن أخى ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنعناها معه ؛ هـذا حديث صحيح . وروى ابن إسحاق عن الزهرى عن سالم قال : إنى لجالس مع ابن عمر فى المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج ؛ فقال ابن عمر : حَسَن جميل . قال : فإن أباك كان ينهى عنها . فقال : ويلك ! فإن كان أبى نهى عنها وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به ، أفبقول أبى آخذ ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قُمْ عنّى . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ ، وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سالم . ورُوى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان ، وأول من نهى عنها معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هـذا حديث منكر ، وهو ليث ابن أبى سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كان ينهيان عن التمتع ، وإن كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المتعة التى نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج فى العُمْرة . فأما التمتع بالعُمْرة إلى الحج فلا . وزعم من صحّح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لينتجع البيت مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوار له فى غير الموسم ، وأراد إدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقًا لدعوة إبراهيم : « فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ »(٢) . وقال آخرون : إنمـا نهى عنها لأنه رأى النـاس مالوا إلى التمتع ليسارته وخفته ؛ فخشى أن يضيع

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٧٣ .

Marfat.com

الإفراد والقِرَان وهما سُنّتان للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وآحتج أحمـد فى آختياره التمتع بقوله صلى الله عليه وسلم : "لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ ما سقتُ الهَدْىَ و لجعلتها عُمْرة". أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القِرَان أفضل ؛ منهم أبو حنيفـة والثورى ، و به قال المُزَنى قال : لأنه يكون مؤدّيا للفرضين جميعا ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم قارنًا ، وهو قول علىّ بن أبى طالب . وآحتج من آستحب القِرَان وفضّله بمـا رواه البخارىّ عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم بوادى العَقيق (١) يقول : " أتانى الليلة آتٍ مِن ربّى فقال صلّ فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حَجّـة " . وروى الترمذىّ عن أنس قال سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : " لبّيك بعمرة وحجة " . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر: والإفراد إن شاء الله أفضل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مُفْرِدًا ، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أصح عنـه فى إفراده صلى الله عليه وسلم ، ولأن الإفراد أكثر عملا ثم العمرة عمل آخر . وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل . وقال أبو جعفر النحاس : المفرِد أكثر تعباً من المتمتّع ، لإقامتـه على الإحرام وذلك أعظم لثوابه . والوجه فى آتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا أمرنا بالتمتع والقِرَان جاز أن يقال : تمتّع رسول الله صـلى الله عليه وسلم وقَرَن ، كما قال جل وعز : « وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ (٢) » . وقال عمر بن الخطاب : رجمنا ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إنما أمر بالرجم .

قلت : الأظهر فى حجته عليه السلام القِرَانُ ، وأنه كان قارنا ، لحديث عمر وأنس المذكورين . وفى صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال : "سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يُلَبّى بالحج والعُمْرة معاً (٣)". قال بكر : فحدّثت بذلك آبن عمر فقال : لبّى بالحج وحده ؛ فلقيت أنسا فحدّثته بقول آبن عمر ؛ فقال أنس : ما تَعُدُّونا إلا صِبيانًا ! سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لبّيك عمرة وحجّا " . وفى صحيح مسلم أيضا عن آبن عباس قال : أَهَلّ النبيّ صلى الله عليه وسـلم بعمرة

(١) العقيق : موضع بينه و بين المدينة أربعة أميال . (٢) راجع ج ١٦ ص ٩٨
(٣) عبارة مسلم : « جميعا » .

Marfat.com

وأهلّ أصحابه بحجّ؛ فلم يَحِلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا مَن ساق الهَدْيَ من أصحابه، وحلّ بقيّتهم . قال بعض أهل العلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارِنًا، وإذا كان قارِنًا فقد حَجّ واعتمر، واتّفقت الأحاديث . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَهَلّ بعمرة؛ فقال من رآه : تمتّـع ثم أَهَلّ بحجّة . فقال من رآه : أَفْرَد ثم قال : "لَبَّيْكَ بحجّة وعُمرة" . فقال من سمعه : قَرَن . فاتفقت الأحاديث . والدليل على هذا أنه لم يَرْوِ أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفردت الحج ولا تمتّعت . وصح عنه أنه قال: " قرنت " كما رواه النسائى عن علىّ أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: " كيف صنعت " قلت : أهللت بإهلالك . قال " فإنى سُقتُ الهَـدْىَ وقَرَنْتُ ". قال وقال صلى الله عليـه وسلم لأصحابه : " لو استقبلتُ من أمرى كما استدبرتُ لفعلتُ كما فعلتم ولكنّى سُقتُ الهَدْىَ وقَرَنْتُ". وثبت عن حفصة قالت قلت: يا رسول الله، ما بال الناس قد حَلّوا من عمرتهم ولم تَحِلّ أنت ؟ قال : " إنى لَبّدْتُ رأسى وسُقت هَدْيِى فلا أحِلّ حتى أنحر" . وهذا يبين أنه كان قارِنًا، لأنه لو كان مُتَمتّعًا أو مُفرِدًا لم يمتنع من نَحْر الهَدْى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يَرو أحد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أفردتُ الحج" فقد تقدّم من رواية عائشة أنه قال : " وأمّا أنا فأهِلّ بالحج " . وهذا معناه : فأنا أفرد الحج ، إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة؛ثم قال: فأنا أهلّ بالحج. ومما يبين هذا ما رواه مسلم عن ابن عمر، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج؛ فلم يبق فى قوله : " فأنا أهلّ بالحج " دليل على الإفراد . وبقى قوله عليه السلام : " فإنى قرنت " . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول: "لبّيْكَ بحجة وعُمْرة معًا" نصّ صريح فى القِران لا يحتمل التأويل . وروى الدّارَقُطْنىّ عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : إنمـا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة لأنه علم أنه ليس بحاجّ بعدها .

الرابعـــة — وإذا مضى القول فى الإفراد والتمتّـع والقِران وأن كل ذلك جائز بإجماع فالتمتع بالعمرة إلى الحج عند العلماء على أربعة أوجه؛ منها وجه واحد مجتمَع عليه، والثلاثة مختلَف

Marfat.com

فيها . فأما الوجه المجتمع عليه فهو التمتع المراد بقول الله جل وعز : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » وذلك أن يُحرم الرجل بعُمْرة فى أشهر الحج — على ما يأتى بيانها — وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدم مكة ففرغ منها ثم أقام حلالا[1] بمكة إلى أن أنشأ الحج منها فى عامه ذلك قبل رجوعه إلى بلده ، أو قبل خروجه إلى ميقات أهل ناحيته ؛ فإذا فعل ذلك كان متمتعًا وعليه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما استيسر من الهدى ؛ يذبحه و يعطيه للساكين بمنًى أو بمكة ، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام ، وسبعةً إذا رجع إلى بلده — على ما يأتى — وليس له صيام يوم النحر بإجماع من المسلمين . واختلف فى صيام أيام التشريق على ما يأتى .

فهذا إجماع من أهل العلم قديمًا وحديثًا فى المُتْعة ، ورابطها ثمانية شروط : الأول — أن يجمع بين الحج والعُمْرة . الثانى — فى سفر واحد . الثالث — فى عام واحد . الرابع — فى أشهر الحج . الخامس — تقديم العمرة . السادس — ألا يَمْزُجَها ، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع — أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثامن — أن يكون من غير أهل مكة . وتأمل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع تجدها .

والوجه الثانى من وجوه التمتع بالعمرة إلى الحج : القِران ، وهو أن يجمع بينهما فى إحرام واحد فيُهِلّ بهما جميعًا فى أشهر الحج أو غيرها ؛ يقول : لبّيْكَ بحجة وعُمرة معًا ؛ فإذا قدم مكة طاف لحجته وعمرته طوافا واحدا وسعى سعيا واحدا ، عند من رأى ذلك ، وهم مالك والشافعىّ وأصحابهما و إسحاق وأبو ثور ، وهو مذهب عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبى رباح والحسن ومجاهد وطاوس ؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حَجة الوداع فأهللنا بعمرة ، الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا . أخرجه البخارى . وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يوم النَّفْر[2] ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " يَسَعُكِ طوافُكِ لحَجِّكِ وعُمرتك " فى رواية :

(١) الحلال : الخارج من الإحرام .

(٢) يوم النفر (بفتح النون وتسكين الفاء وفتحها) : اليوم الذى ينفر (ينزل) الناس فيه من منًى .

Marfat.com

"يُجْزِئُ عنك طوافُك بالصّفا والمرْوَة عن حجّك وعُمْرتك". أخرجه مسلم — أو طاف طوافين وسعى سعيين، عنـد من رأى ذلك، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى والحسن ابن صالح وآبن أبى ليْـلَى، ورُوى عن علىّ وآبن مسعود، وبه قال الشعبى وجابر بن زيد. وآحتجوا بأحاديث عن علىّ عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسَعَى لهما سعيين، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل. أخرجهما الدّارَقُطْنىّ فى سُننه وضعّفها كلها، وإنمـا جعل القران من باب التمتع؛ لأن القارن يتمتع بترك النَّصَب فى السفر إلى العُمرة مرّة وإلى الحج أخرى، ويتمتع بجمعهما، ولم يُحرم لكل واحدة من ميقاته، وضمّ الحج إلى العمرة؛ فدخل تحت قول الله عز وجل: « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ». وهـذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء فى جوازه. وأهل المدينة لا يجيزون الجمع بين العُمْرة والحج إلا بسياق الهَدْى، وهو عندهم بَدَنة لا يجوز دونها. وممـا يدلّ على أن القِران تمتّع قولُ آبن عمر: إنما جعل القران لأهل الآفاق؛ وتلا قول الله جلّ وعزّ « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » فمن كان من حاضرى المسجد الحرام وتمتّع أو قرن لم يكن عليه دمُ قِرانٍ ولا تمتّع. قال مالك: وما سمعت أن مكّيًّا قَرَن، فإن فعل لم يكن عليه هَدْىٌ ولا صيام؛ وعلى قول مالك جمهور الفقهاء فى ذلك. وقال عبد الملك بن المـاجشون: إذا قَرَن المكىّ الحج مع العمرة كان عليه دَمُ القِران من أجل أن الله إنمـا أسقط عن أهل مكة الدم والصيام فى التمتع.

والوجه الثالث من التمتع: هو الذى توعّد عليه عمر بن الخطاب وقال: مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: مُتعةُ النّساء ومُتعةُ الحج. وقد تنازع العلماء فى جواز هذا بعدُ هَلُمّ جرّا[1]، وذلك أن يُحرِم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجّه فى عمرة، ثم حلّ وأقام حلالا حتى يُهِلّ بالحج يوم التّروِية[2]. فهـذا هو الوجه الذى

(١) كذا فى الأصل. وفى المنتقى للباجى بحث طويل فى هذه المسألة، فارجع إليه.

(٢) يوم التروية: يوم قبل يوم عرفة، وهو الثامن من ذى الحجة؛ سمى به لأن الحجاج يرتوون فيه من الماء، وينهضون إلى منى ولا ماء بها.

Marfat.com

تواردت به الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيه أنه أمر أصحابه في حجّته مَن لم يكن معه هَدْيٌ ولم يَسُقْه وقـد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة. وقد أجمع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلى الله عليه وسلم ولم يدفعوا شيئا منها؛ إلا أنهم ٱختلفوا في القول بها والعمل لعللٍ فجمهورهم على ترك العمل بها؛ لأنها عندهم خصوص خصّ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه في حجّته تلك. قال أبو ذرّ: كانت المتعة لنا في الحج خاصة. أخرجه مسلم. وفي رواية عنه أنه قال: «لا تصلح المتعتان إلا لنـا خاصّةً، يعني متعة النساء ومتعة الحج». والعـلة في الخصوصية ووجه الفائدة فيها ماقاله ٱبن عباس رضي الله عنه قال: «كانوا[1] يَرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ويجعلون المُحَرّم صَفَرًا[2] ويقولون: إذا بَرَأ الدَّبَرْ، وعفا الأَثَرْ، وٱنسلخ صَفَرْ، حَلّت العمرةُ لمن ٱعتمرْ. فقَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه صبيحةَ رابعة[3] مُهِلّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً؛ فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله، أيّ الحِـلّ[4]؟ قال: "الحِلّ كله". أخرجه مسلم. وفي المُسْند الصحيح لأبي حاتم عن ٱبن عباس قال: والله ما أَعْمر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك؛ فإن هذا الحيّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عَفَا الوَبَرْ، وبَرَأَ الدَّبَرْ، وٱنسلخ صَفَرْ، حَلّت العُمْرةُ لمن ٱعتمرْ. فقد كانوا يحرّمون العُمـرة حتى ينسلخ ذو الحجة؛ فما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة إلا لينقض ذلك من قولهم. ففي هذا دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فسخ الحج في العمرة ليريهم أن العمرة في أشهر الحج لا بأس بها. وكان ذلك له ولمن معه خاصّةً؛ لأن الله عز وجل قـد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من

(١) الضمير في «كانوا» يعود الى الجاهلية. (٢) قوله: «و يجعلون المحرم صفرا». المراد الإخبار عن النسيء الذي كانوا يفعلونه وكانوا يسمون المحرم صفرا و يحلونه، وينسئون المحرم، أي يؤخرون تحريمه الى ما بعد صفر لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهم أمورهم من الغارة وغيرها. والدبر: الجرح الذي يحصل في ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب؛ فإنها كانت تدبر بالسير عليها للحج. وعفا الأثر: أي درس وٱمّحى، والمراد أثر الإبل وغيرها في سيرها، عفا أثرها لطول مرور الأيام. وقال الخطابي: المراد أثر الدبر. وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الآخر و يوقف عليها؛ لأن مرادهم السجع. عن شرح النووي لصحيح مسلم. (٣) أي صبح رابعة من ذي الحجة.

(٤) قوله: «أيّ الحل» أي هل هو الحل العام لكل ما حرم بالإحرام حتى بالجماع، أو حل خاص.

Marfat.com

دخل فيها أمرًا مطلقًا، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا إلى مالا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سُنّة مبيّنة . وآحتجوا بما ذكرناه عن أبى ذر وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا : يا رسول الله، فسخ الحج لنا خاصّةً أم للناس عامّةً ؟ قال : " بل لنا خاصة". وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام، إلا شيء يروى عن آبن عباس والحسن والسُّدّى، و به قال أحمد بن حنبل . قال أحمـد : لا أردّ تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح فى فسخ الحج فى العمرة بحديث الحارث بن بلال عن أبيه و بقول أبى ذر . قال : ولم يجمعـوا على ما قال أبو ذر ، ولو أجمعوا كان حجـة ؛ قال : وقد خالف آبن عباس أبا ذر ولم يجعله خصوصًا . وآحتج أحمد بالحديث الصحيح، حديث جابر الطويل فى الحج، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أنى آستقبلت من أمرى ما آستدبرت لم أَسُق الهَدْىَ وجعلتها عمرة " فقام سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسـول الله ، ألِعامنا هذا أم لأبَد ؟ فشبّك رسـول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدةً فى الأخرى وقال : " دخلتِ العُمْرة فى الحج — مرتين[(١)] — لا بل لأبَدِ أبَد " لفظ مسلم . وإلى هذا والله أعلم مال البخارىّ حيث ترجم « باب مَن لَبّى بالحج وسَمّاه » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدِمْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ونحن نقول : لَبّيْكَ بالحج؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عُمرة. وقال قوم : إن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإحلال كان على وجه آخر . وذكر مجاهد ذلك الوجه ، وهـو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ما كانوا فرضوا الحج أوّلا ، بل أمرهم أن يُهِلّوا مطلقًا و ينتظروا مايؤمرون به؛ وكذلك أَهَلّ علىٌّ باليمن. وكذلك كان إحرام النبيّ صلى الله عليه وسلم، و يدلّ عليه قوله عليه السـلام : " لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ ما سُقْتُ الهَـدْىَ وجعلتها عمـرة " فكأنه خرج ينتظر ما يُؤمر به و يأمر أصحابه بذلك ، و يدلّ على ذلك قوله عليه السلام : " أتانى آتٍ مِن ربّى فى هذا الوادى المبارك وقال قل حَجّة فى عمرة " .

(١) قوله : مرتين ، أى قاله مرتين .

Marfat.com

والوجه الرابع من المتعـة : مُتْعَةُ المُحْصَر وَمَن صُـدّ عن البيت ؛ ذكر يعقوب بن شيبة قال حدّثنا أبو سـلمة التَّبُوذَكيّ حدّثنا وُهَيب حدّثنا إسحاق بن سُوَيْد قال سمعت عبـد الله ابن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس، إنه والله ليس التمتع بالعُمْرة إلى الحج كما تصنعون، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجًّا فيحبسه عدوّ أو أَمْرٌ يعـذر به حتى تذهب أيام الحج، فيأتي البيت فيطوف ويسـعَى بين الصّفا والمَرْوَة، ثم يتمتّع بحلّه إلى العام المسـتقبل ثم يحج ويُهـدِى .

وقد مضى القول في حكم المُحْصَر وما للعلماء في ذلك مبيّنًا، والحمد لله .

فكان من مذهبه أن المُحْصَر لا يحلّ ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنـه الهَدىَ يوم النحر، ثم يَحْلِق ويبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلّل من حَجّه بعمل عُمرة . والذى ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعـالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَـا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » بعد قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ » ولم يفصل في حكم الإحصار بين الحج والعُمْرة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه حين أحصروا بالحُدَيْبِيَة حَلُّوا وحَلّ، وأمرهمْ بالإحلال .

وٱختلف العلمـاء أيضًا لم سُمّيَ المتمتع متمتّعـًا ؛ فقال ٱبن القاسم : لأنه تمتّـع بكل ما لا يجـوز للمُحْرِم فعله من وقت حِلّه في العمـرة إلى وقت إنشـائه الحج . وقال غيره : سُمّيَ متمتّعًا لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين، وذلك أن حقّ العمرة أن تقصد بسفر، وحقّ الحج كذلك؛ فلمـا تمتّع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذي يجمع بين الحج والعمرة في سـفر واحد، والوجه الأوّل أعم، فإنه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله، وسقط عنـه السفر لحجّه من بلده، وسقط عنه الإحرام من ميقاته في الحج . وهذا هو الوجه الذى كَرِهه عمر وٱبن مسعود، وقالا أو قال أحدهما : يأتي أحدكم مِنًى وذَكَرُه يَقْطر مَنِيًّا ؛ وقد أجمع المسلمون على جواز هذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحبّ أن يزار البيت في العام مرّتين : مرةً في الحج، ومرةً في العُمْرة . ورأى الإفراد أفضـل ؛ فكان يأمر به ويَميل إليه

Marfat.com

وينهى عن غيره آستحبابًا ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حجّكم وعمرتكم ، فإنه أتم لحج أحدكم و[أتم][1] لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج .

الخامســـة — آختلف العلماء فيمن آعتمر فى أشهر الحج ثم رجع إلى بلده ومنزله ثم حج من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس بمتمتّع ، ولا هَدْىَ عليه ولا صيام . وقال الحسن البصرى : هو متمتّع وإن رجع إلى أهـله ، حَجّ أو لم يحجّ . قال لأنه كان يقال : عمـرة فى أشهر الحج مُتْعة ؛ رواه هُشيم عن يونس عن الحسن . وقـد روى عن يونس عن الحسن : ليس عليه هَدىٌ . والصحيح القول الأوّل ، هكذا ذكر أبو عمر « حَجّ أو لم يحج » ولم يذكره آبن المنذر . قال آبن المنذر : وحجته ظاهر الكتاب قـوله عز وجل : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ » ولم يستثن : راجعًا إلى أهله وغير راجع ، ولو كان لله جل ثناؤه فى ذلك مراد لبيّنه فى كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليـه وسلم . وقد روىّ عن سعيد بن المسيّب مثل قول الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا فى هذا الباب قول لم يتابع عليه أيضا ، ولا ذهب إليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من آعتمر بعد يوم النحر فهى مُتعة . وقد روى عن طاوس قولان هما أشد شذوذًا ممـا ذكرنا عن الحسن ، أحدهما : أن من آعتمر فى غير أشهر الحج ثم أقام حتى دخل وقت الحج ، ثم حج من عامه أنه متمتع . هذا لم يقل به أحد من العلماء غيره ، ولا ذهب إليه أحد من فقهاء الأمصار . وذلك — والله أعلم — أن شهور الحج أحقّ بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة فى السنة كلّها ، والحج إنما موضعه شهور معلومة ؛ فإذا جعل أحد العمرة فى أشهر الحج فقد جعلها فى موضع كان الحج أولى به ، إلا أن الله تعـالى قد رخص فى كتابه وعلى لسان رسـوله صلى الله عليه وسلم فى عمل العمرة فى أشهر الحج للتمتّع وللقارن ولمن شاء أن يُفردها ، رحمة منه ، وجعل فيه ما آستيسر من الهَدْى . والوجه الآخر قاله فى المكىّ إذا تمتـع من مصر من الأمصار فعليـه الهَدْى ، وهـذا لم يُعرّج عليه ؛ لظاهر قوله تعـالى : « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » والتمتّع الجائز عند جماعة العلماء ما أوضحناه بالشرائط التى ذكرناها ، وبالله توفيقنا .

(١) الزيادة عن الموطأ .

Marfat.com

السادســـة -- أجمع العلماء على أن رجلًا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمرًا فى أشهر الحج عازمًا على الإقامة بهـا ثم أنشأ الحج من عامه فحجّ أنه متمتّع، عليه ما على المتمتّع . وأجمعوا فى المكىّ يجىء من وراء الميقات مُحْرِمًا بعمرة ، ثم ينشئ الحج من مكة وأهـله بمكة ولم يسكن سواها أنه لا دَمَ عليه،وكذلك إذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهلٌ وفى غيرها . وأجمعوا على أنه إن آنتقـل من مكة بأهله ثم قدمها فى أشهر الحج معتمرًا فأقام بهـا حتى حج من عامه أنه متمتّع .

السابعـــة — وآتفق مالك والشـافعى وأبو حنيفـة وأصحابهم والثورىّ وأبو ثور على أن المتمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسعى بين الصفـا والمروة ، وعليه بعـدُ أيضًا طوافٌ آخر لحجّـه وسَعْىٌ بين الصفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه يكفيه سَـعْىٌ واحد بين الصفـا والمروة ؛ والأوّل المشهور ، وهـو الذى عليه الجمهـور ، وأما طواف القارن فقد تقـــدّم .

الثامنـــة — وآختلفوا فيمن أنشأ عُمرة فى غير أشهر الحج ثم عمل لها فى أشهر الحج ؛ فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حلّ فيه؛ يريد إن كان حلّ منها فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع . وإن كان حلّ منها فى أشهر الحج فهو متمتّع إن حَجّ من عامه . وقال الشافعى : إذا طاف بالبيت فى الأشهر الحُرُم للعمرة فهو متمتّع إن حج من عامه؛ وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت، وإنما ينظر إلى كمالها، وهو قول الحسن البصرى والحكم بن عُيَيْنَة وآبن شُبْرُمة وسفيان الثورىّ . وقال قتادة وأحمـد و إسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه ؛ وروى معنى ذلك عن جابر آبن عبد الله . وقال طاوس : عمرته للشهر الذى يدخل فيه الحَرَم . وقال أصحاب الرأى : إن طاف لها ثلاثة أشواط فى رمضان، وأربعة أشواط فى شوّال فحج من عامه أنه متمتع . وإن طاف فى رمضان أربعة أشواط ، وفى شوّال ثلاثة أشواط لم يكن متمتعًا . وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء أطاف لها فى رمضان أو فى شوّال لا يكون بهذه العمرة متمتعًا ، وهو معنى قول أحمد و إسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه .

Marfat.com

التاســـعة — أجمع أهل العلم على أن لمن أهـلّ بعمرة فى أشهر الحج أن يُدخل عليها الحج ما لم يفتتح الطّواف بالبيت، ويكون قارنًا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذى أنشأ الحج والعمرة معًا. وآختلفوا فى إدخال الحج على العمرة بعد أن آفتتح الطواف؛ فقال مالك: يلزمه ذلك ويصير قارنًا ما لم يتم طوافه؛ وروى مثله عن أبى حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ فى الطواف، وقد قيل: له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يركع ركعتى الطواف. وكل ذلك قول مالك وأصحابه. فإذا طاف المعتمر شوطًا واحدًا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنًا، وسقط عنه باقى عمرته ولزمه دَمُ القِران. وكذلك من أحرم بالحج فى أضعاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه. وقال بعضهم: له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يُكمل السعى بين الصّـفَا والمروة. قال أبو عمر: وهذا كله شذوذ عند أهل العلم. وقال أشهب: إذا طاف لعمرته شوطًا واحدًا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنًا، ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يُحرم بالحج؛ وهذا قول الشافعىّ وعطاء، وبه قال أبو ثور.

العـاشرة — وآختلفوا فى إدخال العمرة على الحج؛ فقال مالك وأبو ثور وإسحاق: لاتدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة إلى الحج فليست العمرة بشىء؛ قاله مالك، وهو أحد قولى الشافعىّ، وهو المشهور عنـه بمصر. وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى القديم: يصـير قارنًا، ويكون عليه ما على القارن ما لم يَطُف لحجّتـه شوطًا واحدًا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل فى الحج. قال آبن المنذر: وبقول مالك أقول فى هذه المسألة.

الحادية عشرة — قال مالك: مَن أهدى هديًا للعمرة وهو متمتّع لم يجزه ذلك، وعليـه هَدْىٌ آخر لمُتْعته؛ لأنه إنما يصير متمتّعًا إذا أنشأ الحج بعد أن حلّ من عمرته، وحينئذ يجب عليه الهدى. وقال أبو حنيفـة وأبو ثور وإسحاق: لا يَنحر هديه إلا يوم النحر. وقال أحمـد: إن قـدم المتمتع قبل العشر طاف وسَعَى ونَحَر هَـدْيَه، وإن قدم فى العشر لم يَنحـر إلا يوم النحر؛ وقاله عطـاء. وقال الشافعىّ: يحلّ من عمرته إذا طاف وسـعَى، ساق هدياً أو لم يسقه.

Marfat.com

الثانية عشرة — وآختلف مالك والشافعيّ في المتمتع يموت؛ فقال الشافعيّ : إذا أحرم بالحج وجب عليه دَمُ المتعة إذا كان واجدًا لذلك؛ حكاه الزعفرانيّ عنـه . وروى آبن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتّع يموت بعد ما يُحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليـه هدياً ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرمى جمرة العَقَبة فلا أرى عليه هَدْياً ، ومن رمى الجمرة ثم مات فعليه الهَدْى . قيل له : من رأس المـال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المـال .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ يعنى الهَدْى ، إمّا لعدم المـال أو لعدَم الحيوان ، صام ثلاثة أيام فى الج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثةُ الأيام فى الج آخرها يوم عرفة؛ هذا قول طاوس ، وروى عن الشـعبيّ وعطاء ومجاهد والحسن البصرى والنَّخَعِيّ وسعيد بن جُبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأى ؛ حكاه آبن المنـذر . وحكى أبو ثور عن أبى حنيفة يصومها فى إحرامه بالعُمْرة ، لأنه أحد إحرامى التمتع ؛ فجاز صوم الأيام فيه كإحرامه بالج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصـوم قبل يوم التَّرْوِيَة يوماً ، ويومَ التروية ويوم عرفة . وقال آبن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يُحرِم بالج إلى يوم النحر؛ لأن الله تعالى قال : « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » فإذا صامها فى العمرة فقد أتاه قبل وقتـه فلم يجزه . وقال الشافعيّ وأحمد بن حنبل : يصومهن مابين أن يُهِلّ بالج إلى يوم عرفة ؛ وهو قول آبن عمر وعائشة؛ وروى هـذا عن مالك ، وهو مقتضى قوله فى مُوَطَّئه ؛ ليكون يوم عرفة مفطراً؛ فذلك أتبع للسُّنة ، وأقوى على العبادة ، وسيأتى . وعن أحمد أيضا : جائز أن يصوم الثلاثة قبل أن يُحرِم . وقال الثورىّ والأوزاعىّ : يصومهنّ من أوّل أيام العشر؛ وبه قال عطاء . وقال عُروة : يصومها مادام بمكة فى أيام مِنًى؛ وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة .

Marfat.com

وأيام مِنًى هى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر . روى مالك فى الموطأ عن عائشة أمّ المؤمنين أنها كانت تقول : « الصيام لمن تمتّع بالعمرة إلى الحج لمن لم يجد هَدْيًا مابين أن يُهِلّ بالحج إلى يوم عرفة ، فإن لم يصم صام أيام مِنًى » . وهذا اللفظ يقتضى صحة الصوم من وقت يحرم بالحج المتمتع إلى يوم عرفة ، وأن ذلك مبدأ ، إمّا لأنه وقت الأداء وما بعد ذلك من أيام مِنًى وقت القضاء ، على مايقوله أصحاب الشافعى ؛ وإمّا لأن فى تقديم الصيام قبل يوم النحر إبراء للذّمة ، وذلك مأمور به . والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء ، وإن كان الصوم قبلها أفضل ؛ كوقت الصلاة الذى فيه سَعة للأداء وإن كان أوّله أفضل من آخره . وهذا هو الصحيح وأنها أداء لا قضاء ؛ فإن قوله : « أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ » يحتمل أن يريد موضع الحج ، ويحتمل أن يريد أيام الحج ؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح ؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر ، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمى ؛ لأن الرمى عَمَلٌ من عمل الحج خالصًا وإن لم يكن من أركانه . وإن كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة فى أيام مِنًى ؛ كما قال عروة ، ويقوى جدا . وقد قال قوم : له أن يؤخرها ٱبتداء إلى أيام التشريق ، لأنه لا يجب عليه الصيام إلا بألا يجد الهَدْى يوم النحر . فإن قيل وهى :

الثانيـــة — فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعى فى الجديد وعليه أكثر أصحابه إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشريق لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام أيام مِنًى ؛ قيل له : إن ثبت النهى فهو عامٌ يخصَّص منه المتمتع بما ثبت فى البخارى أن عائشة كانت تصومها . وعن ٱبن عمر وعائشة قالا : لم يُرخّص فى أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهَدْى . وقال الدّارَقُطْنِيّ : إسناده صحيح ، ورواه مرفوعا عن ٱبن عمر وعائشة من طرق ثلاثة ضعّفها . وإنما رخّص فى صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها ، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال ٱبن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : إذا فاته الصوم صام بعد أيام التشريق ؛ وقاله الحسن وعطاء . قال ٱبن المنذر : وكذلك نقول .

Marfat.com

وقالت طائفة : إذا فاته الصوم فى العشر لم يجزه إلا الهَــدْى . روى ذلك عن آبن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومجاهد ، وحكاه أبو عمر عن أبى حنيفة وأصحابه عنه ؛ فتأمله .

الثالثــة — أجمع العلماء على أن الصوم لا سـبيل للتمتع إليه إذا كان يجد الهَــدْى ، وآختلفوا فيه إذا كان غير واجدٍ للهَدْى فصام ثم وَجد الهَدْى قبل إكمال صــومه ؛ فذكر آبن وهب عن مالك قال : إذا دخل فى الصوم ثم وجد هَدْيًا فأحبّ إلىّ أن يُهدِى ، فإن لم يفعل أجزاه الصيام . وقال الشافعى : يمضى فى صومه وهو فرضه ؛ وكذلك قال أبو ثور ، وهو قول الحسن وقتادة ، وآختاره آبن المنذر . وقال أبو حنيفة : إذا أيسر فى اليوم الثالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهَــدْى ، وإن صام ثلاثة أيام فى الحج ثم أيسر كان له أن يصــوم السبعة الأيام لا يرجع إلى الهَدْى ؛ وبه قال الثورىّ وآبن أبى نَجيح وحماد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على العطف . وقرأ زيد آبن علىّ « وسبعةً » بالنصب ، على معنى : وصوموا سبعةً .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعنى إلى بلادكم ؛ قاله آبن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء ، وقاله مالك فى كتاب محمد ، وبه قال الشافعىّ . قال قتادة والرّبيـع : هذه رُخصة من الله تعالى ، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه ، إلا أن يتشدّد أحد ، كما يفعل من يصــوم فى السفر فى رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصــوم فى الطريق ؛ وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها فى الطريق ، إنما هى رخصة ؛ وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : إذا رجعتم من الحج ؛ أى إذا رجعتم إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحِلّ . وقال مالك فى الكتاب : إذا رجع من مِنًى فلا بأس أن يصوم . قال آبن العربى : « إن كان تخفيفًا ورُخصةً فيجوز تقديم الرخص وترك الرفق فيها إلى العزيمة إجماعًا[1] . وإن كان ذلك توقيتًا فليس فيــه نصّ ، ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وأنها المراد فى الأغلب[2] » .

(١) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى . وفى نسخ الأصل : « بدل » .

(٢) عبارة ابن العربى : « ... ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وإنما المراد فى الأغلب والأظهر فيه أنه الحج » .

Marfat.com

قلت : بل فيه ظاهر يقرب إلى النّص ، يبيّنه ما رواه مسلم عن ٱبن عمـر قال : تمتّع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأَهْدَى، فساق معه الهَدْىَ من ذى الحُلَيْفَة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأهَلّ بالعمرة ثم أَهَلّ بالحج، وتمتّع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج؛فكان من الناس مَن أهْدَى[1] فساق الهَدْيَ، ومنهم مَن لم يُهـد ، فلما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة قال للنـاس : " مَن كان منكم أهدى فإنه لا يحلّ من شيء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فلْيَطُف بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة ولْيُقَصّر ولْيَحْلِل ثم لِيهِلّ بالحج ولْيُهْدِ فمن لم يجد هَدْياً فلْيَصُم ثلاثةَ أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله" الحديث . وهذا كالنص فى أنه لايجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهـله وبلده ، والله أعلم . وكذا قال البخارىّ فى حديث ٱبن عبـاس : « ثم أَمَرَنا عَشِيّةَ التَّروِيَة أن نُهِلّ بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطُفْنا بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة وقد تمّ حَجُّنا وعلينا الهَدْى ؛ كما قال الله تعـالى : «فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَمْصَارِكُمْ[2]» الحـديث ، وسيأتى . قال النحاس : وكان هذا إجماعًا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال: كَمَلَ يَكْمُلُ؛مثلُ نصر ينصر. وكَمُلَ يَكْمُل؛ مثلُ عَظُم يعظم . وكَمِلَ يَكْمَل؛ مِثْلُ حَمِد يحمَد؛ ثلاث لغات . وٱختلفوا فى معنى قوله :﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ وقد عُلم أنها عشرة؛ فقال الزجاج : لمـا جاز أن يتوهّم متوهّم التّخيير بين ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجع بدلا منها؛لأنه لم يقل وسبعة أخرى — أزيل ذلك بالجملة من قوله «تلك عشرة» ثم قال : « كاملة» . وقال الحسن: « كاملة» فى الثواب كمن أهدى . وقيل : « كاملة» فى البدل عن الهَدْى؛ يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل : « كاملة» فى الثواب كمن لم يتمتع . وقيـل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر ؛ أى أكملوها فذلك فرضها . وقال المبرّد : « عشرة » دلالة على ٱنقضاء العدد؛ لئـلا يتوهّم متوهّم أنه قـد بقى

---

(١) فى الأصول : « من أهل » . (٢) قوله « إلى أمصاركم » : تفسير من ٱبن عباس للرجوع .

Marfat.com

منـه شيء بعـد ذكر السبعة . وقيـل : هو توكيد ؛ كما تقول : كتبت بيدى . ومنـه قول الشاعر :

ثلاثٌ وآثنتان فهنّ خمسٌ * وسادسةٌ تميل إلى شِمامِى

فقوله « خمس » تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاثٌ بالغداة فذاك حَسْبي * وستٌّ حين يدركنى العِشاء

فذلك تسعة فى اليوم رِيِّى * وشرب المرء فوق الرىّ داء

وقوله : « كاملة » تأكيد آخر ، فيـه زيادة توصـية بصيامها وألا ينقص من عددها ؛ كما تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : اللهَ اللهَ لا تقصّر .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى إنما يجب دَمُ التمتّع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسـجد الحرام . خرّج البخارىّ « عن آبن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال : أَهَلّ المهاجرون والأنصار وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حَجّة الوداع وأهللنا ، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجعلوا إهلالكم بالحج عُمرةً إلا مَن قلد الهَدْى" طُفنا بالبيت و بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ، وقال : "مَن قلد الهَدْى فإنه لا يحِلّ حتى يبلغ الهَدْى مَحِلَّه" ثم أَمَرَنا عشيّةَ التَّرْوِيَة أن نُهِلّ بالحج ، فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقد تمّ حجنا وعلينا الهدى ، كما قال الله تعالى : « فَمَا آسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » إلى أمصاركم ، الشاةُ تَجْزِى ، فجمعوا نُسُكَيْن فى عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله فى كتابه وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأباحه للناس غير أهل مكة ، قال الله عز وجل : « ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وأشهر الحج التى ذكر الله عز وجل شوّال وذو القعدة وذو الحجة ؛ فمن تمتع فى هذه الأشهر فعليه دَمٌ أو صوم . والرَّفَثُ : الجماع والفسوق : المعاصى . والجدال : المراء .

Marfat.com

الثامنـــة — اللام فى قوله «لِمَنْ» بمعنى على؛ أى وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة؛ كقوله عليه السلام: "اشترطى لهم الولاء"، وقوله تعالى: «وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا»(١) أى فعليها. وذلك إشارة إلى التمتع والقِران للغريب عند أبى حنيفة وأصحابه؛ لامُتْعة ولا قِران لحاضرى المسجد الحرام عندهم. ومَن فعل ذلك كان عليه دَمُ جناية لا يأكل منه؛ لأنه ليس بدم تمتع. وقال الشافعى: لهم دم(٢) تمتع وقِران. والإشارة ترجع إلى الهَدْى والصيام، فلا هدى ولا صيام عليهم. وفرّق عبد الملك بن الماجشون بين التمتع والقِران، فأوجب الدم فى القِران وأسقطه فى التمتع، على ما تقدم عنه.

التاســعة — وٱختلف الناس فى حاضرى المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما ٱتصل بها من حاضريه. وقال الطبرى: بعد الإجماع على أهل الحرم. قال ٱبن عطية: وليس كما قال — فقال بعض العلماء: من كان يجب عليه الجمعة فهو حَضَرِىّ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بَدَوِىّ؛ فجعل اللفظة من الحضارة والبَداوة. وقال مالك وأصحابه هم أهل مكة وما ٱتصل بها خاصة. وعند أبى حنيفة وأصحابه: هم أهل المواقيت ومَن وراءها من كل ناحية؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ماوراءها فهم من حاضرى المسجد الحرام. وقال الشافعى وأصحابه: هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه إلى مكة، وذلك أقرب المواقيت. وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف فى تأويل الآية.

العــاشرة — قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أى فيما فرضه عليكم. وقيل: هو أمْر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدّة عقابه.

قوله تعالى: ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٢) لفظة «دم» ساقطة من ب، جـ، ز.

Marfat.com

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ لمـا ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » بيّن آختلافهما في الوقت؛ فجميع السّنة وقتٌ للإحرام بالعمرة، ووقت العمرة. وأمّا الحج فيقع في السّنة مرّةً، فلا يكون في غير هذه الأشهر . و« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » آبتداء وخبر، وفي الكلام حذف تقـديره : أشهرُ الحج أشهرٌ، أو وقت الحج أشهرٌ، أو وقت عمل الحج أشهرٌ . وقيل التقدير : الحج في أشهر . و يلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ أحد بنصبها، إلا أنه يجوز في الكلام النصب على أنه ظرف . قال الفرّاء : الأشهر رَفْعٌ ؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . قال الفرّاء : وسمعت الكسائي يقول : إنمـا الصيف شهران، و إنمـا الطيلسان[1] ثلاثة أشهر . أراد وقت الصيف، ووقت لباس الطيلسان ؛ فحذف .

الثانيـــة — وآختلف في الأشهر المعلومات؛ فقال آبن مسعود وآبن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهريّ : أشهر الحج شوّال وذو القعدة وذو الحجة كله . وقال آبن عباس والسـدّي والشعبيّ والنَّخعيّ : هي شوّال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة ؛ وروي عن آبن مسعود ، وقاله آبن الزبير، والقولان مرويان عن مالك؛ حكى الأخيرَ آبنُ حبيب، والأوّلَ آبنُ المنذر . وفائدة الفرق تعلّق الدم؛ فمن قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دمًا فيما يقع من الأعمال بعـد يوم النحر؛ لأنها في أشهر الحج . وعلى القول الأخير ينقضي الحج بيوم النحر، و يلزم الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته .

الثالثـــة — لم يسمّ الله تعالى أشهر الحج في كتابه؛ لأنها كانت معلومة عندهم . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين و بعض الثالث ، لأن بعض الشهر يتنزّل منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا، أو على عهد فلان . ولعله إنما رآه في ساعة منها؛ فالوقت يُذكر ببعضه بكله، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أيامُ مِنًى ثلاثة" . و إنما هي يومان و بعض الثالث . و يقولون : رأيتك اليوم، وجئتك العام . وقيل: لمـا كان الآثنان وما فوقهما جَمْعٌ[2] قال أشهر ؛ والله أعلم .

(١) الطيلسان : كساء مدوّر أخضر، لحمتـه أو سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ ، وهو من لباس العجم .   (٢) كذا في نسخ الأصل . ووجهه : أن اسم كان ضمير الشان ، وجملة « الاثنان وما ... » الخ في محل نصب خبر كان .

Marfat.com

الرابعـة — آختلف فى الإهـلال بالحج فى غير أشهر الحج ؛ فروى عن آبن عباس : من سُنّة الحج أن يُحرم به فى أشهر الحج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعى : من أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجـزه ذلك عن حَجّه ويكون عمـرة ؛ كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فإنه لا تجزيه وتكون نافلة؛ و به قال الشافعى وأبو ثور . وقال الأوزاعى : يَحِـلّ بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه ؛ و روى عن مالك ، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة كلها ؛ وهو قول أبى حنيفة . وقال النَّخَعِىّ : لا يَحِلّ حتى يقضى حَجّه؛ لقوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » وقد تقـدّم القول فيها . وما ذهب إليـه الشافعىّ أصح ؛ لأن تلك عامة ، وهـذه الآية خاصـة . و يحتمل أن يكون من باب النص على بعض أشخاص العموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليـه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامسـة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدًا باطنًا ، وبالإحرام فعلًا ظاهرًا ، و بالتلبية نُطقًا مسموعًا ؛ قاله آبن حبيب وأبو حنيفة فى التلبية . وليست التلبية عند الشافعى من أركان الحج؛ وهو قول الحسن بن حَىّ . قال الشافعىّ : تكفى النية فى الإحرام بالحج . وأوجب التلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصـل الفرض فى اللغة : الحَزّ والقَطْـع ؛ ومنه فُرْضَة القَوْس[(1)] والنّهر والجبل . ففرضـية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحَزّ للقِدْح . وقيل : « فَرَض » أى أبان ؛ وهذا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . و « مَن » رفع بالابتداء ومعناها الشرط ، والخبر قوله : «فَرَض» ؛ لأن « من » ليست بموصولة ؛ فكأنه قال : رَجُلٌ فَرَض . وقال : « فيهن » ولم يقل فيها؛ فقال قوم : هما سـواء فى الاستعمال . وقال المـازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لمـا لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثـة ، والقليل ليس كذلك ؛ تقـول : الأجذاع آنكسرن ، والجذوع آنكسرت؛ و يؤيد ذلك قول الله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » ثم قال : « مِنها » .

(1) فرضـة القوس (بضم أوله وسكون ثانيه) : الحز يقع عليـه الوتر . وفرضـة النهر : مشرب المياه منه . وفرضة الجبل : ما آنحدر من وسطه وجانبه .

Marfat.com

السادســـة ـ قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ قال ابن عباس وابن جُبير والسُّدّى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : الرَّفثُ الجماعُ ؛ أى فلا جماع لأنه يفسده . وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج ، وعليه حَجٌّ قابل والهَدْىُ . وقال عبد الله ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام ؛ لقوله : إذا أحللنا فعلنا بك كذا ، من غير كناية ؛ وقاله ابن عباس أيضا ، وأنشد وهو مُحْرِم :

وهنّ يمشين بنــا هَميسًا * إن تَصدقِ الطير نَنِـك لَمِيسا(١)

فقــال له صاحبه حُصين بن قيس : أترفُث وأنت مُحْــرِم ! فقال : إن الرفث ما قيــل عند النساء . وقال قوم : الرفث الإفحاش بذكر النساء ، كان ذلك بحضرتهن أم لا . وقيل : الرفث كلمةٌ جامعةٌ لمــا يريده الرجل من أهله . وقال أبو عبيدة : الرفث اللَّغا من الكلام ، وأنشد :

ورُبّ أسرابِ حجيج كُظَّــمِ * عن اللَّغا ورَفَث التكلُّــمِ

يقــال : رَفَث يَرْفُث ، بضم الفاء وكسرها . وقــرأ ابن مسعود « فلا رفوث » على الجمع . قال ابن العربى : المراد بقوله « فلا رفث » نفيه مشروعًا لا موجودًا ، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده ، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنمــا يرجع النفى إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسًا ؛ كقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ(٢) » معناه : شرعًا لا حسًّا ؛ فإنا نجد المطلّقات لا يتربّصن ؛ فعاد النفى إلى الحكم الشرعى لا إلى الوجود الحِسّى . وهذا كقوله تعالى : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٣) » إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين ـ وهو الصحيح ـ أن معناه لا يمسّه أحد منهم شرعًا ، فإن وُجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع ؛ وهذه الدقيقة هى التى فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النّهى ، وما وُجد ذلك قَطُّ ، ولا يصحّ أن يوجد ، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادّان وَصفًا » .

السابعــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ يعنى جميع المعاصى كلّها ؛ قاله ابن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال ابن عمر و جماعة : الفسوق إتيان معاصى الله عز وجل

(١) الليس : المرأة اللينة الملمس . (٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥

Marfat.com

فى حال إحرامه بالحج؛ كقتل الصيد وقَصّ الظفر وأخذ الشعر، وشبه ذلك . وقال آبن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأصنام ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » (١) . وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب ؛ ومنه قـوله : « بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ » (٢) . وقال آبن عمر أيضا : الفسوق السباب ؛ ومنه قوله عليه السلام : "سِبابُ المسلم فسوقٌ وقتالُه كفرٌ" .

والقول الأوّل أصح ، لأنه يتنـاول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسـلم : "مَن حَجّ فلم يَرْفُث ولم يفسُـق رَجع كيـوم ولدته أمــه" ، "والحج المـبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنـة" خرّجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والذى نفسى بيده ما بين السماء والأرض مِن عملٍ أفضلُ من الجهاد فى سبيل الله أو حَجّـة مبرورة لا رَفَث فيها ولا فسوق ولا جدال" . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذى لم يُعص الله تعـالى فيه أثناء أدائه . وقال الفرّاء : هو الذى لم يُعص الله سبحانه بعده؛ ذكر القولين آبن العربى رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله سبحانه فيه لا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة . وقيل غير هذا، وسيأتى .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ قُرِئَ « فلا رَفَثٌ ولا فسوقٌ » بالرفع والتنوين فيهما . وقرئا بالنصب بغير تنوين . وأجمعوا على الفتح فى « ولا جدال » ، وهو يقوّى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفى العام من الرفث والفسوق والجدال ، وليكون الكلام على نظام واحد فى عموم المنفى كلّه؛ وعلى النصب أكثر القـرّاء . والأسماء الثـلاثة فى موضع رفع (٣) ، كل واحد مع « لا » . وقوله « فى الحج » خبر عن جميعها . ووجه قراءة الرفع أن « لا » بمعـنى « ليس » فآرتفع الآسم بعدها ، لأنه آسمها ، والخبر محذوف تقـديره : فليس رفث ولا فسوق فى الحج؛ دلّ عليه «فى الحج» الثـانى الظاهر وهو خبر « لا جدال » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكون رفثٌ ولا فسوقٌ؛ أى شىء يُخرج من الحج ، ثم آبتدأ النفى فقال : ولا جدال .

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٨
(٣) هذا على أحد قولين للنحويين ، والثانى أن « لا » عاملة فى الآسم النصب وما بعدها خبر .

Marfat.com

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة، مثل قوله : « وإنْ كَانَ ذُو عُسْرةٍ » فلا تحتاج إلى خبر . ويحتمل أن تكون ناقصة والخبر محذوف، كما تقدّم آنفا . ويجوز أن يرفع « رفث وفسوق » بالابتداء، «ولا» للنفي، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع بالرفع في الثلاثة . ورُويت عن عاصم في بعض الطرق، وعليه يكون « في الحج » خبر الثلاثة، كما قلنا في قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « في الحج » خبر عن الجميع مع آختلاف القراءة، لأن خبر ليس منصوب وخبر «ولا جدال» مرفوع؛ لأن «ولاجدال» مقطوع من الأوّل وهو في موضع رفع بالآبتداء ، ولا يعمل عاملان في آسم واحد . ويجوز « فلا رَفَثَ ولا فسوقٌ » تعطفه على الموضع . وأنشد النحويون :

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلَّةً * آتسع الخَرْقُ على الرّاقِـع(١)

ويجـوز في الكلام « فلا رفثَ ولا فسوقًا ولا جدالًا في الحج » عطفًا على اللفظ على ما كان يجب في « لا » . قال الفَرّاء : ومثله :

فلا أبَ وآبنًا مثلَ مروانَ وآبنِهِ * إذا هو بالمجـدِ آرْتَدَى وتأزّرا

وقال أبو رجاء العطاردى : « فلا رفثَ ولا فسوقَ » بالنصب فيهما، « ولا جدالٌ » بالرفع والتنوين . وأنشد الأخفش :

هــذا وَجدّكم الصَّغار بعينه * لا أُمَّ لِي إن كان ذاك ولا أبُ

وقيل : إنّ معنى « فلا رفث ولا فسوق » النهى ؛ أى لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى « ولا جدال » النفي، فلما آختلفا في المعنى خولف بينهما في اللفظ . قال القشيرى : وفيه نظر، إذ قيل : « ولا جدال » نهى أيضا؛ أى لا تجادلوا، فلم فرق بينهما .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ الجِدال وزنه فعال من المجادلة ، وهى مشتقة من الجَدْل وهو الفتْل؛ ومنه زمامٌ مجدول. وقيل: هى مشتقة من الجَدَالة التى هى الأرض.

(١) البيت لأنس بن العباس السلمى . راجع الكلام عليه فى شرح الشواهد الكبرى للعيني .

Marfat.com

فكأنّ كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبـه، فيكون كن ضرب به الجَدَالة .
قال الشاعر :

قد أركب الآلة بعد الآلهْ[1] * وأترك العـاجز بالجَـدَالهْ

* مُنْعَفِرًا ليست له محاله *

العاشــرة — وآختلفت العلماء فى المعنى المراد به هنا على أقوال ستة ؛ فقال آبن مسعود وآبن عباس وعطاء : الجدال هنا أن تُمارِى مسلمًا حتى تغضبه فينتهى إلى السِّباب ؛ فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها . وقال قتادة : الجِدال السِّباب . وقال آبن زيد ومالك بن أنس : الجدال هنا أن يختلف الناس : أيّهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية حين كانت قريش تقف فى غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك ؛ فالمعنى على هذا التأويل : لا جدال فى مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم، وتقول طائفـة : الحج غدًا . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المماراة فى الشهور حسب ما كانت عليـه العرب من النَّسِىء، كانوا ربما جعلوا الحج فى غير ذى الحجة، ويقف بعضهم بجَمْع[2] وبعضهم بعَرَفة ، ويتمارون فى الصواب من ذلك .

قلت : فعلى هذين التأويلين لاجدال فى وقته ولا فى موضعه ، وهذان القولان أصح ماقيل فى تأويل قوله « وَلَا جِدَالَ » ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " الحديث، وسيأتى فى «براءة»[3] . يعنى رجع أمر الحج كما كان، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لما حجّ : " خذوا عنى مناسككم " فبيّن بهـذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمد بن كعب القُرَظِىّ : الجِدال أن تقول طائفـة : حجّنا أبرّ من حجّكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان فى الفخر بالآباء ، والله أعلم .

الحـادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللّهُ ﴾ شرط وجوابه ، والمعنى : أن الله يجازيكم على أعمالكم ، لأن المجـازاة إنمـا تقع من العالم بالشىء . وقيـل :

(١) الآلة : الحالة، والشدة . (٢) هى المزدلفة . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٣٢

Marfat.com

هو تحريض وحَثّ على حُسنِ الكلام مكان الفحش، وعلى البرّ والتقوى فى الأخلاق مكان الفسـوق والجدال . وقيـل : جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد ما نُهوا عنه .

الثانية عشرة — قوله تعالى :﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أَمْرٌ بٱتخاذ الزاد . قال ٱبن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وٱبن زيد : نزلت الآية فى طائفة من العـرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحجّ بيت الله ولا يطعمنا؛ فكانوا يبقون عالةً على النـاس، فنُهوا عن ذلك، وأُمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتّكل بعضهم على بعض بالزاد؛ فأمروا بالزاد . وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلةٌ عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مُزَينة، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : "يا عمر زوّد القوم" . وقال بعض الناس : «تزودوا» الرفيق الصالح . وقال ٱبن عطية : وهذا تخصيص ضعيف، والأولى فى معنى الآية : وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأول أصح، فإن المراد الزاد المتّخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرنا؛ كما روى البخاريّ عن ٱبن عباس قال : كان أهـل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقـولون : نحن المتوكلون ؛ فإذا قدموا مكة سألوا النـاس، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وهذا نص فيما ذكرنا، وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبيّ : الزاد التمر والسّويق. ٱبن جبير : الكعك والسويق . قال ٱبن العربيّ : « أمر الله تعالى بالتزود لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذاحرفة تَنْفُق فى الطـريق أو سائلا فلا خطاب عليـه؛ وإنما خاطب الله أهـلَ الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون : نحن المتوكلون . والتوكل له شروط، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل فى الخطاب ، فإنه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصّرون عن درجة التوكل الغافلون عن حقائقه ، والله عز وجل أعلم » . قال أبو الفرج الجَوْزيّ : وقد لَبّس إبليس على قوم يدعون التوكل، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هـذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

Marfat.com

إلى مكة على التوكل بغير زاد، فقال له أحمد : اخرج فى غير القافلة . فقال لا ، إلا معهم . قال : فعلى جُرُب[(1)] الناس توكلت ؟!

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد اتقاء المنهيات، فأمرهم أن يضموا إلى التزود التقوى . وجاء قوله « فإن خير الزاد التقوى » محمولا على المعنى؛لأن معنى «وَتَزَوَّدُوا» : اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل: يحتمل أن يكون المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهَلَكة[(2)] أو الحاجة إلى السـؤال والتكفف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشارات : ذكّرهم الله تعـالى سـفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى ؛ فإن التقـوى زاد الآخرة . قال الأعشى :

إذا أنت لم تَرْحل بزادٍ من التُّقَى * ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تزوّدَا
نَدِمتَ على ألّا تكون كمثـلـه * وأنك لم ترصُد كما كان أرْصدَا

وقال آخر :

الموتُ بحـرٌ طامحٌ موجـه * تذهب فيــه حيلة السابحِ
يا نفسُ إنى قائـلٌ فاسمعى * مقالةً مِن مُشـفق ناصحِ
لا يصحب الإنسانَ فى قبره * غيرُ التُّـقَى والعملِ الصالحِ

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّقُـونِ يَا أُولِي الْأَلْبَـابِ ﴾ خصّ أولى الألبـاب بالخطاب — وإن كان الأمر يعم الكل — لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها . والألباب جمع لُبّ، ولُبُّ كل شيء : خالصه؛ ولذلك قيل للعقل: لُبّ . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لى أحمد بن يحيى ثعلب : أتعرف فى كلام العرب شيئًا من المضاعف جاء على فَعُلَ؟ قلت نعم، حكى سيبويه عن يونس : لَبُبْتَ تَلُبّ؛ فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

(١) جرب (بضمتين) : جمع جراب وهو الوعاء . (٢) الهلكة (بالتحريك) : الهلاك .

Marfat.com

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أى إثم، وهو آسم ليس . ﴿ أَن تَبْتَغُوا ﴾ فى موضع نصب خبر ليس؛ أى فى أن تبتغوا . وعلى قول الخليل والكسائى أنها فى موضع خفض . ولما أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرَّفَث والفُسوق والجدال رخّص فى التجارة؛ المعنى: لا جناح عليكم فى أن تبتغوا فضل الله. وآبتغاءُ الفضل وَرَد فى القرآن بمعنى التجارة ، قال الله تعالى : « فَٱنْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »(1) . والدليل على صحة هذا ما رواه البخارى عن آبن عباس قال : كانت عُكَاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى المواسم(2) فنزلت : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فى مواسم الحج(3) .

الثانيــة — إذا ثبت هذا ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه،

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (2) الذى فى البخارى : « كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ... الخ » . وعكاظ : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال . وذو المجاز : خلف عرفة . ومجنة : بمرّ الظهران ، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها . وهذه أسواق للعرب ، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضى عشرين يوما من ذى القعدة ؛ فاذا رأوا هلال ذى الحجة ذهبوا من مجنة إلى ذى المجاز ، فلبثوا به ثمان ليال ، ثم يذهبون إلى عرفة . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الإسلام إلى أن كان أوّل ماترك منها سوق عكاظ فى زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة ، لما خرج الحرورى بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف خاف الناس أن ينتهبوا فتركت إلى الآن ، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك ، وآستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة . (عن شرح القسطلانى) .

(3) قوله : « فى مواسم الحج » قراءة آبن عباس ، كما نبه عليه المؤلف فى مقدّمة الكتاب ص ٨٣ ، وقال أبو حيان فى البحر : « وقرأ آبن مسعود وآبن عباس وآبن الزبير « فضلا من ربكم فى مواسم الحج » وجعل هذا تفسيرا ؛ لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمعت عليه الأمة .

Marfat.com

خلافًا للفقراء.[١] أمّا إن الحج دون تجارة أفضل؛ لعرُوّها[٢] عن شوائب الدنيا وتعلّق القلب بغيرها.
روى الدّارَقُطْنِيّ في سُننه عن أبي أمامة التّيمى قال قلت لابن عمر: إنى رجل أكرى فى هذا الوجه، و إن ناسًا يقولون: إنه لا حج لك. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله مثل هذا الذى سألتنى، فسكت حتى نزلت هذه الآية: «ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلًا من ربكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لك حجًّا".

قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ فيه ست عشرة[٣] مسألة.

الأولى — قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم﴾ أى اندفعتم. ويقال: فاض الإناء إذا امتلأ حتى ينصبّ عن نواحيه. ورجل فيّاض؛ أى مندفق بالعطاء. قال زُهير:

وأبيضَ فيّاض يداه غمامة * على مُعتَفيه ما تُغِبّ فواضله[٤]

وحديث مستفيض؛ أى شائع.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿من عرفات﴾ قراءة الجماعة «عرفاتٍ» بالتنوين؛ وكذلك لو سُمّيت امرأةٌ بمسلمات؛ لأن التنوين هنا ليس فرقا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه، وإنمـا هو بمنزلة النون فى مسلمين. قال النحاس: هذا الجيّد. وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات؛ يقول: هـذه عرفاتُ ياهـذا، ورأيت عرفاتِ يا هـذا، بكسر التاء وبغير تنوين؛ قال: لمـا جعلوها معرفة حذفوا التنوين. وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء، تشبيهًا بتاء فاطمة وطلحة. وأنشدوا:

تَنَوّرتها من أذرعاتَ وأهلُها * بيثربَ أدنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

والقـول الأوّل أحسن، وأن التنوين فيـه على حدّه فى مسلمـات؛ الكسرة مقابلة اليـاء فى مسلمين والتنوين مقابل النون. وعرفات: اسم علَم، سُمّىَ بجمع كأذرعات. وقيل: سُمّىَ

---

(١) لعله يريد بالفقراء الصوفية. (٢) كذا فى نسخ الأصل. ومقتضى الظاهر تذكير الضمير لعوده إلى الحج؛ ولعله يريد بالتأنيث هنا: الحج بمعنى العبادة. (٣) يلاحظ أن الأصول اضطربت فى العدد هنا.
(٤) الفياض: الكثير العطاء. المعتفون: الطالبون ما عنده. يقال: عفاه واعتفاه إذا أتاه يطلب معروفه. ما تغب فواضله: أى عطاياه دائمة لا تنقطع.

Marfat.com

بمـا حوله ، كأرض سباسب.[1] وقيل: سُمِّيَتْ تلك البُقعة عرفات لأن الناس يتعارفون بها. وقيل: لأن آدم لمـا هبط وقع بالهند، وحوّاء بجُدّة، فآجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عَرفة وتعارفا[2]؛ فسُمّىَ اليوم عرفة، والموضـع عرفات؛ قاله الضحاك. وقيل غير هذا لمـا تقدّم ذكره عند قوله تعالى: « وَ رِنَا مَنَاسِكَنَا[3] » . قال آبن عطية: والظاهر أن آسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع . وعرفة هى نَعمان الأراك ؛ وفيها يقول الشاعر :

تزوّدتُ من نَعمان عُودَ أراكة ✽ لهنـدٍ ولكن مَن يُبلّغُه هنـدا

وقيل : هى مأخوذة من العَرْف وهو الطِّيب؛ قال الله تعالى : « عَرَّفَهَا لَهُمْ[4] » أى طيّبها ، فهى طيبة بخلاف مِنًى التى فيهـا الفُرُوث[5] والدّماء ؛ فلذلك سُمِّيَتْ عرفات . ويوم الوقوف يوم عرفة . وقال بعضهم : أصل هذين الآسمين من الصبر؛ يقال : رجل عارف، إذا كان صابرًا خاشعًا . ويقال فى المَثَل : النّفْسُ عَرُوف وما حمّلتها تتحمّل . قال :

✽ فصبرتْ عارفةً لذلك حُرّةً[6] ✽

أى نفس صابرة .

وقال ذو الرُّمّة :

✽ عَرُوفٌ لمـا خَطّت عليه المقادرُ[7] ✽

أى صبور على قضاء الله ؛ فسُمّىَ بهذا الاسم لخضوع الحـاجّ وتذلّلهم ، وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء وآحتمال الشدائد ؛ لإقامة هذه العبادة .

الثالثـــة — أجمع أهل العلم على أن مَن وقف بعرفة يوم عَرفة قبـل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يُعتدّ بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمـام حَجّ مَن وقف بعرفة

---

(١) جاء فى اللسان مادة سبسب : « وحكى اللحيانى بلد سبسب ، وبلد سباسب ؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا ؛ ثم جمعوه على هذا » . والسبسب : القفر والمفازة . وقيل : الأرض المستوية البعيدة . (٢) كل هذا يحتاج الى التثبت . (٣) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣١ .

(٥) الفروث : جمع فرث ، وهو السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .

(٦) البيت لعنترة ، وتمامه : ✽ ترسو اذا نفس الجبان تطلّع ✽

(٧) صــــدر البيت : ✽ اذا خاف شيئا وقرته طبيعة ✽

Marfat.com

بعـد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل؛ إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بدّ أن يأخذ من الليل شيئًا . وأمّا مَن وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمـام حجّه . والحجة للجمهور مطلَق قوله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ » ولم يخصّ ليلا من نهار، وحديث عُرْوة بن مُضَرِّس قال: أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى الموقف من جَمْع، فقلت يارسول الله، جئتك من جَبَلَىْ طَىّء، أَكْلَلْتُ مَطِيّتِى، وأتعبتُ نفسى ، والله إنْ تركتُ من جبل[1] إلا وقفتُ عليه ، فهل لى مِن حَجّ يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من صلّى معنا صلاةَ الغداة بجَمْع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد قَضَى تَفَثَه[2] وتَمّ حجه". أخرجه غير واحد من الأئمة، منهم أبو داود والنسائى والدّارَقُطْنى واللفظ له. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح . وقال أبو عمر : حديث عُرْوة بن مُضَرِّس الطائى حديث ثابت صحيح ، رواه جماعة من أصحاب الشّعبى الثقات عن الشعبى عن عروة بن مضرس؛ منهم إسماعيل بن أبى خالد وداود بن أبى هنـد وزكريا بن أبى زائدة وعبـد الله بن أبى السّـفَر ومُطَرِّف ، كلهم عن الشعبيّ عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام . وحجةُ مالك من السُّنة الثابتة : حديث جابر الطويل ، خرّجه مسـلم ؛ وفيـه : فلم يزل واقفـًا حتى غَرَبت الشـمس وذهبت الصُّفرة قليلا حتى غاب القُرص . وأفعاله على الوجوب، لا سِيّمَا فى الحج وقد قال : "خذوا عنّى مناسككم".

الرابعـــة — واختلف الجمهور فيمن أفاض قبـل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج؛ فقال عطاء وسفيان الثورىّ والشافعىّ وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأى وغيرهم :

---

(١) فى ز و بعض كتب الحـديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة . قال الترمـذى فى سننه : «قوله : من حبل» اذا كان من رمل يقال له حبل ، واذا كان من حجارة يقال له جبل» . وقال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : « الحبل : المستطيل من الرمل ، وقيل : الضخم منه ؛ وجمعه حبال . وقيل : الحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل » . وقال الخطابى : الحبال ما دون الجبال فى الارتفاع .

(٢) قال صاحب التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : « وقوله : وقضى تفثه . قيل : المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك ، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عنـد حله من تقصير شعر أو حلقه وحلق العانة ونتف الإبط وغيره من خصال الفطرة ، ويدخل فى ضمن ذلك نحر البدن ، وقضاء جميع المناسك ؛ لأنه لا يقضى التفث إلا بعد ذلك ، وأصل التفث الوسخ والقذر . قاله الشوكانى » .

Marfat.com

عليه دَمٌ . وقال الحسن البصرى : عليه هَدْىٌ . وقال ابن جُريج : عليه بَدَنة . وقال مالك : عليه حجٌّ قابلٌ ، والهَــدْىُ ينحره فى حجّ قابل ، وهو كمن فاته الحج . فإن عاد إلى عرفة حتى يَدْفع بعد مغيب الشمس فقال الشافعيّ : لا شيء عليه ، وهو قول أحمد و إسحاق وداود ، و به قال الطبرى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى : لا يسقط عنه الدّم و إن رجع بعــد غروب الشمس ؛ و بذلك قال أبو ثور .

الخامســة — ولا خلاف بين العلماء فى أن الوقوف بعرفة راكبًا لمن قدر عليه أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كذلك وقف إلى أن دَفع منها بعد غروب الشمس ، وأردف أسامةَ بن زيد ؛ وهذا محفوظ فى حديث جابر الطويل وحديث علىّ ، وفى حديث ابن عباس أيضا . قال جابر : ثم ركب رســول الله صلى الله عليه وسـلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصَّخَرات[(١)] ، وجعل حَبْل المُشاة[(٢)] بين يديه واستقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفًا حتى غَرَبت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرص ، وأردف أسامةَ بن زيد خلفه ؛ الحديث . فإن لم يقدر على الركوب وقف قائمًا على رجليه داعيًا ، ما دام يقدر ، ولا حرج عليه فى الجلوس إذا لم يقدر على الوقوف ؛ وفى الوقوف راكبًا مباهاةٌ وتعظيم للحج «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»[(٣)] . قال ابن وهب فى مُوَطّئه قال لى مالك : الوقوف بعرفة على الدواب والإبل أحبّ إلىّ من أن أقف قائمًا ، قال : ومن وقف قائمًا فلا بأس أن يستريح .

السادســة — ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه السـلام كان إذا أفاض من عَرَفة يسير العَنَق[(٤)] فإذا وجد فَجْوةً نَصّ . قال هشام بن عروة : والنّص فوق العَنَق .

---

(١) الصخرات : هى صخرات مفترشات فى أسفل جبــل الرحمة ، وهو الجبــل الذى بوسط أرض عرفات .

(٢) قال ابن الأثير : « وجعل حبــل المشاة بين يديه ؛ أى طريقهــم الذى يسلكونه فى الرمل . وقيــل : أراد صفهم ومجتمعهم فى مشيهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٥٦

(٤) العنق (محركة) : سير مريع فسيح واسع للإبل والدابة . والفجوة : الموضع المتسع بين شيئين .

Marfat.com

وهكذا ينبغى على أئمة الحاج فمَن دونهم؛ لأن فى ٱستعجال السير إلى المزدلفة ٱستعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تُصلّى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة، وتلك سُنّتها؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعــة — ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها مَوْقف؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ووَقَفتُ هاهنا وعَرَفة كلها موقف " . رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفى مُوَطّأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عرفةُ كلها موقف وٱرتفعوا عن بطن عُرَنة والمزدلفةُ كلها موقف وٱرتفعوا عن بطن مُحَسِّر " . قال ٱبن عبد البر : هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله، ومن حديث ٱبن عباس ، ومن حديث علىّ بن أبى طالب، وأكثر الآثار ليس فيها ٱستثناء بطن عُرَنة من عَرَفة، وبطن مُحَسِّر من المزدلفة؛ وكذلك نقلها الحفاظ الثقات الأثبات من أهل الحديث فى حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال أبو عمر : وٱختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعُرَنة ؛ فقال مالك فيما ذكر ٱبن المنذر عنه : يُهْرِيق دماً وحجُّه تام . وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك. وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجّه فائت، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عُرَنة. وروى عن ٱبن عباس قال : من أفاض من عُرَنة فلا حج له . وهو قول ٱبن القاسم وسالم؛ وذكر ٱبن المنذر هذا القول عن الشافعىّ ، قال وبه أقول : لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يوقف به . قال ٱبن عبد البر : الأستثناء ببطن عُرَنة من عرفة لم يجئ مجيئًا تلزم حُجته، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع . وحُجة من ذهب مذهب أبى المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه فى موضع معيّن ، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين، ولا يقين مع الأختلاف . وبطن عُرَنة يقال بفتح الراء وضمها ، وهو بغربى مسجد عرفة ؛ حتى لقد قال بعض العلماء : إن الجدار الغربى من مسجد عرفة لو سقط سقط فى بطن عرنة . وحكى الباجى عن ٱبن حبيب أن عرفة فى الحِلّ، وعرنة فى الحَرَم . قال أبو عمر :

Marfat.com

وأما بطن مُحَسِّر فذكر وكيع: حدّثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أَوْضَع(١) في بطن مُحَسِّر.

الثامنــة — ولا بأس بالتعريف في المساجد يوم عَرَفة بغير عرفة، تشبيهاً بأهل عرفة. روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال: أوّل من صنع ذلك ابن عباس بالبصرة. يعني اجتماع النــاس يوم عرفة في المسجد بالبصرة. وقال موسى بن أبي عائشة: رأيت عمرو بن حُرَيث يخطب يوم عرفة وقد اجتمع الناس إليه. وقال الأثرم: سألت أحمد بن حنبل عن التعريف في الأمصار، يجتمعون يوم عرفة، فقال: أرجو ألا يكون به بأس، قد فعله غير واحد: الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع، كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة.

التاســعة — في فضل يوم عرفة. يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم، يكفّر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال؛ قال صلى الله عليه وسلم: "صوم يوم عرفة يكفر السنة المــاضية والباقية". أخرجه الصحيح. وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيّون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له". وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مامن يوم أكثر أن يُعتق الله فيه عددًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يُباهي بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء". وفي الموطأ عن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ماروئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لمــا رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر قيل: وما رأى [يوم بدر](٢) يارسول الله؟ قال: "أمَا إنه قد رأى جبريل يَزَع الملائكة(٣)". قال أبو عمر: روى هذا الحــديث أبو النضر إسمــاعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك عن إبراهيم ابن أبي عَبْلَة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن أبيه، ولم يقل في هذا الحديث عن أبيه غيره.

(١) الإيضاع: سير مثل الخبب (ضرب من العدو)؛ يقال: وضع البعير يضع وضعا، وأوضعه راكبه إيضاعا إذا حمله على سرعة السير. (٢) زيادة عن الموطأ. (٣) قوله «يزع الملائكة»: يرتبهم ويسوّيهم ويصفّهم للحرب؛ فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار.

Marfat.com

وليس بشيء ، والصـواب ما فى الموطأ . وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : حدّثنا حاتم بن نعيم التميمى أبو روح قال حدّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى قال حدّثنا عبد القاهر بن السرى السّلمى قال حدّثنى ٱبنٌ لكنانة بن عباس بن مرداس عن أبيه عن جدّه عباس بن مرداس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشيّةَ عرفة بالمغفرة والرحمة، وأكثر الدعاء فأجابه : إنى قد فعلت إلا ظـلم بعضهم بعضًا فأما ذنوبهم فيما بينى و بينهم فقد غفرتها . قال : " يارب إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيراً من مظلمته وتغفر لهذا الظالم" فلم يجبه تلك العشيّة ؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة ٱجتهد فى الدعاء فأجابه : إنى قد غفرت لهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : تبسمْتَ يارسول الله فى ساعة لم تكن تتبسم فيها؟ فقال: "تبسمت من عدوّ الله إبليس إنه لما علم أن الله قد ٱستجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل والثُّبور ويَحْثِي التراب على رأسه ويَفِرّ". وذكر أبو عبدالغنى الحسن[(١)] بن على حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج الخالص و إذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للتجار و إذا كان يوم منًى غفر الله للجمالين و إذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله للسُّؤّال ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إلٰه إلا الله إلا غفر له " . قال أبو عمر : هذا حديث غريب من حديث مالك، وليس محفوظًا عنه إلا من هذا الوجه؛ وأبو عبدالغنى لا أعرفه، وأهل العلم مازالوا يسامحون أنفسهم فى روايات الرغائب والفضائل عن كل أحد، و إنما كانوا يتشدّدون فى أحاديث الأحكام .

العاشـــرة — ٱستحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا بعرفة . روى الأئمة واللفظ للترمذى عن ٱبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفطر بعرفة، وأرسلت إليه أمّ الفضل بلبن فشرب . قال : حديث حسن صحيح . وقد روى عن ٱبن عمر قال : « حججت مع النبيّ صـلى الله

(١) فى نسخة ب : « الحسين » . والذى يروى عن عبد الرزاق بن هشام الحميرى — أحد رجال هذا السند — هو الحسن بن على الخلال أبو على ، وقيل أبو محمد .

Marfat.com

عليه وسـلم فلم يصمه — يعنى يوم عرفة — ومع أبي بكر فلم يصمه ، ومع عمر فلم يصمه ؛ والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوّى به الرجل على الدعاء، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة بعرفة » . وأسـند عن آبن عمر مثل الحديث الأوّل ، وزاد في آخره : ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنـه ؛ حديث حسن . وذكره ابن المنـذر . وقال عطاء في صوم يوم عرفة : أصوم في الشتاء ولا أصوم في الصيف . وقال يحيى الأنصارى : يجب الفطر يوم عرفة . وكان عثمان بن أبي العـاصى وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنذر : الفطر يوم عرفة بعرفات أحب إلىّ ، آتباعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والصوم بغير عرفة أحبّ إلىّ ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال : "يكفر السنة المـاضية والباقية". وقـد روينا عن عطاء أنه قال : من أفطر يوم عرفة ليتقـوّى على الدعاء فإن له مثـل أجر الصائم .

الحادية عشرة — في قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْـدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ أى آذكروه بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام . ويسمّى جَمْعًا لأنه يجمع ثَمّ المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة . وقيل : لآجتماع آدم فيه مع حوّاء، وآزدلف إليها، أى دنا منها، وبه سُمّيت المزدلفة . ويجوز أن يقال : سُمّيت بفعل أهلها؛ لأنهم يزدلفون إلى الله ، أى يتقربون بالوقوف فيها . وسُمّى مَشْعَرًا من الشّعار وهو العلامة؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به، والدعاء عنده من شعائر الحج . ووصف بالحرام لحُرْمته .

الثانيـة عشرة — ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعًا . وأجمع أهل العلم — لا آختلاف بينهم — أن السُّنة أن يَجْمع الحاج بجَمْع بين المغرب والعشاء . وآختلفوا فيمن صلاهما قبل أن يأتى جَمْعًا ؛ فقال مالك : مَن وقف مع الإمام ودَفع بدفعه فلا يصلّى حتى يأتى المزدلفة فيجمع بينهما؛ وآستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد : "الصلاة أمامك" . قال آبن حبيب : من صلّى قبل أن يأتى المزدلفة دون

Marfat.com

عذر يعيد متى ما علم، بمنزلة من قد صلى قبل الزوال؛ لقوله عليه السلام: "الصلاة أمامك". وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليه، إلا أن يصليهما قبل مغيب الشفق فيعيد العشاء وحدها ؛ وبه قال الشافعي، وهو الذى نصره القاضي أبو الحسن ، واحتج له بأن هاتين صلاتان سُنّ الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطا فى صحتهما، وإنما كان على معنى الاستحباب ؛ كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة . واختار ابن المنذر هذا القول ، وحكاه عن عطاء بن أبى رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وأحمد وإسحاق وأبى ثور ويعقوب . وحكى عن الشافعي أنه قال : لا يصلّى حتى يأتى المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثالثة عشرة — ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، [لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق](1)؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" ثم صلّاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . [ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق](1) ؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أُخّرت عنه .

الرابعة عشرة — وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ، أو كان له عذر ممن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام : إنه يصلى إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتى المزدلفة ثلث الليل فليؤخّر الصلاة حتى يأتى المزدلفة ، وإلا صلّى كل صلاة لوقتها . فجعل ابنُ المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان ، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

(١) ما بين المربعين ساقط من جـ .

Marfat.com

الخامسة عشرة — آختلف العلماء فى هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما — الأذان والإقامة . والآخر — هل يكون جمعهما متصلًا لا يفصــل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرّحال ونحو ذلك ؛ فأما الأذان والإقامة فثبت أن رســول الله صلى الله عليه وســلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد و إقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل ، و به قال أحمــد بن حنبل وأبو ثور وآبن المنــذر . وقال مالك : يصليهما بأذانين و إقامتين ، وكذلك الظهر والعصر بعرفة ؛ إلا أن ذلك فى أوّل وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيما قاله مالك حديثا مرفوعا إلى النبيّ صلى الله عليه وســلم بوجه من الوجوه ، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب ، وزاد آبنُ المنذر آبنَ مسعود . ومن الحجة لمــالك فى هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّ فى الصلاتين بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد ، و إذا كان وقتهما واحدا وكانت كل صلاة تصلّى فى وقتها لم تكن واحدة منهما أَوْلى بالأذان والإقامة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة منهما تقضى ، و إنما هى صلاة تصلّى فى وقتها ، وكلّ صلاة صُلّيت فى وقتها سُنّتها أن يؤذّن لها وتقام فى الجماعة ، وهــذا بيّن ؛ والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتُصــلَّى بأذان و إقامة ، وأما الثانية فتصلى بلا أذان ولا إقامة . قالوا : و إنما أمر عمر بالتأذين الثانى لأن الناس قد تفرّقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم . قالوا : وكذلك نقول إذا تفرّق الناس عن الإمام لعشاء أو غيره ، أمر المؤذّنين فأذّنوا ليجمعهم ، و إذا أذّن أقام . قالوا : فهذا معنى ما روى عن عمر ، وذكروا حديث عبــد الرحمن بن يزيد قال : كان آبن مسعود يجعل العشاء بالمزدلفــة بين الصلاتين ، وفى طريق أخرى وصلّى كل صلاة بأذان و إقامة ؛ ذكره عبد الرزاق . وقال آخرون : تُصلَّى الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان فى شىء منهما ؛ روى عن آبن عمر و به قال الثورى . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثورىّ عن سلمة بن كُهَيل عن سعيد بن جبير عن آبن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجَمْع ، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تُصلّى الصلاتان جميعا بين

Marfat.com

المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد و إقامة واحدة . وذهبوا فى ذلك إلى مارواه هُشيم عن يونس آبن عبيد عن سعيد بن جبير عن آبن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد و إقامة واحدة ، لم يجعل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت ، وليس بالقوى . وحكى الجُوزْجانى (١) عن محمد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة أنهما تُصلّيان بأذان واحد و إقامتين ، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط . و إلى هذا ذهب الطحاوى لحديث جابر ، وهو القول الأوّل وعليـه المعوّل . وقال آخرون : تصلّى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما . وممن قال ذلك الشافعى وأصحابه و إسحاق وأحمد بن حنبل فى أحد قوليه ، وهو قول سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد ، وآحتجوا بمـا ذكره عبد الرزاق عن معمر عن آبن شهاب عن سالم عن آبن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء ، صلّى المغرب ثلاثًا والعشـاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصـل بينهما شيئا . قال أبو عمر : والآثار عن آبن عمر فى هـذا القول من أثبت ماروى عنه فى هذا الباب ، ولكنها محتملة للتأويل ، وحديث جابر لم يُختلف فيه ، فهو أولى ؛ ولا مدخل فى هذه المسألة للنظر ، و إنمـا فيها الآتباع .

السادسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم أقيمت الصـلاة فصلى المغرب ، ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله ، ثم أقيمت الصـلاة فصلاها ، ولم يصل بينهما شيئا . فى رواية : ولم يَحُلُّوا (٢) حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حَلّوا . وقد ذكرنا آنفًا عن آبن مسعود أنه كان يجعل العشاء بين الصلاتين ؛ ففى هذا جواز الفصل بين الصلاتين بجَمْع . وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطّ عن راحلته ؟ فقال :

---

(١) الجوزجانى (بجيم وواو وزاى معجمة ثم جيم أخرى) : هذه النسبة إلى مدينة بخراسان ممـا يلى بلخ ؛ وهو أبو سليمان موسى بن سليمان ، صاحب الإمام محمد بن الحسن بن فرقد ، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

(٢) قوله : ولم يحلوا . هو من الحـل بمعنى الفك ، أو من الحلول بمعنى النزول ؛ أى لم يفكوا ما على الجمال ، أو ما نزلوا تمـام النزول الذى يريده المسافر البالغ منزله .

Marfat.com

أما الرحل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة ، وأما المحامل والزوامل فلا أرى ذلك[1] ، وليبدأ بالصلاتين ثم يحطّ عن راحلته . وقال أشهب في كتبه : له حطّ رَحْله قبل الصلاة ، وحطّه له بعد أن يصلي المغرب أحبّ إليّ ما لم يضطر إلى ذلك ؛ لمـا بدابّته من الثقل ، أو لغير ذلك من العذر . وأما التنفل بين الصلاتين فقال ابن المنذر : ولا أعلمهـم يختلفون أن من السُّنة ألا يتطوع بينهما الجامع بين الصلاتين ، وفي حديث أسامة : ولم يُصَلّ بينهما شيئا .

السابعة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفة فليس رُكْنًا في الحج عنـد الجمهور . واختلفوا فيما يجب على من لم يبِتْ بالمزدلفة ليلة النحر ولم يقف بجَمْع ؛ فقال مالك : مَن لم يبت بها فعليه دم ، ومن قام بها أكثر ليـله فلا شيء عليه ؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سُـنّة مؤكدة عند مالك وأصحابه ، لا فرض ؛ ونحوه قول عطاء والزهري وقتادة وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وأصحاب الرأي فيمن لم يبت . وقال الشافعي : إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شيء عليه ، وإن خرج قبل نصف الليل فلم يعـد إلى المزدلفة افتدى ، والفِدية شاة . وقال عكرمة والشعبي والنخعي والحسن البصري : الوقوف بالمزدلفة فرض ، ومن فاته جَمْع ولم يقف فقد فاته الحج ، ويجعل إحرامـه عُمْرة . وروى ذلك عن ابن الزبير وهو قول الأوزاعي . وروى عن الثوري مثـل ذلك ، والأصح عنـه أن الوقوف بها سُـنة مؤكدة . وقال حماد ابن أبي سليمان : من فاتته الإفاضة من جَمْع فقـد فاته الحج ؛ وليتحلّل بعمرة ثم ليحج قابلا . واحتجوا بظاهر الكتاب والسُّنة ؛ فأما الكتاب فقول الله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » ، وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : "مَن أدرك جَمْعًا فوقف مع الناس حتى يُفيض فقد أدرك ومَن لم يُدرك ذلك فلا حج له" . ذكره ابن المنذر . وروى الدَّارَقُطْنِي عن عُرْوة بن مُضَرِّس : قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهـو بجمـع فقلت له : يا رسول الله ، هل لي من حج ؟ فقال : "مَن صلّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نُفيض وقد أفاض قبل ذلك [من عرفات][2] ليلًا أو نهارًا فقد تمّ حجه وقضى تَفَثه" .

(١) عبارة الأصل . « فلا أدرى ، وليبدأ ... الخ » والتصويب عن كتاب « المنتقى » للباجي .

(٢) الزيادة عن الدارقطني .

Marfat.com

قال الشعبي : من لم يقف بجَمْع جعلها عُمرة . وأجاب مَن آحتج للجمهور بأن قال: أما الآية فلا حُجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المبيت، إذ ليس ذلك مذكورا فيها،و إنما فيها مجرد الذكر.وكلٌّ قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجّه تام، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صُلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك. قال أبو عمر: وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجَمْع ، وأن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقـد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سُـنّة . وأما حديث عروة بن مُضَرِّس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجـد فسألوه عن الحج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "الحج عرفة من أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جَمْع فقد تمّ حجه" . رواه النسائى قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا سفيان — يعني الثورى — عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن آبن يعمر الدِّيلى قال: شهدت...، فذكره. ورواه آبن عُيينة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمر الدِّيلى قال : شهدت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيامُ مِنًى ثلاثة فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه" . وقوله في حديث عروة : "مَن صلّى صلاتنا هذه" . فذكر الصلاة بالمزدلفة، فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصـلاة فلم يصل مع الإمام حتى فاتته أن حجه تام . فلمـا كان حضور الصـلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذى تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك. قالوا: فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

الثامنة عشرة(١) — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كرر الأمر تأكيدًا، كما تقول : آرْمِ آرْمِ . وقيـل : الأول أمرٌ بالذكر عند المَشْـعَر الحرام . والثـانى أمرٌ بالذكر على حكم الإخلاص. وقيل : المراد بالثانى تعديد النعمة وأمرٌ بشكرها، ثم ذكّرهم بحال ضلالهم ليظهر

(٢) يلاحظ أن الأصول اضطربت فى عدد هذه المسائل .

Marfat.com

قدر الإنعام فقال : « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » . والكاف فى « كما » نعتٌ لمصدر محذوف، و«ما» مصدرية أو كافة . والمعنى : آذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هدايةً حسنة، وآذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه . و «إنْ» مخفّفة من الثقيلة، يدلّ على ذلك دخول اللام فى الخبر؛ قاله سيبويه . الفراء : نافية بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا ؛ كما قال :

ثكلتك أمُّك إنْ قتلتَ لمسلمًا * حلّت عليك عقوبة الرحمن (١)

أو بمعنى قد؛ أى قد كنتم؛ ثلاثة أقوال . والضمير فى « قبله » عائد إلى الهدى . وقيل إلى القرآن ؛ أى ما كنتم من قبل إنزاله إلا ضالين . و إن شئت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، كناية عن غير مذكور؛ والأول أظهر والله أعلم .

قوله تعالى : ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ قيل : الخطاب للحُمْس؛ فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحَرَم، وكانوا يقولون: نحن قطين الله (٢)، فينبغى لنا أن نعظّم الحرم، ولا نعظّم شيئاً من الحِل، وكانوا مع معرفتهم و إقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لايخرجون من الحرم، و يقفون بجَمْع و يُفيضون منه و يقف الناس بعرفة؛ فقيل لهم : أفيضوا مع الجملة. و «ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب وإنما هى لعطف جملة كلام هى منها منقطعة . وقال الضحاك : المخاطَب بالآية جملة الأمة، والمراد بـ« الناس» إبراهيم عليه السلام؛ كما قال: « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ (٣)» وهو يريد واحدا. ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة ، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهى التى من المزدلفة ؛ فتجيء « ثم » على هذا الآحتمال على بابها ؛ وعلى هذا الآحتمال عوّل

(١) البيت لعاتكة بنت زيد . والرواية فيه : ... عقوبة المتعمد . راجع الكلام عليه فى الشاهد ٨٦٨ .

(٢) قطين الله : أى سكان حرمه ؛ والقطين جمع قاطن كالقطان . (٣) راجع جـ٤ ص ٢٧٩

Marfat.com

الطبرى . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة جَمْع ؛ أى ثم أفيضوا إلى مِنًى لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جَمْع .

قلت : ويكون فى هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة ؛ للأمر بالإفاضة منها ، والله أعلم . والصحيح فى تأويل هذه الآية من القولين القول الأوّل . روى الترمذىّ عن عائشة قالت : كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحُمْس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قَطِين الله ، وكان من سواهم يقفون بعرفة ؛ فأنزل الله تعالى : «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» . هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : الحُمْس هم الذين أنزل الله فيهم : « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفاضَ النَّاسُ » قالت : كان النـاس يُفيضون من عرفات ، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة ، يقولون : لانُفيض إلا من الحَرَم ؛ فلما نزلت : «أفيضوا من من حيث أفاض الناس » رجعوا إلى عرفات . وهـذا نَصٌّ صريح ، ومثـله كثير صحيح ، فلا معوّل على غيره من الأقوال . والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير «الناسى» وتأويله آدم عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »[1] . ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول الناسِ ؛ كالقاضِ والهـادِ . ابن عطية : أما جـوازه فى العربيـة فذكره سيبويه ، وأما جوازه مقروءا به فلا أحفظه . وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطنه ، ومَظانّ القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة : المعنى واستغفروا الله من فعلكم الذى كان مخالفًا لسُنّة إبراهيم فى وقوفكم بقُزَح من المزدلفة دون عرفة .

الثانيـــة — روى أبو داود عن علىّ قال : فلما أصبح — يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم — وقف على قُزَح فقال : "هذا قُزَح وهو الموقف وجَمْعٌ كلّها موقف ونَحَرتُ هاهنا ومِنًى كلها مَنْحَر فانحروا فى رحالكم". فحكم الحَجِيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة ان يبيتوا بها ثم يُغَلِّس[2] بالصبح الإمامُ بالناس ويقفون بالمشعر الحرام . وقُزَح هو الجبـل الذى يقف عليه الإمام ، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس ، ثم يدفعون قبل الطلوع ؛ على مخالفة العرب ؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون : أَشْرِقْ ثَبِير ، كيما نُغِير ؛ أى كيما نقرب

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) الغلس (محركة) : ظلمة آخر الليل .

Marfat.com

من التحلّل فنتوصّل إلى الإغارة . وروى البخارى عن عمرو بن ميمون قال (١) : شهدت عمــر صلّى بجَمْع الصبحَ ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس و يقولون : أشرق ثَبِير (٢) ، وأن النبيّ صـلى الله عليـه وسلم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى ابن عُيينة عن ابن جُريج عن محمد بن قيس بن مَخْرَمة عن آبن طاوس عن أبيه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ، فأخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وعجّل هذا ، أخّر الدفع من عرفة ، وعجّل الدفع من المزدلفة مخالفًا هَدْى المشركين .

الثالثــة ــ فإذا دَفعوا قبل الطلوع فحُكْمهم أن يدفعوا على هيئة الدّفع من عرفة ، وهو أنْ يسير الإمام بالناس سير العَنَق ، فاذا وَجد أحدهم فُرجة زاد فى العَنَق شيئًا . والعَنَق : مَشْى للدواب معروف لا يُجهل . والنَّص : فوق العَنَق ؛ كالخَبَب أو فوق ذلك . وفى صحيح مسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما وسُئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير العَنَق ، فإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ . قال هشام (٣) : والنَّص فوق العنق ، وقد تقدم . ويُستحب له أن يحرّك فى بطن مُحَسِّر قدر رَمْيَة بحجر ، فإن لم يفعل فلا حَرَج ، وهو من مِنًى . وروى الثورى (٤) وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه السَّكينة وقال لهم : "أوْضِعوا فى وادى مُحَسِّر" ، وقال لهم : " خذوا عنّى مناسككم " . فإذا أتوا مِنًى وذلك غُدوة يوم النحر ، رمَوْا جمرة العقبة بها ضُحًى رُكبانًا إن قدروا ، ولا يستحب الركوب فى غيرها من الجمار ، و يرمونها بسبع حَصَيات ، كل حصاة منها مثل حَصَى الخَذْف (٥) ــ على ما يأتى بيانه ــ فاذا رموها حل لهم كل ماحَرُم عليهم من اللباس

(١) فى ب ، ج : « النحاس » وهو خطأ .　(٢) ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية) : جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منا إلى منى . هذا هو المراد ، وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير . (عن زهر الربى للسيوطى) .　(٣) هشام هو أحد رواة سند هذا الحديث .　(٤) فى ج : « الترمذى » .

(٥) الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الإبهام والسبابة وترمى بها . والمراد الحصا الصغار .

Marfat.com

والتّفث كله، إلا النساء والطّيب والصيد عند مالك و إسحاق في رواية أبي داود الخفّاف عنه . وقال عمر بن الخطاب وآبن عمر : يَحلّ له كل شيء إلا النساء والطّيب . ومن تطيّب عند مالك بعد الرمى وقبل الإفاضة لم ير عليه فِدْية؛ لما جاء في ذلك. ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء . وقال الشافعي وأحمد و إسحاق وأبو ثور: يحل له كل شيء إلا النساء ؛ وروى عن آبن عباس .

الرابعة — ويقطع الحاجّ التَّلْبِيَة بأوّل حصاة يرميها من جمرة العقبة ؛ وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها، وهو جائز مباح عند مالك. والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة ، على ما ذكر في موطّئه عن عليّ ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل في هذه الجملة من السُّنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في عشيّة عرفةَ وغداةِ جَمْع(١) للناس حين دَفعوا : "عليكم بالسكينة" وهو كافٌّ(٢) ناقته حتى دخل مُحَسِّرًا (وهو من مِنًى) قال: "عليكم بحصى الخَذْف الذي يُرْمَى به الجمرة" ، وقال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلَبِّي حتى رمى جمرة العقبة . في رواية : والنبيّ صلى الله عليه وسلم يشير بيده كما يَخْذِف الإنسان. وفي البخاري عن عبد الله أنه آنتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره ومِنًى عن يمينه، ورمى بسبع وقال : هكذا رمى الذي أُنزلت عليه سورة البقرة صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطني عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رميتم وحلقتم وذبحتم فقد حلّ لكم كل شيء إلا النساء وحلّ لكم الثياب والطّيب" . وفي البخاري عن عائشة قالت : طيّبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديّ هاتين ، حين أحرم، ولحلّه حين أحلّ قبل أن يطوف؛ وبسطتْ يديها. وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء. والتحلّل الأكبر: طواف الإفاضة، وهو الذي يحلّ النساء وجميع محظورات الإحرام، وسيأتي ذكره في سورة «الحج»(٣) إن الله تعالى.

(١) أي صباح المزدلفة . (٢) من الكف بمعنى الإسراع . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٥١

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ قال مجاهد : المناسك الذبائح وهراقة الدماء . وقيل : هي شعائر الحج ؛ لقوله عليه السلام : " خذوا عني مناسككم " . المعنى : فإذا فعلتم منسكًا من مناسك الحج فاذكروا الله وأثنوا عليه بآلائه عندكم . وأبو عمرو يُدغم الكاف في الكاف ، وكذلك « ما سلككم » ، لأنهما مثلان . و « قضيتم » هنا بمعنى أدّيتم وفرغتم ، قال الله تعالى : « فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ »(١) أي أدّيتم الجمعة . وقد يعبّر بالقضاء عما فعل من العبادات خارج وقتها المحدود لها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كانت عادة العرب إذا قضت حجّها تقف عند الجمرة ، فتفاخر بالآباء ، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم ، وغير ذلك ؛ حتى أن الواحد منهم ليقول : اللّهُمّ إن أبي كان عَظيمَ القُبّة ، عظيمَ الجَفْنَة(٢) ، كثير المال ؛ فأعطني مثل ما أعطيته ؛ فلا يذكر غير أبيه ؛ فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر آبائهم أيام الجاهلية . هـذا قول جمهور المفسرين . وقال ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع : معنى الآية واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أَبَه أُمّه ؛ أي فاستغيثوا به والجئوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة : معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه ، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره ؛ كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضّ أحد منهم ، وتحمون جوانبهم وتَذُبّون عنهم . وقال أبو الجوزاء لابن عباس : إن الرجل اليوم لا يذكر أباه ، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله تعالى

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (٢) الجفنة : أعظم ما يكون من القصاع .

Marfat.com

إذا عُصِىَ أشـدّ من غضبك لوالديك إذا شُتِمَا . والكاف من قوله « كذكركم » فى موضع نصب؛ أى ذكرًا كذكركم . ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ قال الزجاج : « أو أشد » فى موضع خفض عطفًا على ذكركم ، المعنى : أو كأشدّ ذكرًا، ولم ينصرف لأنه « أفعل » صفة، ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى أو آذكروه أشدّ . و « ذِكْرًا » نصب على البيان .

قوله تعالى : ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ « مِن » فى موضع رفع بالابتداء، وإن شئت بالصفة. « يقول ربنا آتنا فى الدنيا » صلة « من »، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسدّى وآبن زيد : كانت العرب فى الجاهلية تدعوا فى مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فنُهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم . ويجوز أن يتناول هذا الوعيدُ المؤمنَ أيضا إذا قصَر دعواته فى الدنيا؛ وعلى هذا فـ « ما له فى الآخرة من خلاق » أى كخلاق الذى يسأل الآخرة . والخلاق النصيب . و « من » زائدة وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى من الناس، وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . وآختلف فى تأويل الحسنتين على أقوال عديدة ؛ فرُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء، وفى الآخرة الحُور العين . « وقنا عذاب النار » : المرأة السوء .

قلت : وهذا فيه بُعْد ، ولا يصح عن علىّ ، لأن النـار حقيقة فى النار المحرقة ، وعبارة المرأة عن النـار تجوّز . وقال قتادة : حسـنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المـال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نِعَم الدنيا والآخرة . وهذا هو الصحيح؛ فإن اللفظ يقتضى هذا كله، فإن « حسنة »

Marfat.com

نكرة فى سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل. وحسنة الآخرة : الجنة بإجماع . وقيل : لم يرِد حسنة واحدة، بل أراد: أعطنا فى الدنيا عطيّة حسنة؛ فحذف الاسم.

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أصل « قِنَا » أَوْقِنا ، حُذفت الواو كما حُذفت فى يَقِي ويَشِي ، لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يَعِد ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : حُذفت فرقًا بين اللازم والمتعدّى . قال محمد بن يزيد : هذا خطأ؛ لأن العرب تقول : وَرِم يَرِم ؛ فيحذفون الواو . والمراد بالآية الدعاء فى ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنة ؛ لتكون الرغبة فى معنى النجاة والفوز من الطرفين ؛ كما قال أحد الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أنا إنما أقول فى دعائى : اللّهمّ أدخلنى الجنة وعافنى من النار، ولا أدرى ما دَنْدَنَتك (١) ولا دَندنة معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حَوْلهـا (٢) نُدَندن " خرّجه أبو دواد فى سُننه وآبن ماجه أيضا .

الثالثـــة ـــ هذه الآية من جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة . قيل لأنس : أُدع الله لنـا؛ فقال : اللّهـمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . قالوا : زِدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة ! . وفى الصحيحين عن أنس قال : كان أكثر دعوة يدعو بها النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " اللّهمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " . قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بهـا، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وفى حديث عمر أنه كان يطـوف بالبيت وهو يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ماله هِجِّيرى (٣) غيرها؛ ذكره أبو عبيد. وقال آبن جريج : بلغنى أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف هذه الآية : ربنا آتنا

(١) الدندنة : أن يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم؛ وهو أرفع من الهينمة قليلا .

(٢) فى حاشية السندى على سنن آبن ماجه : «وفى بعض النسخ حولهما بالتثنية؛ فعلى الأوّل معناه حول مقالتك» أى كلامنا قريب من كلامك . وعلى الثانى معناه حول الجنة والنار؛ أى كلامنا أيضا لطلب الجنة والتعوّذ من النار» .

(٣) الهجير والهجيرى : الدأب والعادة والديدن .

Marfat.com

فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النـار » . وقال آبن عباس : إن عند الرُّكْن مَلَكًا قائمًا منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين،فقولوا : " رَبَّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". وسئل عطاء بن أبى رَبَاح عن الركن اليمانى وهو يطوف بالبيت، فقال عطاء : حدّثنى أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " وُكّل به سبعون مَلَكًا فمن قال اللّهُمّ إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار قالوا آمين " الحـديث . خرّجه آبن ماجه فى السُّنن ، وسيأتى بكماله مسندًا فى « الحج » إن شاء الله .

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّـا كَسَبُوا ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ هذا يرجع إلى الفريق الثانى ، فريق الإسلام؛ أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء ، فإن دعاء المؤمن عبادة . وقيل : يرجع «أولئك» إلى الفريقين؛ فللمؤمن ثواب عمله ودعائه ، وللكافر عقاب شركه وقصر نظره على الدنيا ؛ وهو مثل قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا[1] عَمِلُوا » .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ من سَرُع يَسْرُع — مثـل عَظُم يَعْظُم — سِرْعًا وسُرْعة؛فهو سريع . « الحساب » : مصدر كالمحاسبة؛وقد يُسمَّى المحسوب حسابا . والحساب العدّ ؛ يقال: حَسَب يحسُب حِسابًا وحِسابةً وحُسبانًا وحِسبانًا وحَسْبًا؛ أى عدّ . وأنشد آبن الأعرابى :

يا جُمْل أسقاكِ[2] بلا حِسابَهْ ✽ سُـقْيا مَليـكٍ حَسَنِ الرِّبَابَهْ[3]

✽ قَتَلْتِـنِي بالدَّلّ والخِـلَابَهْ ✽

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٧ (٢) هكذا أورده الجوهرى فى الصحاح ، وهى رواية الأصول . وفى اللسان : « وصواب إنشاده : يا جمل أسقيت » أى أسقيت بلا حساب ولا هنداز . (٣) فى الأصول : « الرباسة » والتصويب عن الصحاح واللسان . والربابة (بالكسر) : القيام على الشىء بإصلاحه وتربيته . والخلابة (بالكسر) : أن تخاب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأعذبه .

Marfat.com

والحَسَب : ماعُدّ من مفاخر المرء . و يقال : حَسَبُه دِينُه . ويقال : مالُه ؛ ومنه الحديث : "الحَسبُ المـالُ والكرمُ التقوى" رواه سَمُرة بن جُنْدب ، أخرجه آبن ماجه . وهو فى الشهاب أيضا . والرجل حسيب ، وقد حَسُب حَسابة (بالضم) ؛ مثل خَطُب خَطابة . والمعنى فى الآية : أن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج إلى عدّ ولا إلى عقـد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحسّاب ؛ ولهذا قال وقوله الحق : «وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ» ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ منزّل الكتاب سريع الحساب" الحـديث . فالله جل وعز عالم بمـا للعباد وعليهـم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل ، إذ قـد علم ما للمحاسب وعليه ، لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته . وقيـل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل : المعنى لا يشـغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم فى حالة واحدة ؛ كما قال وقوله الحق : «مَاخَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»(١) . قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر ؛ وفى الخبر "إن الله يحاسب فى قدر حلب شاة" . وقيـل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق . وقيـل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف يحاسب الله العباد فى يوم؟ قال : كما يرزقهم فى يوم! . ومعنى الحساب : تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم بما قد نسوه ؛ بدليل قوله تعالى : «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ»(٢) . وقيـل : معنى الآية سريع بمجىء يوم الحساب ؛ فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

قلت : والكل محتمل ، فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة ؛ وإنمـا يخف الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا .

الثالثـــة ــ قال آبن عباس فى قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ هو الرجل يأخذ مالًا يحـج به عن غيره ، فيكون له ثواب . وروى عنه فى هـذه الآية أن رجلا قال : يا رسول الله ، مات أبى ولم يحج ؛ أفأحج عنه ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لو كان على أبيك دَين فقضيته أما كان ذلك يجزى" . قال نعم . قال : "فدين الله أحق أن يُقضَى" . قال : فهل لى من أجر ؟ فأنزل الله تعالى : «أُولَئِـكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّـا كَسَبُوا» يعنى مَن حج

(١) راجع ج ١٤ ص ٧٨   (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٨٩

Marfat.com

مدينة العلم دار العلوم
نور آباد - فتح گڑھ - سيالكو[illegible]

عن مَيِّت كان الأجر بينه وبين الميِّت . قال أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْدَاد فى أحكامه: قول ابن عباس نحو قول مالك؛ لأن تحصيل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب النفقة، والحجة للحاج؛ فكأنه يكون له ثواب بدنه وأعماله، وللمحجوج عنه ثواب ماله و إنفاقه، ولهذا قلنا : لا يختلف فى هذا حكم من حج عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج؛ لأن الأعمال التى تدخلها النيابة لا يختلف حكم المستناب فيها بين أن يكون قد أدّى عن نفسه أو لم يؤدّ، اعتبارًا بأعمال الدين والدنيا . ألا ترى أن الذى عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدّى عن غيره و إن لم يؤدّ عن نفسه، وكذلك من لم يراع مصالحه فى الدنيا يصح أن ينوب عن غيره فى مثلها فتتم لغيره و إن لم تتم لنفسه؛ و يزوّج غيره و إن لم يزوّج نفسه .

تمّ الجزء الثانى من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث،

وأوّله قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ... ﴾ الآية .

بحمد الله وحسن توفيقه قد تم طبع الجزء الثانى (الطبعة الثانية)
من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبى بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ هـ (٢ فبراير سنة ١٩٥٤ م)

محمد خيرت الغمرى
مدير المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠/١٩٥٢/٢٠٠٠)

Marfat.com